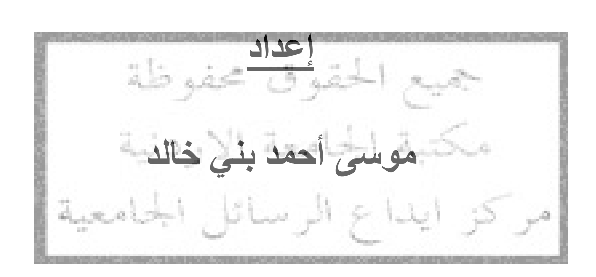
دور القبائل البربرية في العلاقات السياسية الفاطمية والأموية

بالأندلس (297-422هـ/910-1031م)



إعداد

موسى أحمد بني خالد

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد عبد القادر خريسات

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الدكتوراه في التاريخ

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

أيار 2002م

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ....

أعضاء لجنة المناقشة	**التوقيع**
الأستاذ الدكتور محمد عبدالقادر خريسات (رئيسا ومشرفا)	....
الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري (عضوا)	....
الأستاذ الدكتور صالح موسى درادكة (عضوا)	....
الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله (عضوا)	....

الإهداء

- **إلى أقدس معنيين في مفاهيم اللغة المحكية ... واللذين استمدا وحيهما من ألفاظ السور القرآنية.**
- **إلى من ائتلفت الحروف وأجمعت على التفوه بهما في كل مناسبات الحياة اليومية.**

(الأبوة والأخوة)

- إلى روح " والدي" الذي طالما انتظر ساعة الانتهاء من إنجاز هذه الدراسة ، وفارق الحياة، وأنا ما زلت في منتصف طريق إعدادها ، وكله أمل في إمكان إتمامها.
- إلى روح الحلية الربانية التي أرخصت حليها التقليدية الدنيوية ... وصارعت نوبات المرض وحدها ، بكل كبرياء وعنفوان لئلا تشعرني بمعاناتها، وكل ذلك من أجل توفير السبل لتعليم أخيها ... فهي الأم الروحية ، قرة العين وينبوع الحنان ومصدر الأمان والإلهام... التي رحلت إلى جوار ربها بعد شهر من وفاة والدي، وهي تشاطره الأمل ، وعينها ترنو إلى الانتهاء من هذه الدراسة ... شقيقتي " خضرة".

إليهما – رحمهما الله – أهدي هذا الإنجاز العلمي المتواضع

الباحث

شكر وتقدير

أسطر مجموعة كلمات تحمل في معانيها أقصى غايات الود والتقدير والعرفان إلى أولئك الذين أسهموا في هذا الإنجاز العلمي المتواضع.

فالشكر الذي يفوح منه عبق الورد، والممزوج بكل صفات البداوة الأصيلة ، الكرم والشجاعة والنبل، إلى الشيخ الإنسان والأب الحاني، والمعلم الجاد، الذي تعجز الكلمات عن وصف طيبة قلبه، وقدر عطائه ، ونبل أخلاقه ، وصدق وفائه، الأستاذ الدكتور **محمد عبد القادر خريسات،** فقد أضفى على هذا البحث ، ميزة الخصوصية، والتدقيق ، والتمحيص، وبحق، يكفيني شعور الأمان الذي لمسته من أستاذي طيلة فترة الإشراف على هذه الدراسة، بأن أجد وأجتهد وأبذل ما بوسعي ، لتوظيف أغراض المنهج العلمي، التي أرادني أن أصل إليها.

كما أقدم جزيل شكري إلى والدتي العزيزة ، وإخواني وأخواتي جميعا علي ومحمد خير ومحمود وعيسى وشيخة ، الذين لم يبخلوا عليَّ يوما، بمد يد العون والمساعدة طيلة فترة الدراسة.

وأخص بالشكر، الأخ العزيز أبا مالك وزوجته الأخت فاطمة ، اللذين كانا قريبين من النفس دائما، فهما لي خير معين على تقلبات الزمان وصعوبات العمل، وأضم إليهما بالشكر ابنيهما مالكاً وفاتن، اللذين أسقياني من منبع طموحهما وعنفوانهما وأملهما المتجدد ، ما قوى عزيمتي، وزاد من تصميمي.

كما وأتقدم بعظيم الشكر والامتنان إلى **مدير مركز البردويل للكمبيوتر** الأخ **محمد عبد القادر** على جهوده المضاعفة في إنجاز هذه الرسالة.

فإلى هؤلاء جميعا الشكر الخالص.

قائمة المحتويات

قائمة الرموز والاختصارات

1-	(ب.ت)	: بدون تاريخ
2-	(تع)	: سبحانه وتعالى
3-	ص	: صفحة
4-	(ص)	: صلى الله عليه وسلم
5-	(عم)	: عليه السلام
6-	(ط)	: طبعة
7-	(م)	: مجلد

الملخص

دور القبائل البربرية في العلاقات السياسية الفاطمية والأموية بالأندلس

(297-422هـ/910-1031م)

إعداد

موسى أحمد بني خالد

إشراف

أ. د. محمد عبد القادر خريسات

عالجت هذه الدراسة الموسومة بـ " دور القبائل البربرية في العلاقات السياسية الفاطمية والأموية بالأندلس (297-422هـ/ 910-1031م)" مرحلة مهمة من تاريخ المغرب والأندلس السياسي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وتأتي أهمية اختيار هذا الموضوع بسبب قلة الدراسات الحديثة التي عالجت هذه الفترة ، كما أن المتوافر منها لم يعط هذا الموضوع حقه من البحث والدراسة، بل تركزت الدراسات بصورة خاصة على موقف قبائل كتامة وزناتة وصنهاجة من قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب، دون الخوض في الدور السياسي لتلك القبائل فيما بين الدولتين الفاطمية والأموية ، مع أن نفوذ كلتا الدولتين على أرض المغرب ارتبط ارتباطا مباشرا بموقف قبائل البربر الثلاث من كليهما، إذ مثلت قبيلة زناتة أساس نفوذ الدولة الأموية السياسي على أراضي المغربين الأوسط والأقصى ، عبر فترات تاريخية متقطعة من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، وبالمقابل فإن قبيلتي كتامة وصنهاجة ، مثلتا الدعامة الأساسية لقيام نفوذ الدولة الفاطمية في بلاد المغرب واستمراره، حتى بعد انتقالها إلى مصر سنة 362هـ/973م.

وتشتمل هذه الدراسة على مقدمة وتحليل لأهم المصادر والمراجع وتمهيدا وأربعة فصول وخاتمة.

وقد تناول الحديث في التمهيد: بطون قبائل البربر الثلاث كتامة وزناتة وصنهاجة ومواطنها، وأبرزت فيه تأثير العداء القديم بين هذه القبائل حسب تقسيمها إلى البتر والبرانس (البدو ، والحضر) واستمرار ذلك العداء على موقف كل منها من الدولتين الفاطمية بالمغرب والأموية بالأندلس.

فلما كانت قبيلتا كتامة وصنهاجة البرنسيتان (الحضريتان) ، قد وقفتا موقف التأييد والمساندة من قيام الدولة الفاطمية ، فإن قبيلة زناتة البترية (البدوية) ، بالمقابل اتخذت جانب المعارضة لها، وأعلنت ولاءها للدولة الأموية بالأندلس نكاية بقبيلة كتامة وحلفائها الفاطميين.

وتعرضت في الفصل الأول: لموقف قبائل البربر من قيام الدولتين الأموية بالأندلس والفاطمية بالمغرب (138-297هـ/755-910م) ووقفت على أسباب الصراع الفاطمي والأموي ، والتي في مجموعها تعود إلى أسباب سياسية ومذهبية واقتصادية ، وانتقلت بعدها للحديث عن مظاهر الصراع الفاطمي والأموي وأساليبه، والتي اشتملت على مظهر التشيع أو الدعوة المذهبية ، والجاسوسية والتشهير.

وجاء الحديث في الفصل الثاني عن خلفية العلاقات السياسية بين الفاطميين والأمويين (267-375هـ/880-986م)، وكانت أبرز الحركات التي قامت بدور في خلفية العلاقات هي: ثورة عمر بن حفصون وأولاده بالأندلس، الذي أعلن ولاءه إلى الفاطميين ؛ وثورة موسى بن أبي العافية وأولاده بالمغرب الأقصى، الذي أعلن ولاءه إلى الأمويين بالأندلس، إضافة إلى علاقة الأدارسة التي اتسمت بالتذبذب بين الدولتين حسبما تتطلب مصالحهم السياسية .

أما الفصل الثالث: فقد ذكرت فيه طبيعة العلاقة العدائية التي كانت سائدة بين كتامة وزناتة بعد قيام الخلافة الفاطمية (297-361هـ/ 910-972م)، ومدى تأثير تلك العلاقة في الوضع السياسي بين الأمويين والفاطميين في عهد الخليفتين الفاطميين المهدي بالله والقائم بالله، وتعرضت لعلاقة زناتة بالقائم بالله الفاطمي وعبد الرحمن الناصر الأموي قبل اندلاع ثورة أبي يزيد الزناتي،

ومجمل تطورات أحداث هذه الثورة، وما كان من مساندة عبد الرحمن الناصر لها، وموقف زناتة من الفاطميين بعد القضاء على الثورة، وتناولت صراع قبيلتي كتامة وزناتة في عهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله ، ودورهما في العلاقات السياسية بين الدولتين الفاطمية والأموية.

وختمت الدراسة بالفصل الرابع: الذي تناولت فيه، دور قبيلتي صنهاجة وزناتة في تاريخ العلاقات السياسية بين الفاطميين والأمويين (361-422هـ/972-1031م)، وبدأت بلمحة عامة عن تاريخ قبيلة صنهاجة منذ قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب سنة 297هـ/ 910م، وحتى تولية بلكلين بن زيري على بلاد المغرب سنة 361هـ/972م ، ثم تعرضت لموقف بلكين بن زيري الصنهاجي من زناتة ، وأثره في العلاقات بين الدولتين ، وما كان أيضا إلى زيري بن عطية الزناتي من دور سياسي في عهدي المنصور وابنه باديس ابني زيري ، وتتبعت نزاع صنهاجة وزناتة وأثره في العلاقات في عهد المعز بن باديس حتى نهاية الخلافة الأموية بالأندلس سنة 422هـ/1031م.

مقدِّمة :

تحملت قبائل البربر الثلاث ، كتامة ، وزناتة ، وصنهاجة ، عبء الصراع السياسي غير المباشر بين الفاطميين والأمويين ، الذي مثل السمة البارزة في تاريخ المغرب والأندلس ، خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ويعود في مجمله إلى أسباب سياسية ومذهبية واقتصادية ، فقد كانت هذه القبائل الثلاث هي الأداة الفعلية التي استخدمتها كلتا الدولتان لضرب مصالح بعضهما، دون أن تتدخل قواتهما النظامية تدخلاً مباشراً، إذ أرادت كل دولة إسقاط نظام الدولة الأخرى من خلال اعتمادها على إحدى قبائل البربر.

وبناء على موقف قبائل البربر من كلتا الدولتين ، فقد قسمت هذه الدراسة إلى مرحلتين اساسيتين ، تمثلت المرحلة الأولى ، في صراع كتامة البرنسية حليفة الفاطميين ، وزناتة البترية حليفة الأمويين طيلة وجود الخلافة الفاطمية بالمغرب، إذ وقفت قبيلة كتامة موقف التأييد والمساندة، من قيام الخلافة الفاطمية ، وظلت هي رأس الحربة في الدفاع عن كيان الفاطميين على أرض المغرب حتى سنة 362هـ/ 973م، عندما استبدلت بها نظيرتها قبيلة صنهاجة ، إثر المفاضلة التي أجراها المعز لدين الله الفاطمي (341-365هـ/ 952-973م) ، بين جعفر بن علي الأندلسي أمير المسيلة ، وقبيلة كتامة ، وبلكين بن زيري أمير صنهاجة ، فجاءت الظروف حينها لصالح الأخير لأن يتقلد ولاية إفريقية والمغرب بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، واستأنفت قبيلة صنهاجة الدور الإيجابي الذي بدأته قبيلة كتامة في الدفاع عن مصالح الفاطميين على أرض المغرب ضد زناتة حليفة الأمويين في الأندلس.

وأما المرحلة الثانية من هذه الدراسة، فقد تمثلت في صراع صنهاجة وزناتة، من منطلق استمرار الولاء السياسي والمذهبي لكلتا الدولتين الفاطمية بمصر، والأموية بالأندلس، وكانت زناتة قد أخذت على عاتقها خط المعارضة للوجود الفاطمي بالمغرب، منذ بداية قيام دولتهم، نكاية بعدوتها التقليدية كتامة ، ولذلك انضم زعيمها آنذاك محمد بن خزر الزناتي إلى الدولة الأموية

بالأندلس سنة 317هـ/ 929م في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي (300-350هـ/ 913-961م) ، وقد تابعت زناتة دورها السلبي المناوئ للوجود الفاطمي، حتى بعد رحيلهم إلى مصر، وتمثلت تلك المعارضة في استمرار صراعها مع قبيلة صنهاجة نائبة الفاطميين على ولاية إفريقية والمغرب.

ومما لاشك فيه، أن غالبية المؤرخين المحدثين ، قد أشاروا إلى دور قبائل البربر في العلاقات السياسية غير المباشرة بين الأمويين والفاطميين ، إلا أن أيا منهم لم يفرد دراسة خاصة لمعالجة هذا الموضوع الذي يعد الأهم ، من بين الموضوعات التي تناولت تاريخ المغرب والأندلس في هذه الحقبة التاريخية، إذ سارت معظم الدراسات السابقة التي تحدثت عن تلك العلاقة ، بمسار خاص، هو عدم الخوض في دور قبائل البربر في العلاقة السياسية التي قامت بها بين الدولتين الأموية والفاطمية ، وربما يعود ذلك إلى صعوبة الموضوع الذي يشتمل على مفارقة في كمية المعلومات لمن أراد دراسته ، فمن ناحية، فإن الروايات التاريخية التي تتحدث عن دور البربر بين الفاطميين والأمويين قليلة ونادرة ، ولا تكاد تشفي الغليل ، ومن ناحية أخرى، فإن الروايات التي تتحدث عن صراع قبائل البربر فيما بينها على أرض المغرب ، كثيرة وطويلة، ويكاد الدارس يشعر بالملل نظرا لحجم المادة التي يمكن أن يجمعها عن هذا الصراع.

ولذلك ، فإن معظم الدراسات السابقة ، التي لم تتعد معظمها مقالات قصيرة ، أو ما كتب في مجمل الكتب التاريخية العامة ، قد اكتفت بملامسة الموضوع من بعيد ، ضمن إطاره العام، وتحت عناوين مختلفة مثل: الصراع الفاطمي والأموي ، أو الصراع الفاطمي والأندلسي ، تجنبا للوقوع في إشكالية المفارقة في المعلومات التاريخية ، فهذا يتطلب دراسة دقيقة ومتأنية، لاستخلاص الروايات التي لها علاقة بدور قبائل البربر بين الفاطميين والأمويين.

وتأتي أهمية هذه الدراسة ، بأنها جاءت لتتصدى إلى هذا العائق الذي جعل المؤرخين المحدثين يحجمون عن الخوض في غمار هذا الموضوع بالغ الصعوبة ، من حيث وضع خطة

تفصيلية ، تلامس الموضوع من جميع أطرافه، وتدخل في مضمونه وتغور في تفاصيله، ويبدو أن سبب اختيار عنوان الدراسة ، قد شاطر الباحث: حب المعرفة ، بسبب عزوف الدراسات التاريخية عن هذا العنوان الدقيق، والحماسة الزائدة التي لم تعرف عواقبها إلا عندما جمعت المادة التاريخية المتعلقة بهذا الصدد.

فهي إذن ، كانت محاولة جادة وخطيرة ، تعود مصادر خطورتها إلى طول الفترة التاريخية المراد معالجتها، التي تزيد على قرن ونصف ، وكثرة تشعبات الموضوع التي أوقعت الباحث في إشكالات جمة، وأشكل عليه كثير من القضايا، لم يتسنّ له حلها إلا بعد عناء وجهد كبيرين وكذلك قلة مصادر المغرب والأندلس، وفوق كل هذا وذاك ، فإن المشكلة الحقيقية هي الخوف من أن قلة المادة لا تكفي لاستيفاء خطة البحث ولكني عقدت العزم، وبذلت ما أمكنني من جهد ، وجمعت كل ما بوسعي عن تاريخ المغرب والأندلس ، من بين بطون المصادر التاريخية المختلفة ، وثنايا المصنفات العديدة.

وبفضل ما جمع من مادة تاريخية لمعالجة هذا الموضوع، فإنه تم دراسته ، وتوزيع مادته على النحو التالي :

التمهيد، وقد تناولت فيه لمحة عامة عن جغرافية بلاد المغرب، ثم تعرضت لبطون قبائل كتامة وزناتة وصنهاجة ومواطنها، لأنها تمثل محور هذه الدراسة.

وأما الفصل الأول ، فهو بعنوان : البربر والوجود الفاطمي والاموي (138-297هـ/755-910م) ، ويتناول موقف البربر من قيام الدولتين الأموية بالأندلس والفاطمية بالمغرب، ووقفت فيه أيضا على أسباب الصراع الفاطمي والأموي ، وتبين أن أسباب الصراع بين الدولتين يعود في مجمله إلى أسباب سياسية ومذهبية واقتصادية ، وكانت أبرز مظاهر الصراع التشيع أو الدعوة المذهبية ، والجاسوسية والتشهير.

وجاء الفصل الثاني بعنوان: خلفية العلاقات السياسية الفاطمية والاموية في أحداث المغرب والأندلس (267-375هـ/ 880-986م) ، وقد تجلت تلك الخلفية بثورة عمر بن حفصون وأولاده بالأندلس، وموالاته للدولة الفاطمية بالمغرب، وثورة موسى بن ابي العافية وأولاده بالمغرب الأقصى وموالاته للدولة الأموية بالأندلس، وما كان كذلك من تذبذب موقف الأدارسة بين الفاطميين والأمويين.

ويعد الفصلان الثالث والرابع المحورين الأساسيين اللذين قامت عليهما هذه الدراسة ، فقد جاء الفصل الرابع بعنوان : دور كتامة وزناتة في العلاقات الفاطمية والأموية في مرحلة الخلافة الفاطمية الإفريقية (297-361هـ/ 910-972م) ، إذ تناولت فيه ، طبيعة العلاقة التي كانت سائدة بين كتامة وزناتة بعد قيام الخلافة الفاطمية ، ودورهما في العلاقات السياسية في عهد الخليفة الفاطمي المهدي، ثم علاقة زناتة بالقائم بأمر الله الفاطمي وعبد الرحمن الناصر الأموي، قبل اندلاع ثورة أبي يزيد الزناتي ، ومجمل تطورات أحداث هذه الثورة ، وما كان من مساندة عبد الرحمن الناصر الأموي لها، وموقف زناتة من الفاطميين بعد القضاء على الثورة ، ثم صراع زناتة وكتامة في عهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله ، ودورهما في العلاقات بين الدولتين الفاطمية بالمغرب والأموية بالأندلس.

وأما الفصل الرابع والأخير، فكان بعنوان: دور صنهاجة وزناتة في العلاقات الفاطمية والأموية بعد انتقال الخلافة الفاطمية لمصر، ونيابة بني زيري الإفريقية (361-422هـ/972-1031م)، وتناولت فيه لمحة عامة عن قبيلة صنهاجة منذ قيام الخلافة الفاطمية وحتى تولية بلكين ابن زيري على بلاد المغرب، ثم موقف بلكين بن زيري الصنهاجي من زناتة وأثره في العلاقات بين الدولتين ، وتحدثت فيه أيضا عن دور زيري بن عطية المغراوي في العلاقات في عهد المنصور وابنه باديس ابني زيري ، ثم تتبعت نزاع صنهاجة وزناتة وأثره في العلاقات في عهد المعز بن باديس حتى نهاية الخلافة الأموية بالأندلس سنة 422هـ/ 1031م.

عرض وتحليل لأهم مصادر البحث:

اعتمدت في دراستي هذه على مجموعة كبيرة من المصادر العربية ، كما استفدت كثيرا من المراجع الحديثة العربية والأجنبية ، التي تعرضت لموضوع الدراسة من قريب أو بعيد، وسوف أقصر تحليلي على أهم المصادر التي اعتمدت عليها في جمع مادة هذه الرسالة مراعيا في ذلك ترتيبها الزمني ، وكان أهمها:

(1) ابن حيان، أبو مروان بن خلف بن حسين حيان، المتوفى سنة 469هـ/ 1076م، في كتابه "المقتبس في أخبار رجال الأندلس" ، ويتألف هذا الكتاب من أربع قطع محققة ، وقد أفادت الدراسة منه في معلومات تفصيلية عن العلاقة التي كانت قائمة بين قبيلة زناتة بالمغرب ، ممثلة بزعيمها محمد بن خزر الزناتي، وبين عبد الرحمن الناصر الاموي بالأندلس (300-350هـ/ 913-961م) ، وانفرد هذا المصدر بميزة عن غيره من المصادر التي تحدثت عن علاقة البربر السياسية بين الفاطميين والامويين ، بأنه أورد معظم الرسائل التي تبودلت بين زعماء البربر وخلفاء بني أمية بالأندلس، وخاصة تلك الرسائل التي كان يبعث بها محمد خزر الزناتي إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي ، فكان لتلك الرسائل فائدة عظيمة في بنية التحليل التاريخي التي قامت عليه هذه الدراسة.

(2) ابن عذاري، أبو العباس أحمد بن عذاري، كان حيا سنة 712هـ/ 1312م، وهو مؤرخ مغربي عاش في عصر الدولة الموحدية ، وكتابه " البيان المغرب في أخبار المغرب" ، ذو أهمية خاصة لأنه يشتمل على روايات مستقاة من مصادر معاصرة لأحداث زمن البحث[1] ، وقد أفادت منه الدراسة في ضبط تاريخ الحدث الذي قلما نجده عند غيره من مؤرخي المغرب ، كما أمدنا بمعلومات دقيقة عن طبيعة العلاقة بين قبائل البربر على أرض

[1] أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 24.

المغرب، وما كان لتلك العلاقة من أثر سياسي بين الدولتين الفاطمية والأموية ، ومع اضطراب الروايات التاريخية عنده في أغلب الأحيان، فقد كانت لها فائدة بالغة الأثر في تسلسل الأحداث التاريخية في تاريخ المغرب والأندلس ، منذ بداية الدراسة إلى نهايتها، ولذلك اعتمدت عليه اعتمادا يكاد يكون كاملا.

(3) ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن الخطيب السلماني ، المتوفى سنة 776هـ/1374م ،وقد أفادت الدراسة من كتابه " أعمال أعلام" ، في ضبط كثير من تواريخ الأحداث التاريخية التي تهم فترة الدراسة ، وخاصة تلك الأحداث التي تعذر على غيره من مؤرخي المغرب والأندلس ضبطها ، لاعتماده على مصادر مفقودة مثل كتب ابن حيان [2] ، كما أفدت منه في مقابلة بعض الرسائل التي وردت عند ابن حيان بين زعماء البربر ، وخلفاء بني أمية.

(4) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، المتوفى سنة 808هـ/1405م ، وكتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" ، ويعد هذا الكتاب من أهم الكتب التي ألفت في تاريخ العرب والعجم والبربر منذ الخليقة حتى عصره[3] ، وقد أفادت الدراسة منه في معرفة أنساب البربر وبطونهم، إضافة إلى المعلومات التفصيلية التي أوردها عن طبيعة العلاقة بين قبائل البربر على ارض المغرب، والتي من خلالها تم استخلصت المعلومات التي تخص دورهم في العلاقات السياسية بين الدولتين الفاطمية والأموية ، كما أمدنا بمعلومات دقيقة عن مواطن قبائل كتامة وزناتة وصنهاجة، في بلاد المغرب ، إذ تم بواسطتها حل كثير من إشكالات البحث، مثل موقف هذه القبائل من قيام الدولة الفاطمية، وتطورات ذلك الموقف في تحديد العلاقات السياسية بين الدولتين الفاطمية والأموية.

---

[2] أنظر، الفيلالي، المرجع نفسه، ص 26-27.

[3] الفيلالي، المرجع نفسه، ص 27.

(5) ابن أبي زرع، أبو الحسن بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي، المتوفى في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وكتابه " الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس" ، ويتضمن تاريخ المغرب الأقصى ، منذ سنة 145هـ/ 762م، إلى سنة 726هـ/ 1325م، أي إنه يتناول تاريخ الأدارسة وقبيلة زناتة (مغراوة وبني يفرن) والمرابطين والموحدين وبني مرين، وقد أفادني بما كتبه عن الأدارسة والزناتيين والمكناسيين.

(6) مؤلف مجهول، وكتابه " مفاخر البربر" ، وقد أمدني بمادة جيدة عن بطون البربر ومواطنهم، إضافة إلى أنه انفرد بروايات تاريخية عن استقرار بيوتات البربر في الأندلس، لم ترد عند غيره من مؤرخي المغرب والأندلس، وكانت للروايات التي أوردها عن علاقة زيري بن عطية المغراوي الزناتي بالدولة الفاطمية ، أهمية خاصة تجسدت في سد بعض ثغرات جوانب هذه الدراسة.

وأما أهم الدراسات الحديثة التي أفادتني في إعداد هذا البحث، فهي:

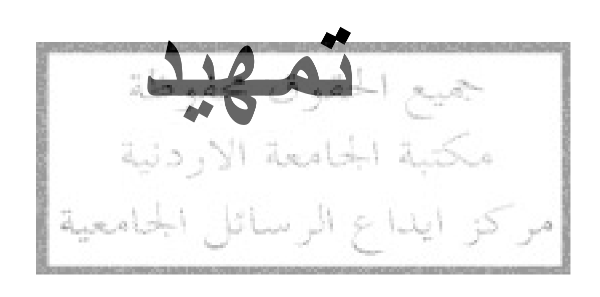
(1) محمد بن عميرة ، في كتابه " دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي" ، ويوسف إبراهيم سنوسي، في كتابه " زناتة والخلافة الفاطمية" ، إذ كان لهذين الكتابين دور كبير في استكمال جوانب خطة الدراسة من خلال حديثهما عن موقف قبيلة زناتة من قيام الخلافة الفاطمية، ولكنهما مع ذلك أغفلا الحديث عن جانب علاقة زناتة بالدولة الأموية بالأندلس.

(2) موسى لقبال، في كتابه " دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م) ، إذ كان لهذه الدراسة التي غلب عليها طابع تحليل الروايات التاريخية بما يتلاءم مع واقع الحدث التاريخي ، أثر كبير في الإفادة منها، للوقوف على أسباب النزاع بين قبيلتي كتامة وزناتة ، وبالتالي سهلت على الباحث رسم

صورة أولية في الكشف عن تاريخ بداية العلاقة الودية بين زناتة والدولة الأموية بالأندلس التي تعد أساس هذه الدراسة ، والتي لم يتعرض في الحديث لها موسى لقبال في دراسته تلك.

(3) عبد العزيز فيلالي ، ومع أن دراسته الموسومة بـ " العلاقات السياسية بين الدولة الاموية بالأندلس ودول المغرب " تعد اقرب الدراسات الحديثة إلى عنوان بحثي ، فإ ن حديثه عن دور قبائل البربر في العلاقات السياسية بين الأمويين والفاطميين ، كان بصورة شمولية ، اقتصر على خدمة أغراض بحثه ، دون أن يتعمق بصورة جدية بذلك، الدور الذي قامت به قبائل البربر بين الدولتين ، ولذلك اختار بعض الأحداث السياسية عبر تاريخ المغرب والأندلس ، وركز عليها لاستيفاء خطة بحثه، ولا شك أن دراستي جاءت منفردة بالعنوان وبخطة البحث عما سبقها من الدراسات الحديثة، لاستكمال معالجة بعض القضايا التاريخية المهمة في تاريخ المغرب والأندلس.

تمهيد



كانت قبائل البربر تنتشر مع بداية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، في أقسام بلاد المغرب الثلاثة، الأدنى والأوسط والأقصى ؛ وتكاد تشكل كل قبيلة وحدة جغرافية واحدة، بسبب كثرة بطونها وتفرعاتها؛ ومن هذا المنطلق، فقد احتلت قبائل كتامة وزناتة وصنهاجة ، مواطن خاصة بها، وأخذت السمة العامة لتلك المواطن ، وعلى أساس هذا التقسيم الجغرافي لقبائل البربر ، فإنه لا يمكن لأي كيان سياسي، أن ينشأ بالمغرب، دون مناصرة أو مساندة إحدى قبائل البربر له.

وأهم ما يميز قبائل البربر بالمغرب، هو اختلافها في نمط حياتها؛ فلما كانت قبيلتا كتامة وصنهاجة تتصفان بطابع التحضر والاستقرار في أماكن محددة لهما ببلاد المغرب ، فإن قبيلة زناتة تتصف في الجهة المقابلة بطابع عدم الاستقرار والظعن وراء الانتجاعات، من مكان إلى آخر وقد أحدث هذا الاختلاف في نمط الحياة الحروب والاقتتال بين رؤساء وأفراد قبائل البربر على أرض المغرب ، عبر العصور التاريخية القديمة ، والتي للأسف لم تهتم بها مصادرنا التاريخية العربية الإسلامية ، بسبب عدم وجود أي اتصال يربط بلاد المشرق، ببلاد المغرب قبل الفتوحات الإسلامية . وهذا الصراع القبلي هو الذي دعا بعض المؤرخين المحدثين، إلى إرجاء سبب وقوف زناتة ضد الدولة الفاطمية التي قامت بالمغرب سنة 297هـ/ 910م ، لأنها اعتمدت على قبيلتي كتامة و صنهاجة العدوتين التقليديتين لها، ولذلك انضوت زناتة تحت راية الدعوة الأموية السنية بالأندلس.

كما أن الشيء الملاحظ على قبيلة زناتة هو اعتناق بطونها وفروعها للمذاهب الإسلامية المختلفة ، وخاصة المذهب السني ، إلا أن أيا من البطون الزناتية لم تعتنق مذهب الشيعة الإسماعيلية[1] ؛ وأما قبيلتا كتامة وصنهاجة، فإن بطونها اعتنقت المذهب الشيعي الإسماعيلي؛ ولعل حدة الصراع القبلي بين قبائل البربر التي ازدادت بعد ظهور الإسلام كانت بسبب دفاع تلك

---

[1] أنظر ، سنوسي ، زناتة والخلاقة ، ص 95.

القبائل عن المذاهب الإسلامية التي اصبحت تدين بها، وبالذات بعد أن وجدت كل قبيلة بربرية مظلة شرعية لها، ممثلتين بالدولة الأموية السنية بالأندلس؛ والدولة الفاطمية الشيعية بالمغرب.

جغرافية بلاد المغرب:

إن الحديث عن جغرافية بلاد المغرب، أمر فرضته طبيعة الدراسة التي نحن بصددها، فبلاد المغرب تمثل مساكن قبائل البربر[1] الأصلية، ولذا ، لا يمكننا الحديث عن " دور القبائل البربرية في العلاقات السياسية الفاطمية والأموية بالأندلس" ، دون تعرف مواطنها الأولى، ليتسنى لنا تحديد الجهات التي شغلتها بطون هذه القبائل ، قبل أن ينتهي بها المطاف إلى الاستقرار في واحدة من جهاته بصفة دائمة [2] ؛ ولما كانت الاسكندرية آخر عمل مصر من جهة المغرب، وهي الحد الفاصل بينها وبين مساكن البربر[3] ، فقد أطلق عليها بعض المؤرخين باب المغرب[4] .

وبلاد المغرب ، بلاد واسعة و " عمائر متصلة" [5] ، تتكون من جبال وصحارى كثيرة المفاوز صعبة المسالك ، وفي هذه البلاد انتشرت مضارب بطون القبائل البربرية بشكل عام ، من أدناها إلى أقصاها[6] ، وبطون ومواطن قبائل " زناتة وكتامة وصنهاجة" ، بشكل خاص، والتي تؤلف المحور الرئيسي لهذه الدراسة . وقد تفاوتت القبائل البربرية الثلاث ، بفرعيها البتر والبرانس (البدو والحضر) ، بطبيعتها، إذ أننا نجد قبيلة زناتة تغلب عليها الطبيعة البدوية القائمة على الظعن وراء الانتجاعات، مع محافظتها على موطن خاص بها تبرز فيه السمة العامة لبطونها " كالمغرب

---

[1] مجهول ، مفاخر البربر، ص 245.

[2] أنظر، عبد الوهاب، قبائل البربر، ج1، ص 1.

[3] مجهول، مفاخر البربر، ص 245.

[4] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 45؛ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 12 ويذكر الأخير " أنها كانت معبرا لجميع المغاربة القادمين من المغرب أو العائدين إليه سواء بالبر أو البحر بقصد التجارة أو طلب العلم أو تأدية فريضة الحج" (سنوسي، المرجع نفسه، ص 45).

[5] كاتب مراكشي، الاستبصار ، ص 179.

[6] أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة ، ص 45.

الأوسط" . وأما قبيلتا كتامة وصنهاجة فإنهما يمثلان الطابع الأكثر وضوحاً في الإقامة والاستقرار في مواطن تظهر فيه سمة بطون إحدى القبيلتين ، " كالمغرب الأدنى" الذي اتسمت فيه ملامح استيطان قبيلة كتامة . ومع فتور طابع التحضر لدى صنهاجة عن كتامة لاستمرار الظعن بين بطونها ، ومنهم بنو مسوفة إذ " ليس لهم قرار ولا مدينة" [1] ، فقد عرفت بكثافة بطونها "بالمغرب الأقصى"، وذلك كله لا يمنع عدم اشتراك مواطن بعض بطون هذه القبائل في بلاد المغرب على وجه العموم: الأدنى، والأوسط، والأقصى.

ويطلق لفظ المغرب، على كل ما يقابل المشرق من بلاد [2] ، أو كما يسميه ياقوت "ضد المشرق" [3] . وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون في تحديد مدلوله [4] ، فجعله بعضهم يشمل بلاد المغرب والأندلس معا، ومن هؤلاء الإصطخري إذ يقول " وأما المغرب فهو نصفان يمتدان على بحر الروم، نصف من شرقيه ونصف من غربيه ، فأما الشرقي فهو برقة وإفريقية وتاهرت وطنجة والسوس وزويلة وما في أضعاف هذه الأقاليم ، وأما الغربي فهو الأندلس" [5] ، ويؤكد هذا المدلول ياقوت بقوله: " وتدخل فيه (أي بلاد المغرب) جزيرة الأندلس وإن كانت إلى الشمال أقرب ما هي"[6] .

وجعل بعضهم الآخر مصر فقط، دون الأندلس، ضمن بلاد المغرب" وجعلوا حدود المغرب من سيف بحر النيل بالمشرق إلى ساحل البحر المحيط من ناحية المغرب... قاله غير

---

(1) ابن عبد الحليم ، الأنساب، ص 27.

(2) انظر، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 11؛ وقد يؤخذ اللفظ بمفهوم العرف السائد بالمنطقة نفسها" اعلم أن لفظ المغرب يطلق في عرف أهله على ناحية من الأرض معروفة بعينها" (الناصري ، الاستقصا، ج1، ص 71).

(3) معجم البلدان ، ج5، ص 161؛ كذلك فإن أهل مصر يسمون " ما عن أيمانهم إذا استقبلوا الجنوب بلاد المغرب" ، ولهذا سميت بلاد إفريقية وما بعدها بلاد المغرب (ياقوت، المصدر نفسه، ص 223).

(4) أنظر ، العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، ص 11.

(5) المسالك والممالك، ص 33.

(6) معجم البلدان ، ج5، ص 161.

واحد" [1] . وقد صور لنا ابن عذاري وصاحب كتاب مفاخر البربر ، بلاد المغرب بجزيرة [2] ، أحاط بها البحر من كل جهة [3] ، وبناءً على هذه الصورة، أدخلوا مصر مع بلاد المغرب " فصار المغرب كالجزيرة ، دخل فيها مصر والقيروان والمغرب الأوسط والزاب والسوس الأقصى"[4] .

وهناك من أورد الدلالتين معا، كابن عذاري ، الذي جمع بين بلاد الأندلس وبلاد المغرب مرة، " بلاد الأندلس... من المغرب، وداخلة فيه لاتصالها به" ؛ وبين بلاد المغرب ومصر مرة أخرى " إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالاسكندرية ... إلى آخر بلاد المغرب" [5] .

وفي ظل تضارب آراء الجغرافيين والمؤرخين الأوائل، وتحديد مدلول كلمة المغرب ، فإن غالبيتهم اتفقوا على أن حده يبدأ من جهة الغرب بالبحر المحيط [6] ، المعروف بالكبير [7] ، أو بحر الظلمات [8] ؛ ومن الشمال البحر الرومي [9] المعروف بالرومي الصغير [10] ، أو البحر

[1] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 30؛ وفي شأن الاختلاف في مفهوم مدلول المغرب يذكر أحد الباحثين المحدثين: أن مدلول كلمة المغرب يتسع تارة عند الجغرافيين العرب فيدل على جميع الأراضي الواقعة بين البحر الأحمر شرقا والمحيط الأطلسي غربا وكذلك الأراضي الإسلامية الأخرى بالأندلس وجزر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وتارة أخرى كان يضيق فلا يشمل إلا الأراضي الممتدة من النيل إلى الغرب " أما العرف الجاري بين المغاربة فلا يدخل في المغرب أراضي مصر" ، انظر (عبد الوهاب ، قبائل البربر، ج1، ص 3) . كذلك فإن هذا المدلول زاد اتساعا أيام العباسيين فاعتبرت الشام أيضا ضمن المغرب ، فيروي " المسعودي أن العباسيين " قد قسموا مملكتهم إلى قسمين : المغرب ويشمل الشام ومصر وافريقية وما يليها غربا ، والمشرق بلاد فارس وما يليها شرقا ، وعلى هذا الأساس قسم هارون الرشيد مملكته بين أبنائه الأمين والمأمون والمؤتمن ، أنظر (العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 11- 12).

[2] البيان ، ج1، ص 6؛ مجهول ، ص 244- 245.

[3] مجهول ، مفاخر البربر، ص 442.

[4] مجهول ، المصدر نفسه، ص 445.

[5] البيان ، ج1، ص 5-6.

[6] الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص 33؛ مجهول ، مفاخر البربر، ص 244؛ ابن عذاري ، ج1، ص 6.

[7] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 6؛ الناصري ، الاستقصا، ج1، ص 71.

[8] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 6؛ ويذكر صاحب مفاخر البربر أنه يسمى " إبلاية" (مجهول، ص 244)؛ أو "الأبلاية" (ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 6).

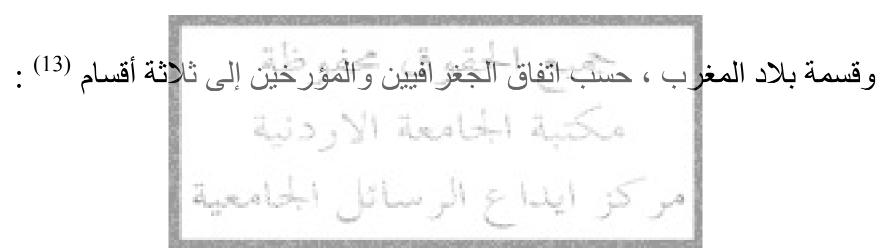
[9] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 6: مجهول ، مفاخر البربر، ص 244؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 71.

[10] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 71.

الشامي [1] ، ممتدا على ساحل البحر المحيط [2] ، إلى بلاد الشام [3] ؛ ومن الجنوب جبال الرمل الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد البربر [4] ، الممتدة من وراء سجلماسة إلى زويلة ، عبر الواحات إلى أرض مصر [5] .

وأما حده الشرقي، فقد تباينت الاعتبارات فيه واختلفت ، فعدَّ بعضهم أن الحد الشرقي لبلاد المغرب [6] برقة [7] ، أي أن برقة ضمن بلاد المغرب [8] ؛ وبعضهم الآخر عدَّ طرابلس من بلاد الجريد، ويقال أيضا بلاد الزاب الأعلى [9] ، حده الشرقي [10] ، فتكون برقة بهذا خارجة عن بلاد المغرب ، وطرابلس وما دونها إلى البحر المحيط داخلة فيه [11] ، ويعدّ آخرون بلاد برقة وطرابلس ليستا من بلاد المغرب [12] .

وقسمة بلاد المغرب ، حسب اتفاق الجغرافيين والمؤرخين إلى ثلاثة أقسام [13] :



---

[1] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 6؛ ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 30؛ ويقول صاحب مفاخر البربر " هو بحر الاسكندرية، وهو المتفرع من الزقاق من جزيرة طريف وقادس" (مجهول، ص 244).

[2] الاصطخري، المسالك والممالك، ص 33؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 71.

[3] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 6؛ ويورد الاصطخري أهم المدن الواقعة على ساحل البحر الرومي من جهة مصر باتجاه الغرب وهي: برقة وطرابلس والمهدية وتونس وطبرقة وجزيرة بني مزغنا وناكور والبصرة وأزيلة ثم السوس الأقصى " ثم يمتد على برية ليس وراءها عمارة" (المسالك والممالك ، ص 33).

[4] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 71؛ وتعرف عند العرب الرحالة هناك العرق (الناصري، المصدر نفسه، ج1، ص71).

[5] الاصطخري، المسالك والممالك، ص 33.

[6] أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 46.

[7] البكري، المغرب، ص 21؛ ويذكر المراكشي اسماً آخر لمدينة برقة وهو " أنطابلس" (المعجب، ص 249).

[8] أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة ، ص 46.

[9] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 5.

[10] ياقوت ، معجم البلدان ، ج1، ص 228.

[11] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 71.

[12] أنظر ، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 46.

[13] ويذكر العبادي أن اساس هذا التقسيم ، حسب قربها أو بعدها من مركز الخلافة في المشرق (في تاريخ المغرب والأندلس، ص 12).

المغرب الأدنى [1] ، أو أفريقية [2] ، ويمتد من طرابلس شرقا " من جهة برقة والاسكندرية" إلى بجاية [3] ، أو مليانة غربا [4] ، وقاعدته في صدر الإسلام مدينة القيروان[5] ، وكذلك في زمن الأمويين [6] ، ثم أصبحت مدينة المهدية قاعدة لـه ايام الفاطميين ، ثم مدينة تونس في أيام الحفصيين[7] .

وأما المغرب الأوسط [8] ، أو بلاد الزاب الأسفل [9] ، فهو ما يلي: إفريقية غربا [10] ، من وادي مجمع ، وهو في نصف الطريق بين مدينة مليانه ومدينة تلمسان [11] ، حتى مدينة وهران

---

[1] ويرى الناصري، أن سبب تسميته بالأدنى لأنه اقرب بلاد إلى دار الخلافة بالحجاز (الاستقصا، ج1، ص 71)؛ ويطلق على المغرب الأدنى أيضا اسم " المغرب الفوقي" (ابن عبد الحليم، الأنساب، ص 15).

[2] وسبب تسميتها بافريقية لأنها فرقت بين مصر والمغرب (ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص 228)؛ وقيل بين المشرق والمغرب " ولا يفرق بين الاثنين إلا أحسنها" (ابن أبي زرع ، المؤنس، ص 29)؛ ويذكر ابن عبد الحليم بعض الآراء المختلفة حول تسمية أفريقية ، منها ، أن أول من سكنها أولاد فارق بن مصر؛ وقيل: بنى أبو قرة مدينة افريقية ؛ وقيل سميت بإفريق بن إبراهيم ؛ وقيل أن إفريقش بن قيس جاء من أرض كنعان ومعه البربر غازيا بهم يليان في طنجة ثم عاد إلى إفريقية وبنى بها مدينة إفريقية فسكنها (الأنساب، ص 40-41)؛ وحول الاختلاف في سبب تسمية إفريقية ، أنظر أيضا (ابن أبي زرع، المؤنس، ص 29).

[3] الناصري ، الاستقصا، ج1، ص 71؛ أنظر ، سنوسي ، زناتة والخلافة ، ص 46؛ وأما ابن عبد الحليم فيذكر من " حد عقبة أيلة إلى برقة " (الأنساب، ص 15).

[4] ياقوت ، معجم البلدان، ج1، ص 228.

[5] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 71.

[6] أنظر، إبراهيم بيضون، الدولة العربية ، ص 14.

[7] أنظر ، إبراهيم بيضون، المرجع نفسه، ص 14؛ العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 12؛ ويورد ابن أبي دينار بعض مدن إفريقية (المغرب الأدنى) وهي: برقة ، طرابلس، وغدامس، وفزان، وأوجلة ، وودان، وكوار، وقفصة ، وقسطيلية ، وقابس، وجربة ، وتيهرت، وباجة، والأربس، وسقبنارية، وصبرة، وسيطلة ، وباغاية، ولميس، وأذنة، ودرعة, ومجانة ، وسوسة ، وبنزرت ، وزغوان ، وجلولا، وقرطاجنة، وتونس (المؤنس، ص 32).

[8] ويطلق عليه اسم " المغرب الوسطي" (أبن عبد الحليم، الأنساب، ص 245)؛ وذكر المغرب الأوسط أنه يقع ضمن إفريقية ويورد ذلك ابن أبي دينار بقوله " وإفريقية أوسط بلاد المغرب وخير الأمور أوسطها" (المؤنس، ص 29)، ويبدو أن هذا التداخل بين إفريقية (المغرب الأدنى) وبين المغرب الأوسط ، نتيجة عدم اتضاح المعالم الجغرافية بشكل عام ، فكلاهما يتشابهان من حيث طبيعتهما .

[9] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 5.

[10] أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 46.

[11] كاتب مراكشي، الاستبصار، ص 176.

التي تقع على الساحل ، شرقي تلمسان وعلى مسيرة يوم منها [1] ، إلى جبال تازا وهي آخر بلاد المغرب الأوسط [2] ، وقاعدته مدينة تاهرت في عهد الدولة الرستمية الخارجية الأباضية [3] ، ثم أصبحت مدينة أشير هي القاعدة في أيام الدولة الزيرية الصنهاجية [4] وانتقلت قاعدته إلى مدينة تلمسان [5] ، في أيام دولة بني عبد الواد أو بني زيان في القرن السابع الهجري [6] ، وأخيرا أصبحت جزائر بني مزغنة [7] القاعدة له، وهي مدينة الجزائر الحالية[8] .

وأما المغرب الأقصى [9] أو بلاد السوس [10] ، فقد عرف بهذا الإسم لوقوعه في أقصى المغارب الثلاثة [11] ، بعيدا عن دار الخلافة بالمشرق في صدر الإسلام، وحده من الجهة الشرقية وادي ملوية مع جبال تازا [12] ، أي ما بعد تلمسان غربا [13] ، إلى سبتة على البحر الرومي شمالا [14] ، ومن البحر المحيط غربا إلى جبل درن

(1) أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 46-47.

(2) كاتب مراكشي، الاستبصار، ص 186.

(3) أنظر ، العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 13؛ إبراهيم بيضون ، الدولة العربية، ص 14؛ وهي في ولاية وهران غربي الجزائر ، أنظر ، (العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 13).

(4) أنظر ، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 13؛ وتسمى حاليا بنية بالقرب من مدينة الجزائر، (العبادي، المرجع نفسه، ص 13).

(5) كاتب مراكشي، الاستبصار، ص 176؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 71.

(6) أنظر ، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 13.

(7) جزائر بني مزغنة : وهي مدينة صغيرة تقع بالقرب من بجاية وتنسب إلى قوم يقال لهم بنو مزغنة (المراكشي، المعجب، ص 253).

(8) أنظر ، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 13.

(9) ابن عبد الحليم ، الأنساب، ص 15.

(10) ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 5؛ وكان السوس الأقصى يقسم إلى قسمين : السوس الأدنى وهو من حد طنجة إلى تلسمان ثم إلى سجلماسة ثم إلى الصحراء والسوس الأقصى وهو أيضا من طنجة إلى مدينة أغمات إلى جبل خشكوا (درن) إلى نول (ابن عبد الحليم ، الأنساب، ص 15- ص 17)، والمسافة بين السوس الأدنى والأقصى عشرون يوما (ابن عبدالحليم المصدر نفسه، ص 17).

(11) أنظر، بنعبد الله ، الموسوعة البربرية، ص 315.

(12) الناصري، المصدر نفسه، ج1، ص 71.

(13) أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 47.

(14) الناصري، الاستقصا ، ج1، ص 71.

جنوبا [1] ، فيكون هذا الجبل آخر "بلاد تامسنا" [2] ، ثم تصل إلى جبال الرمل الفاصلة بين إفريقية والسودان ، الممتدة من الشرق إلى الغرب [3] .

ويؤلف المغرب الأقصى امتدادا طبيعيا للمغرب الأوسط، إذ ليس بينهما فواصل طبيعية مانعة[4] ، فأجزاؤهما تترابط ببعضها عن طريق جبال تازا، وهي جبال عظيمة حصينة [5] ، وتعتبر مفتاح المغرب الأقصى [6] . وقاعدته ترددت بين مدينتي فاس [7] ، عاصمة الأدارسة [8] العلويين منذ تأسيسها سنة 191هـ/ 808م [9] ، التي تعدّ قاعدة لبلاد المغرب عامة " وأعظم مدينة من مصر إلى آخر بلاد المغرب" [10] وبين مدينة مراكش [11] ، التي بناها المرابطون سنة 463هـ/1105م واتخذوها عاصمة لهم، ثم اتخذها بعدهم الموحدون قاعدة لدولتهم ، وأخيرا السعديون في القرن العاشر الهجري[12].

ويحتل المغرب الأقصى أهمية خاصة ، في هذه الدراسة ، لكونه أقرب أقسام بلاد المغرب الثلاثة إلى بلاد الأندلس ، التي تشكل الطرف الآخر والهام من موضوع هذا البحث، فقد كان ، مرتعا خصبا للأحداث السياسية التي قامت بها القبائل البربرية الثلاث (زناتة ، وكتامة، وصنهاجة)

---

[1] الناصري، المصدر نفسه، ص 71؛ ويذكر ابن عبد الحليم أن جبل درن هذا، كما يسمونه الأوائل جبل خشكو، وهو ما حد ملوية إلى أيغيران يطوف وسمي في المغرب الاوسط، بجل درن (الأنساب، ص 17).

[2] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 5؛ ويقال هي أيضا " السوس الأدنى (ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 5).

[3] ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص 228؛ كاتب مراكشي، الاستبصار، ص 11-12.

[4] أنظر، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 13؛ سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 47.

[5] كاتب مراكشي، الاستبصار، ص 186.

[6] أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 47.

[7] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 71.

[8] أنظر، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 13؛ إبراهيم بيضون ، الدولة العربية، ص 14.

[9] أنظر ، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 13.

[10] كات مراكشي، الاستبصار، ص 180.

[11] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 71؛ وحسب الناصري أن المغرب الأقصى يشتمل على خمس عمالات هي فاس ومراكش والسوس ودرعة وتافيلالت (الناصري ، المصدر نفسه، ج1، ص 71).

[12] أنظر ، العبادي ، المرجع نفسه ، ص 3.

بشكل خاص ، بين الفاطميين بالمغرب من جهة ، والأمويين بالأندلس من جهة أخرى ، وموطناً رحباً لبعض بطون هذه القبائل.

وبهذا العرض السريع لجغرافية بلاد المغرب، الذي اشتمل على حدودها ، ومدلول كلمته ، وتقسيماته الإقليمية ؛ تبدو لنا طبيعته الجغرافية ، وحدة متماسكة [1] ، متجانسة إلى حد كبير في التضاريس والبيئة والمناخ، وحتى في الظروف الاجتماعية [2] . كما يمكننا من خلال هذا العرض، تصور توزيع القبائل البربرية- التي سيأتي الحديث عنها لاحقا- في بلاد المغرب، وهذه البلاد كانت للبربر موطناً وداراً قبل الإسلام[3] .

---

[1] أنظر ، العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 14.

[2] أنظر ، إبراهيم بيضون، الدولة العربية ، ص 15.

[3] أنظر ، عبد الوهاب، قبائل البربر، ج1، ص 3.

* كتامة ، بطونها ومواطنها:

كتامة هي إحدى قبائل البربر في بلاد المغرب، عرفت قبل الفتح الإسلامي ، بقوتها وشدة بأسها وطول باعها في الملك عن غيرها من قبائل البربر[1] ، وهي مع ذلك ، تمتاز بالكرم، وبذل الطعام لمن قصدها أو نزل بديارها [2] ، وقد أجمل أحد المؤرخين صفات كتامة بأنها " من دهاة البربر"[3] . وتتألف كتامة من عدة قبائل مستقرة تنتمي إلى جذم البرانس ضمن تقسيم المجتمع الأمازيغي القديم[4] .

واختلفت الآراء ، في سبب تسمية كتامة هذا الاسم ، فحسب نسابة البربر ، هي نسبة للجد الأعلى لسائر فروعها، وهو " كتام" أو " كتم" [5] ، والاسمان معا مطروحان عند النسابة [6] . وقد اتخذ أصحاب هذا الرأي من الإشارات التي وردت في النصوص التاريخية، حجة لهم في تأييد ما ذهبوا إليه في تفسير اسم كتامة بأنه نسبة للجد الأعلى، إذ يرد في تلك النصوص مصطلح " بني كتامة " [7] ، وهم بذلك أرجعوا نسبتها إلى مفرد الكلمة ، وهو " كتام" أو " كتم" ، واعتباره هو الأب لكتامة ، ويمكن أن يكون هذا الرأي أكثر واقعية ، خصوصا بعد الأخذ برواية صاحب مفاخر البربر الذي يشير إلى ذلك صراحة بقوله " كتام اسم رجل"[8] .

---

[1] ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 149.

[2] الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص 269.

[3] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 127.

[4] أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 92.

[5] ابن خلدون، المقدمة ، ج6، ص 149.

[6] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 93.

[7] انظر، لقبال، المرجع نفسه، ص 93.

[8] مجهول ، ص 190؛ أنظر، غوتييه، ماضي شمال إفريقيا، ص 239.

وذهب رأي آخر، إلى الأخذ بوجهة نظر دعاة الشيعة الاسماعيلية، في أن أصل الكلمة من "الكتمان" ، حسب ما ذكر أبو عبد الله الشيعي لبعض وجوه كتامة بأن اسمهم مشتق من الكتمان[1] .

ولعل أبا عبد الله الشيعي كان قصده بذكر هذه الكلمة ، لوجوه كتامة، هو تأكيد المبدأ الأساسي العام للإسماعيلية وهو الكتمان، ثم تذكيرهم بما تتطلبه المرحلة القادمة من نهج لمثل هذا المبدأ، وذلك لما تفرضه طبيعة الأحداث الدقيقة من حياة الدعوة الاسماعيلية في هذه الفترة في بلاد المغرب[2] .

ويحاول أحد المؤرخين المحدثين ، إيجاد تفسير جديد لأصل اشتقاق كلمة كتامة ، وهو التقريب بين الكلمة التي وردت عند ابن خلدون ، والذي انفرد بها عن بقية مؤرخي المغرب وهي "الكتيم"، وبين الكلمة التي درجت على ألسنة العامة ، خاصة بالمغرب الأوسط، ولها أصل اشتقاق معروف في اللغة العربية – حسب رأيه- وهي " قطيم" ويرى أن وجه ذلك التقريب هو الأخذ بالظاهر دون الاعتبار للفارق الشكلي في رسم أوائل الحروف، وهي بذلك تكون أقرب لكلمة "الكتيم" [3] .

ويرجع نسابة العرب [4] كتامة إلى حمير [5] ، وذلك على اعتبار أنها كونت في بلاد المغرب هي وصنهاجة – والتي تعدّ من حمير أيضا حسب نسابة العرب- حامية مستقلة ، بقيت في

---

(1) النعمان، افتتاح ، ص 48؛ أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 93.

(2) أنظر، لقبال، المرجع نفسه، ص 149.

(3) أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 93-94.

(4) ومن هؤلاء النسابة الطبري، والجرجاني والمسعودي وابن خلدون والكلبي والسهيلي، (الناصري ، الاستقصا، ج1، ص 61).

(5) ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 149؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 61.

المغرب بعد عودة أفريقيش بن قيس [1] ملك حمير [2] ، من غزو إفريقية [3] ، فانتشروا هناك [4] ، وهما "بها إلى الآن"[5] .

إلا أن ابن خلدون يرفض زعم النسابة العرب بشأن كتامة وصنهاجة من أنهم ذوو أصول يمنية ، ويصنفهم ضمن قبائل البربر، ويورد هذا الرفض بما نصه " والحق الذي شهد به المواطن والعجمة أنهم بمعزل عن العرب (ويقصد عامة البربر)، إلا ما تزعمه نسابة العرب في صنهاجة وكتامة وعندي أنهم من إخوانهم" [6] ، أي من إخوان البربر.

ورغم ما ورد من اختلافات في اسم كتامة وأصلها، فإن من المرجح أن كتام أو كتم [7] ، هو ابن برنس بن مازيغ بن كنعان، بن حام، بن نوح [8] ، وهو حسب ما ذكره النسابة له فرعان أساسيان هما: غرسن بن كتام، ويسودة بن كتام، وتتفرع منهما جميع بطون كتام[9] .

ويتفرع من غرسن بن كتام عدة بطون رئيسية هي: بني يناوة، وبني ينطاسن، وبني أيان، وهناك بطون أخرى تتبع لفرع غرسن الأب المشترك للبطون الرئيسية ، دون ذكر الأب المباشر لبعض بطونها الاخرى ، مثل: قلان، وماوطن، ومصالة، ومعاذ [10] .

---

[1] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج6، ص 149؛ الناصري، المصدر نفسه، ج1، ص 61.

[2] مجهول ، مفاخر البربر، ص 256.

[3] ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص98، 149؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 61.

[4] ابن خلدون، المقدمة ، ج6، ص 149.

[5] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 61.

[6] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج6، ص 98.

[7] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج6، ص 98.

[8] مجهول، مفاخر البربر، ص 190.

[9] ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 149؛ انظر خريطة رقم (2).

[10] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج6، ص 149.

* زناتة ، بطونها ومواطنها:

تعدّ قبيلة زناتة، من أهم قبائل البتر البربرية [1] ، التي سكنت بلاد المغرب منذ العهود القديمة، وقد أخذت بعد الفتح بشعائر العرب الخاصة بهم من سكنى الخيام، واقتناء الإبل، وركوب الخيل، وتغلب الترحال والظعن و "إيلاف الرحلتين "، والأنفة عن الانقياد [2] ، ولذلك وصفت بأنها "أشبه البربر بالعرب" [3] .

وأهم ما يميز زناتة عن سائر الأمم معرفتها بعلم الكف [4] ، وأما ما يميزها عن سائر البربر رطانة لهجتها التي أصبحت شعارا لها، واشتهرت فيها بين أبناء جنسها [5] ؛ كما كان لأفرادها أسلوبهم المميز في القتال فهم يعرفون بخفة الحركة وسرعة الكر والفر، واستعمالهم للدروع الجلدية وركوب الخيول الخفيفة ذات الركاب المرتفع [6] ، ولا شك أن معظم بطون زناتة اختارت سكنى الجبال والتلول والصحارى [7] ، لما يوفر لها المنعة والعزة والأنفة، ولأنه يناسب طبيعة بعض بطونها الأخرى لممارسة أسلوب حياتهم المعتاد فهم أصحاب إبل وغنم ويقيمون في بيوت من شعر وأدم ، فكانت هذه الطبيعة لحياة زناتة سببا في خشونة أجسادهم [8] ، واستمرت حياة

---

[1] أنظر، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 17.

[2] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج7، ص 5.

[3] انظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 54-55.

[4] ابن عبد الحليم، الأنساب، ص 51؛ وقد ورد عند كل من الإدريسي وابن عذاري بعلم الكف (نزهة المشتاق، ج1، ص 257؛ البيان ، ج1، ص 200).

[5] ابن خلدون ، المقدمة، ج7، ص 5.

[6] انظر، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 17.

[7] ابن خلدون، المقدمة ، ج7، ص 5.

[8] أنظر ، سنوسي، المرجع نفسه، ص 55.

البداوة في زناتة حتى القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، إلى أن استطاعت بعض بطونها إقامة دول في بلاد المغرب[1] .

اتفق غالبية المؤرخين على أصل تسمية زناتة بأنه تحريف لاسم الجد الأول لسائر فروعها وهوجانا [2] أو شانا [3] ، إلا أن أحد المؤرخين المحدثين يرى، أن هذا الرأي يصبح مقبولا ، إذا عددنا جانا أو شانا أول رئيس لزناتة وليس أول جد لها[4] ، علما أنه لم يقدم دليلا تاريخيا يؤيد هذا الزعم الذي انفرد به.

وأما عن نسب زناتة ، فقد اختلفت آراء المؤرخين في ذلك، فمنها من أشار إلى أنهم من حمير ومن أولاد النعمان بن سبا الحميري أو أولاد أخيه[5] ، ويسوق لنا هذا الراي قصة نسبهم إلى حمير ذلك أن النعمان كان عنده علم بأن النبي (ص) ، سيبعث إما بالمغرب أو بمكة ، فأرسل هؤلاء – اي أولاده وأولاد أخيه- ليكونوا أنصاره بالمغرب أو أتباعه إذا بعث بمكة ، وكان " أجانا" وهو أبو زناتة واحدا منهم ونزل بوادي شلف [6] ، ومنها من أشار أنهم عرب صراح وإنما تبربروا بالمجاورة والمحالفة[7] ، لبربر المصاميد [8] وقيل من التبابعة أو العمالقة[9] .

وناقش أحد المؤرخين المحدثين، آراء المؤرخين القدماء الذين رجعوا نسب زناتة إلى العرب، وتوصل في النهاية أن نسابة زناتة لم ينسبوا أنفسهم إلى العرب إلا في فترة متأخرة، وأن

---

(1) أنظر، سنوسي، المرجع نفسه، ص 55.

(2) الادريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص 257؛ ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 200؛ مجهول ، مفاخر البربر، ص 246؛ ابن عبد الحليم، الأنساب، ص 46.

(3) ابن خلدون ، المقدمة ، ج7، ص 5.

(4) أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 16.

(5) ابن العربي، شواهد الجلة، ص 366؛ وكان من بين هؤلاء الأولاد الذين بعثهم النعمان للمغرب لمت بن النعمان أبو لمتونة، ومزطاو أبو هسكورة، وأزناك أبو صنهاجة، ومسفو أبو مسوفة ولما وأبو لمطة ، وإلان أبو هيلانة (ابن العربي، شواهد الجلة، ص 336- 368).

(6) ابن العربي، شواهد الجلة، ص 366-368.

(7) الادريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 257؛ ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 200.

(8) الادريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 257.

(9) أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 16.

الجغرافيين والمؤرخين الذي نسبوا زناتة للعرب، هم ممن كتبوا في تاريخ المغرب بعد الغزوة الهلالية ، وأن سبب رغبة نسابة زناتة بالدخول في نسب العرب هو لما أصبح يعنيه النسب البربري من الإذعان والخضوع والالتزام بدفع الضرائب الثقيلة مصداقا لهذا الخضوع ، فأرادت زناتة لذلك الخلاص من النسب البربري لما عرف عنها من الأنفة والكبرياء[1] .

كما أن رغبة زناتة بالنسب العربي كان مضاهاة لصنهاجة العدو التقليدي لها، إذ نسبت صنهاجة نفسها إلى حمير من اليمن، لذلك نسبت زناتة نفسها لبني أمية من العدنانية [2] .

وأيا كان الخلاف بين المؤرخين في نسب زناتة، فإن من المؤكد أنها تنسب إلى البتر أبناء مادغيس بن بر الملقب بالأبتر[3] ، ومنه جانا أو شانا بن يحيى بن صولات [4] ، بن مازيغ [5] ، واتفق نسابة زناتة على أن بطونهم ترجع في أصلها إلى ثلاثة من ولد جانا الجد الأول لها وهم ، ورسيك أو (رسيج)، وفرني أو (فريني) ، والديرت أو (الديدت) [6] . وقد تفرعت هذه الفروع الثلاثة عن جانا إلى عدد كبير من البطون الزناتية [7] ، ويحتاج كل فرع منها إلى بحث طويل، ولذلك اكتفينا بذكر الأهم منها وهي:

*** بنو مغراوة[8] :**

ونسبهم إلى مغراو بن يصليتن ، وهم من أوسع بطون زناتة ، وبطونهم كثيرة أهمها : بنو زنداك، وبنو وراق، وبنو يلنت، وبنو أبي سعيد، وبنو ورسفان، وورتزمير، ولغواط، وبنو ريغة،[9]

---

[1] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 52-53.

[2] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 53.

[3] مجهول، مفاخر البربر، ص 221.

[4] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 65؛ ابن عبد الحليم، الأنساب، ص 48.

[5] ابن عبد الحليم ، الأنساب، ص 46؛ حتى يصل إلى نسب كنعان بن حام (مجهول، مفاخر البربر، ص 246).

[6] ابن خلدون ، المقدمة ، ج7، ص 8؛ انظر، شجرة نسب زناتة في جدول رقم (2).

[7] انظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 56.

[8] ابن خلدون ، المقدمة ، ج7، ص 8؛ انظر، شجرة نسب زناتة في جدول رقم (2).

[9] ابن خلدون ، المقدمة ، ج7، ص 28؛ انظر ، الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، ص 109؛ انظر، جدول رقم (3).

ومواطنهم كانت بالمغرب الأوسط (الجزائر) تمتد من مصب وادي شلف شرقا إلى مقاطعة تلمسان وجبل مديونة غربا وإلى تاهرت وما إليها جنوبا[1] ، واستقرت بعض بطون مغراوة في الجوف من بلاد الأندلس [2] ، وقد كانت غالبية بطون مغراوة على مذهب أهل السنة ، إلا أن بعض بطونها تحولت إلى مذهب الخوارج، وبعضها اعتنق مذهب المعتزلة. وعاصمتهم أصبحت في فترة لاحقة تلمسان[3] ، وكان لمغراوة في بداوتها قبل الإسلام ملك كبير " أدركهم عليه الإسلام فأقره لهم"[4] .

*** بنو يفرن:**

وهم بنو يفرن بن يصليتن إخوة مغراوة [5] ، ومن أكبر بطون زناتة وأقواها وأشدها شوكة، وكانت بطونهم كثيرة ومن أشهرها، بنو واركوا ومرنجيصة؛ وأما مواطن بني يفرن فقد كانت في أيام الفتح الإسلامي ، في إفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط [6] ، ثم انتشروا في الجهة الغربية لبلاد المغرب وذلك في أثناء انسحابهم أمام تقدم القبائل الطرابلسية ، لواتة ، وهوارة، عند توغلهم في الجنوب التونسي وضواحي الأوراس[7] . كما انتقلت بعض بطون بني يفرن إلى الأندلس واستقرت بها بعد الفتح الإسلامي لها [8] ، وأخذ بنو يفرن بداية ، بمذهب الخوارج، إذ تمسك به رؤسائهم على اختلاف مذاهبه من إباضية وصفرية [9] ، وظلوا على ذلك إلى قيام الدولة الفاطمية بالمغرب، وكانت ثورات بنو يفرن على الفاطميين ذات أثر سلبي عليهم، إذ قمع الفاطميون تلك الثورات واستخدموا أساليب العنف والشدة معهم، ولذا اضطر كثير من بني يفرن إلى التخلي

---

[1] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج7، ص 28؛ انظر، التقي العلوي، أصول المغاربة، ص 107-108.

[2] أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 64.

[3] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 65.

[4] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج7، ص 28.

[5] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج7، ص 28؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 164؛ ابن ابي زرع، الأنيس، ص 104؛ ويفرن اسم رجل وهو أخو مغراو (مجهول، مفاخر البربر، ص 188).

[6] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج7، ص 14؛ انظر، غوتييه، ماضي شمال إفريقيا، ص 207.

[7] أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة ، ص 18؛ انظر، غوتييه، ماضي شمال إفريقيا، ص 207.

[8] انظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 66.

[9] ابن خلدون، المقدمة ، ج7، ص 14.

عن مذهب الخوارج ، وما إن جاء النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، حتى تحولت معظم بطون بني يفرن إلى مذهب أهل السنة[1] .

[1] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 71-72.

* صنهاجة ، بطونها ومواطنها:

تعد قبيلة صنهاجة من أكبر قبائل البربر [1] ، وفرة وعددا [2] وهي من أهم قبائل البرانس في إفريقية، وكانت تتكون من مجموعة قبائل [3] ، انتشرت انتشارا واسعا حسب ما ذكره ابن خلدون في مناطق السهول والجبال في مختلف أنحاء بلاد المغرب [4]، وقد بلغت صنهاجة كما "زعم كثير من الناس" ، مقدار ثلث قبائل البربر[5] ، ويعني ذلك أن قبيلة صنهاجة تشكل نصف مجموع البرانس تقريبا[6] .

واتفق نسابة البربر على أن اسم صنهاجة نسبة إلى الجد الأول لها وهو صنهاج أو صناك[7]، وهو عند نسابة البربر ايضا من ولد برنس بن بر، أي من بطون البرانس [8] ، وقد اختلف المؤرخون [9] والنسابة [10] في نسب صنهاجة ، فقيل: إنها فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير[11] .

---

[1] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 65.

[2] ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153.

[3] أنظر ، العبادي، المرجع نفسه، ص 18.

[4] المقدمة ، ج6، ص 153.

[5] ابن خلدون ، المقدمة ، ج3، ص 153؛ الناصري ، الاستقصا، ج1، ص 65 ؛ انظر، الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، ص 102 .

[6] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص80.

[7] ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153؛ وصناك ، بالصاد المشممة بالزاي والكاف القريبة من الجيم ، ولكن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج (ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج6، ص 153) ويذكر مؤلف مجهول أن صنهاج اسم رجل (مفاخر البربر، ص 191).

[8] ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153.

[9] فذكر بعضهم أن صنهاج من ولد يصوكان بن ميسور (ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153؛ مجهول ، مفاخر البربر، ص 191) بن الفند بن إفريقيش بن قيس (ابن خلدون، المقدمة ، ج6، ص 153) ، ونسبه يرتفع إلى يعرب بن قحطان (مجهول، مفاخر البربر، ص 191).

[10] وقد ذكر بعض النسابة أنه صنهاج بن المثنى بن المنصور بن المصباح بن مالك بن عامر بن حمير الأصغر من سبأ (ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153).

[11] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 225؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 93؛ ويورد المراكشي أن البربر كلهم من ولد حام بن نوح ما عدا صنهاجة فإنها ترجع إلى حمير (المعجب، ص 250).

ويبدو أن أصحاب هذا الرأي قد عزوا رأيهم إلى أقدم الروايات التاريخية التي تشير إلى أن إفريقيش الحميري [1] ، حينما غزا المغرب قد خلف فيها قبائل من حمير " وزعمائها صنهاجة ، وقدمهم على البربر ليدبروا أمرهم ويأخذوا خراجهم" [2] ، وهي على هذا ذات أصل عربي جنوبي [3] ، وهناك قسم آخر من نسابة البربر قال بأنها ذات أصل أمازيغي تعود إلى مصرايم بن حام[4] .

وقد قسمت صنهاجة حسب طبيعتها الاجتماعية بسبب وجود طابعي الاستقرار والبداوة في بعض بطونها [5] ، إلى فرعين اساسيين ، أهل مدر أو أهل الطبقة الأولى [6] ، ويسمون صنهاجة

[1] وهو حسب ابن أبي دينار ، إفريقيش بن وائل أو إفريقيش بن أبرهة بن ذي القرنين (المؤنس ، ص 93).

[2] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 93؛ وهذه الرواية توافق من حيث المضمون رواية ابن خلدون الذي اشار إلى أن إفريقيش قد خلف كتامة وصنهاجة في المغرب وهما من حمير حسبما ذكر (المقدمة، ج6، ص 153، 98)؛ وانظر أيضا الناصري، الاستقصا، ج1، ص 61.

[3] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 79؛ وذكر أن " صنهاجة " أبو صنهاجة بن حصين بن سبأ لصلبه، وقيل هم فخذ من هوارة وأن هوارة فخذ من حمير (ابن أبي دينار، المؤنس، ص 93).

[4] أبن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153؛ وهم من صنهاج بن عاميل بن زعزاع بن كيمتا بن سدر بن مولان بن يصيلن بن يبرين بن مكسيلة بن دهيوس بن حلحال بن شرو (ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج6، ص 153) ويزعم نسابة البربر أيضا أن جزول واللمط وهسكور إخوة صنهاج وأمهم الأربعة تصكي وهي بنت زحيك بن مادغيس ، ويقال لها العرجاء، وبذلك تكون هذه القبائل الأربع إخوة لأم (ابن خلدون، المصدر نفسه، ج6، ص 153) ؛ وقد وردت أمهم عند الإدريسي " تازكاي العرجاء" وأبو هازناتي، وذكر أن صنهاجة ولمطة أخوان لأب واحد وأم واحدة وأن أباهم هو لمط بن زعزاع من أولاد حمير وأن هوار هو أخ لصنهاج ولمط بن أم أخرى وأبوه – أي هوار – هو المسور بن المثنى بن كلاع بن أيمن بن سعيد بن حمير، ويرى الإدريسي قصة تسمية هوار وزواجه من تازكاي أم صنهاج ولمط (نزهة المشتاق، ج1، ص 223).

[5] أنظر ، لقبال ، دور كتامة ، ص 80.

[6] ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153-154.

الشمال [1] ويعيشون في إفريقية والمغرب الأوسط [2] ، وهم مستقرون [3] ؛ وأهل وبر أو أهل الطبقة الثانية [4] ويسمون صنهاجة الجنوب [5] ويعيشون بالصحراء [6] وهم بدو [7] .

وقد عاشت صنهاجة الشمال (أهل مدر) حياة مستقرة متطورة ، وبنت الأمصار والمدن وعرفت الانماط الحضارية المتقدمة ، ومارست التفكير السياسي المبكر [8] ، بينما عاشت صنهاجة الجنوب (أهل وبر) حياة البداوة فهم لا يقيمون بمكان واحد وهم أصحاب إبل ونجب عتاق[9] ، لا يعرفون الحرث والزرع ولا الخبز [10] ، ويعتمدون في معيشتهم على اللحم واللبن[11] .

ولكن أكثر طعامهم وأحفله الطعام المسمى باللغة البربرية آسلوا [12] ، وشرابهم المفضل نقيع الزبيب [13] ، وكان لباس الرجال والنساء منهم ، أكسية الصوف ، ويربطون على رؤوسهم عمائم

(1) أنظر ، العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 18.

(2) ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153.

(3) أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 80؛ وهؤلاء هم الذين خلفوا الفاطميين في حكم المغرب بعد انتقالهم إلى مصر في القرن الرابع الهجري، وعرفت باسم الدولة الزيرية (أنظر ، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 18).

(4) ابن خلدون، المقدمة ، ج6، ص153-154.

(5) أنظر ، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 18.

(6) ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153؛ وهي صحراء شنقيط أو ما يسمى اليوم بموريتانيا في جنوب المغرب الأقصى (أنظر، العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 18).

(7) انظر ، لقبال ، دور كتامة ، ص 80.

(8) أنظر ، لقبال ، المرجع نفسه، ص 80.

(9) الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص 224؛ والنجب هي المهاري وهي أقوى تحملا واشد عدوا من الجمال في الصحراء (أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 81).

(10) البكري ، المغرب، ص 224؛ حتى أن الواحد منهم ينفذ عمره دون أن يرى الخبز إلا إذا مر بهم التجار من " بلاد الاسلام أو بلاد السودان " يطعمونهم الخبز (البكري، المصدر نفسه، ص 224).

(11) البكري، المغرب ، ص 224.

(12) الادريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص 224؛ ويتكون من الحنطة بعد قليها بشكل معتدل، ثم يتم دقها لتصبح جريشا ثم يمزجون العسل بمثله سمنا ويعجنون به الحنطة المجروشة على النار ، وبعدها توضع في مزاود خاصة لهم، ويتم أكلها بعد ذلك على فترات طويلة ، وتصبح طعاما شهيا، ويقال أن الشخص منهم إذا جاع أخذ ملء كفه من هذا الطعام "أسلوا"، وشرب عليه اللبن فيمضي بقية يومه دون أن يشعر بجوع إلى الليل (الإدريسي، المصدر نفسه، ج1، ص 224-225).

(13) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج1، ص 224؛ حيث يتم دق الزبيب ونقعه بالماء ثم يشربون صفوه (الإدريسي، المصدر نفسه، ، ج1، ص 224).

الصوف المسماة بالكرازي [1] ويبدو أن هذه العمائم يخرج منها لثام يضعه أفراد صنهاجة الجنوب على وجوههم بحيث لا ترى إلا عيونهم [2] ، ولذلك سموا بالملثمين[3] .

وصنهاجة الجنوب هم في الأصل امتداد لصنهاجة الشمال ، ولكنهم كانوا يختلفون عنهم في أنهم كانوا يتخذون هذا اللثام أو القناع[4] ، إضافة إلى بعض الفوارق الاجتماعية التي ذكرتها فيما سبق. ويذكر أن صنهاجة الجنوب هاجرت بطونها من الشمال إلى الصحراء في ظروف تاريخية غير واضحة بعد أن كانت تشارك صنهاجة الشمال في الأرومة وفي المواطن الأولى [5] ، ويؤكد ابن خلدون رابطة الأصل المشترك لفرعي صنهاجة في قوله " وكان الملك في صنهاجة في طبقتين الأولى تلكاتة ملوك إفريقية والأندلس والثانية مسوفة ولمتونة من الملثمين ملوك المغرب المسمَّيْن بالمرابطين"[6] .

---

(1) الإدريسي، المصدر نفسه، ج1، ص 224.

(2) أنظر ، لقبال ، دور كتامة ، ص 81؛ وفي اعتقادي أن اللثام هو جزء من عمائم الكرازي التي ذكرها الإدريسي (نزهة المشتاق ، ج1، ص 224) وذلك لأن استعمالها بهذه الطريقة يكون أسهل بدل من أن يكون اللثام منفصل.

(3) ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 154.

(4) أنظر، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 18؛ وهناك تفسيرات عديدة لاتخاذهم هذا اللثام ومن هذه التفسيرات أنه ربما يكون قد أخذوا هذه العادة من الزنوج المجاورين لهم في الجنوب، والذين استخدموا الأقنعة لدفع العين الشريرة الحاسدة عنهم (العبادي، المرجع نفسه، ص 18) ؛ أو انهم حسب زعمهم يعتبرون الفم سوء تستحق الستر كالعورة وذلك لما يخرج منه (أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 81).

(5) أنظر ، لقبال ، دور كتامة ، ص 81.

(6) المقدمة ، ج6، ص 154؛ ويذكر أن هناك فرعا آخر لصنهاجة وهم أهل الطبقة الثالثة ويقسمون إلى صنهاجة العز، ويعتصمون بالأماكن المرتفعة حتى لا تنالهم أيدي الجباة والسعاة، ومنهم بنو زروال؛ وصنهاجة البز ويضربون حول نهر ورغة ويشتغلون بالحياكة وبالزراعة والغراسة، وقد تم استعرابهم؛ وصنهاجة الذل ، وهم سكان نواحي مدينة أزمور وقد سموا بهذا الاسم لأن الأحكام تنالهم وتأخذ السلطة منهم الجباية (أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 86-87)؛ وقسمت صنهاجة التي تجاور المصامدة إلى قسمين : صنهاجة الذل ، وهم أشبه بصنهاجة العز، ويقطنون الجبال والأراضي المرتقعة المليئة بالأشجار والعمران؛ وصنهاجة القبلة وهم أشبه بصنهاجة البز ويسكنون الأماكن السهلية المنبسطة القريبة من وادي درعة حيث أشعة الشمس المحرقة (أنظر ، لقبال ، دور كتامة ، ص 87).

وتعددت بطون صنهاجة تعددا كبيرا، حيث ذكر بعض مؤرخي البربر أن بطونها، بلغت سبعين بطنا [1] ، وتحت كل بطن فروع وأفخاذ كثيرة [2] ، وأهم تلك البطون:

*** تلكاتة[3] :**

وينتسبون إلى تلكات بن كرت [4] ، وهم أعظم قبائل صنهاجة وكانت فيهم الرئاسة في البداية[5] ، ويصفهم ابن خلدون بأنهم ملوك إفريقية والأندلس [6] ، وهم أهل مدر (أي حضر)[7] ، وينتمي إلى بطن تلكاتة بنو زيري بإفريقية والأندلس[8] ، وبنو حماد بالمغرب الأوسط [9] وكانت مواطن تلكاتة تضرب بين المغرب الأوسط وإفريقية[10] .

*** لمتونة[11] :**

وهم من بطون صنهاجة الرحالة ، الذين لا يعرفون الحرث ولا الزرع ولا الخبز [12] ، ويشتهرون باقتناء الأنعام التي يعيشون من لبنها

---

(1) ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153؛ وحسب البكري أن بطون صنهاجة تتفرع من قبيلتين من قار بن صنهاج وجزمار بن صنهاج (المغرب، ص 104).

(2) أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 87.

(3) ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153؛ أو تلكاتة أو و تلكاتة (أنظر، روجي إدريس، الدولة الصنهاجية ، ج1، ص 36).

(4) أنظر، لقبال ، دور كتامة ، ص 87؛ ويورده ابن خلدون ملكان بن كرت (المقدمة ، ج6، ص 154).

(5) ابن خلدون ، المقدمة، ج6، ص 153.

(6) المقدمة ، ج6، ص 154.

(7) ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج6، ص 153.

(8) أنظر، روجي إدريس، الدولة الصنهاجية ، ج1، ص 36؛ وبنو زيري نسبة إلى زيري بن مناد الذي ملك هو وبنوه مائتي سنة متصلة ، هم الذين بنو بجاية ومليانة، والجزائر، والقلعة المنسوبة إليهم (مجهول، مفاخر البربر، ص 191).

(9) أنظر ، روجي إدريس، الدولة الصنهاجية ، ج1، ص 36.

(10) ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153؛ وتمتد مواطن تلكاتة من المسلية إلى حمزة إلى الجزائر ولمدية ومليانة (ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج6، ص 154).

(11) ابن خلدون، المصدر نفسه، ج6، ص 154؛ وهم نسبة إلى لمت بن النعمان كما ذكرها ابن العربي (شواهد الجلة ، ص 367).

(12) كاتب مراكشي، الاستبصار ، ص 213.

ولحمها [1] ، ومواطنهم الصحراء [2] ، لذلك وصفوا بأنهم أهل وبر [3] (أي من صنهاجة الجنوب وأهل الطبقة الثانية)، وفيما يبدو بأن هذا البطن كان لـه دور سياسـي بـالمغرب فقد ذكر أنهم ملكوا بلاد المغرب[4] .

وينتمي إلى لمتونة بنو تاشفين وهم رهط من بني ورتنطق وفيهم الرياسة والملك ، ومنزلة بني تاشفين في لمتونة كمنزلة بني مناد في تلكاتة [5] ، وقد عرفت لمتونة هي ومسوفة فيما بعد بالملثمين أو بالمرابطين [6] .

*** جدالة[7] أو كدالة[8] :**

وهم إخوة لمتونة وكلاهما من صنهاجة [9] ، وجدالة كانت ذات بأس ونجدة، ولها رئاسة قديمة [10] ، ومواطنها في الصحراء مما يلي بلاد السودان في آخر بلاد المسلمين [11] ، ويجاورن البحر هناك، فلا يفصل بينهم وبينه أحد[12] .

---

[1] كاتب مراكشي، المصدر نفسه، ص 213؛ ومما يذكر عن طريقة تحضير طعام لمتونة أنه يتم تجفيف اللحم وبعدها يتم طحنه ويصبون عليه الشحم المذاب مع السمن، ويأكلونه ويشربون عليه اللبن وهو يغنيهم عن الماء، ويبقى منهم الفرد شهراً لا يشرب ولا يأكل خبزا ، والخبز نادرا ما يحصلون عليه، عند مرور القوافل التجارية بديارهم ، ومع ذلك صحتهم جيدة (كاتب مراكشي، الاستبصار، ص 213).

[2] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 225؛ مجهول ، مفاخر البربر ، ص 191.

[3] ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153.

[4] السراج، الحلل السندسية ، ج2، ص 61؛ ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 94.

[5] مجهول، مفاخر البربر، ص 191-192.

[6] ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 154؛ إذ تمكنت لمتونة بمساعدة مسوفة - وهي من صنهاجة أيضا- من إقامة الدولة المرابطية (أنظر ، ورجي إدريس، الدولة الصنهاجية ، ج1، ص 36).

[7] البكري، المغرب ، ص 164؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 225؛ مجهول، مفاخر البربر، ص 192

[8] ابن خلدون ، المقدمة ، ج6، ص 153.

[9] مجهول ، مفاخر البربر، ص 192.

[10] مجهول ، مفاخر البربر، ص 192، ويذكر أن أول ملوكها هو يحيى بن إبراهيم (مجهول ، مفاخر البربر، ص 192).

[11] مجهول، مفاخر البربر، ص 192.

[12] البكري، المغرب، ص 164.

الفصل الأول

البربر والوجود الفاطمي والأموي

(138-297هـ/755-910م)

- البربر والدولة الأموية بالأندلس قبل الوجود الفاطمي (138-297هـ/755-910م)
- البربر والدعوة الإسماعيلية بالمغرب حتى قيام الخلافة الفاطمية سنة 297هـ/910م.
- أسباب الصراع الفاطمي والأموي.
- مظاهر الصراع الفاطمي والأموي.

ارتبطت نشأة الدولتين الأموية في الأندلس والفاطمية ، على أرض المغرب والأندلس بموقف القبائل البربرية من كلا الطرفين ، إذ انقسمت قبائل البربر على نفسها، بين مؤيد ومعارض لوجود هاتين الدولتين.

فقد ظهر الموقف الإيجابي للبربر مبكرا في الوقوف إلى جانب هاتين الدولتين ، إذ ساند البربر عبد الرحمن الداخل منذ وصوله إلى بلاد المغرب ، حينما احتمى بكنف قبيلة أخواله نفزه من خطر العباسيين ، ثم مناصرتها له، هي، وبقية قبائل البربر، أثناء عبوره إلى الأندلس ، وتاسيسه الدولة الأموية بها سنة 138هـ/ 755م.

كما يظهر دور البربر في مساندة دعاة الشيعة الفاطميين ، ابتداء من مسير أبي عبد الله الشيعي ، داعية الفاطميين ، من بلاد الحجاز على رأس وفد حجاج قبيلة كتامة البربرية التي تبنت الدعوة الإسماعيلية من تلك اللحظة ، وحتى تأسيس الدولة الفاطمية بالمغرب سنة 297هـ/ 910م ، ثم امتداد ذلك الدور الإيجابي لقبيلة كتامة طيلة فترة وجود الدولة الفاطمية في إفريقية.

ومع تسجيل هذا الموقف الإيجابي لقسم من البربر ، فإن القسم الآخر، قد وقف موقفا سلبيا من قيام الدولتين ، وعارض وجودهما بكل ما يملك من وسائل المقاومة ، وقد ابتدأت تلك المقاومة بالمواجهة المباشرة والمنافسة قبل فترة التأسيس ، ثم استأنفت تلك المعارضة بالثورات المتكررة على تلكما الدولتين كلما سنحت الظروف بذلك.

البربر والدولة الأموية بالأندلس قبل الوجود الفاطمي (138-297هـ/ 755-910م)

تحمل البربر معظم عبء فتح الأندلس [1] ، وكان لهم نصيب وافر في تدعيم الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية [2] ، وينتمي هؤلاء البربر الذين أسهموا في هذا الفتح إلى العديد من قبائل البتر والبرانس في شمال إفريقية [3] ، وقد اتسمت هجرة القبائل البربرية الى الأندلس بأنها أسرع وأكثر عددا من هجرة القبائل العربية ، لقرب منازل البربر في العدوة إلى الأندلس من ناحية ، ثم شعورهم بأنهم لهم فضل في أعمال الفتح من ناحية أخرى، إضافة إلى رغبتهم في تغيير وضعهم وإيجاد مكانة فضلى في هذا المصر الجديد[4] .

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن عرب الأندلس لم ينظروا إلى بربرها نظر الند للند [5] ، فقد استبد العرب دونهم بخيرات الأندلس وحرموهم منها [6] ، لأن العرب اختاروا لأنفسهم الأراضي السهلة والخصبة[7]، بينما سكن البربر المناطق الجبلية والهضاب المرتفعة الممتدة في وسط شبه الجزيرة وكانت تعرف هذه المنطقة بالجوف [8] ، كما استبد العرب بحكم البلاد ، ولم

---

[1] أنظر ، مؤنس ، ثورات البربر في إفريقية والأندلس، ص 153؛ حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 3؛ إذ قتل منهم في هذا الفتح آلاف بينما لم يفقد العرب إلا بضع مئات (مؤنس، ثورات البربر، ص 153) ؛ ويصف غوتييه مشاركة البربر في فتح الأندلس بقوله : " وفجأة عبر الفاتحون العرب مضيف جبل طارق وانقضوا على بلاد الأندلس ، مستخدمين تلك القبائل البربرية التي كان من شأنها أن تهددهم من الخلف" (أنظر، ماضي شمال إفريقيا، ص 198) .

[2] أنظر، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 3؛ أطلق العرب على اسم إيبيرية اسم " الأندلس" المشتق من اسم قبائل الفندال أو الوندال الذين احتلوها الرومان ثم نزحوا منها إلى شمالي إفريقية (ابن سودة ، الموسوعة العامة، ج2، ص 58).

[3] أنظر، ذنون طه، استقرار القبائل البربرية، ص 2.

[4] أنظر، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 3.

[5] أنظر، مؤنس، ثورات البربر في إفريقية والأندلس، ص 253؛ حيث " اشتدوا عليهم جميعا، أصدقاء وغير أصدقاء ، أحلافا وغير أحلاف". (مؤنس ، المرجع نفسه، ص 153).

[6] أنظر، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 3.

[7] أنظر، مريم قاسم ، مملكة غرناطة ، ص 244.

[8] أنظر ، مكى ، التشيع في الأندلس ، ص 98.

يقف الأمر عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى سوء المعاملة والإهانة [1] ، فأنكر البربر فعل العرب هذا، وبدأت نفوسهم تتغير تجاه العرب[2] .

وعلى الرغم من أن حسين مؤنس قد أعطى تفسيرا منطقيا، لاختلاف المؤرخين المحدثين، بشأن استقرار العرب والبربر في الأندلس ، فيذكر أنه ربما استقر العرب والبربر حيث نزلوا ، أو ربما اختار كل فريق منهما مناطق سكناه حسب ما يناسب طبيعته ، فالعرب فضلوا البسائط والمنخفضات والمناطق الدافئة ، وأما البربر فكانوا يعيشون في المغرب في بلاد جبلية عالية، فألفوا هذه المناطق في الأندلس، ولذلك استقروا فيها باختيارهم [3] ، ولكن أحد هؤلاء المؤرخين ، يرفض هذا التفسير على اعتبار أن البربر لم يكونوا كلهم سكان جبال وهضاب، فهناك بربر البرانس من الذين دخلوا إلى الأندلس، وكانوا أهل " شطآن" ، وسهول وسواحل وحواضر كبرى، فلا يعقل – حسب رأيه- أن يكون هؤلاء قد اختاروا بحريتهم تلك المناطق الجبلية التي سكنوا فيها شمال الأندلس، ويرى أن البربر لو اختاروا مناطق سكناهم بأنفسهم ، لم يكن عندهم كل ذلك الكره للعنصر العربي ، خلال فترة زمنية قصيرة [4] .

وعلى أية حال، لم يذكر هؤلاء المؤرخون المحدثون مصادر معلوماتهم فيما ذهبوا إليه من إجبار العرب للبربر في استقرارهم في أماكن محددة ، أو إقصائهم عن تسلم المناصب الإدارية ، وسوء معاملتهم لهم، ويبدو أن هؤلاء المؤرخين أرادوا أن يسوغوا كثرة ثورات البربر في الأندلس في هذه الفترة المبكرة من الفتح ، فعزوا تلك الثورات إلى الأسباب السياسية والاجتماعية والاقتصادية المستمدة من الملامح العامة لذلك العصر، وفاتهم أن البربر الذين دخلوا إلى الأندلس

---

[1] أنظر، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 3.

[2] أنظر، مؤنس، ثورات البربر في إفريقية والأندلس، ص 153؛ كما يذكر أن البتر كانوا أهم حرس الولاة المقربون إليهم ، وكان الولاة يميزونهم عن البرانس ، ويتخذون منهم بطانتهم، وعند ما جاء يزيد بن أبي مسلم ، أغفل هذه الناحية واساء معاملة البتر، وأرادوا امتهانهم وإذلالهم ففقد العرب من ذلك الحين ولاء البتر وهم من بربر إفريقية ، وهو حسب مؤنس كان له أثر كبير في تطور الحوادث فيما بعد (ثورات البربر، ص 153).

[3] فجر الأندلس، ص 387-388.

[4] نعنعي، تاريخ الدولة الأموية بالأندلس، ص 109.

كانوا أضعاف العرب من حيث العدد ، حتى إن العرب كانوا يشعرون أنهم أقلية بجانب البربر[1] ؛ فربما لكثرة أعدادهم ، أخذتهم العزة بالنفس فرغبوا أن يستأثروا بالحكم من دون العرب، فحاولوا تحقيق ذلك عن طريق الثورات.

وامتازت الفترة الممتدة بين فتح الأندلس وقيام الدولة الأموية والبالغة نحو أربعين عاما أو ما يزيد بقليل ، بأن تعاقب على حكم الأندلس أكثر من عشرين واليا، لم تزد ولاية بعضهم على ستة أشهر ، وهؤلاء لم يكونوا سوى نواب لوالي القيروان [2] . كما امتازت الفترة بتمركز الحزب الأموي بالأندلس بعد الفتح ، بسبب قدوم الكثير من الجنود الأمويين الذين اشتركوا في فتح الأندلس، أو الذين أرسلوا لمقاومة الخوارج من بلاد الشام سنة 122هـ/ 740م ، كما التحق جيش كامل بقيادة بلج بن بشر بالأندلس بعد هزيمة الجيش الأموي في موقعة الأشراف[3] .

وانتقلت الخلافات القديمة بين العرب من المشرق إلى الأندلس، عندما انقسموا هناك إلى يمنية و مضرية [4] ، وهو نفس الانقسام الذي عرفوا به قبل خروجهم للأندلس، وكانت قد جرت بينهم معارك أهمها ، معركة مرج راهط[5] .

---

[1] أنظر، مؤنس، ثورات البربر في إفريقية والأندلس، ص 153.

[2] ابن سودة ، الموسوعة العامة ، ج2، ص 87؛ ويذكر المراكشي أن ولاة الأندلس يتم تعيينهم من قبل بني أمية أو من قبل الولاة المقيمين بالقيروان أو بمصر (المعجب، ص 14).

[3] أنظر، الجنحاني ، دراسات ، ص 163؛ وأعمال الملتقى الثالث، ص 21-22؛ وعن موقعة الإشراف ، راجع ، مجهول ، أخبار مجموعة ص 41-44؛ ابن القوطية ، افتتاح الأندلس، ص 42-43.

[4] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 126.

[5] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 65، هامش 2؛ ومرج راهط موقعة حدثت قرب مدينة دمشق عاصمة الأمويين في خلافة مروان بن الحكم وهي فيما بين العرب اليمنية أصحاب مروان وبين الضحاك بن قيس زعيم العرب المضرية، وفيها قتل الضحاك وعدد كبير من المضرية (الفيلالي، المرجع نفسه، ص 65، هامش 2).

وجاء تعيين أبي الخطار على الأندلس من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك [1] ، سنة 125هـ/ 743م [2] ، لما كان من تأزم الأحداث وقيام الحرب بالأندلس " بين الشاميين والأمويين، وبين البلديين والبربر" [3] ، واستطاع أبو الخطار امتلاك زمام السلطة، إذ أفرج عن الأسرى والسبايا وأخرج ثعلبة بن سلامة العاملي الذي تولى أمر قرطبة بعد قتل واليها بلج بن بشر، ومن معه من الأندلس، وفرق الجند الشاميين على مختلف كور الأندلس وأعاد الأمن والاستقرار إلى البلاد[4] .

ومما يذكر أن أبا الخطار أظهر الميل إلى اليمنية على المضرية فاجتمع المضرية إلى زعيمهم الصميل بن حاتم الكلابي، الذي هاجم أبا الخطار بقرطبة وقبض عليه وقتله [5] ، فبقيت الأندلس دون والٍ أربعة أشهر [6] ، وتشير الروايات التاريخية أنه وقع الاختيار على تولية الأندلس إلى يوسف بن عبد الرحمن [7] بن حبيب [8] بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري[9] ، الذي استقرت به أمور الولاية وثبتت عليه قلوب الناس إلى حين قيام الدولة الأموية بالأندلس[10] .

---

[1] ابن القوطية ، افتتاح الأندلس، ص 42.

[2] أنظر، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 9.

[3] ابن القوطية ، افتتاح الأندلس، ص 43.

[4] ابن القوطية ، المصدر نفسه، ص 41-44.

[5] ابن القوطية ، المصدر نفسه، ص 44.

[6] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 62.

[7] ابن القوطية ، افتتاح الأندلس، ص 44؛ الحميدي ، جذوة المقتبس، ص 9؛ الضبي، بغية الملتمس، ص 12.

[8] ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ، ص 44.

[9] ابن القوطية ، المصدر نفسه، ص 44؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص 9؛ ويذكر ابن عذاري ، أن الناس اجتمعوا على الصميل بن حاتم " فوقع نظره ونظرهم على تقديم يوسف بن عبد الرحمن الفهري" (البيان ، ج1، ص 62).

[10] الضبي ، بغية الملتمس ، ص 12؛ المراكشي، المعجب، ص 15.

وفي غمرة الأحداث التي كانت تجري بالأندلس في تلك الفترة، استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك [1] ، الملقب بالداخل [2] ، ويكنى أبا المطرف [3] ، الإفلات من سيوف بني العباس بالمشرق[4] ، على أثر القضاء على الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية بالعراق إثر بيعة الخليفة العباسي الأولى أبي العباس السفاح سنة 132هـ/ 750م [5] .

ووصل عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى بلاد المغرب [6] ، بعد فراره من أيدي العباسيين[7] ، وبدأ يتنقل بين قبائل البربر [8] ، وأقام في برقة مدة ثم تركها وانتقل بعدها إلى القيروان [9] ، وفي الطريق إليها وافاه مولاه

---

[1] الحميدي، جذوة المقتبس، ص 8؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 40؛ ابن الخطيب، الخطط ، ج3، ص 764؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 125؛ المراكشي، المعجب، ص 15؛ بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص 26؛ ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 467) بن عبد مناف (ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس ، ج1، ص 26).

[2] ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 467؛ المراكشي، المعجب، ص 15؛ ويلقب أيضا بصقر بني أمية (ابن الخطيب، الخطط، ص 467).

[3] الحميدي، جذوة المقتبس، ص 8؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 47؛ ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 465؛ وقيل أبا يزيد وأبا سليمان أيضا (ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 467)؛ وكان أبو جعفر المنصور يسميه " صقر قريش" (المقري، نفح الطيب، ج1، ص333).

[4] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 125؛ المقري، نفح الطيب ، ج1، ص 328.

[5] مجهول، أخبار مجموعة ، ص 49؛ الضبي، بغية الملتمس، ص 2؛ ويذكر أن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، آخر خلفاء بني أمية قد تم قتله بعد تسعة أشهر من بيعة أبي العباس السفاح في ناحية الفيوم من أعمال مصر (الضبي، بغية الملتمس ، ص 12) ؛ وأرسل رأسه إلى أبي العباس في العراق ويذكر أيضا أن أبا العباس قد تتبع بني أمية بالقتل والتمثيل بهم، وأخذ أبان بن معاوية فقطع يده ورجله ثم طيف به في كور الشام " ينادي على رأسه هذا أبان بن معاوية فارس بني أمية ، حتى مات" (مجهول، أخبار مجموعة ، ص 49).

[6] مجهول، أخبار مجموعة ، ص 55؛ ابن عذاري ، البيان ، ج2، ص 41؛ ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 468؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 125؛ وحسب ما أورده بعض المؤرخين ، أن عبد الرحمن بن معاوية كان متأثرا بالنبوءة بخصوص قدومه للأندلس ، فيما أخذه عن أخي جده مسلمة بن عبد الملك (ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41)؛ ويذكر أن عبد الرحمن بن معاوية سمع ذلك مشافهة من مسلمة بن عبد الملك ، فكان لتلك النبوءة أثرها إذ توقع قومه له الملك في المغرب (ابن خلدون، العبر، ج4، ص 125).

[7] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 125؛ ابن الخطيب، الإحاطة ، ج1، ص 444.

[8] دائرة المعارف الإسلامية ، ج2، ص 682.

[9] مجهول ، أخبار مجموعة ، ص 56؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41؛ ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 469.

بـدر[1] ، ولكـن مقامـه لـم يطـل بـالقيروان [2] ، إذ تعـرض لاضـطهاد واليهـا عبـد الـرحمن بـن الحبيب[3] الفهري، الـذي استقل بولايـة إفريقيـة سـنة 127هــ/ 745م، وبعد سقوط الخلافـة الأمويـة انقلب إلى دعوة بني العباس[4] .

وتابع عبد الرحمن بن معاوية مسيره بين مضـارب قبائل البربـر بـالمغرب، فنـزل عند قبيلـة تادلا [5] ، قليلا ، ثم رحل عنها، لما ناله من ضيق عندهم [6] ، وتكاد الروايات التاريخية تجمع على أنه استقر به المقام عند أخواله نفزة [7] من برابرة طرابلس [8] ، حيث وجد الأمان هناك[9] .

ولعل هذا الاستقرار يفسر الإشـارات التـي وردت علـى هيئـة نبـوءات عنـد بعض المـؤرخين التي جاء فحواها أن عبد الـرحمن بـن معاويـة سـوف يملك بالأنـدلس [10] ، وأن بنـي أميـة لمـا اشتد الطلب عليهم من قبل بنـي العبـاس هرب أكثرهم إلـى افريقيـة، لأنهم كـانوا يؤمنـون بـالنبوءة التـي

---

[1] ابن عذاري ، البيان ، ج2، ص 41؛ فيذكر أن مولاه قال : " فأدركته في الطريق، وجهتني إليه أم الأصبغ أخته شقيقته بدنانير وشيء من الجوهر يستعين بها على النفقة والوصول ، فوصل إلى إفريقية " (ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص41)؛ ويورد مؤلف مجهول أنه كان مع بدر مولى عبد الرحمن الداخل، أبي شجاع مولى أم الأصبغ أخته، ولم يحدد المكان الذي لحقا به بقوله : فلحقاه حيث لحقاه لا أدري" (أخبار مجموعة ، ص 55-56).

[2] مجهول، أخبار مجموعة ، ص 56؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 125.

[3] دائرة المعارف الإسلامية، ج2، ص 682.

[4] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج1، ص 150؛ ومما يرد أن عبد الرحمن بن حبيب كان عنده يهودي خدم برفقة مسلمة بن عبد الملك فسمعه يحدث أنه يغلب على الأندلس رجل من بني أمية اسمه عبد الرحمن ، ذو ظفيرتين ، فنظر إلى عبد الرحمن فوجده بظفيرتين (مجهول ، أخبار مجموعة ، ص 56؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41) ؛ وصار ابن حبيب يقتل القادمين إلى القيروان من بني أمية (ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41)؛ وكان ممن قتل من بني أمية إبني الوليد بن عبد الملك (ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 126) ؛ والرواية التي وردت عند صاحب أخبار مجموعة وابن عذاري ، يمكن أن تكون جزء من النبوءة.

[5] ابن عذاري ، البيان ، ج2، ص 41؛ وتوجد في المغرب الأقصى مدينة باسم تادلة (بالتاء المربوطة) (الإدريسي، نزهة المشتاق ، ج1، ص 241)، ولعل هذه القبيلة هي فرع من إحدى البطون البربرية الكبرى.

[6] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41.

[7] مجهول، أخبار مجموعة ، ص 57-58 ؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41؛ ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 468؛ ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 125؛ حيث يذكر أن أمه كانت من سبيهم (ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41).

[8] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 125.

[9] مجهول ، أخبار المجموعة ، ص 66.

[10] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41.

مفادها أن " مستراحهم بالمغرب" [1] فتلك النبوءة جاءت موافقة للفترة التي استقر بها الكثير من بني أمية بالأندلس أثناء الفتح الإسلامي ، وهذا يعطي تصوراً خاصاً لمن بالمشرق من بني أمية بأن يكون لهم ملك بالأندلس، ويمكن أن تحول ذلك التصور إلى نبوءات أصبحت تتداول على ألسنة العامة، ثم إن رابطة النسب التي تربط بني أمية مع بربر المغرب الأقصى باعتبار نفزة أخوال عبد الرحمن بن معاوية ، وما سيجدونه عندهم من النصرة والحماية لإقامة ملك بالأندلس بعد انهيار ملكهم بالمشرق، أعطاهم مسوغاً للأخذ بتلك النبوءات والتصديق بها، خصوصا أن عبد الرحمن بن معاوية يملك أهم صفات الملك، فهو قرشي من بني أمية[2] .

وتجول عبد الرحمن بن معاوية على ساحل العدوة [3] ، يرقب أحوال الأندلس وأخبارهم وفرص العبور إليها [4] وتنقل بين مغيلة [5] ، ومكناسة [6] ، ونزل بكنف قوم من زناتة [7] ، فأحسنوا استقباله واطمأن لهم [8] ، ثم انتقل إلى مليلة [9] ، وفيما يبدو أنه تردد بين هذه المدن المغربية قبل عبوره إلى الأندلس ، بسبب قرب المسافة بين تلك المدن من جهة ، ولأنها تقع على مقربة من ساحل الأندلس من جهة أخرى [10] ، وعندما علم عبد الرحمن بن معاوية أن الأندلس مفترقة بين المضرية واليمانية [11] انتظر إلى أن احتد الصراع بين الطرفين في أواخر سنة

---

[1] مجهول ، أخبار مجموعة ، ص 52.

[2] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41.

[3] ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 469.

[4] أنظر، عنان ، دولة الإسلام، ج1، ص 151.

[5] مغيلة : مدينة تقع في المغرب الأقصى وهي متصلة العمارة في وسط فحص كثير الأعشاب والخضر والأشجار والثمار (الادريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 224).

[6] مكناسة : وهي من مدن المغرب الأقصى وسميت باسم مكناسة البربري عندما نزلها مع أولاده عند حلولهم بالمغرب واقطع لكل ولد من أولاده قطعة يعمرها، وتعرف هذه المدينة أيضا باسم تاقررت (الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 224).

[7] ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 469.

[8] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126.

[9] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج4، ص 126.

[10] ابن الخطيب، الإحاطة ، ج1، ص 444.

[11] ابن الخطيب، المصدر نفسه، ج1، ص 444.

136هـ/ 753م [1] ، وبعث بدرا مولاه إلى الأندلس لكسب جانب موالي المروانيين وأتباعهم هناك فانضموا إليه ، وبثوا دعوته بالأندلس ، كما انضم إليه اليمنية [2] ، نكاية بخصومهم المضرية وهم أبناء يوسف الفهري والي الأندلس في تلك الفترة [3] ، وعاد بدر إلى المغرب بعد أن ضمن تأييد اليمنية وأتباع بني أمية بالأندلس، وكان عبد الرحمن بن معاوية قد استقر به المقام عند شيخ من رؤساء البربر يسمى وانسوس البربري، ويكنى أبا قرة [4] المغيلي ، وهو زعيم مغيلة[5] .

ثم عبر عبدالرحمن بن معاوية إلى الأندلس بعد أن اطلع على النتائج الإيجابية التي وصلته عن طريق مولاه بدر في أثناء تجواله هناك[6] ، ونزل بساحل المنكب[7]، وذلك في ربيع الآخر[8] سنة 138هـ / أيلول سنة 755م [9] ، واجتمعت إليه اليمنية [10] " وكل من كانت في باطنه حرارة أو موجدة" ، ضد يوسف الفهري [11] ، ولم يلبث عبد الرحمن بن معاوية أن توجه صوب قرطبة

[1] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 41؛ انظر، عنان ، دولة الإسلام ، ج1، ص 151.

[2] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126.

[3] انظر، عنان، دولة الإسلام، ج1، ص151؛ الفيلالي ، العلاقات السياسية ، ص 65؛ وفيما يبدو أن الصميل بن حاتم وهو وزير يوسف الفهري والمتغلب على أمره (ابن القوطية ، افتتاح الأندلس، ص 44)؛ قد أبدى ترددا وفتورا بشان تسلم عبد الرحمن بن معاوية ، حكم الأندلس، واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف ويكون آمنا عنده (مجهول، أخبار مجموعة، ص 69-70؛ ابن عذاري، البيان ، ج2،ص 43).

[4] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 333.

[5] مجهول ، أخبار مجموعة ، ص 71.

[6] انظر، عنان ، دولة الإسلام، ج1، ص 152.

[7] ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص 47؛ ابن عذاري ، البيان ، ج2، ص 44؛ ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 469؛ ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 126 ؛ المنكب اسم عربي بمعنى الحصن، وهو مرفأ ساحلي مرتفع في جنوب شرق الأندلس بمقاطعة غرناطة (حمدي عبد المنعم، ثورات البربر في الأندلس، ص 10، هامش 2).

[8] انظر ، عنان ، دولة الإسلام، ج1، ص 152.

[9] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 44؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 126؛ وكان دخول عبد الرحمن إلى الأندلس في عهد خلافة أبي جعفر المنصور (الحميري، جذوة المقتبس، ص 9؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126).

[10] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126.

[11] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 58.

[1] ، إذ يوجد بها يوسف الفهري والصميل بن حاتم [2] ، وفي الطريق إليها انضم إلى عبد الرحمن عدد كبير من جند مالقة وجند رندة [3] ، وجزء كبير من المضرية ، ولم يبق مع يوسف الفهري غير الفهرية أتباعه، والقيسية أتباع الصميل[4] .

وازداد موقف عبد الرحمن قوة عندما أخذ زعماء الأجناد بالأندلس له البيعة من أجنادهم ، فقد أخذ له يوسف بن بخت البيعة من جند الأردن ، وأخذ له عبد الله بن خالد البيعة من جند حمص ، وأخذ ايضا تمام بن علقمة البيعة له من أهل فلسطين [5] ، كما أخذت البيعة له، من جرار بن عمرو القيسي زعيم العرب بكورة رية [6] ، ومن حسان بن مالك الكلبي زعيم العرب بإشبيلية [7] .

وأمام تداعيات الموقف بالأندلس التي جاءت في مصلحة عبد الرحمن بن معاوية، التقت قواته المكونة من فرقتين ، فرقة من العرب وأخرى من البربر [8] ، مع قوات يوسف الفهري بظاهر قرطبة [9] ، وانهزام يوسف وأتباعه إلى

---

[1] قرطبة : بضم أوله ، وسكون ثانية، وهي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها (ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص 324-325)، على ضفة نهر الوادي الكبير على سهل مرتفع في سفح جبل (أنظر، ابن غالب فرحة الأنفس، ص 295؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 192)، وكانت سريرا لملكها وقصبتها (ياقوت ، معجم البلدان، ج4، ص 325).

[2] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126؛ ويذكر أن يوسف الفهري كان غازيا بجليقية أثناء عبور عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس ، وعندما علم بذلك عاد إلى قرطبة لمحاربته (ابن خلدون، المصدر نفسه، ج4، ص 126).

[3] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج4، ص 126؛ مالقة : مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رية سورها على شاطيء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية (ياقوت ، معجم البلدان ، ج5، ص 43)؛ رندة : بضم أوله وسكون ثانيه ، معقل حصين بالاندلس من أعمال تاكرنا، وهي قديمة على نهر جار، وبها زرع واسع وضرع سابغ (ياقوت ، معجم البلدان، ج3، ص 73-74).

[4] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 126.

[5] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 45.

[6] ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ص 47؛ رية: كورة عظيمة خصبة ومدينتها ارجدونة ومنها كان عمر بن حفصون (الاصطخري، المسالك والممالك، ، ص 36).

[7] أنظر، عنان، دولة الإسلام ، ج1، ص 152؛ اشبيلية : بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة ، وياء ساكنة ، وهي مدينة كبيرة عظيمة ، وليس بالأندلس اليوم أعظم منها (ياقوت ، معجم البلدان، ج1، ص 195).

[8] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 47.

[9] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 329؛ وقرطبة ، حسب المقدسي "أجل من بغداد"، ولها خمسة أبواب ، باب الحديد، وباب العطارين، وباب القنطرة، وباب اليهود، وباب عامر (أحسن التقاسيم، ص 223).

غرناطة [1] ، ودخل عبد الرحمن بن معاوية قصر قرطبة [2] ، يوم عيد الأضحى [3] ، في العاشر من ذي الحجة سنة 138هـ [4] / الرابع عشر من صفر سنة 756م [5] ، وتمت له البيعة العامة بها [6] ، وأعلن بذلك قيام الدولة الأموية بالأندلس[7] .

ولم يصمد يوسف الفهري أمام قوات الأمير عبد الرحمن التي لاحقته إلى غرناطة، فاضطر إلى طلب الصلح ، وعاد مع الأمير عبد الرحمن إلى قرطبة ، وسكن الفهري منزله بالمدينة ، بينما سكن الصميل داره بالربض [8] ، وكان ذلك في شهر صفر سنة 139هـ/ أيار سنة 757م [9] ، ولم يلبث يوسف سوى مدة قصيرة حتى نقض عهده ، وهرب من قرطبة ولحق بمدينة طليطلة[10] سنة 141هـ/ 759م، واجتمع إليه أكثر من عشرين ألفا من البربر [11] ، فعقد الأمير عبد الرحمن إلى عبدالملك بن عمر المرواني [12] ، عامل اشبيلية [13] ، وإلى ابنه عمر بن عبد الملك عامل

---

[1] ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 126؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 329؛ غرناطة : وهي مدينة أندلسية تقع على واد ، تمتد البساتين على طوله حوالي ثلاثة عشر ميلا (المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 235).

[2] ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص 26.

[3] الحميدي ، جذوة المقتبس، ص 9؛ ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 469.

[4] ابن الخطيب، الخطط، ج3، ص 469؛ انظر، عنان، دولة الإسلام ، ج1، ص 154.

[5] أنظر، حمدي عبد المنعم، ثورات البربر في الأندلس، ص 12.

[6] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 47؛ ويذكر أن البيعة تمت إلى عبد الرحمن بالأندلس سنة 139هـ/ 758م (القرماني، أخبار الدول، ص 61؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 58).

[7] أنظر، حمدي عبد المنعم، ثورات البربر في الأندلس، ص 12.

[8] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 48.

[9] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 48؛ انظر، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 12.

[10] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 329.

[11] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 49؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126؛ وأما عن الصميل بن حاتم ، فقد شك الأمير بن عبد الرحمن أنه قد شاركه في هذا التدبير، فقبض عليه وزج في السجن (انظر، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 13)، وبقي في السجن حتى دس عبد الرحمن عليه من قتله داخل السجن خنقا في أواخر سنة 142هـ/ 760م (أنظر ، عنان ، دولة الإسلام، ج1، ص 159).

[12] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 329.

[13] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 49؛ ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 126؛ وكن عبد الملك المرواني قدم من المشرق إلى الأندلس سنة 141هـ/ 759م، فارا من بني العباس فعينه عبد الرحمن واليا على اشبيلية ، وعين ابنه عمر بن عبد الملك واليا على مورور (ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126).

مورور[1] ، بالخروج إليه ولقائه، وبعد أن التقى الطرفان ، انهزم يوسف الفهري وتفرق أصحابه[1] ، وفي سنة 142هـ/ 760م ، اغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة ، واحتزوا رأسه وتقدموا به إلى الأمير عبد الرحمن [2] ، فاستقرت أمور دولته فترة من الزمن[3] .

وقد أدى البربر دورا مزدوجا في تاريخ الدولة الأموية في الأندلس ، فبينما كان لهم الدور الأول في تدعيم وجودها وموقفها ، كان لهم دور أيضا في تهديدها وعدم استقرارها ، فلم تكد أحوال الأمير عبد الرحمن تستقر حينا من الزمن ، حتى ثار عليه سنة 152هـ/ 768م، رجل بربري [4] ، في شرق الأندلس، يعرف بشقيا بن عبد الواحد [5] ، وأصله من مكناسة العدوة [6] ، وكانت أمه تسمى فاطمة ، فادعى أنه فاطمي ، وأنه من نسل الحسين بن علي [7] ، وتسمى بعبد الله بن محمد، وكان يعمل معلما للصبيان، ويسكن في مدينة شنتبريه[8] ، واجتمع إليه عدد كبير من البربر[9] ، فخرج إليه الأمير عبد الرحمن ، فهرب أمامه الفاطمي إلى الجبال واعتصم بها [10] ، فولى الأمير عبد الرحمن على طليطلة حبيب بن

---

[1] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 49؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 126؛ وكان الأمير عبد الرحمن قد جاء من قرطبة ونزل بمورور ينتظر نتائج المعركة (ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 49).

[1] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 49؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 126.

[2] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 49؛ ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج4، ص 126؛ وقيل أن الذي قتله عبد الله بن عمر الأنصاري، حيث وجده على بعد أميال من طليطلة ، واحتز راسه ، وتقدم به إلى الأمير ، وعندما علم الأمير بأمره أمر بقتل ابنه الذي كان رهينة في قرطبة " وأخرج رأسه إلى رأس أبيه، ووضعها في قفاتين وتقدم بها إلى باب القصر" (ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 49).

[3] ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 126؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 329.

[4] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 54؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 128؛ ويشير محمود مكي، أن ثورة شقيا بن عبد الواحد كانت سنة 151هـ/ 768م (أنظر، التشيع في الأندلس، ص 98).

[5] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج4، ص 128.

[6] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 54.

[7] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 54.

[8] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 128؛ شنتبرية: بلدة تقع شمال شرق طليطلة بالقرب من منابع نهر تاجة (أنظر ، حمدي عبد المنعم، ثورات البربر في الأندلس، ص 18، هامش 1).

[9] ابن خلدون، العبر، ج4، ص128.

[10] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 54؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 128.

عبد الملك [1] ، ثم قفل عائدا إلى قرطبة ، فأقبل الفاطمي إلى شنتبرية ، وقتل عاملها [2] ، سليمان بن عثمان بن مروان [3] ، واحتل ناحية قورية [4] ، وأصبح يهاجم أماكن وجود الجيش الأموي ، ثم لجأ إلى الجبال [5] ، حيث اتخذ هناك من حصن شبطران في جبال بلنسية مقرا له [6] . وفي سنة 156هـ/ 773م ، استخلف الأمير عبد الرحمن ابن سليمان على قرطبة ، وقرر الخروج بنفسه إلى قتال الفاطمي[7] ، وحاصره في حصن شبطران [8] .

ولكن الأمير عبد الرحمن اضطر للعودة إلى قرطبة، بعد أن علم بثورة عبد الغفار وحيوة بن قلاقس مع حشد من اليمانية في مدينة إشبيلية ، فأوكل مهمة قتالهم إلى عبد الملك بن عمر الذي استطاع هزيمتهم ، وأجبرهم على التحصن في داخل مدينة إشبيلية ، ثم سار الأمير عبد الرحمن سنة 157هـ/ 774م ، إليها، فقتلهم بها وقتل عدداً كبيراً معهم" واستراب من يومئذ بالعرب إلى اصطناع القبائل من سواهم، واتخاذ الموالي" [9] .

---

[1] ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 128؛ وهو حبيب بن عبد الملك بن الوليد بن مروان ، وقد دخل الأندلس قبل الامير عبد الرحمن بن معاوية ، وكانت له مكانة عظيمة عند الأمير عبد الرحمن ، وولاه طليطلة وأعمالها، وتوفي في أيام الأمير عبد الرحمن الداخل، فشهد جنازته وصلى عليه (أنظر، حمدي عبد المنعم، ثورات البربر في الأندلس، ص 18 هامش 2).

[2] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 54؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 128.

[3] ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 128؛ بن عثمان بن أبان بن عثمان بن عثمان، الذي كان قد ولاه عليها حبيب بن عبد الملك عامل طليطلة (ابن خلدون، المصدر نفسه، ج4، ص 128).

[4] ابن خلدون، المصدر نفسه، ج4،ص 128؛ قورية: بالضم ثم السكون والراء مكسورة وياء خفيفة وهي مدينة من نواحي ماردة بالأندلس ، كانت للمسلمين ، وهي النصف بينها وبين سمورة مدينة الإفرنج (ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص 412).

[5] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 54؛ ابن خلدون، ج4، ص 128.

[6] ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 128.

[7] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج4، ص 128؛ ويذكر ابن عذاري أنه كان قد خرج إليه سنة 153هـ/ 770م (البيان ، ج2، ص54).

[8] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 54؛ شبطران: بفتح أوله وثانيه وسكون الطاء ثم راء وآخره نون ، حصن من أعمال طليطلة بالأندلس (ياقوت، معجم البلدان، ج3، ص 321).

[9] ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 128.

وعلى أية حال، فقد نجحت سياسة الأمير عبد الرحمن التي اصطنعها عند قدومه إلى شنتبرية سنة 155هـ/ 772م ، حينما تمادى الفاطمي بثورته ، حيث ضرب زعماء البربر بعضهم ببعض، وذلك عندما عهد إلى هلال المديوني زعيم البربر في شرق الأندلس بالرئاسة على قومه وأقره على المواضع التي بيده ، وكلفه قتال الفاطمي ، فتفرقت بفعل ذلك كلمة البربر، وتخلوا عن الفاطمي، ومجموعة من أصحابه [1] .

وفي سنة 159هـ/ 776م ، خرج الأمير عبد الرحمن إلى قورية ، إذ كان بربرها قد غدروا بعاملها أبي زعبل الصدفوري، وسلموه إلى الفاطمي، فأمر بقتله ، ولذلك هاجم الأمير عبدالرحمن بربر المدينة ، وقتل منهم أعدادا هائلة ، وأسر كثيراً منهم ، وكان ممن وقع في الأسر عباس بن قلعوش، المكنى بأبي مزكانة المصمودي [2] ، وفي ظل الهزائم المتلاحقة التي مني بها الفاطمي، دب الضعف في صفوفه ، واستطاع رجلان هما أبو معن داود بن هلال، وكنانة بن سعيد من الغدر به في قرية العيون [3] سنة 161هـ/ 778م [4] ، واحتز رأسه وقدماه إلى الأمير عبدالرحمن[5] .

ويرى محمود مكي أن ثورة شقيا بن عبد الواحد ، لعلها أول محاولة لإقامة دولة شيعية في الغرب الإسلامي ، فقد سبقت قيام دولة الأدارسة الشيعية بنحو عشرين سنة، وقد كشفت هذه الثورة عن إمكانية نجاح الدعوات الشيعية في أوساط القبائل البربرية[6] .

---

(1) ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 54-55.

(2) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 55.

(3) انظر، عنان، دولة الإسلام ، ج1، ص 166-167؛ حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 23.

(4) ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 128؛ ويذكر عنان أن مقتل الفاطمي كان سنة 160هـ/ 776م (دولة الإسلام، ج1، ص 167).

(5) ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 128.

(6) أنظر، التشيع في الأندلس، ص 99 ؛ سيأتي الحديث عن دولة الأدارسة لاحقا .

وتوالت ثورات البربر في عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية، وكان أهمها ثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي [1] ، حينما قدم من إفريقية إلى الأندلس ، لإظهار الدعوة العباسية ، ونزل في تدمير [2] ، واجتمع إليه البربر، فزحف الأمير عبد الرحمن لقتاله، ولكنه اعتصم بجبل بلنسية ، ولم يلبث أن اغتاله رجل من اصحابه وحمل رأسه إلى الأمير عبد الرحمن سنة 162هـ/ 779م. ثم ثار البربر بقيادة بحرة بن البرانس ، فبعث الأمير عبد الرحمن إليه مولاه بدر فقتله ، وفرق جموع البربر [3] . وفي سنة 169هـ/ 785م، كان خروج الأمير عبدالرحمن ، لقتال محمد بن يوسف الفهري الذي ثار عليه في مدينة طليطلة ، وبعد أن التقى معه، هرب محمد بن يوسف إلى قورية ، فتابعه الأمير عبد الرحمن إليها، ووافق وصوله سنة 170هـ/ 786م ، فشتت شمله وأحرق دوره ، وأوقع الأمير ببربر نفزة [4] .

وفي عام 178هـ/ 794م ، ثار البربر في تاكرنا [5] ، على الأمير هشام بن عبد الرحمن (172-180هـ/ 788-796م) [6] ، فبعث إليهم قائده عبد القادر بن أبان بن عبد الله ، مولى أبي سفيان[7] ، فقتل أكثرهم [8] ، وفر الباقون إلى

---

(1) ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 128.

(2) ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج4، ص 128؛ تدمير: مدينة في جنوب شرق الأندلس (انظر، حمدي عبد المنعم، ثورات البربر في الأندلس، ص 44 هامش 2).

(3) ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج4، ص 129.

(4) ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 57-58؛ ويذكر أن محمد بن يوسف قد مات بقرية ركانة من أعمال طليطلة (ابن عذاري، المصدر نفسه ، ج2، ص 58).

(5) ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 64؛ انظر، عنان، دولة الإسلام، ج1، ص 227؛ تاكرنا: منطقة جبلية تقع على بعد مائة كيلومتر إلى غرب مدينة مالقة (أنظر، حمدي عبد المنعم، ثورات البربر في الأندلس، ص 29، هامش 2).

(6) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص 28.

(7) ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 130.

(8) ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 64.

طلبيرة [1] وترجيلة [2] ، فدخلوا في القبائل البربرية هناك [3] ، وبقيت تاكرنا قفراء خالية من السكان سبع سنوات [4] .

وعبر سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس من العدوة سنة 182هـ/ 798م [5] ، بعد أن كان قد لجأ إليها هو وأخوه عبد الله منذ أيام إمارة أخيهما هشام بن عبد الرحمن [6] ، وأعلن عصيانه على ابن أخيه الأمير الحكم بن هشام (180-206هـ/ 796-821م) [7] ، فالتقى معه في بنجيطة [8] ، وانهزم سليمان ، ولكنه عمل على تجميع البربر بناحية ، إستجة ، فخرج إليه الأمير الحكم فهزمه مرة أخرى، ثم حشد سليمان البربر ، واحتل جيان [9] والبيرة [10] ، فالتقى معه الحكم، وأجبره على الفرار ، ثم كلف إصبع بن عبد الله ملاحقته ، فقبض عليه بماردة ، وأمر الحكم بقتله[11] .

وأبرز ثورات البربر على الدولة الأموية فيما بعد، تلك الثورة التي قام بها رجل بربري يسمى حبيب البرنسي سنة 236هـ/ 850م ، في جبال الجزيرة الخضراء ، واجتمع إليه " أهل الشر

---

[1] طلبيرة : الفتح ثم الكسر ، وهي بلدة بالأندلس (ياقوت ، معجم البلدان، ج4، ص 12) ، وتقع على مقربة من البحر المحيط، وهي على بعد 14 ميلا من شنمرية (الأدريسي ، نزهة المشتاق ، ج2، ص 542).

[2] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 64؛ ترجيلة : بالضم ثم السكون ، وكسر الجيم، وياء ساكنة ولام، وهي مدينة بالأندلس من أعمال ماردة بينها وبين قرطبة ست أيام غربا (ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص 22).

[3] ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 130.

[4] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 64؛ ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 130.

[5] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 70.

[6] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 129؛ عنان ، أنظر، دولة الإسلام ، ج1، ص 231.

[7] ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص 28؛ ويلقب الحكم بن هشام بالربضي (المراكشي ، المعجب، ص 16).

[8] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 68، 70.

[9] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 70؛ جيان ، وهي على بعد خمسين ميلا من قرطبة ، وتقع على جبل يشتهر بكثرة العيون (المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 234).

[10] إلبيرة: وهي كورة كبيرة من الأندلس، ومدينة متصلة بأراضي كورة قبرة، بين القبلة والشرق من قرطبة ، بينها وبين قرطبة تسعون ميلا، وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار ، وفيها عدة مدن (ياقوت، معجم البلدان، ج1، ص 242-244).

[11] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 70؛ ويذكر القرماني أنه بعد أن أمر الحكم بقتل سليمان خاف عمه عبد الله ، وطلب الصلح (أخبار الدول، ص 62).

والفساد" [1] ، فأخرج إليه الأمير عبد الرحمن بن الحكم (206-238هـ/ 821-852) [2] ، جيشا بقيادة عباس بن مضا [3] ، فلما وصل إلى الجزيرة الخضراء لقتال حبيب البرنسي وجد أن قسما من البربر المعارضين له، قد هاجموه في معقله ، وأجبروه على الفرار عنه، وقتلوا عددا كثيرا من أصحابه ، فكتب الأمير عبد الرحمن إلى عماله، على مختلف كور الأندلس بالبحث عنه، ولكنه لم يظفر به[4] .

كذلك ، فقد كان موسى بن ذي النون الهواري زعيم البربر في شنتبرية ، قد قام بتمرد على الدولة الأموية [5] ، في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن (238-273هـ/ 852-886م) [6] ، حيث هاجم مدينة طليطلة سنة 260هـ/ 874م، ثم احتلها في أواخر أيام الأمير المنذر بن محمد [7] (273-275هـ/ 886-888م) [8] ، واستمر تمرده إلى حين وفاته سنة 295هـ/ 907م [9] ، وذلك في أيام الأمير عبد الله بن محمد (275-300هـ/ 888-913م) [10] ، وتوزعت السلطة بعده في كورة شنتبرية بين أبنائه الثلاثة، الفتح ويحيى والمطرف [11].

---

(1) ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 88-89؛ وتجدر الملاحظة ، أن جميع ثورات البربر قبل عام 236هـ/ 850م ، لم تكن ذات أثر بارز حيث يتم تبديدها والقضاء عليها بسرعة (أنظر ، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 33-39).

(2) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص 228؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 68.

(3) أنظر ، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 40.

(4) ابن عذاري ، البيان ، ج2، ص 89؛ انظر، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 40-41.

(5) أنظر، حمدي عبد المنعم، ثورات البربر في الأندلس، ص 56.

(6) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص 29؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 93-94؛ ومما يذكر أن زعامة شنتبرية كانت في الأصل إلى ذو النون بن سليمان بن طوريل ، واقره عليها الامير محمد بن عبد الرحمن بعد أن أخذ ابنه موسى رهينة لديه في قرطبة ، وبعد وفاة ذو النون ولي مكانه الأمير ابنه أبا الجوشن ، ولكنه توفي سريعا فآلت الزعامة إلى موسى الذي كان رهينة عند الامير محمد (أنظر ، حمدي عبد المنعم، ثورات البربر في الأندلس، ص 55-56).

(7) أنظر، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 56-57.

(8) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص 30.

(9) انظر، حمدي، ثورات البربر في الأندلس، ص 59.

(10) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص 30؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 120.

(11) أنظر، حمدي عبد المنعم ، ثورات البربر في الأندلس، ص 60.

ويتبين مما سبق ، أن البربر كان لهم دور في تدعيم وجود الدولة الأموية في الأندلس، منذ أن حل عبد الرحمن الداخل عند أخواله بني نفزة بالمغرب ، وحتى عبوره إلى الأندلس ، حيث شكل البربر قوة من ضمن الجيش الذي دافع عن كيان الدولة الأموية [1] ، على أن ذلك لا يعني عدم وجود قسم آخر من البربر ، قاموا بثورات هدفها تقويض أركان الدولة الأموية والقضاء عليها.

[1] أنظر، الموسوعة العامة ، ج2، ص 209.

البربر والدعوة الإسماعيلية بالمغرب حتى قيام الخلافة الفاطمية سنة 297هـ/910م

تعود جذور الدعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب إلى سنة 145هـ/762م[1]، حينما أرسل جعفر بن محمد الصادق، سادس الإئمة الإسماعيلية [2] ، داعيتين هما الحلواني وأبو سفيان [3] من المشرق إلى بلاد المغرب [4] ، باعتبار المغرب أرض بور وعليهما حرثها[5] ، أي نشر المذهب الإسماعيلي بين أهلها [6] ، وأمرهما أن يتعدوا إفريقية إلى حدود البربر ، ثم ينزل كل منهما ناحية [7] ، ولعلها مبالغة في الحذر والتستر ، وضمان لتعليم مباديء الدعوة الإسماعيلية [8] . ويذكر أنهما نزلا في المغرب الأدنى ، أو كما يسميه بعض المؤرخين بأرض كتامة[9] ، حيث عرف بكثافة بطون قبيلة كتامة فيه، فأخذ السمة العامة لاسم القبيلة، وقد نزل أبو سفيان بموضع في مرماجنة [10] يقال له تالا، وأما الحلواني فنزل بموضع في سوجمار [11] ، يعرف بالناظور[12] .

---

[1] النعمان، افتتاح، ص 26.

[2] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 222؛ سوادي ، دراسات ، ص 205.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 450؛ ابن خلدون ، العبر، ج3، ص 360.

[4] النعمان، افتتاح، ص 26.

[5] النعمان، المصدر نفسه، ص 28؛ ابن خلدون، العبر، ج3، ص 361.

[6] انظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 157.

[7] النعمان، افتتاح، ص 27.

[8] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 216.

[9] ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 450؛ ابن خلدون، العبر، ج3، ص 360.

[10] النعمان افتتاح، ص 27.

[11] النعمان، المصدر نفسه، ص 28.

[12] النعمان، المصدر نفسه، ص 28؛ ويذكر الإدريسي أنه يوجد في المغرب الأدنى حصن الناظور (نزهة المشتاق، ج1، ص 362)؛ لعل هو الموضع الذي نزل به الحلواني ، بينما يذكر محمد بن عميرة ، أن المصادر اختلفت حول نزول الحلواني وأبي سفيان بالمغرب (دور زناتة ، ص 165).

ويعبر ابن خلدون عن نجاح الدعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب من قبل هذين الداعيتين بقوله " وفشت هذه الدعوة منهما في أهل تلك النواحي من البربر وخصوصا في كتامة " [1].

ولما اتصل خبر موت الحلواني وأبي سفيان إلى الإمام الإسماعيلي باليمن ، أبي القاسم الحسن بن فرج بن حوشب الكوفي [2] ، أمر أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء الشيعي [3] ، الذي أخذ أسرار الدعوة الإسماعيلية عن ابن حوشب في أثناء إقامته عنده في اليمن[4]، بالتوجه إلى بلاد المغرب بقوله " إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك" [5] ، فخرج أبو عبد الله الشيعي إلى مكة، وقصد حجاج كتامة فاجتمع بهم [6] ، إذ وجد فيهم رجلين من الشيعة هما حريث الجميلي ، وموسى ابن مكارم، وكانوا قد تشيعوا في أثناء دعوة الحلواني بالمغرب [7] ، فتحدث أبو عبد الله الشيعي لهم عن فضائل آل البيت [8] " فأنسوا به وأعجبهم ومالوا إليه"[9].

---

[1] العبر، ج3، ص 361.

[2] المقريزي ، الخطط، ج2، ص 29؛ ويذكر أن ابن حوشب وعلي بن فضل قد قدما إلى اليمن سنة 268هـ، لنشر المذهب الإسماعيلي (ادريس ، تاريخ الخلفاء، ص 61).

[3] ابن الأثير ، الكامل ، ج6، ص 450؛ المقريزي، الخطط، ج2، ص 29؛ وعرف أبو عبد الله بعدة ألقاب غير لقب الشيعي ، حيث عرف بالسيد، والصنهاني، والهواري، والمشرقي (النعمان، افتتاح، ص 32، 33، 52) ، والمحتسب ، والحيجاني أو الكجاني (أنظر لقبال ، دور كتامة ، ص 231-233)؛ ويذكر ابن أبي دينار أن أبا عبد الله الشيعي إما يكون من أهل صنعاء أو أهل الكوفة (المؤنس، ص 69).

[4] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 69؛ وكان أبو عبد الله الشيعي قد وصل اليمن عند ابن حوشب سنة 278هـ (أنظر، سرور ، الدولة الفاطمية، ص 7).

[5] ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 450.

[6] ابن الأثير ، المصدر نفسه، ج6، ص 450؛ المقريزي ، الخطط، ج2، ص 9، ويورد ابن عذاري أن حجاج كتامة كانوا نحو عشرة رجال (البيان ، ج2، ص 124).

[7] النعمان، افتتاح ، ص 34؛ إدريس ، تاريخ الخلفاء ، ص 84.

[8] ابن الأثير، الكامل ، ج6، ص 450؛ المقريزي ، الخطط، ج2، ص 29؛ وحسب ابن عذاري أن أبا عبد الله الشيعي عندما اجتمع بحجاج كتامة ، وجدهم ملتفين حول شيخ منهم ، ويميل هذا الشيخ إلى مذهب الأباضية النكارية ، فدخل عليه أبو عبد الله " من هذه الثلمة" (البيان ، ج1، ص 124-125).

[9] ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 69.

ولما سأل حجاج كتامة أبا عبد الله الشيعي ، عن مقصده، أوهمهم أنه يريد مصر[1] ، لغرض التعليم [2] ، فسار معهم إلى مصر [3] ، ويظهر أن أبا عبد الله الشيعي قد كسب ود رجال كتامة في الطريق قبل وصوله لمصر [4] ، كما استطاع أن يحصل على معلومات عن بلد كتامة ، حيث اطلع على طبيعة علاقة كتامة بسلطان إفريقية آنذاك [5] ، وعلم أنه " ماله عندهم أكثر من الدعوة على المنابر ، وهم له طاعة في معصية" [6] ، وأن ولاءهم يعود إلى كبار رجال قبيلة كتامة ، وعرف أبو عبد الله معلومات عن حدود كتامة ، وعددها، وطبيعة علاقة أفراد القبيلة بعضهم ببعض [7] ، وتكونت لديه تفصيلات دقيقة عن أحوال بلد كتامة دون أن يشعر حجاج كتامة بحقيقة أمره[8] .

وعلى الأرجح أن شعور كتامة الديني هو الذي دعاها إلى اصطحاب أبي عبد الله الشيعي معها إلى المغرب، إذ تشير الروايات التاريخية إلى حجاج كتامة في موسم الحج دون غيرهم من قبائل البربر الأخرى مثل زناتة وصنهاجة. ولعل قرب مواطن كتامة من بلاد الحجاز هو الذي جعلهم يحضرون إلى الحج دون غيرهم ، إذ يتعين على بقية قبائل البربر الأخرى المرور في مواطن كتامة في أثناء تأديتهم إلى فريضة الحج، وهذا يمكن من شأنه أن يحدث اصطداما بين أفراد

---

[1] المقريزي ، الخطط، ج2، ص 29؛ ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 69.

[2] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 125؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 69، ويورد ابن عذاري نصا يبين فيه أن أبا عبد الله الشيعي ينفذ مخطط مرسوم له من قبل الأئمة الإسماعيلية ، وذلك عندما سأله حجاج كتاة عن أمره، حيث قال لهم " أنا رجل من اهل العراق وكنت أخدم السلطان ثم رايت أن خدمته ليست من أفعال البر، فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال لذلك وجها إلا تعليم القرآن للصبيان فسألت أين يتأتى ذلك تأتيا حسنا ، فذكر لي بلاد مصر " (البيان ، ج1، ص 125).

[3] المقريزي ، الخطط، ج2، ص 29؛ ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 69.

[4] المقريزي، الخطط ، ج2، ص 29.

[5] النعمان، افتتاح، ص 36؛ وكان يوجد بالمغرب ثلاث قوى في تلك الفترة ، الأغالبة في إفريقية ، والأدارسة في المغرب الأقصى ، والرستمين في المغرب الأوسط (انظر، العمايرة ، الجيش الفاطمي، ص 26).

[6] النعمان، افتتاح، ص 36.

[7] النعمان، المصدر نفسه ، ص 37-38.

[8] النعمان، المصدر نفسه، ص 38-40؛ ويذكر المقريزي أنه صار يعرف جميع أمورهم (الخطط، ج2، ص 29).

القبائل، ويكونوا أيضا، عرضة للنهب والسلب؛ ثم إن بعد المسافة بين مواطن زناتة وصنهاجة وبين بلاد الحجاز يمكن أن يكون مسوغاً آخر لعدم قدوم افراد هاتين القبيلتين إلى تأدية فريضة الحج.

وأيا كانت الأسباب ، فقد تابع أبو عبد الله الشيعي مسيره من مصر إلى بلاد المغرب بناء على طلب رجال كتامة بقصد التعليم [1] ، وهو نفس السبب الذي أخبرهم به قبل خروجهم من مكة، فسلك طريق طرابلس إلى قسطيلية " لأنها الجادة" حتى وصل إلى سوجمار من أرض سماتة[2] .

وفي سوجمار، استقبله رجال من الشيعة كانوا قد تشيعوا أيام الحلواني وهم، أبو المفتش، وأبو القاسم الورفجومي ، وأبو عبد الله الأندلسي، بسبب وجود صاحبيهما معه وهما، حريث الجيملي، وموسى بن مكارم [3] وفيما يبدو أن أبا عبد الله قد انتهز الفرصة ، فأخبرهم بغرضه بقوله " أنا صاحب البذر الذي ذكر لكم أبو سفيان والحلواني" [4] ، ثم ساروا جميعا حتى دخلوا أرض كتامة يوم الخميس في منتصف ربيع الأول سنة 280هـ/ حزيران 930م [5] ، واختار أبو عبد الله الشيعي مكاناً يسمى فج الأخيار ، الواقع في قلعة إيكجان [6] ، ضمن مواطن بني سكتان – أحد بطون قبيلة كتامة - [7] .

ولم يكد أبو عبد الله الشيعي يستقر في إيكجان حتى توافد عليه رؤساء قبائل كتامة من مختلف البطون ، فمن قبيلة مسالتة، جاءه هارون بن يونس بن موسى المسالتي الملقب بشيخ المشايخ ، ومن

---

[1] النعمان، افتتاح ، ص 38؛ إدريس ، تاريخ الخلفاء، ص 85.

[2] النعمان، المصدر نفسه، ص 40؛ إدريس، المصدر نفسه، ص 85؛ ويرى ابن عذاري أن أبا عبد الله الشيعي قد أقام بالقيروان قبل وصوله إلى سوجمار يستطلع أحوال قبيلة كتامة وثبت عنده " أن ليس في قبائل إفريقية أكثر عددا ولا اشد شوكة ، ولاا اصعب مراما على السلطان من كتامة" (البيان ، ج1، ص 125).

[3] النعمان، افتتاح، ص 47؛ إدريس ، تاريخ الخلفاء، ص 86.

[4] ابن الأثير ، الكامل ، ج6، ص 127؛ المقريزي ، اتعاظ، ص 57.

[5] النعمان، افتتاح ، ص 47.

[6] النعمان ، المصدر نفسه ، ص 47-48؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 88-89؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 69-70؛ إيكجان: جبل يقع بين سطيف وقسطنطينة ، وتمتد حدوده إلى أن تجاور أرض القل وبونة ، ويعتبر موطن لقبائل كتامة (الحميري، الروض المعطار، ص 71).

[7] النعمان، افتتاح ، ص 47؛ إدريس ، تاريخ الخلفاء، ص 88.

قبيلة غشمان جاءه الحسن بن هارون الغشمي ، ومن قبيلة أجانة ، جاءه أبو يوسف ماكنون بن ضبارة وابن أخيه تمام بن معارك أبو زاكي [1] ، وانتشرت الدعوة الإسماعيلية في بني سكتان خاصة [2] ، ثم في بقية قبائل كتامة عامة [3] ، وتسامعت به القبائل الأخرى، فأقبلوا إليه، فعظم أمره[4] .

وفي ظل هذه التطورات، وصل خبر أبي عبد الله الشيعي إلى أمير إفريقية إبراهيم بن أحمد ابن الأغلب [5] ، فكتب الأمير إبراهيم إلى موسى بن العباس، صاحب ميلة [6] ، يسأل عن حقيقة أمر أبي عبد الله الشيعي ، فضعف موسى بن العباس أمره وطمأنه، ولكن الأمير إبراهيم بعث إليه ابن المعتصم المنجم واجتمع به عند بني سكتان، وعندما عاد ابن المتعصم أبلغ الأمير بصفاته فأدرك أنه من دعاة الإسماعيلية وأنه" صاحب قطع دولته" [7]، لما كان له من علم الحدثان[8] .

ولما لم ير ولاة المدن المجاورة لبني سكتان ردة فعل من قبل الأمير إبراهيم بن الأغلب ، تجاه أبي عبد الله الشيعي ، تعاقدوا على قتاله والفتك به ، وكان ممن تعاقد على ذلك ، موسى بن العباس صاحب ميلة، وعلي بن عسلوجة صاحب سطيف [9] ، وحي بن تميم صاحب بلزمة [10] ،

---

(1) النعمان، المصدر نفسه، ص 49-50؛ إدريس ، المصدر نفسه، ص 89.

(2) إدريس ، تاريخ الخلفاء، ص 91.

(3) النعمان ، افتتاح، ص 52.

(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص 29.

(5) المقريزي ، المصدر نفسه، ج2، ص 29.

(6) النعمان، افتتاح، ص 54؛ إدريس، تاريخ الخلفاء ، ص 91.

(7) النعمان، المصدر نفسه، ص 55-59؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 92؛ وعن نص الحوار الذي دار بين ابن المعتصم المنجم وأبو عبد الله الشيعي ، راجع (ابن الخطيب، أعمال الإعلام ، القسم الثالث، ص 38-39).

(8) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 39.

(9) النعمان ، افتتاح، ص 79؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 92؛ سطيف: مدينة كبيرة تقع بين تاهرت والقيروان ، وتمتاز بحصانتها ولها كورة تشتمل على قرى كثيرة وعمارة متصلة وسكانها من كتامة (الاصطخري ، المسالك والممالك ، ص 34)؛ وبينها وبين ميلة مرحلة (كاتب مراكشي، الاستبصار، ص 166)، وبها حصن يسمى حصن سطيف (الادريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 269).

(10) النعمان ، افتتاح ، ص 79-80؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 95؛ وبالقرب من قسطنطينة حصن يسمى بلزمة ، وبينهما يومان (الإدريسي، نزهة المشتاق ، ج1، ص 270).

كما اشترك معهم رؤساء قبائل من كتامة وأهمهم رئيس قبيلة مسالتة ، فتح بن يحيى المسالتي ، الملقب بالأمير، ورئيس قبيلة لهيصة ، مهدي بن كناوة ؛ ورئيس قبيلة أجانة فرح بن جيران، ورئيس قبيلة لطاية، تميم بن فحل ، ورئيس قبيلة متوسة، زياد المتوسي [1] ، وخوفا من توحد كلمة بني سكتان في الدفاع عن أبي عبد الله الشيعي ، وانضمام إليها قبيلة جيملة " ومن تقرب منها من قبائل كتامة " ، فتنقسم كتامة بذلك إلى فرقتين ، بين مؤيد ومعارض ، رأى المتعاقدون أن يستميلوا بيان بن صقلان، أحد وجهاء بني سكتان ، ولم يكن حتى ذلك الوقت قد دخل في دعوة أبي عبد الله الشيعي ، وأرسلوا إلى بيان أربعة أفراس ومئة شاه هدية، وبالرغم من أن بيان بن صقلان رفض تسليم أبي عبد الله إليهم، فإنه اقترح أن يجمعه مع العلماء للمناظرة ، فاستغل المتعاقدون هذا الموقف وجاءوا بعدتهم وجموعهم ، وأنكر بيان فعلهم هذا، فوقع القتال بين الطرفين ، واستطاع بنو سكتان وحلفاؤهم من هزيمة المتعاقدين[2].

ولم ييأس المتعاقدون من كسب بيان بن صقلان إلى صفهم ، وبالفعل استجاب لهم بعد أن وعدوه بأن يكون " المقدم عليهم والرئيس فيهم" ، وبدأ بيان يحرض بني سكتان على أبي عبد الله الشيعي [3] ، ولما اتصل موقف بيان هذا ، بالحسن بن هارون الغشمي ، طلب من أبي عبد الله الشيعي القدوم إليه إلى تازروت [4] ، حتى يكون في حماية قبيلة غشمان، فقبل أبو عبد الله طلبه ، وانتقل بمن انضم إليه من بني سكتان وبعض المهاجرين إلى تازروت، وأصبح بذلك أكثر قربا من مواطن قبائل أجانة ، وملوسة، ولهيصة ، ولطاية ، وجيملة – وجميع تلك القبائل بطون لكتامة – وتسرب إليه مجموعة كبيرة من أفراد هذه القبائل ، ودخلوا في دعوته، فاجتمع إليه بذلك خلق عظيم

---

[1] النعمان ، افتتاح ، ص 80؛ إدريس ، تاريخ الخلفاء ، ص 95؛ وحسب النعمان أن هؤلاء الرؤساء أبطال كل واحد منهم يعدل الكتيبة (المصدر نفسه ، ص 80-81).

[2] النعمان ، المصدر نفسه ، ص 82-84.

[3] إدريس ، تاريخ الخلفاء، ص 97.

[4] النعمان ، افتتاح، ص 86-87.

من سائر قبائل كتامة ، ويظهر أن بيان بن صقلان ندم على فعله السابق، ودخل في الدعوة ، فقوي بذلك موقف بني سكتان الذين جاءوا مع أبي عبد الله الشيعي من إيكجان[1] .

وتقدم المتعاقدون لقتال قبيلة غشمان وحلفائها ، بعد أن فشلوا في اختراق صفوف هذه القبيلة، عندما اتفقوا على إرسال مهدي بن أبي كناوة ، رئيس لهيصة لاستمالة محمود بن هارون الغشمي، أخي الحسن بن هارون رئيس غشمان، كما فعلوا مع قبيلة بني سكتان من قبل، والتحم القتال بين الطرفين ، وقتل محمود الغشمي، فقامت الحرب بسبب قتله بين قبيلتي غشمان ولهيصة ، وكان أبو عبد الله الشيعي يباشر الحرب بنفسه، وفيما يذكر أن مهدي بن أبي كناوة ، كان له أخ يسمى أبو مديني دخل الدعوة الإسماعيلية ، وتحمس إليها، فاحتال على أخيه مهدي في الحرب وقتله بمساعدة شخص آخر من لهيصة يسمى لاوة بن صوخان، فتفرقت جموع لهيصة ، ولم تلبث فترة حتى اصطلحت مع غشمان، ودخلت في الدعوة الإسماعيلية ، فقوي بذلك موقف أبي عبد الله الشيعي[2] .

وأمام التآلف الذي حصل بين غشمان ولهيصة على نصرة أبي عبد الله الشيعي ، تجمعت الأطراف المتعاقدة على حربه ، مرة أخرى، واستقر رأيهم على حصاره بتازروت حتى تسلمه غشمان إليهم، أو يتم قتالها[3] ، وتكونت لهم جبهة قوية ، ضمت مدن كتامة، سطيف، وميلة ، وبلزمة، إضافة إلى بعض قبائل كتامة المعارضة وهي، مزاتة، وأجانة، ولطاية، وجيملة ، ودنهاجة، وملوسة ، وغشمان سجا- يبدو أنها أحد فروع قبيلة غشمان المعارضة- وأورسة ، وبالمقابل اجتمع لدى أبي عبد الله الشيعي نحو ألفي راجل، وسبعمائة فارس، وانتقل من تازروت إلى مكان بالقرب منها يعرف بوادي تافرت ، وتمكن أبو عبد الله من هزيمة الأطراف التي تعاقدت

---

[1] النعمان، افتتاح ، ص 87-89؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 97-98.

[2] النعمان، المصدر نفسه، ص 90-97؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 97-102.

[3] النعمان، المصدر نفسه، ص 99؛ ويورد إدريس قولهم إلى غشمان بما نصه " لا نقبل منكم إلا أن تسلموا هذا الرجل فنحكم فيه بحكمنا". (تاريخ الخلفاء، ص 104).

على قتاله[1] ، وعاد إلى تازروت ، واتخذها " دار هجرة" ، حيث بنى فيها قصرا له، واقطع الأولياء – أي أتباعه- دورا حوله، وتوافدت عليه قبائل كثيرة من كتامة داخلة في دعوته مثل ملوسة وأجانة[2].

وبعد أن استقر أبو عبد الله الشيعي بتازروت ، بدأ مهاجمة بعض قبائل كتامة المعارضة، فقد استطاع إخضاع قبيلة مسالتة لطاعته وإجبار زعيمها فتح بن يحيى على الهروب [3] ، إلى مدينة سطيف [4] ، حيث دخل في حماية قبيلة عجيسة هناك، وزحف أبو عبد الله إلى المدينة فحاصرها وافتتحها [5] ، وأجبر عجيسة وزواوة على الدخول في طاعته ، ولجأ فتح بن يحيى إلى الأمير أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب في تونس [6] وأصبح يحرضه على محاربة أبي عبد الله الشيعي[7] .

ولم تمض فترة طويلة ، حتى استقام أمر كتامة إلى أبي عبد الله الشيعي ، ودخلوا في دعوته " طائعين ومكرهين ، وراغبين وخائفين" [8] ، ولذا لم يبق أمامه سوى إخضاع أمراء مدن كتامة[9]، فبادر إلى الاستيلاء على مدينة ميلة، والتقى مع أميرها موسى بن العباس ومن لجأ إليه من كتامة مثل فحل بن نوح، وفرح بن جبران ويوسف بن محمود، ووزرة بن نصر، وتمكن أبو

---

[1] النعمان، افتتاح، ص 100-108؛ ويذكر أن غزوية بن يوسف أحد أتباع أبو عبد الله الشيعي ، وكان في صنوف الرحالة قد جرح جرحا في إحدى المعارك فقد فيه صوته (إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 104).

[2] النعمان ، افتتاح، ص 108-110.

[3] النعمان، المصدر نفسه، ص 111.

[4] إدريس ، تاريخ الخلفاء، ص 105.

[5] النعمان، افتتاح، ج112-113؛ ويذكر أن تصولا بن يحيى أخو فتح بن يحيى قد قتل أثناء فتح سطيف (النعمان، المصدر نفسه ، ص 113).

[6] النعمان، المصدر نفسه، ص 113-115؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 105-106؛ تونس: وهي مدينة كبيرة خصبة واسعة المياه والزروع ، وهي أول عدوة الأندلس " يعبر منها ولا يعبر من دونها، إلا من المدن التي تلي المغرب" (الأصطخري ، المسالك والممالك ، ص 33-34)، واسمها قديما ترشيش ، وقد أطلق المسلمون عليها اسم تونس (الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج1، ص 286 ؛ ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 75).

[7] إدريس ، تاريخ الخلفاء ، ص 106؛ وكان أبوه إبراهيم بن أحمد حينئذ قد خرج إلى صقلية (النعمان، افتتاح، ص 116).

[8] النعمان، افتتاح، ص 116.

[9] النعمان، المصدر نفسه، ص 116.

عبد الله من قتل فحل بن نوح ، وهزيمة أهل ميلة، وحصارهم داخل المدينة، واضطر موسى بن العباس إلى طلب الأمان فأمنه، أبو عبد الله ومن معه، ودخل المدينة ، وعين أبو يوسف ماكنون الأجاني واليا على المدينة من قبله [1] ، وقد قام الكتاميون بقتل فرج بن جبران ويوسف بن محمود ووزرة بن نصر الأجانيين ، وتمكن أبو إبراهيم بن موسى بن العباس من الإفلات من أيدي الأولياء والوصول إلى تونس طالبا العون والمساعدة من الأمير ابي العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد[2] .

ووصل إلى الأمير أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب في تونس بعض رؤساء قبائل كتامة المعارضين للدعوة الإسماعيلية ، أمثال فتح بن يحيى المسالتي وأبي إبراهيم بن موسى بن العباس، وحرضوه على قتال أبي عبد الله الشيعي [3] ، فجهز الأمير أبو العباس في ذي القعدة سنة 289هـ/ شباط 902م، جيشاً بقيادة ابنه محمد المعروف بأبي الأحول يقدر باثني عشر ألف مقاتل، فسار أبو الأحول إلى مدينة سطيف وافتتحها وانضم إليه مجموعة من المعارضين للدعوة الإسماعيلية مثل بني عسلوجة من سطيف، وبني تميم من بلزمة ، ثم توجه صوب تازروت حيث يوجد أبو عبد الله الشيعي ، فخرج أبو عبد الله من المدينة للقائه ، والتقى الطرفان ببلد ملوسة ، فانهزم أبو عبد الله إلى تازروت ثم تركها لعدم وثوقه في حصانتها ، وقصد قلعة إيكجان [4] ، واستولى أبو الأحول على تازروت ثم على ميلة، وزحف إلى أبي عبد الله بإيكجان والتقى معه، فكانت الهزيمة على أصحاب أبي الأحول ، فاضطر للعودة إلى تونس[5] ، وأما أبو عبد الله الشيعي،

---

[1] النعمان، المصدر نفسه، ص 136-137؛ إدريس، تاريخ الخلفاء ، ص 108-110.

[2] النعمان ، المصدر نفسه، ص 137؛ إدريس، المصدر نفسه، ص 110.

[3] النعمان، المصدر نفسه، ص 137؛ إدريس ، تاريخ الخلفاء، ص 111.

[4] النعمان، المصدر نفسه، ص 138-142؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 112.

[5] النعمان، المصدر نفسه، ص 142-144.

فيبدو أنه وجد في إيكجان أكثر حصانة ومنعة من تازروت ، فاستقر فيها ، وبنى بها قصرا له، وجعلها دارا لهجرته بدلا من تازروت[1] .

وعاود الأمير أبو العباس عبد الله إرسال ابنه الأحول لقتال أبي عبد الله الشيعي ، بعد أن زاد في عدد الجيش، فسار ابو الأحول حتى نزل ببلد ملوسة ، وزحف أبو عبد الله من إيكجان ونزل ببلد لهيصة ، واقتتل الفريقان وكانت النصرة لأبي عبد الله الشيعي ، وهرب أبو الأحول بمن نجا معه إلى سطيف [2] ، وكان زيادة الله أبو مضر بن عبد الله أبي العباس، قد استغل فترة غياب أخيه أبي الأحول في بلاد كتامة ، لقتال أبي عبد الله الشيعي [3] ، واحتال في قتل أبيه ، وتسلم السلطة بعده ، في آخر شعبان سنة 290هـ/ 903م [4] ، ثم كتب إلى أخيه أبي الأحول بكتاب على لسان أبيه يأمره بالقدوم إلى تونس ، ولما عاد أبو الأحول قبض عليه زيادة الله وقتله مع مجموعة من أعمامه وإخوته [5] ، ثم انتقل زيادة الله من مدينة تونس إلى رقادة[6] .

وبدأ أبو عبد الله الشيعي بسرعة استرداد مدن كتامة ، فبعد أن ملك ميلة [7] ، توجه صوب سطيف فحاصرها ودخلها بالأمان [8] ، ولما اتصل خبر افتتاح مدينتي ، ميلة وسطيف بالأمير زيادة الله ، بادر في تجهيز جيش بقيادة إبراهيم بن حبشي ، بلغ تعداده أربعين ألف مقاتل، وسار ابن

---

[1] النعمان ، المصدر نفسه، ص 146؛ إدريس، المصدر نفسه، ص 113؛ ومما يذكر النعمان وإدريس في شأن استقرار أبو عبد الله بايكجان أن بيان بن صقلان وابو جعفر أحمد بن سليم السكتانيان قد بلغا عند أبي عبد الله مبلغا صالحا، فرغبا إليه مع جماعة بني سكتان أن يقيم بايكجان فأجابهم (أفتتاح، ص 144-146؛ تاريخ الخلفاء ، ص 113).

[2] النعمان، افتتاح، ص 147-150؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 113-114.

[3] النعمان، المصدر نفسه، ص 151.

[4] إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 114.

[5] النعمان، افتتاح، ص 153-154؛ إدريس ، تاريخ الخلفاء، ص 114.

[6] النعمان، افتتاح، ص 156؛ رقادة: وهي على بعد ثلاثة أميال من القيروان (الإدريسي، نزهة المشتاق ، ج1، ص 284)، وأقام بها بني الأغلب إلى عهد عبيد الله المهدي (الاصطخري، المسالك والممالك ، ص 35).

[7] إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 115.

[8] النعمان، افتتاح ، ص 166-167؛ وكان علي بن عسلوجة وأخوه حبيب قد ماتا أثناء الحصار (النعمان، المصدر نفسه، ص 167)؛ ويذكر أن داود بن حباسة اللهيصي هو الذي أخذ الأمان لأهل سطيف (إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 115).

حبشي إلى مدينة قسنطينة ، وبقي فيها مدة ستة أشهر ، حيث تجمع لديه بها مئة ألف مقاتل [1] ، ثم زحف لقتال أبي عبد الله الشيعي ، والتقى معه بكبونة في مواطن أجانة، وكانت الهزيمة حليفة إبراهيم بن الحبشي وأصحابه، ووصل بمن نجا معه إلى باغاية [2] ، وكان أبو عبد الله الشيعي قد علم أن عبيد الله المهدي قد وصل بسجلماسة ووضع بالسجن [3] ، من قبل أميرها اليسع بن مدرار[4] فكتب إليه يبشره بالفتح ، وأدخل إليه الكتاب إلى السجن عن طريق قصاب يبيع اللحم[5] .

وكان أبو عبد الله الشيعي ، قد بعث برجال من كتامة إلى سلمية [6] ، المركز الرئيسي للدعوة الإسماعيلية [7] ، في بلاد الشام ، وأخبروا عبيد الله المهدي، بمدى النجاح الذي حققته الدعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب [8] ، فخرج عبيد الله المهدي من سلمية سنة 286هـ/ 889م [9] ومعه ابنه محمد بن عبد الله ، وأظهر لأصحابه أنه يريد اليمن ، فوصل إلى مصر[10] ، ولم يلبث حتى وردت الكتب إلى عامل مصر عيسى النوشري من قبل العباسيين ببغداد [11] ، بالقبض عليه [12] ، فخرج عبيد الله المهدي إلى المغرب، ووصل إلى طرابلس [13] ، ومن هناك أرسل أمامه أبا العباس

---

[1] النعمان، افتتاح، ص 168-170.

[2] النعمان، المصدر نفسه، ص 170-171؛ باغاية : وهي مدينة كبيرة عليها سور قديم من حجارة ، وجبل إوراس عل بعد بضعة أميال منها، ولها طريق إلى بلزمة ونقاوس وطبنة (ابن حوقل، صورة الأرض ، ص 84-85).

[3] المقريزي، الخطط ، ج2، ص 30.

[4] إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 152.

[5] المقريزي، الخطط، ج2، ص 30؛ ويذكر أنه كان أول فتح قدم على المهدي أيام هجرته (النعمان، المصدر نفسه، ص 172).

[6] المقريزي، الخطط، ج2، ص 30؛ سلمية : مدينة زراعية في بلاد الشام تبعد حوالي 34كم عن حماة (أنظر، ابن سودة ، الموسوعة العامة ، ج2، ص 172، هامش 2).

[7] انظر، سرور، الدولة الفاطمية، ص 6.

[8] المقريزي، الخطط ، ج2، ص 30.

[9] إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 145.

[10] أدريس، المصدر نفسه ، ص 146-148.

[11] المقريزي ، الخطط، ج2، ص 30.

[12] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 453؛ وحول تفاصيل الأحداث التي جرت بين عبيد الله المهدي وبين عامل مصر (انظر، ابن الأثير المصدر نفسه ، ج6، ص 453-454).

[13] النعمان، افتتاح ، ص 162؛ المقريزي ، الخطط، ج2، ص 31.

محمد بن أحمد بن زكريا، أخا أبي عبد الله الشيعي[1] ، الذي جاء معه من سلمية ، إلى مواطن كتامة، فلما وصل إلى قسطيلية [2] ، قاصدا أبا عبد الله الشيعي ، فعندما سمع بما جرى لأبي العباس بالقيروان ، غير قصده واتجه إلى سجلماسة [3] ، وكانت كتب زيادة الله قد وصلت إلى أميرها اليسع بن مدرار، تعلمه بخبر المهدي ، فقبض عليه اليسع وسجنه [4] .

وعقب انتصار أبي عبد الله الشيعي على إبراهيم بن الحبشي ، توجه إلى طبنة [5] ، فحاصرها، ثم دخلها بالأمان بناء على طلب عاملها حسن بن أحمد بن نافذ المعروف بأبي المقارع [6] ، سنة 292هـ/ 903م [7] ، وعين عليها أبا عبد الله يحيى بن سليمان الملوسي ، ثم عاد إلى إيكجان [8] ، وفي نفس العام [9] ، خرج أبو عبد الله الشيعي إلى بلزمة وافتتحها عنوة وهدم سورها [10] ، وعندما اتصل خبر فتح طبنة وبلزمة بالأمير زيادة الله [11] ، جهز جيشا يقدر باثني

---

[1] النعمان، المصدر نفسه، ص 163؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 151؛ قسطيلية: مدينة تقع على نهر عظيم، وتشتهر بكثرة التمور وليس لها نظير في انتاجه سوى البصرة (المقدسي، أحسن التقاسيم، ص 230).

[2] النعمان، المصدر نفسه، ص 162-163؛ ويذكر أن زيادة الله هو الذي أرسل إلى عامل القيروان بطلب المهدي، وذكروا أن أبا العباس من أصحابه (النعمان، المصدر نفسه، ص 163).

[3] النعمان، افتتاح، ص 163؛ سجلماسة : مدينة وسطة في حد تاهرت ، وهي منقطعة لا يسلك اليها إلا في القفار والرمال، وهي قريبة من معدن الذهب (الاصطخري، المسالك والممالك ، ص 34)؛ وتتكون من قصور وديار وعمارات متصلة على نهر يأتي إليها من جهة المشرق من الصحراء (الادريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 225).

[4] المقريزي، الخطط، ج2، ص 30.

[5] النعمان، افتتاح، ص 172؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 118؛ طبنة : وتسمى مدينة الزاب ، وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والحنطة والشعير والقطن وعليها سور من تراب (الادريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص 267).

[6] النعمان، افتتاح، ص 173-176؛ إدريس ، تاريخ الخلفاء، ص 117-118.

[7] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 141.

[8] النعمان، إفتتاح، ص 177؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 119؛ ويذكر أن أبا عبد الله أمر أبو زاكي بقتل فتح بن يحيى (النعمان، افتتاح، ص 177).

[9] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 141.

[10] النعمان ، افتتاح، ص 178-179.

[11] النعمان ، المصدر نفسه، ص 180.

عشر ألف مقاتل بقيادة هارون [1] الطبني [2] ، فالتقى مع غزوية قائد أبي عبد الله الشيعي ، في مكان يسمى دار ملوك ، فقتل هارون الطبني وتفرق أصحابه [3] ، ثم أرسل أبو عبد الله ، جيشا بقيادة يوسف بن سكلب [4] الغشمي [5] ، إلى تيجس [6] ، ودخلها صلحا[7] .

وجهز الأمير زيادة الله جيشا بقيادة إبراهيم بن أبي الأغلب سنة 295هـ/ 908م [8] ، وخرج إلى الأربس [9] ، لوقف زحف أبي عبد الله الشيعي ، فسارع أبو عبد الله الشيعي ، إلى السيطرة على المدن المجاورة للأربس، حتى يتمكن من قطع الإمدادات المتوقع وصولها إلى إبراهيم بن أبي الأغلب ، لذلك زحف إلى باغاية فدخلها بالأمان، وولى عليها أبا يوسف ماكنون بن ضبارة الإجاني[10] ، ثم أرسل قائده أبا مديني إلى مدينة مجانة [11] فقتل عاملها خفاجة العبشي ، وعاد إلى إيكجان [12] ، ثم بعث أبو عبد الله قائده صولات بن القاسم السكتاني بنحو خمسمئة فارس إلى

[1] ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 40.

[2] النعمان، افتتاح، ص 180، ويورد عن ابن الخطيب بن الطين (أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 40).

[3] النعمان، افتتاح، ص 180-181؛ فكان هارون الطبني قد قتل أهل دار ملوك وهدم حصنهم قبل لقاء غزوية (النعمان، المصدر نفسه، ص 181).

[4] النعمان، افتتاح، ص 184؛ ويرد عند إدريس شكلة بدل سكلب (تاريخ الخلفاء، ص 121).

[5] النعمان، المصدر نفسه، ص 184؛ إدريس، المصدر نفسه، ص 121.

[6] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 40؛ تيجس : مدينة لها سور وربض " قد استدار من قبلتها إلى بحريّها" ويوجد في وسط المدينة عين ماء (ابن حوقل، صورة الأرض، ص 87).

[7] النعمان، افتتاح ، ص 185؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 121؛ وعن توسع الدعوة الإسماعيلية في أفريقية، أنظر، خارطة رقم (4).

[8] النعمان، افتتاح، ص 198-202؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 121-122.

[9] النعمان، افتتاح ، ص 200؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 122؛ الأربس: مدينة لها إقليم واسع ، وسور حصين من حجر، وفي داخلها عينان جاريتان ، تسمى أحدهما عين رباح والأخرى عين زياد، وتبعد الأربس عن مدينة أبة اثنى عشر ميلا (الادريسي، نزهة المشتاق ، ج1، ص 292؛ ابن حوقل ، صورة الأرض، ص 86)، ويذكر أن زيادة الله قد خرج مع الجيش إلى الأربس ثم عاد إلى رقادة (إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 122-123).

[10] النعمان، افتتاح ، ص 202-204؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 123-124.

[11] النعمان ، المصدر نفسه، 207-210؛ مجانة : مدينة صغيرة عليها سور من تراب وتبعد عن قسنطينة ثلاث مراحل (الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 293).

[12] النعمان، افتتاح، ص 210.

تيفاش [1] ، ودخلها بالأمان [2] ، وجاء خلفون بن مهدي عامل قالمة، إلى أبي عبد الله يطلب منه الأمان لأهلها، فأمنهم [3] ، ثم خرج أبو عبد الله بنفسه فوصل إلى باغاية وسار منها إلى مسكيانة [4] ، ثم إلى تبسة [5] ، حتى وصل إلى ميدرة [6] ، فلبث بها قليلا ، ثم ارتحل إلى القصرين[7] ، وحاصر أهلها، حتى طلبوا الأمان فأمنهم وعاد إلى إيكجان[8] .

وبينما كان أبو عبد الله يتابع خطته الرامية إلى السيطرة على المدن القريبة من الأربس، حيث خرج من إيكجان قاصدا قسطيلية ، وعندما وصل إلى باغاية ، وافاه بها يحيى بن سليمان عامل طبنة ، وأخبره عن رجال من كتامة كان أبو عبد الله قد أرسلهم بأموال إلى المهدي في سجلماسة، ويقدر عددهم بأربعة عشر رجلا، وفي أثناء عودتهم أعطاهم المهدي كتابا ليسلموه إلى أبي عبد الله، فلما وصلوا إلى قرب طبنة، خرج إليهم جماعة من قبيلة زناتة ، وقتلوهم جميعا، وكان الكتاميون قد دفنوا الكتاب قبل لقائهم مع رجال زناتة واستطاع أحد الكتاميين التحامل على نفسه وهو جريح وأن يصل إلى طبنة ، وأخبر يحيى بن سليمان بمكان الكتاب، ومات بعدها، واتجه يحيى بن سليمان إلى مكان الكتاب واستخرجه ثم سلمه إلى أبي عبد الله بباغاية ، فغضب أبو عبد الله للحادث ، وأراد التوجه إلى تأديب زناتة ولكن مشايخ كتامة أشاروا عليه إلى ترك أمر زناتة ومتابعة الخطة القديمة فحسب رأيهم أن " البلد بعيد وهذا العسكر منا بالقرب- يقصدون جيش

---

[1] النعمان، المصدر نفسه، ص 211-212؛ تيفاش : مدينة أزلية قديمة يحيط بها سور قديم من الحجر والجير، وبها عين ماء (الادريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 296، ابن حوقل، صورة الأرض، ص 87).

[2] النعمان، افتتاح، ص 212.

[3] النعمان، المصدر نفسه، ص 212.

[4] النعمان، المصدر نفسه، ص 215؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 126؛ مسكيانة: قرية تقع قرب مجانة المطاحن عند نهر ملاق وهي مدينة عامرة قديمة أزلية بها زرع ومكاسب (الحميري، الروض المعطار، ص 558).

[5] النعمان، افتتاح، ص 215؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 126؛ تبسة: بالفتح ثم الكسر وتشديد السين المهملة ، وهي من بلاد إفريقية المشهورة ، وبينها وبين قفصية ست مراحل في قفر سبيبة (ياقوت ، معجم البلدان ، ج2، ص 13)؛ وبها دار ملعب تهدم أكثره وكان من أغرب ما يكون من البناء (الحميري، الروض المعطار، ص 129).

[6] النعمان، افتتاح، ص 216؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 126.

[7] النعمان، افتتاح، ص 217.

[8] النعمان، المصدر نفسه، ص 217.

إبراهيم بن الأغلب- ولا نأمن أن يخالفنا إلى بلدنا ، وأمر زناتة لا يفوتنا" ، فشكر أبو عبد الله الشيعي الله لأن زناتة لم تطلع على مضمون الكتاب [1] .

ويرى لقبال أن هذه الحادثة التاريخية هي بداية الحركة العدائية التي تبنتها زناتة ضد نظام الفاطميين ، وذهب في أثناءها رجال من كتامة عندما كانوا يؤدون مهمة خاصة ، فكان لا بد لقبيلة كتامة بدافع العصبية أن تأخذ بثأر قتلاها ، وأن أبا عبد الله الشيعي ، باعتباره مسؤولا عن مصير رجال كتامة ، ورأس الحركة ، كان لا بد أيضا أن يقوم بعمل حاسم لتأديب قطاع الطرق من بدو زناتة[2] .

وعلى أية حال، فقد وصل أبو عبد الله إلى قسطيلية ، ودخلها بالأمان، ثم سار إلى قفصة [3] ، ودخلها هي الأخرى بالأمان [4] ، فاكتملت خطته ، فيما يبدو، ولم يبق أمامه إلا مهاجمة ابن أبي الأغلب في الأربس، بعد أن اجتمع إليه مئة ألف مقاتل [5] . وزحف من إيكجان في أول جمادى الآخرة سنة 296هـ/ 908م ، وسلك طرق باغاية ثم مسكيانة ، عبر وادي مجانة مرورا بمرماجنة حتى أصبح على مشارف الأربس، وهناك قسم قواته فجعل في الميمنة بني نبطاش ، وفي الميسرة بني يناوة، وفي القلب ملوسة ومسالتة، واختار عشرة آلاف فارس من الدعاة ووجوه القبائل، وأهل النكاية وجعلهم معه ليرقبوا أحداث المعركة عن بعد. وبالجهة المقابلة ، كان ابن الأغلب قد قسم قواته، التي تجمعت إليه من مختلف بلاد المغرب، ويذكر أنه " لم يكن بقي بإفريقية ونواحيها

---

[1] النعمان ، افتتاح، ص 222-223.

[2] أنظر، دور كتامة ، ص 349؛ ويذكر أن زعيم زناتة آنذاك هو محمد بن خزر وهو صاحب السلطة الفعلية من إفريقية حتى تلمسان (أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 164).

[3] النعمان، افتتاح ، ص 224؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 129-130؛ قفصة : مدينة حسنة عليها سور ولها نهر ماؤه طيب وفي وسطها عين ماء تسمى بالطرميذ وهي " مركز والبلاد بها دائرة" (الادريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص 277-278).

[4] النعمان، افتتاح ، ص 224؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 130؛ أنظر خارطة رقم (4).

[5] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 42؛ ويذكر لقبال، أن عدد الجيش بلغ 200 ألف (أنظر، دور كتامة، ص 303).

وأطرافها من عربها وبربرها ورجال زيادة الله أحد مذكور إلا وكان مع ابن أبي الأغلب"[1] ، والتحم القتال بين الطرفين ، وانهزم ابن أبي الأغلب ، ودخل أبو عبد الله مدينة الأربس بالسيف[2] ، فقتل أهلها [3] ، ولجأ كثير منهم إلى المسجد ويورد ابن عذاري ، أنه بسبب كثرة اللاجئين للمسجد " ركب بعض الناس بعضا" ، وأن أبا عبد الله أمر بقتلهم " حتى كانت الدماء تسيل من أبواب المسجد، كما يسيل الماء من وابل الغيث، وقيل إنه قتل داخل المسجد ثلاثين ألف رجل" [4] .

ولما اتصل خبر الهزيمة إلى الأميرزيادة الله في رقادة [5] حزم جميع أمتعته [6] ، وترك رقادة هاربا إلى مصر، ومعه كبار رجاله وفتيانه وعبيده، وأخذ طريق الجادة حتى لحق بمدينة طرابلس [7] ، ثم إلى مصر [8] ، وحينما سمع أبو عبد الله بهروب زيادة الله وكان حينئذ في مدينة سبيبة [9] ، أسرع إلى رقادة ودخلها [10] ، يوم السبت غرة رجب سنة 296هـ/ 908م ، وفرق دورها على عامة كتامة [11] .

ويبدو أن سبب توجه أبي عبد الله إلى رقادة مباشرة ، هو أن أهل القيروان رفضوا البيعة إلى إبراهيم بن أبي الأغلب حينما نزل بدار الإمارة بعد هزيمته ، إذ قالوا له " لا طاعة لك علينا، ولا بيعة في أعناقنا فاخرج عنا" ، فاضطر للهروب واللحاق بزيادة الله [12] ، لذلك ارتأى أبو عبد الله التوجه إلى رقادة من مكان معسكره في وادي الرمل، وفي الطريق خرج إليه شيوخ القيروان

---

[1] النعمان ، افتتاح، ص 227-230.

[2] النعمان، المصدر نفسه، ص 232؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 132-133.

[3] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 42.

[4] البيان ، ج1، ص 147-148.

[5] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 42.

[6] النعمان، افتتاح، ص 233.

[7] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 147-148.

[8] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 45.

[9] أبن أبي دينار، المؤنس، ص 70.

[10] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 45.

[11] النعمان، افتتاح، ص 245؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 135.

[12] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 148.

وفقهاؤهم ، وطلبوا منه الأمان ثم ساروا معه إلى رقادة ، ولما وصل إليها ، سمح لهم بالعودة للقيروان وبعد أن عين حسن بن أحمد بن خنزير واليا عليهم[1] . وعندما استقر أبو عبد الله برقادة أمر أن ينادى بالقيروان بالأمان التام للعامة " ورجوع من كان تنحى عن وطنه إليه فرجع الناس، إلى أوطانهم وقروا في قراهم" [2] ، ثم أمر بأن يزاد في الأذان بعد " حي على الصلاة " " حي على خير العمل"، وأسقط بين أذان الفجر " الصلاة خير من النوم" [3] .

واستخلف أبو عبد الله الشيعي ، على إفريقية أخاه أبا العباس محمداً [4] ، وأبا زاكي تمام بن معارك الأجاني [5] ، وخرج من رقادة في أول رمضان سنة 296هـ/ 908م [6] ، وتوجه إلى سجلماسة " واهتز المغرب لخروجه" وهربت قبائل البربر من أمامه، وخافت زناتة أن يعاقبها على فعلها السابق لما قاموا به من قتل رجال كتامة ، لذلك جاءه محمد بن خزر أمير زناتة في طبنة ، يطلب منه الأمان ، فأمنه وأخذ عليه العهد وأقره على ما بيده من البلاد [7] ، وعرج أبو عبد الله في طريقه على مدينة تاهرت [8] ، فدخلها بالأمان، وقتل يقظان بن أبي اليقظان أميرها، وجماعة من أهل بيته ، فقضى بذلك على دولة بني رستم في تاهرت[9] .

ثم ولي أبو عبد الله على تاهرت ، أبا حميد دواس بن صولات اللهيصي وإبراهيم بن محمد اليماني المعروف بالهواري [10] . وتابع بعدها مسيره حتى وصل بالقرب من سجلماسة ، وكان

---

[1] النعمان، افتتاح، ص 245.

[2] النعمان، المصدر نفسه، ص 246.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 151.

[4] النعمان، افتتاح ص 269؛ ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 152؛ وكان أبو العباس قد جاء إلى أبي عبد الله بعد دخوله إلى رقادة (النعمان، افتتاح، ص 269).

[5] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 152.

[6] أبن أبي دينار، المؤنس، ص 70.

[7] النعمان، افتتاح، ص 276؛ سيأتي الحديث عن محمد بن حزر فيما بعد.

[8] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 153؛ تاهرت: وهي مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه (الاصطخري، المسالك والممالك، ص 34).

[9] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 153.

[10] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 153.

اليسع بن مدرار قد فرق بين المهدي وابنه القائم بأمر الله في سجنهما [1] ، فأرسل إليه أبا عبد الله من يتلطف بإخراجهما من السجن ، ولكن اليسع قتل الرسل ورفض طلبه ، فما كان من أبي عبد الله إلا أن هاجم المدينة ودخلها، واستخرج المهدي وابنه من السجن [2] ، ومشى أبو عبد الله أمام المهدي ومعه وجوه القبائل [3] ، وهو يقول " هذا مولاي ومولاكم وولي أمركم هديكم ، ومهديكم المنتظر الذي كنت به أشير قد أظهر الله أمره" [4] وبعث المهدي العساكر في طلب اليسع بن مدرار، فأدركته وجاءت به إليه ، فقتله [5] ، وأقام المهدي بسجلماسة أربعين يوما [6] ، ثم رحل ونزل بقصر رقادة يوم الخميس لعشر بقين من ربيع الآخر سنة 297هـ/ 909م [7] ، ودعي له بالخلافة في اليوم التالي، يوم الجمعة لتسع ليال بقيت من شهر ربيع الآخر من نفس العام في رقادة والقيروان بالقصر القديم [8] وبذلك قامت الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب[9] .

[1] النعمان، افتتاح ، ص 277-278؛ ويذكر ابن عذاري أنهما كانا مسجونان معا في غرفة عند مريم بنت مدرار (البيان ، ج1، ص 153).

[2] النعمان ، افتتاح ، ص 278-279؛ ويذكر إدريس أن أبا عبد الله أرسل الى اليسع خادما له يسمى شفيعا، فقتله اليسع ومن معه من الرسل (تاريخ الخلفاء، ص 158)؛ ويذكر أيضا ، أن أبا عبد الله عندما دخل سجلماسة وجد المهدي مقتولا وعنده رجل " يهودي أو سامري" كان يخدمه وخاف أبو عبد الله أي يتغير موقف العساكر إذا سمعوا بقتل المهدي فأخرج الخادم اليهودي إلى العساكر وأخبرهم أنه هو المهدي (القرماني، أخبار الدول، ص 230).

[3] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 71.

[4] النعمان ، افتتاح ، ص 287.

[5] المقريزي ، الخطط، ج2، ص 31؛ وحسب إدريس أن المهدي لم يقم بقتل اليسع ، وأنه أوكله إلى ابنه القائم بأمر الله، فعفا عنه القائم ولكن اليسع قاطع الطعام والماء والكلام حتى مات (عيون الأخبار، ج5، ص 162).

[6] النعمان ، افتتاح، ص 287.

[7] ابن أبي دينار، المؤنس ، ص 71؛ ويذكر أنه دخل بما يزيد عن مائتي ألف مقاتل (ابن أبي دينار، المصدر نفسه، ص 71).

[8] النعمان، المصدر نفسه، ص 299.

[9] أنظر، سرور، الدولة الفاطمية ، ص 14.

أسباب الصراع الفاطمي والأموي

يمكن أن نجمل أسباب الصراع الفاطمي والأموي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، إلى أسباب سياسية ومذهبية واقتصادية .

ففيما يتعلق بالأسباب السياسية ، فإن جذور العلاقات العدائية بين البيتين الأموي والهاشمي، تعود إلى ما قبل ظهور الإسلام [1] ، وبعد وفاة النبي (ص) ، زاد الجفاء بينهما حدة ، بسبب المنافسة على منصب الخلافة الذي ظفر به الأمويون بعد الأحداث الخطيرة التي جرت بين [2] علي بن أبي طالب (35-40هـ/ 655-660م) ومعاوية بن أبي سفيان [3] ، ثم ازداد الموقف سوءاً بين الأمويين والهاشميين ، إثر مقتل الحسين بن علي في موقعة كربلاء سنة 61هـ/ 680م [4] ، في أيام يزيد بن معاوية [5] ، وقتل معه عدة من أبنائه وأخوته، ومع أن مقتل الحسين وآله، لم يكن سوى نتيجة للصراع السياسي الذي اضطرم بين آل البيت وبني أمية منذ خلافة علي، فقد كان لهذا الحادث أعظم وقع في العالم الإسلامي[6] .

كما أن الشيعة بمختلف طوائفها وفرقها عدّته حدثا مشؤوما في تاريخها وعليهم إزالة آثاره[7] وعلى هذا فإن العداء القديم بين هذين البيتين لم يزده الخلاف بعد وفاة الرسول (ص) إلا عمقا واتساعا، ولم يقتصر على بلاد المشرق فقط، بل انتقلت هذه العداوة إلى بلاد المغرب والأندلس[8] ، حتى إن الصراع الفاطمي والأموي، أصبح السمة البارزة في تاريخ المغرب والأندلس في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكان له أثر واضح في السياسة الداخلية والدولية لكل من

---

[1] أنظر، حسن إبراهيم ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 238؛ مرمول ، السياسة الداخلية ، ص 306.

[2] أنظر، مرمول، السياسة الداخلية، ص 306.

[3] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 93.

[4] أنظر، عنان، دولة الإسلام ، ج1، ص 141.

[5] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 93.

[6] أنظر ، عنان ، المرجع نفسه، ج1، ص 141.

[7] أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 93.

[8] أنظر، مرمول ، السياسة الداخلية ، ص 306.

النظامين: النظام الأموي السني في قرطبة ، والنظام الفاطمي الإسماعيلي في المهدية ، كما أنه يتعذر فهم كثير من قضايا السياسة الداخلية والعلاقات الخارجية في تاريخ الدولتين في هذه الفترة، إذ نظر إليها نظرة جانبية بعيدة عن طبيعة هذا الصراع[1] .

ومما لاشك فيه ، أن قيام هاتين الخلافتين المتجاورتين على أسس مذهبية مختلفة ، من شأنه أن يحدث صداما أكثر بينهما [2] ، فالفاطميون منذ قيام دولتهم بالمغرب ، فكروا في غزو الأندلس غربا، كما فكروا في غزو مصر شرقا ، لتكوين دولة إسلامية يسودها المذهب الشيعي [3] ، ولذلك فقد أسس الفاطميون إستراتيجيتهم على مبدأ السيادة الإقليمية في إطار المغرب الإسلامي بما فيه الأندلس في المرحلة الأولى، ويكون ذلك عن طريق إزاحة نظام الأمويين ، وفي المرحلة الثانية تحقيق السيادة العليا في العالم الإسلامي وذلك بإزاحة العباسيين[4] .

ولا غرو، أن فكرة السيادة في حياة الدولة الفاطمية قديمة ، فهي تؤمن بضرورة استرجاع حقها المغصوب ، وترى نفسها صاحبة الحق الشرعي الوحيد في حكم العالم الإسلامي [5] , ولذا ، فقد وجه الفاطميون نشاطهم ضد نظام الأمويين في قرطبة الذي تحول إلى شكل خلافة إسلامية جديدة ، وضد كل القبائل والقوى المؤيدة لهم حتى لا يبقى في أرض المغرب والاندلس غير نظام الخلافة الشيعية " قبلة لجمهور السكان" [6] ، وعندئذ تبدأ عملية التصفية النهائية من أجل السيادة العليا في العالم الإسلامي، بينهم وبين عصبيتهم وأبناء عمومتهم العباسيين[7] .

---

[1] أنظر، الجنحاني ، أعمال الملتقى الثالث، ص 17 ؛ سيأتي الحديث عن طبيعة هذا الصراع لاحقا.

[2] أنظر ، العبادي ، دراسات ، ص 65.

[3] أنظر ، العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص 204-205.

[4] أنظر ، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 34-35.

[5] أنظر، الجنحاني، أعمال الملتقى الثالث، ص 27.

[6] أنظر ، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 35.

[7] أنظر ، لقبال، المرجع نفسه، ص 35.

ويظهر أن عبد الرحمن الناصر الأموي (300-350هـ/ 913-960م) ، أدرك أبعاد الخطر السياسي حينما اتخذ الفاطميون لقب الخلافة سنة 297هـ/ 910م [1] ، ولذلك بادر إلى اتخاذ لقب الخلافة وتسمية نفسه أمير المؤمنين ، حيث قام صاحب الصلاة الفقيه القاضي أحمد بن بقي بن مخلد بن يزيد بالدعاء له بالخلافة في جامع قرطبة في خطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة 316هـ/ 929م [2] ، واستمر هذا التقليد بالخطبة لأمراء بني أمية بالأندلس حتى سقوط نظام الخلافة سنة 422هـ/ 1031م [3] .

وكان عبد الرحمن الناصر يهدف من هذا الإجراء عدم ترك جمهور السنة في الأندلس والمغرب بدون خلافة حتى لا يتجهوا بعواطفهم نحو خلافة الفاطميين [4] ، ويؤكد عبد الله عنان، إجراء الناصر هذا ، للسبب نفسه بقوله "وربما كان قيام الخلافة الفاطمية في الضفة الأخرى من البحر وانسياب دعوتها إلى المغرب الأقصى ، على مقربة من شواطيء الأندلس في مقدمة البواعث التي حدت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحي" [5] .

ولذا ، فإن اتخاذ عبد الرحمن الناصر للقب الخلافة ، قد زاد من حدة الصراع السياسي بين الأمويين والفاطميين ، فأصبحت الخلافة الفاطمية تسعى للقضاء على ظاهرة تعدد الخلافة ، وذلك عن طريق التوسع على حساب الخلافة الأموية ، حتى تبقى الخلافة الفاطمية في المهدية ، هي الخلافة الشرعية الوحيدة في أرض المغرب والاندلس، مقابل الخلافة العباسية بالمشرق التي يدين لها جمهور أهل السنة بالولاء ، ثم تصبح التصفية النهائية لاحراز السيادة العليا، ولقب الخلافة بين فرعين من بني هاشم وهم العلويون في المغرب والعباسيون في المشرق [6] ، ولعل سياسة

---

(1) النعمان، افتتاح، ص 299.

(2) ابن حيان ، المقتبس، شالميتا، ص 241-242؛ ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 198.

(3) أنظر، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 36 ؛ سيأتي الحديث عن أسباب اتخاذ الخليفة عبد الرحمن الناصر للقب الخلافة لاحقا .

(4) أنظر، لقبال، المرجع نفسه، ص 36.

(5) دولة الإسلام ، ج2، ص 429.

(6) أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 584.

الفاطميين هذه تفسر ما ذهب إليه بعض المؤرخين المحدثين من أن الأمويين التزموا في أغلب الأحيان أسلوب الدفاع عن كيانهم السياسي والمذهبي ضد ما يعتبر عملا هجوميا من جانب الفاطميين [1] .

ويورد الجوذري نصاً يبين فيه أن الصراع السياسي بين الفاطميين والأمويين قد حدا ، بالخليفة المنصور بالله الفاطمي- ثالث الخلفاء الفاطميين- إلى حد تأويل القرآن الكريم ، وذلك في أثناء رسالته التي بعث فيها إلى ابنه وولي عهده المعز لدين الله ، إذ يقول فيها: " ... واعلم يا بني أن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أمية بالأمس، وبنو جديك المهدي والقائم بأمر الله – صلوات الله عليهما- اليوم، لأن بني أمية إنما استحقوا ذلك لعداوتهم لجدك رسول الله ووصية علي بن أبي طالب، صلى الله عليهما ، وكذلك استحق هؤلاء ذلك بعداوتهم لله ولأولياء الله، وجحودهم فضلنا وإنكارهم حقنا ، فاعلم ذلك وتدبره"[2] .

وأما السبب الثاني وراء الصراع الفاطمي والأموي، فيعود إلى طبيعة الخلاف المذهبي الحاد بين الفاطميين الشيعة الاسماعيلية ، والأمويين السنة المالكية ، وزاده حدة عداء جمهور السكان في إفريقية والمغرب لنظام الاسماعيلية ، واتجاههم المذهبي إلى العباسيين ، أو إلى أرض الأندلس. وبما أن الدولة الفاطمية دولة مذهبية وسياستها التمكين لمذهبها وأيديولوجيتها [3] ، فقد فرضت آراءها المذهبية وإرادتها السياسية بالقوة والعنف، وبالاضطهاد والمصادرة ، وشراء الذمم، على أهل السنة في حواضر إفريقية والزاب، وخصوا المالكية بأعنف المواقف وأشد الاضطهاد ومع

---

[1] أنظر، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 36؛ وهناك من يذكر أنه توجد عداوة تقليدية بين العدوتين الأندلسية والمغربية ، تتصف بالكراهية والنفور، ولا يعود ذلك لما بين الشعبين من فوارق عرقية واجتماعية وحضارية، فحسب ، رأي محمد بن الشريف أن الأندلسيين هم البادئين بالتجني على أهل العدوة لأنهم كان لهم الحظ الأوفر في فتح الأندلس والإسهام في بناء حضارتها أولا ثم الدفاع عنها والمحافظة على بقاء الإسلام فيها ثانيا، ثم أن الأندلسيين حسب رأيه أصبحوا يتبجحوا على أهل العدوة لما وصلوا إليه من حضارة وعمران في عهد الامويين ، ثم ازداد شعورهم بالاستعلاء عندما بسطوا نفوذهم على المغرب في عهد عبد الرحمن الناصر ومن جاء بعده (انظر، منافرات العدوتين ، ص 87-88).

[2] سيرة جوذر، ص 63-64.

[3] أنظر ، لقبال ، المرجع نفسه، ص 34.

ذلك، فإن هؤلاء في جملتهم بقوا على ولائهم السياسي للخلافة العباسية الشرعية ، وعلى انتمائهم المذهبي للسنة، وآراء الجماعة ورفضوا مختلف أشكال التعاون مع الفاطميين ، واصبحوا يهيئون أنفسهم لرد الفعل، وللقتال الحقيقي ثأرا لشهداء المالكية في " هذا العصر الذي يعتبر في نظرهم ، عصر المحنة والشهادة" [1] .

ومما يذكر أن عبيد الله المهدي عندما وصل إلى رقادة [2] ، أرسل إلى القيروان في طلب ابن البرذون وابن هذيل ، فلما وصلا إليه وجداه جالسا على سرير ملكه، وكان عن يمينه أبو عبد الله الشيعي ، وعن يساره أبو العباس أخوه، فعندما وقفا بين يديه قال لهما أبو عبد الله وأبو العباس أتشهدان أن هذا رسول الله – وأشارا إلى عبيد الله – " فقالا جميعا بلفظ واحد : والله الذي لا إله إلا هو لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره، يقولان إنه رسول الله ما قلنا إنه رسول الله (ص)"، فأمر عبيد الله بذبحهما حينئذ وأمر بربطهما إلى أذناب البغال[3] .

ويرى ابن عذاري أن عبيد الله المهدي أظهر " التشيع القبيح" ، إذ أمر بسب أصحاب النبي (ص) ، وزوجاته ، ما عدا علي بن أبي طالب والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي، وأبا ذر الغفاري، وزعم أن اصحاب النبي (ص) ارتدوا بعده، غير هؤلاء [4] . ويذهب ابن عذاري إلى القول بأن المهدي أجاز الكفر ، وذلك حينما أورد أبياتاً من الشعر لمحمد البديل في مدح المهدي حيث يقول فيه:

---

[1] أنظر، لقبال ، الحلف بين أهل السنة والنكارية، ص 55-56.

[2] الدباغ، معالم الإيمان، ص 263؛ وكان وصول عبيد الله المهدي إلى رقادة سنة 297هـ/ 909م (ابن أبي دينار، المؤنس، ص 71) .

[3] المالكي ، رياض النفوس، ج2، ص 49.

[4] البيان ، ج1، ص 159.

حل برقادة المســـــيح حل بها آدم ونــــوح

حل بها أحمد المصطفى حل بها الكبش والذبيح

حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواه ريح[1]

وفي سنة 307هـ/ 919 م ، أمر المهدي بقتل المؤذن " عروس" في القيروان بعد أن جلده وقطع لسانه عندما شهد عليه العديد من المشارقة بانه لم يؤذن بصيغة الشيعة ؛ ويذكر أيضا أنه سنة 311هـ/ 923م، جاءت إلى المهدي وشاية ضد القاضي " محمد الهذلي" بأنه أفتى طبقا لمذهب مالك، فأمر بعقابه حيث جرد من ملابسه وضرب بالعصا في المسجد الكبير، وشهر به في أسواق القيروان[2] .

ويمكن القول إن هذه الممارسات تجاه أهل السنة من الشيعة، لم تكن كلها من صنع المهدي ، بل كان نصيب أتباعه والمتحمسين لدعوته، حظ وافر في تلك الممارسات ، والذين بدوْا أكثر تشيعا من المهدي نفسه وخصوصا طبقة الشعراء[3] ، ومن ذلك ، ما يذكر عن كتامة في أول دخولهم إلى إفريقية ، عند ذكرهم لأيمان القسم قولهم " وحق عالم الغيب والشهادة ، مولانا المهدي الذي برقادة" [4] . ولا شك أن هذا الفعل أغضب أهل السنة في إفريقية، ولذا ردوا على الفاطميين ، بطريقة فيها إنكار لادعائهم بعلم إمامهم بالغيب ، وذلك عندما قام بعض القيروانيين بكتابة بيتين من الشعر ، وتلطفوا فيمن أوصلها إلى عبيد الله المهدي ، وهما:

الجور قد رضينا لا الكفر والحماقة

يا مدعي الغيوب من كاتب البطاقة[5]

---

[1] البيان ، ج1، ص 160؛ ويذكر جورج مارسيه أن المهدي قد أبدى استنكاره لهذا الكلام (أنظر ، بلاد المغرب، ص 161).

[2] أنظر، جورج مارسيه، بلاد المغرب، ص 160-161.

[3] أنظر ، جورج مارسيه، المصدر نفسه، ص 161.

[4] أبن عذاري، البيان، ج1، ص 160.

[5] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 160.

كما أن أحد المغالين الشيعة وهو أحمد البلوي ، قد بالغ في تعظيم المهدي إلى حد جعل رقادة قبلته لأن المهدي موجود بها، ثم غير القبلة إلى المهدية عندما انتقل الإمام إليها[1] .

ومما تجدر ملاحظته ، أن الأندلس حتى بداية عهد الأمير الأموي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، المعروف بالربضي (180-206هـ/ 796-821م) ، كانت ما تزال على مذهب الأوزاعي الشامي [2] ، لتأثرهم آنذاك بالشاميين الذين دخلوا مع الجند أيام الفتح [3] ، ثم انتقل إلى الأندلس مذهب الإمام مالك ، ويبدو أن سبب دخوله إلى الأندلس كان عن طريق رحلة علمائها إلى المدينة المنورة ، وأخذهم الكثير من فضائل الإمام مالك. وأيا كان السبب الذي قيل للأخذ بهذا المذهب، فإن من المرجح أنه انتشر في قرطبة والأندلس أيام الحكم بن هشام [4] ، وأصبح هو المذهب الرسمي للدولة [5] ، في حين يرى بعض المؤرخين أن ظهور هذا المذهب يعود إلى أيام هشام بن عبد الرحمن (172-180هـ/ 789-796م) [6].

والفكرة المستوحاة من وراء ذكر تاريخ دخول مذهب الإمام مالك إلى الأندلس ، هي التعريف بأن هذا المذهب يعدّ ملازما تقريبا لقيام الدولة الأموية بالأندلس، وعلى هذا، فإنه لديه بعض المتحمسين من علماء وفقهاء السنة المالكية، الذين عملوا جاهدين على ترسيخ مبادئ هذا

---

[1] أنظر، جورج مارسيه، بلاد المغرب، ص 161؛ على أن هذا لا يعني رضا المهدي عن مثل هذه الممارسات حيث يذكر أنه كان يغضب على المتحمسين لمذهبه من الصفوة إذا تجاوزوا حدودهم ، كما أنه كان يعاقب العامة من الشيعة إذا استغلوا المذهب لتحليل ما حرم الله، ففي سنة 319هـ/ 921م ، أمر بحبس مائتين من الشيعة لأنهم أعلنوا عن آرائهم في القيروان (أنظر ، جورج مارسيه، المرجع نفسه، ص 161).

[2] المقري، نفح الطيب، ج3، ص 230؛ الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو أبو عمر ، ولد في بعلبك عام 88هـ/ 757م، ثم انتقل إلى دمشق ، وبيروت وعاش فيهما، وهو فقيه ويقال إنه كان إمام الشام ، وكانت بلاد المغرب والأندلس يتبعان مذهبه إلى حين دخول مذهبي أبي حنيفة ومالك، ولا يعرف الشيء الكثير من مذهبه أو مؤلفاته ، ويذكر أنه سمي الأوزاعي نسبة إلى قبيلة أوزاع من جنوب الجزيرة العربية ، ويذكر آخرون أن الأوزاعي نسبة إلى اسم حي من أحياء دمشق، وتوفي عام 157هـ/ 774م ، ودفن قبلة المسجد ببيروت (أنظر، دائرة المعارف الإسلامية، ج3، ص 138-139)

[3] أنظر، مريم قاسم، مملكة غرناطة، ص 254.

[4] المقري، نفح الطيب، ج3، ص 230.

[5] أنظر، حسن محمود ، تاريخ المغرب، ص 128.

[6] أنظر، عنان ، دولة الإسلام، ج1، ص 151؛ العبادي ، دراسات ، ص 90.

المذهب الجديد بأرض الأندلس، والدفاع عنه ضد أي مذهب آخر يرون أنه منافس[1]، وخاصة المذهب الإسماعيلي ، فهو يعتبر الأساس الذي قامت عليه الدولة الفاطمية بالمغرب، ولديه كثير من الأتباع والمتحمسين في الدفاع عنه أيضا.

ومما يدل على دور الفقهاء والعلماء الأمويين في الصراع المذهبي ، ما أورده المالكي في حديثه عن احتلال عبيد الله المهدي لإفريقية ، إذ يقول: " بأن فقيها مالكيا يدعى ابن جبلة ترك رباطه بقصر الطوب وأقام في ميدنة القيروان ، فقيل له : أصلحك الله كنت بقصر الطوب تحرس المسلمين وترابط ، فتركت الرباط والحرس، ورجعت إلى هاهنا . فقال : كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر ، فتركناه واقبلنا نحرس الذي قد حل بساحتنا لأنه اشد علينا من الروم"[2] .

ويبدو أن موقف الفقيه المالكي ابن جبلة تجاه الشيعة، قد أحدث صدى واسعا ليس فقط عند أهل السنة بإفريقية ، بل عند أعوان وأتباع الأمويين بالمغرب الأقصى ، ففي الرسالة التي بعث بها موسى بن أبي العافية إلى عبد الرحمن الناصر سنة 323هـ/ 934م، يكرر ما قاله ابن جبلة من أن " جهادهم (أي الشيعة الفاطميين) عند أهل السنة أولى من جهاد الروم" [3] .

ثم إن الإمام السني أبا إبراهيم بن محمد بن أبي الوليد، اعتلى المنبر يوم جمعة في مسجد قرطبة ، فخطب خطبة بليغة ، وحرض الناس فيها على جهاد الشيعة ، ثم قال: " اللهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بعبيد أدعى الربوبية من دون الله ، جاحدا لنعمتك كافرا بربوبيتك ، فانصرنا اللهم عليه، وارحمنا منه ومن دولته ، وأصله جهنم وساءت مصيرا بعد أن تجعله في دنياه

---

[1] ويؤكد بروفنسال رسوخ مباديء المذهب المالكي في الأندلس بقوله : " إذا كانت إسبانيا الأموية قد عرفت دائما بأنها قلعة حصينة من قلاع أهل السنة المحافظين ، فقد اشتهرت في الوقت نفسه بأنها من أقوى حصون المذهب المالكي، ولكنها مالكية جامدة ، ومن ثم يصح لنا أن نطلق عليها اسم " مالكية الأندلس". (الحضارة العربية في اسبانيا، ص 153).

[2] رياض النفوس، ج2، ص 402؛ انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 136.

[3] ابن حيان ، المقتبس، شالميتا، ص 373.

عبرة للسائلين وأحاديث في الغابرين وأهلك اللهم شيعته ، وشتت كلمته" [1] . وهذه النصوص تدل بوضوح على مدى الانقسام الديني الذي أحدثه حلول الفاطميين بالمغرب[2] .

واحتدم الصراع المذهبي بين الدولتين الفاطمية والأموية في عهد الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي، الذي يعدّ حسب ما وصفه جورج مارسيه حازما في آرائه ، واثقا من قدراته ، وقد جعل الانفصال بين مذهبي السنة والشيعة " بينا" منذ تسلمه الحكم [3] ؛ ومما يروى عن القائم أنه كان زنديقا ملعونا ، أظهر سب الأنبياء وأمر أن ينادى بلعن الغار وما حوى ، وقتل عددا كبيرا من العلماء [4] ، يقدرون بأربعة آلاف عالم من أهل السنة [5] . وبالرغم من أنه يمكن أن تكون هناك مبالغة في عدد القتلى إلا أن هذه المبالغات تؤكد مدى مقاومة أهل السنة ضد سياسة الخلفاء الفاطميين المذهبية[6] .

وقد أصبح الفقهاء يؤلفون الدعامات القوية للحرب ضد الفواطم، وأخذوا يذكون حماسة عامة أهل السنة في الطرقات والمساجد وقت الصلوات ؛ وهم ممن حملوا الرايات لقيادة الفرق المعارضة مثل ما حدث في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد (صاحب الحمار) [7] ، حيث انحازوا إليه وقاتلوا معه الجيش الفاطمي ، لأن أبا يزيد عندهم باق على الإسلام ، وإن انتمى إلى فرق مبتدعة ، فلا باس بالقتال معه ، أما الفاطميون فقد مرقوا من الإسلام ، وزال عنهم اسمه فحكمهم عندهم حكم الكفار [8] .

---

(1) ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 285.

(2) أنظر ، العبادي، دراسات ، ص 70.

(3) بلاد المغرب، ص 162.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج3، ص 101.

(5) المالكي، رياض النفوس، ج2، ص 406.

(6) أنظر، جورج مارسيه، بلاد المغرب، ص 163.

(7) نظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 136؛ وعن تفاصيل هذه الثورة ، أنظر ، موسى بن خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، سنة 1995م.

(8) ابن عبد الجليل ، أعمال الملتقى الثالث، ص 6.

ومن بين هؤلاء الفقهاء الذين لهم دور في إثارة أهل السنة في إفريقية ضد الفاطميين ، الفقيه أبو الحسن الخلاف، الذي قال: " إن قتال الفاطميين أفضل من قتال المشركين" ، وأنه كان يرى في محاربة الفاطميين فرضا وواجبا على كل مسلم [1] . وكذلك ربيع القطان الذي اتخذ عهدا على نفسه، بألا يشبع من طعام ولا نوم حتى يقطع الله دابر بني عبيد ، وقال: " كيف لا أخرج (أي لقتال الفاطميين) وقد سمعت الكفر بأذني" [2] .

ويتضح مما سبق مدى السخط الذي انتاب الفقهاء وسكان إفريقية وما وصل إليه الانقسام المذهبي، الذي أحدثه الوجود الفاطمي لشمال إفريقية [3] ، والذي اتخذه خلفاء الأمويين بالأندلس ذريعة للتدخل المباشر في بلاد المغرب ، لمواجهة الفاطميين والحد من انتشار نفوذهم[4] .

ومما لا شك فيه، أن موقف قبيلتي زناتة وصنهاجة من كلتا الدولتين الفاطمية والأموية ، فسر بناء على ولاء القبيلتين المذهبي لهاتين الدولتين تماما كما فسر موقف قبيلة كتامة المؤيد للفاطميين ، بأنه نتيجة لاحتضانها منذ البداية للمذهب الإسماعيلي الشيعي ، وذلك حسبما تناقلته الروايات التاريخية من أن أمير مغراوة الزناتية صولات بن وزمار ، هاجر في أول الفتح الإسلامي لبلاد المغرب إلى المدينة المنورة ، وأعلن إسلامه هناك ، أمام الخليفة عثمان بن عفان (23-35هـ/ 643- 655م) ، فعقد له الخليفة على قومه ووطنه ، وعاد أمير مغراوة صولات إلى المغرب مواليا للخليفة عثمان وبني أمية [5] ، وبقيت مغراوة الزناتية على ولائها للأمويين حتى بعد أن أصبحوا أمراء الأندلس[6] ، وقيل إن أمير مغراوة هذا ، قبض عليه أسيرا أول الفتح الإسلامي للمغرب في إحدى الحروب التي وقعت بين العرب والبربر قبل دخولهم بالإسلام فأرسلوه إلى الخليفة عثمان

---

[1] الدباغ ، معالم ، ج3، ص 34-35.

[2] الدباغ ، المصدر نفسه، ج3، ص 37.

[3] أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 137.

[4] أنظر، الفيلالي، المرجع نفسه، ص 137.

[5] أبن خلدون ، العبر، ج7، ص 28؛ وحسب ابن الخطيب أن أمير مغراوة حينئذ هو حرب بن حفص بن صولات بن وزمار بن مغراو، وليس صولات بن وزمار ، وأنه أخذ أسيرا ، ولم يذهب مهاجرا (أعمال الأعلام، ج3، ص 123).

[6] انظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 60.

لمكانته من قومه، فأسلم صولات أمام عثمان ، فأعتقه عندئذ، وعقد لـه على قومه وحسن إسلام صولات وتبعه قومه من مغراوة ، فأصبحت مغراوة من ذلك الحين ، تدين بالولاء إلى عثمان وأهل بيته من بني أمية، واختصوهم بهذا الولاء دون غيرهم من سائر قريش، وبسبب هذا الولاء كانت مظاهرة مغرواة الزناتية للدولة الأموية بالأندلس [1] . ويبدو أن إسلام مغراوة في بداية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، هو السبب الذي جعلها تنظم لجيوش المسلمين وتساعدهم على إتمام فتح المغرب [2] ، وأكد غوتييه ولاء مغراوة لأمويي الأندلس بقولـه : " جميع القبائل المغراوية كانت تعتبر نفسها من أصحاب الأمويين وهم يدينون بالولاء لهذه الفئة القرشية بالذات. ولذلك نقلوا ولاءهم لأمويي اسبانية" [3] ، غير أن هذا لا يعني عدم وجود بعض بطون زناتية أخرى، بقيت تقاوم المسلمين[4] .

وأما قبيلة صنهاجة، حسب ما أشارت إليه بعض الروايات التاريخية ، فإن ولاءها كان لعلي ابن أبي طالب [5] ، ولذا ، تقلدت " مذهب الشيعة العبيدية" [6] ، فأصبحت بهذا الولاء ضدا لقبيلة زناتة التي والت الخليفة عثمان بن عفان ، واستمرت ولايتها بعده لفرع بني مروان لقرابتهم من عثمان[7] . وعلى هذا الأساس أصبحت صنهاجة علوية النزعة ، وأما زناتة أموية النزعة[8] .

ويذهب موسى لقبال ، في تحليله الذي أفرده لمناقشته ولاء زناتة وصنهاجة المذهبي، أن المؤرخين إذ كانوا قد تصيدوا سببا مقبولا لولاء مغراوة الزناتية والذي تمثل في إسلام جدها الأول صولات أمام عثمان بن عفان ، فإن الحيلة " أعوزتهم" في استنباط سبب معقول أو مقبول شكلا

---

[1] ابن خلدون ، العبر، ج7، ص 28.

[2] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 61.

[3] انظر، ماضي شمال إفريقيا، ص 279 .

[4] أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة، ص 32.

[5] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 196.

[6] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 262.

[7] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 262.

[8] أنظر، لقبال، دور كتامة، ص 83.

لقصة ولاء قبيلة صنهاجة لعلي بن أبي طالب [1] ، ويرى أن قصة الولاء هذه هي لعبة دفع إلى ابتكارها انتقال الصراع السياسي والمذهبي بين الأمويين والعلويين من المشرق إلى المغرب والأندلس ، وبما أن أنصار الامويين وجدوا نقط ارتكاز يعتمدون عليها في المنطقة ، لخدمة أغراضهم السياسية بواسطة مغراوة الزناتية البترية التي مالت إلى تصديق قصة الولاء " إرضاء لكبريائهم القومي" وانسياقا وراء تبعاتها ونتائجها ويدفعهم إلى قبول ذلك النزاع القديم الذي كان بين البتر والبرانس، وبالمقابل، لا يمكن للحزب العلوي أن يقف مكتوف الأيدي أمام تحايل الأمويين وأشياعهم من الرواة والإخباريين حسب رأيه[2] .

ولذا، تأمل أنصار الحزب العلوي طبيعة العلاقة الاجتماعية بين السكان في المغرب ، فلم يركنوا إلى اتخاذ قبيلة مغايرة لزناتة من فرع البتر بسبب تعذر حدوث نزاع بين أفراد القبيلة الواحدة من أجل الآخرين بدافع العصبية البترية، التي تقوم على مبدأ الرابطة الدموية ، ولذلك اختار أنصار العلوية لخدمة قضية الشيعة في المغرب أقوى فروع البرانس كلهم وهي قبيلة صنهاجة، وأشاعوا بين رجال القبيلة وأمرائها فكرة الولاء المزعوم لعلي الذي يصوره بأنه صاحب الحق الشرعي في الإمامة بعد الرسول (ص) ، وقد اغتصب منه حقه باتفاق القوم ضده حسدا أو مكرا. وأما الأمويون فيصورون عثمان في صورة الخليفة الشرعي المظلوم الذي لا يستبعد أن يكون علي ممن تآمر ضده من وجهة نظرهم[3] .

وهكذا، تكون مغراوة وزناتة ، بل فرع البتر ذوي نزعة أموية حادة يقفون ضد صنهاجة ، وتلكاتة وضد سائر البرانس ذوي النزعة العلوية في سبيل خدمة أهداف سياسة بعيدة[4] .

---

[1] أنظر، دور كتامة، ص 83.

[2] أنظر، دور كتامة ، ص 83؛ في حين يرى البعض أن الولاء ناتج عن إخلاص صنهاجة للفاطميين ، وإخلاص مغراوة للأمويين (أنظر ، روجي إدريس، الدولة الصنهاجية ، ج1، ص 36).

[3] أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 83-84.

[4] أنظر، لقبال ، المرجع نفسه، ص 84.

وبواسطة الولاء المزعوم، عاشت بلاد المغرب والأندلس منذ بداية القرن الرابع للهجرة حياة قاسية من جراء الفوضى التي تسبب فيها تنازع البتر والبرانس ، ممثلين في زناتة وحلفائها من جهة ، وصنهاجة وحلفائها من جهة أخرى[1] .

وبالرغم من أن موسى لقبال قدم تحليلا واقعيا لقصة الولاء المذهبي لقبيلتي زناتة وصنهاجة من كلتا الدولتين الأموية والفاطمية ، لكن فاته ذكر أن هاتين الدولتين عززتا النزاع التقليدي القديم بين قبائل البربر بسبب الفوارق الاجتماعية والمتمثل بالبتر والبرانس، بأن أعطته صبغة دينية حتى تنشيء هذه الدول رابطة مع قبائل البربر، وتصبح على هذا الاعتبار جزءاً من كيانها المذهبي، ثم تكون الذريعة في دفاع قبائل البربر عن إحدى الدولتين باسم محاربة أعداء الدين، ودليل ذلك أن كتامة وهي من فرع البرانس ، قامت على أكتافها الدولة الفاطمية في الدور الأول من حياتها في بلاد المغرب، في سبيل الدفاع عن الدين. وبعد أن ضعفت هذه القبيلة استبدلت بقبيلة برنسية أخرى وهي صنهاجة، فكان لها أثر كبير في الدفاع عن نفوذ الدولة الفاطمية ببلاد المغرب في الدور الثاني، بعد رحيلهم إلى مصر، وأما الدولة الأموية ، فقد اعتمدت على زناتة البترية في مواجهة خطر الفاطميين باسم الدين، والتي بقيت على ولائها للأمويين حتى انهيار دولتهم ، ومن هنا تأتي أهمية دور القبائل البربرية في تاريخ العلاقات السياسية بين الفاطميين والامويين.

وهكذا ، يتبين لنا مما تقدم، أن الصراع بين هاتين الخلافتين كان صراعا مذهبيا عنيفا، يتعذر حله ، ولا يرجى صلاحه ، ولهذا استمر قائما بينهما إلى أواخر أيامهما[2] .

وأما السبب الأخير في الصراع الفاطمي والأموي، الذي يمثل حسب رأي أحد المؤرخين المحدثين ، أخطر جوانب ذلك الصراع [3] ، فهو السبب الأقتصادي ، ويعني ذلك؛ السيطرة على

---

[1] أنظر، لقبال، المرجع نفسه، ص 84؛ سيأتي الحديث عن طبيعة هذا الصراع لاحقا .

[2] أنظر، العبادي، دراسات ، ص 86.

[3] أنظر، الجنحاني، دراسات، ص 159.

مسالك تجارة الذهب بين بلاد السودان والمغرب الإسلامي [1] ، والرابطة جنوبا وشمالا بين الواجهتين الخطيرتين في المغرب الأوسط والأقصى، الواجهة البحرية والواجهة الصحراوية ، وشبكة المسالك هذه المتصلة في نفس الوقت بالمسالك التي تربط بين الأندلس وبلاد السودان من جهة ، وبينها وبين المشرق الإسلامي من جهة ثانية[2] ، وبدون هذا ، المورد الثري لجمع الثروات الذهبية ما استطاع الفاطميون أن يجمعوا تلك الذخائر الذهبية الضخمة مهما بلغت سياستهم المالية إحكاما ونظامهم الجبائي دقة واتقانا ، فقد كانت السيطرة على مسالك تجارة الذهب هي العامل الاساسي الذي يكمن وراء ذلك الصراع الذي استمرت أحداثه طويلاً بين قرطبة والمهدية، وهو الصراع الذي يبرز في عالم الأحداث السياسة والعسكرية بين كتامة وصنهاجة من جهة ، وزناتة من جهة أخرى، فلم يكن بهذا الاعتبار صراعا قبليا تقليديا ، بل هو صراع من أجل السيطرة على المسالك الحساسة لتجارة الذهب[3] .

كما أن التنافس بين الأمويين والفاطميين كان يكمن أيضا في السيطرة على المسلك الغربي لتجارة السودان [4] ، فالفاطميون حرصوا على الوصول إلى هذه الطرق ذات الأهمية بالنسبة لتجارة الشرق – الغرب والشمال- مع الجنوب لجمع الثروات التي تساعد على تحقيق أطماعهم في مصر، وهذا يفسر سبب سياستهم في المغربين الأوسط والأقصى ، التي لم تكن تهدف للتوسع من أجل الاستقرار، بقدر إنفاذ الحملات العسكرية بين الفينة والأخرى لضمان الموارد التجارية وفرض المغارم والجبايات على السكان ، وقد اعتمدوا في تجهيز الجيوش على قبائل كتامة وصنهاجة العدو التقليدي لقبائل زناتة الموالية لأمويي الأندلس[5] .

---

[1] أنظر الجنحاني، السياسة المالية ، ص 58.

[2] أنظر، الجنحاني، أعمال الملتقى الثالث، ص 18.

[3] أنظر ، الجنحاني، دراسات ، ص 84

[4] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 160.

[5] أنظر، محمود إسماعيل، المرجع نفسه، ص 159-160.

ولا شك أن الدولة الأموية أدركت الخطر الاقتصادي الذي قد يهددها فيما إذا نجح الفاطميون في السيطرة التامة على المسلك الغربي لتجارة الذهب وتحويله نحو الشرق ، وعزل الأندلس عن " الدورة التجارية المغربية" [1] . ولذا ، لم يكن تدخل الأمويين في شؤون المغرب الأقصى، خوفا من غزو فاطمي وشيك للأندلس بقدر ما كان الحيلولة دون هيمنتهم على موارد التجارة السودانية ، وكانت قبائل زناتة عدتهم في هذا الصراع ، خاصة البطون الزناتية التي هاجرت من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى تحت ضغط الفاطميين وحلفائهم من صنهاجة [2] . كما اعتمدوا على العناصر الأندلسية التي استقرت في المغرب الأقصى منذ عصر الإمارة.

والنتيجة التي نخلص إليها، أن الصراع بين صنهاجة وزناتة ، لم يكن صراعا " إثنيا" بقدر ما استهدف مراقبة مسالك تجارة الصحراء ، وهذا يفسر حرص الطرفين على تكريس الجهود العسكرية في المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية مثل بلاد الريف وسواحل البحر المتوسط ومنطقة تازا ومدن وموانى المحيط الأطلسي [3] .

ولم تلبث أن قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب أي بحدود سنة 309هـ/ 921م ، حتى أصبحت تسيطر على مسلك تجارة الذهب الرابط بين بلاد السودان – سجلماسة – فاس- تاهرت – إفريقية - ، ولكن الأوضاع لم تستقر لصالحها ، فاضطرت إلى تجهيز حملة جديدة سنة 315هـ/927م بقيادة أبي القاسم ولي العهد، لمقاومة قبائل زناتة الموالية للأمويين وفي مقدمتهم أسرة بني خزر ، وفي طريق عودته أمر باختطاط المسيلة (المحمدية)[4] . ويبدو أن اختيار موقع المدينة الفاطمية كان له علاقة بعامل اقتصادي يرمي لتأمين المسلك التجاري: سجلماسة – تلمسان-

---

[1] أنظر، الجنحاني ، دراسات ، ص 165.

[2] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة ، ص 160.

[3] أنظر، محمود إسماعيل، المرجع نفسه، ص 160.

[4] أنظر، الجنحاني ، دراسات، ص 167-168؛ المسيلة : مدينة استحدثها علي بن الأندلسي، أحد خدم الفاطميين وعبيدهم، وعليها سور حصين من الطوب ولها واد يسمى وادي سهر، ويوجد فيه ماء كثير ، وهو منبسط على وجه الأرض حيث يروي الكروم المنتشرة على ضفافه (ابن حوقل، صورة الأرض، ص 85).

بـلاد الـزاب- إفريقيـة، لأن المسـلك الشـمالي مهـدد مـن قبـل الأمـويين وحلفـائهم، وأمـا المسـلك الصحراوي الجنوبي فكان يسيطر عليه الخوارج وبطون قبيلة زناتة بصفة عامة[1] .

ويظهر أن مدينتي تاهرت وسجلماسة لهما أهمية اقتصـادية خاصـة، ولـذا، سـارع الفـاطميون منـذ البدايـة للسـيطرة عليهمـا، لان هـاتين المـدينتين كانتـا سـوقين كبيـرين يتحكمـان فـي المحـورين التجاريين الصحراوي والشرقي، وكان الأمويون فيما يبدو يعتمدون على الثروات المعدنية للمغرب الأقصـى خاصـة الـذهب الصـحراوي والـذي كـان يـتم تحويلـه إلـى عملـة نقديـة عنـد وصـوله إلـى سجلماسة أو أغمات [2] ، وفاس ثم يرسل إلى الأندلس عن طريق سبتة أو تلمسان، وبالتـالي كـان لا بد لهم ، من حماية هذه الطرق التجاريـة ، ولـذلك تحـالفوا مـع كل الخـارجين علـى الدولـة الفاطميـة وبالأخص مع المجموعات الزناتيـة ومـع الأدارسـة[3] . وكـان الفـاطميون يعرفـون أهميـة سجلماسـة التجارية وذلك لأن المهدي عاش لاجئا بها، ولذلك عملوا على عدم وصول الأمويين إليها[4] .

ويرى الجنحاني أن هذه الأهمية الاقتصادية لمدينة سجلماسة باعتبارها مسلكاً تجارياً تتحكم بالمحورين التجاريين الصحراوي والشرقي، واعتبارها أيضا " باب معدن التبر" ، وراء تحول سياسة الفاطميين في طريقة حكمها، فقد أرادوا أول الأمر حكمها بأسلوب مباشر عن طريق تعيين عامل فاطمي من قبل السلطة المركزية ، وعندما أدركوا صعوبة ذلك، أقروا على سجلماسة أمراء مدراريين – رغم الاختلاف المذهبي- اعترفوا لهم بالولاء والتبعية وضمنوا لهم السيطرة على المسلك الغربي [5] . ثم إن الفاطميين قد جهزوا حملة عسكرية سنة 347هـ/ 958م ، لإخضاع

---

[1] أنظر ، الجنحاني، دراسات، ص 168.

[2] أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 300؛ أغمات: مدينة صغيرة تقع بالمغرب على بعد 40كلم جنوب مدينة مراكش على وادي أغمات وتوجد مدينتان بهذا الإسم الأولى ، تسمى أغمات إيلان، والثانية أغمات ويكة وبها مسكن رئيسيهم وينزل بها التجار والغرباء ، وأغمات إيلان لا يسكنها غريب وبينهما ثمانية أميال (أنظر، محمد بن عميرة، المرجع نفسه، ص 185، هامش 3، 4).

[3] أنظر، محمد بن عميرة ، المرجع نفسه، ص 300.

[4] أنظر، محمد بن عميرة ، المرجع نفسه، ص 185.

[5] أنظر، دراسات ، ص 160-161.

المغرب الأقصى ، ولا سيما سجلماسة ، عندما أعلن أميرها الشاكر لله استقلاله عن الفاطميين ، وتبعيته للعباسيين ، وضرب الدراهم والدنانير الشاكرية ، وبالرغم من انتصار القائد جوهرفي إعادة نفوذ الفاطميين على سجلماسة ، فإن السلطة السياسية استمرت بها لأسرة بني مدرار مع بقائها خاضعة للفاطميين [1] ، وقد ضرب جوهر عملة ذهبية باسم المعز لدين الله في سجلماسة خلال هذه الحملة[2] .

وكانت ثورة أبي يزيد الخارجي[3] ، قد عزلت إفريقية عن مناطقها الجنوبية عزلا لم يعرف من قبل، وأدى ذلك إلى ضعف مسلك تجارة الذهب عن طريق وأرجلان ، حيث أصبح يسيطر عليه الخوارج ، ولذا ، فإن الفاطميين حاولوا السيطرة عن طريق الحملات العسكرية (كان آخرها حملة جوهر الصقلي سنة 347هـ/ 952م)، على المسلك الغربي: سجلماسة – أودغست- بلاد غانة للحصول على ما يحتاجون إليه من الذهب، ولذلك عمل الأمويون جاهدين على إبعاد الفاطميين عن هذا المسلك ، لضمان وصول ذهب السودان إلى الأندلس عن طريق : غانة – إودغست- سجلماسة- مواني البحر الأبيض المتوسط[4] .

ويبرز أهمية العامل الاقتصادي في الصراع الفاطمي والاموي، بعد أن ندرك أن السياسة الجبائية والموارد المالية الأخرى ، لم تكن كافية لتجمع تلك الثروة الذهبية الضخمة التي امتلأت بها خزائن المعز لدين الله قبيل رحيله إلى مصر، والتي ظهرت في مناسبات عدة منها [5] ، وما أنفقه على ختان أولاده سنة 351هـ/ 961م ، من مبالغ ضخمة ، فقد بلغ ما حمل إلى جزيرة صقلية

---

(1) أنظر ، الجنحاني، المرجع نفسه، ص 161.

(2) النعمان ، افتتاح، ص 80؛ انظر، الجنحاني، أعمال الملتقى الثالث، ص 25.

(3) سيأتي الحديث عن الثورة لاحقا .

(4) أنظر، الجنحاني، دراسات ، ص 84-85.

(5) أنظر، الجنحاني، دراسات، ص 85، 171.

وحدها- ما عدا الخلع والثياب- [1] " خمسين حملا من الدنانير ، كل حمل عشرة آلاف دينار، ومثل ذلك إلى كل عامل من عمال مملكته ليفرق على أهل عمله" [2] .

ثم إن الثروة الذهبية التي حملها المعز معه إلى مصر، تدل على وجود خطة مالية دقيقة، وتثبت في نفس الوقت إدراك الدولة الفاطمية ، بخطورة السيطرة على مسالك تجارة الذهب، وعلاقة ذلك بمستقبل الدولة وتنفيذ سياستها التوسعية[3] .

ويصف المقريزي هذه الثروة بقوله: " ولما عزم المعز على الرحيل إلى مصر أتاه بلكين بن زيري بألفي حمل من إبل زناتة وحمل ماله بالقصور من الذخائر ، وسبك الدنانير على شكل الطواحين، جعل على كل جمل قطعتين ، في وسط كل قطعة ثقبا تجمع به القطعة إلى الأخرى، فاستعظم ذلك الجند والرعية ، وصاروا يقفون في الطرق لرؤية بيت المال المحمول" [4] .

كما أن الثروة الذهبية هذه ، هي التي اعتمد عليها المعز لاسقاط العملة العباسية في مصر[5] " وكثر ضرب الدينار المعزي حتى أن المعز لما قدم مصر في سنة اثنيتن وستين وثلاثمائة (973م) ، ونزل بقصره من القاهرة أقام يعقوب بن كلس ، وعسلوج بن الحسن لقبض الخراج، فامتنعا أن يأخذا إلا دينارا معزيا فاتضع الدينار الراضي وانحط ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار، وكان صرف المعزي خمسة عشر درهما ونصفا" [6] .

ويرى الجنحاني، أن المعز لدين الله، لم يكن يطمع في السيطرة على بلاد الأندلس، ولا يتطلع إلى الجلوس على عرش قرطبة، بل كان هدفه الأساسي القضاء على نفوذ الأمويين في المغرب قبل الانتقال إلى المشرق وعلى بقاء مسالك تجارة الذهب خاضعة لخلفائه في بلاد المغرب، لأن

---

[1] أنظر ، الجنحاني، المرجع نفسه، ص 85.

[2] المقريزي، الخطط، ج2، ص 60.

[3] أنظر، الجنحاني، دراسات ، ص 85.

[4] الخطط، ج2، ص 62.

[5] أنظر، الجنحاني، دراسات، ص 86.

[6] المقريزي، الخطط، ج2، ص 57.

المشرق الإسلامي كان هدف الفاطميين منذ اللحظة الاولى، وكانوا قد أدركوا صعوبة السيطرة على الأندلس، خاصة بعدما تعرفوا بدقة على كثرة حلفاء حكامها بالعدوة المغربية[1] .

ونخلص إلى أن ما يؤيد أهمية العامل الاقتصادي في الصراع الفاطمي الأموي، هو الثروة الذهبية الضخمة التي تجمعت في خزائن الدولة الفاطمية ، ولا سيما في عهد المعز لدين الله الفاطمي، ثم ضرب العملة الذهبية عند الامويين في الأندلس، ابتداء من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بواسطة ذهب السودان الذي يصل إلى قرطبة عن طريق المسلك التجاري الغربي، إذ كانت العملة الفضية هي المتداولة في الأندلس حتى نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، والعملة الذهبية المتداولة في أسواق الأندلس حينئذ كانت عملة مشرقية ، واستعملت لشراء العبيد الصقالبة الذين كانوا يصدرون إلى المشرق الإسلامي[2].

ومجمل القول أن قبائل البربر كان لها دور إيجابي لفائدة الفاطميين والأمويين في أثناء مرحلة الصراع السياسي بينهما، في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ويندرج ذلك الدور تحت مسوغات سياسية ومذهبية واقتصادية.

---

(1) أنظر، دراسات ، ص 173-174.

(2) أنظر ، الجنحاني، دراسات ، ص 176-177.

مظاهر الصراع الفاطمي والأموي

اتخذ الصراع بين الفاطميين والأمويين مظاهر وأساليب عدة، كان أهمها، التشيع أو الدعوة المذهبية ، والجاسوسية ، والتشهير.

أما مظهر التشيع أو الدعوة المذهبية، فقد بدا اهتمام الفاطميون به منذ بداية قيام دولتهم ببلاد المغرب ، فيذكر أن عبيد الله المهدي، قام بإعداد الدعاة المهرة الذين اختارهم من بين العلماء المخلصين لمبادئ الشيعة [(1)] ، وأرسلهم إلى عمق شبه جزيرة الأندلس [(2)] ، لبث دعوة الفاطميين ونشر مبادئهم، حيث يوجد أعداؤهم التقليديون بنو أمية، ليمهدوا الطرق أمام الغزو الفاطمي بالدعاية وبث الأفكار الشيعية في جميع انحاء الأندلس [(3)] ، ورغم أن الأمويين صبغوا الأندلس بالصبغة الأموية واستطاعوا أن يوصلوا في نفوس شعبهم كراهية التشيع، ولذلك قيل ، أن التشيع في الأندلس بدأ فيها ضعيفا[(4)] ، وأن انضمام العناصر الأندلسية للدولة الفاطمية كان محدودا جدا [(5)] فإن ذلك لا يعني عدم نجاح الفاطميين في جذب بعض الأندلسيين إلى الدعوة الإسماعيلية واصطناع أتباع من بين سكان البلاد للمذهب الإسماعيلي وللخلافة الفاطمية ، وكلفوهم نشر الأفكار التي تضعف رابطة الولاء لدى السكان مع الخلافة الأموية، وإثارة الفوضى والقلاقل ضدها، وضد الفقهاء والعلماء المالكية ، الذين يمثلون عائقا قويا يحول دون انتشار المذهب الإسماعيلي ، وفي نفس الوقت يغذون الفتن والنزاعات المذهبية ، التي تظهر استبداد المالكية والطعن بالخلفاء الأمويين، وإبراز مدى العدل والاستقرار والأمن الذي يتمتع فيه السكان تحت راية الخلافة الفاطمية العلوية[(6)] .

[(1)] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 127.

[(2)] أنظر، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 44.

[(3)] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 127.

[(4)] أنظر، مكي ، التشيع في الأندلس، ص 96، 119.

[(5)] أنظر، العبادي، سياسة الفاطميين ، ص 205.

[(6)] أنظر ، لقبال ، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 44.

وقد وجد في الأندلس – رغم النزعة الأموية القوية- مركزان للتشيع كانا مصدرين للثورات، الأول كان بين البيوت العربية التي دخلت الأندلس ، وتدين بالولاء إلى آل علي بن أبي طالب من قبل، فبقيت هذه النزعة متوارثة عند أجيالها المتعاقبة.

وأما المركز الثاني والأهم للتشيع ، فكان بين القبائل البربرية وذلك لأن التشيع اتخذ منذ نشأته الأولى صبغة مضادة للعرب وللعصبية العربية ، وكما أن التشيع في المشرق انتشر بين صفوف الموالي من الفرس، فكذلك هي الحال بالمغرب ، حيث انتشر بين صفوف الموالي من البربر[1] .

ولذا ، كانت بلاد شمال إفريقية تربة خصبة للدعوات الشيعية ، وقد حمل التشيع إلى الأندلس لأول مرة في صدور البربر الذين اشتركوا مع العرب في الفتح، وبالتالي ، استقرار كثير من هذه العناصر هناك، وعلى وجه العموم، فإن البربر استقروا في المناطق الجبلية والهضاب المرتفعة خاصة الأراضي الممتدة في وسط شبه الجزيرة ، وكانت تعرف هذه المنطقة " بالجوف" ، وكذلك في المناطق الجبلية في جنوب شرق الأندلس في كورة البيرة[2] ، وهذا يفسر سبب توجه دعاة الشيعة الإسماعيلية إلى عمق شبه جزيرة الأندلس [3] ، حيث أماكن استقرار قبائل البربر هناك[4] .

وأهم البيوتات البربرية التي استقرت في الأندلس، وتوصلت إلى مراتب إدارية هامة في عهد الدولة الأموية ، بنو الغليظ ، وبنو دراج القسطلي، وهما من بطون صنهاجة[5] ، وبنو عبد الوهاب الذين امتازوا بكثرة عددهم وثوراتهم المتكررة ، ورغم ذلك كان منهم قادة ، وكتاب وأدباء وفقهاء[6] ، ومن بطون زناتة ، بنو الخروبي، وبنو الليث، وبنو يفرن ، وبنو برزال، وبنو دمر،

---

(1) أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 96-98.

(2) أنظر ، مكي، المرجع نفسه، ص 98.

(3) أنظر ، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 44؛ ودور كتامة ، ص 379.

(4) أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 98.

(5) مجهول، مفاخر البربر، ص 245.

(6) مجهول، المصدر نفسه، ص 246.

وبنو خزر [1] ، وهناك بطون بربرية أخرى مثل مديونة، ومغيلة، وملزوزة ، وبنو رزين، وبنو الخليع الذين كانوا بتاكرنا، ونفزة، حيث كان فيهم فقهاء وقضاة بقرطبة، وبنو غزلون الذين كان منهم أمراء بشاطبة، وبنو نعمان، وكان فيهم رؤساء بشنتبرية [2] ، كما استقرت بطون من قبائل هوارة، ومصمودة، وأوربة، وكان لقبيلة كتامة أيضا أعداد كثيرة في الأندلس ، وصل أفرادها إلى مناصب أمراء ورؤساء وقواد [3] .

ومما لا شك فيه أن استقرار بيوتات البربر في الأندلس ساعد على انتشار ظاهرة التشيع بين صفوف أفراد هذه القبائل على نطاق محدود والتي عبر أصحابها عن هذه الظاهرة في بعض الأحيان بالثورات المناوئة للأمويين، وكانت أولى الثورات البربرية الشيعية بالأندلس ، قبل الوجود الفاطمي ببلاد المغرب هي ثورة شقيا بن عبد الواحد المكناسي سنة 152هـ/ 768م [4] ، وهي حسب رأي محمود مكي، يمكن أن تكون أول محاولة لإقامة دولة شيعية في الغرب الإسلامي ، إذ إنها سبقت قيام دولة الأدارسة العلوية بنحو عشرين سنة، وقد كشفت هذه الثورة عن إمكانية نجاح الدعوات الشيعية بين أوساط القبائل البربرية[5] . وحسب رأيه أيضا، أن ثورة أحمد بن معاوية بن هشام الأموي المعروف بالقط الثائر سنة 288هـ/ 901م ، التي وجدت آذانا صاغية بين القبائل البربرية في منطقة " الجوف" ، هي ربما آخر محاولة لإقامة دولة على أساس المذهب الشيعي في الأندلس[6] .

كما أن التشيع دخل إلى الأندلس – فيما بعد- عن طريقين ، الاول، بواسطة الأندلسيين الذين اكتسبوا ثقافتهم الشيعية من المشرق في أثناء الرحلات التي قاموا بها إلى العراق أو مصر أو

---

(1) مجهول، المصدر نفسه، ص 246.

(2) مجهول ، المصدر نفسه، ص 247-248.

(3) مجهول ، المصدر نفسه، ص 248-249.

(4) ابن عذاري، البيان، ج2، ص 54؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 128.

(5) أنظر، التشيع في الأندلس، ص 99؛ انظر سابقا .

(6) أنظر، التشيع في الأندلس، ص 101، 103.

المغرب[1] ، ويبدو أن أول من نقل الثقافة الشيعية إلى الأندلس هو محمد بن عيسى القرطبي المعروف بالأعشى (ت221هـ) ، الذي رحل إلى العراق سنة 179هـ/ 795م، ونقل معه إلى الأندلس كتب وكيع بن الجراح الذي يعدّ من أكبر المحدثين الشيعيين [2] ، وكان له كتب في الدفاع عن مبادئ الشيعة الزيدية [3] ، ومما يذكر عن محمد بن عيسى أنه رفض تسلم قضاء الأندلس، وأنه كان دائم الذكر لفضل علي بن أبي طالب ، واتخذه قدوة في حياته[4] .

وأما الطريق الثاني، فقد كان بوساطة بعض المشارقة الذين استعملوا أسلوب الدعاية المذهبية لنشر المذهب الشيعي في الأندلس ، أو الذين قاموا بدور التجسس لمصلحة مواليهم الشيعة[5] .

ولم يقف الأمويون مكتوفي الأيدي أمام الدعوات الشيعية التي غزت الأندلس- رغم تأثيرها المحدود- فاتخذوا منذ البداية موقفا عدائيا صارما، ونهجوا في الأندلس نفس السياسة التي نهجها أسلافهم في المشرق والقائمة في المحافظة على المذهب السني والقضاء على الحركات الشيعية ، ورغم ذلك ، فقد كانت نزعتهم الاموية معتدلة ، فلم يأمروا بلعن علي بن ابي طالب ولا أحد من أهل البيت [6] ، وقد قام الأمويون بالرد على الفاطميين بنفس الأسلحة التي استخدموها ضدهم، وذلك عن طريق نشر آرائهم بشتى الوسائل والطرق بين شعوب الشيعة، سواء في المشرق الإسلامي ، أو في شمال إفريقية ، وقد تحدد عمل الأمويين بالأندلس تجاه الشيعة بمظاهر شتى كان أهمها، مظاهر سياسية، وذلك عندما حاولوا أن يتصلوا بأنصارهم ويشعلوا الثورات ضد خصومهم الشيعة، وهناك مظهر ثقافي قام به العلماء الذين جندهم الأمويون للدفاع عن آراء أهل السنة[7] .

---

[1] أنظر، مكي ، التشيع في الأندلس، ص 103.

[2] أنظر، مكي ، المرجع نفسه، ص 104.

[3] الشهرستاني، الملل والنحل، ج2، ص 26.

[4] الخشني، قضاة قرطبة ، ج1، ص 11.

[5] أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 104؛ سيأتي الكلام عنهم عند الحديث عن مظهر الجاسوسية.

[6] أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 116.

[7] أنظر، مكي، المرجع نفسه، ص 120.

كما عمد الأمويون إلى طرد العناصر المتشيعة والمشبوهة ، وقتل من تظاهر بالدعوة للفاطميين [1] ، ويؤكد المقدسي مثل هذه التصرفات بقولـه إن الأندلسيين إذا عثروا على شيعي فربما قتلوه [2] ، ثم إن الأمويين شددوا على اتباع السكان للمذهب المالكي ، والالتزام به في تطبيق العبادات والمعاملات فكانت هذه الوسائل والأساليب هي التي قصد بها الأمويون مواجهة حركات الشيعة الفاطميين[3] .

وثمة أسلوب آخر، حاول الأمويون تطبيقه لمقاومة هذا المظهر ، وذلك عندما صوروا التشيع على أنه مجموعة من البدع والضلالات التي لا تتفق وما يجب أن يكون عليه المسلم الصحيح في السير بمقتضى أحكام السنة والابتعاد عن محدثات الأمور [4] . ويمكن أن تتضح صورة محاربة الأمويين لمظهر التشيع من خلال تأليف كتاب العقد الفريد، لأبي عمر أحمد بن عبد ربه (ت 328هـ)، الذي تكلم فيه ببعض التفصيل عن الشيعة وفرقهم وتناول بعض العقائد الغريبة التي دانت بها الفرق الشيعية المتطرفة كالسبئية والمغيرية ، والمنصورية ، واستشهد بكثير من أقوال العلماء في ذم الشيعية والتبرؤ من عقائدهم ومقارنتها بالعقائد اليهودية[5] .

ومما يلاحظ ، أن ابن عبد ربه، لم يذكر شيئا مطلقا عن التشيع الإسماعيلي ، الذي عم شمالي إفريقية ، ابتداء من سنة 296هـ/ 909م ، والذي وافق وقت تأليفه لهذا الكتاب (300-322هـ/ 913-934م)، ويمكن أن يكون ذلك تمشيا مع السياسة التي رسمها لكتابه، وهي الاهتمام بالمشرق أولا وتقديمه في الحديث على بلده الأندلس أو المغرب على وجه العموم، أو أنه ربما رأى أن الإشارة

---

[1] أنظر، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 40.

[2] أحسن التقاسيم، ص 236.

[3] أنظر، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 40.

[4] أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 105.

[5] أنظر، مكي، المرجع نفسه، ص 105.

إلى مبادئهم هي وسيلة غير مباشرة لنشر تلك المبادئ ، وهو ما يخالف سياسة الأمويين بالأندلس[1]

.

وأما المظهر أو الأسلوب الآخر، الذي برز في الصراع الفاطمي والأموي هو الجاسوسية. فقد انتشر هذا المظهر انتشارا واسعا في الفترة التي رافقت قيام الدولتين الأموية بالأندلس، والفاطمية بالمغرب ، حتى قيل إن القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) كان عصر الجاسوسية [2] ، ويعود ذلك ، لانتشار الدعوات السرية وخاصة التي كانت تبشر بخروج إمام مهدي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، وانتشر في هذه الفترة جواسيس الفاطميين في أنحاء الأقطار الإسلامية كافة، ويبدو أن الدعوة الإسماعيلية الشيعية أفضل دعوة استغلت سلاح الجاسوسية بمهارة وإحكام ، فكان الفاطميون" يجوسون" أنحاء بلاد المغرب ، يترقبون الفرصة للإطاحة بالكيانات السياسية الموجودة على أرض المغرب، ويمهدون لإقامة ملك كبير ينشرونه بعد ذلك ، إما شرقا نحو مصر ، وإما شمالا نحو الأندلس [3] ، حتى يتحقق هدفهم الأسمى في ضم جميع البلاد الإسلامية تحت راية الخلافة الفاطمية.

ولتحقيق هذا الهدف ، دخل كثير من عيون الفاطميين إلى الأندلس بقصد استطلاع أحوالها والتعرف على مداخلها ومواطن الضعف فيها ودراسة نظمها السياسية والاقتصادية والدينية ثم بث دعايتهم الشيعية حسب استطاعتهم ، وكانوا يخفون أهدافهم الحقيقية وراء ستار من المصالح المشروعة كالتجارة أو العلم أو السياحة الصوفية [4] . وأشهر جواسيس الشيعة الفاطميين الذي دخلوا إلى الأندلس بحجة التجارة أو العلم ظاهرا ، وبقصد التجسس في الحقيقة [5] أبو اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي المعروف

---

[1] أنظر، مكي، المرجع نفسه، ص 106.

[2] أنظر، مكي، الرحلات بين المشرق والأندلس، ص 44؛ والتشيع في الأندلس، ص 11.

[3] أنظر، مكي، الرحلات بين المشرق والأندلس، ص 44.

[4] أنظر ، مكي، التشيع في الأندلس، ص 111-112.

[5] أنظر، مكي، الرحلات بين المشرق والأندلس، ص 44.

بالرياضي [1] ، وكان شاعرا وأديبا ويجيد التأليف [2] ، فقد قدم من المشرق [3] ، إلى الأندلس في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، مفتعلا كتابا على ألسنة أهل الشام، يدعون فيه للدولة الأموية في الأندلس، ويرغبون في التقارب معها، وأظهر حجة مقامه بالأندلس في طلب الرزق والمعيشة؛ ويبدو أن الأمير محمد عرف أنه محتال وأن لديه أغراضاً خفية ، ومع ذلك أكرمه ووسع نزلـه ولكنه أبعده عن الأماكن التي تمكنه من خلالها مباشرة نشاطه، وبعد فترة طويلة من مقام أبي اليسر في الأندلس ، سأل الأمير محمد الرد على كتاب أهل الشام، والمشكوك بصحته، فأوقع الأمير في حيرة من أمره ويتبين ذلك من كلامه لأحد خواصه يدعى هاشم بقوله: " ويحك ، هذا إنسان طالب معيشة، تولدت لـه بها هذه الحيلة، فإن صرنا إلى تصديقه ومجاوبته على حسب كتبه، اتخذنا عند بني هاشم مضحكة ومزراة ، وإن كذبناه وحرمناه وقد احتل جنابنا فلوم مشهور ، وفعل غير مشكور ، وقد رأينا فيما خاطبنا به عن نفسه تأليفا حسنا ، وتجويدا بالغا ، لو كان قصدنا به عن نفسه، على نأى داره ، وبعد مزاره، لا ستحق معروفنا ، واستوجب إحساننا" [4] .

وهنا تتجلى فطنة الأمير للتخلص من هذا الموقف الحرج ، حيث أمر لـه بمبلغ خمسمئة دينار وبكتاب مختوم؛ فخرج أبو اليسر من قرطبة وعندما اجتاز العدوة، فض الكتاب ، فلم يجد مكتوبا فيه إلا عبارة البسملة [5] . فعلم عندئذ أن حيلته لم تفلح عند الأمير محمد [6] ، ثم سار إلى مصر فوقع صاحبها على خبره، وأمر بحبسه [7] . وكان أبو اليسر قد تولى الكتابة إلى بني

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 162.

(2) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 162؛ ولم تصرح المصادر أنه كان جاسوسا ، ولكن ما ورد من أخباره يرجح على وسمه بهذه السمة (أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 112).

(3) مجهول، أخبار مجموعة ، ص 129.

(4) مجهول، المصدر نفسه، ص 129-130.

(5) مجهول، المصدر نفسه، ص 130.

(6) ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 163.

(7) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص 130؛ وكان يحكم مصر حينئذ أحمد بن طولون ولم يعرف كيف تخلص أبو اليسر من سجنه (المقري، نفح الطيب، ج4، ص 131).

الأغلب[1] ، ابتداء من عهد الأمير إبراهيم بن أحمد الثاني الأغلبي ، حتى نهاية الدولة في عهد الأمير زيادة الله الثالث [2] ، ثم أصبح كاتبا لعبيد الله المهدي، واستمر على عمله هذا إلى حين وفاته سنة 298هـ/ 908م [3] .

ومع أن نجاح أبي اليسر السياسي في الأندلس محدود، لكنه وفق في نقل بعض الثقافة الأدبية الشيعية إلى هذه البلاد، فقد أدخل إلى الأندلس شعر أبي تمام وكذلك شعر دعبل الخزاعي الذي كان من أبرز الشيعة في المشرق [4] ، كما أنه نشر بعض مؤلفاته في الأندلس، كان أهمها مؤلفاً في القرآن سماه " سراج الهدى" ومؤلفاً في الأدب سماه " قطب الأدب" [5] ، ولا يستبعد أن أبا اليسر قد اتجه في هذه المؤلفات اتجاها يلائم الدعوة التي كان ينتسب إليها[6] .

واعتمد الفاطميون بعد وفاة أبي اليسر ، على جاسوس آخر هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي [7] ، الذي تولى الكتابة إلى عبيد الله المهدي سنة 298هـ/ 908م [8] ، وكان ابن هارون هذا ، قد تردد عدة مرات على الأندلس ، متستراً بستار العلم [9] ، وعلى ما يبدو أن هدفه من هذه الزيارات المتكررة ، كان التجسس بالدرجة الأولى [10] ، لحساب عبيد الله المهدي [11] ،

---

[1] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 163.

[2] أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 112.

[3] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 163؛ فحسب محمود مكي، أن أبا اليسر كان من وجوه دعوة أبي عبد الله الشيعي وقد رافقه في الحملة التي بعثها إلى تخليص الإمام عبيد الله المهدي من سجن بني مدرار وذلك بعد اقتتاحه القيروان ، ولذلك قلده المهدي هذا المنصب مكافأة له على خدماته السابقة (التشيع في الأندلس، ص 113).

[4] أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 113.

[5] أبن عذاري ، البيان، ج1، ص 163؛ وله أيضا " كتاب لقيط المرجان" ، ورسالة " الوحيدة المؤنسة" (ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 163).

[6] أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ويقال أن أبا اليسر هو الذي أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس (أنظر، حسن محمود ، تاريخ المغرب، ص 140).

[7] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 163.

[8] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 163.

[9] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 129.

[10] ابن الفرضي، تاريخ قرطبة، ص 201.

[11] أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 129.

وحسب ما يورده ابن عذاري أن دخوله إلى الأندلس كان في أيام الأمير عبد الله (275-300هـ/ 888-913م)، فكسب ود الناس هناك، وجالس أهل العلم والأدب منهم [1] ، فكان لهذه العلاقات الودية التي أقامها مع أهل الأندلس لاستقاء المعلومات التي يحتاجها ، دور لإنجاح مهمته ، ليس فقط في أثناء وجوده بالأندلس بل استفاد منها في ظل خدمته للفاطميين بالمغرب ، عن طريق الحجاج الأندلسيين المارين ببلاد المغرب، ويشير ابن عذاري إلى ذلك بقوله " وكان بعد ذلك يحافظ من جاز به، قاصدا إلى الحج من خلطائه بقرطبة ويكرمهم" [2] .

ونظرا للمهارة والفراسة اللتين أظهرهما ابن هارون في فن التجسس ، فقد احتل مكانة عالية عند عبيد الله المهدي [3] ، حيث قربه منه واستعان به على أمور دولته، فكان منه في ذلك، رأي جميل ونفع عظيم [4] ، ثم أسند إليه المهدي سنة 300هـ/ 912م ، إضافة إلى الكتابة ؛ ديوان البريد الذي كان يحظى بأهمية خاصة في الدولة الفاطمية ، ولم يزل على هذا المنصب إلى حين وفاته [5] . وعقب تسلم القائم بأمر الله، مقاليد الحكم للدولة الفاطمية ، أقره على أعمال البريد والكتابة ، وفوض إليه كثيرا من أعمال الدولة[6] .

ويمكن القول : إن ابن هارون وفق فيما لم يوفق فيه أبو اليسر الرياضي من قبله [7] ، فقد أفاد الفاطميين بمعلومات على جانب كبير من الأهمية ، تتعلق بأوضاع الأندلس السياسية والاجتماعية والدينية [8] ، وذلك بدليل أنهم عهدوا إليه بأكبر مناصب دولتهم [9] ، كما يرجع إليه الفضل في نشر تعاليم الشيعة الفاطميين ، وكذلك أفكار المعتزلة ، ومما تجدر ملاحظته أن هناك صلة وثيقة بين

---

[1] البيان ، ج1، ص 163.

[2] البيان ، ج1، ص 163.

[3] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 129.

[4] أبن عذاري، البيان ، ج1، ص 163.

[5] أبن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 169.

[6] أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 114.

[7] أنظر، مكي، المرجع نفسه، ص 113.

[8] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 130.

[9] أنظر ، مكي ، التشيع في الأندلس، ص 114.

الفاطميين والمعتزلة من حيث طبيعة تفكيرهم، إذ يعتبر الاعتزال خطوة ممهدة للدخول في المذهب الإسماعيلي[1] .

وكان الرحالة ابن حوقل النصيب (ت367هـ/ 977م) ، من بين الجواسيس الفاطميين الذين قاموا بدور مهم في الأندلس [2] ، وذلك حينما دخل إلى الأندلس تحت ستار التجارة ، إذ يشير أحد المستشرقين الغربيين إلى أنه دخل هذه البلاد ليستطلع أحوال الأندلس ولدراستها ، لمصلحة موالاة الفاطميين حتى يتمكنوا من غزوها لاحقا[3] ، ودليل ذلك اهتمامه الكبير بتسجيل مسالك الأندلس وطرقها ، وتعداد مواردها وخيراتها الزراعية والمعدنية ثم ذكره لأحوالها العسكرية ، حيث وصف عسكرها بقلة الشجاعة، وأظهر في كتابه ضعف أهلها وعدم قدرتهم على الدفاع عن بلادهم، ويبدو أن هدف ابن حوقل من تسجيل هذه المعلومات بهذا الوصف ، هو حث الفاطميين وتشجيعهم على غزو الأندلس [4] ، ومما أورده عن أوضاع الأندلس ما يلي: " ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة ، بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهله وضعة نفوسهم ، ونقص عقولهم وبعدهم من البأس والشجاعة والفروسية، والبسالة ، ولقاء الرجال ومراسي الأنجاد والأبطال، وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفوسها ومقدار جباياتها، ومواقع نعمها ولذاتها .. وليس بجيوشهم حلاوة في العين بسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها ، وأن شجعت أنفسهم ، ومرنوا بالقتال ، فإن أكثر حروبهم تتصرف على الكيد والحيلة ولا رأيت ولا رأى غيري بها إنسانا قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ، ورجلاه في الركابين ولا يستطيعون ذلك ، ولا بلغني عن أحد منهم يخوفهم السقوط وبقاء الرجل في الركاب على قولهم ، وهم يفرسون على الأعداء من الخيل..." [5].

---

[1] أنظر، مكي، المرجع نفسه، ص 114.

[2] أنظر، مكي، المرجع نفسه، ص 115.

[3] Dozy, Historie des musulmans ans d Espagne, T, 2, P. 125

[4] ابن حوقل ، صورة الأرض، ص 105.

[5] ابن حوقل ، المصدر نفسه، ص 105-108.

ويبدو أن مشروع ابن حوقل الخاص بتسجيل المعلومات عن الأندلس ، لم يجد العناية الكافية والتأييد المطلق، من جانب الدولة الفاطمية لأن نجاح دعاتها في جذب الأنصار والمؤيدين لها في بلاد الأندلس كان محدودا جدا، والسبب في ذلك يعود إلى النفوذ القوي الذي يتمتع به الحزب الأموي في هذا البلد[1] .

وبالمقابل ، قام الأمويون ببث عيون ورقباء في جهات كثيرة من بلاد المغرب وإفريقية [2] ، وكان هؤلاء الجواسيس يوافون حكومتهم بما يهمها من أخبار هذه البلاد [3] ، ويبثون الأفكار المضادة للنفوذ الفاطمي [4] ، وساعد هؤلاء في مهمتهم وجود جاليات أندلسية نشيطة في معظم مدن إفريقية ، ولم تكن هذه الجاليات تحرص على مصلحة البلاد التي استقرت بها بقدر ما كانت تحرص على مصلحة البلد الذي كانت هجرتهم منه، إضافة إلى كونها شديدة التمسك بالعقيدة السنية التي كانت قد تأصلت في الأندلس، كما كانت شديدة الكراهية للمذهب الشيعي إلى حد الاستماتة في قتاله[5] .

وكان الفقهاء السنيون وخاصة الأندلسيين منهم – هم الذي حملوا لواء المعارضة للفاطميين [6] ، حيث يروي ابن الفرضي أن الفقيه القرطبي يحيى بن عمر (ت289هـ/ 901م) الذي استقر في القيروان كان سنيا متعصبا ، حاملا على البدع ، ومعتزا بولائه لبني أمية [7] ، ولذا، كان فقهاء السنة من الجاليات الأندلسية بالمغرب ، محل اضطهاد من قبل الفاطميين ، ففي سنة 300هـ/ 912م ، قبض على أحد أبناء التجار الأندلسيين وهو أبو جعفر بن خيرون ، وكان من كبار أغنياء القيروان وأثريائها ، حيث يملك المسجد الشريف ، وعدداً من الفنادق المجاورة لسجن القيروان ،

---

[1] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 131.

[2] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 379.

[3] أنظر، مكي، التشيع في الأندلس ، ص 122.

[4] أنظر ، لقبال، دوركتامة ، ص 379.

[5] أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 122.

[6] أنظر ، الفيلالي ، العلاقات السياسية ، ص 135.

[7] تاريخ علماء الأندلس، ج2، ص 181.

وتم قتله بسبب سعي القاضي المروزي به [1] ، وفي سنة 309هـ/ 921م ، أمر عبيد الله المهدي بقتل الزاهد محمد الشذوني بسبب تفضيله بعض الصحابة على علي بن أبي طالب [2].

ومما يوضح حرص الأمويين في تقصي الأخبار عن بلاد المغرب أيام الدولة الفاطمية ، ذلك النص الذي أورده ابن سعيد المغربي ، من أن الخليفة عبد الرحمن الناصر كان لـه جواسيس منتشرون في كل مكان، يوافونه بأدق التفاصيل عن أحوال الفاطميين ، وفي ذلك يقول: " كانت للناصر عيون على ما قرب وبعد ، وصغر أو كبر" [3] .

كذلك ، فقد استفاد الأمويون من العلماء الذين فروا من إفريقية مثل الخشني، والجغرافي المشهور محمد بن يوسف الوراق الذي ألف للخليفة الحكم المستنصر مؤلفا جغرافيا " في مسالك إفريقية وممالكها" [4] ، إلى جانب تآليف أخرى عن ممالك المغرب، وعن تاهرت ووهران وسجلماسة ونكور[5] .

كما أن الأمويين استقبلوا كل الهاربين من المغرب جراء اضطهاد الشيعة لهم، ولا شك أن هؤلاء كانوا يحملون معلومات وتفاصيل متنوعة عن أحوال الفاطميين ، أعانت حكام الأندلس على تحديد الخطوات القادمة في مواجهة الشيعة ، وأشهر هؤلاء الوافدين بنو سعيد بن صالح صاحب نكور، فحينما دخلها مصالة بن حبوس وقتل أميرها سعيد سنة 305هـ/ 918م هرب أبناؤه الثلاثة إلى الأندلس وهم : صالح، وإدريس، والمعتصم، فرحب بهم عبد الرحمن الناصر ووسع عليهم نزلهم ، وخيرهم بين القدوم إلى قرطبة أو النزول بمالقة، فاختاروا المقام بها لقربها من بلدهم ، وأملهم في العودة إليه[6] .

---

[1] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 169.

[2] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 169.

[3] المغرب ، ج1، ص 180.

[4] أنظر، الجنحاني ، دراسات ، ص 166.

[5] أنظر، سنوسي ، أعمال الملتقى الثالث، ص 24.

[6] أنظر ، عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير، ج2، ص 615.

وممن قدم إلى الأندلس أيضا ابن الخراز الميلي الذي كان قاضيا على مدينة ميلة ، وهرب إلى قرطبة سنة 325هـ/ 936م ، خوفا من جنود الفاطميين ، فسجل له الناصر على قضاء بلده، وكان فقيها وشاعرا[1] . وكذلك حكم بن محمد القيرواني القرشي (ت370هـ/ 980م)، الذي تردد بين قرطبة والقيروان ، وقد حظي أيضا بكرم الحكم المستنصر [2] ، وكان قد تعرض للسجن أيام عبيد الله المهدي بسبب مهاجمته للفاطميين[3] .

والمظهر الأخير الذي برز في الصراع الفاطمي والأموي هو التشهير، حيث تبادل الطرفان عبارات القدح والذم، وإطلاق التصريحات العلنية التي تنتقص من قدر بعضهم لبعض، ولذلك فقد وصف هذا المظهر بأنه من أقوى الأسلحة التي استعملت في الصراع السياسي الذي كان قائما بين الدولتين[4] .

لقد عمل الفاطميون منذ قيام دولتهم على التشهير بماضي بني أمية في الإسلام وبموقفهم من الحركة الإسلامية ، ومن الرسول (ص) ، ثم من آل البيت [5] ، بدءا بعلي بن أبي طالب وابنيه الحسن والحسين [6] ، وأنهم قاموا بسفك دمائهم ، واغتنموا الفرصة لتشريدهم في الآفاق وتعقب آثارهم، وقد لجأ الأمويون منذ عهد الناصر إلى نفس الأسلوب من لعن الفاطميين والتشهير بهم في سائر بلاد الأندلس والمغرب الأقصى ووصفوهم بملوك الشيعة مبالغة في الإنكار عليهم لانتحالهم لقب أمرة المؤمنين[7] .

---

[1] ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس، ج2، ص 185.

[2] ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج2، ص 186.

[3] أنظر، مكي، التشيع في الأندلس، ص 125.

[4] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 382.

[5] أنظر، لقبال، المرجع نفسه، ص 382.

[6] أنظر، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 43.

[7] أنظر ، لقبال، المرجع نفسه، ص 380.

وتشير بعض النصوص التاريخية إلى ظهور حركة تشهير كبرى بالحكم الفاطمي في مدينة المحمدية (المسيلة) ، تزعمها عثمان بن أمين الذي " قيل: إنه كان يقدح في الدولة ، ويكاتب بني أمية ويرعون ذمامه هناك ويقضون حوائجه" [1] . وعندما وصلت أخبار هذه الحملة إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله، في المهدية بواسطة رقباء الفاطميين غضب لتقاعس والي المحمدية جعفر ابن علي بن حمدون وتركه عثمان بن أمين يشهر بنظام الدولة الفاطمية ، واعتبر الخليفة موقف جعفر هذا مؤيداً ومتعاطفاً مع الحركة الموالية للأمويين حماة السنة في الأندلس وإفريقية[2] .

وتصدر المعز لدين الله الفاطمي حملة التشهير والقدح في الأمويين ، فكان يصفهم " باللعناء" و " الأرجاس" و " الفسقة" و " طرداء رسول الله " و " المتغلبين" ويبالغ في الطعن في أنسابهم وفي تحقيرهم إلى درجة أنه أجاب أحد السائلين عن نسبهم بقوله: " إلى أي ينسبون إلى الكلاب أو إلى القردة أو إلى الخنازير؟ والله إنها لخير ممن انتسبوا إليه، وإن من انتسبوا إليه أسوأ حالا منها فدعوهم ، وما ادعوه فكفاهم عارا وخزيا بانتسابهم إليه"[3] .

وخص المعز في حملة التشهير التي قادها ضد بني أمية الخليفة ، عبد الرحمن الناصر، حيث وصفه بالمتغلب ، وكان يلعنه كلما ذكر اسمه في مجالسه ، ويرميه بالفجور والانحراف الجنسي[4].

ثم أشار المعز لدين الله ، إلى أن التشهير بالفاطميين من على منابر الأندلس ، ما هو إلا صدى للتنافس القديم بين عبد شمس وبني عبد مناف، وإن اسلوب التشهير الذي استخدمه عبد الرحمن الناصر، لن ينفي النسب العلوي عن الفاطميين ، ويذكر ذلك بقوله: " ثم يبلغنا أنه يلعننا على منابره كلعن سلفه الفسقة لأمير المؤمنين علي عليه السلام ، وينكر علينا لعنه فنحن وهو أصدق القائلين : {**ألا لعنة الله على الظالمين**}[5] ، ومن أسلافه لعناء رسول الله صلى الله عليه

---

[1] الجوذري، سيرة جوذر، ص 123.

[2] الجوذري، المصدر نفسه، ص 123-124.

[3] النعمان، المجالس والمسايرات، ص 22-23.

[4] النعمان، المصدر نفسه، ص 179-180؛ أنظر، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 43.

[5] سورة هود، آية (18).

وسلم وآله لأنه يتولاهم والله عز وجل يقول: {**ومن يتولهم منكم فإنه منهم**} [1] ، وهو إن لعننا أو شتمنا فبالاقتداء بسلفه الذين كانوا يشتمون رسول الله صلى الله عليه وآله ويلعنون وصيه (صلعم)، وما زادهم إلا شقاء ويزيدهم إلا ضعة عند الله وعند عباده ومقتا" [2] .

وخلال الفترة التي كان فيها المعز لدين الله، يقود حملة التشهير ضد بني أمية ، ظهرت حركة إسماعيلية في قرطبة ذات طابع تشهيري أيضا، تدعو إلى الثورة ضد الحكم المستنصر الأموي، وإعلان الولاء للمعز لدين الله الفاطمي، وقد تزعم هذه الحركة أحد دعاة الشيعة الإسماعيلية من القاطنين بقرطبة ، يعرف بأبي الخير عند الإسماعيلية ، وبأبي الشر عند أعدائهم[3].

وتعد هذه الحركة من أخطر الحركات التي واجهتها الخلافة الأموية في الأندلس، عقب وفاة عبد الرحمن الناصر، و قبيل انتقال المعز لدين الله إلى مصر[4] .

ومما يذكر عن أبي الخير، أنه كان يسب أصحاب النبي (ص) أبا بكر وعمر وغيرهما ، وأنه كان يقول إن علي بن أبي طالب أحق بالنبوة من محمد النبي (ص) [5] . وكان أبو الخير صريحا وجريئا في دعوته المغالية إلى حد تحريضه للثورة على الحكم المستنصر وإسقاط نظام حكمه بالقوة وفي ذلك يقول : " ما كان أملي من الدنيا إلا خمسة آلاف فارس أدخل بهم الزهراء وأقتل من بها وأقوم بدعوة أبي تميم وكذلك يكون" [6] .

كما كان ينادي بأن قتال بني أمية والفقهاء المالكية أفضل من قتال المشركين ويعترف بأن "جراية الشيعي عليه وعلى أصحابه جارية" وبأنه لو استطاع حرب بني أمية وقتل أنصارهم

---

[1] سورة ، المائدة ، آية (51).

[2] النعمان، المجالس والمسايرات، ص 176-177.

[3] ابن سهيل، الإعلام بنوازل الأحكام، ص 69.

[4] أنظر، لقبال، حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين، ص 45.

[5] ابن سهيل ، الإعلام بنوازل الأحكام، ص 61.

[6] ابن سهيل ، المصدر نفسه، ص 61.

وسبي نسائهم وذراريهم لما تأخر لحظة واحدة " ولو كانت تسعة أسياف لكان سيفي العاشر، ثم أضع سيفي في باب القنطرة فلا يبقى أحد" [1] .

ويتبين مما سبق، أن الصراع الفاطمي – الأموي ، قد أخذ مظاهر وأساليب عدة ، وهي ما يمكن تسميتها حسب مصطلح العصر الحديث "بالحرب الباردة" ، ولم تكن هذه المظاهر مقدمات للحملات العسكرية فقط، وإنما رافقت في أغلب الأحيان تلك الحملات العسكرية ، وخاصة مظهر الجاسوسية ، الذي يعطي الصورة الأولية لاحتمالية نجاح المعركة أو فشلها ، حيث يتم بواسطته معرفة عدد جيش العدو ونوعية الأسلحة التي يستخدمها ، ومواطن الضعف والقوة عنده، ومن ذلك ما أوصى به الحكم المستنصر ، قادة حملاته بقوله: " فليكن منكم دسيس إعلام وتقديم تعريف إلى خاصتهم وعامتهم" [2] .

ولذلك ، فقد جاءت الأحداث العسكرية اللاحقة ، التي مثلتها القوى السياسية بحكم تواجدها على أرض المغرب والأندلس، لتكون أداة فعلية ، أجيب من خلالها عن أسباب ذلك الصراع في صورة عمليات عسكرية غير مباشرة بين الأمويين والفاطميين.

---

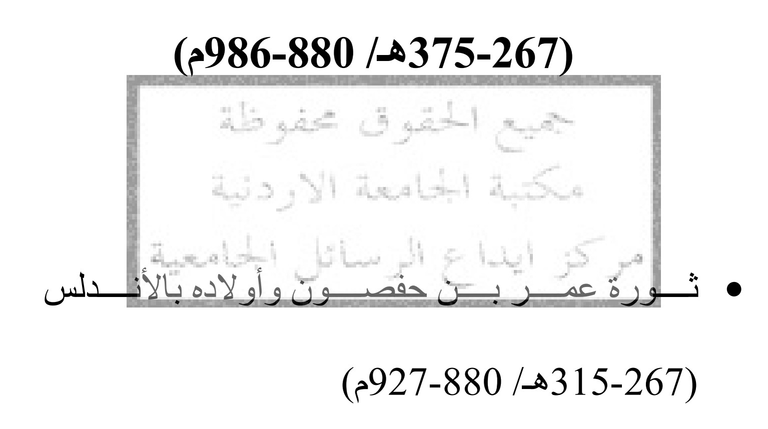
[1] ابن سهيل، المصدر نفسه، ص 65-66؛ ويذكر أن دعوة ابا الخير هذا انتهت بقتله، حينما افتى مجموعة من أهل السنة بذلك منهم منذر بن سعيد قاضي الجماعة ، وأحمد بن مطرف صاحب الصلاة ، وإسحق بن إبراهيم (ابن سهيل ، المصدر نفسه، ص 70).

[2] ابن حيان، المقتبس ، شالميتا، ص 402؛ انظر، محمود إسماعيل ، الأدارسة ، ص 162. وهناك مظاهر أخرى للصراع الفاطمي الأموي، مثل: تشجيع الثوار من كلا الطرفين، والقرصنة ، ولكن هذه المظاهر جاءت معالجتها في هذه الدراسة تحت فروع مختلفة.

الفصل الثاني

خلفية العلاقات السياسية الفاطمية والأموية في أحداث المغرب والأندلس

(267-375هـ/ 880-986م)



- ثـــورة عمـــر بـــن حفصـــون وأولاده بالأنـــدلس (267-315هـ/ 880-927م)
- ثورة موسى بن أبي العافية وأولاده بالمغرب الأقصى (317-328هـ/ 929-939م)
- علاقــة الأدارســة بــالأمويين والفــاطميين بــالمغرب الأقصى (297-375هـ/ 910-986م)

إن ما يميز الصراع الفاطمي – الأموي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، هو أن كلا الطرفين اعتمد على الأساليب والوسائل غير المباشرة التي يمكن بوساطتها ممارسة سياستهما الفعلية تجاه بعضهما بعضا، شريطة عدم التقاء قواتهما وجها لوجه، ولذا ، فقد استغلت الدولتان القوى السياسية المضادة لكل منهما والتي تعيش على ارض المغرب والأندلس، وأقامت معها علاقات ودية لكسبها إلى جانبها ، حتى تتمكن بالتالي من استعدائها ضد الطرف الآخر [1] ، تكريسا لسياستها المرسومة آنذاك . وتأصلت هذه السياسة عن طريق الدور الكبير الذي قامت به القبائل البربرية الثلاث، كتامة ، وزناتة ، وصنهاجة ، في تاريخ ذلك الصراع الذي امتدت أحداثه إلى فترة طويلة[2] .

وأهم القوى السياسية التي كان لها دور في أطراف هذا الصراع هي: ثورة عمر بن حفصون، وثورة موسى بن أبي العافية، والأدارسة بالمغرب الأقصى.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القوى السياسية لم تكن مخلصة بولائها إلى أحد الأطراف بعينه، فقد جاءت ولأاتها متذبذبة ، حسبما تقتضيه مصالحها السياسية بالدرجة الأولى، ولكن رغم ذلك ، فقد كونت هذه القوى خلفية للعلاقات السياسية الفاطمية والأموية ، يمكن تسليط الضوء عليها، وبخاصة إذا عرفنا أن أغلب هذه القوى كانت موجودة في المغرب والأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية نفسها. وكانت تشغل هذه مواطن خاصة بها ، وأرادت المحافظة على مواطنها، وكياناتها السياسية بغض النظر عن اتجاه الدولة المذهبي التي تتحالف معها، شريطة أن تحقق هذه القوى مصالحها ، وتضمن استمرارها.

---

[1] أنظر ، سوادي، دراسات ، ص 220.

[2] سيأتي الحديث عن دور قبائل البربر في الصراع الفاطمي والأموي لاحقا .

* ثورة عمر بن حفصون وأولاده بالأندلس(267-315هـ/ 880-927م)

كانت ثورة عمر بن حفصون بن جعفر [1] سنة 267هـ/ 880م [2] ، في أواخر أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي، من أخطر وأكبر الثورات في الأندلس ، وأشدها مراسا [3] ، ويصور ابن عذاري قوة موقف ابن حفصون بقوله " الذي أعيى الخلفاء أمره، وطالت في الدنيا فتنته وعظم شره... ثم بلغ بعد ذلك في الشقاق والفتن مبلغا لم يبلغه ثائر بالأندلس" [4] ، وهو من أصل قوطي [5] ، وكان أبوه من مسالمة أهل الذمة [6] ، وقد اتخذ هذا الثائر من جبل ببشتر الواقع شمال شرقي رندة [7] ، التابعة إلى أعمال رية [8] ، مقرا لثورته ، ويبدو أن سبب اختياره لهذا الجبل قاعدة وحضرة له، لأنه يعدّ أمنع قلاع الأندلس قاطبة[9] .

واستغل ابن حفصون اضطراب الأمور في الأندلس سنة 265هـ/ 878م ، على أثر الفتنة التي قامت في كورة رية والجزيرة ، والتي أحدثتها سياسة يحيى بن عبد الله بن يحيى عامل الأمير محمد على كورة رية، حينما طالب أهلها ببقايا عشور تأخرت عليهم، وقسوته في تحصيلها ، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم [10] ، ومع الجهود التي بذلت لمقاومة

---

(1) ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 106؛ ابن دميان (ابن خلدون ، العبر، ج2، ص 292) أو ذبيان (ابن عذاري، البيان ، ج2، ص106)، بن فرغلوش بن أذفونش (ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 106).

(2) ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 104.

(3) أنظر، عنان ، دولة الإسلام، ج1، ص 308.

(4) البيان ، ج2، ص 104، 106.

(5) ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 292؛ انظر، عنان ، دولة الإسلام،، ج1، ص 308.

(6) ابن القوطية ، افتتاح، ص 103.

(7) أنظر، عنان ، دولة الإسلام، ج1، ص 308.

(8) ابن القوطية ، افتتاح، ص 103.

(9) ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 106.

(10) انظر، عنان ، دولة الإسلام، ج1، ص 308.

الثوار من قبل يحيى بن عبد الله وأخيه أحمد بن عبد الله ، عامل الجزيرة ، الذي قدم إلى رية لمساندة أخيه، فإن ذلك لم يجد نفعا أمام غضب أهل كورة رية[1] .

وفي العام التالي، قدم إلى كورة رية، عبد الله ابن الأمير محمد ، على رأس جيش جعل على قيادته الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، الذي اشتد في مطاردة الثوار ، ومزق جموعهم ، وأنشأ عدة من الحصون ، ومع ذلك، لم تقمع الفتنة واستمرت حركة العصيان قائمة وعمت الفوضى كورة رية بأسرها[2] .

وفي ظل سوء الأوضاع التي سادت كورة رية قبيل عام 267هـ/ 808م، وافق في هذه الفترة، هروب عمر بن حفصون إلى تاهرت – في نفس العام المذكور- خوفا من بطش عامل رية به[3] والذي قبض عليه بسبب ارتكابه أعمال فساد [4] ، وكان ابن حفصون قد انضم إلى قطاع الطرق وأصبح أحد أفراد العصابات التي تعتدي على أرواح الناس وأموالهم [5] ، ويبدو أن هذه الأفعال هي التي دفعت عامل رية إلى ضربه وتعذيبه [6] ، ثم أطلق سراحه بعد ذلك[7] ، وقد اختلف المؤرخون المحدثون في سبب إطلاق سراحه وهروبه إلى تاهرت[8] ، وأيا كانت الأسباب، فإن ابن حفصون أقام في تاهرت نحو أربعين يوما ، ثم عاد إلى الأندلس بعد أن انكشف أمره على يد أحد أتباع بني أمية هناك، وتوجه إلى جبل ببشتر وأعلن ثورته[9] ، وحسب ابن

---

[1] أنظر، عنان ، المرجع نفسه، ج1، ص 308.

[2] أنظر، عنان، المرجع نفسه، ج1، ص 308.

[3] ابن القوطية، افتتاح، ص 103؛ وكان عامل رية أحد بني خالد يسمى دونكيير (ابن القوطية ، المصدر نفسه، ص 103).

[4] ابن القوطية ، افتتاح، ص 103.

[5] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج1، ص 308.

[6] ابن القوطية ، افتتاح، ص 103.

[7] انظر، بدر، دراسات، ص 241

[8] انظر، بدر، دراسات، ص 241.

[9] ابن القوطية ، افتتاح، ص 103.

القوطيـة أن حادثـة هـروب ابـن حفصـون هـذه وتعذيبـه كانـت هـي السـبب المباشـر لإعـلان الثورة[1] .

واسـتفحل خطـر ابـن حفصـون فـي جنـوب الأنـدلس، بعد وفـاة الأميـر محمـد سـنة 273هـ/ 886م[2]، مع خروج الأمير المنذر بن محمد إليه وقتاله بنفسـه، والتقـى معـه بالحامـة الواقعـة شـمال شرقي مالقة[3] ، فكان لهذه المعركة أكبر الأثر في نفس ابن حفصون حيث جرح بها وشلت يده[4]، فلم يأكل بها حتى مات[5] . ولكن جهود الأمير المنذر التي بذلها في وقف زحف تقدم ابن حفصـون، لم تثن الأخير من أن يقتطع أقـاليم كثيرة من الإمـارة الأمويـة، وأن يؤسس فيهـا حكمـا مسـتقلا عن حكومة قرطبة جعل عاصمته حصن " ببشتر" [6] . ولم يقف الأمر عند هذا الحد، إذ أصبح يطمح إلى الاستيلاء على الأندلس كلها[7].

تطور الموقف في صالح ابن حفصون في عهد الأمير عبد الله بن محمد (275-300هـ/888-912م)، الذي كثرت في أيامه الفتن والثورات التي تفرعت وتداخلت وأصبح يصعب علـى الـدارس مسك شعابها ، سواء من حيث المكان أو الزمـان أو الموضـوع ، فمرة تكون فرديـة وأخـرى تكون جماعية ، واشترك فيها العرب ضد المولدين أو المولدين ضد العرب أو البربـر ضـد الـولاة، وتـارة يتحـالف بعـض الثـائرين ، وتـارة أخـرى تنحـل عـرى التحـالف، وتطاولـت علـى الأميـر أيـدي

---

[1] افتتاح، ص 103.

[2] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 106.

[3] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 106؛ انظر، عنان، دولة الإسلام، ج1، ص 309.

[4] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 106.

[5] مجهول، مفاخر البربر، ص 246؛ ويذكر أن الذي ضربه على يده رجل بربري يدعى يحيى بن ضريس (مجهول، المصدر نفسه ، ص 246).

[6] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 31.

[7] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج1، ص 318.

المعارضين في مختلف الكور الأندلسية ، حتى تجزأت إمارته إلى أقاليم مستقلة ، ولم يبق تحت سلطانه إلا منطقة قرطبة وضواحيها[1] .

وهكذا ، استقبل الأمير عبد الرحمن الناصر حكمه على بلاد الأندلس بعد وفاة جده الأمير محمد سنة 300هـ/ 912م [2] ، ضمن أوضاع كانت في غاية الصعوبة ولذلك كان عليه أن يتخذ سياسة ملائمة لكي يستطيع تجاوز هذه المرحلة فاستخدم سياسة تتسم باللين تارة وبالشدة تارة أخرى، ولذا ، فقد استهل حكمه بإنفاذ الكتب إلى مختلف كور الأندلس يدعو فيها العمال والثوار إلى التزام الطاع والولاء ووعدهم بذل الأموال والجاه والسلطان ، في حين استجابتهم له، كما هدد في نفس الوقت كل من لم يستجب لمطالبه بالحرب وبالتشديد ومصادرة الأموال[3] .

ويبدو أن عبد الرحمن الناصر ، قد ضمن تأييد قسم من الثوار والخارجين على الدولة، نتيجة السياسة التي أعلنها، وبالمقابل بادر للخروج بنفسه إلى قتال ابن حفصون سنة 300هـ/912م، واستطاع أن يستولي على الحصون التابعة إلى كورة جيّان والحصون التابعة إلى كورة رية، والتي كانت تدين بالولاء لابن حفصون [4] ، ولم يلبث أن استولى على ما مجموعه زهاء سبعين حصنا كانت تحت سيطرة الثوار [5] ، الأمر الذي اضطر ابن حفصون – فيما يبدو- إلى طلب الصلح من عبدالرحمن الناصر سنة 303هـ/915م، وقام بالوساطة بين الطرفين يحيى بن إسحق طبيب عبد الرحمن ، وصديق ابن حفصون[6] .

---

[1] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 116.

[2] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 346.

[3] أنظر، العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 180؛ الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 117.

[4] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 60-61.

[5] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 376.

[6] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 113؛ وانظر، ص 114-133.

والحدث الأهم في تاريخ ثورة ابن حفصون والذي يعد بداية النهاية لها، هو وفاة صاحبها سنة 305هـ/ 917م، فكانت وفاته بالنسبة لعبد الرحمن الناصر "فاتحة الإقبال وطالعة السعد واجتثاث الفتنة" [1] .

وتولى جعفر بن عمر بن حفصون الأمر بعد وفاة أبيه، إلا أن حكمه لم يستمر طويلا، حيث قتل بعد ثلاث سنوات من إمارته [2] ، ثم خلفه أخوه سليمان الذي نهج نفس سياسة والده في إشاعة الشر والفساد ، ولكن الظروف لم تخدمه كما حدث أيام والده، فقتل سنة 314هـ/ 926م [3] ، فولي مكانه أخوه حفص سنة واحدة فاستسلم لعبد الرحمن الناصر سنة 315هـ/ 927م [4] ، وانتهت بذلك ثورة عمر بن حفصون وأولاده[5] .

وأما ما يهم هذه الدراسة من ثورة عمر بن حفصون هو الأثر السياسي الذي أحدثته الثورة في العلاقة بين الأمويين والفاطميين ، فمما لا شك فيه، أن ابن حفصون حاول الاتصال بالدول المجاورة للأندلس ، في العدوة المغربية قبل قيام الدولة الفاطمية ، لكي يقيم معها علاقات سياسية ، فيصبح بذلك بيده سلاح شرعي عندما تعترف به، دولة ذات استقلال سياسي، وفي الوقت نفسه، تكون على علاقات عدائية مع الأمويين الذين ثار ضدهم ، حيث يضمن من جهة وصول المساعدات والإمدادات من العدوة ، كما أن فعالية استقطاب العناصر للثورة يكون أكثر من جهة أخرى.

---

(1) ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 138-139.

(2) ابن القوطية، افتتاح، ص 125؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 180.

(3) ابن حيان، المقتبس ، شالميتا، ص 204؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 192.

(4) ابن القوطية ، افتتاح، ص 125؛ 140؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 192.

(5) لمزيد من التفاصيل عن هذه الثورة ، راجع، سعد الرويضان ، ثورة عمر بن حفصون وأولاده في جنوب الدولة الأموية في الأندلس، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، 1998م.

وانطلاقا من هذه الاعتبارات ، بادر ابن حفصون سنة 278هـ/ 891م إلى مكاتبة ابن الأغلب أمير إفريقية – والقائم بها على دعوة العباسيين- وأظهر له الدعوة لبني العباس في الأندلس[1] ، ولا غرو أن هذا العرض من طرف ابن حفصون كان نكاية بأعدائه بني أمية، ويؤكد هذا الرأي النص الذي أورده ابن حيان بقوله " وأظهر الميل- أي ابن حفصون- إلى دعوة المسودة من بني العباس والقيام بها إرهانا لبني مروان [2] "، ولإثبات حسن النية ، تجاه الأغالبة ، والرغبة الصادقة لديه في قبول أميرهم لعرضه، أرسل ابن حفصون الهدايا الثمينة إلى ابن الأغلب ، ولكن الأخير لم يستجب إلى طلبه [3] ، ويعود سبب ذلك على ما يبدو إلى اضطراب الأمور في إفريقية في تلك الفترة[4] .

في حين يرى أحد الباحثين المحدثين [5] ، أن ابن الأغلب قد استجاب إلى دعوة ابن حفصون، ويبدو أن المؤرخ قد اعتمد على رواية ابن حيان وحدها والتي جاءت مضطربة وغير مفهومة ، رغم أن ابن خلدون يشير إلى ذلك بوضوح بقوله " وتثاقل ابن الأغلب على إجابته- أي ابن حفصون- لاضطراب إفريقية"[6] .

ومن حسن الطالع بالنسبة لابن حفصون، أن ظهرت الدولة الفاطمية بالمغرب سنة 297هـ/ 910م، بعد أن قضت على الكيانات السياسية في الشمال الإفريقي ، وفي مقدمتهم دولة الأغالبة ، وكان عليها مقارعة أشد أعدائها في هذه الحقبة التاريخية، العباسيين من الشرق والأمويين من الغرب. وقد كانت منذ البداية تأمل في القضاء على هاتين القوتين، لتحقيق هدفها الأسمى في حكم العالم الإسلامي.

---

[1] ابن حيان، المقتبس، ملشورم، ص 93.

[2] المقتبس، ملشورم، ص 93.

[3] ابن حيان، المقتبس، ملشورم، ص 93.

[4] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 140.

[5] انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 115.

[6] العبر، ج4، ص 140.

ولذلك، فقد استغل ابن حفصون هذه السياسة الجديدة التي جاء بها الفاطميون وبما كان يحركها في الأصل من عداء قديم بين الأمويين والفاطميين وسارع إلى إعلان ولائه وانضوائه تحت رايتهم من خلال مخاطبته لهم بذلك، فبادر عبيد الله المهدي من طرفه في إرسال داعيتين إليه من أمهر دعاته المخلصين ، فحضّا عمر بن حفصون على التمسك بولاء الشيعة الفاطميين ، وإقامة الدعوة لهم في الأندلس [1] ، وقد أقام هذان الداعيتان عند ابن حفصون، وحضرا معظم حروبه ضد بني أمية، ثم أعادهما إلى الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي، ومعهما هدية قيمة[2] .

ويمكن تفسير إقامة هذين الداعيتين عند ابن حفصون ومن ثم صرفهما إلى الخليفة عبيد الله المهدي، بما لديهما من الهدايا في ضوء تطور الأحداث التاريخية التي غيرت طبيعة العلاقة بين عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس، وعمر بن حفصون ، فبينما كان ابن حفصون يسيطر على حصون وكور كثيرة، من بلاد الأندلس، في عهد أمراء بني أمية الذين استلموا الحكم قبل عبد الرحمن الناصر، حتى إن الأمير محمد بن عبد الله ، آخر هؤلاء الأمراء، لم يتبق له سوى قرطبة وضواحيها لكثرة الثورات التي حدثت في عهده، ولشدة ثورة ابن حفصون [3] ، وأصبح الأمر مغايرا لذلك حينما استطاع الأمير عبد الرحمن الناصر أن يسترد معظم الحصون والكور الأندلسية بسرعة ويضيق الخناق على ابن حفصون الأمر الذي اضطره إلى أن يطلب الصلح من عبدالرحمن الناصر سنة 303هـ/ 915م ، وأن يوسط لإتمام هذا الصلح طبيب الناصر الخاص وهو يحيى بن إسحق الذي تربطه به علاقة صداقة[4] .

ويتبين من هذه الخلاصة أن ابن حفصون عندما كانت ثورته في قمة نجاحها وعنفوانها، اقتضت منه المصلحة أن يتصل بالفاطميين أعداء بني أمية، وأن يقبل منهم إقامة الداعيتين عنده،

---

(1) ابن الخطيب ، أعمال الإعلام، القسم الثالث، ص 37.

(2) ابن الخطيب، المصدر نفسه، ص 37؛ ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 293؛ انظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 115؛ مكي ، التشيع في الأندلس، ص 101؛ سعد الرويضان ، ثورة عمر بن حفصون، ص 206-207.

(3) أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 116.

(4) ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 113، وانظر، ص 101.

وذلك لكسب شرعية الاعتراف بثورته من قبل دولة لها كيانها السياسي الخاص، ولضمان وصول المساعدات والإمدادات له من قبل العدوة المغربية التي أصبحت تحت السيادة الفاطمية [1] ، ويبدو أنه حتى يثبت حسن نيته للفاطميين أبقى الداعيتين ، على اعتبار أنه يدين لدولتهم بالولاء السياسي، ولذلك أصبح يخطب على منابره إلى المهدي [2] ، وهذا ما يسوغ حضور الداعيتين لمعظم حروبه التي خاضها ضد الإمارة الأموية [3] ، لأن نجاح الثورة أصبح جزءا من النجاح السياسي للدولة الفاطمية – تمشيا مع سياستها غير المباشرة في ضرب الأمويين- ثم محاولة هؤلاء الداعيتين من نشر المذهب الشيعي بالأندلس من خلال هذه الثورة[4] .

وبالمقابل ، فإن ابن حفصون عندما أصبحت مصلحته تقتضي مهادنة الأمويين، نظرا لتردي أوضاع الثورة ، فإنه من الطبيعي أن يقدم من طرفه تنازلاً ، حتى يثبت للأمير عبد الرحمن الناصر صدق نواياه في الصلح ولا يمكن أن يتم ذلك ، ما دام يوجد عنده أتباع المذهب الشيعي، أعداء الناصر والمخالفين له بالمذهب، فعندئذ ، كان عليه أن يخرج من هذا الموقف بطريقة ترضي الطرفين، ولذا صرف الداعيتين محملين بالهدايا القيمة إلى عبيد الله المهدي، تحسبا منه لما ستسفر عنه تطور أحداث الثورة فيما بعد ، وربما هذا الذي دعا محمود مكي إلى القول بأن ابن حفصون "لم يكن مخلصا للدعوة العلوية ، وإنما كان يتخذها مطية لأغراضه ، يكايد بها الأمويين في قرطبة متى شاء"[5] .

وتتجلى صورة التعاون السياسي بين الفاطميين وابن حفصون في الوقت الذي كان فيه، الأخير يسيطر على الأجزاء الجنوبية من الأندلس، وخاصة أن الرستميين أصحاب تاهرت والذين

---

[1] أنظر، سعد الرويضان ، ثورة عمر بن حفصون، ص 206.

[2] ابن الخطيب، أعمال الإعلام ، القسم الثالث، ص 37؛ ويورد ابن حيان في حديثه عن دخول عبد الرحمن الناصر إلى ببشتر سنة 316هـ، من أن الناصر قد أحرق أحد المنابر التي كان يخطب بها إلى عبيد الله المهدي من قبل عمر بن حفصون (المقتبس، شالميتا، ص 219).

[3] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 37؛ انظر، سعد الرويضان ، ثورة عمر بن حفصون، ص 206.

[4] أنظر، سعد الرويضان ، ثورة عمر بن حفصون ، ص 207.

[5] أنظر، التشيع في الأندلس، ص 101.

كانوا يدينون بالولاء إلى أمويي الأندلس، قد قضي عليهم من قبل الفاطميين سنة 296هـ/ 909م[1] . فقد أصبح لابن حفصون قوارب وسفن يتجول فيها في شواطئ الجزيرة الخضراء، ويستعملها في أغراضه التجارية مع بلاد المغرب وإفريقية في الجنوب والدول المسيحية في الشمال. ينقل بها الميرة ومختلف الإعانات والمساعدات الاقتصادية والعسكرية التي كانت تقدم لـه من قبل أعداء الأمويين وعلى رأسهم الفاطميون[2] ، ويشير ابن حيان إلى ذلك بقولـه " وكان في ساحلها (أي ساحل الجزيرة الخضراء) للمارد ابن حفصون وأصحابه عدة من المراكب البحرية يسفر بها إلى أرض العدوة في المير والتجارات ويقضون بها الحاجات فيتسعون بها أعظم التوسعة"[3] .

ولعل شعور عبد الرحمن الناصر، بمدى الخطر البحري، الذي يهدده من الجنوب والذي ظهرت نتائجه جلية بالتعاون القائم بين الفاطميين وابن حفصون ، وما كان يقوم به الفاطميون من توسعات على حساب الأراضي المغربية [4] ، هو الذي جعل عبد الرحمن الناصر ، منذ بداية حكمه يسرع بإعداد أسطول بحري قوي ، بذل في تجهيزه جهودا جبارة حتى قيل أن عمال الصناعة لم يجدوا وقتا للراحة [5] ، وذلك لجعله قادرا على حماية شواطئ الأندلس وخاصة الشواطئ الجنوبية المواجهة للشواطئ المغربية ، والتي شعر أنها أصبحت مهددة بالغزو الفاطمي، وزاد في توسيع دور الصناعة في مختلف الموانئ الأندلسية الجنوبية منها، والجنوبية الشرقية [6] فاستطاع بذلك ، شحن موانيه بالسفن والعتاد الحربي والجنود[7] .

ولم يكتف عبد الرحمن الناصر ، بما قام به من إجراءات على السواحل الجنوبية للحد من نفوذ الثورة في تلك الأجزاء ، ولقطع حبل الإمدادات بين ابن حفصون والفاطميين ، بل بادر

---

[1] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 116.

[2] أنظر، الفيلالي، المرجع نفسه، ص 116.

[3] المقتبس، شالميتا، ص 87.

[4] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 117.

[5] العبادي، دراسات ، ص 71.

[6] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 117.

[7] أنظر، العبادي، دراسات، ص 71.

بالخروج بنفسه في حملة له إلى مدينة الجزيرة الخضراء، يوم الخميس لأربع ليال خلت من ذي القعدة سنة 301هـ/ شباط 931م ، وأقام بها بضعة أيام، لترتيب أمورها، وشد بحرها [1] ، وفرض حراسة مشددة على مضيق جبل طارق ، الممر الرئيسي الذي تأتي منه المساعدات للثوار [2] ، باعتباره اقرب مجاز من العدوة المغربية إلى مدن الأندلس، ولذلك أنشأ الناصر دارا لصناعة السفن في الجزيرة الخضراء، وأتقن بناءها وحصن سورها [3] ، فلا شك أن هذا العمل ، كان لما يتمتع به الموقع من أهمية اقتصادية خاصة إضافة إلى أنه يمثل باب مصدر خطر أول بالنسبة إلى الأندلس من الجهة الجنوبية ، ولذلك فقد جعل الأمويون اختصاص هذا الثغر -أي الجزيرة الخضراء- منذ قيام إمارتهم بالأندلس من قبل أحد أمراء البيت الأموي[4] .

كان أو ل عمل قام به عبد الرحمن الناصر في حملته هذه، مطاردة السفن التابعة لابن حفصون واحتجازها ومن ثم إحراقها، وكان يهدف من وراء ذلك، تجريد الثوار من وسائل النقل التي تقلهم إلى ارض العدوة ، حتى يسهل عليه القيام بالخطوة التالية تجاههم.

ويذكر ابن حيان ذلك بقوله " فأخرج الناصر لدين الله الحشم لطلبها (أي سفن ابن حفصون) وأخذها، وقد كان الفسقة (أي الثوار) نجوا بها في البحر فأدخل الجند خلفهم من مضى أثرها وقبض عليها، فقيدت بأزمتها إلى ضفة البحر، وأحرق جميعها بين يديه، فعظم على الفسقة ما حلّ بهم فيها وعدموه من منفعتها"[5] .

وبعد أن اطمأن الناصر لدين الله الأموي، من تحطيم السفن التابعة لابن حفصون، نظر إلى الخطوة التالية ، والمتمثلة بتأمين السواحل الأندلسية خوفا من قدوم الإمدادات بوساطة السفن التابعة للفاطميين، ولذلك استدعى سفنه المنتشرة على طول الشواطئ الأندلسية فجاءته المراكب من مالقة

---

[1] ابن حيان ، المقتبس، ، شالميتا، ص 87.

[2] أنظر، العبادي ، دراسات ، ص 71.

[3] الحميري، الروض المعطار، ص 223.

[4] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 118.

[5] المقتبس ، شالميتا، ص 87.

وإشبيلية ومن بعض المدن الأخرى الخاضعة لطاعته، وجعل المهمة الأولى لها مراقبة باب الجزيرة الخضراء، ثم حماية السواحل من حد الجزيرة الخضراء إلى تدمير، لضمان قطع مرافق البحر على ابن حفصون وأصحابه ، فكان لهذه الأعمال أثر إيجابي بالنسبة للناصر ، في تحجيم الثورة وقطع الاتصال بينها وبين الفاطميين.

ويمكن أن نجمل الأعمال الوقائية التي قام بها الناصر لدين الله بالنص التاريخي التالي "ونظر (أي الناصر) عند مقامه بالجزيرة في أحكام أمر البحر وشد ضبطه على أهل العدوتين الحالتين عليه، فاستدعى جملة من المراكب البحرية من مالقة وإشبيلية وغيرهما من مدن الطاعة بركابها من أولي الاستقامة ، فأقامها بباب الجزيرة وشحنها بصنوف الأسلحة والعدد ، وأعد فيها النفط وآلات حرب البحر، وأدخل فيها ركابها من عرفاء البحريين ، والنواتية والفره سواس البحر الأجرياء عليه، وأمرهم بالتجول في السواحل كلها من حد الجزيرة الخضراء إلى حد تدمير وقطع مرافق البحر كلها عن ابن حفصون وأصحابه، وألا تجري في البحر جارية إلا أهل الطاعة فقط. فملك البحر منذ هذا الوقت وأحكم شأنه وامن ضرر السفن المختلفة فيه وغلب بذلك على الساحل كله وحصونه، ومنع الأخابث آل حفصون ، وأتباعهم رفد ذلك كله"[1] .

وهكذا ، فقد اتضحت سياسة الفاطميين غير المباشرة في ضرب أعدائهم الأمويين، حينما استغلوا ثورة عمر بن حفصون لصالحهم ، فلم يحاولوا مساعدة صاحب الثورة عندما ضيق الناصر لدين الله الخناق عليه، واحتل العديد من الحصون والكور التي كانت تحت نفوذه وأجبره على طلب الصلح، بعد أن أحرق سفنه التي كانت تميره من العدوة[2] .

ويعزو أحد الباحثين الأسباب المباشرة التي منعت عبيد الله المهدي من تقديم المساعدة للثورة، كإرسال جيش يقف إلى جانب الثوار هو انشغال المهدي حينئذ في توطيد حكمه، نظرا لكثرة

---

(1) ابن حيان ، المقتبس، شالميتا، ص 87-88.

(2) أنظر، العبادي، دراسات ، ص 71.

الثورات التي قامت ضده في القيروان وتاهرت وطرابلس وصقلية، إضافة إلى انشغاله في تجهيز الحملات العسكرية لإرسالها إلى مصر[1] .

لكن فيما يبدو، غاب عن بال هذا الباحث، أن السمة العامة للصراع الفاطمي الأموي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، هو انتهاج أسلوب السياسة غير المباشرة واستخدامها في ذلك الصراع، ويظهر ذلك من كلام الباحث نفسه، فإذا أخذنا بالسبب الأول الذي منع المهدي من تقديم المساعدة للثورة ، نتيجة لكثرة الثورات في عهده ، فإن السبب الآخر يبين أن المهدي لم يكن ينوي الاصطدام المباشر مع الأمويين ، إذ كان من الأولى أن تجهز تلك الحملات العسكرية الموجهة إلى مصر للقضاء على الإخشيديين القائمين على دعوة أعدائه العباسيين في المشرق ، وترسل إلى الأندلس لمناصرة ابن حفصون وأتباعه ضد الأمويين.

[1] أنظر، سعد الرويضان ، ثورة عمر بن حفصون ، ص 207.

* ثورة موسى بن أبي العافية وأولاده بالمغرب الأقصى (317-328هـ/929-939م)

كان موسى بن أبي العافية [1] ، زعيم قبيلة مكناسة البربرية [2] ، في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، يمتد نفوذه على المنطقة الضاربة من بداية وادي ملوية في شمال سجلماسة إلى مصبه في البحر شرق مدينة مليلة ، بالإضافة إلى نواحي تازا ، وتاسول ، وجر سيف ومليلة وما حولها من الجبال والتلال [3] ، وكانت هذه المناطق مواطن لقبيلته منذ بداية الفتح الإسلامي للمغرب [4] ، وحسبما يورد ابن خلدون أنه كان يشترك مع موسى بن أبي العافية في رئاسة قبيلة مكناسة ابن عمه مصالة بن حبوس واللذان استطاعا إخضاع قبائل البربر في المنطقة ما بين تازا وحتى الكاي [5] . كما كانا يسيطران على أجزاء من الأراضي التابعة لدولة الأدارسة والتي أصابها الوهن والضعف في تلك الفترة[6] .

ولعل الانقسام الذي حصل لقبيلة مكناسة منذ أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، حينما انقسمت إلى مجموعتين ، الأولى مكناسة الشمال بزعامة موسى بن أبي العافية ، وتسيطر على جزء كبير من مراكش الشرقية ، والثانية مكناسة الشرق بزعامة مصالة بن حبوس وتسيطر

---

[1] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 213؛ ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 83؛ بن أبي ياسيل بن أبي الضحاك بن تامريس بن إدريس بن وليف (ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 213) أو ونيف (ابن القاضي، جذوة الاقتباس ، ج1، ص 340؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 83) بن مكناس بن وسطيف (ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 213؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 340) أو ورصطيف (ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 83)؛ المكناسي (مجهول ، مفاخر البربر، ص 187).

[2] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 83؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 340.

[3] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 35؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 122.

[4] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 135.

[5] العبر، ج6، ص 136؛ أو " لكاي" (ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 371)، وترد تسمية الموضع باسم حصن لكائي (ابن خلدون، العبر، ج6، ص 137).

[6] ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص 136.

على تاهرت [1] بعد أن كانت مجموعة واحدة هو الذي قصد به ابن خلدون بقوله إن هذين الزعيمين يشتركان في رئاسة مكناسة.

ولما قامت الدولة الفاطمية بالمغرب، دخل الزعيمان المكناسيان بدعوة الفاطميين ، فوصل عبيد الله المهدي مصالة وقربه منه وجعله من أكبر قادته، وأقره واليا على مدينة تاهرت والمغرب الأوسط [2] ، والواقع أن إسناد المهدي إلى مصالة بن حبوس المكناسي، لمثل هذا المنصب كان لما يتمتع به من قوة العصبية ، فقبيلة مكناسة التي ينتمي إليها، لها وزنها وقوتها بين قبائل البربر، وبدافع العصبية القبلية تقف قبيلة مكناسة إلى جانب مصالة بن حبوس، تحميه وتؤازره ضد هجمات زناتة المعارضة للفاطميين والمنتشرة في أقسام بلاد المغرب الثلاث[3] .

توسعت أملاك موسى بن أبي العافية في المغرب الأقصى ، على أثر الحملة التي قادها مصالة بن حبوس من تاهرت سنة 305هـ/ 917م ، والتي استولى فيها على مدينتي فاس، وسجلماسة ، ثم أجبر صاحب فاس يحيى بن إدريس على الدعوة للفاطميين ، شريطة إبقائه واليا عليها ، وعقد في نفس الوقت لابن عمه موسى بن ابي العافية على سائر ضواحي وأمصار المغرب الأقصى إضافة إلى ما كان بيده من مناطق نفوذ سابقة[4] .

وفي عام 310هـ/ 922م ، ثار في مدينة فاس، الحسن بن محمد بن القاسم الإدريسي المعروف بالحجام [5] ، وقتل عامل الفاطميين عليها ريحان الكتامي، ثم التقى مع موسى بن أبي العافية، في فحص أداذ [6] ، أو الزاد [7] ، قرب وادي المطاحن (بين تازا

---

[1] أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة، ص 179-180، هامش 11.

[2] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 136.

[3] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 185.

[4] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 136.

[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 213؛ ويورد ابن عذاري بيتا من الشعر عن الحسن الحجام يوضح فيه سبب تسميته بالحجام بقوله: وسميت حجاما ولست بحاجم ولكن لضربي في مكان المحاجم (البيان ، ج1، ص 214).

[6] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 136.

[7] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 82.

وفاس) [1] ، فهزمه وقتل من أصحابه ألفي فارس، كان من بينهم ابنا لموسى يسمى منهل [2] ، ولكن موسى بن أبي العافية، تمكن من إعادة ترتيب صفوفه وقلب موازين القتال لصالحه ، وأجبر الحسن الحجام على الهروب أمامه إلى فاس [3] ، فأقام بها الحسن مدة عامين ثم غدر به أهل عدوة القرويين، ونصبوا مكانه حامد بن حمدان الهمداني المعروف باللوزي [4] ، حيث قام بدوره بالقبض على الحسن ووضعه بالسجن ثم أرسل إلى موسى بن ابي العافية ، يدعوه للقدوم إلى فاس [5] ، فاستولى الأخير على المدينة بعد أن قتل عبد الله بن ثعلبة عامل عدوة الأندلسيين غير أنه لم يتمكن من القبض على الحسن الحجام، ليأخذ بثأر ابنه حيث تركه حامد بن حمدان أن ينجو بنفسه، ويبدو أن عمل حامد هذا أغضب موسى بن أبي العافية، فاضطر هو الآخر إلى الهروب للمهدية تاركا فاس، فازداد بهذا نفوذ موسى بن أبي العافية واتسعت أملاكه [6] .

ولم يفتأ موسى بن أبي العافية ، حتى بدأ بالتوسع على حساب أراضي الأدارسة منذ سنة 317هـ/ 929م [7] ، فأجلى آل إدريس جميعهم عن مدنهم وحصرهم في قلعة حجر النسر [8] ، ولم يكتف بذلك بل أراد استئصالهم [9] وقطع دابرهم [10] ، لولا أن منعه عن ذلك زعماء قبائل المغرب، وبعض كبار قادته، بقولهم " أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب، وتقتلهم أجمعين

---

[1] ابن خلدون ، العبر، ج1، ص 136.

[2] البكري، المغرب، ص 127؛ ويسميه ابن خلدون منهال (العبر، ج6، ص 136).

[3] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 136.

[4] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 213؛ ويذكر أن سبب تسميته باللوزي نسبة إلى قرية بإفريقية (البكري، المغرب، ص127).

[5] ابن عذاري ، البيان، ج1، ص 213.

[6] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 136.

[7] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 84.

[8] البكري، المغرب، ص 127؛ ابن خلدون، العبر، ج2، ص 136؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 84؛ وحسب ابن القاضي أن هذه القلعة حصن منيع بناه محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم بن إدريس بن إدريس (جذوة الاقتباس، ج1، ص 341)؛ سنة 317هـ/ 925م (ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 19).

[9] البكري، المغرب، ص 127؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 213.

[10] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 84.

هذا شيء لا نوافقك عليه ولا نتركك له" [1] ، فاكتفى عندئذ بترك قائده أبي الفتح التسولي المكناسي يراقب تحركاتهم في الحصن بواسطة قوة تقدر بألف فارس، ثم عاد إلى مدينة فاس[2] .

واستأنف موسى بن أبي العافية ، توسعاته على بعض الأراضي التابعة للمغرب الأوسط، بعد أن رتب أوضاعه الداخلية بالمغرب الأقصى ، حيث عين طوال بن أبي يزيد واليا على عدوة الأندلسيين [3] ، واستخلف ابنه مدين على عدوة القرويين [4] ، ثم ارتحل سنة 319هـ/ 931م ، إلى مدينة تلمسان فدخلها وتغلب على أحوازها، وأجبر صاحبها الحسن بن أبي العيش الحسني ، على الهروب إلى مدينة مليلة في نواحي وادي ملوية ، فتحصن بها [5] ، وزحف موسى بن أبي العافية، بعد ذلك في شهر شعبان سنة 320هـ/ 932م إلى مدينة نكور [6] ، ودخلها بالسيف وقتل صاحبها المؤيد بن عبد البديع الإدريسي [7] ، كما سيطر على مدن مديونة وجراوة [8] وارشقول [9] ولم يعد نفوذ ابن أبي العافية يقتصر على أجزاء في المغرب الأقصى، بل أصبح يتبع له جزء مهم من المغرب الأوسط ويشمل ما بين تاهرت والسوس الأقصى[10] .

إن هدف هذه الدراسة من ثورة موسى بن أبي العافية هو خلفيتها السياسية بين الأمويين والفاطميين، فبالرغم من أن الإشارات التاريخية تحدد بوضوح تاريخ بداية قيام العلاقة الودية بين ابن أبي العافية والفاطميين ، والتي تعزوها إلى سنة 297هـ/ 912م، أي منذ تأسيس عبيد الله

---

[1] ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص 84؛ أنظر، ابن عذاري، البيان، ج1، ص 214.

[2] ابن أبي زرع ، المصدر نفسه، ص 84.

[3] ابن أبي زرع ، المصدر نفسه، ص 84؛ ابن القاضي ، جذوة الاقتباس، ص 341.

[4] البكري، المغرب، ص 128؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 214.

[5] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 194؛ ابن الخطيب، أعمال الاعلام ، القسم الثالث، ص 213-214؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 84؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص 214.

[6] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 84؛ ابن القاضي، جذوة ، الاقتباس، ص 341.

[7] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 205.

[8] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 213؛ جراوة : موضع بإفريقية بين قسطنطينية وقلعة بني حماد (ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص 117).

[9] وارشقول : جزيرة بينها وبين البر مسافة قصيرة وهي متصلة من الجنوب إلى الجوف (البكري، المغرب، ص 78).

[10] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 194.

المهدي للخلافة الفاطمية بالمغرب [1] ، إلا أن الاختلاف والاضطراب يظهر في تلك الإشارات عندما تتحدث عن تاريخ الاتصال الذي حدث بين موسى بن أبي العافية وعبد الرحمن الناصر من ناحية ، ثم فيمن بادر منهما أولاً بالاتصال بالطرف الآخر من ناحية أخرى.

هناك عدة إشارات أوردها مؤرخو المغرب والأندلس ، لتاريخ الاتصال الذي جرى بين الأمويين وموسى بن أبي العافية ، فبعضها يشير إلى أن ذلك حدث سنة 317هـ/929م [2] ، والبعض الآخر يعتبر ذلك ما بين سنة 319هـ/ 931م [3] ، و 320هـ/932م [4] ، وفي ظل تضارب آراء المؤرخين حول هذه القضية، يستحسن أن يعالج هذا الاختلاف في ضوء الأحداث والروايات التاريخية التي تتناول الظروف المتعلقة بتلك الفترة ، والتي يمكن من خلالها أن نصل إلى الرأي الأقرب للصحة.

فالظروف والروايات التاريخية في تلك الفترة ، تشير إلى أن التقارب بين عبد الرحمن وموسى بن أبي العافية ، كان سنة 317هـ/ 929م ، فعلى الصعيد السياسي العام، فإن هذا التاريخ هو الأقرب لتحول الأندلس من عهد الإمارة إلى عهد الخلافة الإسلامية[5] ، فهذا التحول السياسي أعطى مبررا قويا لابن أبي العافية ، فيما يبدو بأن يسارع بقبول العرض من قبل الأمويين للانضمام إليهم ، أو أن يسارع هو بنفسه ليصبح حليفا للخلافة الإسلامية الجديدة بعد أن كان يمتلك في هذه السنة مساحات واسعة من بلاد المغرب الأقصى ، ولم يعد يخشى الأدارسة الذين أجلاهم من بلادهم وحصرهم بقلعة حجر النسر [6] ، كما أنه لم يكن يخشى الفاطميين ، الذين تحالف معهم

---

[1] ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص 136.

[2] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 261.

[3] البكري، المغرب ، ص 104؛ ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 199.

[4] ابن أبي دينار، الأنيس، ص 85؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 341.

[5] وذلك عندما اتخذ عبد الرحمن الناصر لقب الخليفة سنة 316هـ/ 928م (ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 241-242؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 198).

[6] البكري، المغرب، ص 127؛ ابن خلدون ، العبر ، ج6، ص 136 ؛ انظر لاحقا .

دون اقتناع منه ومن قبيلته مكناسة بالمذهب الإسماعيلي [1] ، فكان هذا التحالف فقط ، لأخذ الصفة الشرعية على مناطق النفوذ التي يمتلكها بالمغرب الأقصى، وحالما توفر له البديل الشرعي بالخلافة السنية ، باعتبار الخلافة هي الجهة الرسمية الوحيدة التي تستهوي مشاعر وعواطف المسلمين بشكل عام ، بادر إلى نبذ طاعة الفاطميين والانضمام إلى الخلافة الإسلامية الجديدة.

هذه الظروف تؤيد حدوث التقارب بين الطرفين سنة 317هـ/ 929م ، وربما أن رسوخ العلاقة بين الناصر وموسى بن أبي العافية هي التي دعت الأخير إلى ترك المغرب الأقصى لبسط نفوذه على أجزاء في المغرب الأوسط حين استطاع أن يستولي على مدينة تلمسان سنة 319هـ/931م[2] ، وعلى نكور سنة 320هـ/ 932م [3] ، وما كان له من أثر في غضب الفاطميين عليه والمبادرة في تجهيز حملة لوقف زحفه والحد من نفوذه.

ثم إن الخليفة عبد الرحمن الناصر بعث إلى موسى بن أبي العافية سنة 320هـ/ 932م، يعاتبه بسبب نزاعه مع حليفه الآخر في المغرب الأقصى وهو محمد بن خزر الزناتي [4] ، وأرسل الناصر إليهم القاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى ، سفيرا ، فأصلح بينهما ثم كتب ابن أبي العافية إلى الناصر يعتذر له مما بدر منه تجاه محمد بن خزر، ويوضح له سبب الخلاف [5] ، فهذه الرواية تؤكد أن هناك علاقة قائمة بين الناصر وموسى بن أبي العافية ، منذ السابق أي قبل عام 320هـ/932م، وإلا فمن غير المعقول أن تكون هذه العلاقة توطدت في نفس العام (أي 317هـ) ، وجعلت الناصر يعاتبه بشأن نزاعه مع ابن خزر ، فقيام علاقة متينة بين الطرفين تحتاج إلى فترة

---

[1] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 375 هامش 154.

[2] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 194؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 214.

[3] ابن ابي زرع ، الأنيس، ص 84؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 341.

[4] أمير قبيلة زناتة في المغرب الأقصى (ابن عذاري، البيان، ج1، ص 205)، وسيأتي الحديث عنه لاحقا.

[5] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 307-308؛ انظر ، نص كتاب ابن أبي العافية في نفس المصدر في الصفحات 308، 309، 310، 311.

زمنية ، وعلى الأرجح أن مدة ثلاث سنوات يعدّ كافية لقيام مثل هذه العلاقة ، أي على اعتبار أن الاتصال تم منذ عام 317هـ/ 929م.

وأما ما أورده بعض مؤرخي المغرب والأندلس بشأن اعتبار عامي 319هـ و 320هـ/ تواريخ للاتصال بين الطرفين ، فربما كانت هذه التواريخ هي بمثابة إعادة تجديد الطاعة والولاء للناصر من قبل موسى بن أبي العافية [1] ، فظنها هؤلاء المؤرخون بداية الاتصال بينهما، ومما يعزز هذا الرأي بعض الإشارات التاريخية التي جاءت بهذا الصدد، فأغلب المصادر التاريخية [2]، التي تناولت هذه القضية، تشير إلى أن بداية الاتصال بين الطرفين كانت بعد الاستيلاء على بعض المدن في المغربين الأقصى والأوسط وهي فاس وتلمسان وجراوة ، ونكور، وارشقول، ويعني ذلك بعد عامي 319هـ و 320هـ، وعلى هذا الأساس يمكن أن ابن أبي العافية قد أرسل يجدد البيعة إلى عبد الرحمن الناصر حينما استولى على هذه المدن، ومما يوضح هذا الرأي ما نقله أحد المؤرخين بقوله " فلما ملك ابن أبي العافية مدينة تلمسان ونكور وفاس بايع عبد الرحمن الناصر لدين الله ملك الأندلس ، وقام بدعوته وخطب له على جميع منابر عمله"[3] .

كما انقسم بعض مؤرخي المغرب والأندلس على أنفسهم في أثناء تعرضهم لقضية مبادرة كلا الطرفين ، للاتصال بالطرف الآخر، فقد رأى بعضهم أن المبادرة كانت من قبل الخليفة الناصر لدين الله [4] ، بينما رأى البعض الآخر ، بأنها كانت من قبل موسى بن أبي العافية [5] ، ولا شك أن كل قسم من هؤلاء المؤرخين لديه أسباب يبرر فيها ما ذهب إليه، فأصحاب الرأي الأول يرون في قوة ابن أبي العافية المتنامية ، والتي انتهت بسيطرته على المغرب الأقصى وخضوعه لطاعته،

---

[1] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 147، هامش 2.

[2] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 214؛ ابن أبي زرع ، الانيس، ص 84-85؛ ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 137؛ ابن القاضي ، جذوة الاقتباس، ج1، ص 341-342.

[3] ابن أبي زرع، الانيس، ص 85؛ انظر، ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ج1، ص 341-342.

[4] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 137؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 188.

[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 199؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 215.

سببا كافيا، لأن يبادر الخليفة الناصر للاتصال به، كما يظهر أن الخليفة الناصر قد وجد ترددا من طرف موسى بن أبي العافية في الدخول بدعوته ، ولذلك أغراه بالوعود وألح عليه في قبول تلك الدعوة ويجمل أحد المؤرخين هذا الرأي بقوله " ولما استولى موسى بن أبي العافية على المغرب خاطبه حتى أجابه إلى مراده ، ونقض طاعة الشيعة وخطب للناصر على منابر عمله"[1] .

وأما أصحاب الرأي الثاني، فيرون أن دخول موسى بن أبي العافية في دعوة الفاطميين ، لم تكن عن قناعة، ولذلك عدل عنها ودخل في الدعوة الأموية بالأندلس " ثم إن موسى بن ابي العافية بدا له في دعوة الشيعة فعدل عنها وتابع عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله من بني أمية"[2] . ويبدو أن موسى بن أبي العافية كان قد وعد الناصر لدين الله باستمالة قبائل البربر في العدوة المغربية، ليضمن قبوله في الدخول في دعوته ويورد ابن عذاري ذلك بقوله: " كاتب موسى بن أبي العافية أمير المؤمنين الناصر من العدوة الغربية، ورغب في موالاته ، والدخول في طاعته، وأن يستميل له أهواء أهل العدوة المجاورين له"[3] .

وإضافة إلى الأسباب السابقة، يمكن القول إن الناصر رأى في أن تحالفه مع موسى بن أبي العافية، يحقق له حلما ساور الكثيرين قبله وبعده، وهو جعل مضيق جبل طارق ممرا مائيا يجري في مملكته ويوحد بين العدوتين بدلا من أن يفصل بينهما، عدا أن هذا الحليف المغربي سيكون وسيلة غير مباشرة لضرب أعدائه الفاطميين، ولا يطالب الخليفة الأموي أكثر من التأييد المعنوي[4] .

كما أن موسى بن أبي العافية ، الذي سيطر على المغرب الأقصى وجزء مهم من المغرب الأوسط، وتمكنه من القضاء على قوة الأدارسة ، فقد أعطته هذه الأعمال فيما يبدو شعورا بأنه

---

(1) الناصري، الاستقصا، ج1، ص 188.

(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 205.

(3) البيان ، ج1، ص 199، ج2، ص 204.

(4) أنظر، إسماعيل العربي، دولة الأدارسة ، ص 160-161.

تجاوز الإطار القبلي واصبح رجل دولة[1] ، وبحاجة إلى اعتراف سياسي من قبل دولة ذات صفة شرعية بين الشعوب الإسلامية، فوجد من الأجدى له لتحقيق هذا الهدف أن يتوجه صوب الخلافة الأموية بقرطبة والتي لا تكلفه سوى الدعاء في صلاة الجمعة للخليفة [2] بعد أن أدرك أن تحالفه مع الفاطميين لا يمكن أن يتيح له ماهية الاعتراف الرسمي بكيانه السياسي على أرض المغرب.

وعلى أية حال ، فقد ظهرت نتائج التقارب بين الأمويين وابن أبي العافية جلية، وذلك عندما بادر الخليفة الناصر بتقديم المؤن والمساعدات المادية إلى حليفه في العدوة المغربية ، ويتبين ذلك من جملة الأخبار التي وردت في سنة 319هـ/ 931م، أن " مركبا نزل من الأندلس بمرسى جراوة لموسى بن أبي العافية ، فهبط إليه الحسن بن أبي العيش[3] ، وأخذ ما كان فيه، فكاتبه موسى وكاتب قاضيه ووجوه أهل موضعه ، وكلموه في ذلك، فلم يصرف إليه متاعه فزحف إليه موسى بجيشه"[4] ، والتقى بابن أبي العيش، فلما رأى كثرة جنده أرسل إليه يطلب المصالحة ، فصالحه موسى وانصرف بعد أن صرف له ما أخذ من المركب[5] .

ولم تقتصر تلك المساعدات من جهة الأمويين على توفير المؤن والدعم المادي إلى حليفهم ابن أبي العافية فقط، بل تجاوزته إلى مساعدات عسكرية ، حينما عادت الحرب بينه وبين الحسن بن أبي العيش حليف الفاطميين في نفس العام المذكور، فبالرغم من أن ابن أبي العافية ، استطاع هزيمته[6] وحصاره في جزيرة ارشقول، إلا أنه أراد أن يعجل بنهايته، ولذلك أرسل إلى الخليفة الناصر يسأله النصرة ليقرب له المأخذ عليه [7] ، فبادر الناصر إلى تقديم العون والمساعدة له، إذ

---

[1] أنظر، إسماعيل العربي، المرجع نفسه، ص 160-161.

[2] أنظر، إسماعيل العربي، المرجع نفسه، ص 162.

[3] وكان الحسن بن أبي العيش، قد لجأ إلى مليلة وتحصن بها عند هزيمته أمام ابن أبي العافية (ابن عذاري، البيان، ج1، ص 194؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 213-214).

[4] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 201.

[5] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 201-202؛ انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 147.

[6] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 202.

[7] البكري، المغرب، ص 78.

اصدر أوامره إلى قائد أسطوله في البحر عبد الملك بن أبي حمامة بإعانته ثم أمر أهل بجاية وغيرهم من أهل السواحل بتجهيز خمسة عشر مركبا حربيا ، وتعبئتها بالرجال والسلاح وتزويدها بالأموال والتوجه بها لمساعدة موسى بن ابي العافية [1] ، وحسب رواية ابن عذاري أن قائدي أسطول الناصر في البحر وهما، أحمد بن محمد بن إلياس ، ويونس بن سعيد قد قدما من الأندلس لمساعدته أيضا [2] ، فأحاطت هذه القوات التي تجمعت لقتال الحسن بن أبي العيش، بجزيرة أرشقول وقتلوا كثيرا ممن كان فيها، وحاصروها ، حتى شارف أهلها على الهلاك من شدة العطش[3] ، ولم يحل بين تلك القوات وبين التمادي في حصار الحسن بن أبي العيش سوى حلول فصل الشتاء [4] ، فعادت القوات الأندلسية إلى ميناء المرية [5] وانفك الحصار.

ولم يكد موسى بن أبي العافية ينفك من حربه مع الحسن بن أبي العيش حتى قرر المسير إلى حرب محمد بن خزر أمير زناتة ، الذي وقف ضده في أثناء نزاعه مع ابن أبي العيش ، فأنف موسى منه ذلك ، وخرج إليه سنة 320هـ/ 932م، فقتل أصحابه وهزمه، ثم انصرف إلى مدينة جراوة [6] ، ويبدو أن الخليفة الناصر خاف أن يؤدي اختلاف الأميرين إلى فساد أحدهما على دولته ولذا بادر بإرسال القاضي محمد بن عبد الله بن أبي عيسى سفيرا إليهما ، فسعى بينهما إلى أن اصطلحا[7] .

ومن اللافت للنظر أن الناصر لدين الله ، عاتب حليفه المكناسي موسى بن أبي العافية، بسبب نزاعه مع حليفه الزناتي محمد بن خزر[8] ، في حين لم نر يفعل الأمر نفسه مع محمد بن خزر الذي

---

(1) البكري، المصدر نفسه، ص 78.

(2) البيان ، ج2، ص 205.

(3) البكري، المغرب، ص 78.

(4) ابن عذاري، البيان، ج2، ص 205.

(5) البكري، المغرب، ص 78.

(6) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 204-205.

(7) ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 307-308.

(8) ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 307-308.

أيد ابن أبي العيش الإدريسي في حربه ضد ابن أبي العافية [1] ، ومن المفارقة أن الناصر كان يقف في هذه الحرب إلى جانب ابن أبي العافية.

ويمكن تفسير موقف الخليفة الناصر السابق تجاه حلفائه في العدوة المغربية بأنه لديه ميول وأفضلية لدى حليف عن الآخر ، فبالرغم من أن الأميرين البربريين الزناتي والمكناسي، يحتلان عنده المكانة الأهم عمن حالفه من أمراء البربر في بلاد المغرب، وذلك لما يتمتعام به من صفات خاصة تميزهما عن بقية هؤلاء الأمراء " لزيادة مقاديرهما في إنافة الحال وكثرة الرجال وسعة الأعمال على مقادير الجماعة ، فكانا لديه من أشد من يوالي على مبرته من أولئك الأمراء ، ويواصل هديتهم ويطالع أخبارهم" [2] . إلا أن ذلك لا يمنع أن أمير زناتة محمد بن خزر يحتل المرتبة الأولى عند الخليفة الناصر ثم يتلوه ابن أبي العافية في المرتبة الثانية [3] ، ويذكر ابن حيان أحد الأسباب التي دعت الخليفة الناصر لتفضيل محمد بن خزر بقوله " لأن موسى لم يكن لديه بالموثوق الطاعة ، إذ كان والى عبيد الله الشيعي أول نجومه وارتسم بولايته ثم مال عنه إلى الناصر لدين الله، ودخل في جملته" [4] ، ثم أدرك الناصر أن الأمير المكناسي لم يكن ولاؤه للدولة الأموية ، بدافع الرغبة لاعتناق المذهب السني، ولا من منطلق الإيمان بمبدأ أحقية الأمويين وأولويتهم بالخلافة [5] ، ولكن ارتباطه بالدولة كان لتحقيق بعض المطامع السياسية والمصالح الشخصية ، وعلى العكس منه، كان أمير زناتة محمد بن خزر ، الذي كان ارتباط قبيلته بالأمويين منذ أن كانوا بالمشرق بدافع الولاء المذهبي، واستمرت زناتة على هذا الولاء ، حتى بعد أن أصبح الأمويون أمراء الأندلس[6] .

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 204-205.

(2) ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 307.

(3) ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 307.

(4) المقتبس، شالميتا، ص 307-308.

(5) أنظر، إسماعيل العربي، دولة الأدارسة، ص 161.

(6) أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 60.

ومن ناحية أخرى، نجد أن موسى بن أبي العافية يتغاضى عن موقف الناصر المؤيد ظاهريا لابن خزر ، إذ كان من الأولى أن يعاتب الناصر حليفه ابن خزر على موقفه إلى جانب أبي العيش، حليف الفاطميين والذي يعتبر عدوا مشتركا للناصر وابن أبي العافية معا، ونستدل على ذلك من كلام ابن أبي العافية حيث يقول " وقد أسر (يقصد ابن خزر) الغدر وأضمر على غير سبب ، أوجب ذلك المنافسة والحسد على ما نلته في ذاتك (يعني الناصر) من أمر أبي العيش الحسني صديقه"[1] ، وقد جاء هذا النص في رسالة طويلة بعث بها موسى بن ابي العافية للناصر الأموي ، يعتذر فيها عما بدر منه تجاه ابن خزر وأرفقها بهدية تتكون من اثني عشر فرسا من جياد وخيول، فكافأه عنها الناصر بهدية قيمة[2] .

وعلى الأرجح، أن موسى بن أبي العافية، تجاوز هذا الموقف من قبل الناصر ، ليتمكن من إقامة كيانه السياسي الخاص به، ولإدراكه أن التحالف الذي يربطه بالخليفة الناصر، أساسه المصلحة المشتركة بين الطرفين، ولذلك عمل جاهداً على إبقاء التعاون مستمرا معه، وهذا ما يفسر رسالة الاعتذار التي بعث بها للناصر وما رافقها من هدايا.

ولم يبق الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي، مكتوف الأيدي ، أمام هذا التحالف بين الخليفة الناصر الأموي ، العدو التقليدي له، وبين قبيلة مكناسة ممثلة بزعيمها موسى بن أبي العافية ، بعد أن اصبح الأخير يسيطر على مناطق واسعة في المغربين الأقصى والأوسط، ولذلك سارع المهدي، بإرسال حملة عسكرية تقدر بعشرين ألف مقاتل [3] ، سنة 321هـ/ 932م [4] ، بقيادة حميد بن

---

(1) ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 309.

(2) ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 308؛ أنظر، نص الرسالة في نفس المصدر ، ص 308، 309، 310، 311.

(3) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس، ج1، ص 342؛ وحسب الناصري أن عدد القوات تقدر بعشرة آلاف مقاتل (الاستقصا، ج1، ص 188).

(4) أبن خلدون ، العبر، ج6، ص 137؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 188؛ ويشير إدريس إلى أن الحملة كانت سنة 320هـ/ 931م (تاريخ الخلفاء، ص 232).

يصل[1] المكناسي [2] ، صاحب تاهرت الذي تسلم ولايتها عقب مقتل عمه مصالة بن حبوس[3] ، فالتقى مع موسى بن ابي العافية بفحص مسون[4] واقتتل الطرفان ، فانهزم ابن أبي العافية والتجأ إلى حصن يسمى "عين إسحاق" في بلاد تسول وامتنع به [5] ، فحاصره حميد بن يصل عليه فترة من الزمن ، وفي لحظة غفلة منه استطاع ابن أبي العافية الخروج من الحصن، واللجوء إلى الصحراء[6] .

وتقدم حميد بن يصل حينئذ إلى فاس، فلما أشرف عليها، فرّ منها مدين بن موسى بن ابي العافية ، ولحق بأبيه [7] ، فدخلها حميد وولى عليها حامد بن حمدان الهمداني [8] ، وعندما رأى موسى بن أبي العافية ، ضعف موقفه أمام القوات الفاطمية والتي تمتلك فيما يبدو وسائل حربية تفوق قدرته، رغم كثرة رجاله، أرسل إلى الناصر لدين الله يطلب منه المدد السريع وبخاصة فئة الرماة، فلم يتأخر الأخير عن الاستجابة لطلبه ، فجرد إليه جيشا كبيرا بكامل عدته بقيادة قاسم بن طملس، ونزل في مدينة سبتة، لتوجه إلى نجدته ، ثم كتب الناصر إلى قبائل البربر في العدوة

---

(1) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس، ج1، ص 342؛ إدريس ، تاريخ الخلفاء ، ص 32؛ وتختلف المصادر في إيراد اسم أبيه ، فابن عذاري يورده باسم يصال (البيان ، ج1، ص 214)؛ وأما ابن خلدون فيذكره باسم يصلتن (العبر، ج6، ص 137)؛ ويذكره الناصري باسم يصليتن (الاستقصا، ج1، ص 188) ؛ في حين يورده ابن الخطيب باسم تيسيل (أعمال الإعلام، القسم الثالث، ص 215).

(2) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 137؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 188؛ ويورده البعض باسم الكتامي (ابن الخطيب، أعمال الإعلام، القسم الثالث، ص 215؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 342).

(3) الناصري، الاستقصا، ج1، ص 188؛ وكان قد قتل على يد محمد بن خزر أمير زناتة (محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 195).

(4) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 137؛ ابن أبي زرع، الأنيس ، ص 85؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 342.

(5) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 137؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 342.

(6) إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 232.

(7) الناصري، الاستقصا، ج1، ص 188.

(8) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 137؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 188؛ وكان حامد هذا قد قدم مع حميد بن يصل من إفريقية بعد أن لجأ إليها خوفا من بطش ابن أبي العافية به (ابن خلدون، المصدر نفسه، ج6، ص 137؛ الناصري، المصدر نفسه، ج1، ص 188).

المغربية والمنضويين في دعوته، بمناصرة موسى والدفاع معه ضد الفاطميين [1] . كما قام بتجهيز قوة بحرية مستعجلة بمن توفر لديه من باقي الأسطول الأندلسي الذي خرج لمجاهدة الفرنجة في تلك الفترة ، وأرسلها لتعزيز موقف حليفه المغربي[2] .

فكان لتجمع تلك الحشود الأندلسية والمغربية لمساندة ابن أبي العافية أثرها في هزيمة حميد ابن يصل، وقتل عدد من جنوده ، واغتنام الكثير من خيولهم وإجباره على العودة إلى تاهرت مفلولاً، وكتب ابن أبي العافية إلى الخليفة الناصر يبشره بالنصر ويشكره على مساعدته[3] .

ولا ريب ، أن فشل حملة حميد بن يصل قائد الفاطميين في تحقيق نتائجها المرجوة منها، قد جنت على صاحبها ، حيث أودع فور عودته في سجن المهدية ومكث فيه، إلى أن تمكن من الهروب إلى الأندلس[4] ، وقد اقتصرت الإشارات التاريخية على ذكر سبب وحيد ، أدى إلى نكبة حميد هذا، حينما عزت ذلك إلى تركه لموسى بن أبي العافية بالمغرب الأقصى بغير عهد يعيد ولاءه لعبيد الله المهدي[5] . ولكن هذا السبب الذي دفع المهدي لأن يقوم بمثل هذا التصرف ، تخالجه الشكوك والحيرة، لأنه يتنافى مع المعطيات التاريخية اللاحقة، فقادة الحملات الفاطمية التالية التي خرجت إلى موسى بن أبي العافية ، ولم تستطع أن تأخذ عليه العهد، ومع ذلك لم يتخذ الخلفاء الفاطميون بحقهم أي إجراء يذكر ، وأما الطرح المقبول لتفسير هذا التصرف، أن حميد المكناسي قد تنفس ريح العصبية القبلية في أثناء حصاره لابن أبي العافية وأفراد قبيلة مكناسة في حصن " عين إسحاق" ، ففتح لهم الطريق للهروب إلى الصحراء، ويؤيد هذا الطرح، تلك الإشارة التاريخية الوحيدة التي وردت عند إدريس والتي تبين كيفية خروج موسى بن أبي العافية ، من الحصن ، وفي نفس الوقت لا تعطي سببا واضحا ، ومما جاء فيها " فحاصره حميد بن يصل ، وأقام عليها (أي القلعة)

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 327؛ انظر، نص كتاب الناصر إلى قبائل البربر في الملحق رقم (1).

[2] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 329-330.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 330.

[4] البكري، المغرب، ص 128؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 214.

[5] البكري ، المصدر نفسه، ص 128؛ ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 214.

بالجيوش، ثم إنه وقعت غفلة عن بعض السبل فخرج منها ابن أبي العافية يقصد الصحاري"[1] ، ومع أن الإشارات التاريخية في المصادر تشير إلى حصار حميد لابن أبي العافية ، فإنها تقف صامتة عن كيفية خروجه منها، الأمر الذي يدعونا للشك[2] ، وهذه النتيجة تتوافق مع الرأي القائل أنه ربما أن حميدا كان يبيت الانتقاض ضد الفاطميين ولذلك لم يكن مخلصا بحملته تلك[3] . ولعل المهدي شعر بتقاعص حميد وميوله إلى الاستقلال فأودعه السجن بدلا من قتله لئلا يثير الفوضى والقلاقل في دولته. كما أنه عندما فر من سجنه إلى الأندلس انضم هناك إلى أنصار الأمويين ولعب دورا هاما في الصراع الفاطمي والأموي على مراكز النفوذ في شمال المغرب الأقصى[4] .

ولم تلبث مدينة فاس أن عادت إلى أملاك موسى بن أبي العافية ، فور وفاة عبيد الله المهدي سنة 322هـ/ 934م [5] ، عندما ثار أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي[6] ، على عامل الفاطميين بها حامد بن حمدان ، فقتله " وبعث برأسه وولده إلى موسى بن أبي العافية"[7]، الذي بعث بهما بدوره إلى الخليفة الناصر بقرطبة مع سعيد بن الزاد[8] ، وأقام حامد بن أبي بكر عاملا لموسى على فاس[9] .

وقد بادر أبو القاسم بن عبيد الله المهدي الملقب بالقائم بأمر الله والذي بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه[10] ، بإنفاذ حملة عسكرية إلى المغرب الأقصى سنة 322هـ/ 934م، بقيادة غلامه ميسور

---

(1) تاريخ الخلفاء، ص 232.

(2) أبن خلدون، العبر، ج6، ص 137؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 342؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 188.

(3) انظر، لقبال، دور كتامة ، ص 375 هامش 154.

(4) أنظر ، لقبال ، دور كتامة ، ص 358 هامش 91.

(5) ابن خلدون، العبر، ج6، ص 137.

(6) البكري، المغرب، ص 128؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 137.

(7) البكري، المغرب، ص 128.

(8) البكري، المصدر نفسه، ص 128؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 214.

(9) ابن أبي زرع، الأنيس، ص 85؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 342.

(10) ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 208.

الخصي وبرفقته صاحب تاهرت يغمراسن بن أبي شحمة الكتامي [1] ، وكان الهدف منها إخضاع موسى بن أبي العافية واسترداد مدينة فاس، وقد جاءت تفاصيل هذه الحملة في الرسالة التي وردت على الخليفة الناصر بقرطبة من قبل حليفه موسى بن أبي العافية ، في هذه السنة [2] ، ومما جاء فيها، أن ميسورا بث دعاة الشيعة بالمغرب الأقصى، واتصل بقبائل البربر الضاربين في تلك النواحي، وحاول إقناعهم بالدخول في طاعة الفاطميين ومحاربة ابن أبي العافية ولكنهم رفضوا ذلك واختبئوا خوفا منه بأوعارهم ومعاقلهم ، فلما يئس منهم، كاتب أهل فاس، ودعاهم للدخول في طاعته ، وأعطاهم على ذلك العهود الغليظة وأكد لهم الحفاظ على سلامتهم ، إن هم خرجوا إليه ، فاغتر به محمد بن ثعلبة صاحب مدينة الأندلسيين ، وأحمد بن بكر ، صاحب مدينة القرويين، وقد ما إليه مع وجوه رجال العدوتين، فلما صارا بين يديه غدر بهما واحتجزهما ، وأخذ جميع ما كان بحوزتهما من خيل وأسلحة وغيرها وبعث بهما إلى المهدية [3] .

ولما رأى أهل فاس غدره بأميريهما، أغلقوا أبواب المدينة بوجهه[4] ، ولم يسمحوا له بالدخول إليها[5] ، ونصبوا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتي[6] فحاصرها ميسور مدة سبعة أشهر، فلما طال الحصار صالحه أهلها على دفع مبلغ قدره ستة آلاف دينار، وإقطاع ولبود وقرب للماء، وكتبوا ببيعتهم إلى أبي القاسم الشيعي ، وضربوا اسمه على سكتهم، وخطبوا له على منابرهم[7] ، واتجه صوب ابن أبي العافية، بحصن

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 347؛ وانظر، ص 369-370.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 347-348.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 348.

[4] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 85؛ ابن الفرضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 342.

[5] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 348؛ ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 85.

[6] البكري، المغرب، ص 128؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 137.

[7] ابن ابي زرع ، الأنيس، ص 86؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 342؛ ويتبين من رسالة ابن أبي العافية ومن الرسائل التي تلتها أن ميسور قام بحملتين إلى المغرب الأقصى الأولى ، كانت سنة 322هـ/ 934م، وهي التي انهزم فيها، والثانية كانت سنة 323هـ/ 934م، التي انكشف فيها موسى إلى الصحراء (أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 160، هامش 2)؛ بينما تذكر مصادر المغرب والأندلس الأخرى أنه خرج مرة واحدة في هذه الفترة وهي التي انهزم

" لكاي" [1] ، ونزل على مسافة قريبة منه تقدر بستة أميال، وأقام أربعة أيام يكاتب ابن أبي العافية للدخول في طاعته، وأعادته إلى عهده السابق مع الفاطميين ولكن موسى بن أبي العافية أنف ذلك ولم يجبه، فزحف ميسور حينئذ نحوه لقتاله بجيش كبير ، قسمه إلى ثلاثة أقسام ، واختار لكل قسم طريقاً للأطباق عليه من جهة الشرق والغرب والجنوب، ودارت بين الطرفين معركة قوية تمكن ابن أبي العافية بفضل الكمائن التي عملها من ردع القوات الفاطمية وهزيمة قائدها ميسور الخصي[2] .

وبينما كان موسى بن ابي العافية مشغولاً في حربه مع الفاطميين، اغتنم الأدارسة (بنو محمد وبنو عمر) الفرصة ، وحاولوا الاستيلاء على مدينة أصيلا [3] ، ولكنهم فشلوا في تحقيق هدفهم، وكان موسى ابن أبي العافية قد كتب إلى ابن حزب الله ، صاحب سبتة ، والمقيم على دعوة الأمويين بها، لقطع الطريق على الأدارسة ولكنه اعتذر له عن ذلك، بحجة أنهم ما زالوا على ولائهم للخليفة الأموي بقرطبة ، فغضب موسى بن أبي العافية ، وكتب إلى عبدالرحمن الناصر، يشكو عامله، ويؤكد له مساعدة بني محمد وبني عمر الأدارسة لميسور في حربه ضده ويستدل بذلك، من أن زعيمهم إبراهيم بن إدريس موجود بقواته في معسكر الفاطميين، ثم يحذر الخليفة من ابن حزب الله وسوء معاملته للبربر بقوله " وأن ابن حزب الله لمخدوع كثير الطمأنينة ، لم يحكم معاملة البرابرة ، فليكن من أمير المؤمنين إليه تبصرة ، والله يكشف له عن الضمائر ويقيه المكاره بمنه" [4]، فأجابه الناصر وطمأنه ونوه بشجاعته وإخلاصه وبعث له بهدية نفيسة[5] .

فيها موسى سنة 323هـ/ (أنظر ، البكري، المغرب، ص 128؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 137؛ ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 85).

[1] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 137.

[2] ابن حيان ، المقتبس، شالميتا، ص 348-349.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 349؛ وأصيلا : مدينة تقع أول مدن العدوة من جانب الغرب، بقرب طنجة ، وهي كبيرة وقديمة وكثيرة الخير والخصب (الحميرى، الروض المعطار، ص 42).

[4] ابن حيان، المقتبس، شالميتا ، ص 349-350؛ انظر، نص رسالة موسى بن أبي العافية في الملحق رقم (2).

[5] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 350-351؛ انظر تفاصيل، الهدية في الملحق رقم (3).

وكانت رسالة موسى بن أبي العافية ، التي بعثها إلى الخليفة الناصر سنة 322هـ/ 933م، تتضمن مجمل التطورات السياسية التي حدثت في العدوة المغربية ، حيث تناولت وفاة الخليفة عبيد الله المهدي ، وتسلم ابنه وولي عهده أبي القاسم، الذي قام فور تسلمه بقتل أخوته جميعا، باستثناء واحد منهم، تمكن من الهرب إلى قبيلة كتامة أنصار دولتهم ، ثم قتل واحداً من كبار رجال أبيه المهدي ، فأصبحت أمور دولة الفاطميين على هذا الحال مضطربة وغير مستقرة[1] .

استطاع أبو القاسم الفاطمي، ترتيب أمور دولته الداخلية بسرعة ، فترك المهدية وانتقل إلى رقادة مع أهله وحشمه، خوفا من الدسائس والمؤامرات التي دبرها أخوته ضده [2] ، وأصبح يتطلع لضبط أوضاع الدولة على بقية أجزاء المغرب، وخاصة أن أهل تاهرت ثاروا على عامل الفاطميين، أبي مالك بن أبي شحمة ، وطردوه منها، وذلك بعد أن اتفقوا مع أهل السنة من قبائل زناتة المغراويين ، على إعلان الطاعة للخليفة الناصر[3] ، وفرار كثير من فتيان الدولة وكبار قادتها من مختلف قبائل البربر ولجوئهم إلى موسى بن أبي العافية ، في المغرب الأقصى، ولذلك أرسل أبو القاسم حملة جديدة سنة 323هـ/ 934م ، بقيادة ميسور الخصي ومعه بعض القادة أمثال ابن أبي شحمة المخلوع، وصندل الفتى ، لإخماد الثورة ، ومطاردة الفارين ثم تحقيق الهدف الأكبر لها، وهو القضاء على موسى بن أبي العافية [4] .

ومجمل تفاصيل هذه الحملة ، كشفها موسى بن ابي العافية في كتابه الموجه إلى الخليفة الناصر في نفس السنة ، أي 323هـ/ 934م، حيث يقول " فإن جيشهم (أي الفاطميين) الملتف بالخصي ميسور ، يسر الله حتفه ، عاود حربنا في هذه الصائفة بجد وعزم كذب الله فيهم ضنهم ، وأضعف جندهم وصرفهم على أعقابهم ، وبلغهم ما فعله أهل تاهرت بأبي مالك بن أبي شحمة، عاملهم، وما أظهروه من الخلاف عن طاغيتهم ، أبي القاسم، قصمه الله، ومن حولهم من قبائل

---

[1] ابن حيان، المصدر ، شالميتا، ص 353-354.

[2] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 374.

[3] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 373-374.

[4] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 369-370؛ انظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 160-161.

البربر فحاروا وسقطوا في أيديهم ، وزاد في خوفهم ما فيه طاغيتهم ، أبو القاسم مع إخوانه بالمهدية من الخلاف، فأفلس الخبائث ، وتساقط كثير منهم ومن شيعهم علينا ، متبرئين منهم ، وهرب طوائف من عسكرهم ، مستأمنين إلينا، حتى صارت الطريق سالكة إلينا من عندهم بالهاربين من فتيانهم وأولي البأس منهم"[1] .

كما صور موسى بن أبي العافية في كتابه هذا ، قوة موقفه، وكثرة الأنصار الداخلين في دعوة الأمويين وذلك بقوله " وصارت إلينا قبائل أهل المغرب، بأجمعهم من كل مكان ... (ويعدد مجموعة من تلك القبائل ثم يقول)، وقبائل غيرها، لا يسعها كتابنا، كلهم داعين بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، مولانا فنحن في عدد عديد، وجمع عتيد وقوة قوية والحمد لله" [2]. ويقترح في نفس الوقت على الناصر، صرف القوات التي يريد إخراجها لتحصين مدينة سبتة إلى مدينتي طنجة وأصيلا، وذلك لأن سبتة ذات حصانة طبيعية فهي محاطة بالبحر ، إضافة إلى الوعر الذي يكتنف جوانبها ، والقوات التي فيها تكفي للدفاع عنها، ولذا لا فائدة من تزويدها بجيوش جديدة ، وأما سبتة وأصيلا ، فإنهما عرضة دائمة لهجمات الأدارسة ، حلفاء الفاطميين ، وأن أهمية تحصينها ، يمنع وصول هؤلاء الأدارسة لهما، وتفوت حجة الاتصال بالفاطميين"[3] .

وفي آخر سنة 323هـ/ 934م، وصل إلى الخليفة الناصر كتاب آخر من موسى بن أبي العافية ، يبلغه فيه، أن ميسور الخصي وأصحابه تقدموا نحوه إلى حصن " لكاي" يساعدهم في ذلك الأدارسة من بني محمد وبني عمر ، ويعرفون ببني ميالة، ودارت بين الفريقين معركة لم ير مثلها بالمغرب منذ زمن إذ اختلط فيها الحابل بالنابل، وفقد الحكيم فيها صوابه وأضل العاقل سمته [4] ،

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه ، شالميتا، ص 369.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 370؛ انظر، نص الكتاب في الملحق رقم (4).

[3] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 371.

[4] ابن حيان، المصدر نفسه، ص 371-372؛ ويستشهد موسى بن أبي العافية على شدة المعركة ببيت من الشعر إلى الشاعر حبيب بن أوس الطائي: في ساعة لو أن لقمانا بها وهو الحكيم لكان غير حكيم
(ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 372).

وكانت هذه الجولة لصالح موسى بن أبي العافية الذي قتل منهم نحو مئتي فارس، وغنم منهم خيولا كثيرة[1] ، إلا أن ميسورا لم يفقد الأمل من النتيجة النهائية للمعركة ، فأقام على مقربة من معسكر موسى بن أبي العافية ، بمسافة تقدر بثلاثة أميال [2] .

وفي نفس الوقت ، يبدو أن نتيجة المعركة شجعت موسى بن أبي العافية وأخذ يطلب المدد والمساعدة العسكرية ، من الناصر الأموي ، حتى يستطيع أن يمد سلطانه على هذه المنطقة [3] ، منتهزا بذلك ، اضطراب أحوال إفريقية ، ويتضح ذلك من كتابه السابق للناصر بقوله " فالأمور هناك (يعني إفريقية) مضطربة ، باعدها الله من الاستقرار، وعجل عليها بالدمار فلو كانت من أمير المؤمنين مبادرة إلى إمدادنا لوجدنا الفرصة فيهم، ورجونا بحول الله انتظام طاعته من أقصى المغرب إلى أنأى المشرق"[4] .

ولكن آمال موسى بن أبي العافية ، حليف الأمويين ، تبددت سريعا فلم يلبث أن ورد على أثر كتابه الأخير، كتاب آخر لإسماعيل بن عبد الملك إلى الناصر لدين الله، يخبره فيه بانكشاف موسى بن أبي العافية ، أمام جيش ميسور الخصي قائد الفاطميين، وهروبه بمن معه بعد فقدانه حصن "لكاي" ، إلى موضع في قلب الصحراء يقال له تاكرت ، وقد طلب عبد الملك منه إمداده بالعساكر ونصرته، بعد أن تعذر هو عليه ذلك[5] .

وخاف الأدارسة ردة فعل الأمويين بالأندلس ، عقب هزيمة حليفهم موسى بن أبي العافية، بالمغرب الأقصى ، ولذلك سارعوا لإرسال سفارة إلى قرطبة تحمل معها كتابا من إبراهيم وأبي العيش ، يجددون فيه البيعة للخليفة الناصر، ويعتذرون له عن التهمة التي رماهما بها موسى بن أبي

---

(1) ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 372.

(2) ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 372.

(3) أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 161.

(4) ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 374.

(5) ابن حيان ، المقتبس، شالميتا، ص 374؛ ويذكر ابن خلدون أن ميسورا قد قبض على ابنا لموسى بن أبي العافية اسمه البوري، وأخذه إلى المهدية بعد عودته من حملته تلك (العبر، ج6، ص 137).

العافية والمتعلقة بمساعدتهما لميسور قائد الفاطميين ، ويسوغون ذلك أنه كان خوفا منه ومداراة له، ولم يكن عن رغبة صادقة منهم تجاهه، ويؤكدون للناصر أنهم على أهبة الاستعداد للانضمام إلى الجيش الأموي فيما إذا قدم لمحاربة ميسور ، ولإثبات حسن نياتهم، سيتركون رهائن منهم، ومن أتباعهم البربر، عند ابن حزب الله عامل الأمويين على سبتة[1] .

وبالفعل فقد أصاب حدس الأدارسة ، حيث أغزى الخليفة الناصر أسطوله إلى العدوة المغربية سنة 324هـ/ 935م ، لنجدة حليفه موسى بن أبي العافية ونصرته وتكونت عدة هذا الأسطول، من أربعين مركبا حربيا، حمل على متنه ثلاثة آلاف مقاتل، منهم خمسمائة من الحشم، وكانت انطلاقة هذه السفن الحربية من مدينة سبتة ، إلى مدينتي مليلة ونكور فافتتحهما، ثم اتجه صوب مدينة جراوة وافتتحها هي الأخرى ، فعزز بذلك موقف موسى بن أبي العافية، وأعاد إليه المدن التي كان قد فقدها في حربه ضد الفاطميين ، ولم تنفك السفن الأموية عن مقارعة أتباع الفاطميين في المغرب الأقصى ، طيلة ستة أشهر ، حتى تنفس موسى بن أبي العافية الصعداء ، وأفاق من كبوته، ثم قفل الأسطول عائدا إلى الأندلس [2] .

وتتابعت أنباء الانتصارات الأموية في نفس السنة – أي سنة 324هـ/ 935م- على الخليفة الناصر بقرطبة من مختلف النواحي، فقد وافق أن توالت عليه أربعة كتب تحمل نبأ أربعة فتوح من أربعة مواضع قرئت كلها في يوم واحد في المسجد الجامع بقرطبة يوم الجمعة [3] ، وقد عبر الشاعر أبو عثمان بن إدريس عن تلك الفتوح بقوله :

فتوح توالت بالسعود الطوالع   تلذ بها الأسماع من كل سامع

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 374-376؛ انظر، نص كتاب إبراهيم وأبي العيش الإدريسيين إلى الخليفة الناصر، في الملحق رقم (5).

[2] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 382.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 382.

وقائع أدتها صحائف أربع   يخبرن عن أنباء تلك الوقائع[1] .

استعاد موسى بن ابي العافية ، أماكن نفوذه السابقة ، بعد عودته من الصحراء سنة 324هـ/ 935م ، واستقر بأهله وولده في قلعة حرماط [2] ، ولم يلبث أن أعلن أهل فاس بالدخول في طاعته، فأرسل إليها ابنه وولي عهده مدين بن موسى [3] ، وبعد أن دخلت في أملاكه ، ولى على عدوة الأندلسيين أبي يوسف بن محارب الأزدي [4] ، ثم بعث موسى بن ابي العافية إلى الخليفة الناصر، يلتمس معونته على بناء قلعة "جارة" التي انزوى إليها وإمداده بالمهندسين والبنائين والآلات اللازمة لعملية البناء وتزويده بالمؤن حتى يستطيع أن يخرج من ظروف الحرب القاسية التي حلت به من جراء حملة ميسور الخصي، وقد شرح مطالبه وأوضاعه الصعبة في كتابه الذي وصل إلى الخليفة الناصر سنة 324هـ/ 935م، ومما جاء فيه قوله: "لقد حل علينا في ذاته من الذل بعد العز، والتجول بعد القرار، والجوع والعطش في حلولنا الصحراء ، مالا أقدر على وصفه"[5] .

كما طلب إرسال الأسطول الأموي إلى أحد الموانى التابعة لأعماله، بالمغرب الأقصى ، ليساعده ويشد من أزره ولكي يستخدمه عند الضرورة ويلمح موسى بن أبي العافية ، في نفس الوقت، إلى الخليفة الناصر أن ما حل به كان نتيجة ثباته على طاعة الأمويين، وأنه تعرض أثناء حصاره بحصن " لكاي" ، وقبل نكبته لإغراء ميسور الخصي قائد الفاطميين بقوله : " إبرا من ولاية عبد الرحمن بن محمد، والدعاء له على منابرك، وأنا ارتفع لك عن المغرب بأسره، وأرد عليك الناس من أهله، وأنزلك من مولاي (يعني أبا القاسم الشيعي) أفضل المنازل لديه" [6] ، ولكن

---

[1] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 382.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 137؛ وترد هذه القلعة عند ابن خلدون باسم كوماط (العبر، ج6، ص 137).

[3] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 386-387.

[4] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 137.

[5] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 387.

[6] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 387-388.

موسى بن أبي العافية ، رفض العرض – حسبما يزعم- لإيمانه المطلق بالدعوة الأموية ، فكان ذلك سببا في زيادة حقد ميسور وغضبه عليه[1] .

كانت استجابة الخليفة الناصر ، لمطالب حليفه المغربي على جناح السرعة حتى يضمن بقاءه على مناوأة أعدائه الفاطميين ، فبعث إليه المواد والآلات اللازمة لبناء قلعته، وما عنده من مهندسين وبنائين وما شابه ذلك، حيث أنفذ محمد بن وليد بن فبشتيق ، رئيس المهندسين، وثلاثين بناء ، وعشرة نجارين ، وخمسة عشر حفارا، وستة جبارين مهرة ، وستة من النشارين لنشر الخشب، وحدادين ، وحصارين اختيروا من أمهر الحرفيين الأندلسيين، وجهزهم بكامل آلاتهم وأدواتهم تحسبا لطول مدة العمل بالعدوة المغربية[2] .

كما أرسل إليه مؤن تكفي قوته وقوت أتباعه، وتتكون من مختلف أصناف الأطعمة والحبوب مثل: القمح ، والشعير ، والفول، والحمص ، والسمن، والزيت، والعسل، إضافة إلى أنواع أخرى من الهدايا والطرائف اللطيفة وكان ذلك سنة 325هـ/ 936م [3] .

وفي ظل التطورات والمستجدات السياسية ، المتعلقة بالوجود الأموي بالمغرب الأقصى، وما رافقها من تدعيم نفوذ حليفهم موسى بن أبي العافية ، فإن الأدارسة الذين عرفوا بولائهم المتقلب حسب ما تقتضيه حاجاتهم ومصالحهم الشخصية ، فقد وصل كتاب من إبراهيم بن محمد الحسني، رئيس بن محمد ، إلى الخليفة الناصر، يعتذر فيه عن موالاته للفاطميين ومساعدته لهم، ويسوغ تصرفه هذا ، بأنه حرصا منه على أرواح رعيته وحرمتهم ، خوفا من بطش ميسور الخصي وجنوده بهم، ولم يكن ذلك عن رغبة صادقة منه، بقبول دعوة الشيعة الفاطميين، ولإثبات صحة

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 388.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 388.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 389؛ انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 165.

ولائه الجديد للأمويين ، فقد أبدى استعداده لمصالحه حليفهم موسى بن أبي العافية، رغم ما بينهم من عداوة قديمة وما نالهم من أضرار بسبب حروبه معهم، فأجابه الناصر بالقبول والموافقة(1) .

وبالمقابل ، فقد ورد على الناصر في أوائل سنة 325هـ/ 935م ، كتاب موسى بن أبي العافية ، يطلعه فيه على مجمل انتصاراته الجديدة ، التي حققها بمساعدة الأسطول الأندلسي بالمغرب الأقصى ، فقد تمكن بفضل مساعدة الأسطول له، من الاستيلاء على مدينة نكور ثم توجه نحو جزيرة أرشقول وافتتحها ، بعد أن هرب عنها ابن أبي العيش، ولجأ إلى مدينة جراوة ، فلحق به هناك، والتقى معه في معركة قصيرة ، هزم خلالها ابن أبي العيش ، واختبأ بالأوعار القريبة منها، ثم دخل موسى بن أبي العافية إلى مدينة جراوة ، وجاءته بها قبائل البربر بتلك النواحي، تعلن طاعتها ودخولها بالدعوة الأموية ، لما رأوه من قوة الأسطول الأندلسي، الذي يصفه موسى بن أبي العافية ، بقوله أنه ارتجت له أرض العدوة لكثرة تجواله(2) .

وتوالت الأخبار على الأندلس بمختلف الأحداث السياسية الجارية على الساحة المغربية بوساطة التقارير التي كان يبعث بها موسى بن أبي العافية إلى هناك، ففي منتصف سنة 325هـ/ 935م ، وصل كتابه إلى الناصر ، يخبره بحصار ابنه مدين بن موسى إلى ابن أبي العيش، داخل حصنه ، ولم ينفك عنه حتى صالحه ابن أبي العيش، على الدخول في طاعته، وعلى أن يتنازل له عن جميع أعماله، مقابل إبقاء الحصن له، ثم يخبره بما تم بينه وبين محمد بن خزر، زعيم زناتة من مصالحة وأنهما كللاها بالمصاهرة بينهما ولزيادة وتأكيد عمق الرابطة التي بدأت تجمعهما ، وما اتفقا عليه من ترك خلافاتهما جانبا، للوقوف في وجه عدوهما المشترك ، وهم الفاطميون(3) .

كما تضمن كتابه أخبار الإنشاء العمراني، والذي بدأه منذ عودته من الصحراء وأن البنائين والمهندسين الأندلسيين ومساعديهم شارفوا على إنجاز أعمالهم ، وسأله استبدال هذه المجموعة ،

---

(1) ابن حيان ، المقتبس، شالميتا، ص 390.

(2) ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 413-415.

(3) ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 426.

التي سئمت العمل، بسبب طول مدة الغربة بعيدا عن أوطانهم، بمجموعة أخرى، تكون أنشط، وأن يعززه أيضا، بمائتي مقاتل، على سبيل الاحتراس، ويؤكد له أن ابن أبي العيش، ما زال على عهده الأخير معه، ومسالمته له[1] .

واصل أبناء موسى بن أبي العافية ولاءهم ، للأمويين بالأندلس في أثناء مرض أبيهم الأخير، ففي سنة 326هـ/ 936م ، ورد على الخليفة الناصر كتاب ابنه الثاني أبي منقذ بن موسى بن أبي العافية ، يعلمه بأخبار المشارقة الفاطميين بالمغرب، كعادة أبيه، فشكره الناصر، وكافأه بهدية قيمة[2] . ثم تلاه كتاب آخر إلى قرطبة في نفس العام من طرف مدين بن موسى بن أبي العافية ، يستعرض فيه الوضع في المغرب، ويذكر أنه لا يزال محاصرا لمدينة فاس، ويندد بغدر الأدارسة من فرع بني عمر، ومعاودتهم لخلع طاعة الأمويين، وانضمامهم لأبناء عمومتهم ، فرع بني محمد، الموالين للفاطميين، وأن مدين قاتلهم على فعلهم هذا، وهزمهم[3] .

ولم تعجب الخليفة الناصر، تصرفات الأدارسة ، وولاؤهم المتذبذب وكان لمثل هذه الأعمال، أثر عظيم في نفسه، ولا سيما أنه كان قد قبل منهم تجديد بيعته في نفس العام، وقد ارتأى عندئذ ، تغيير سياسته القادمة تجاههم ، ولذلك لم يرض قبول تجديد طاعتهم له مرة أخرى حينما كتبوا إليه سنة 326هـ/ 936م، ينكرون سعاية مدين بن موسى، بحقهم، ويشير إلى ذلك ابن حيان بقوله ، أن الخليفة الناصر أعرض عنهم ولم يصغ لهم[4] .

وتفاجأ الخليفة الناصر، بكتاب مدين بن موسى في آخر سنة 326هـ/ 936م ، الذي يحمل فيه، نبأ وفاة أبيه موسى بن أبي العافية ، في شهر شوال من هذه السنة، فأجابه الناصر

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 45؛ انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 166.

[2] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 426.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 426-427.

[4] المقتبس، شالميتا، ص 426-427.

بالتعزية عن أبيه وعلى شدة أسفه لفقدانه أهم حلفائه في العدوة المغربية[1] ، وأرسل إليه في نفس الوقت، بسجل من طرفه، ولاه بمقتضاه على أعمال أبيه ابتداء من مليلة وحتى نهاية المنطقة التي كانت تدين لطاعة أبيه قبل وفاته [2] .

واستمر مدين بن موسى بن أبي العافية، على نهج أبيه في موالاته، للأمويين بالأندلس، وقد عزز هذه العلاقة بإرسال الوفود والمبعوثين إلى قرطبة ، تأكيدا منه لزيادة رابطة الولاء والتعاون التي كانت قائمة معها، ولذلك فقد وصلت سفارته المؤلفة من ابنه محمد بن مدين وعمه فرج بن موسى إلى بلاط قرطبة يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر شعبان سنة 328هـ/ 939م ، فاستقبلهما الناصر استقبالا رسميا بالجيش والعدة ، وأنزلهما بقصر " البنتيل" شرقي قرطبة ، وبالغ في تكريمهما ، ولما سألاه العودة إلى المغرب، ضاعف الهدية لهما، ولمن معهما من أصحابهما ، كما حملهما هدية قيمة إلى مدين بن موسى، اشتملت على الكسوة والكراع، والحلية والثياب والفرش[3] ، فكان لهذه السفارة أثرها السياسي في تطور العلاقة بين الخليفة الناصر ومدين بن موسى في المستقبل.

وبادرت الدبلوماسية الأموية في العودة إلى أرض المغرب الأقصى سنة 328هـ/ 939م ، بعدما كانت قد غابت عنه منذ أيام موسى بن أبي العافية، ومحمد بن خزر، وذلك على أثر النزاع الذي نشب بين ابنيهما الخير بن محمد بن خزر الزناتي ومدين بن موسى المكناسي، بسبب تنافسهما على السيادة ، وتداخل مناطق نفوذهما بالمغربين الأوسط والأقصى ، حتى أدى ذلك بالتالي إلى الاقتتال بين الطرفين ، ولما طالت الحرب بينهما ولم يستطع أي منهما التغلب على الآخر، كتب كلاهما إلى الخليفة الناصر يستحكمه في الأمر، فلم يتردد الأخير، بإنفاذ رسوله القاضي منذر بن

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 427؛ وتشير بعض المصادر المغربية ، إلى أن موسى بن أبي العافية قتل ببلاد ملوية سنة 341هـ/ 952م ، أو 328هـ/ 938م (ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 86؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 342)، في حين يذكر البعض أنه مات سنة 326هـ/ أو 328هـ (انظر، إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 263 هامش40).

[2] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 427.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 460-495.

سعيد إلى العدوة المغربية ، بعد أن كتب إلى عبد الله بن خزر عم الخير بن محمد الزناتي، وداود بن مصالة كبير أصحابه ، يأمرهما بمساعدة رسوله في مهمة الإصلاح بين الأميرين المكناسي والزناتي ، واستطاع القاضي منذر بفضل حنكته السياسية من حسم الخلاف بينهما ، وإصلاحهما ، وعاد بعدها إلى الأندلس[1] .

وأهدى الخليفة الناصر بهذه المناسبة إلى الخير بن محمد هدية قيمة ، اشتملت على أنواع مختلفة من الكسي الفاخرة ، والأمتعة الرفيعة وآلات حربية متباينة من دروع، وتروس ، ودرق، وألوية ، وطبول، وما شابه ذلك . كما أهدى إليه خاتما من خواتمه الخاصة ، من الفضة الزمردية، رفيعة القدر، نقية الجوهر ، منقوش عليها اسمه ، ليختم به رسائله أثناء الكتابة[2] .

وحسب رواية ابن خلدون ، فإنه بعد سنة 335هـ/ 947م، كان مدين بن موسى بن أبي العافية ، قد قسم الأعمال التي ورثها عن أبيه وأقره عليها الخليفة الناصر ، بينه وبين أخويه أبي منقذ والبوري، وترد تلك الرواية في سياق حديث ابن خلدون عن هرب البوري بن موسى بن أبي العافية من جيش الخليفة المنصور الفاطمي في أثناء حربه أبي يزيد الخارجي ولحاقه بأخيه مدين [3] ، وكان البوري هذا، قد اقتيد أسيرا أمام ميسور الخصي قائد الفاطميين إلى المهدية [4] ، بعد هزيمته لموسى بن أبي العافية سنة 323هـ/ 934م[5] .

وبعد وفاة مدين بن موسى ، عقد الخليفة الناصر لأخيه أبي منقذ على الأعمال التي كانت بحوزته بالمغرب الأقصى ، ولكن ولايته لم تستمر سوى عام، وذلك أن مغراوة الزناتية قويت شوكتها في تلك الفترة ، واستطاعت السيطرة على فاس وأعمالها، ثم سيطرت على ضواحي

---

(1) ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 460.

(2) ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 460.

(3) العبر، ج6، ص 139؛ في حين يذكر إدريس أن المنصور الفاطمي هو الذي أخرج البوري من السجن مع جملة المسجونين الذين عفا عنهم بعد انتصاره على أبي يزيد الخارجي (تاريخ الخلفاء، ص 263).

(4) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 137.

(5) ابن حيان ، المقتبس، شالميتا، ص 374.

مكناسة وأعمالها أيضا، وأجبرت إسماعيل بن البوري ومحمد بن عبد الله بن مدين على العبور إلى الأندلس، وأقاما بها إلى أن قدم واضح قائد المنصور بن أبي عامر، لحرب زيري بن عطية الزناتي فحضرا معه في حملته تلك، وبعد أن أخضع واضح المغرب الأقصى أعاد لهما أعمالهما عليه[1] .

ولما تغلب بلكين بن زيري على المغرب الأوسط، عاود مظاهرتهم ولم يلبث إسماعيل بن البوري أن توفي في الحرب التي دارت بين حماد وباديس بناحية شلف سنة 345هـ/ 956م ، وظلت أسرة موسى بن أبي العافية ، تتوارث أعمالها بالمغرب الأقصى ، إلى حين ظهور يوسف بن تاشفين وقضائه على آخرهم وهو القاسم بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية، وذلك سنة 363هـ/ 974م[2] .

ومهما كان عدد أبناء موسى بن أبي العافية وأحفاده، وطول مدة نفوذهم بالمغرب الأقصى ، إلا أننا لا نجد لهم ذلك الدور السياسي في العلاقات بين الأمويين والفاطميين الذي يستحق الذكر كما كان في عهد موسى بن أبي العافية.

وقد اقتصرت بعض الروايات التاريخية التي أشارت إلى أعقاب موسى بن أبي العافية ، على ذكر اسم الأبناء والأعمال التي كانوا يمتلكونها ومحافظتهم على ولائهم السياسي للأمويين ، دون الإشارة إلى أي دور لهم في العلاقات بين الأمويين والفاطميين، هذا، إذا استثنينا بعض المعلومات المقتضبة – السالفة الذكر- في عهد ابنه مدين ودوره في تلك العلاقات [3] ، ومع ذلك فإن وردت عنهم معلومات تخص العلاقات ، فإنها نادرة ، ومتقطعة عبر طول فترة هذه الدراسة ، وسيأتي الحديث عنها حسب سياقها التاريخي في الفصول التالية.

---

[1] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 139.

[2] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج6، ص 139؛ ويذكر ابن الخطيب أن مدة حكم أسرة موسى بن أبي العافية ابتداء من عهده، إلى عهد آخرهم وهو القاسم بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن موسى بن أبي العافية كانت مائة وأربعين سنة (أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 216-217)، في حين يرى ابن أبي زرع أن نهاية أسرة ابن أبن ابي العافية ، لم تكن في عهد القاسم، بل كانت في عهد أبيه محمد وذلك سنة 363هـ/ 974م (الأنيس ، ص 86).

[3] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 216-217؛ ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 139؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 86.

ومما يجب التنويه إليه، أن سبب اختيار عامي 317هـ/ 929م ، و 328هـ/ 939م ، بداية ونهاية لثورة موسى بن أبي العافية ، يعود إلى أن التاريخ الأول ، يمثل بداية الاتصال بين موسى مع الأمويين بالأندلس وخلعه لطاعة الفاطميين بالمغرب؛ وأما التاريخ الثاني، فإن الروايات التاريخية بعده أصبحت نادرة ومتناثرة ، وغير متصلة عندما تتحدث عن خلفية العلاقات السياسية بين الأمويين والفاطميين ، ولذلك كان من الأفضل الوقوف عند عام 328هـ، وإرجاء بقية الإشارات – إن وجدت- حسب ما تتضمنه خطة الدراسة ، والمبنية على ذكر الحدث ضمن موقعه التاريخي.

علاقة الأدارسة بالأمويين والفاطميين بالمغرب الأقصى(297-375هـ/910-986م)

استطاع إدريس بن عبد الله [1] الكامل [2] بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب [3] ، من تأسيس دولة الأدارسة بمساعدة قبيلة أوربة ، بالمغرب الأقصى سنة 172هـ/ 789م[4] ، وكان ذلك ، بعد نجاته بنفسه من المشرق عندما أوقع العباسيون هناك بالثوار العلويين في موقعة فخ سنة 169هـ/ 786م [5] . ولم يلبث فترة ، حتى اجتمعت حوله القبائل البربرية وبايعته [6] ملكا على المغرب [7] ، ثم استولى بمساعدتها على المنطقة الشمالية في المغرب الأقصى [8] ، وبذلك استقام أمره في بلاد المغرب [9] . وعندما تنبه الخليفة هارون الرشيد إلى الخطر الذي يمكن أن ينجم عن دولته ، أرسل إليه من غدر به (بالسم) [10] .

وتوفي إدريس بن عبد الله ولم يترك إلا حملا من أمة بربرية اسمها كنزة [11] فولدت له ولدا

---

[1] ابن الخطيب أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 190؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 100؛ الناصري، الاستقصاء، ج1، ص 155.

[2] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 16.

[3] ابن الخطيب، اعمال الاعلام ، القسم الثالث، ص 190؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 100؛ أنظر، مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 378.

[4] ابن الخطيب أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 190-191؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 101-102؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 19-20؛ أنظر، عبد الوهاب، قبائل المغرب، ص 115.

[5] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 100-101؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 16؛ أنظر، حسن إبراهيم، الدولة الفاطمية ، ص 43.

[6] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 190؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 101؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 20؛ انظر، سالم ، المغرب الكبير، ج2، ص 470.

[7] أنظر، عبد الوهاب، قبائل المغرب، ص 115.

[8] أنظر، مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 381؛ سالم، المغرب الكبير، ج2، ص 470.

[9] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 20.

[10] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 193-194؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 101؛ ابن أبي زرع، الانيس، ص 21-23؛ أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 198.

[11] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 160.

ذكرا سمي باسم أبيه (إدريس) [1] ، فكفله راشد مولى أبيه [2] . ولما أتم إدريس من العمر عشر سنوات جدد راشد البيعة له (وكان قد أخذها له وهو في المهد من شيوخ القبائل) [3] . ولقد قدر لإدريس الثاني هذا، أن يؤسس عاصمة جديدة للدولة في فاس سنة 193هـ/ 808م [4] . وقد ازدهرت فاس بعدوتيهما في عهد إدريس الثاني[5] ، واستقام ملكه بالمغرب وتوطد حكمه وكثرت جيوشه [6] ، ومثل عصره دور العظمة في تاريخ دولة الأدارسة[7] .

وما لبثت هذه الدولة أن انقسمت على نفسها وأصابها الانحلال بعد وفاته [8] عندما قسم ابنه محمد البلاد بين إخوته [9] ، ولم تكن الأحوال السياسية بالمغرب ملائمة في ذلك الوقت لهذه التقسيمات لأن الفاطميين كانوا على وشك القضاء على الدول التي كانت قائمة آنذاك[10] .

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الاعلام ، القسم الثالث، ص 195-196؛ ابن عذاري ، البيان، ج2، ص 101؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 25-27؛ انظر ، عبد الوهاب ، قبائل المغرب، ص 115.

(2) ابن الخطيب، أعمال الاعلام ، ص 196؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 160؛ أنظر، مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 383.

(3) ابن الخطيب، أعمال الاعلام ، القسم الثالث، ص 196؛ ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 27؛ أنظر، سالم، المغرب الكبير، ج2، ص 382.

(4) ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 199؛ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج2، ص 99؛ فاس: كانت مدينة فاس في القديم مدينتان يحيط السور بكل منهما ويفصل النهر بينهما ، وقد سميت إحدى العدوتين، بعدوة القرويين لنزول العرب الوافدين من القيروان بها، وقد أسست سنة 93هـ/ أما الأخرى فسميت عدوة الأندلسيين ، لنزول العرب الوافدين من الأندلس بها، وأسست سنة 192هـ (البكري، المغرب، ص 115؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 242؛ الناصري، الاستقصا ، ج1، ص 166)، وفيها العيون والمياه الجارية والبساتين الخضراء (الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص 243؛ القزويني، آثار البلاد، ص 102).

(5) أنظر ، مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 384.

(6) ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 199-201؛ ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 298؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 29؛ أنظر ، السامرائي، تاريخ المغرب العربي، ص 169.

(7) أنظر، السامرائي، تاريخ المغرب العربي، ص 170.

(8) أنظر، بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج2، ص 99؛ الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص 253.

(9) أبن الخطيب، أعمال الاعلام ، القسم الثالث، ص 202؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 299؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 51؛ أنظر، مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 385.

(10) أنظر، السامرائي، تاريخ المغرب العربي، ص 172.

واستمرت الدولة في حالة من الانحلال والضعف حتى سقطت فاس (عاصمة الدولة) بيد داعي الشيعة أبي عبد الله ، ثم انتهت بالقبض على آخر ملوكها الحسن الحجام سنة 311هـ / 923 م[1] ، وتأخرت بعدها بعض إمارات الأدارسة[2] ، حيث تم القضاء على دورهم السياسي نهائيا حينما قتل الحسن بن كنون سنة 375هـ/ 986 [3] .

وأما دور الأدارسة في خلفية العلاقات السياسية بين الأمويين والفاطميين ، فقد اقترن ذلك الدور بما آلت إليه الحالة السياسية لدولتهم ، بعد تمزقها وتشرذمها، عندها قسم محمد بن إدريس ، البلاد بين إخوته [4] ، وتباينت مواقف هؤلاء الأمراء إزاء بعضهم لبعض [5] . وبالتالي إزاء قطبي الصراع في المهدية وقرطبة ، بحيث يستحيل تحديد موقف واحد وثابت للأدارسة تجاه الخصمين معا[6] .

حيث وقفوا موقف المتردد، فتارة يؤيدون الفاطميين، وتارة أخرى يناصرون الأمويين حسب ما تتطلبه مصالحهم، وكانوا يهدفون من ذلك مجرد البقاء والاستمرار ، واسترداد وحدة دولتهم ، ومحاولة إعادتها إلى سابق عهدها[7] .

وبمعنى آخر، أن الأدارسة قد تعرضوا للخطرين معا، إذ أن الموقع الذي كانوا يشغلونه سواء في فاس والبصرة، أو في بلاد غمارة وحجر النسر أو سواحل المحيط، دخل ضمن ميدان الصراع في المنطقة الحيوية التي تنازع عليها الفاطميون والأمويون[8] . ولعل هذا الموقع هو الذي أضعف

---

[1] ابن الخطيب، أعمال الاعلام ، القسم الثالث، ص 212؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 302؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 80-83؛ أنظر، الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص 253-254.

[2] أنظر، الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، ص 254.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 94.

[4] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 202؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 299.

[5] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 145.

[6] أنظر، محمود إسماعيل، المرجع نفسه ، ص 149.

[7] أنظر، محمود إسماعيل، المرجع نفسه، ص 160.

[8] أنظر، محمود إسماعيل، المرجع نفسه، ص 160.

موقع الأدارسة وزاد من فرقتهم وتمزقهم إذ كان من المفروض عليهم لتحقيق وحدتهم السياسية أن يكابدوا " مملكتي هاشم وأمية" [1] . وعندما تعذر عليهم ذلك، تذبذبت مواقفهم بين كلا الطرفين لكسب ودهما، لذا أصبح شأنهم شأن بقية القوى المحلية بالمغرب الأقصى والذين استخدموا كاداة أو وسيلة غير مباشرة في الصراع الفاطمي والأموي.

وبادر الفاطميون إلى تجهيز حملة سنة 305هـ/ 918 م ، بقيادة مصالة بن حبوس وإرسالها إلى المغرب الأقصى ، ونجحت هذه الحملة في هزيمة يحيى بن إدريس بن عمر، ومحاصرته داخل مدينة فاس، ولم ينفك عن حصاره مصالة، حتى دفع له مبلغ من المال، وكتب ببيعته إلى الخليفة عبيد الله المهدي صاحب إفريقية[2] .

عاود مصالة بن حبوس خروجه إلى المغرب الأقصى مرة ثانية سنة 309هـ/ 921م ، ويبدو أن موسى بن ابي العافية ، قد استغل هذه الفرصة وأوغر صدر مصالة ، على يحيى بن إدريس، لما كانت بينهما من عداوة قديمة [3] ، ويفسر ابن أبي زرع تلك العداوة بقوله: " فكان موسى بن أبي العافية كلما أراد الظهور بالمغرب ، والاستبداد فيه غمره يحيى بن إدريس الحسني بشرفه وكرمه ودينه وعدله، وقطع عليه كل ما يريده ، فكان على قلبه منه حمل ثقيل"[4] . وعندئذ قبض مصالة على يحيى بن إدريس ودخل مدينة فاس، واستصفى أمواله وذخائره بها، بعد أن عذبه بشتى أنواع العذاب، ثم نفاه إلى مدينة أصيلة (أو أصيلا) [5] ، وولى على مدينة فاس ريحان الكتامي ، وعاد

---

[1] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 127.

[2] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 19؛ ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 80 ؛ انظر سابقا .

[3] أبن خلدون ، المصدر نفسه، ج4، ص 19؛ ابن أبي زرع ، المصدر نفسه، ص 80.

[4] الأنيس، ص 80.

[5] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 19؛ ابن ابي زرع ، الأنيس، ص 81؛ وحسب ابن أبي زرع ، أن يحيى أقام في مدينة أصيلة مع بني عمه مدة، ثم ارتحل يريد إفريقية ، وقبض عليه في الطريق موسى بن ابي العافية ، ومكث عنده في السجن بمدينة ألكاي مدة عشرين سنة ، وبعد خروجه من السجن قصد المهدية عاصمة الفاطميين ، ولما وصلها كانت ثورة أبي يزيد على اشدها، وكان آنذاك محاصرا للمهدية ، فمات بها يحيى سنة 332هـ (الأنيس، ص 81). في حين ذكر ابن خلدون ، أن يحيى مكث في سجن ابن أبي العافية ، مدة سنتين وكانت وفاته بالمهدية سنة 331هـ(العبر ، ج4، ص 19).

بعدها إلى إفريقية[1] .

عادت فاس بسرعة لطاعة الأدارسة ، عندما ثار بها الحسن الحجام سنة 310هـ/ 923م، وقتل عامل الفاطميين عليها، وهو ريحان الكتامي[2] ، ولكن الحسن لم يلبث ، أن تغلب عليه موسى بن ابي العافية ، واسترد مدينة فاس [3] ، وأجلى الأدارسة من فرع بني محمد بن القاسم بن إدريس إلى الريف " فنزلوا البصرة ، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم أخي الحسن وولوه عليهم" [4] . وأما فرع بنو عمر بن إدريس فقد التجئوا إلى تيجاس [5] ، بينما لاذ آل سليمان بأرشقول[6] .

وعلى أية حال، فإن حملات الفاطميين إلى المغرب الأقصى حققت السبق في إجبار الأدارسة العلويين ، لإعلان الطاعة والولاء للخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي. وفي نفس الوقت تنفي تلك الحملات ، ما ذهب إليه ابن حيان حينما اعتقد أن ولاء أمراء الأدارسة للفاطميين كان " نصرا للعصبية وإغماضا على الدنية ، وإبعادا في الأذية ، وانحرافا عن هوادة بني أمية ، للأحقاد القديمة"[7] . كما أن عداء الأدارسة للفاطميين كان أكثر حدة من عدائهم لأمويي الأندلس[8] . ولم تكن مواقفهم من هؤلاء أو أولئك إلا لخدمة طموحاتهم، وضمان استمرارهم، حتى يتمكنوا من استرداد نفوذهم المفقود[9] .

---

[1] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 81.

[2] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 213؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 126.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 83.

[4] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 19.

[5] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج4، ص 20.

[6] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة ، ص 165.

[7] المقتبس، شالميتا، ص 262.

[8] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 165.

[9] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 165.

وبالمقابل ، فإن الدبلوماسية الأندلسية سارعت إلى ارض العدوة المغربية ، لكسب ود القوى المحلية هناك ، حالما استقرت الأوضاع الداخلية للخليفة الناصر الاموي، وذلك عندما بعث برسوله محمد بن عبيد الله بن ابي عيسى ، سنة 316هـ/ 928م، لدعوة أمراء الأدارسة وزناتة للدخول في طاعته [1] . وقد لاقت هذه الدعوة قبولا لدى بعض أمراء الأدارسة ، حيث كتب إدريس بن إبراهيم السليماني ، أمير أرشقول ، إلى الخليفة الناصر ، يعلن الدخول في طاعته ، في نفس العام المذكور، وأرفق مع كتابه هدية قيمة ، فقبلها الناصر، وكافأه بدلا عنها أضعافا[2] .

ويبدو ، أن ولاء الأمير الأدريسي لقرطبة ، قد أحدث صدى واسعا بين صفوف بقية أمراء الأدارسة بالمغرب الأقصى ، والذين خشوا التعرض لمواجهة القوات الفاطمية ، التي كانت ترتاد المنطقة بصورة متجددة، ولذلك، عارضوا فعل ابن عمهم في موالاته للأمويين ، وناصبوه العداء وتبرأوا منه، فكتب إدريس بن إبراهيم سنة 317هـ/ 929م، إلى حاجب البلاط الأموي ، موسى بن محمد بن حدير، يشتكي له، ردة فعل أبناء عمومته بقوله : " فلما أن نجاني الله من ضلالته ، وعصمني بولاية أمير المؤمنين سيدي ، وحباني بمحبته، تسامع بذلك بنو عمي وبلغهم ما صنعته في ذاته، أيده الله، فتبرؤوا مني وتمالأوا علي، ورموني عن قوس واحدة، وقالوا ليس هذا الرجل منا، إذ فارق دعوته إلى ضدها، وخرج من عترة علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، إلى عداتها وعادى أهل بيته، واستحاش عليها بصاحب جزيرة الأندلس شانئنا، وذلك شيء لم يرض به قط أحد من أهل بيته، ولا فعله جده ولا أبوه فصاروا لي حربا وآذوني جدا، وإنما الباعث لهم على ذلك ، والمتوكل بتأليبهم علي محمد بن إدريس وابن أخيه الحسن بن عيسى المعروف بابن ابي العيش، الإدريسيان... من أجل ولايتهما للداعي الشيعي ، من لا اصل له ولا خير فيه، حمية جاهلية وعصبية مردية..."[3] .

---

[1] ابن خلدون، العبر ، ج7، ص 29.

[2] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 262-263.

[3] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 264.

ولكن مضمون هذا النص، الذي يبين أن رفض الأدارسة لموالاة الأمير إدريس بن إبراهيم للأمويين ، كان نتيجة لعدم القبول بمبدأ الدعوة الاموية السنية، ولما بين البيتين الأموي والهاشمي من أحقاد قديمة متأصلة في نفوس هؤلاء الأدارسة ، لم يكن سوى تسجيل موقف لهم عند الخليفة عبيد الله المهدي، في اللحظة التي كان يستطيع بها ضربهم في معاقلهم ؛ إذ سرعان ما تغير هذا الموقف عندما شعروا أن مصلحتهم تقتضي موالاة الخليفة الناصر والذي تطورت الأوضاع السياسية في العدوة المغربية لصالحه حيث أصبح موسى بن أبي العافية ، أمير مكناسة ، ومحمد بن خزر أمير زناتة يدينون له بالولاء والطاعة ، وأن الخطر الذي يمكن أن يتعرض له هؤلاء الأدارسة من الأمويين احتماليته أكثر من خطر الفاطميين.

وبسبب انقلاب ميزان القوة في العدوة المغربية لصالح الأمويين ، تدافع الأمراء الأدارسة ، لإعلان الطاعة والولاء للخليفة الناصر، ففي سنة 317هـ/ 929م، أعلن القاسم بن إبراهيم الحسني، الدخول في طاعته ، والاعتصام بولايته بواسطة كتابه الذي وصل إلى قرطبة ، وأرفقه بهدية ، فأجابه الناصر بالقبول وكافأه على هديته[1] .

ثم توالت كتب ووفود، أمراء الأدارسة في العدوة المغربية، بالوصول إلى بلاط الأمويين بقرطبة، طالبة ودهم والدخول في طاعتهم ، ومن ذلك أن الحسن بن عيسى الحسيني ، أرسل كتابا على رأس وفد، إلى الخليفة الناصر سنة 318هـ/ 930م، يعلن فيه الدخول في طاعتهم . وكان الوفد يحمل معه هدية تتكون من عدة خيول عتاق، وعدة جمال بكامل زينتها مخصصة لمواكب الملوك، ونخبة من الضأن المجلوبة من أرض السودان وغزالان وثمانية من النعام، فأجابه الناصر بالقبول، وألحقه بأهل طاعته، وكافأه على هديته[2] .

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 265.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 265.

ولم يلبث أن تغير موقف أمراء الأدارسة تجاه الخليفة الناصر، على أثر استيلائه على مدينة سبتة سنة 319هـ/ 931م [1] ، وذلك حينما وجه إليها أسطولا بحريا بقيادة أمية بن اسحق القرشي عامله على مدينة الجزيرة الخضراء فدخلها بدون مقاومة [2] ، وكان صاحبها " الرضى بن عصام رئيس مجكسه... يقيم فيها الدعوة للأدارسة" [3] ، فلما سمع إبراهيم بن محمد الحسني، بما حصل لسبتة، عظم عليه الأمر ، وبحكم قرب موقعه من المدينة ، بادر في الخروج إليها، بمن معه من إخوته ورجاله وبعض قبائل البربر، وحاولوا استردادها ، ولكن جيش الخليفة الناصر وبمساعدة أهالي المدينة له، منع الأدارسة وحلفاؤهم من دخولها وصدهم عنها، وأجبرهم على العودة إلى إدراجهم مخذولين[4] .

وفكر الأدارسة من فرع بني محمد ، بطريقة للتخلص من الموقف الحرج الذي وضعوا أنفسهم فيه، وذلك خوفا من ردة فعل الأمويين ضدهم، ولذا ، بادروا بمكاتبة الخليفة الناصر سنة 319هـ/931م، يعتذرون له عن هذه الغلطة ، ويلقون باللوم والمسؤولية على عاتق قبائل البربر في غزو مدينة سبتة [5] ، ويسوغون له في نفس الوقت، سبب خروجهم إليها، بأنه كان بناء على زعم البربر ، من أن عامل الجزيرة الخضراء قد قدم إلى المدينة دون إذن أو علم من الخليفة الناصر، وأنهم عندما تأكدوا من عدم صدق البربر، حينما طلبت القوات الأموية المحاصرة في داخل المدينة منهم، الكتابة للخليفة الناصر ومعرفة حقيقة الأمر منه، فحينئذ عملوا على فك الحصار، وطلبوا من البربر أن يحذوا حذوهم ، حتى يأتي الرد عليهم من قبل الخليفة الناصر، كما أكدوا له في رسالتهم تلك، تجديد الطاعة والولاء[6] .

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص290.

[2] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 148.

[3] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 146؛ أنظر، الناصري، الاستقصا، ج1، ص 82.

[4] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 290-291.

[5] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 290-291.

[6] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 293؛ أنظر نص رسالة بني محمد الأدارسة للخليفة الناصر سنة 319هـ/ 931م، في الملحق رقم (5).

ولما كان الخليفة الناصر يحرص ، قدر الإمكان في الابتعاد عن الاصطدام المباشر مع حلفائه وأعوانه الموجودين في العدوة المغربية ، فلم يكن بوسعه عندئذ ، إلا أن أظهر تصديق بني محمد الأدارسة ، فيما ادعوه ، وقبل عذرهم ، كما أنه كان يحرص أيضا على استصلاحهم ، وامتصاص غضبهم ، بعد خروج سبتة عن طاعتهم ، ويسعى لصلة الأرحام معهم ، وتعزيزا لقبول عذرهم ، أوفد إليهم رسوله محمد بن عبد الله بن ابي عيسى ، قاضي جيان ، والذي كان يحضى بثقتهم ، نتيجة تكراره عليهم في أكثر من مناسبة ، واستطاع القاضي محمد التلطف بهم، وتهدئة روعهم ، وأخذ البيعة منهم للخليفة الناصر ، وأقنعهم بقبول الجيش الأموي وبقائه بمدينة سبتة [1] .

واستغل الأدارسة من فرع بني عمر بن إدريس، موقف أبناء عمومتهم من فرع بني محمد، أثناء معارضتهم القائد الأموي عند احتلاله سبتة، وحصارهم له في داخل المدينة ، فقام حينئذ زعيمهم إبراهيم بن إدريس بن عمر، ومن معه من إخوته وبني عمه، بمناصرة الجيش الأموي المحصور، والوقوف إلى جانبه حتى تخلص من حصاره، ويعزى سبب موقفهم هذا، لما بين الفرعين من المنافسة، ثم أن بني عمر كانوا قد أعلنوا الطاعة والولاء للخليفة الناصر، والتبرؤ من فعل بني محمد، ومنابذتهم لهم " فأظهر الناصر لدين الله قبول ما ازدلفوا به، وإخماد أثرهم فيه، ومال إلى استكفافهم عن القطيعة في ذاته واستلال سخائهم على بني عمهم بالتأليف عليه، وحضهم على إصلاح ذات بينهم لما قبله من معذرتهم وآثره من صلة أرحامهم ، فسكن بذلك الثائرة بينهم"[2] .

كان هذا الموقف لبني عمر بن إدريس، ضد أبناء عمومتهم ، استجابة لرسالة الخليفة الناصر، التي وصلت إليهم في أواخر ربيع الأول من سنة 319هـ/ 931م، وقد أطلع فيها على

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 291.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 294-295.

تطورات الأحداث التي جرت في العدوة المغربية [1] . ولكن بني عمر بن إدريس بعثوا من جهتهم رسالة إلى الخليفة أكدوا فيها سرورهم وابتهاجهم باحتلال قواته مدينة سبتة ، وذكروه في مسارعتهم ببيعته، كذلك نددوا ببني عمهم من بني محمد، وأبدوا له في نفس الوقت تخوفهم منهم بقولهم: " ولا نأمن سلطان بني عمنا بني محمد المباينين لنا، إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه، الذين زحفوا إلى من بسبتة من جنده المنصورة، إذ هم أهل الإنكار لدعوته والدفع لبيعته والكراهة لدولته والمناهضة بالعداوة لجنده، وكنا معشر ولد عمر، على خلاف ذلك من الصغوا له، أيده الله، والميل إليه والاعتراف بحقه" [2] .

وتابع بنو عمر إبراز مواقفهم للخليفة الناصر، في حادثة احتلال سبتة في رسالتهم السابقة، حيث أظهروا له مدى مساعدتهم لعامله، أثناء حصاره عن طريق الكتب التي وصلت إليه من قبلهم، والتي تعبر في مضمونها، عن مناصرتهم له، وتشد من أزره، وتهدئ من روعه ، ثم أكدوا للناصر خروجهم بأنفسهم إلى سبتة لفك الحصار عنه، ولم يثنهم عن قصدهم إلا ورود كتاب العامل عليهم، يذكر فيه مصالحته مع بني محمد، ويمكن إجمال موقفهم هذا، بقولهم : " وكتبنا متواترة على العامل (على سبتة) بما يشد أزره، ويقوي نفسه، ويفرج قلبه من الظهور على من جاش به، والفض لمن تألب عليه، إلى أن جاءنا كتابه بخبر مسالمته لأولاد محمد، أضدادنا ، يوم السبت لثمان خلون من جمادى الأولى ، وإنما كان بيننا وبين سبتة يومئذ نحو بريد ... فلم يمكننا التمادي على رأينا في الحرب، إذ قد سالم عامله وأمينه" [3] .

ومن المحتمل ، أن ما أظهره الأدارسة من فرع بني عمر ، من مبالغة في إظهار مواقفهم الإيجابية إزاء الخليفة الناصر، في رسالتهم إليه، كان للاستئثار بكسب وده ورضاه ، دون غيرهم من حلفائه في العدوة المغربية وبخاصة أبناء جنسهم من بقية فروع الأدارسة ، حتى يوسع عليهم

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 295.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 295.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 295.

من توليتهم المناصب، وزيادة رقعة أملاكهم ، وإغداق الأموال عليهم ، وقد جاء هذا المطمع على لسانهم بقولهم" فليعلم أمير المؤمنين ، أيده الله، حق انقطاعنا إليه ومسارعتنا إلى إجابة داعيه قبل ذي روح ببلدنا، ولينفعنا ذلك عنده، ولكل عمل ثواب، ولا بد لكل عامل أن ينفعه عمله لدنياه وأخراه" [1] .

ولعل هذه المطامع لدى بني عمر ، وما سبقها من مبالغة في إعلان الطاعة والولاء للناصر، هي التي دعت ابن حيان إلى القول أن بيعتهم التي بعثوا بها إليه، مع رسالتهم السابقة والمؤرخة في شهر رجب من سنة 319هـ/ تشرين أول سنة 931م ، بأنها " مستوفاة مؤكدة" [2] . ولما كانت تحويه هذه البيعة أيضا من مبايعة أهم رؤسائهم له، وهم إبراهيم ، وعيسى ، وأبو العيش، بنو إدريس بن عمر، وابن عمهم يحيى بن محسن بن محمد بن القاسم، إضافة إلى مبايعة زعماء قبائل غمارة الموالية لهم[3] .

كانت وثيقة المبايعة التي وقعت بين بني محمد الأدارسة ورسول الخليفة الناصر ، محمد بن عبد الله بن أبي عيسى في آخر جمادى الآخرة سنة 319هـ/ أيلول سنة 931م، على خلفية أحداث سبتة، بمنزلة معاهدة جاءت نصوصها خفيفة الشروط بين الطرفين ، حيث تعهد بنو محمد من جانبهم بمناهضة أعداء الأمويين ، ومناصرة حلفائهم ، وإقامة الدعوة لهم على منابر أعمالهم بالمغرب الأقصى ، وعلى أن يتعهد عامل سبتة الأموي لهم، عدم قبول الهاربين من رعاياهم إليه، وأن لا يدخلهم المدينة أو يوفر الحماية لهم[4] .

ولكن عامل الأمويين ، نقض هذه المعاهدة مع بني محمد ، وذلك حينما استقبل بعض الهاربين من رعاياهم إليه، وعندما كلموا رسول الناصر ، محمد بن عبد الله، الذي كان قد عقد

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 297.

[2] المقتبس، شالميتا، ص 297.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 297؛ وحسب ابن خلدون ، أن بني عمر بن إدريس كانوا " يومئذ بغمارة من لدن تيجاس إلى سبتة وطنجة" (العبر، ج4، ص 20).

[4] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 297-298 ؛ انظر سابقا .

المعاهدة معهم، بشأن إعادة هؤلاء الرعايا إليهم، لم يجب مطلبهم ، بحجة استطلاع رأي الخليفة في البداية ، فبعث بنو محمد حينئذ ، برسالة إلى الخليفة الناصر، تضمنت شكوى لهم، ضد عامل سبتة، بسبب عدم التزامه ببنود المعاهدة ، ومما جاء فيها: " ثم لم يلبث (أي عامل سبتة) أن داس بالعهد واستدعى قوما من رعيتنا، يقال لهم بني وامضة، أتوه فآواهم إليهم بعد عهدنا، وكلمنا الأمين محمد بن عبد الله في ردهم إلينا، وفاء بشرطنا ، فتثاقل عن ذلك ، ودعا إلى استطلاع رأيك يا أمير المؤمنين ... وإنما رجونا... في الكتاب إلى عامله بسبتة في تغيير هذا الفعل والتوفق عنه، فإن في ذلك صلاح الخاصة والعامة "[1] .

وتنصل بنو محمد الأدارسة ، من طاعة الأمويين[2] ، على أثر الحملة العسكرية التي أرسلها الفاطميون إلى المغرب الأقصى سنة 321هـ/ 932م [3] بقيادة حميد بن يصل[4] ، والتي استطاعت أن تعيد للعلويين شيئا من نفوذهم حينما استولت على تلمسان وجراوة وفاس[5] .

ولم يكتف الأدارسة إلى حد خلع طاعة الأمويين، بل حشدوا قواتهم وقصدوا مدينة أصيلا، التابعة للأمويين، وحاولوا الاستيلاء عليها، ولكن أهالي المدينة ، ممثلين بوجهائها ورؤسائها ، أمثال إبراهيم بن العلاء، وعلوان بن سواقة، استطاعوا صد الأدارسة عن المدينة ، وإلحاق الهزيمة بهم، ثم راسلوا الخليفة الناصر لدين الله ، وطلبوا منه، إنفاذ قوة عسكرية ومجموعة رماة إليهم، لحماية المدينة من خطر الادارسة ، فاستجاب الناصر لطلبهم ، وأمر محمد بن أصبغ ، عامل سبتة، بمساعدتهم ، وإرسال القوة إليهم[6] .

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 298.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 298.

[3] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 137؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 188.

[4] ابن القاضي، جذوة الاقتباس ، ج1، ص 342؛ إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 232.

[5] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 166.

[6] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 325-326.

وبالمقابل ، فقد راسل الأدارسة الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي، فأنفذ حملة يقودها ميسور الفتي الذي تمكن من اقتحام مدينة فاس، بعد هزيمة موسى بن أبي العافية إلى الصحراء ، وأورث الأدارسة أملاكه[1] ، ويشير ابن أبي دينار إلى ذلك بقوله: " ورجع بنو إدريس إلى غالب بلادهم ما عدا فاس وتمسكوا بدعوة الشيعة" [2] .

ولم تستقر أمور الأدارسة عقب رحيل ميسور إلى إفريقية ، حيث بقيت فاس خارج أعمالهم ، كما أنهم لم يتمكنوا من استرداد أصيلا، فعادوا للتقوقع في حجر النسر [3] . ولم يجدوا محيدا عن الكتابة إلى الناصر يؤكدون تنصلهم من التبعية الفاطمية ويعلنون له الطاعة [4] ، وبخاصة أن موسى بن أبي العافية ، كان قد كتب إلى الخليفة الناصر سنة 324هـ/ 934م، اشتكى له موقف الأدارسة من فرع بني محمد، ومساندتهم للفاطميين ، ولذلك أرسل زعيمهم إبراهيم بن محمد الحسني ، رسالة للناصر ، برر فيها موقفهم ، ووصف " أن الذي كان منهم من مداهنة المشارقة (الفاطميين) لضرورة شديدة ضمتهم إلى ذلك، استدفعوا به مكروههم ، واستكفوا به شرهم وذادوا به عن حرمهم ونعمهم، وأنهم صيروا دليلهم على صحة ما ذكروه من ذلك رغبتهم في مسالمة موسى بن أبي العافية ، ولي أمير المؤمنين ، والتماسهم مؤالفته على طاعته مطرحين الأحقاد بينهم وبينه ، على فرط ما نالهم من ضره، وشملهم من خوفه ، فأجيبوا إلى ما يوافقهم من ذلك عند ظهور ثباتهم عليه"[5] .

استغل الأدارسة اضطراب الأحوال الداخلية ، للدولتين الأموية والفاطمية سنة 325هـ/ 935م، وحاولوا استعادة نفوذهم بالمغرب الأقصى [6] ، فبينما نجح الأدارسة السليمانيون في

---

[1] البكري، المغرب، ص 128؛ أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 167.

[2] المؤنس، ص 126.

[3] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 167.

[4] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 390.

[5] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 390.

[6] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 167.

استرداد جراوة وتلمسان [1] ، كان الأدارسة من بني محمد بقيادة القاسم بن كنون (أو جنون) [2] ، قد زحفوا من قلعة حجر النسر، لاستعادة مدينة أصيلا، ولما استنجد أهلها بموسى بن أبي العافية، اعتذر منهم قائلا " اكتبوا إلى أمير المؤمنين ، فأنا وأنتم رعيته وتحت طاعته"[3] .

ولم يتوان عندئذ ، أهل مدينة أصيلا عن الكتابة إلى الخليفة الناصر، لطلب النجدة منه، ضد بني محمد الأدارسة ، فأوعز بدوره إلى عامل سبتة بمساعدتهم ، ثم أرسل إليهم الرماة والأنجاد من الأندلس، ولما اتصل الخبر ببني محمد حشدوا الجيوش على مدينة أصيلا، وحاصروها مدة أربعين يوما، فخاف وجوه أهلها فجازوا إلى الأندلس ، ثم تمكن بنو محمد من دخولها سنة 326هـ/ 936م، وأمنوا من بقي بها من أهلها، وعاد من جاز إلى الأندلس إليها[4] .

لذلك، أنفذ الخليفة الناصر، حملة عسكرية بقيادة قاسم بن محمد ، إلى المغرب الأقصى سنة 333هـ/ 943م[5] ، نجحت في إخضاع أدارسة تيجاس من بني عمر بن إدريس، لطاعة الناصر[6] في حين لم تنجح في الحد من نفوذ أدارسة حجر النسر من بني محمد، بزعامة القاسم بن كنون الذين وجهوا جيوشهم صوب سبتة وطنجة وتيجاس[7] .

---

[1] ابن حيان ، المقتبس، شالميتا، ص 386.

[2] ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 87.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 235.

[4] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 234-235؛ حسب ابن حيان أن الخليفة الناصر، قد أرسل طبيبه سليمان بن عبد الملك المعروف بابن باج، لعلاج أحد أمراء الأدارسة ، وسمح له أن يحمل معه من خزائن قرطبة كل أنواع الأدوية والأشربة والعقاقير التي تساعده في علاج الأمير الإدريسي ، ونجح ابن باج في مهمته ، بعد أن عجز عنها الاطباء الذي أشرفوا على علاج هذا الأمير قبل مجيئه (المقتبس، شالميتا، ص 461).

[5] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 211.

[6] أنظر ، محمود إسماعيل، الادارسة ، ص 168.

[7] أنظر ، محمود إسماعيل، المرجع نفسه، ص 168.

وبعد أن توفي القاسم بن كنون سنة 337هـ/ 947م[1] ، واصل ابنه أحمد أبي العيش ، سياسة أبيه في التوسع وتمكن من ضم مدينة فاس[2] . ثم قرر بمساعدة أبناء جنسه بني محمد، إعادة بناء مدينة تيطاون سنة 331هـ/ 948م، ولكن أهل مدينة سبتة ضجوا من بنائها ، بحجة أنها تلحق الضرر بمدينتهم ، وتقطع عنها مرافقها، ولذلك عجل الخليفة الناصر ، بتجهيز حملة سنة 341هـ/ 952م ، بقيادة أحمد بن يعلى ، وأمره بالتوجه إلى سبتة ، كما أمر قائده الآخر حميد بن يصل الذي كان واليا على تيجاس بالتقدم إليها أيضا، ولما اجتمع الجيشان بسبتة ، لمحاربة بني محمد أرسل حميد بن يصل إلى بني محمد، علي بن معاذ، يطلب منهم ، تغيير موقفهم بشأن بناء المدينة، فأجابوه إلى التخلي عن مدينة تيطاون[3] ، وقبلوا هدمها [4] ، ثم بعثوا بأبنائهم رهائن إلى قرطبة لإثبات حسن نواياهم [5] .

واستطاع أحمد أبي العيش، من استرداد مدينتي طنجة وسبتة لطاعة الأدارسة، وقطع الدعوة في سائر أعمالهم للفاطميين ، وجعل الخطبة على منابره للأمويين، ولكن الخليفة الناصر، لم يقبل منه تلك الدعوة، إلا بعد إعادة سبتة وطنجة لأملاك الدولة الأموية، وعندما امتنع أبو العيش من ذلك، بعث إليه الناصر حملة عسكرية، ضيقت عليه الخناق، وأجبرته على التنازل عن سبتة وطنجة، وانزوى أبو العيش ، بمن معه من أدارسة بني محمد، بمدينة البصرة وأصيلا تحت الطاعة الاموية [6] .

ويرى ابن أبي زرع أن أبا العيش لما رأى تغلب القوات الأموية على المغرب الأقصى ، وتقلص نفوذه به، كتب إلى الخليفة الناصر ، يستأذنه بالعبور إلى الأندلس ، لغرض الجهاد، وعندما

---

[1] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 87؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 126.

[2] ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 88.

[3] البكري، المغرب، ص 130-131.

[4] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 216.

[5] البكري، المغرب، ص 131.

[6] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 88.

أذن له في العبور ، استخلف أبو العيش ، على أعماله أخيه الحسن بن كنون، وظل بالأندلس يجاهد الروم، حتى مات سنة 343هـ/ 955م[1] .

واستمر الحسن بن كنون على نهج سياسة أسلافه من الأمراء الأدارسة الذين تذبذب ولاؤهم بين الفاطميين والأمويين، حسب قوة نفوذ طرفي الصراع في المغرب الأقصى ، فبينما كان الحسن ابن كنون يقيم علاقات ودية مع الأمويين [2] ، بادر إلى نكثها والدخول في طاعة الفاطميين حينما أنفذ الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، حملة كبرى من كتامة وصنهاجة إلى المغرب الأقصى، لتأديب قبيلة زناتة، وأسند قيادتها إلى جوهر الصقلي ، وذلك سنة 347هـ/ 958م[3] ، ولما رجع جوهر إلى إفريقية [4] ، في أواخر سنة 349هـ/ 960م [5] ، عاد الحسن إلى طاعته لبني أمية [6] .

ولما توفي الخليفة الناصر، بايع الحسن لولده الحكم المستنصر الذي استلم الحكم بعده [7] ، وما أن شعر الأدارسة بالخطر الفاطمي ، الذي بدا يهددهم في عهد الحكم، حتى سارعوا إلى تعزيز طاعتهم للأمويين . وذلك عندما وصل إلى قرطبه سنة 356هـ/ 966م ، رسولان من طرفهم ، أكدا للحكم المستنصر صدق مشاعرهم تجاهه، وجدد له البيعة ، فأكرم الحكم الرسولين، وأجابهما إلى مسعاهما[8] .

توالت رسل بني محمد الأدارسة ، بالتوافد إلى قصر قرطبة ، حيث وصلت سفارة إلى البلاط الأموي سنة 360هـ/ 970م، مؤلفة من عيسى بن محمد، ومحمد بن العالي، وحسن بن علي، أعلنوا

---

[1] الأنيس، ص 88-89؛ ولكن محمود إسماعيل يرى أن أحمد أبي العيش قد حمل كرها إلى الأندلس، لوضع حد لمناوراته على الأمويين (الأدارسة، ص 168).

[2] ابن أبي زرع، المؤنس، ص 127.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 89-90.

[4] أبن أبي دينار، المؤنس، ص 127.

[5] أنظر، عنان ، دولة الإسلام ، ج2، ص 492.

[6] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 127.

[7] ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 91؛ أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 492.

[8] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 239-240.

الطاعة والولاء للحكم، وطلبوا منه في نفس الوقت العون والمساعدة ، تحسبا منهم لقدوم حملة عسكرية، وشيكة من قبل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، وقد حملت هذه السفارة معها ، هدية قيمة، مكونة من مجموعة من الخيل والجمال، وغير ذلك فقبلها الحكم منهم[1] .

ولكن الحكم المستنصر، تردد في تقديم المساعدات اللازمة للأدارسة ، وذلك بسبب انشغاله في مشاكله الداخلية [2] ، ولذلك لم يتوان الحسن بن كنون عن الانضمام، إلى طاعة الفاطميين ، حينما قدم بلكين بن زيري الصنهاجي، قائد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، إلى المغرب الأقصى ، للأخذ بثأر أبيه، الذي قتل في حربه مع زناتة[3] ، وكانت هذه الطاعة –فيما يبدو- دفعا لخطر بلكين، وضمان سلامة جانبه، في حين يفسر ابن أبي زرع ، تصرف الحسن هذا، بأنه لم يكن مقتنعا منذ البداية بولائه للأمويين ، ولم تكن طاعته لهم سوى خوف منهم لا محبة فيهم، بسبب قرب بلاده من الأندلس[4] ، ولهذا ، كان الحسن أول من سارع إلى بيعة بلكين ونصرته، وقتل أتباع الأمويين وقطع دعوتهم بالمغرب الأقصى [5] .

ويجب التأكيد هنا، أن سياسة الحسن بن كنون، هي جزء من سياسة أسلافه الأدارسة والذين توقف ولاؤهم سواء للفاطميين أو للأمويين على قوة نفوذ أحد قطبي الصراع في المغرب الأقصى، دون الأخذ باعتبارات الولاء المذهبي أو الولاء الصادق لكلا الطرفين، تكريسا لسياستهم القائمة في الحفاظ على استمرار كيانهم السياسي ومراعاة مصلحتهم العامة.

ويظهر أن موقف الحسن بن كنون المؤيد للقائد الفاطمي بلكين قد أثار غضب الخليفة الأموي الحكم المستنصر ، ولذلك ، ما أن عاد بلكين إلى إفريقية ، حتى أعد الحكم جيشا بقيادة محمد بن القاسم، وأرسله لقتال الحسن بن كنون، وذلك في شهر ربيع الأول سنة 362هـ/ حزيران سنة

---

[1] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 240.

[2] أنظر، محمود إسماعيل، الادارسة ، ص 170.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 91.

[4] الأنيس ، ص 91.

[5] ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص 91.

972م ، فزحف الحسن في قبائل البربر لقتاله، والتقى به في موضع قرب طنجة يعرف بفحص بني مصرخ، ودارت بينهما حرب شديدة ، وقتل فيها محمد بن القاسم قائد القوات الأموية ، وقتل معه عدد كبير من أصحابه ، وفر الباقون إلى سبتة، وتحصنوا بها، وكتبوا إلى الحكم المستنصر، يستغيثون به، ويطلبون منه المدد السريع[1] .

كان نبأ هزيمة الجيش الأموي، شديد الأثر في نفس الخليفة الحكم وجاءت ردة فعله قوية على الأدارسة بالمغرب الأقصى ، حيث جهز جيشا جديدا ، بقيادة مولاه غالب، الذي يعد من أمهر قواده، وأكثرهم حزم ودهاء، وأمده بالأموال، وأمره بقتال الأدارسة، واستنزالهم من معاقلهم ، وقال له لحظة وداعه " يا غالب سر مسير من لا أذن له في الرجوع ، إلا حيا منصورا ، أو ميتا معذورا، ولا تشح بالمال ، وابسط يدك به يتبعك الناس"[2] .

خرج القائد غالب من قرطبة ، بعد أن تلقى تعليماته من الخليفة الحكم الأموي في آخر شوال سنة 362هـ/ كانون ثاني سنة 972م ، لقتال الأدارسة بزعامة الحسن بن كنون، ولما اتصل خبر قدومه بالحسن ، خاف منه، وانتقل بأهله وأمواله من مدينة البصرة إلى حصن حجر النسر، القريب من سبتة، واتخذه معقلا له لمناعته، ولما وصل غالب إلى قصر مصمودة، توجه الحسن للقائه بمن انضم إليه من قبائل البربر، ودارت حرب شديدة بينهما ، وحينما تكافأ الطرفان، لجأ غالب إلى استمالة رؤساء القبائل ، عن طريق بذل الأموال عليهم ، فتخلوا عن الحسن ، حتى لم يبق معه إلا خاصته وبعض رجاله، مما اضطره إلى ترك القتال، والهرب إلى حصن حجر النسر، والتحصن به، ضد الجيش الأموي، الذي لاحقه إلى هناك[3] .

أقام غالب قائد الأمويين بالمغرب الأقصى ، محاصرا للحسن بن كنون، بحصن حجر النسر، وتمكن من قطع الموارد عليه ، ثم لم يلبث أن أمده الخليفة الحكم بعرب الأندلس، ورجال الثغور،

---

[1] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 91.

[2] ابن ابي زرع ، المصدر نفسه، ص 91-92.

[3] ابن ابي زرع، المصدر نفسه، ص 92.

وذلك في غرة المحرم سنة 363هـ/ نيسان سنة 973م ، فاشتد الحصار على الحسن، واضطر إلى طلب الأمان من غالب ، لنفسه وأهله وماله ورجاله ، مقابل أن يسلم له الحصن، وأن يذهب معه إلى قرطبة ويسكن فيها بأمان، فوافق غالب على هذه الشروط ، وعاهد الحسن عليها، ودخل غالب بذلك الحصن، وقبض على بقية رؤساء الأدارسة بالعدوة المغربية ، بعد أن استولى على مدينة فاس، وولي محمد بن علي بن قشوش على عدوة القرويين ، وعبد الكريم بن ثعلبة على عدوة الأندلس، وقد ظلت فاس تحت طاعة بني أمية ، حتى استولى عليها، زيري بن عطية المغراوي[1] .

وعلى أية حال، فقد عاد غالب إلى الأندلس، وبرفقته الحسن بن كنون وجميع رؤساء الأدارسة بالعدوة المغربية ، بعد أن وطد حكم بني أمية بالمغرب الأقصى ، وقطع دعوة الفاطميين فيه، وكان وصوله إلى قرطبة في مطلع شهر محرم سنة 364هـ/ أول نيسان سنة 974م ، وعفا الخليفة الحكم عن الحسن ورجاله، الذين قدروا بسبعمئة رجل، وأغدق عليه الأموال وأسكنه قرطبة[2] .

وهكذا ، استطاعت الحملة الأندلسية من استئصال شأفة الأدارسة ببلاد الريف [3] ، وتحويل أتباعهم من المذهب الزيدي إلى المذهب المالكي[4] .

ظل الحسن بن كنون في الأندلس، إلى أن تمكن من الهرب منها سنة 365هـ/ 976م ، ونزل ببلاط بني زيري في إفريقية ، ثم توجه بعدها إلى مصر [5] ، وهناك اتصل بالخليفة الفاطمي العزيز بالله ، وطلب مساعدته في استعادة نفوذه بالمغرب الأقصى [6] ، وبالفعل أمر الخليفة نائبه على

---

[1] ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص 92.

[2] ابن ابي زرع، المصدر نفسه، ص 92-93.

[3] أنظر ، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 497.

[4] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 170.

[5] ابن أبي زرع ، الانيس، ص 93؛ وقيل أن الحكم المستنصر هو الذي أمر بطرده هو وأصحابه من الأندلس، لتوفير ما ينفق عليهم من نفقات باهظة (ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص 93)؛ أنظر ، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 171 هامش 7).

[6] أبن ابي زرع، المصدر نفسه، ص 93.

إفريقية بلكين بن زيري بإنفاذ حملة إلى المغرب الأقصى سنة 373هـ/ 984م[1] على أن يصطحب معه الحسن بن كنون ليعمل على " تعكير الجو وإقامة العراقيل أمام بسط السيادة الأموية"[2] .

وصلت الحملة العسكرية إلى المغرب الأقصى ، على رأس جيش يقدر بثلاثة آلاف فارس، وتمكن الحسن بن كنون خلالها من كسب قبائل البربر إلى جانبه [3] وخاصة بني يفرن الزناتيين[4] . ولما اتصل خبر الحملة بالمنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد ، أسرع في إرسال الوزير أبي الحكم عمر بن عبد الله بن أبي عامر، بجيش كبير، إلى المغرب الأقصى ، لقتال الحسن ابن كنون [5] ، وقد وافق في تلك الأثناء وفاة بلكين المفاجئة وتراجع حملته إلى إفريقية [6] ، ولذلك بادر الوزير أبو الحكم إلى حصار الحسن بمساعدة زيري بن عطية المغراوي [7] ، وعززه المنصور بن ابي عامر ، بجيش آخر بقيادة ولده عبد الملك المظفر، فاشتد الحصار على الحسن ، واضطر عندئذ إلى طلب الأمان من الوزير أبي الحكم وأن يعود معه إلى الأندلس (مثل المرة الأولى) ووافق الوزير أبو الحسن على طلب بن كنون، ولكن المنصور بن أبي عامر أمر ابن عمه الوزير أبا الحكم بقتل الحسن في طريق عودته إلى قرطبة ، وبالفعل تم قتل الحسن في جمادى الأولى سنة 375هـ/ آب سنة 986م [8] . وبموته ينتهي الدور السياسي للأدارسة ، وينمحي كيانهم وتتلاشى أسرهم وسط محيط السكان في الريف وبقية المغرب الأقصى[9] .

وعقب ابن أبي زرع على سقوط الأدارسة بقوله " وكانوا يكابدون مملكتين عظيمتين وغالبين كبيرين، دولة العبيديين بمصر وإفريقية ودولة بني أمية بالأندلس، وكانوا ينازعون الخلفاء

---

[1] ابن ابي زرع، المصدر نفسه، ص 93.
[2] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 172.
[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 93.
[4] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 74.
[5] ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 94.
[6] أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 172.
[7] أنظر ، محمود إسماعيل، المرجع نفسه ، ص 172.
[8] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 94.
[9] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 386.

إلى درك الخلافة ويقعدهم ضعف سلطانهم وقلة مالهم ، وكان سلطانهم إذا اشتد وقوي إلى مدينة تلمسان ، وإذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة وأصيلة وحجر النسر إلى أن اعتراهم الأدبار والفرقة وانقضت أيامهم وانقطعت مدتهم"[1] .

وأما السلاوي فيعقب على ذلك بقوله " وركدت ريح العلوية بالمغرب وتفرق جمعهم ، وانقرضت دولتهم وتفرقت الأدارسة في قبائل المغرب، ولاذوا بالاختفاء إلى أن خلعوا إشارة ذلك النسب الشريف واستحالت صنيعتهم إلى البداوة"[2] .

ولكن بعض أفراد البيت الإدريسي تمكنوا فيما بعد من الأخذ بثأر آبائهم ، حين أسهموا في إسقاط الخلافة الأموية بالأندلس وأقاموا دولة بني حمود [3] . وفي ذلك يقول ابن الخطيب " ركدت ريح العلوية بالمغرب إلى أن كانت الفتنة التي أدت إلى انقراض دولة بني أمية وتصيير الأمر إلى هؤلاء الأدارسة"[4] .

وبالجملة ، فقد كان الأدارسة في فترة الصراع الفاطمي والأموي على السيادة " أما مجرد تابعين خانعين لا شركاء محظوظين ، أو مشردين في الآفاق من بطش أولئك أو هؤلاء" [5] . ولكن في نفس الوقت كانوا سلاحا ذا حدين ، استخدمه كلا الطرفين ضد الآخر، ووجد كل منهما في الأمراء الأدارسة المذبذبين صنائع وأعوانا[6] .

على أن الدور الأهم، الذي برز في العلاقات السياسية بين الفاطميين والأمويين ، كان من نصيب قبيلتي كتامة وزناتة .

---

(1) الأنيس، ص 95.

(2) الاستقصا، ج1، ص 128.

(3) أنظر، محمود إسماعيل، الأدارسة، ص 172-173.

(4) أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 224.

(5) أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 208.

(6) لقبال، المرجع نفسه، ص 385.

الفصل الثالث

دور كتامة وزناتة في العلاقات الفاطمية والأموية في مرحلة الخلافة الفاطمية الإفريقية (297- 361هـ/910-972م)

- طبيعة العلاقة بين زناتة وكتامة بعد قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب، ودورهما في العلاقات الفاطمية والأموية في عهد المهدي (297-322هـ/910-934م).

- القائم بأمر الله الفاطمي وثورة أبي يزيد الزناتي بالمغرب:

(أ) علاقة زناتة بالقائم بأمر الله الفاطمي ، وعبد الرحمن الناصر الأموي قبل اندلاع الثورة (322-331هـ/932-943م).

(ب) مساندة عبد الرحمن الناصر الأموي لثورة أبي يزيد الزناتي على الفاطميين بالمغرب (331-336هـ/943-947م).

(ج) زناتة والفاطميين بعد ثورة أبي يزيد (336-341هـ/947-952م)

- دور كتامة وزناتة في خلافة المعز لدين الله (341-361هـ/952-972م).

*** طبيعة العلاقة بين زناتة وكتامة بعد قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب، ودورهما في العلاقات الفاطمية والأموية في عهد المهدي (297-322هـ/910-934م).**

أدت القوى السياسية المحلية على أرض المغرب والأندلس ، دورا سياسيا مهماً في خلفية العلاقات السياسية بين الفاطميين والأمويين ، إلا أن الدور البارز في تلك العلاقات مثلته قبيلتا كتامة وزناتة في المرحلة الأولى من حياة الدولة الفاطمية بالمغرب ، قبل انتقالها إلى مصر سنة 361هـ/972م.

فقد استغلت الدولة الأموية النزاع التقليدي بين زناتة وكتامة ، وفشل عبيد الله المهدي في كسب ود رؤساء قبائل زناتة للانضمام إلى دعوته، فعملت جاهدة على إذكاء نار الفرقة بينها وبين كتامة من جهة ، وبينها وبين الأسرة الفاطمية من جهة أخرى، ثم إن الأمويين غذوا هذا الموقف السلبي للزناتيين ضد الفاطميين عن طرق إغداق الأموال والهدايا على رؤساء هذه القبيلة ، والاعتراف بمناطق نفوذهم في المغربين الأوسط والأقصى ومحاولة الاتصال بأبرز زعماء زناتة آنذاك ، وهو محمد بن خزر المغراوي وتأليبه ضد الفاطميين، ولا شك أن هدف الأمويين من وراء هذه السياسة، هو إثارة الفوضى والقلاقل في داخل الدولة الفاطمية بواسطة إشعال الحروب بين زناتة المعارضة للوجود الفاطمي، وبين كتامة التي تعد عصب الجيش الفاطمي، والتي يمكن بالتالي أن تؤدي مجريات الصراع بين هاتين القبيلتين المغربيتين إلى انهيار الدولة الفاطمية ، دون أن تتدخل الدولة الأموية مباشرة في الخلاص من هذه الدولة المنافسة لها، سياسيا ومذهبيا.

ومما يجب التذكير به ، أن قبيلة كتامة قد أخذت على عاتقها نشر الدعوة الإسماعيلية وتوفير سبل نجاحها، منذ مسير أبي عبد الله الشيعي مع وفد حجاجها من بلاد الحجاز ومناصرتها له حتى قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة 297هـ/ 910م، ثم استمرارها على نفس نهجها هذا، طيلة وجود الفاطميين بإفريقية ، بينما وقفت زناتة موقفا سلبيا من الفاطميين منذ قيام دولتهم ، وناصبتهم العداء،

ويشير أحد الباحثين إلى ذلك بقوله: " أن بطون زناتة لم تتفق فيما بينها على شيء قدر اتفاقها على عدائها للدعوة الإسماعيلية منذ وجودها بالمغرب"[1] .

بادر عبيد الله المهدي [2] ، بعد إعلان الخلافة الفاطمية برقادة يوم الجمعة لتسع ليال بقين من شهر ربيع الآخر سنة 297هـ/ آخر تموز 910م [3] ، إلى إيلاء قبيلة كتامة عناية خاصة والعمل على رفع منزلة رجالها دون غيرها من قبائل البربر الأخرى، تقديرا منه للدور الإيجابي الذي لعبه رؤساء وأفراد هذه القبيلة في مرحلة الدعوة الإسماعيلية بالمغرب إلى حين تأسيس دولته، ويظهر أن المهدي رغب اتباع سياسة مستقلة في هذه الخطوة الجديدة تجاه كتامة ، إذ أن هذه الميزة تعطي تعزيزا لأفراد القبيلة حينما تتيح لهم الاستفادة من الغنائم التي أصبحت بحوزتهم بعد مشاركتهم في القضاء على معظم القوى السياسية التي كانت قائمة ببلاد المغرب، وإخضاعهم للكثير من المخالفين من قبائل البربر، وبعض أمراء مدن كتامة نفسها، إضافة إلى الشعور المذهبي المرافق لرجالات كتامة تجاه الدعوة الإسماعيلية ، والذي أصبح يمثله في نظرهم إمام الدعوة عبيد الله المهدي. ولذلك خص المهدي اشتراك وجوه كتامة بجملة الغنائم التي عرضت عليه من جواري زيادة الله، بعد أخذ نصيبه منها، حيث فرق الكثير مما لديه على زعماء القبيلة[4] .

---

[1] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 159.

[2] وهو عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ابن عذاري، البيان، ج1، ص 158)؛ في حين يورده إدريس بأنه أبو محمد عبد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (عيون الأخبار، ج5، ص 143) ؛ ولذلك قال ابن عذاري أنه اختلف في نسبه (البيان، ج1، ص 158)؛ كما اختلفت المصادر المغربية في مولده ، فبينما يذكر ابن حماد أن مولده كان بسلمية من بلاد الشام أو ببغداد سنة 260هـ/ 873م (أخبار بني عبيد ، ص 18؛ انظر، الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج1، 1281)؛ يرى إدريس أن مولده كان بمدينة عسكر مكرم في خوزستان، ثم انتقل والده به إلى سلمية (عيون الاخبار، ج5، ص 143).

[3] النعمان، افتتاح، ص 299؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 174.

[4] المقريزي ، الخطط، ج2، ص 31.

كما أن المهدي خص رجال كتامة بتولي المناصب الإدارية الهامة في الدولة، حيث عين منهم أيضا لمناصب الدواوين وبيت المال والحجابة [1] ثم قسم على وجوه وزعماء كتامة ، أعمال إفريقية [2] ، ومدنها، التي استولى عليها أبو عبد الله الشيعي سابقا، وجعل لكل مجموعة عسكر من كتامة ناحية خاصة بهم[3] .

ولم تقف عناية المهدي بكتامة عند هذا الحد، بل عمل على تحسين الأحوال المالية لأفراد القبيلة ، فأفاض العطاء عليهم [4] ، وأمر رجالها بالتزين والتجمل بالألبسة الفاخرة [5] ، في كافة مظاهر الحياة العامة [6] ، لإظهار هيبة الدولة الجديدة [7] ، وإبراز مدى عنايتها بأنصارها ومؤيديها، واستجاب رجال كتامة إلى توجيهات المهدي حيث حلوا سروجهم ولجمهم وظهروا بأزياء حسنة [8] ، ووصف إدريس مجمل التطورات السياسية والاجتماعية التي أسبغها المهدي، على حياة رجالات كتامة بقوله: "واستعمل أمير المؤمنين (المهدي) وجوه كتامة على مدن إفريقية إلى حيث بلغت طاعته، وقسم على كتامة الأعمال ، لكل عسكر منهم ناحية ، وأمرهم بالتزين والتجمل باللباس ، فلبسوا خير الثياب وحلوا سروجهم ولجمهم بالحلي الثقيل، وأظهروا زيا حسنا، واتسعت أموالهم وكثرت نعمهم ، وأسبغ عليهم ولي الله العطاء وأجرى عليهم الصلات"[9] . وفي موضع آخر أشار إدريس إلى زيادة مكانة كتامة السياسية والاجتماعية بقوله: " وجعل (أي

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 159؛ وأشهر ممن تولى مناصب إدارية في عهد المهدي من كتامة، عبدون بن حباسة، حيث تسلم ديوان العطاء، وأفلح بن هارون الملوسي، تسلم قضاء مدينة رقادة (ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 159).

(2) المقريزي، الخطط، ج2، ص 31.

(3) إدريس، المصدر نفسه، ج5، ص 176.

(4) ابن أبي الضياف، اتحاف أهل الزمان، ص 122.

(5) إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 176.

(6) أنظر، العمايرة، الجيش الفاطمي، ص 58.

(7) أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 435.

(8) إدريس، عيون الأخبار، ج5، 176.

(9) عيون الأخبار، ج5، ص 176؛ أنظر ، النعمان، افتتاح، ص 306.

المهدي) أولياءه وأنصار حقه أولى البصائر النافذة والنيات الصادقة من سادات العرب وأنجاد كتامة فألقت عصاها الإمامة في دارها، وقرت عينها"[1] .

وبعد معرفة ما وصلت إليه المكانة السياسية والاجتماعية لكتامة في ظل الدولة الفاطمية ، بات ضروريا هنا التعرض إلى أسباب الخلاف بين قبيلتي كتامة وزناتة من جهة وبين زناتة والفاطميين من جهة أخرى، عقب قيام الخلافة الفاطمية ببلاد المغرب[2] ، وما نتج عن تلك الخلافات بالتالي من صراعات قبلية بين هاتين القبيلتين ، والذي تمخض عنه ذلك الدور السياسي الهام الذي قام به البربر بين الفاطميين والأمويين ، تحت اسم الدفاع عن سيادة الدولتين الفاطمية بالمغرب والأموية بالأندلس، وهو الأمر الذي اختلط على الكثير من الباحثين والدارسين في تاريخ المغرب والأندلس، ولم يستطيعوا إدراكه ، واعتبروا أن الصراع بين الفاطميين والأمويين صراعا مباشرا.

وعلى العموم، فقد تباينت الأسباب واختلفت الآراء الواردة في الصراع الذي نشب بين زناتة وكتامة على أرض المغرب بعد قيام الخلافة الفاطمية، والذي استمرت أحداثه طيلة فترة حكم الدولتين ، وقد استنبط من خلال الموقف السلبي بين هاتين القبيلتين ، أسباب أخرى لموقف زناتة العدائي تجاه الفاطميين. وأول هذه الأسباب هو ما اعتبره البعض امتدادا للعداء التقليدي بين جذمي البتر ممثل بزناتة والبرانس ممثل بكتامة [3] ، بسبب الفوارق الاجتماعية والاقتصادية بأسلوب الحياة، فالبتر يمثلون البدو وامتازوا بالتنقل والترحال من مكان لآخر طلبا للكلأ والماء، بينما يمثل البرانس أهل زراعة واستقرار ، ونظرا لهذه الفوارق قام النزاع بين الجذمين ، منذ القديم، وتجدد بحلول الدعوة الإسماعيلية ببلاد المغرب.

---

[1] عيون الأخبار، ج5، ص 172.

[2] سبق وأن تحدثت عن الخلاف بين زناتة وكتامة قبل الإسلام في تمهيد هذه الدراسة، أثناء معالجة طبيعة العلاقة بين القبائل البربرية الثلاث.

[3] أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 83.

فلما كان أبو عبد الله الشيعي قد اختار مضارب البرانس لنشر دعوته، وبناء دور هجرته، وانصرافه عن مضارب البتر ، مع أن كثيرا كانوا منهم على صلة بالعلويين وتمتع بعض فروعهم بالشهرة والمكانة وباع في الملك " تفوق ما عرفت به كتامة" [1] ، فإن هذه الخطوة حسب وجهة نظر أصحاب الرأي الأول ، هي التي دفعت زناتة إلى الوقوف موقف سلبي من قيام الدولة الفاطمية، التي اختارت لدعوتها مضارب البرانس، فوقفت زناتة ضدها نكاية بأعدائها التقليديين من قبائل كتامة.

وبالرغم من أن أحد الباحثين، قد رفض هذا السبب واعتبره مجرد قول لا تؤيده الأحداث التاريخية ، وفند ذلك بأن إدريس بن عبد الله، مؤسس الدولة الإدريسية ، عندما قدم إلى المغرب الأقصى، وانضمت إليه قبيلة أوربة البرنسية ، فإن ذلك لم يمنع قبيلة زناتة من الانضمام إلى الأدارسة دون قتال، بل على العكس من ذلك، فقد بادرت زناتة إلى مبايعة الأدارسة ، كما قامت بدور هام في تاريخ الدولة الإدريسية ، وبخاصة قبيلة مغراوة أقوى البطون الزناتية والتي أصبحت واحدة من الدعامات الأساسية للدولة [2] ، ولكن بالمقابل فإن هذا الباحث قد أعطى تفسيرا للموقف السلبي لزناتة من الفاطميين ، قريب من السبب الذي رفضه ، وذلك حينما اعتبر ذلك الموقف بسبب مناصرة أو اعتماد الفاطميين على قبائل البرانس من كتامة وصنهاجة ، فاستطالت هذه القبائل على زناتة [3] ، وساق دليله على صحة ما ذهب إليه قول ابن خلدون: " كان الفاطميون ظهرا للبرانس على زناتة فانحرفت قبائلهم عن الشيعة سائر أيامهم"[4] .

وسواء أكان موقف زناتة السلبي من الفاطميين، بسبب اختيارهم لمضارب كتامة أم مناصرتهم لها واعتمادهم عليها، فإن مضمون الفكرة من الرأيين ، تصب في أن الموقف العدائي لزناتة تجاه الدولة الفاطمية، لم يكن سوى نكاية بأعدائهم التقليديين من كتامة.

---

[1] أنظر ، لقبال، المرجع نفسه، ص 332.

[2] أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 158.

[3] أنظر، سنوسي، المرجع نفسه، ص 12؛ 158-159.

[4] العبر ، ج1، ص 201؛ أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 159.

وأما السبب الثاني الذي دعا زناتة إلى معارضة الفاطميين وأنصارهم الكتاميين يمكن أن يكون لأن غالبية بطون زناتة كانت تدين بمذاهب مخالفة للمذهب الشيعي ، مثل مذهب الخوارج والمعتزلة ، ويبدو أن هذين المذهبين ، كانا يتوافقان مع طبائع زناتة البترية التي تأنف الخضوع والتبعية، وتعرف بحبها بالتمتع بحريتها، ونظرا لاعتناق غالبية بطونها لمذهب الخوارج، المعروف بعدائه القديم لمذهب الشيعة فإن الصراع بين زناتة والفاطميين ، صور على أنه صراع بين الخوارج والشيعة[1] ، وبما أن كتامة اعتنقت المذهب الشيعي ، وحاولت إظهاره ونشر دعوته ، فمن الطبيعي أن تناصبها زناتة العداء إلى جانب الفاطميين ، بعد أن اقتنعت بعض البطون الزناتية، بما اعتنقت من مذاهب، ورأت في نفسها القدرة الكافية في الدفاع عن معتقداتها المذهبية واستقلالها.

وأما السبب الثالث ، في حركة المعارضة التي تبنتها زناتة ضد الفاطميين ، فربما يعود لأن زناتة كانت صاحبة السلطة الفعلية على المغرب الأوسط أثناء فترة حكم الأمراء الأدارسة، ويبدو أن زناتة خافت أن تسلبها الدعوة الشيعية الجديدة من استقلالها وسيادتها على المغرب الأوسط[2] ، وفي نفس الوقت فإن هذه الدعوة يمكن بالتالي أن توسع دائرة نفوذ كتامة التي تشكل غالبية الجيش الفاطمي ، فيما إذا سيطرت على المغرب الأوسط، فيزيد ذلك الانتصار من مكانة كتامة في بلاد المغرب، وهو الأمر الذي لا يمكن أن تسمح به زناتة بطبيعة الحال، ولذلك اتخذت موقفا معاديا للفاطميين.

وبالرغم من أن الأسباب سالفة الذكر، اشتملت على مجموعة من الاستنتاجات الواقعية حول حقيقة نزاع زناتة وكتامة بعد قيام الخلافة الفاطمية ، وموقف زناتة المعارض للوجود الفاطمي على أرض المغرب ، فإنه يمكن القول أيضا أن قبيلة زناتة لم تجد مصلحتها مع الفاطميين بعد قيام دولتهم بالمغرب ، وخاصة أن تلك الدولة قد ساندتها قبيلة بربرية برنسية ذات قوة وبأس وسطوة،

---

[1] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 157-158.

[2] أنظر، سنوسي ، المرجع نفسه، ص 158.

وهي قبيلة كتامة ، التي تعد في نفس الوقت عدوا تقليديا لزناتة، ومنافسا حقيقيا لها، ولذلك لم تحاول زناتة الدخول في الدعوة الإسماعيلية الشيعية لأن رغبتها في السيادة والظهور تتعارض مع رغبة قبيلة كتامة، فكل قبيلة بربرية تحاول تحقيق امتيازات خاصة بها، دون غيرها من القبائل الأخرى، وهذا لن يحصل في حالة اجتماع زناتة وكتامة إذا دخلوا في الدعوة الشيعية معا، ودليل ذلك تفرد كتامة بالمكانة السياسية والاجتماعية في ظل قيام الخلافة الفاطمية، إضافة إلى الفوارق الاجتماعية بين القبيلتين . ولذلك ارتسمت زناتة في طاعة الدولة الأموية لتحقيق مصالحها السياسية وكسب امتيازات خاصة بها، بعيدا عن منافسة كتامة وغيرها من قبائل البربر الأخرى ، ودليل ذلك فإن العلاقة بين محمد بن خزر، زعيم زناتة وحليف الأمويين ، وبين موسى بن أبي العافية المكناسي وهو حليف بربري آخر للأمويين، لم تكن على وئام واستقرار، وذلك لمشاطرتهما المصالح السياسية والمكاسب المادية من قبل الأمويين، وهذا الأمر هو الذي دعا محمد بن خزر في الوقوف إلى جانب الأدارسة في حربهم مع موسى بن أبي العافية، رغم مخالفة الأدارسة على الأمويين الذي يرتبط معهم ابن خزر بتحالف وبالتالي محاولة الناصر لدين الله، التوفيق بين ابن خزر وابن أبي العافية، وذلك لخوفه من فساد أحدهما على دولته[1] .

والقضية التي تستوجب المناقشة أيضا، هو سبب عدم ظهور بوادر المعارضة من طرف زناتة ضد الدعوة الإسماعيلية بالمغرب، وضد أنصارها الكتاميين قبل قيام الخلافة الفاطمية، فالبعض يرجع ذلك ، أنه ربما لإدراك زناتة قوة نفوذ كتامة بالمغرب الأدنى، بحكم قرب مضاربها منها، من ناحية، ثم لأن زناتة لم تتوقع ذلك النجاح الذي أحرزته الدعوة الإسماعيلية ، بزعامة أبي عبد الله الشيعي ، وبمساندة كتامة له من ناحية أخرى، كما أن أبا عبد الله الشيعي ، وجنده من كتامة،

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 307- 308.

لم يحاولوا التعرض لزناتة أو غزو مضاربها بالمغرب الأوسط ، ولذا، لم تهتم زناتة بهم، لأن خطر الدعوة الجديدة وأنصارها الكتاميين لم يكن هددها بعد[1] .

ومما يؤيد ذلك ، تلك الرواية التاريخية التي وردت عند القاضي النعمان [2] ، والتي أشار فيها إلى حادثة قتل نفر من الكتاميين قدروا بأربعة عشر رجلا، بعد أن أدوا مهمة خاصة عند إمام الدعوة عبيد الله المهدي بسجلماسة، والذين أرسلهم إليه الداعي، أبو عبد الله الشيعي [3] ، وفي طريق عودتهم وهم يحملون معهم رسالة من المهدي إلى الداعي أبي عبد الله، تعرض لهم ، بعض رجال زناتة في منطقة الزاب قرب طبنة، وقتلوهم جميعا[4] ، وكان هؤلاء الزناتيون -فيما يبدو- خاضعين تحت إشراف محمد بن خزر[5] . ويعود سبب قتل هذا النفر من كتامة لما قاموا به من انتهاك أراضي ومضارب قبيلة زناتة [6] ، وهنا يظهر أن زناتة بمجرد أن شعرت اعتداء على سيادة أراضيها من قبل أفراد كتامة ، بادرت بسرعة بإيقاع أقصى عقوبة عليهم ، وبالرغم من أن مشايخ كتامة رفضوا اقتراح أبو عبد الله الشيعي في التوجه لتأديب زناتة ، لما عندهم من المبررات المنطقية، وذلك لبعد المسافة بينهم وبين زناتة وما كان لديهم من التحضير لخوض المعركة النهائية مع إبراهيم بن الأغلب ، قائد زيادة الله ، ولكن ذلك لم يكن يعني عندهم ترك زناتة وعدم الأخذ بثأر قتلاهم منها، حيث أرجئوا هذه القضية لأهمية الأولويات التي بين أيديهم بقولهم : " وأمر زناتة لا يفوتنا"[7] .

[1] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 164.

[2] افتتاح، ص 222-223.

[3] النعمان ، المصدر نفسه، ص 222-223.

[4] النعمان، المصدر نفسه، ص 222-223؛ أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 349.

[5] أنظر، لقبال، دور كتامة، ص 349.

[6] أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 164.

[7] النعمان ، افتتاح، ص 222-223؛ ويبدو أن موسى لقبال ، قد اعتبر الحادثة بداية الحركة العدائية التي تبنتها زناتة ضد نظام الفاطميين (أنظر، دور كتامة، ص 349).

كما أن محمد بن خزر ، زعيم قبيلة زناتة ، أدرك أن كتامة لن تتأخر في الأخذ بثأر قتلاها ، ولذلك بادر إلى طلب الأمان من أبي عبيد الله الشيعي، عندما خرج الأخير من رقادة سنة 296هـ/908م [1] ، على رأس قوات كتامة لتخليص عبيد الله المهدي من سجنه بسجلماسة[2] .

وصفوة القول أن الاحتكاك بين زناتة والفاطميين ، بدأ مع قيام الخلافة الفاطمية [3] ، وكان ذلك بالتأكيد ، ردة فعل لما وصلت إليه قبيلة كتامة من مكانة سياسية واجتماعية بمساندة الفاطميين، فلا شك، أن زناتة أدركت أن زيادة الامتيازات التي ستحصل عليها كتامة ستكون على حساب التوسع على أراضيها، مثلما كان ذلك على حساب نفوذ الأغالبة بالمغرب، ولذلك فقد ثارت حفيظة قبيلة زناتة التي تأبى الخضوع خاصة للبرانس، فتحولت حينئذ من موقف الحياد والسلبية ، الذي التزمت به في مرحلة الدعوة الإسماعيلية ، إلى المقاومة والمناددة، عندما شعرت أن نجاحات كتامة في ظل الوجود الفاطمي، سيؤثر على سيادتها واستقلالها، فأقلقت عندئذ راحة الفاطميين بعيد قيام دولتهم بإفريقية [4] . ثم أن زناتة لم تتوان في اتخاذ قرار الانضواء تحت راية الأمويين بالأندلس ، عندما علمت أن ذلك سيحدث ، نوع من التوازن في القوة ، ضد الفاطميين وأتباعهم الكتاميين.

ولكن سبق قرار زناتة الأخير والمتضمن عقد تحالف مع الأمويين عدة محاولات جادة من طرفها، لتقليص نفوذ الفاطميين وأنصارهم الكتاميين ، بعد أن تولد لدى الزناتيين وزعيمهم محمد بن خزر ، قناعة تامة بأن المحافظة على سيادتهم واستقلالهم في بلاد المغرب، لن يتم في ظل ازدياد نفوذ الخطر الشيعي، والذي سيرفع من مكانة قبيلة كتامة العدو التقليدي لهم.

---

[1] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 70.

[2] النعمان، افتتاح، ص 276.

[3] أنظر ، محمد بن عميرة، دور زناتة ، ص 175.

[4] أنظر، سنوسي، المرجع نفسه، ص 168.

وذكر ابن عذاري، أن أول محاولة لزناتة في السيطرة على الأملاك التي أصبحت خاضعة للفاطميين تعود إلى سنة 297هـ/ 910م [1] ، وذلك حينما عمل زعيمها محمد بن خزر على استرداد مدينة تاهرت [2] ، بعد أن خيل له أن الفرصة مناسبة لاستخلاص المدينة ، مستغلا وجود أبي عبد الله الشيعي بسجلماسة ، من جهة ، وحتى يتمكن من قطع الطريق على موكب عبيد الله المهدي وداعيه، عند رجوعهم من سجلماسة ومرورهم بأرض تاهرت من جهة أخرى[3] ، ولإنجاح خطة الاستيلاء على المدينة، اتفق محمد بن خزر مع بعض أهل تاهرت يعرفون ببني دبوس على مساعدته في إخراج دواس بن صولات عامل الفاطميين عليها [4] ، وطرد حامية كتامة [5] ، ورغم أن دواسا اكتشف أمر هذا الاتفاق وقام بالقبض على بني دبوس وحبسهم في حصن برفجانة المعروف بتاهرت القديمة [6] ، وهي بجوار تاهرت الحديثة على مسافة خمسة أميال إلى الشرق منها[7] ، إلا أن ذلك لم يمنع محمد بن خزر من التقدم إلى المدينة واحتلال بعض أرباضها، وإجبار دواس بن صولات على الهروب منها، إلى قلعة ابن جمة جنوبها، ولكن أهالي حصن برفجانة لم يمهلوا أمير مغراوة في اتخاذ الخطوة التالية للسيطرة على المدينة ، حيث وثبوا على بني دبوس وقتلوهم عن أخرهم، لما كان من تآمرهم مع ابن خزر عليهم، فتشجع بذلك سكان تاهرت وحاربوا الزناتيين حتى أجلوهم عن أرباض المدينة ، ثم كتبوا إلى دواس يدعونه للعودة إليهم[8] .

ولما علم أبو عبد الله الشيعي بمحاولة زناتة للاستيلاء على تاهرت عرج على المدينة في طريق عودته من سجلماسة التي ترك ولايتها إلى إبراهيم بن غالب المزاتي ، مع ألفي فارس من

---

[1] البيان ، ج1، ص 155.

[2] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 155.

[3] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 350.

[4] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 155.

[5] انظر، لقبال، دور كتامة ، ص 350.

[6] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 155 ؛ انظر، الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص 142 .

[7] أنظر، لقبال، دور كتامة، ص 350.

[8] أبن عذاري، البيان ،ج 1، ص 155.

كتامة [1] ، وعندما نمى خبر قدوم الجيش الفاطمي إلى محمد بن خزر، زعيم زناتة ، تراجع بمن معه إلى الصحراء ، لعدم قدرته على الصمود أمام قوات هذه الدولة الفتية وأنصارها الكتاميين[2] ؛ وما أن رحل أبي عبد الله الشيعي عن تاهرت إلى رقادة ، حتى عاد محمد بن خزر بجموع زناتة إلى تاهرت وحاصر دواسا فيها، فأرسل المهدي إليه حملة كتامية بقيادة [3] ، هارون بن يونس المسالتي[4] ، المعروف بشيخ المشايخ ، واستطاعت هذه الحملة ، من إنجاد دواس، عامل الفاطميين على المدينة وهزيمة زناتة وقتل الكثير من رجالها[5] .

وأدرك المهدي منذ أن باشر أمور دولته برقادة بأن توطيد نظام حكمه بالمغرب لن يتم إلا بإخضاع قبائل البربر وعلى رأسهم قبيلة زناتة التي تشكل مصدر الخطر الأول ضده، ولذلك بعث المهدي، أبا عبد الله الشيعي برفقة أشهر قادة كتامة إلى أرض المغرب [6] ، يوم السبت لثلاثة أيام خلت من ذي القعدة سنة 297هـ/ شباط 910م، للحد من نفوذ زناتة [7] ، ولكي يعمل على تهدئة لأوضاع بالمغرب لما انتابه " من الألتياث وفساد الطرق، وقيام القبائل على عمالهم"[8] ، وما أن وصل أبي عبد الله الشيعي إلى طبنة حتى التقى فيها، مع محمد بن خزر الزناتي، والذي انضم إليه الكثير من القبائل البربرية المعارضة للفاطميين، واقتتل الفريقان ، فكانت المعركة لصالح الجيش الفاطمي، وانهزم محمد بن خزر بعد أن فقد معظم رجاله من زناتة، وانفك حلف القبائل معه، فكتب

---

(1) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 155.

(2) أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 169.

(3) ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 160.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 462؛ أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 351.

(5) ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 160؛ انظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 169.

(6) أبن عذاري، البيان، ج1، ص 160.

(7) إدريس، المصدر نفسه، ج5، ص 178.

(8) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 160.

أبو عبد الله بخبر الانتصار إلى المهدي برقادة وبعث إليه أيضا برؤوس من قتل في تلك المعركة من وجوه زناتة وغيرهم[1] .

وتابع أبو عبد الله الشيعي قبل رجوعه إلى رقادة، وبحلول عام 298هـ/ 911م، تجواله في بلاد البربر، وهاجم مضارب زناتة وصدينة ، فوضع السيف في رجال القبيلتين ، وقتل الكثير منهم، واستولى على أموالهم ، وسبى ذراريهم ، وأضرم النار ببعض مدنهم، لطمس معالمها وحرمان عناصر الفتنة من التفكير بالعودة إليها مرة أخرى، ثم كتب إلى المهدي يخبره بانتصاره على زناتة، فأمر المهدي بدوره بقراءة الكتب على مسامع الناس برقادة [2] ، ليعزز بتلك الأنباء ، نفوس أوليائه ومؤيديه ، ويخفف في نفس الوقت حدة مقاومة المعارضين لدولته[3] .

كما أن قبيلة زناتة استغلت ثورة هوارة بطرابلس سنة 298هـ/ 911م ، بزعامة أبي هارون الهواري، وأرادت السيطرة على المدينة، وذلك عندما زحفت بعض الجماعات الزناتية ، بمساندة قبيلة لماية وبعض قبائل البربر الأخرى لها، وضربوا حصارا على أهل طرابلس ، إلا أن المهدي أسرع في إرسال قائده أبي زاكي تمام بن معارك الأجاني، لإنقاذ المدينة من زناتة وحلفائها ، الذي استطاع تشتيت شملهم ، وقتل الكثير منهم ، وبعث بعدئذ " برؤوس كثيرة وآذان مقرطة لمن قتل فنصبت برقادة " [4] .

ولما شعر عبيد الله المهدي، بخطورة الحركة السرية الداخلية ضده، والتي كان يقودها بناة الدولة الحقيقيون وهم أبو عبد الله الشيعي وأخو أبو العباس والتي اشترك معهما فيها بعض زعماء كتامة فحينئذ لم يتوان المهدي باتخاذ اشد العقوبات بحقهم، ويبدو أن سبب تلك الحركة كانت نتيجة إقصاء المهدي لأبي عبد الله عن تسلم بعض المناصب الإدارية الهامة بالدولة[5] ، ويظهر ذلك

---

[1] إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 179.

[2] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 162.

[3] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 351.

[4] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 163.

[5] ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 461.

السبب من كلام أبي العباس الذي داخله الحسد لنفس السبب [1] ، وبدأ تحريض أخيه أبي عبد الله بالثورة على المهدي بقوله : " ملكت أمرا وانطاع لك فجئت بمن أزالك عنه فأخرجك منه وتنقصك واضطهدك ، وكان أقل الواجب لك أن يدعك وما كنت عليه فتكون الآمر والناهي"[2] ، ولاشك أن تراجع المكانة السياسية لأبي عبد الله الشيعي ، في ظل الدولة الجديدة ، دعاه إلى الأخذ برأي أخيه والعمل على إعادة مكانته كسابق عهدها، وبدأ ذلك بالطلب من المهدي أن يفوض إليه أمور الدولة ويجلس هو بالقصر [3] , وقد حدد أبو عبد الله الشيعي طلبه هذا الذي جعله على سبيل النصيحة ، بإشرافه المباشر على شؤون كتامة بقوله : " يا مولانا (يقصد المهدي) إن كتامة قوم قومتهم بتقويم، وأجريتهم على ترتيب وتعليم، وتم لي منهم بذلك ما أردت وبلغت بذلك منهم ما قصدت، وهذا الذي فعلته أنت بهم من إعطائهم الأموال وتوليتهم الأعمال وما أمرتهم به من اللباس والحلي فساد لهم للخروج من عادتهم، فلو تركتهم كما كانوا إلى أن أباشرهم دونك، آمرهم وأنهاهم وأقيمهم على ما عودتهم وأجريهم على دأبي لهم، وإلى خروجك بهم، دونك فيهم، وفي غيرهم فتكون وادعا في قصرك لا يصل آحد منهم ولا غيرهم، إليك، ليكون ذلك أهيب لك وأشد لأمرك ، وأرجى لما ترجوه من تمامه وكماله وانتظامه"[4] .

ولم يخف على المهدي حقيقة ما كان يخطط له أبو عبد الله الشيعي ، وما كان يجهر به أبو العباس من الإساءة في حقه [5] ، حينما أصبح يزري عليه ويذكر الكتاميين بالأموال التي أخذها المهدي من إيكجان ، ولم يعطهم نصيبهم منها، ثم تجاوز أبو العباس ذلك، فشكك بالمهدي بقوله :

---

[1] المقريزي ، الخطط، ج2، ص 31.

[2] النعمان، افتتاح، ص 306-307؛ ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 461-462.

[3] المقريزي، الخطط، ج2، ص 31؛ ويذهب موسى لقبال إلى نفس السبب في حركة أبي عبد الله الشيعي، حينما يرى أن عملية تحويل الدعوة من حركة سرية كانت تضم أنصار ومتطوعون ومجموعة من الدعاة التاريخيين إلى نظام دولة تقليدية مستقرة لها إمام وموظفون رسميون وتقاليد ورسوم جديدة " فرضت وضعا جديدا لأنصار الدولة من بربر كتامة وأدت إلى حدوث انشقاق خطير في صلب العقيدة وبين بناة الدولة وأخلص رجالها" (أنظر، دور كتامة، ص 333).

[4] النعمان، افتتاح، ص 308.

[5] المقريزي، الخطط، ج2، ص 31.

"إن هذا ليس الذي كنا نعتقد طاعته وندعو إليه لأن المهدي يختم بالحجة، ويأتي بالآيات الباهرة"[1] وقد أثر هذا الكلام بأحد زعماء كتامة المنشقين مع أبي عبد الله الشيعي [2] ، وهو هارون بن يونس [3] ، المعروف بشيخ المشايخ [4] ، ودفعته جرأته إلى مواجهة المهدي بقوله: "إن كنت المهدي فأظهر لنا آية فقد شككنا فيك" ، فأمر المهدي بقتله [5] ، كما أن المهدي لم يخف عليه أيضا التشكيك وتعاقد معهم على خلعه، قبيل عودته لرقادة ، بعد تجواله ببلاد المغرب، لإخضاع زناتة وبعض القبائل البربرية المتمردة هناك [6] ، حيث قام عروبة بن يوسف، الذي حضر الاجتماع بمدينة تنس، عند وصوله مع أبي عبد الله إلى رقادة بأخبار المهدي ، بتحريض أبي عبد الله ضده، وما اتفق عليه مع وجوه كتامة من خلعه [7] ، ولما أحس أبو عبد الله بانكشاف أمره لدى المهدي، اجتمع هو وأخوه أبو العباس وبعض رجال كتامة عند أبي زاكي، وقرروا قتل المهدي[8], ولكن المهدي لم يمهلهم ، فبادر إلى إصدار أوامره إلى عروبة بن يوسف بقتل أبي عبد الله وأخيه أبي العباس، وبالفعل كمن لهما عروبة في الطريق، ولما وصلا قرب قصر المهدي " حمل عروبة على أبي عبد الله فقال: لا تفعل يا بني ، فقال (عروبة): الذي أمرتنا بطاعته

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 462.

[2] ابن الأثير، المصدر نفسه، ج6، ص 462.

[3] أنظر، لقبال ، دور كتامة ، ص 439.

[4] ابن الأثير، الكامل ، ج6، ص 462؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 160.

[5] ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 462؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 160؛ في حين يذكر صاحب الاستبصار أن أبا عبد الله الشيعي قد أرسل إلى المهدي بعض وجوه كتامة للتشكيك فيه، ولم يقم بقتلهم ، ولكن أجابهم بقوله: " الشك لا يزيل اليقين" (كانت مراكشي، ص 204-205).

[6] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 160-161؛ ومما نقله ابن عذاري عن اجتماع أبي عبد الله بوجوه كتامة سنة 297هـ/910م، وتحريضه لهم على المهدي والتشكيك فيه، قول أبو عبد الله " إن أفعاله قبيحة ، ليست تشبه أفعال المهدي الذي كنت أدعو إليه ، وأخشى أن أكون قد غلطت فيه، وعرض لي ما عرض لإبراهيم الخليل – عم – إذ جن عليه الليل ، فرأى كوكبا، فقال : " هذا ربي" ويجب علي وعليكم امتحانه وكشفه عن العلامات الموجودة في الإمام، المعروف عند النقباء" (ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 161).

[7] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 162.

[8] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 462.

أمرنا بقتلك" [1] وقتله، ثم حمل حبر [2] أو جبر [3] بن تماشت على أبي العباس وقتله هو الآخر[4] وكان ذلك يوم الاثنين منتصف جمادى الآخرة سنة 298هـ/أيلول 911م[5] .

ولم تثن ذيول حركة المعارضة التي أحدثتها كتامة ، على أثر مقتل أبي عبد الله الشيعي من استئناف المهدي لمحاربة زناتة ، إذ قام بتجهيز حملة عسكرية كبيرة ، سنة 299هـ/912م ، وولى عليها أبرز قادته ، وأرسلها لقتال زناتة والتقت الحملة الفاطمية مع زناتة في موضع يعرف بفلك مديك ، ودارت بينهما معركة " قتل فيها من زناتة عدد لا يحصى" [6] ، وتبدد شمل قبائلها[7] ثم توجهت الحملة نحو تاهرت [8] ، بعد أن كان أهلها قد ثاروا على دواس عامل الفاطميين عليها، وأجبروه على الهروب منها، وقتلوا نحو ألف فارس من اصحابه ، ثم استدعى أهل تاهرت ، زعيم زناتة محمد بن خزر ومكنوه من الاستيلاء على المدينة "وبرزوا إليه بأم دواس وعياله وأكثر سلاحه"[9] ، ولكن محمد بن خزر لم يلبث أن ترك المدينة عندما سمع بقدوم الحملة الفاطمية إليها، ولما وصل الجيش الفاطمي إلى تاهرت ، دخلها ، بعد أن قتل الكثير من رجالها ، وسبى نسائها

---

(1) ابن الأثير ، المصدر نفسه، ج6، ص 463؛ أنظر، ابن عذاري، البيان، ج1، ص 164.

(2) النعمان، افتتاح، ص 316.

(3) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 164؛ إدريس ، عيون الأخبار ، ج5، ص 187؛ ويرد عند ابن عذاري باسم جبر بن نماسب الميلي (البيان، ج1، ص 164).

(4) النعمان، افتتاح، ص 316.

(5) النعمان، افتتاح، ص 316؛ ويذكر أن المهدي عين أبي زاكي واليا على طرابلس وأمر واليها عند وصوله إليها بقتله (ابن الأثير ، الكامل، ج6، 463) ، وحسب ابن عذاري ، أن الوالي آنذاك هو عم أبي زاكي الذي نفذ أمر المهدي وقتله (البيان، ج1، 164)؛ ويذهب أحد الباحثين المحدثين إلى أن سبب قتل المهدي لأبي عبد الله الشيعي ، لأن أبا عبد الله كان موضع ثقة كثير من الكتاميين ، ولما كان يتمتع به من مكانة عالية بين أهالي بلاد المغرب مما أثار ذلك حنق المهدي، وخشي أن يفتتن به الناس فيضعف بذلك نفوذه ولذلك أمر بقتل كل من أبي عبد الله وأخيه أبي العباس (أنظر، سرور ، الدولة الفاطمية، ص 65)؛ ولكن لم يوجد ما يؤيد هذا الرأي من الروايات التاريخية المستخدمة في هذه الدراسة.

(6) ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 165.

(7) أنظر، لقبال ، دور كتامة ، ص 351-352.

(8) ورغم أن ابن عذاري (البيان، ج1، ص 165-166)، لم يوضح فيما إذا كانت نفس الحملة هي التي اتجهت إلى تاهرت إلا أنه ربما الرأي الصواب كما ذهب محمد بن عميرة، من أن انتصار الجيش الفاطمي في معركة فلك مديك، يبعد احتمال أفراج المهدي لجيش آخر ضد تاهرت ، وبالتالي يكون نفس الجيش هو الذي واصل زحفه اليها (أنظر، دور زناتة، ص 177).

(9) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 165-166.

وذراريها واستولى على الأموال، وأضرم النار بكل نواحيها؛ وفيما يذكر أن عدد القتلى بلغ ثمانية آلاف رجل ، ثم ولى المهدي عاملا جديدا على تاهرت هو مصالة بن حبوس، واقتيد دواس بن صولات إلى رقادة ، حيث أمر المهدي بقتله[1] ، وذلك لسوء تصرفه من خلال أحداث تاهرت ، وعجزه عن الصمود والمقاومة[2] .

كما كان المهدي قد قام سنة 299هـ/ 912م، بإخماد الفتنة التي نشبت بين كتامة وأهل القيروان احتجاجا على قتل أبي عبد الله الشيعي [3] ، ثم عين ابنه محمد أبا القاسم (القائم بأمر الله)، وليا للعهد في نفس العام [4] ، وأرسله إلى بلد كتامة ، بعد فشل الجيش الفاطمي الذي بعثه للقضاء على ثورة كتامة [5] ، حيث قام الكتاميون هناك، بتنصيب طفل يعرف بالمارطي واسمه كادو ابن معارك[6] ، وزعموا أنه المهدي [7] ، وأن أبا عبد الله لم يمت [8] ، وتمكن القائم بأمر الله من إلحاق الهزيمة بهم، وقبض على الطفل الذي نصبوه، وجاء به إلى رقادة حيث أمر المهدي بقتله[9] .

وفي عام 300هـ/ 913م ، ثار أهل طرابلس على المهدي ، بسبب سوء سياسة عامله ما قنون بن دبارة الأجاني، الذي أطلق العنان لأبناء عمومته الكتاميين للنهب والسلب داخل المدينة ، مما اضطر العامة للثورة بزعامة محمد بن إسحق المعروف بابن القرلين، وأجبروا عامل الفاطميين ماقنون على الهرب إلى رقادة ، ثم أغلقوا أبواب المدينة وقتلوا من وجدوا بداخلها من رجال كتامة،

---

[1] ابن عذاري، المصدر نفسه ، ج1، ص 165-166.

[2] أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 352.

[3] ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 463؛ انظر، ابن عذاري، البيان، ج1، ص 166.

[4] النعمان، افتتاح، ص 324؛ ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 463.

[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 166-167.

[6] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 166؛ وهو نسبة إلى بني ما وطنت من أوربة (النعمان، افتتاح، ص 324).

[7] النعمان، افتتاح، ص 324؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 66.

[8] ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 463.

[9] النعمان، افتتاح، ص 325؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 168.

فأسرع عندئذ المهدي لإرسال ابنه القائم بأمر الله على رأس جيش كبير ، فحاصر المدينة عدة شهور ، ثم تمكن من دخولها عنوة في نفس العام[1] .

والأمر الذي لا يمكن إغفاله أن جملة الإجراءات السريعة التي قام بها المهدي المتعلقة بالاهتمام بشؤون كتامة، والعمل على رفع مستوى مكانة رجالها الإدارية ، ومبادرته بالقضاء على تمردات زناتة ومهاجمته لبعض مضاربها، وما كان من قيامه أيضا من تصفية أخص رجاله، أبي عبد الله الشيعي، وأبي العباس، وأبي زاكي، عندما شعر بحركة تآمر سرية منهم ضده فكل تلك الإجراءات كانت تحسبا منه واستعدادا للخطر الأموي بالأندلس، فقد عرف منذ البداية أن الأمويين لن يسمحوا لدولته المتنامية في الاستمرار لتحقيق نجاحاتها في بلاد المغرب ، بسبب العداء المذهبي والسياسي والاقتصادي بينهما.

وبالجهة المقابلة، فإن عبد الرحمن الناصر الذي تسلم سدة الحكم بالأندلس يوم الخميس مستهل شهر ربيع الأول سنة 300هـ/ حزيران 913م[2] ، لم يكن أقل حرصا من الخليفة الفاطمي، باتخاذ كافة الإجراءات لمقاومة الخطر الشيعي الذي هدد بلاده فعلا، وذلك حينما حاول الخليفة المهدي، التدخل في شؤون الأندلس الداخلية ، عن طريق إقامة علاقة ودية مع عمر بن حفصون الثائر على الأمويين بالأندلس، ومساندته له ضدهم، ولكن الناصر لم يسمح لتلك العلاقة بالاستمرار، حتى تمكن بالتالي من القضاء على الثورة فيما بعد، ولذلك فقد استعد الناصر لمجابهة الخطر الشيعي ، بشتى الطرق والوسائل ، رغم الظروف الصعبة والمشاكل الداخلية التي واجهها في بداية حكمه[3] .

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 168.

(2) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص 31.

(3) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص 135-136؛ ويصور ابن عذاري حال الأندلس حينما تولى الناصر لدين الله أمور الدولة بقوله: " وولي والأندلس جمرة تحتدم، ونار تضطرم شقاقا ونفاقا، فأخمد نيرانها، وسكن زلازلها وغزا غزوات كثيرة" (ابن عذاري، البيان، ج2، ص 157).

ويتضح من رواية ابن حيان، أن الناصر بدأ تدخله في الشؤون المغربية مبكرا أيضا بواسطة تشجيع المعارضين للدولة الفاطمية ، وذلك عندما جرت بينه وبين ابن قرهب الأغلبي صاحب صقلية ، مراسلات سنة 302هـ/ 914م، يطلب منه الأخير من خلالها، إمداده ومساعدته ضد المهدي الفاطمي، ورغم اضطراب الرواية التاريخية التي ساقها ابن حيان، إلا أنها أوضحت أن الناصر اكتفى بالتأييد المعنوي له، ومما تضمنته : " وفيها (أي سنة 302هـ) ترددت الكتابة بين المعروف بابن قرهب الأغلبي المنتزي بأرض صقلية على عبيد الله الشيعي، الدعي [(1)] ، المنتزي على بلد إفريقية وارض المغرب، وبين الناصر لدين الله... إلى إمداده وتقويته والناصر لدين الله يلويه مستخبرا عن حاله ويجيبه شحاذا عزيمته مؤكدا بصيرته ، إلى أن ظهر عبيد الله عما قليل فزال أمره" [(2)] .

كما أن الروايات التاريخية لم تشر إلى تدخل المهدي المباشر أو المشاركة في القضاء على ابن قرهب في جزيرة صقلية ، وذلك حسب ما يفهم من رواية ابن حيان السابقة، ولكن يمكن تفسير قصد ابن حيان، أنه حينما ثار بعض أهالي جزيرة صقلية سنة 303هـ/ 913م ، على ابن قرهب ، وقرروا خلعه ، كاتبوا المهدي يخبروه في ذلك، ورغم انقسام أهل صقلية إلى فريقين بين مؤيد ومعارض له، فإن ابن قرهب فضل فيما يبدوا اللجوء إلى الأندلس ، فاشترى لذلك مراكب وشحنها بالمؤن والأمتعة ، ولكن أهل صقلية المعارضين له، حالوا بينه وبين الهرب، عندما هاجموه، ونهبوا ما كان على متن مراكبه، وقبضوا عليه وعلى ابنه وقاضيه المعروف بابن الخامي، وبعثوهم جميعا إلى المهدي [(3)] ، فلعل أن ابن حيان قصد بقوله: " إلى أن ظهر عبيد الله عما قليل فزال

---

(1) هكذا وردت في النص ، ولعلها " الداعي".

(2) المقتبس ، شالميتا، ص 101؛ ومما لا شك فيه أن رواية ابن حيان هذه، تنفي ما ذهب إليه عبد العزيز سالم ، من أن الناصر الأموي قد سجل باحتفاله ببني صالح اصحاب نكور سنة 305هـ/917م، أول تدخل له في شؤون المغرب (أنظر، المغرب الكبير، ج2، ص 615).

(3) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 174.

أمره" [1] ، يعني وصول ابن قرهب عنده إلى رقادة، والتحكم بمصيره ، زوال أمره على يده، رغم عدم تدخله المباشر أو مشاركته في القبض عليه.

ولم يكتف المهدي بسلسلة الأعمال التي قام بها، في سبيل مواجهة الخطر الأموي الخارجي، والذي بدأت بوادره بتشجيع الناصر الأموي لابن قرهب ضده، ولذا كان لا بد من إنشاء ميناء بحري يقابل المرية في الأندلس، الذي كان من أهم القواعد الأموية في البحر[2] ، ولذلك فإن المهدي شرع ببناء مدينة المهدية سنة 303هـ/915م [3] ، وهي شبه جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصلة بزند[4] ، ويدخل إليها من الجانب الغربي [5] ، وإضافة إلى حصانة المدينة الطبيعية [6] ، فقد عمل المهدي على زيادة تحصينها [7] ، حيث أحاطها بسور محكم [8] عال [9] ، عرضه ممشى ست أفراس في صف واحد [10] ، وجعل عليه أبواب ضخمة زنة كل مصراع مائة قنطار [11] .

ويظهر أن المهدي أراد من بناء المهدية أيضا، حماية نفسه من الأخطار الداخلية لتكون قلعة وحصن له ولأنصاره الكتاميين البرانس، ضد البتر أعدائهم التقليديين [12] ، بخاصة قبيلة زناتة والتي جعلت الفاطميين يمضون السنوات الأولى من خلافتهم في حرب مستمرة معها، فما إن ينتهوا من حربها في المغرب الأوسط حتى تتمرد بطونها في إفريقية ، وما إن تعود الجيوش الفاطمية إلى

---

[1] المقتبس، شالميتا، ص 101.

[2] أنظر، حسن محمود، تاريخ المغرب، ص 160.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 17؛ ابن الآبار، الحلة، ج1، ص 192؛ التجاني، رحلة التجاني، ص 320؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 70 ؛ ويرى المدني أن بناءها كان سنة 300 هـ/912م (أنظر، المسلمون في جزيرة صقلية وجنون إيطاليا، ص 105) .

[4] القزويني، آثار البلاد، ص 276.

[5] البكري، المغرب، ص 300.

[6] الجوذري، سيرة جوذر، ص 153، هامش (1).

[7] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 174.

[8] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 151؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 38؛ السراج، الحلل السندسية، م2، ص 24.

[9] القزويني، آثار البلاد، ص 276.

[10] المراكشي، المعجب، ص 229.

[11] التجاني، رحلة التجاني، ص 322؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 70.

[12] أنظر، حسن محمود، تاريخ المغرب، ص 160.

القيروان حتى تعاود قبائل زناتة المغرب الأوسط تمردها واستقلالها [1] ، وقد عبر المهدي عن هدفه هذا لما فرغ من إحكام بناء المدينة سنة 305هـ/917م[2] ، بقولـه: " الآن آمنت على الفاطميات يعني بناته"[3] .

ومع أن المهدي جعل الكتاميون شركاؤه بالمهدية، فيما إذا تعرضوا لمهاجمة زناتة لهم، إلا أنه لم يعد يثق بالكتاميين ، بعد الحركة التي قام بها أبي عبد الله وجماعة كتامة عليه، وما حاولوه من خلعه [4] ، والتي أصبحت قبيلة كتامة على أثرها لا تفتأ تثور عليه بين حين وآخر[5] ، ودليل ذلك قيام المهدي بناء مدينة أخرى بجانب المهدية سماها زويلة [6] ، فكان يسكن هو وأهله بالمهدية، وأما عامة كتامة فقد أسكنهم بزويلة، وجعل تجارتهم وأموالهم بالمهدية، فكان الكتاميون يدخلون بالنهار إلى المهدية للمعيشة ، ويخرجون بالليل إلى أهاليهم بزويلة، وعندما قيل للمهدي أن رعيتك في عناء من جراء ذلك، فكان رده مؤكدا عدم ثقته في كتامة إذ قال: "ولكن أنا في راحة لأني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم وبالنهار أفرق بينهم وبين أهاليهم ، فآمن غائلتهم بالليل والنهار"[7] .

أصبحت مدينة تاهرت بالمغرب الأوسط على أثر ولاية مصالة بن حبوس لها سنة 299هـ/912م[8] ، قاعدة حربية للفاطميين ، توجه منها الجيوش نحو المغرب الأقصى لمحاولة

---

(1) أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 173.

(2) أنظر، سرور ، الدولة الفاطمية في مصر، ص 17.

(3) ألقزويني، آثار البلاد، ص 276.

(4) البكري، المغرب، ص 130.

(5) أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 175.

(6) زويلة: وهي مدينة بإفريقية غير مسورة بالقرب من حدود السودان (القزويني، آثار البلاد، ص 94)؛ وهناك مدينة في السودان باسم زويلة، كما أن أحد أبواب القاهرة ، سمي باسم زويلة (عبد العزيز بنعبد الله، الموسوعة البربرية، ص 217)، وزويلة نسبة إلى إحدى قبائل بلاد المغرب (سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص 17).

(7) القرزويني، آثار البلاد، ص 94؛ أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 176؛ وفي موضع آخر يورد القزويني قول المهدي " إن أرادوني بكيد بزويلة فأموالهم عندي بالمهدية ، وإن أرادوني بالمهدية خافوا على أهاليهم بزويلة ، فإني آمن منهم ليلا ونهارا" (آثار البلاد، ص 276).

(8) ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 165.

إخضاعه تحت الطاعة الفاطمية[1] . ففي سنة 304هـ/916م، كلف الخليفة المهدي ، قائده مصالة بالتوجه إلى نكور[2] ، لتأديب أمرائها من آل سعيد بن صالح ، لأنهم تطاولوا على السلطة الفاطمية الجديدة ، وأساءوا الرد على كتاب المهدي الذي تضمن دعوتهم إلى الاعتراف بالسيادة الفاطمية[3] .

وبالفعل انطلق مصالة بن حبوس على رأس جيش من كتامة ومكناسة، ودخل مدينة نكور يوم الخميس لثلاث ليال خلت من المحرم سنة 305هـ/ نيسان 917م، وقتل بها أميرها سعيد بن صالح، ونهب المدينة وسبى النساء والذرية [4] ، ثم كتب مصالة بالفتح إلى المهدي وبعث إليه برأسي سعيد ابن صالح ومنصور بن إدريس بن صالح وغيرهما من رؤوس بني صالح بن منصور، فطيف بها في مدينة القيروان ، ثم نصبت بمدينة رقادة. وأما من نجا من أبناء سعيد بن صالح، فقد لجأوا إلى الأندلس، طلبا لحماية الناصر الأموي لهم، واستقروا بمدينتي مالقة وبجانة ، فرحب بهم الناصر وأمر " بإنزالهم والتوسع لهم وحباهم بالكساء الرفيعة والصلات الجزيلة" [5] ، ثم خيرهم بين المقام بمالقة، أو الانتقال إلى قرطبة عاصمة دولته، فاختاروا البقاء بمالقة لقربها من بلدهم في العدوة المغربية ، وذلك على أمل العودة إلى نكور عندما تسمح لهم الظروف بذلك[6] .

وبعد أن أقام مصالة في نكور قرابة ستة أشهر، اطمأن خلالها على هدوء الأوضاع فيها، ثم ولى عليها رجلا من أصحابه يدعى "ذلول"[7] وترك معه حامية كتامية مع عناصر من مكناسة[8]،

---

[1] أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 178-179.

[2] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 352؛ نكور: مدينة أسسها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور ، وتقع على بعد خمسة ايام من مدينة زواغة، وهي بين نهرين أحدهما نهر نكوروية سميت، وبينها وبين البحر خمسة أميال (ابن عذاري، البيان، ج1، ص 176)، وصارت فيما بعد تسمى مرسى بوزكور، وتسمى حاليا الحسيمة (أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة ، ص 179 هامش 3).

[3] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 352.

[4] البكري، المغرب، ص 96؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 175.

[5] البكري، المصدر نفسه، ص 96.

[6] البكري ، المصدر نفسه، ص 96؛ أنظر، ابن عذاري، البيان، ج1، ص 175.

[7] البكري، المصدر نفسه، ص 96؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 175.

[8] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 353.

وعاد بعدها مصالة إلى تاهرت ، ولكن ذلولا لم يمكث طويلا، حتى تفرق من حوله أغلب أصحابه المشارقة ، ولم يبق معه إلا عددا قليلا منهم، ولما وصلت الأخبار بذلك إلى أبناء سعيد بالأندلس ، قرروا انتهاز الفرصة والعودة إلى نكور ، وتخليصها من ذلول، وقد اتفق الأخوة الثلاثة فيما بينهم وهم : إدريس والمعتصم وصالح، على اجتياز البحر في مراكب مختلفة، في نفس اليوم والوقت، فمن وصل منهم إليها قبل الآخر تكون ولاية المدينة له، فوصل صالح بن سعيد ، وهو أصغرهم سنا، إلى مرسى نكور ، واقبل البربر عليه من كل صوب وحدب، وبايعوه أميرا ، ولقبوه باليتيم لصغر سنه، وزحفوا معه إلى ذلول ، فقتلوه ، وقتلوا من كان معه من أصحابه المشارقة[1] .

ولما عاد حكم نكور إلى أبناء سعيد، كتب صالح بن سعيد إلى عبد الرحمن الناصر يخبره بالفتح، وبانتصاره على الحامية الشيعية، فقرئ كتابه بجامع قرطبة، وعملت من الكتاب نسخ أخرى، قرئت على سائر أعمال الأندلس ، ثم قام الناصر بمساعدة آل صالح، وبإعانتهم على إعادة بناء مدينتهم ، التي خربت أثناء حملة مصالة بن حبوس عليها، حيث أمر " بإمداد آل صالح بما يجل من الأخبية الشريفة والحلي والبنود والطبول والدروع وجميع السلاح"[2] ، ورد صالح على مساعدات الناصر الحيوية له، بهدية رمزية اشتملت على مجموعة من الخيول والجمال [3] ، تعبيرا منه على إقامة علاقات طيبة مع الأندلس .

ومما لا شك فيه، أن حرص الناصر الأموي على تقوية نكور وإعادتها كسابق عهدها، لكي يجعلها قادرة على الوقوف أمام الانتشار الفاطمي في المغرب، الذي بدأ يهدد بلاده ، ولا سيما أن الفاطميين حققوا ما لم يستطع العباسيون تحقيقه من قبل في الاستيلاء على المغربين الأوسط

---

(1) البكري، المغرب، ص 96-97؛ وحسب ابن عذاري أن أخوة صالح بقوا في البحر مدة شهر يترددون فيه حتى وصلوا إلى نكور (البيان، ج1، ص 180)، ولم يذكر ابن عذاري سبب بقائهم في البحر طوال هذه المدة.

(2) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 175.

(3) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 175.

والأقصى ، واصبح لا يفصلهم عن الأندلس إلا ذلك الممر المائي الضيق ، الذي لا يشكل عائقا في وجه الانتشار العسكري[1] .

وظلت نكور على ولائها للأمويين ، منذ أن عاد إليها صالح بن سعيد سنة 305هـ/917م، إلى أن دخلها موسى بن أبي العافية في مطلع عام 317هـ/929م، في عصر ولائه للفاطميين ، وقبيل تحوله نحو الأمويين في آخر العام المذكور، فقام موسى آنذاك بهدمها، وخرب آثارها ومعالمها، انتقاما من أمرائها الذين ارتبطوا بالولاء مع الأمويين وخلعوا طاعة المهدي الفاطمي[2] .

واستأنف مصالة بن حبوس، قائد الخليفة المهدي الفاطمي، خروجه من تاهرت ، قاعدة الفاطميين بالمغرب الأوسط، سنة 312هـ/924م، لمحاولة تطويق مضارب زناتة [3] ، الممتدة من وادي شلف حتى تلمسان[4] ، فتجول مصالة بمن معه من قوات كتامة ومكناسة بين مضارب زناتة، ودوخ بلدهم ، وقتل وسبى منهم عدد كبير، ثم أرسل بعض جيشه لمهاجمة مناطق نفوذ فرع مغراوة الزناتية، التي ينتمي لها زعيم زناتة ، محمد بن خزر، توقعا منه – فيما يبدو- بوجود ابن خزر، الذي لم يواجهه لغاية تلك اللحظة، في هذه النواحي، التي كانت تضم معظم حماة زناتة، ووجوه رجالها، ولكن محمد بن خزر، الذي كان يرقب تحركات الجيش الفاطمي عن بعد، استغل وجود مصالة في عدد قليل من جنوده، وهاجمه على غفلة ، فدارت بين الفريقين معركة قوية، قتل فيها مصالة، وانهزم ما تبقى من أصحابه، وذلك يوم الجمعة ، لعشر بقين من شعبان سنة 312هـ/ تشرين ثاني 924م[5] .

---

[1] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 120.

[2] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 353؛ ولم تسعف الظروف مصالة بن حبوس للعودة إلى نكور بعد رجوعها لطاعة الأمويين على يد صالح بن سعيد بسبب انصرافه إلى تنظيم شؤون تاهرت، ثم لمواجهة ثورة وعصيان أمراء سجلماسة سنة 309هـ/ 921م (أنظر، لقبال، المرجع نفسه، ص 353).

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 189.

[4] أنظر، عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير، ج2، ص 616.

[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 189؛ ورغم أن عبد العزيز سالم، يرى أن الناصر الأموي كان قد استمال مغراوة، وبنو يفرن الزناتيين، قبل حملة مصالة سنة 312هـ/924م، وأن الناصر اعتبر انتصار ابن خزر في تلك الحملة، انتصارا ⇐

وجد محمد بن خزر، الفرصة مناسبة بعد مقتل مصالة بن حبوس عامل تاهرت وانشغال قوات كتامة ومكناسة ، بتسلم أخيه يصل بن حبوس ولاية المدينة ، وحاول الهجوم على تاهرت قاعدة الفاطميين واحتلالها، فقد زحف ابن خزر بجموع زناتة وبمن انضم إليه من قبائل البربر الأخرى، في العام التالي، أي سنة 313هـ/925م ، للاستيلاء على تاهرت ، ولكن يصل بن حبوس، خرج على رأس ثلاثمائة فارس من كتامة ومكناسة، والتقى معه خارج أرباض المدينة، فهزم ابن خزر في معركة ضارية ، قتل فيها معظم رجال زناتة، وغنم ما بحوزتهم ونجا ابن خزر بمن تبقى معه من زناتة ، ثم أرسل يصل بن حبوس كتابا إلى الخليفة المهدي، في عاصمته الجديدة بالمهدية، يخبره بالنصر، وذلك في شهر شعبان من نفس العام(1) .

ولكن محمد بن خزر ، لم ييأس من تكثيف جهوده، ومعاودة مهاجمة تاهرت التي تعتبر قاعدة انطلاق للجيوش الفاطمية ضد المغربين الأوسط والأقصى، حيث مناطق نفوذ زناتة فيهما، وخاصة المغرب الأوسط ، الذي يطلق عليه اسم وطن زناتة (2) ، ولذلك زحف محمد بن خزر الزناتي مرة أخرى ، إلى تاهرت في بداية سنة 314هـ/ 926م، وحاول إخراج يصل منها واحتلالها، بيد ان مقاومة السكان له، حالت دونه ودون الاستيلاء عليها، وأجبروه على الهزيمة عنها، وكان الخليفة المهدي، قد أنفذ لإنجاد المدينة من تهديدات زناتة لها ، قائده موسى بن محمد الكتامي، مع مجموعة من خيرة القادة الفاطميين، ولما وصلوا إلى مشارف طبنة هرب محمد بن خزر إلى الصحراء ، وخلف أخاه عبد الله بن خزر ، مع بعض رجال زناتة ، بوادي مطماطة ، فدارت بينه وبين الجيش الفاطمي معركة ، كان النصر فيها لعبد الله بن خزر (3) ، فاضطر المهدي

لسياسته الإفريقية على الفاطميين (أنظر، المغرب الكبير، ج2، ص 616)؛ إلا أنه لا توجد أيا من المصادر التاريخية المستخدمة في هذه الدراسة ، تؤيد ما ذهب إليه عبد العزيز سالم، كما أن قتل مصالة بن حبوس على أيدي المغراويين الزناتيين لم يكن السبب فيه هي المصالح أودسائس الأمويين ، لانه – كما أسلفنا- لم يكن لغاية 312هـ/926م، ما يدل على قيام علاقة بين زناتة والأمويين (أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 181 هامش 7).

(1) إدريس، تاريخ الخلفاء، ص 214-215.

(2) ابن خلدون، العبر، ج7، ص 5.

(3) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 191.

إلى إرسال حملة ثانية، عهد قيادتها إلى كتامي آخر [1] ، وهو إسحق بن خليفة، وكان برفقته ، مجموعة من أشهر قادة كتامة ، ووافق وصولهم إلى المغرب الأوسط قيام قبيلة لماية، وما جاورها من قبائل البربر الأخرى بثورة ضد الفاطميين، وأرسلت هذه القبائل إلى محمد بن خزر ، لمساندتهم في ثورتهم تلك، ولذا ، اضطر إسحق الكتامي لطلب المدد من المهدية [2] ، ويبدو أن المهدي استجاب لطلبه بسرعة فأرسل في نهاية سنة 314هـ/926م، جيش كتامي ثالث بقيادة يحيى بن سليمان بن كافي [3] الملموسي [4] ، ومجموعة من رؤساء كتامة [5] ، لتعزيز الجيش الفاطمي المرابض بالمغرب الأوسط، الذي اصبح يواجه تحالف قوى مكون من زناتة ولماية، وأحلاف قبائل بربرية أخرى، وتخضع كلها لإشراف عبد الله بن خزر ، ورغم المعارك التي جرت بين الجيش الفاطمي، وبين عبد الله بن خزر وتحالفه، إلا أن الفاطميين لم ينجحوا للحد من نفوذ زناتة[6] .

ومن اللافت للنظر، أن البكري قد انفرد في أثناء حديثه عن مدينة مليلة المغربية [7] ، برواية تاريخية لم ترد عند غيره من مؤرخي المغرب والأندلس، مفادها أن الناصر الأموي قد فتح مدينة مليلة سنة 314هـ/926م، وأنه بنى سورها معقلا إلى موسى بن أبي العافية المكناسي، واستدل على ذلك بمجموعة أبيات شعرية ، لأحمد بن محمد بن موسى الرازي، إذ يقول:

والملك الناصر دين الله	فيما يحوط الدين غير ساه
بنى لموسى عدة مدينة	منيعة شاهقة حصـــــــينة

---

[1] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 355.

[2] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 191.

[3] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 215.

[4] إدريس ، المصدر نفسه، ج5، ص 215، هامش 118.

[5] إدريس، المصدر نفسه، ج5، ص 215.

[6] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 191.

[7] مليلة : مدينة مسورة بسور حجارة ، وفي داخلها قصبة مانعة ومسجد وحمام وأسواق (البكري، المغرب، ص 88).

ذلت لها تاهرت والأفارقة ولم يطف بنيانها العمالقة[1]

ومن المستبعد أن عبد الرحمن الناصر قد قام بإرسال قوات أموية أندلسية ، في هذه السنة – أي عام 314هـ - لاحتلال ثغر مليلة ، وذلك لعدة أسباب منها، خوفه من المواجهة المباشرة مع الفاطميين ، وهو الأمر الذي لم يسع إليه منذ بداية حكمه، إذ فضل اصطناع حلفاء له في العدوة المغربية ، ليقوموا بقتال الفاطميين، ومحاولة القضاء على خلافتهم ، بدلا من قيام القوات الأموية بهذا الدور، التي كانت مشغولة آنذاك بمشاكلها الداخلية، والاستعداد للخطر البيزنطي الذي بدأ يهدد بلادهم، ثم أن الناصر لم يكن قد أقام تحالفا بعد مع أي من حلفائه بالمغرب، وهم الأدارسة، وموسى بن أبي العافية المكناسي ومحمد بن خزر الزناتي، لغاية هذا التاريخ، أي سنة 314هـ، فإذا اعتبرنا مجازا أنه لم يخش الخطر الفاطمي، ورغب في المواجهة المباشرة مع الفاطميين فإنه لا بد أن يكون قد حسب حساب قبائل البربر، وخاصة قبيلتي مكناسة وزناتة ، الضاربة بطونهما بالمغربين الأوسط والأقصى ، اللذين لن يسمحا للدولة الأموية ، من انتهاك سيادة أراضيهما.

كما أن مدينة مليلة محاذية لأملاك الأمراء الأدارسة ، وأن احتلالها سيؤدي بالتالي إلى تهديد أملاكهم ، وهو أمر لن يسمحوا به، فهم عارضوا احتلال عبد الرحمن الناصر لمدينة سبتة عام 319هـ/931م، رغم ما كان يربطهم من تحالف معه في تلك الفترة، فكيف إذا لن يعارضوا احتلال مليلة رغم عدم وجود تحالف لهم مع الأمويين ، حين احتلالها عام 314هـ/ 926م. فلعل البكري اختلط عليه الأمر بتلك المعلومات التي أوردها عن مليلة ، وأنه قصد بها سبتة، فأخطأ حينما ذكر عام 314هـ، ويبدو أن قصده عام 319هـ، إذ أن السور الذي ذكره بأنه كان معقلا لموسى بن أبي العافية ، ربما يكون سور سبتة الحصين، فموسى حسب الروايات التاريخية لم يكن بعد قد عقد تحالف مع الناصر، فكيف يكون الناصر قد بنى السور لموسى وهو لغاية الآن لم يدن بولائه إليه، ونستدل على ذلك من كلام البكري نفسه ، حينما أورد مجموعة من الأبيات للشاعر أحمد بن محمد

---

[1] البكري، المغرب ، ص 89.

ابن موسى الرازي، تبين أن مليلة جهزت لتكون مناظرة لمدينة تاهرت الفاطمية، ولكن الشاعر لم يشر إلى مليلة صراحة في هذه الأبيات ، واكتفى بقولـه " عدة مدينة" [1] . ولكن ذكر تاهرت بالاسم، ويمكن أن يكون البكري وقع في نفس الخطأ ، فاستشهد بهذه الأبيات لمدينة مليلة ، ثم إن البكري على غير عادته ، فإنه عندما ساق روايته عن فتح مليلة، اكتفى فقط بالإشارة إلى أن الناصر فتحها سنة 314هـ ، ولم يعط تفصيلات عن كيفية وظروف فتحها، وهذا يدعونا للشك وعدم الأخذ بهذه الرواية.

وأما بشأن ما ذهب إليه أحد الباحثين، عندما أخذ برواية البكري واعتباره احتلال مليلة من قبل الناصر تعزيز لحليفه محمد بن خزر الزناتي [2] ، فلعل المؤرخ غاب عن باله أن التحالف بين الناصر وابن خزر لم يتم بعد، إذ تم التحالف بين الطرفين سنة 317هـ/931م.

وعلى أية حال، لم تفلح الحملات الفاطمية المتوالية على المغربين الأوسط والأقصى والتي كان على رأسها أبرز قادة كتامة ، للحد من نشاط زناتة المعادي للفاطميين، ولذا ، كان لا بد للخليفة الفاطمي المهدي من اتخاذ خطوة أكثر فعالية ضد زناتة، فحينئذ أمر ابنه القائم بأمر الله بالخروج إلى المغرب الأوسط، لملاحقة محمد بن خزر، والقضاء عليه، وعلى الفور جهز القائم حشود كتامة بعض جنود إفريقية ، وانطلق من المهدية يوم الخميس ، السابع من صفر سنة 315هـ/أيار 927م، لمحاربة زناتة [3] ، وكان طريق حملته، القيروان مرورا بالأربس، فباغاية ، وتوغل في مضارب كتامة ، وبنى برزال (وهم فرع من زناتة) ، ثم مكلاتة الذين قاوموا حملته فتمكن من هزيمتهم ثم مضارب مطغرة ، ولما وصل القائم إلى سوق إبراهيم في حوض الشلف ، أقام فيها أكثر من شهر، لصعوبة المسير في ظروف الجو القاسية ، لكثرة الأمطار والوحل وشدة البرد[4] .

---

[1] البكري، المغرب، ص 89.

[2] أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 123.

[3] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 215.

[4] ابن عذاري ، البيان ، ج1، ص 191؛ أنظر، لقبال ، دور كتامة ، ص 356؛ ويبدو أن أخبار القائم قد انقطعت عن المهدية بسبب أحوال الطقس السيئة ، فخاف عليه الخليفة المهدي، ولما وصل كتاب القائم من المغرب الأوسط ، يطمئنه على

وانضم إلى القائم بأمر الله في أثناء مسيره في وسط المدن المغربية العديد من قبائل البربر وبعض أهل تلك المدن ، مثل قبائل مزاتة وهوارة وصدينة وعجيسة وأهل تيجس ، وقصر الإفريقي، وبعث القائم بزعماء هؤلاء القبائل ، ووجوه المدن الموالين للفاطميين، إلى المهدية ليسكنوا بها، ضمانا لعدم نقض قبائلهم ومدنهم عهودهم مع الفاطميين [1] ، ويبدو أن القائم بأمر الله ارتأى بناء قاعدة فاطمية جديدة وهي مدينة المسيلة وسماها " المحمدية" ليضمن استمرار ولاء الموالين الجدد من جهة ، ثم لتكون حاجزا بينه وبين زناتة الضاربة بطونها بتلك المناطق، ليمنع وصول أقوى بطونها وهم المغراويين من مهاجمة تاهرت قاعدة الفاطميين بالمغرب الأوسط من جهة أخرى[2] ، ولذلك اختارها في وسط أرض بني برزال الزناتيين، وبني كملان ، وعلى مقربة من هوارة [3] ، ومن بقية قبائل البربر الأخرى ، وقد أمر القائم بالإشراف على بنائها، أحد رجاله المخلصين وهو علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي، المعروف بابن الأندلسي [4] ، ولما استكمل بناءها علي بن حمدون ، ولاه القائم عليها [5] ، ونزلت معه قبيلة عجيسة في المدينة الجديدة [6] ، وبذلك أضحت المسيلة محاطة بعدد لا بأس به من قبائل البربر

أحواله ، بكى المهدي من شدة فرحه، وقال لمن حضر مجلسه من وجوه رجاله " هذا مولاكم يذكر في كتابه أنه أقام في مناخ واحد شهرا كاملا، عليه المطر كل يوم بالغدو والآصال ، وأنه مشى عقابا كثيرا راجلا، إذ لم يستطع الركوب فيها لوعرها ويقتات كل يوم بيضة أو نحوها لكثرة الذباب في العساكر" (ابن عذاري، البيان، ج1، ص 192).

[1] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 216؛ كما يذكر إدريس أن بعض فروع زناتة انضمت إلى القائم بأمر الله (عيون الأخبار، ج5، ص 216)؛ ولعله قصد بتلك الفروع بني برزال (ابن عذاري ، البيان، ج1، ص 190).

[2] ابن عذاري، البيان ، ج3، ص 268؛ ج1، ص 190؛ في حين يرى الجنحاني أن اختيار موقع المسيلة ، يمكن أن يكون له علاقة بجانب استراتيجي مرتبط بعامل اقتصادي ، والمتعلق بتامين المسلك التجاري ، سجلماسة ـ تلمسان ـ بلاد الزاب- إفريقية، لأن المسلك الشمالي مهدد من الأمويين، وحلفائهم والمسلك الصحراوي الجنوبي يسيطر عليه الخوارج، وبطون قبيلة زناتة بصفة عامة (أنظر، دراسات ، ص 168).

[3] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 190؛ كاتب مراكشي ، الاستبصار، ص 172؛ المقريزي، المقفى الكبير، ج2، ص174.

[4] البكري، المغرب ، ص 59؛ كاتب مراكشي ، الاستبصار، ص 172.

[5] البكري، المغرب، ص 59؛ إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 217؛ وكان مقتل علي بن حمدون أثناء ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين ، سنة 336هـ (البكري، المغرب، ص 59)، فولي بعده ابنه جعفر ولاية المدينة وصار أميرا على الزاب كله وظل على ذلك حتى سنة 360هـ (البكري، المصدر نفسه، ص 59).

[6] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 217.

الموالية للفاطميين ، إضافة إلى مجموعة القبائل التي كونت مجتمعها الجديد [1] ، كما أن القائم أمر عامله بتخزين المؤن والأقوات فيها، لتجهيز الجيش الفاطمي الخارج لمحاربة زناتة [2] ، ولا غرو أن إنشاء المدينة بهذا الموقع ، وبما جهزت به من احتياطات قد نجحت في تقليص نشاط زناتة الموجه ضد تاهرت، بواسطة الحملات الفاطمية التي كانت تنطلق منها إلى المناطق المجاورة لها، خاصة أثناء ثورة أبي يزيد الخارجي[3] .

ولم يغفل القائم بأمر الله في أثناء إقامته في معسكر سوق إبراهيم الكائن في حوض الشلف ، بسبب رداءة الطقس عن تتبع أخبار محمد بن خزر الزناتي فحسب المؤرخ إدريس " أنفذ القائم البرد [4] ، خلف ابن خزر ليعرف أحواله فأخبر أنه ولى هاربا على وجهه في الرمال حيث لا يعرف له مسلك وتواترت بذلك الأخبار ، فترك من الخيل والرجال ما يحتاج إليه لضبط تاهرت، ورحل حتى وصل أومنت غرة جمادى الأولى" [5] ، سنة 316هـ/آب 928م [6] ، وكان آنذاك قد أخضع القائم قبائل هوارة ولماية إلى طاعة الفاطميين ، وحينها تقدم إلى تامغلت ، وأقام فيها شهرين يراقب تحركات ابن خزر، حيث كان الأخير معسكر بموضع يقال له أورن، ولم يلبث القائم أن ترك

---

(1) أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 356.

(2) أبن أبي دينار، المؤنس، ص 72.

(3) أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 356؛ وتشير الروايات التاريخية ، أن الناصر الأموي أرسل في هذه السنة أي 315هـ، إلى المغرب الأقصى قوات أندلسية للقضاء على حركة حاميم المفتري ابن منَّ الله (ابن عذاري، البيان، ج1، ص 92؛ مجهول، مفاخر البربر، ص 225)، الذي ادعى النبوة واتخذ من جبال غمارة معقلا له، وشرع ديانة جديدة، إذ جعل الصلاة مرتان واحدة عند طلوع الشمس والأخرى عند غروبها ، وفي كل صلاة ثلاث ركعات ، وعند السجود يطوون أيديهم تحت وجوههم ، وابتدع قرآنا باللغة البربرية (ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 98-99)، وتمكنت القوات الأندلسية من القبض عليه وقتله على ساحل مصمودة ، بالقرب من أحواز طنجة وبعث رأسه إلى قرطبة ، بعد أن كان قد استجاب إليه كثير من البربر (ابن عذاري، البيان، ج1، ص 192)؛ والأرجح أن الناصر لا يمكن أن يكون قد أرسل قوات إلى المغرب لأن ذلك سيوقعه في صدام مباشر مع الفاطميين، كما أنه لم يكن قد عقد تحالف لغاية هذا العام مع قبائل البربر، بالعدوة المغربية ؛ وحول تفاصيل هذه الحركة راجع (ابن أبي دينار، الأنيس، ص 98-99؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 192؛ مجهول ، مفاخر البربر، ص 225؛ كاتب مراكشي، الاستبصار، ص 191-192)؛ وانظر (جورج مارسيه، بلاد المغرب، ص 59-60).

(4) لعل البرد هذا، أحد جواسيس الفاطميين، الذين كانوا يعتمدون عليهم عند إرسالهم في مقدمة الجيوش لتتبع أخبار العدو؛ أو أنه صاحب البريد والخبر.

(5) عيون الأخبار، ج5، ص 228-229.

(6) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 193.

حرب زناتة وعاد إلى المهدية عبر مدينة طبنة دون أن ينجز المهمة التي خرج من أجلها وهي القضاء على محمد بن خزر أو إخضاعه لطاعة الفاطميين[1] .

ويمكن تفسير عودة القائم بأمر الله المفاجئة إلى المهدية بأنها إما بسبب فرار محمد بن خزر إلى الصحراء ، فرأى القائم عندئذ أن وجوده بالمغرب الأوسط، لا مسوغ له، بعد أن قضى قرابة السنة في مطاردة بطون زناتة هناك [2] ، وإما يكون بسبب الرسالة التي وصلت إلى القائم من قبل ابنه القاسم ، يخبره فيها أن الناس تحدثوا بمبايعة المهدي لابنه أحمد المكنى بأبي علي، وأنه صلى بالناس عيد الفطر وعيد الأضحى ، فعندما سمع القائم تلك الأنباء المقلقة ترك حرب زناتة وعاد إلى المهدية دون أن يلقى ابن خزر[3] .

ومن المرجح أن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي، كان يرقب عن كثب مجمل التطورات السياسية على الساحة المغربية، ولما رأى أن الجيوش الفاطمية المؤلفة من أنصارهم الكتاميين ، أصبحت ترتاد بلاد المغرب الأقصى ، بقصد إخضاعه تحت السيادة الفاطمية ، وكان المغرب الأقصى ، لا يفصله عن بلاد الأندلس سوى ذلك الممر المائي الضيق الذي لا يشكل عائقا أمام المد العسكري الفاطمي[4] ، إضافة إلى ما حققته الدعاية الشيعية من نجاحات داخل بلاد المغرب بين قبائل البربر، بصفتها خلافة إسلامية شيعية ، فحينئذ فكر الناصر الأموي جديا في مواجهة خطر الفاطميين ، لذا، رأى أن يباشر باتخاذ إجراء سياسي داخلي هام في دولته لم يسبق لغيره من أمراء بني أمية بالأندلس من التجرأ على الإقدام عليه، وهو رفع منزلة دولته السياسية من عهد الإمارة إلى مرتبة الخلافة [1] ، وذلك حينما " تلقب بالناصر لدين الله، وتسمى بأمير المؤمنين"[2] ، وأمر

---

[1] ابن عذاري ، المصدر نفسه، ج1، ص 193؛ أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 184.

[2] أنظر ، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 184.

[3] ابن عذاري، البيان ،ج1، ص 192.

[4] أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 120.

[1] أبن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 241؛ وكانوا الأمراء الأمويون يسمون قبله بني الخلائف وكان يلقب هو بالناصر (القرماني ، أخبار الدول، ص 64)، ومما قيل في سبب عدم اتخاذ أمراء بني أمية بالأندلس الذين سبقوا الناصر للقب الخلافة ، بأنهم كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين (أنظر ، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 429).

القاضي أحمد بن بقي بن مخلد بن يزيد بالدعاء له بالخلافة في خطبة يوم الجمعة بمسجد قرطبة ، مستهل ذي الحجة سنة 316هـ/آذار 928م [3] ، وبينما كان إجراء الناصر باتخاذ لقب الخلافة ، نكاية بأعدائه الشيعة الفاطميين [4] ، فإنه أيضا لما رأى من ضعف الخلافة العباسية السنية بالعراق [5] ، والتي أصبح دور الخلفاء العباسيين فيها مجرد دور اسمي، وبخاصة أيام الخليفة العباسي المقتدر[6] ، ولذلك بادر إلى إحداث نوع من التوازن السياسي باستحداث خلافة سنية جديدة بالأندلس قادرة على مواجهة الخلافة الشيعية بالمغرب، وفي نفس الوقت تكون بديلا لجمهور أهل السنة والذين لم تعد الخلافة السنية بالمشرق تلبي طموحاتهم الدينية والسياسية ، ويبدو أن هذه العوامل كلها ، هي التي شجعت الناصر على الخروج عن الأصل النظري السني للخلافة ، والمتضمن عدم تجزئة الخلافة ، ولكن الناصر جعلها موضع اجتهاد وأجاز الفقهاء السنيون تعددها ما دام هناك مصلحة عامة للمسلمين ، واعترفوا بشرعية وجود أمامين يتوليان حكم المسلمين في وقت واحد على شرط أن تكون بينهما مسافة كبيرة حتى لا يحدث التصادم بينهما[7] .

كما يمكن أن الناصر الأموي كان غرضه من اتخاذ لقب خليفة، لتحقيق هدف سياسي خاص، على الساحة المغربية، وذلك فيما يبدو ، لكسب ود زعماء قبائل البربر، المعارضين للخلافة الفاطمية الشيعية والذين كانت تعوزهم، تلك الخطوة الجريئة من قبل الناصر الأموي، حينما أعلن الخلافة السنية الجديدة بالأندلس، حيث أضحت لزعماء البربر المعارضين ملاذا شرعيا ضد الشيعة

---

[2] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 72؛ أنظر، الحميدي ، جذوة المقتبس، ص 13.

[3] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 242؛ ابن عذاري ، البيان، ج2، ص 198؛ وانظر نص كتاب الناصر الاموي ، الذي يأمر فيه القاضي أحمد بن بقي، وبقية عماله بالدعاء له على منابر الأندلس، باسم أمير المؤمنين ، عند ابن عذاري (البيان، ج2، ص 198-199).

[4] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 72؛ 123.

[5] الحميدي، جذوة المقتبس، ص 13؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 72.

[6] الحميدي، جذوة المقتبس، ص 13؛ حيث قام موالي الترك بالاستيلاء على السلطة بالعراق، وحجروا على الخلفاء العباسيين (أنظر ، عنان ، دولة الإسلام، ج2، ص 429).

[7] أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 138.

الفاطميين ، وبديلا موازيا من الناحيتين السياسية والروحية لجمهور أهل السنة من بين قبائل البربر في العدوة المغربية ، عن الخلافة الفاطمية الشيعية.

ومما يعزز الهدف السياسي، الذي أراده الناصر الأموي، من وراء اتخاذه لقب خليفة، من أجل كسب ود زعماء البربر على الساحة المغربية، أنه لم ترد أية إشارة تاريخية تدل على أن الناصر الأموي أرسل إلى زعماء تلك القبائل يدعوهم لطاعته، أو يتحالف معهم، قبل اتخاذه اللقب ، ولكن بعد أن تقلد الناصر منصب الخلافة بالأندلس، بنحو عام، أي بحدود سنة 317هـ/929م، نجد أن الإشارات ترد عن قيام الناصر إلى الإرسال لزعماء البربر ، يدعوهم لطاعته ويبعث إليهم بصنوف الهدايا [1] ، فهذا يدل على أنه أدرك أبعاد الخطوة السياسية التي قام بها، وبما ستؤدي من كسب المؤيدين والأنصار له ضد أعدائه الفاطميين.

وبالجهة المقابلة ، فإن زعماء البربر المعارضين والذين رغبوا بالحفاظ على استقلالهم السياسي، وجدوا البديل السياسي والروحي الذي يمكنهم من غرضهم المنشود ، ونكاية بالفاطميين، سارعوا للانضمام إلى دعوة الناصر ، كما وجد بعض المنافقين من زعماء القبائل الذين تذبذبوا في ولائهم بين الطرفين الأموي والفاطمي، ومما يوضح وجهة النظر السابقة ، هذا النص التاريخي الذي أورده ابن حيان بقوله : " ففتح (الناصر) ذلك بمخاطبة من تقدمت له بأسلافه ملوك بني أمية من أمراء تلك البلاد وصلته ، أو ائتلف بينهم آصرة يستثير وصائلهم ويصل أحبلهم ويستدعي ولايتهم ، ويسبب ذلك بإمناء مهاداتهم وإكرام أسبابهم وقضاء حوائجهم ، فلم يلبث أن هوت إليه أفئدة كثير من زعمائهم ، بين مصحح في ولايته، مستجيب لدعوته مغتنم لعطيته مستعين بقوته على مدافعه من قد هد ركنه من بني عبيد الله إمام الشيعة ، المقتحم أرضه عليه ودونه، وبين منافق له مقيم، ولسوقه بينه وبين تلك الشيعة منذ بدت بينهما العداوة مائل مع الدولة مجتلب لعاجل من اشتمل به من الرشوة ، فاستوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء ، قاموا بدعوته ورفعوا فوق أعلامه

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 256.

وعاظو [1] ، عبيد الله الشيعي، صاحب إفريقية ، مضطهدا بدعوته وقلبوا مجانهم إليه ونصبوا الحرب لرجاله، فكفكفوهم عن الإيغال في بلدهم من قاصية المغرب يهضوهم بالكيد والمكر"[2].

ولا غرو، أن دعوة الخليفة الناصر الأموي ، لزعماء قبائل البربر للدخول في طاعته، كانت طالعة السعد بالنسبة إلى محمد بن خزر، زعيم قبيلة زناتة، الذي وقف موقف الند للند، ضد الفاطميين ، منذ بداية قيام دولتهم بالمغرب، فوجد فرصته في ضرب أعدائه الشيعة ، وتقوية نفوس رجاله الزناتيين، الذين أعيتهم الحرب من جراء مقارعتهم للكتاميين جنود الدولة الفاطمية المخلصين، ولذلك كان محمد بن خزر أول من ارتسم في الدعوة الأموية حينما كتب الناصر الأموي يعرض عليه الدخول في طاعته سنة 317هـ/ 929م، ويفسر ابن حيان سرعة استجابة ابن خزر للدعوة الأموية، بسبب الولاء المذهبي المزعوم بين الأمويين والزناتيين [3] ، حيث يقول : "إذ كان جده الأعلى – يقصد محمد بن خزر- صقلاب بن وزمار الزناتي ، أسلم على يدي عثمان بن عفان رضي الله عنه، بزعمهم ، فتولاه الخلفاء من بني أمية من بعده، وترك ولايته وصية في عقبه، قام محمد بن خزر ، وقته هذا، بحفظها ، فهوى إلى الناصر لدين الله بقلبه وتوليه لصدقه، وصدف[4] ، عن عبيد الله وآله ديانة، واستبصر في حربهم

---

[1] هكذا وردت في النص، ولعل الصواب (وغاضوا).

[2] المقتبس، شالميتا، ص 257.

[3] سبق وأن ناقشت هذه القضية، أثناء حديثي عن أسباب الصراع الفاطمي والأموي وحول تفاصيل ذلك راجع السبب المذهبي في الصراع الفاطمي أو الأموي.

[4] هكذا وردت في النص ولعلها " صد".

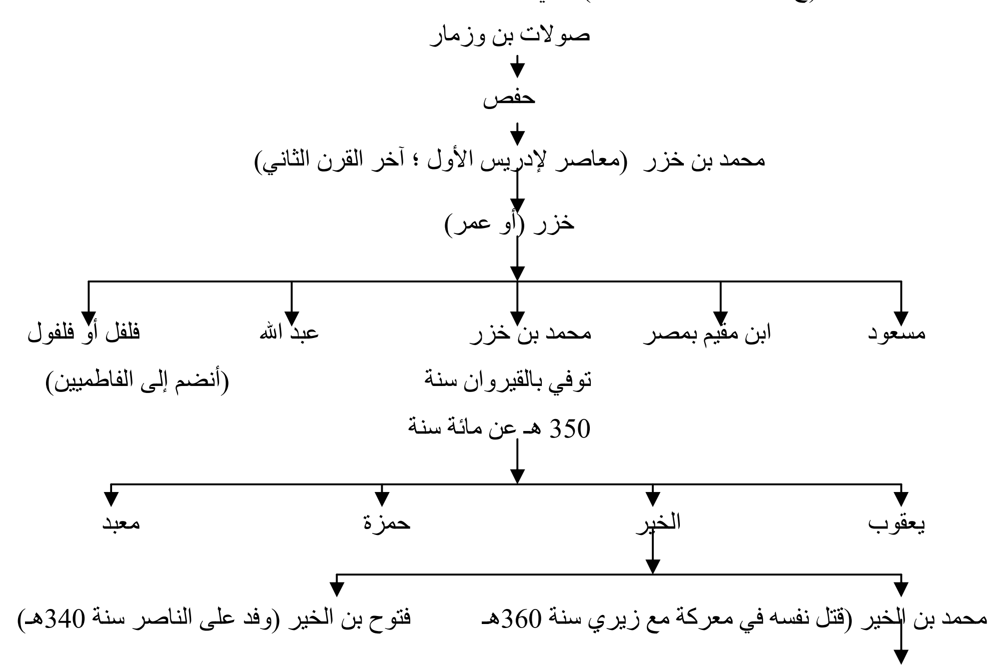
حسبة" [1] .

ومما يؤكد أن قبيلة زناتة كانت من أوائل البربر التي انضمت إلى الدولة الأموية بالأندلس، ذلك النص التاريخي الذي أورده صاحب كتاب مفاخر البربر بقوله: " وتخطاهم – يقصد أمراء الدويلات المغربية الشمالية آنذاك – عبد الرحمن إلى من خافهم من زعماء قبائل البربر، يستألفهم ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم، ممدا لمن عجز برجاله، مقويا لمن ضعف بماله، متفقدا لهم في سائر الحالات بألطافه متعهدا بوجوه رسله وخواصه ، إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه، وارتسموا بطاعته" [2] .

وبعد أن أعلن محمد بن خزر دخوله في الدعوة الأموية ، باشر إظهار نشاطه السياسي والحربي لصالح الأمويين ، إذ قام بإرسال رسالة إلى الخليفة الناصر الأموي سنة 317هـ/929م،

---

(1) المقتبس، شالميتا، ص 257؛ ولتوضيح سلسلة نسب محمد بن خزر يمكن نقل الشجرة التقريبية التالية التي رسمها محقق كتاب عيون الأخبار (ج5، ص 386 هامش 94) وهي:



(2) مجهول، ص 129.

ضمنها، ببعض الهدايا النادرة، وطالعه فيها على حربه مع المهدي الفاطمي وأنصاره الكتاميين ، وطرده إياهم من بلد الزاب وطبنة [1] .

وينوه فيها إلى جهود ابنه الخير وأخوانه عبد الله ومسعود ابني خزر، بما أحرزه من انتصارات على الكتاميين وغيرهم من أنصار الفاطميين ، وكان الناصر الأموي، يبارك أعمال ابن خزر تلك وأعمال أسرته " ويغري (الناصر) بالجد في حرب الملحد الشيعي عبيد الله وأصحابه كل وقت بأنواع من هداياه وألطافه وخلعه وتحفه، حتى خلص محمد بن خزر هذا، ومن يتبعه من قبائل زناتة في حزب الناصر لدين الله ، وتحققوا بولايته، وقاموا بدولته" [2] .

ولم يكتف الخليفة الناصر ، بإرسال الهدايا والخلع لزعيم زناتة محمد بن خزر، بل أنفذ إليه سفيره محمد بن عبد الله بن أبي عيسى ، في نفس السنة ، لكي يعمل على توطيد العلاقة مع ابن خزر، ويحرضه على قتال الشيعة الفاطميين، وكان محمد بن عبد الله دبلوماسيا أندلسيا أمويا يتردد على حلفاء الناصر الأموي بالعدوة المغربية ، ولما عرف عنه من الذكاء والدهاء وحسن التدبير، استطاع أن يكسب طاعة أهل العدوة المعارضين للفاطميين وأصبحت له عندهم مكانة خاصة ، ثم أن السفير الأموي عندما عاد إلى الأندلس ، بعد زيارته لمضارب زناتة ، حمل معه أنباء انتصارات الزناتيين على الفاطميين [3] ، وذلك حينما جرد محمد بن خزر حملة زناتية ، بقيادة أخيه عبد الله بن خزر، إلى مدينة المسيلة الفاطمية واستولى عليها، بعد أن فر عنها علي بن حمدون عامل الفاطميون عليها، ولجأ إلى الجبال القريبة منها، ليحتمي فيها، وأرسل عبد الله إليه بعض الزناتيين ليحاصروه بتلك الجبال، ثم توافدت القبائل البربرية المجاورة للمسيلة تعلن طاعتها لعبد الله بن خزر[4] ، وعلى

---

(1) ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 258؛ ويذكر ابن عذاري أن محمد بن خزر كان آنذاك أي سنة 317هـ/930م، قد تغلب على الزاب كله (البيان، ج1، ص194).

(2) ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 258.

(3) ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 258-259.

(4) ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 259.

رأسها بني برزال التي بعثت بولائها وبيعتها للناصر الأموي [1] ، وأخذ عبد الله الرهائن من تلك القبائل وأرسلها إلى أخيه محمد بن خزر، ثم اختار معسكرا جديدا لجموع زناتة في موضع يعرف "بسوق ابن ماها" ، خلف مدينة تاهرت من جهة إفريقية ليقطع عن تاهرت الإمدادات والمؤن الواصلة لها من المهدية ، ولتصبح الجيوش الزناتية حاجزة بين الفاطميين بإفريقية ، وبين أنصارهم بالمغربين الأوسط والأقصى[2] .

ثم توالت أنباء انتصارات الزناتيين على الفاطميين وأنصارهم الكتاميين بالورود إلى البلاط الأموي بقرطبة ، سنة 317هـ/929م ، حيث أرسل الخير بن محمد بن خزر، الذي كان نائبا لأبيه على مدينة وهران وما جاورها من مناطق على الساحل الوهراني، رسالة إلى الخليفة الناصر في نفس العام ، يخبره فيها بهجومه على أحد الحصون الفاطمية المنيعة في المكان المعروف "بهندرج"، الذي بناه القائم بأمر الله الفاطمي حينما قدم بحملته سنة 315هـ/ 927م، لمحاربة بطون زناتة، ومطاردة زعيمها محمد بن خزر، فهدم القائم آنذاك حصن زناتة المسمى "مغرفة" ، واستخدم حجارة وخشب هذا الحصن ، في بناء الحصن الفاطمي، وشحنه بالرجال والعدة ، وعين عليه محمد بن مهدي، وهو أشد زعماء البربر الموالين للفاطميين، ولكن الخير تمكن من اقتحام حصن " بهندرج" وقتل عددا كبيرا ممن فيه، وسبي ذراريهم ونسائهم ، وأضرم النار داخل الحصن، ثم لحق بمحمد بن مهدي وقتله هو وولده ومن كان معه من رجال الشيعة الفاطميين الذين يقدروا بمئة رجل، وعاد الخير إلى مقره بوهران ، ولم يعد بعد ذلك للفاطميين مكان في الساحل ولا منبسط بأرض المغرب، ما عدا مدينة تاهرت[3] .

وأتبع الخير الزناتي ، رسالة أخرى إلى قرطبة في نفس العام، أي سنة 317هـ/ 929م، يخبر الناصر الأموي فيها ، بما استجد له من فتوحات للمدن المغربية التي كانت قد خضعت لطاعة

---

[1] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 141.

[2] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 259.

[3] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 259-260؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 141-142.

الفاطميين صلحا، فقد استولى على مدينتي شلف وتنس [1] ، وأقام فيهما الدعوة للخليفة الناصر الأموي بعد أن احتلهما دون عناء وذلك حسبما شرح الخير في رسالته للناصر عن كيفية فتحهما، إذ ذكر أن العامل الفاطمي على مدينة شلف [2] ، وهو علي بن مصالة بن حبوس [3] ، حينما سمع وصول الخير بالقرب من مدينته، هرب منها ليلا إلى أبيه بتاهرت، فأرسل أهل شلف إلى الخير يطلبون الصلح معه والأمان على أنفسهم ، مقابل طاعتهم له ، فقبل الخير هذا الشرط، ودخل المدينة، وأخذ رهائن من أهلها ، وأرسلهم إلى أبيه محمد بن خزر، وأما أهل تنس ، فقد وثبوا على عامل الفاطميين الذي كان قد استخلفه القائم الفاطمي على مدينتهم ، فقتلوه، وبعثوا برأسه إلى الخير وأعلنوا الطاعة له، فقبلها منهم، وأمنهم ثم أخذ الرهائن وأرسلها إلى أبيه أيضا[4] .

وعزز محمد بن خزر، بشائر انتصارات الزناتيين على الفاطميين وأنصارهم الكتاميين، والتي كانت قد انهالت على البلاط الأموي بقرطبة ، بأن بعث رسالة إلى الخليفة الناصر ، في آخر سنة 317هـ/929م، جدد فيها البيعة للناصر ، واعترف بأحقيته بالخلافة، وافصح عن حقيقة صراعه مع الفاطميين وأنصارهم الكتاميين ، بأنه ناتج عن إيمان وعقيدة بالمذهب السني ضد المذهب الشيعي ، وأشار إلى ذلك بقوله : " لأني ما قمت بدعوتك – يقصد الناصر- إلا تقربا إلى الله تعالى وتوصلاً إلى قتال كفار المشارقة ... حتى رأيت أمرهم قد عم الناس شره وقد حاولوا أن

---

[1] ابن حيان، المقتبس ، شالميتا، ص 260؛ في حين يذكر ابن خلدون أن محمدا بن خزر هو الذي استولى عليهما (العبر، ج7، ص 30)؛ ولعله قصد بذلك كون ابنه الخير يتبع له في ولاية أعماله، ولذا لم يشر إلى استيلاء الخير على المدينتين، باعتبار أن هذا النجاح الحربي هو جزء من نجاح محمد بن خزر السياسي.

[2] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 260.

[3] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 204؛ أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 357؛ إذ يشير ابن حيان إليه بقوله "ولد مصالة" (المقتبس، شالميتا، ص 260).

[4] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 260-261؛ ويشير ابن حيان إلى أن منصور بن سنان وهو أحد زعماء البربر، قد دخل في طاعة الناصر الأموي ، سنة 316هـ/928م، وأرسل إليه هدية تتألف من مجموعة خيول وإبل وأنعام وغزلان نادرة، فكافأه عنها الناصر بهدية قيمة " وألحقه بأهل ولايته" (المقتبس، شالميتا، ص 265-266).

يبطلـــوا نـــور الإســـلام ، بمـــا كـــادوا بـــه أهلـــه، فاســـتخرت الله فـــي جهادهم" [1] .

كما أكد محمد بن خزر ، للخليفة الناصر، رفضه لإغراءات الفاطميين والعباسيين بسبب ولائه السياسي المطلق بأحقية الأمويين بخلافة المسلمين ، ويدلل على صحة كلامه، أن صاحب مصر "تكين" التركي، كتب إليه أكثر من مرة يغريه للانضمام إلى جانبهم ، ولا سيما أن أخاه المقيم بمصر ، حاول التأثير عليه، ليحذو حذوه في التشبث بحبال المسودة من بني العباس ولكن محمد بن خزر، أنف ذلك، ولم يطاوع أخيه كما أنه لم يكترث بإغراءات أمراء بني العباس، لأنه حفظ في نفس الوقت الدور التاريخي للأمويين ، الذين نقلوا البربر من المجوسية إلى الإسلام، ورأى أن مجد قبيلته زناتة لا يتحقق إلا على أيدي أبناءهم بالأندلس [2] . ولذلك اتجه بولائه صوب الخليفة الناصر ، ومما جاء برسالته في هذا الصدد قوله: " وفكرت في إمام أعتلق حبله، وأكون على بينة من أمري في الدعاء إليه، وقد تشبث (يقصد أخاه) في حبال المسودة من بني العباس، واستدعاني أخي المقيم عندهم بمصر وأتتني كتب تكين التركي صاحبهم بمصر في أول الأمر يروم ثنيي إليهم واستجلابي نحوهم، فعصمني الله من ذلك باتباع الحق ... حتى علمت يا أمير المؤمنين (الناصر) أنك أحق الناس بالخلافة، أنها بيدك ميراث لا ينازعك فيها إلا من دفع الحق وعصى الله ورسوله... وأن يعزنا الله معشر زناتة ، بهذه الدعوة الحق المنصورة ، حتى ترفعنا على جميع الناس بها، فنكون أولياء دعوتك وأنصار دولتك ، فإنك يا أمير المؤمنين ، مولى كل بربري على الأرض ، إذ ببني أمية هداهم الله للإسلام وعساكرهم هي التي أدخلتهم فيه وأخرجتهم من المجوسية بإذن ربهم"[3] .

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 265-266.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 265-266 ؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 322.

[3] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 266-267؛ أنظر ، نص رسالة محمد بن خزر هذه إلى الناصر الأموي، آخر سنة 317هـ/931م، في الملحق رقم (9).

وكلل محمد بن خزر رسالته، التي بعث بها إلى الخليفة الناصر ، آخر سنة 317هـ/929م، بهدية قيمة أرفقها معها، نالت إعجاب الخليفة الناصر الأموي وقد اشتملت هذه الهدية على عشرة نجب مخصية عجمية الخلق ، مميزة بين صنفها، ومجهزة بكامل عدتها، ومعلق عليها عشر درقات من نفائس درق اللمط، وعشرون ناقة حوامل بفحلها، ومعها راعيها، وهو عبد أسود ماهر برعي الإبل وله خبرة بالعناية فيها، وثمانية عشر فرسا من جياد الخيول العربية ، متنوعة الألوان ، وقرنها بأسدين ضاريين ومعهما سباع يسوسهما ، وأربع نعامات ، فكان لهذه الهدية وقع خاص في نفس الخليفة الناصر[1] .

ولذلك عجل الخليفة الناصر لدين الله، بمكافأة محمد بن خزر، عن هديته السابقة بهدية مماثلة تضمنت مجموعة من الملابس السنية ، والكسى الثمينة ، والحلي الفخمة ، والطرائف العجيبة، واختصه الناصر بمكانة خاصة ، فأهدى له ملابس مطرزة " باسم محمد بن خزر" ، فهذه الميزة لم يسبق أن أعطاها ملك قبله إلى أيا من حلفائه أو أوليائه ، وكانت هذه الملابس لا تهدى إلا للأمراء والملوك[2] ، ولكن نظراً لارتفاع المكانة السياسية لمحمد بن خزر عند الناصر الأموي ، خصه بتلك الميزة ، فهذا الأمير الزناتي ، إضافة إلى النجاحات التي حققها ضد الشيعة الفاطميين، وأنصارهم الكتاميين ، لصالح الأمويين بالأندلس، فهو الحليف البربري الوحيد الذي أنفرد بولائه للأمويين ، ولم يسبق له أن دخل في دعوة الشيعة ، مثل غيره من حلفاء الأمويين بالعدوة المغربية ، أمثال موسى بن أبي العافية ، والأدارسة ، الذي تذبذبوا بولائهم بين الأمويين والفاطميين ، ولذلك نال محمد بن خزر دون غيره تلك المكانة عند بني أمية بالأندلس وقد جاء تقلد محمد بن خزر تلك المكانة السياسية على لسان الخليفة الناصر نفسه، وذلك حينما بعث مع هديته لابن خزر ، كتابا شكره فيه على هديته آنفة الذكر ، ثم أشار في آخر الكتاب إلى انفراد ابن خزر بتلك المكانة بقوله: "ولما حللت (يقصد محمد ابن خزر) من حسن رأي أمير المؤمنين المحل الذي حللته ونزلت من

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 260-267؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 143.

[2] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 268؛ أنظر ، الفيلالي، المرجع نفسه، ص 143.

نفسه المكان الذي نزلته، ذهب ألا يهاديك من لبوسك إلا بما استعمله لنفسه في طرازه الخاص على اسمك، وهذا أمر لم يفعله من تقدم من الأعاظم بالمشرق والمغرب بأحد قرب وعظم محله، فخصك من ذلك بعشر قطع مختلفة الأجناس مما استعمل بكسوته الخاصة من عتيق الخز العبيدي وغريبه وبديعه في التأليف والضعة مطرزة باسمك لم يعمل قط مثلها في طرز بني العباس ولا غيرهم ، وهذا ما يبقى لك فخره، ويخلد لك ولعقبك سناؤه وذكر ما بقيت لكم باقية وثواب الله خير عقبى"[1] .

وكانت هدية الناصر ، قد اشتملت على خمسين قطعة من الثياب الرفعية مختلفة الأجناس، وسيف إفرنجي منقوش على غمده فضة مذهبة ، وغاشية فضة خالصة ، يتبع لها أربع وعشرون ترمسة ، ومهماز ذهب ، ومنطقة ذهب يتبع لها أيضا أربع وعشرون ترمسة بطرف مزين وابزيم في طرفها المرسل ثماني ترامس موصلة الأعلى ، مزينة الأطراف باللؤلؤ وأحجار الياقوت[2].

ومما يدل أيضا على زيادة المكانة السياسية ، لبطون زناتة وأميرها محمد بن خزر، وحلولهم محل الثقة لدى الخليفة الناصر الأموي، هو قيام الناصر بجلب فرسان زناتة إلى الأندلس، ليستعين بهم في حروبه الداخلية ضد المناوئين والخارجين عليه ، وقد تمكن بفضل قوة وصرامة رجال زناتة من القضاء على خصومه، وامتلاك زمام المبادرة بالداخل بل تعدى الأمر ذلك حينما اصبحت الدول المجاورة تحسب حسابه، بفضل مساعدة فرسان زناتة له، وقد عبر ابن حيان عن ذلك بقوله: " فمتنت بذلك (أي بمساعدة الزناتيين) أسباب ملكه وجلَّ مقداره ، وبعد صيته ، وهابته ملوك الأمم حوله" [3] .

ومن المؤكد أن استقرار الأوضاع الداخلية بالأندلس، إضافة إلى المكانة السياسية التي أصبح يحتلها الناصر الأموي بالمغرب الأقصى، بين حلفائه زعماء قبائل البربر وعند بعض القوى السياسية المغربية القائمة آنذاك أمثال موسى بن أبي العافية، والأدارسة ، وعلى رأسهم محمد بن

---

[1] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 268.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 268-269.

[3] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 257؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 143.

خزر الزناتي ، وما كانت من حسن تصرف الناصر في التعامل مع هؤلاء الحلفاء ؛ فكل تلك الأسباب كانت دافعا لانضمام المزيد من أهل ومدن العدوة المغربية لطاعته، فقد قام أهل مدينة سبتة الذين سئموا تصرفات الأدارسة الحسنين [1] ، وتصرفات نائبهم الرضى بن عصام رئيس مجكسة الذي كان قائم على دعوة الأدارسة بمدينة سبتة [2] ، بإرسال وفد إلى الخليفة الناصر بالأندلس سنة 319هـ/ 931م ، يعلنون له الطاعة والولاء ، ويدعونه إنفاذ عامل أموي على رأس قوات أندلسية ، للقدوم إلى مدينتهم ، وبالفعل ، أمر الناصر الأموي عامل الجزيرة الخضراء ، أمية بن إسحق القرشي، الذي أراده أن يجمع بين العدوتين المغربيتين والأندلسية معا، ليرعى شؤونهما بحكم قرب المسافة بينهما، ولد مج وحدتهما السياسية الأموية، وعلى الفور نفذ أمية بن اسحق أمر الخليفة الناصر ودخل سبتة يوم الجمعة ، صدر ربيع الأول سنة 319هـ/ حزيران 931م[3].

وبطبيعة الحال، فقد كان لاحتلال مدينة سبتة نتائج اقتصادية وسياسية هامة، لصالح أمويي الأندلس ، فهي ذات موقع استراتيجي يمنحها الإشراف والتحكم بمضيق جبل طارق، وبالشاطئ الأندلسي الجنوبي القريب منها، وليس لها إلا طريق بري ضيق ووعر، يكاد يفصل أهلها عن سكان بلاد المغرب [4] ، فهذا الموقع الحصين هو الذي دعا إلى وصفها بأنها " نظام باب المغربين، ومفتاح باب المشرقين وهي على ما قيل ، مجمع البحرين ، قاعدة البر والبحر" [5] ، ومن موقعها هذا أيضا أخذت سمة فرضة المجاز من أرض المغرب إلى جزيرة الأندلس[6] ، وبالاستيلاء عليها من قبل الأمويين أصبحت الأندلس تسيطر على البحر بعدوتيه، وتتحكم بحركة السفن على المراسي

---

[1] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 288-289.

[2] ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 146.

[3] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 289؛ ابن عذاري ، البيان، ج1، ص 204؛ وورد عند ابن خلدون أن فتح سبتة كان سنة سبع عشرة وثلاثمائة (317هـ) (العبر ، ج7، ص 30)؛ ويبدو أن هذا التاريخ خطأ وقع فيه النساخ لتقارب حروف "سبع وتسعة" (أنظر ، إسماعيل العربي، دولة الأدارسة ، ص 156 هامش 1)، كما وقع في نفس الخطأ المقري، الذي نقل معلوماته عن ابن خلدون (نفح الطيب ، ج1، ص 354).

[4] كاتب مراكشي، المصدر نفسه، ص 137.

[5] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 200.

[6] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 298.

في العدوة المغربية ، وفي ذلك يقول ابن حيان: " وتعاظم شأنه (أي الناصر) لما ملك البحر بعدوتيه، وصار زمامه في يده، وأضحت ركابا له إلى العدوة وبابا ارتجه دونها وثقافا على المراسي المحذور عليها" [1] . ثم إن الخليفة الناصر حقق سبقا سياسيا هاما، ميزه عن غيره من حكام الأندلس عبر التاريخ الإسلامي، إذ تسنى له فتح المغرب من جهة الغرب باحتلاله لسبتة ، ومما يؤكد ذلك ، هذا المقتطف من رواية ابن مسعود ، من كتابه المفقود المسمى "الأنيق" ، والتي ساقها ابن حيان بقوله: " ولم يكن لأحد ممن ملك الأندلس في الإسلام سلطان بأرض العدوة قبله، فكان ملكه لها سلما"[2] .

كما أن ابن حيان أشار في موضع آخر إلى مضمون رواية ابن مسعود، إلى جانب إشارته إلى أن الناصر جعل سبتة ميراثا في أعقابه ، التي حسده عليها الملوك والعظماء ، لأنها عملت على توطيد وإنجاح سياسته المغربية ، ويذكر ابن حيان ذلك بقوله: " توطدت بها طاعته بأرض المغرب، وريعت ملكوه منه ونفسته عظماؤهم عليه،إذ كان أول من سما إلى ذلك من ملوك الأندلس وخلفائها ، منذ سكنها الإسلام، فناله دونهم واستظهر به على أمره ، وخلفه تراثا لمن جاء بعده من ولاة الأندلس"[3] .

وكانت أول خطبة أقيمت في جامع سبتة باسم الناصر لدين الله الأموي، يوم الجمعة لثلاث خلون من ربيع الأول سنة 319هـ/ حزيران 931م، وكان الناصر قد قام بإكرام ، وفد أهل سبتة ، الذين ما زالوا في ضيافته ، من حين ورودهم إليه بطاعتهم، ودعوتهم له لدخول مدينتهم ، حيث أجزل العطاء عليهم، وقضى حوائجهم وأقر قاضيهم، حسين بن فتح، على قضاء سبتة [4] وعاد

---

[1] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 289.

[2] المقتبس، شالميتا، ص 298.

[3] المقتبس، شالميتا، ص 289.

[4] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 289؛ وحسب رواية ابن مسعود السابقة التي ساقها ابن حيان، أنه استعمل عليها فرج بن عفير (المقتبس، ، شالميتا، ص 299)، في حين ذكر ابن حيان، أن أمية بن اسحق عامل الجزيرة الخضراء والذي كلفه الناصر بفتحها أصبح واليا عليها (المقتبس، شالميتا، ص 289) ؛ وفيما يبدو أن ابن مسعود قصد أن" فرجا" تسلم ⟸

أعضاء الوفد من قرطبة محملين بأصناف الهدايا والخلع، وحرصا من الناصر في الحفاظ على هذا الفتح ، فقد عمل على تحصين سبتة، حيث شكها بالرجال وأحكم بناء سورها بالكدان، وخلف فيها حامية أندلسية تتألف من أفضل قادة وجنود الأمويين [1] ، ثم عمل على كسب تأييد حلفائه من زعماء البربر، فأرسل لهم يعلمهم بالفتح الأموي، ويطلب منهم مساعدة أهل سبتة " متى احتاجوا إلى ذلك ، إذ قد صاروا يدا معهم، وعضدا لهم ، وأخوانا في الطاعة وأولياء للدعوة"[2] .

ولإنجاح هذه المهمة، شهدت العدوة المغربية نشاطا دبلوماسيا مكثفا، حيث توزعت كتب الخليفة الناصر على رؤساء قبائل البربر الموالين لأمويي الأندلس، وذلك حينما قام سفيره محمد بن عبد الله بن عيسى، بجولة دبلوماسية طويلة على أرض المغرب الأقصى، بدأها بالتوجه إلى مضارب زناتة، لتسليم رسالة إلى زعيمها محمد بن خزر ليضمن تأييده حول الخطوة التي أقدم عليها، والمتعلقة بفتح سبتة ؛ ثم توجه السفير الأموي، لنفس الغرض إلى موسى بن أبي العافية، زعيم مكناسة، ومنصور بن سنان، صاحب مدينة طنجة، والمؤيد بن عبد السميع ، صاحب مدينة نكور [3] ، والأرجح أن اختيار محمد بن عبد الله دون غيره، لتسليم الرسائل إلى زعماء البربر بالعدوة المغربية ، هو لما كانت تمثله هذه القوى البربرية ، من مكانة سياسية هامة على أرض المغرب الأقصى، فبالتالي تحتاج إلى دبلوماسي مميز يتمتع بالحكمة والحنكة السياسية، ليستطيع التعامل معهم، ولا سيما أنه كان محل ثقة وتقدير لديهم، نتيجة تكراره على أرض المغرب[4] .

كما استأنف السفير الأموي تجواله في مضارب قبائل البربر الموالين للأمويين ، لتسليمهم كتب الخليفة الناصر، حيث سلم رسائل إلى كل من ، محمد بن قادم الطنجي، وإلى سمجون بن

ولاية سبتة في شهر شعبان أي بعد فتح اسحق لها بثلاثة أشهر ثم وليها بعد فرج والي جديد وهو أحمد بن عبد الصمد الإغرانطي (ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 204).

[1] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 201؛ ج2، ص 204.

[2] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 289.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 290؛ 299.

[4] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 290.

مقود، زعيم أهل لمسة وأنجرة، وإلى ياسين بن مدران، زعيم قبيلة مصمودة، ومجكسة، وإلى حسن بن سليمان، زعيم كتامة الهبط، وإلى عايش بالله بن خيار، زعيم لواتة، وأخيرا سلم عروس بن براء، زعيم قبيلة هوارة [1] . ولاشك أن زعماء البربر الذين وصلتهم كتب الناصر قد أيدوا فتح سبتة من قبل الأمويين إذ يعد هذا الفتح دعم نفوذ زعماء هؤلاء القبائل في المغرب الأقصى المعارضين للفاطميين ، وزاد من قوة موقفهم[2] .

ولأهمية الانتصار السياسي والعسكري، الذي حققه الأمويين ضد الفاطميين في المغرب الأقصى، فقد نظم الشعراء قصائدهم في هذه المناسبة لتهنئة ومدح الخليفة الناصر الأموي وأبرز هؤلاء الشعراء الذين عبروا عن شعورهم في هذه المناسبة ، عبيد الله بن يحيى بن إدريس ، حيث يقول:

بسيفك دانت عنوة وأقـــرت   بصائر كانت برهة قد تولـــــت

وما قربت أهواؤها إذ تقربت   ولا حليت بالزي لما تجلــــــت

ولكن أزالت راسيات عقودها   عزائم لو ترمي بها الخصم زلت

ودولة منصور اللواء مؤيـد   تدال بحمد الله من شـــــر دولة

فهذا أول النصر منها وهذه   بشائر تدوى الأنام بـــــسبتة [3]

لم تنقطع أخبار قبيلة زناتة ونشاطها بالمغرب الأقصى، المناهض للفاطميين وأنصارهم الكتاميين، عن الورود إلى البلاط الأموي بقرطبة ، ففي سنة 320هـ/932م، وصلت رسالة إلى الخليفة الناصر ، من زعيم زناتة ، محمد بن خزر، يخبره فيها، بتغيير مكان إقامته من " بلد الغوط" في الداخل إلى مدينة " تسفا" على الساحل ، الواقعة غربي تاهرت وعلى مسافة ثلاثة أيام

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 290.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 299.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 201.

منها، ومسيرة أقل من يوم من الشواطئ الأندلسية ، وقد انتقل معه إلى هذه المدينة الجديدة أهله وأولاده وأصحابه وحشمه وعبيده ومواليه وصنوف الرعية من الخاصة والعامة، وجميع أفراد قبيلة زناتة وفرسانها وأنصارها ومؤيديها ، وقد أكد للناصر تجديد البيعة له، بسبب ولائه المذهبي للدولة الأموية بالأندلس، وذلك حسبما يذكر في رسالته بقولـه " ودولتك المباركة (يقصد الناصر)، التي من تمسك بها كان له الأمن والسلامة في دنياه وآخرته، ومن صد عنها وابتغى سبيلا غيرها، نزل الذل والصغار وقارنه الخزي والهوان"[1] .

وأوضح محمد بن خزر في رسالته، أن سبب تركه مقر إقامته، لم يكن خوفا من الفاطميين وأنصارهم الكتاميين، وإنما هو رغبة في الدنو من الأندلس، ليسهل عليه الاتصال بالناصر الأموي، والعبور إليه متى شاء ، وتلقي المساعدات والإمدادات من المؤن والأقوات، عند حاجته إليها بأسرع ما يمكن، إذ إن موقعه السابق كان بعيدا، مما يتطلب المشقة والجهد لوصول تلك الإمدادات إليه[2] ثم إنها كانت عرضة لخطر صاحب تاهرت حميد بن يصل عامل الفاطميين، الذي سبق وأن استولى عليها[3] ، ولكن المقر الجديد الذي اختاره احتل موقعا استراتيجيا مميزا، إذ إنه يقع على أطراف مضارب قبيلته زناتة من ناحية، ومن ناحية أخرى، يطل على مراسي السفن الأموية في الشواطئ الجنوبية الأندلسية [4] . وقد تمكن محمد بن خزر من إخضاع القبائل البربرية الأخرى في تلك النواحي، والتي كانت تدين بالطاعة والولاء إلى عبيد الله المهدي الفاطمي، وأخذ الرهائن منهم، وأقام الخطبة في جميع الأماكن التي تقع على الساحل باسم الخليفة الناصر[5] .

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 301.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 301.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 204؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 144؛ وحميد هذا كان قد تسلم ولاية تاهرت سنة 319هـ/ 931م، بعد وفاة أبيه يصل بن حبوس ، الذي كان واليا عليها من قبل عبيد الله المهدي (ابن عذاري، البيان، ج1، ص 204).

[4] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 301-302.

[5] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 302.

ولتأكيد مكانة زناتة السياسية ، فإن أميرها محمد بن خزر ، علل سبب خضوع بطون قبائل البربر عامة ، وبعض البطون الزناتية منها خاصة للطاعة الأموية ، بعدما كانت تدين بالطاعة والولاء للفاطميين ، هو لما تتمتع به قبيلة زناتة من قوة وسطوة ببلاد المغرب، ثم لما كان لزناتة من دور سياسي تمثل بالسيادة والزعامة عبر العصور التاريخية، على غيرها من القبائل البربرية توارثته الأعقاب فيما بعد، وقد أشار إلى ذلك بقوله: " وأقبل الناس إلينا من كل جهة فزعين، مرعوبين ، خائفين على أنفسهم، طالبين تسكين دهمائهم وحقن دمائهم، مستجيبين لدعوتك (يعني الناصر) ، والجين على طاعتك ، معترفين بتقديمنا قديما عليهم وإمرتنا فيهم وولايتنا قديما على جميع لسان البربرية، حيث كانوا وأين كانوا من نسل زناتة خاصة ، وغيرهم عامة، ولآبائنا من قديم الدهر وحديثه، ولأعقابنا من بعد، حتى يرث الله الأرض ومن عليها"[1] ، ويمكن أن هدف محمد بن خزر من إبراز دور زناتة السياسي في رسالته تلك هو لكي يعزز المكانة الخاصة التي يكنها له الخليفة الناصر، دون غيره من زعماء البربر الموالين للطاعة الأموية ، ثم ليضمن استمرار استقلاله السياسي في ظل ولائه للدولة الأموية بالأندلس ، ومما يؤكد ذلك قوله: " وذلك ببركة أمير المؤمنين (الناصر) ودولة آبائه الأبرار والخلائف الطيبين ، رضي الله عنهم أجمعين، فهم الذين لم تزل القلوب عليهم متألقة ، والأهواء فيهم مائلة ، والجماعة بهم راضية"[2] .

كما كشف محمد بن خزر في رسالته ، عن اتباعه سياسة جديدة على ارض العدوة المغربية ، ضد المعارضين من أهلها، للخليفة الناصر، إذ عمل على استغلال المنضويين تحت جناح الطاعة الأموية، لمحاربة المناوئين والمخالفين عليها، أو بصورة أدق ضرب المقبل منهم بالمدبر، وحمل المطيع على العاصي، وذلك انطلاقا من السياسة العامة للدولة الأموية بالأندلس، والرامية ليس

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 302.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 302.

فقط، القضاء على الخلافة الفاطمية بالمغرب، بل مد نفوذها إلى المشرق للقضاء أيضا على الخلافة العباسية بالعراق[1] .

وأشار محمد بن خزر، إلى أنه أصبح جاهزا من طرفه لتوجيه ضربة قاسمة إلى الفاطميين ، وأنصارهم الكتاميين، وذلك عن طريق التوجه صوب مدينة تاهرت قاعدة الدولة الفاطمية بالمغرب الأوسط، وحصارها، وبالتالي الاستيلاء عليها ، ونظرا، لصعوبة مسالكها ووعورتها وشموخ جبالها، وقلة خبرة البربر في حصار المدن والحصون، وعدم توفر الإمكانيات التي تستلزمها عمليات الحصار، فإنه طلب من الخليفة الناصر، أن يمده بالمتخصصين من العرب في فن حصار المدن، وذوي الخبرة والتجربة من أصحاب الأسلحة والنشاب والعدة وأهل الاقتدار على تشييد البناء، لتقوى بتلك المساعدات، قواته البربرية التي تتألف من مشاة وفرسان شجعان، من مختلف العشائر وضروب العساكر ، بأعداد كبيرة متمرسين على الحروب والذين جهزوا لخوض معركة طويلة الأمد، تستهدف إضافة إلى استئصال شوكة الشيعة من هذه المدينة ؛ فتح المدن الفاطمية التي تليها للوصول إلى المهدية عاصمة الدولة الفاطمية في إفريقية[2].

كما ساق محمد بن خزر في رسالته ، قصة لجوء أخيه فلفل [3] أو فلفول[4] بن خزر إلى عبيد الله المهدي الفاطمي، ونقضه طاعة الأمويين ، وذلك بسبب منافسته على رئاسة قبيلة زناتة ، وحسده لأخيه محمد، حيث تظاهر أول الأمر أنه يريد الخروج إلى المراعي الخصبة، لترعى فيها ماشيته ، ولكنه أبعد النجعة وقطع السباسب والقفار والحواضر ولم يزل في مسيره حتى وصل إلى

---

[1] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 302.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 303.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 303.

[4] ابن خلدون ، العبر ، ج7، ص 30؛ ويرى محمد اليعلاوي محقق كتاب عيون الأخبار، أن معبدا بن خزر هو ابن محمد بن خزر، وليس أخوه، كما ورد عند ابن خلدون، ج7، ص 26 (إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 432، هامش 145)، ولكن ابن حيان يؤكد أن معبدا هو أخو محمد وليس ابنه (المقتبس، شالميتا، ص 303)؛ ثم أن محمدا بن خزر ذكر في رسالته إلى الخليفة الناصر، بأن معبدا أخيه وساق قصة لجوئه إلى المهدي الفاطمي (ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 303).

أعمال المهدي الفاطمي، ودخل في طاعته ، هو وأبناؤه وبعض أصحابه الذين شايعوه ، فتلقاه المهدي بالقبول والترحاب[1] ، وعقد له على مغراوة [2] ، وأغدق عليه العطايا والأموال ، وارتهن عنده فلفل أهله وأبناؤه ، ليؤكد طاعته، وبعث المهدي به مع أصحابه إلى نحو بلد الزاب لإخضاع بعض المغراويين، الذين يقطنوا بتلك الأطراف إلى الطاعة الفاطمية ، فهرب قسم من هؤلاء المغراويين بأموالهم وأولادهم إلى مضارب محمد بن خزر من التصدي لأصحاب المهدي الجدد، وأعادهم على أعقابهم خائبين[3] .

ولما رأى المهدي قوة وصلابة موقف محمد بن خزر ، فقد أرسل إليه كتابا يدعوه فيه للدخول في الطاعة الفاطمية ، والتمسك بالمذهب الشيعي، مستغلا في ذلك وجود أخيه فلفل عنده ، وأخذه بالدعوة الشيعية ، ومستخدما معه كل وسائل الإغراء ، والترغيب ، فهو لا يريد منه ذهبا ولا فضة، ولا يكلفه نائبة، وكل ما هنالك ، يريد منه افتتاح الخطبة باسمه على المنابر، وضرب السكة باسمه، وإرسال أحد أبنائه أو بعض أخوته، ليشيع في وسط الناس أن زعيم زناتة محمد بن خزر دخل في طاعته ، واصبح من رجال الدعوة الشيعية ، ولكن مع كل تلك الإغراءات والوعود إلا أن محمداً ابن خزر ، لم يصغ إليه، ولم يحفل بكتابه بل أجابه بأنه باق على الطاعة الأموية، وعلى عهده للناصر الأموي[4] .

وتعقيبا على رسالة محمد بن خزر سالفة الذكر بصورة عامة ، فإنه رغم أنه قد قدم تبريرا منطقيا في نقل مقر إقامته من وسط مضارب زناتة " بلد الغوط" إلى أطراف أعماله في مدينة "تسفا"، وذلك لكي يصبح قريبا من الشواطئ الأندلسية لتلقي المساعدات والإمدادات من الخليفة الناصر، إلا أن ذلك لم يكن هو السبب الحقيقي وراء ذلك الانتقال ، إذ إن مدينتي تاهرت والمسيلة (المحمدية) أصبحتا يشكلان خطرا دائما ومتجددا ، بسبب خروج الجيوش الفاطمية منهما، بصورة

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 303-304.

[2] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 30.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 304.

[4] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 304-305؛ انظر، نص رسالة محمد بن خزر هذه في الملحق رقم (10).

مستمرة والإغارة على البطون الزناتية بالمغرب الأوسط، ومحاولة القاء القبض على زعيمها محمد، لاستئصال شأفته، ولذلك خاف أن يفاجأ بهجوم فاطمي شامل، يمكن أن يتيح القبض عليه، وخاصة بعد الانقسام الذي حدث لقبيلته إثر نزوع أخيه فلفل ووجوه زناتة وأشرافهم على يد علي بن حمدون عامل المسيلة ، ودخولهم بطاعة المهدية [1] ، وكان محمد بن خزر قد قلل شأن هذا الانقسام الكبير الذي أصاب قبيلته في رسالته السابقة للخليفة الناصر، وإلا لماذا ، في هذا الوقت بالذات يترك مواطنه الأصلية ، ويذهب إلى أطراف أعماله، ثم يبدأ بمجرد وصوله على الفور بطلب الإمدادات من الناصر ، لاسترجاع تاهرت ، وما حولها من المدن الفاطمية والتي كانت مواطن لقبيلته زناتة، فإذاً نفور ابن خزر إلى المغرب الأقصى لم يكن فقط لدنوه من الناصر وتلقي المساعدات حسبما أوضح في رسالته، فهذا الأمر إذا كان حقيقة يخدم ابن خزر، فهو لا يخدم في نفس الوقت الناصر الأموي، الذي يهمه بقاء البطون الزناتية؛ خلفائه بالمغرب ، محافظين على وجودهم بالمغرب الأوسط، لئلا يمتد نفوذ الفاطميين وأنصارهم الكتاميين أكثر من ذلك، وتتقلص بالتالي رقعة الأراضي المغربية التي تدين بالطاعة للأمويين بالأندلس، ولكن فيما يبدو أن خوف ابن خزر من الفاطميين ، وأنصارهم الكتاميين في ظل دخول الكثير من الزناتيين مع أخيه فلفل في الطاعة الفاطمية هو الذي دفعه للانتقال إلى المغرب الأقصى لأنه يمثل له أكثر أمانا في وسط حلفاء الأمويين ، هناك، أمثال موسى بن أبي العافية والأدارسة وغيرهم.

وصفوة القول أن محمدا بن خزر لم يرد أن يظهر بصورة الحليف الضعيف أمام الناصر الأموي، نتيجة عدم قدرته على مواجهة الجيوش الفاطمية، فاهتدى إلى ذلك السبب لكي يخلص نفسه، وينجو بأفراد قبيلته، وذلك بتغيير مكان إقامته إلى المغرب الأقصى، حيث حلفاء الناصر الأموي هناك إضافة إلى قربه من الأندلس.

---

[1] إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 230.

والواضح، أن الخليفة الناصر الأموي، من أجل أن يوسع دائرة الموالين إليه من زعماء قبائل البربر في العدوة المغربية، بدأ يوهمهم بأنه أصبح قادرا ليس فقط على غزو الدولة الفاطمية ببلاد المغرب، بل أنه عازم على استرجاع ملك أسلافه الأمويين بالمشرق الذي سلبوهم إياه بني العباس، وذلك من خلال رسائله التي كان يبعث بها إلى هؤلاء الزعماء سنة 320هـ/931م. ويؤكد لهم في تلك الرسائل ، ذكر تظاهر الروايات وإجماعها على أن ملك بني أمية المسلوب ، سيعود في عهده ، وبمساعدة أنصاره البربر بالمغرب، ولذلك طلب منهم، بذل أقصى ما بوسعهم بتلك الرسائل فلم يبخل عليهم بالهدايا والصلات والخلع، وأغدق الأموال الجسيمة[1] .

وأهم الرسائل التي وصلت من الخليفة الناصر إلى العدوة المغربية بهذا المعنى، كانت إلى محمد بن خزر، عميد أمراء البربر الموالين لبني أمية بالأندلس وذلك سنة 320هـ/ 932م ، حيث أخبره فيها ، أنه فرغ من إخضاع الفتن الداخلية، ولم يعد يجد عمل لجيوش الأندلس تقوم به غير التفكير في استعادة ملك أجداده بالمشرق ، وحماية البيت الحرام، التي انتهكت حرمته، وقد أمر الناصر تلك الجيوش بالبدء في الاستعداد ، واختيار الفرسان وانتقاء الرماة، وزيادة العدد، وتجهيز الآلات والأدوات، وإلحاق الحشود بالجنود ، إلى حين تجميع السفن وصنع المراكب الجديدة ، لزيادة عدد الأساطيل التي سوف تقل تلك القوات ، إلى مينائي سبتة، ووهران، ليتخذهما قواعد لانطلاق الجيوش الأموية نحو المشرق ، والتي وصفها لكثرة التدريبات التي مارستها، والاستعدادات التي أمضتها بأنها أصبحت "كالليوث في إقبالها والتنانين في التهامها، قد مارستهم الحروب ومارسوها ، وساستهم الخطوب وساسوها" [2] ولذلك يطلب الناصر من محمد بن خزر ، بالاستعداد والتأهب وانتظار أوامره ، ليكون في مقدمة القادة الذين سيتولون قيادة تلك الجيوش وذلك بقوله: " فاستعد (محمد بن خزر) أسعدك الله وتأهب وشمر وتلبب وكن على انتظار ما يوافيك من أمير المؤمنين (الناصر) وولاته لتكون صدر القوات كما أنت صدر أولي الوداد، ومتقدما للرجال،

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 305.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 305-307.

كما أنت صدر الصيال، فإن أمير المؤمنين يرجو بالله عونه وعليه توكله، أن يكون قد قرب الوقت الذي قد رجوت الفوز به والإدراك له وبلوغ الأمل منه"[1] .

والمؤكد أن رسائل الخليفة الناصر، إلى زعماء قبائل البربر عامة ورسالته الأخيرة إلى محمد بن خزر خاصة، رغم الأمل الذي يعتريه في مدّ نفوذه إلى المشرق والسيطرة على الأماكن المقدسة، إلا أنه لم يكن هدفه من التصريحات التي أعلنها في تلك الرسائل المتضمنة عزمه في القضاء على العباسيين ، وإنما كان له أهداف سياسية مغربية فاطمية، أي بمعنى آخر، فإنه أراد زيادة فعالية نشاط أنصاره البربر بالمغرب الأقصى ، ضد أعدائه الفاطميين وأنصارهم الكتاميين ، فاستخدم لذلك أسلوب الحرب النفسية التي من شأنها إظهاره بمظهر القوة بعد هدوء الأوضاع الداخلية بدولته، وأنه لم يعد يخش الفاطميين أو يحسب لهم حساب وأن مشروعه الجديد أصبح يهدف إلى امتلاك الديار المقدسة، وعملية القضاء على الدولة الفاطمية هو جزء من ذلك المشروع ، فهذه الطريقة ستؤدي إلى رفع معنوية أنصاره البربر في المغرب الأقصى، وكسبه المزيد من انصار جدد، وفي نفس الوقت ستكون تلك الأخبار ، ذات صدى سلبي على الفاطميين ، فتحد من عزيمتهم وعزيمة أنصارهم الكتاميين فيما إذا فكروا في غزو الأندلس.

ومما يدعم وجهة النظر السابقة، أن الظروف السياسية آنذاك لا تسمح للناصر بأن يقوم بمثل ذلك المشروع ، فالبيزنطيين كانوا يهددوا بلاده بين الفينة والأخرى، كما أنه كان يتحرز إرسال جيوش أموية إلى المغرب لمواجهة الفاطميين، تحسبا للأخطار الخارجية والداخلية التي يمكن أن تهدد دولته ، ولذلك اعتمد على قبائل البربر في مقاومته للفاطميين فأخذ الصراع الفاطمي والأموي آنذاك سمة الصراع غير المباشر فإذا كان الناصر لم يبعث الجيوش الأموية لمحاربة الفاطميين بالمغرب وهم الأقرب من حيث الموقع لبلاده، والأشد خطرا عليه، فكيف يستطيع إذن أن يجهز جيوش في تلك المرحلة الحرجة لاسترجاع الأماكن المقدسة ، فهذا الأمر يدعو للشك في صدق

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 305-307؛ أنظر، نص رسالة الناصر إلى محمد بن خزر، في الملحق رقم (11).

نوايا الناصر الأموي التي أعلنها بتلك الرسائل ، وأن تلك التصريحات لم تكن سوى وسائل إعلامية لتعزيز موقفه أمام قبائل البربر الموالين له بالمغرب ، ضد أعدائه الفاطميين وأنصارهم الكتاميين.

كان الخليفة الناصر، قد عزل عامله على مدينة بجانة وهو عبد الملك بن سعيد المعروف بابن أبي حمامة، في مطلع سنة 321هـ/933م ، وولى مكانه أحمد بن عيسى بن أبي عبدة ، إضافة إلى ما كان يتقلده من كورة البيرة، وأمره الناصر ، بأن يعيد إصلاح الأسطول الموجود بدار الصناعة بالمرية، استعدادا للقيام بحملة أموية بحرية على بلد الفرنجة ، ولما أكمل أحمد بن عيسى تجهيز الأسطول ، أخرج إليه الناصر الحشم من قرطبة مع قائديه سعيد بن يونس، وعمرو بن مسلمة الباجي ، لإتمام تلك الحملة ، فأما ابن يونس، فقد سار على رأس عشرة مراكب، وخمسة شواني بعدتها كافة، لمهاجمة بلد الفرنجة، ولكن بسبب ظروف فصل الشتاء القاسية، اضطر إلى التوقف في طرطوشة، ولم يلبث أن وافاه كتاب الناصر الأموي يأمره باللحاق بسبتة، التي كان قد سبقه إليها عبد الملك بن أبي حمامة، بقطعة أخرى من الأسطول فاجتمعا بها، وأمضيا بقية الصيف فيها، ثم قفلا إلى المرية ، وأما عمرو بن مسلمة ، الذي كان قد وصل إلى ميورقة، ورابض فيها، فإنه عاد مسرعا إلى المرية ، بعد أن علم ما حصل مع سعيد بن يونس [1] .

والهدف المبتغى من وراء إيراد تلك الرواية التاريخية ، هو بيان أن مدينة سبتة المغربية أصبحت محط أمان للقوات الأموية الأندلسية تغدو إليها وتعدو منها، متى شاءت ، وبصورة أخرى، فإنها أصبحت تابعة سياسيا وإداريا لخليفة الأندلس عبد الرحمن الناصر، وذلك بفضل حلفائه المغاربة عامة ، والزناتيين منهم خاصة ، الذين ألفوا حاجزا بشريا قويا بالمغرب الأقصى ، يفصل بين القوات الأموية، وبين الفاطميين وأنصارهم الكتاميين.

وطبيعي ، فقد كانت مجمل التطورات السياسية على الساحتين المغربية والأندلسية، محل اهتمام العاصمتين الأموية بقرطبة، والفاطمية بالمهدية والتي كانت تصل إليهما، بواسطة

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 323-324.

أنصارهما، ومعاونيهما، وعيونهما، ومن ذلك أن القائم بأمر الله الفاطمي، رغم أنه حاول إخفاء نبأ وفاة أبيه الخليفة عبيد الله المهدي [1] ، الذي توفي يوم الثلاثاء منتصف ربيع الأول سنة 322هـ/933م[2] ، إلا أن ذلك لم يمنع من وصول خبر وفاته، وتولى ابنه أبي القاسم، الملقب بالقائم بأمر الله، إلى قرطبة خلال فترة قصيرة[3] ، وإن دل حرص القائم حينما أراد إخفاء خبر وفاة أبيه، على شيء ، فإنما يدل على حدة الصراع الفاطمي والأموي في تلك المرحلة ، وذلك خوفا من أن يستغل الأمويون، وأنصارهم من قبائل البربر عامة ، ومحمد بن خزر الزناتي خاصة، ويقوموا بالتالي في مهاجمة الدولة الفاطمية والتي أصبحت تشعر ببوادر حركات داخلية مناوئة لهان فور وفاة المهدي ولعل اضطراب أمور الفاطميين الداخلية، إضافة إلى قوة التحالف البربري الأموي الخارجي عليها، هو الذي دفع موسى لقبال ، إلى الاعتقاد أن الأميرين الزناتي، محمد بن خزر ، والمكناسي موسى بن أبي العافية، لو نسيا خلافاتهما العارضة بسبب وضع مدينة جراوة العلوية، ونسقا جهودهما، وأحكما صلاتهما مع الأمويين في الأندلس ، ومع أمراء نكور من بني سعيد بن صالح ثم مع أدارسة فاس، وأمراء سجلماسة الصفرية ، لما كان تاريخ سياسي يذكر وخلفاء جدد بعد وفاة عبيد الله المهدي سنة 322هـ/933م [4] .

والفكرة الرئيسية، من اعتقاد موسى لقبال هذا ، هو أن هناك كتلة معارضة قوية مؤلفة من بعض قبائل البربر وبعض القوى السياسية على أرض المغرب الأقصى كان وراء ابتكارها الأمويين بالأندلس، ضد الفاطميين وأنصارهم الكتاميين فكان لا بد على ولي العهد الجديد القائم بأمر الله، اتخاذ التدابير السريعة للوقوف أمام هذا التحالف القوي[5] .

---

[1] المقريزي، الخطط، ج2، ص 32.

[2] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 206؛ ابن الخطيب، أعمال الأعمال، القسم الثالث، ص 47؛ المقريزي، الخطط، ج2، ص 32؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 239.

[3] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 209.

[4] أنظر، دور كتامة، ص 358.

[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 208؛ المقريزي، الخطط، ج2، ص 32.

ويمكن القول: إن الخليفة المهدي أمضى السنوات الأولى من خلافته في محاربة الزناتيين بزعامة محمد بن خزر، الذين عارضوا قيام دولته بالمغرب، نكاية بأعدائهم التقليديين وهم الكتاميون أنصار الفواطم، وعمل بطريقة غير مباشرة على تقويض أركان الدولة الأموية بالأندلس، عن طريق مناصرة الثورات الداخلية ضدها، ومن ذلك مناصرته لثورة عمر بن حفصون حينما ثار على الأمويين ، حيث قام بإمداده بالمؤن وأمر داعيتان من الشيعة بالإقامة عنده، كما أمضى السنوات الخمس الأخيرة في مواجهة تحالف مؤلف من بعض زعماء قبائل البربر وبعض القوى السياسية بالمغرب الأقصى ، وبدعم من أمويي الأندلس، ضد دولته وضد أنصاره من قبيلة كتامة ، ولعل تركز الصراع الفاطمي والأموي في المغرب الأقصى بسبب تقاسم الولاء السياسي فيه بين الطرفين ، من خلال الأنصار والمؤيدين من قبائل البربر وغيرها من القوى المسيطرة على أرضه، هو الذي دفع أحد الباحثين المحدثين إلى القول أنه لم يتم الحصول على أية وثيقة تشير إلى اعتزام المهدي إلى غزو الأندلس [1]، ويبدو أن الباحث لم يدرك بأن جميع الحملات الفاطمية على المغربين الأوسط والأقصى ، هي في أساسها قائمة على الصراع غير المباشر ، بين الفاطميين والأمويين ، ومن الطبيعي ألا يفكر المهدي بغزو الأندلس مباشرة، ما دامت قيادة المغرب الأقصى، لم تسلس له بعد ، بسبب قوة نفوذ المعارضين لدولته بالمغرب، والموالين للأمويين بالأندلس.

---

[1] أنظر، الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص 206.

القائم بأمر الله الفاطمي وثورة أبي يزيد الزناتي بالمغرب:

(أ) علاقة زناتة بالقائم بأمر الله الفاطمي، وعبد الرحمن الناصر الأموي قبل اندلاع الثورة (322-331هـ/932-943م).

كان القائم بأمر الله الشيعي ، أحد قادة الجيش الفاطمي البارزين، الذين اعتمد عليهم الخليفة المهدي طيلة فترة حكمه بالمغرب، فكان كلما أراد توجيه ضربة قوية إلى بطون قبائل زناتة بالمغربين الأوسط والأقصى، كلف ولي عهده قيادة الجيش الفاطمي، المؤلف غالبيته من أفراد قبيلة كتامة ، ولذا، فإن القائم بأمر الله عندما تسلم منصب الخلافة بعد وفاة أبيه، في منتصف ربيع الأول سنة 322هـ/حزيران 933م [1] ، لم تكن تعوزه الخبرة السياسية والعسكرية ، لإدراك خطر الأمويين بالأندلس على بلاده ، وكيفية مقاومة الزناتيين أنصارهم بالمغرب ، الذين كثفوا من نشاطهم الحربي ضد الفاطميين وأنصارهم الكتاميين.

وكان المهدي قد بذل غاية جهده في إخضاع قبيلة مغراوة أقوى البطون الزناتية في المغرب الأقصى، وعمل على تطويق مضاربها بأنصاره الكتاميين وغيرهم من البربر أتباع الفاطميين ، حتى يسهل عليه إخضاعها إلا أن المنية وافته قبل أن يحقق هدفه ، فكان على القائم بأمر الله أن يتابع الخطة التي بدأها أبيه، ويكمل إحاطة مضارب بطون زناتة بالمغرب الأوسط، بمواقع موالية للفاطميين حتى يتمكن من القضاء على معارضتهم [2] ، ثم أن الوضع كان مترديا بالمغرب الأقصى، في ظل تزايد نفوذ الخليفة الناصر الأموي فيه [3] ، عن طريق حلفائه وأنصاره المغاربة وهم موسى بن أبي العافية، ومحمد بن خزر الزناتي ، فهذان الحليفان المغربيان المكناسي والزناتي،اصبحا يسيطران على مساحات واسعة من أرض المغرب الأقصى، ويقيمان الخطبة فيها

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 208؛ ويذكر المقريزي أن القائم كان اسمه بالمشرق أثناء إقامته بسلمية ، عبد الرحمن ، ولما وصل بلاد المغرب برفقة أبيه تسمى بمحمد (الخطط، ج2، ص 32).

[2] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 189.

[3] أنظر، الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص 243.

باسم الناصر الأموي، وليس هذا فحسب بل تجاوز الأمر هذا الحد، عندما أصبحت تسري عليهما أنظمة وقوانين الدولة الأموية بشأن تجهيز الجيوش وإرسالها إلى دار الحرب، ومما يدل على ذلك ، تلك الرواية التي مفادها، أن الناصر الأموي عندما خرج بنفسه في الغزوة المعروفة " بوخشمة" ، آخر سنة 322هـ/933م ، بعد أن استعد واحتشد لها مسبقا " أنفذ الكتب في ذلك إلى كور الأندلس، وإلى سائر أهل الولاية بأرض العدوة ، فجاء الناس من كل جانب"[1] .

فالرواية السابقة، تحمل نتيجتين: الأولى منهما ، أن الزعيمين البربريين المكناسي والزناتي، إضافة إلى بقية زعماء البربر وبعض القوى السياسية بالعدوة المغربية ، الموالين للأمويين بالأندلس، أصبحوا ينظرون إلى الدولة الأموية ، بأنها دولة الدين، ومن الواجب الدفاع عنها، ضد أعداء الإسلام ، الذين يحيطون ببلاد الأندلس والمغرب، إضافة إلى دفاعهم عنها ضد أعدائها الشيعة الفاطميين بالمغرب.

وأما النتيجة الثانية فهي ضعف النفوذ السياسي للفاطميين بالمغرب الأقصى، وزيادة قوة النفوذ الأموي الأندلسي فيه.

ومما يؤكد صحة النتيجة الثانية، أن الخليفة الناصر الأموي، لم يعتمد على حلفائه بالعدوة المغربية ، في إخضاع أمير مدينة أصيلا، بالمغرب الأقصى ، حينما خلع الطاعة الأموية، في آخر سنة 322هـ/933م ، بعد أن كان أهلها يدينون بالطاعة والولاء للأمويين بالأندلس ، بل أمر الناصر قائده عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة ، آنذاك بالتوجه بالأسطول الأندلسي، إلى مدينة أصيلا ، فاستطاع القائد الأموي ، إخضاع المدينة ، وإعادة أهلها إلى الطاعة الأموية، وأخذ رهائن منهم لتوثيق طاعتهم ، وولى عليها أميرا بربريا جديدا من أهلها، مخلصا بولائه للخليفة الناصر وهو

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 333.

إبراهيم بن العلاء، وخلف معه حامية أندلسية مؤلفة من الحشم والرماة ، ثم عاد الأسطول الأندلسي إلى بلاده[1] .

والسؤال الملح هنا، هو لماذا قام الخليفة الناصر بإرسال قوات أموية أندلسية ، إلى أصيلا ، رغم أنه بإمكانه الإيعاز إلى حلفائه بالمغرب الأقصى، بأن يقوموا بهذه المهمة السهلة، فرغم أن الجواب المقبول الذي يدل على ذلك التصرف ، هو كما أسلفت ذكره، من أن الفراغ السياسي الذي بدأ يشهده المغرب الأقصى ، للسلطة الفاطمية ، كان في مقدمة تلك الأسباب التي دعت الناصر الإقدام على هذا العمل، إلا أن ذلك لا يعني أن الناصر كان لديه سبب سياسي آخر، وهو جعل المدن المغربية الساحلية مليئة بالجنود الأمويين النظاميين لضمان استمرار ولائها للدولة الأموية ، فيما إذا تغيرت عليه نفوس البربر الذين لم يكن شديد الثقة بهم، ودليل ذلك إنزاله حامية أندلسية أخرى بمدينة سبتة ، منذ عام 319هـ/931م.

ولا غرو ، أن الخليفة القائم الفاطمي ، ورث دولة حديثة العهد ومهددة بأخطار داخلية وخارجية ، وتحتاج إلى جهود جبارة لإنقاذها من هذا الوضع المتردي ، ولذلك لم يتوان في البدء بمقاومة أخطار الدولة الداخلية والمتمثلة بالعديد من الثورات ضده، وكان أشدها ثورة ابن طالوت القرشي في ناحية طرابلس ، سنة 322هـ/933م ، والذي زعم أنه ابن المهدي، وانضم إليه العديد من قبائل البربر، وزحفوا معه إلى مدينة طرابلس للاستيلاء عليها، ولكن أهالي المدينة تصدوا له، ومنعوه من دخول مدينتهم ، ثم اكتشف البربر كذب ادعائه، فقتلوه ، وحملوا رأسه إلى القائم بأمر الله [2] .

وعندما ضمن الخليفة القائم الشيعي، استقرار الأوضاع الداخلية لدولته، كان أول عمل قام به بعدئذ أن أمر عماله في كافة أنحاء إفريقية، بتجهيز السلاح وجميع آلات الحرب، استعدادا لإعادة إخضاع سلطة المغرب الأقصى تحت السيادة الفاطمية، ولإتمام هذا الهدف أخرج قائده ميسور

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 333.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 99؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 209.

الخصي على رأس حملة عسكرية كتامية كبيرة سنة 323هـ/ 934م، واستطاع الأخير هزيمة موسى بن أبي العافية ، وأخذ ابنه أسيرا ، وحاصر مدينة فاس [1] ، التي كانت تدين بالولاء حينئذ إلى الدولة الأموية ، وكان الخليفة الناصر الأموي قد ولى عليها عاملا له من زناتة يسمى أحمد بن أبي بكر الزناتي، فكتب هذا العامل إلى الخليفة الناصر، يستأذنه في إصلاح مسجد القرويين وإحكامه وتوسعته، لأنه ما زال على بنائه منذ أيام الإمام إدريس الأول، مؤسس الدولة الإدريسية ، عندما قام ببنائه وقتذاك ، فأذن له الخليفة الأموي بذلك، وبعث له أموال كثيرة كان مصدرها من أخماس غنائم الروم وأمره أن يصرفها كلها في بنائه ، وتمكن أحمد بن أبي بكر بفضل المساعدات الأموية ، من إصلاح جامع القرويين ، ووسعه من ناحيتي الشرق والغرب، وزاد مساحة الجوف ، وهدم صومعته القديمة التي كانت فوق العنزة ، وبنى صومعة جديدة بدلا منها[2] .

ويبدو أن التعديلات التي أجراها عامل الأمويين الزناتي على مسجد القرويين في مدينة فاس، باعتبار المسجد يمثل دائما أبرز معلم ديني عند عامة المسلمين، وما رافقها من كمية أموال أموية ضخمة أنفقت لإتمام تلك التعديلات كانت ضمن مخطط أندلسي لنشر المذهب السني، وإحلاله محل المذهب الشيعي في بلاد المغرب، وبما أن الذي نفذ المخطط ، عامل أموي ينتمي إلى قبيلة زناتة وهي على عداء قديم مع الكتاميين أتباع المذهب الشيعي، وفي نفس الوقت شديدة التعصب للمذهب السني، فقد حقق ذلك العامل، نجاحا ملموسا في تغيير الطابع الشيعي العام، للمدينة السائد آنذاك ، والذي أخذت سمته، منذ أيام الأدارسة ثم الفاطميين بعدهم، وأظهر بدلا منه طابع أهل السنة التي أصبحت تمثله الدولة الأموية بالأندلس؛ ولعل ذلك يفسر العمل الذي قام به ميسور الخصي قائد الفاطميين في حملته تلك، فحينما حاصر مدينة فاس، وشدد الخناق عليها، وعد عاملها الأموي أحمد بن بكر الزناتي بالأمان، ولما خرج إليه، غدر به ، فقبض عليه وبعث به إلى المهدي[3] .

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 209.

[2] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 54-56.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 209.

وعلى الرغم أن ميسورا الخصي لم يستطع دخول مدينة فاس، بسبب مقاومة أهلها له، بعد حصار دام لها قرابة سبعة أشهر[1] ، إلا أن ذلك لم يمنع أن حملته المؤلفة من أغلب فرسان كتامة استطاعت أن تعيد نفوذ الفاطميين إلى بعض مناطق المغرب الأقصى[2] ، فعاد بعدها إلى إفريقية[3].

وأهم ما يمكن أن يقع به الدارس من غموض عن دور كتامة السياسي بين الفاطميين والأمويين، في أواخر خلافة المهدي ، وعهد الخليفتين القائم والمنصور حتى عصر المعز لدين الله، رابع الخلفاء الفاطميين ، هو أن الروايات التاريخية لم تعد تحمل أسماء قادة كتاميين بارزين ، لقيادة الحملات العسكرية الفاطمية، المتوجها صوب المغربين الأوسط والأقصى. رغم أن قبيلة كتامة استمرت عصب الدولة وجندها المخلصين ، والدعامة الأساسية لوجودها ، وعدة فرسانها الأقوياء الذين تستخدمهم في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية ولكن تحت إمرة وقيادة رجال من مكناسة أو من طبقة الفتيان[4] ، وينوه موسى لقبال إلى هذه القضية بقوله: " أما كتامة فرغم أنها استمرت عصب الدولة وجندها وقوام حياتها وصمام أمنها، وعدتها في وجه الأخطار التي تظهر هنا وهناك في شرق الدولة أو في غربها، فإننا لم نعد نسمع عن قادة كتاميين بارزين تولوا مسؤوليات كبرى حتى عصر المعز لدين الله، وغدت كتامة أوزاعا متفرقين ، وجندا من غير قادة بارزين وزعامات ظاهرة وبرز في ميدان القيادة على كتامة رجال من مكناسة أو من طبقة الفتيان"[5] .

وعلى أية حال، فإن محاولات الفاطميين وأنصارهم الكتاميين التي بدأت تتكرر على المغرب الأقصى ، لإعادة السيادة الفاطمية عليه، ومحاربتهم لزعماء قبائل البربر الموالين للأمويين هناك، وعلى رأسهم محمد بن خزر الزناتي، فكل تلك المحاولات ، لم تثن الخليفة الناصر الأموي ، من

---

[1] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 209.

[2] أنظر ، الجنحاني، دراسات ، ص 168-169.

[3] أنظر، الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص 243.

[4] أنظر، لقبال، دور كتامة، ص 447.

[5] أنظر، دور كتامة، ص 447؛ ويذهب لقبال، أن هذا الوضع هو الذي أثر على معنويات رجال كتامة وعلى تماسك جندها أثناء حركة أبي يزيد الزناتي (أنظر، دور كتامة، ص 447).

إحراز انتصار جديد في الركن الأقصى لشمال المغرب، حيث توجد مدينة طنجة الهامة، والتي كان قد اكتفى الناصر من أهلها مجرد الطاعة والولاء، دون أن يقدم على احتلالها عسكريا[1] ، وذلك حينما استولى على مدينة سبتة سنة 319هـ/931م[2] ، وقد ظل أهل طنجة على ولائهم السياسي للأمويين طيلة مدة خمس سنوات ، أي إلى حين نقضهم للطاعة ، بحدود سنة 323هـ/ 935م.

وما إن وصلت أخبار نقض أهل طنجة للطاعة، إلى الخليفة الناصر ، حتى أمر قائد أسطوله بالبحر عبد الملك بن سعيد ابن أبي حمامة، الذي كان قد كلفه منذ شهر رجب سنة 323هـ/935م، بغزو بلد الفرنجة ، أن يتوجه إلى نحو سبتة وطنجة ، وذلك في شهر رمضان من نفس السنة، وكان هذا الأسطول يحمل على متنه ، أربعين مركبا ، وعشرين حراقة لحمل النفط والآلات البحرية ، وعشرين أخرى لحمل الرجال المقاتلين والبالغ عددهم ثلاثة آلاف مقاتل، موزعين بين ألف من الجند ، وألفين من البحريين[3].

ووصل الأسطول الأموي بكل عدته، من ميناء طرطوشة إلى مرسى واسط الذي يقع بين مدينتي سبتة وطنجة، في شهر شوال من تلك السنة (أي 323هـ) وظل قائده عبد الملك بن سعيد بن ابي حمامة ، بقية السنة، يتنقل بين مراسي المغربين الأقصى والأوسط، لتأديب الثائرين ، وتعزيز نفوس الموالين للأمويين ، إلى أن دخل فصل الشتاء عليه، فاضطر عندئذ للعودة إلى الأندلس بأسطوله في شهر صفر سنة 324هـ/936م[4] ، بعد أن أخضع أهل طنجة [5] .

والواقع أن هذا النصر الأموي الجديد، هو جزء من الهدف السياسي للخليفة الناصر، الرامي للسيطرة على المدن الساحلية المغربية ؛ فقد أضيف فتح ثغر طنجة الهام، إلى مجموعة الثغور المغربية التي تخضع للسيادة الأموية من قبل ، مثل مليلة وسبتة وأصيلا وجزيرة أرشقول ، والذي

---

[1] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 154.

[2] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 289؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 204.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 366.

[4] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 368-369.

[5] أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 155.

أصبح الناصر الأموي من خلالها يتحكم في غرب البحر الأبيض المتوسط، كما منحته الفرصة أيضا، للتدخل في شؤون المغرب الداخلية ، ورفع وتيرة حدة المعارضة بين أنصاره الزناتيين وغيرهم من قبائل البربر، ضد الفاطميين وأنصارهم الكتاميين[1] .

وليس أدل تعبيرا ، على المكانة السياسية التي أصبح يحفل بها الخليفة الناصر في العدوة المغربية ، على أثر استيلائه على معظم المدن الساحلية بالمغربين الأوسط والأقصى، وتمركز العديد من الجنود الأندلسيين، كحاميات أموية لضبط أمور تلك المدن، إضافة إلى كثرة ارتياد أساطيله إلى السواحل المغربية، إلا ذلك النص التاريخي الذي أورده صاحب كتاب أخبار مجموعة، والذي قال فيه " وتناهى ذلك السعد حتى فتح الله له (الناصر) ما وراء البحر من المدن الجليلة، والمعاقل عليها القواد، وحصنها بالرجال، وأمدهم بالجيوش الكثيفة في الأساطيل حتى وطئت بلاد البربر، واستذلت ملوكها ، فصاروا بين منقبع محصور ومذعن منيب وشارد هارب، ومالت إليه الأهواء وسمت نحوه الهمم، فضافرة على حربه، وتجرد في نصره من كان مستنفرا في قتاله من شيعة أعدائه" [2] .

وينوه صاحب كتاب أخبار مجموعة في هذا النص، إلى سوء سياسة الناصر الأموي الداخلية، بسبب ميله للهو ، واعتماده على بعض القادة الضعفاء الذين استبدلهم بالقادة الأكفاء، وتقليصه لنفوذ كبار دولته ووزرائها العرب، وتحديده لواجباتهم المباشرة إلا بأمر منه، ويحمل المؤلف في نفس الوقت الناصر الأموي مسؤولية عدم استغلال الفرصة، للاستيلاء على المشرق والمغرب معا، في ظل النفوذ السياسي الذي كان يتمتع به وسط حلفائه بالعدوة المغربية في تلك الفترة ، ومما أورده بهذا الشأن قوله : "فنكص على موالاته ، واستهلك في مرضاته، واستحكم من أمره ما لو اتصل عزمه فيه، وتأييد الله عليه لغلب على المشرق فضلا عن المغرب ولكنه – عفا الله عنه – مال إلى اللهو، واستولى عليه العجب، فولى للهوى لا للعناء، واستمد بغير الكفاة، وأغاظ

---

[1] أنظر، الفيلالي، المرجع نفسه، ص 155.

[2] مجهول، ص 136.

الأحراز في إقامة الأنذال، كنجدة الخيري، وأصحابه الأوغاد، فقلده عسكره، وفوض إليه جليل أموره وألجأ أكابر الأجناد، ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم ، إلى الخضوع له، والوقوف عند أمره ونهيه" [1] .

ويظهر أن فحوى النص السابق مبالغ فيه، ولم يكن قصد صاحب أخبار مجموعة من هذه المبالغة ، سوى التدليل على قوة موقف الخليفة الناصر السياسي، والتي شاطره فيها حلفائه الزناتيين وغيرهم من زعماء قبائل البربر الأخرى الموالين للأمويين بالأندلس، ضد أعدائه الفاطميين وأنصارهم الكتاميين، والتي عول عليها المؤلف بأنها لا تكفي فقط، للقضاء على الفواطم بالمغرب، بل تسمح للناصر تحقيق مشروعه الكبير في توحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة الأموية السنية بالأندلس، بعد قضائه على الخلافتين الفاطمية بالمغرب، والعباسية بالمشرق.

شعر بعض أمراء قبائل البربر، الذين انضموا إلى ميسور الخصي قائد الخليفة القائم الفاطمي، في حملته على المغرب الأقصى سنة 323هـ/935م ، بقوة النفوذ السياسي الأموي الذي أصبح يمثله كبار زعماء البربر من زناتة ومكناسة إضافة إلى بعض القوى السياسية الأخرى في المغرب الأقصى ، وزاد قوة الموقف الأموي حدة ، بعد عودة حملة ميسور الفاطمية الكتامية ، إلى إفريقية والتي لم تحقق كامل أهدافها ضد الأمويين وأنصارهم البربر، وبما أن هؤلاء الأمراء كانوا غير صادقين في ولائهم ، تجاه الأمويين أو الفاطميين ، إذ كانت مواقفهم تجاه الطرفين، أسيرة مصالحهم الشخصية ، فقد سبق لهم أن كانوا خاضعين للطاعة الأموية، قبل مجيء ميسور بحملته الأخيرة، فلما أحسوا بالخطر الفاطمي، سارعوا بتأدية الولاء والطاعة للفاطميين ، وبعد زوال خطر الفواطم عنهم، أصبحوا يبحثوا عن أسباب لتسويغ تصرفاتهم والعودة إلى الطاعة الأموية.

وكان على راس هؤلاء الأمراء، الأمير محمد بن عون، الذي بعث برسالة إلى الخليفة الناصر سنة 324هـ/936م، يشرح له فيها حقيقة تغير موقفه تجاه الأمويين ، ويعلل ذلك بأنه لم

---

[1] مجهول، ص 136-137.

يكن، القصد منه نبذ الطاعة الأموية وإنما لما اقتضته منه متطلبات الحنكة السياسية عند عبور الحملة الفاطمية بمضاربه أثناء عودتها إلى إفريقية ، وذلك خوفا من ميسور الخصي قائد الحملة ، الذي قبض على إبراهيم بن إدريس الحسني، صاحب ارشقول ، وأودعه السجن ، ونهب أمواله، عند مروره في موضعه ، رغم خروج إبراهيم بن إدريس، متوددا له ، وطالبا وده، ويذكر محمد بن عون، أن وفدا مؤلف من بعض رجال الجيش الفاطمي، وبعض زعماء البربر ، قدموا إليه يحذرونه ويخوفونه من سطوة ميسور الخصي وبخاصة ، أن محمدا بن عون وقومه ، ما زالوا على الطاعة الأموية ، وكان ميسور قد رفض إعطاء الأمان إلى إبراهيم بن إدريس، بسبب موالاة الأخير للأمويين بالأندلس، وبما أن الأمير محمد بن عون، لم يجد السفن الكافية التي تقله هو وقومه إلى الأندلس، هروبا من وجه ميسور، فعندئذ وقع في موقف حرج لم يحسد عليه ، وقد عبر عن ذلك الموقف في رسالته تلك بقوله : " وعلمت أننا (أي محمد بن عون، وإبراهيم بن إدريس) في الذنب الذي منه سيان من ولاية سيدنا أمير المؤمنين (الناصر)، فضقت ذرعا بمخالفته ، وهممت ومن معي بالخروج عن بلدنا ، وإسلامه إليه، فعدمنا السفن بساحلنا، وغشينا الفاسق (يقصد ميسور) فاضطررنا إلى الثبات بمكاننا" [1] .

ويتابع الأمير محمد بن عون تسويغ موقفه للناصر من أنه حتى عند خروجه لتقديم الولاء المصطنع، لميسور الخصي، بعدما أصبح على مشارف مضاربه لم يكن يثق فيه، إذ جهز مراكب خاصة لأفراد أسرته ، وحملهم فيها، وأمرهم باللجوء إلى الناصر الأموي، فيما إذ غدر ميسورا به، ومما جاء في هذا المعنى قوله: " ودنا اللعين منا بعسكره على مقدار بريد منا، فلم أر بدا من ركوب الغرر في مغالطته، والخروج بنفسي إليه، ورأيت أن احتسابها في خلاص قومي يسير ، فخرجت

---

[1] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 385-386.

نحوه، بعد أن استظهرت على أمري بمراكب أعددتها لأهلي، وأمرتهم بالدخول فيها والانحياز إلى كنف أمير المؤمنين ، إن سبق العبد اللعين بي إلى حال مكروه"[1] .

ولكن نتائج المقابلة مع القائد الفاطمي، جاءت عكس ما توقعها الأمير البربري محمد بن عون، حيث تغاضى ميسور عن موقفه السابق المؤيد للأمويين وأقره على ما بحوزته من بلاد، وصرفه إلى موقعه، مقابل ارتسام الأمير البربري بالطاعة الفاطمية ، وقد بعث ميسور بخبر تلك الطاعة إلى الخليفة القائم الفاطمي، كما خضع الأمير البربري الشروط كثيرة لم يكشف عنها وذلك حسبما أشار في رسالته بقوله: " وذكر (يقصد ميسور) لي أمورا يطول بها الكتاب، أجبته عنها بما تقتضيه المداهنة" [2] .

والأجدى التأكيد في تفسير مضمون الرسالة السابقة أن بعض الكيانات السياسية الصغيرة، بالمغرب الأقصى ، كالأدارسة مثلا، أو بعض أمراء البربر الذين يحتلون مساحات ضيقة في تلك المنطقة ، والذين لا يستطيعون مجابهة قوات منظمة ، من قبل الفاطميين، أو مناددة حلفاء أقوياء للأمويين مثل الزناتيين والمكناسيين ، فإن مواقفهم السياسية تكون متذبذبة بين الفاطميين أو الأمويين، وبالأحرى ، هم رهناء مصالحهم الشخصية – كما أسلفت سابقا- ولذا يتطلب الأمر منهم أن يكونوا مع صاحب السيادة والنفوذ الذي يجثم على مناطق نفوذهم بغض النظر عن مذهبه الديني أو انتمائه السياسي ، وهذا ربما ما حصل مع الأمير البربري محمد بن عون الذي لم يرد إلا تسويغ موقفه المؤيد للفاطميين حينما كانت منطقة نفوذه تحت رحمتهم ، وريثما شعر بانقلاب الميزان السياسي لصالح الأمويين بعد جلاء الحملة الفاطمية إلى إفريقية ، سارع للانضواء تحت السيادة الأموية ، والتي عبر عنها بتلك الرسالة ، على أن مثل هذه التصرفات لم تكن غائبة عن بال الخليفتين الفاطمي أو الأموي،وفيما يبدو أن القصد من السكوت عنها، هو استخدامهم لأغراض

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 386.

[2] ابن حيان ، المصدر نفسه، شالميتا، ص 386؛ أنظر، نص رسالة الأمير محمد بن عون إلى الخليفة الناصر سنة 324هـ/936م، في الملحق رقم (12).

الدعاية السياسية ، فمجرد تأدية الطاعة والولاء سواء للمهدية أو قرطبة من قبل هؤلاء الجماعات وهو يعني إشعار للآخرين بتحقيق مكاسب سياسية للطرفين.

وعلى العموم، فقد أدرك الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي، خطورة الوضع السياسي المتنامي لصالح الأمويين بالمغرب الأقصى، والممثل بالتحالف البربري الزناتي والمكناسي ، وغيرهما من قبائل بربرية أخرى، إضافة إلى الكيانات الإدريسية هناك، ضد الدولة الفاطمية بإفريقية، ولكن القائم الفاطمي ، لم يكن بالخليفة ، الذي تعوزه الخبرة السياسية ، للوقوف أمام هذا التحالف الأموي البربري القوي، ولذلك ، فقد بدأ يعمل على تكوين حلف بربري فاطمي مماثل يضم إلى جانب كتامة الحليفة المخلصة للفاطميين ، قبيلة برنسية قوية أخرى وهي قبيلة صنهاجة ، بعد ظهورها كقوة لها وزنها على أراضي المغربين الأوسط والأقصى[1].

وبالفعل ، بدأ القائم الفاطمي، بمد خيوط المودة مع زيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة ، حتى يتمكن من استمالته إلى جانبه[2] ، مستغلاً بذلك العداء القديم بين البتر وهم البدو، وعلى رأسهم زناتة ، وبين البرانس وهم أهل الزراعة والاستقرار ومنهم صنهاجة [3] ، ونجحت جهود القائم تلك، حينما بدأت صنهاجة تغير على مضارب زناتة بالمغرب الأوسط، ودارت الحروب بين القبيلتين [4]، وانضم إلى زيري بن مناد بطون صنهاجة وغيرهم من قبائل البرانس وكثر جمعه، وألحق ببطون زناتة بالمغرب الأوسط بعض الهزائم ، ثم ارتأى اتخاذ مقر دائم ، لقبيلة صنهاجة ، ومن انضم إليها من قبائل البرانس، في جبال تتري ، وهو ما عرف باسم مدينة "أشير"، التي بدأ ببنائها سنة 324هـ/936م [5] ، وأمده القائم الفاطمي، بمواد البناء والحديد والبنائين والصناع [6] ،

---

[1] أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 189.

[2] ياقوت ، معجم البلدان ، ج1، ص 202؛ سيأتي الحديث عن دور قبيلة صنهاجة في العلاقات السياسية الفاطمية والأموية في الفصل الخامس من هذه الدراسة.

[3] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 189.

[4] ياقوت ، معجم البلدان، ج1، ص 202.

[5] ياقوت، المصدر نفسه، ج1، ص 203؛ انظرن سنوسي، زناتة والخلافة، ص 190.

[6] ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 224؛ النويري، نهاية الأرب، ج22، ص 47.

من المدن الفاطمية التي حولـه وهي، المسيلة، وطبنة وغيرهما [1] ، وهذا يؤكد أن الخليفة القائم ، كان له يد في اختيار موقع مدينة أشير التي سعد ببنائها [2] ، لتقف عائقا أمام هجمات زناتة بالمغرب الأوسط على أراضي الفاطميين [3] ، وتكون درع حماية للرعايا الفاطميين ، في تلك النواحي ، وأمام هجمات زناتة [4] ، ولتأدية تلك المهمة ، فقد أتقن زيري بنائها " وعمل على جبلها حصنا مانعا ليس إلى المتحصن به طريق إلا من جهة واحدة تحميه عشرة رجال"[5] ، ولم تلبث أن أصبحت مدينة أشير قاعدة حربية للفاطميين ، تنطلق منها الحملات العسكرية ضد مضارب زناتة بالمغرب الأوسط[6] .

وهكذا استطاع الخليفة القائم الفاطمي، أن يرد على التحالف الأموي، الزناتي المكناسي، وأن يجبرهم على إعادة حساباتهم ، بعدما نجح في استمالة شخصية برنسية قوية ، مثل زيري بن مناد، وقبيلته صنهاجة ، وانضمامها إلى الفاطميين وأنصارهم الكتاميين. وبإنشاء مدينة أشير اكتملت إحاطة مضارب زناتة بالمغرب الأوسط، بأنصار الفاطميين من كل ناحية ، بعد أن أخضع الفاطميون وهران وفاس، وتاهرت, وأقاموا المسيلة في وسط مضارب بني برزال الزناتيين بمنطقة الزاب، وكانت كلها مراكز معادية للفاطميين منذ قيام دولتهم سنة 297هـ/910م[7] ، مما اضطر محمد بن خزر ، زعيم زناتة ، تحت ضغط الجيوش الفاطمية ، بنقل مقر إقامته من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى؛ ورغم أن مقاومة زناتة للفاطميين بالمغرب الأوسط، قد هدأت إلى حين، إلا أن الفاطميين لم يستطيعوا القضاء على قوتها أو إخضاعها.

---

[1] ياقوت ، معجم البلدان، ج1، ص 202.

[2] ابن الأثير ، الكامل، ج8، ص 224؛ النويري، نهاية الأرب، ج22، ص 47؛ أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 190.

[3] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 189.

[4] ابن الأثير، الكامل، ج8، ص 224؛ ياقوت ، معجم البلدان، ج1، ص 203.

[5] ياقوت ، معجم البلدان، ج1، ص 203.

[6] ابن عذاري، ج3، ص 262.

[7] أنظر ، سنوسي ، المرجع نفسه، ص 190.

أما بطون زناتة بإفريقية ، فقد خضعت دون خيار للسيادة الفاطمية ، بسبب قرب مضاربها من مراكز الخلافة، فكانوا في متناول يد جيوشها الكتاميين، ولذا ، ظلوا محافظين على قوتهم، ولم ينكل بهم الفاطميون[1] .

ورغم أن الخليفة القائم الفاطمي، استقطب زعيم قبيلة صنهاجة البرنسية إلا أن دور هذه القبيلة في العلاقات السياسية الفاطمية والأموية، ووقوفها ضد قبيلة زناتة البترية ، ظل محدودا في عهده وعهد ابنه المنصور بالله الفاطمي، وحتى في عهد المعز لدين الله، وأما الدور البارز لها في تلك العلاقات ، ومقاومتها لزناتة ، بدأ مع بداية رحيل الفاطميين ، إلى مصر سنة 361هـ/972م، أي بمد نيابة بلكين بن زيري على شؤون إفريقية والمغرب.

ورغم المحاولات الجادة التي بذلها الخليفة الفاطمي القائم، للحد من نشاط زناتة المعادي للفاطميين ، وبخاصة بعد أن استعان بقبيلة صنهاجة البرنسية، كرديف معزز لقبيلة كتامة التي تشكل غالبية الجيش الفاطمي، وذلك لتقوية الجبهة الفاطمية، ضد التحالف الأموي الزناتي والمكناسي، ولكن تلك الجهود رافقتها محاولات مغايرة من طرف الخليفة الناصر الأموي تضمنت زيادة تقوية وتمتين العلاقة مع الزناتيين ، ففي سنة 326هـ/938م، بعث الناصر الأموي إلى الخير بن محمد بن خزر، الذي كان نائبا لوالده محمد، على وهران وما حولها من مناطق ، هدية قيمة اشتملت على مجموعة من ثياب الخز العبيدي ، تقدر بست وثلاثين شقة، متنوعة التفصيل والألوان، ومجموعة أخرى من الثياب الطرازية تقدر باثنين وعشرين ثوبا، إضافة إلى أربع عشرة عمامة من عمائم الخز [2] .

والراجح، أن سوء الأوضاع الداخلية للدولة الفاطمية في هذه الفترة، هي التي جعلت بعض قادتها البارزين ، وبعض بطون قبائل البربر بالعدوة المغربية يسارعون للانضمام إلى الدولة

---

[1] أنظر، سنوسي، المرجع نفسه، ص 190-191.

[2] ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 428؛ ومما يذكره ابن عذاري أن الناصر الأموي، في هذه السنة أي 326هـ/938م، عزل والي سبتة محمد بن حزب الله، وعين بدلا منه محمد بن مسلمة (البيان، ج1، ص 204).

الأموية بالأندلس، ومما يدعم صحة هذا الاعتقاد، وصول كتاب علي بن حميد المكناسي ، القائد الشيعي إلى الخليفة الناصر الأموي، وذلك يوم الخميس لأربع بقين من شهر رجب سنة 328هـ/940م، يخبره فيه، عن رغبته بالدخول في طاعته وتبرأه من دعوة الشيعة الفاطميين، ومن أنه لجأ إلى معسكر أمير زناتة ، محمد بن خزر، حليف الأمويين ، ينتظر قبول الناصر لطاعته ، وانضمامه إلى الدعوة الأموية ، وحسب ابن حيان أن كتاب علي بن حميد ، كان " أول كتاب ورد له (أي الناصر) في الانحياش إليه" ، فأجابه الناصر الأموي بقبول مراده، وبعث إليه بهدية ثمينة ، كان لها أثرها في تمسك قائد الفاطميين السابق، بالدعوة الأموية، واستمراره في إرسال الكتب التي تحمل في طياتها عبارات الولاء والطاعة للأمويين بالأندلس، وكان له دور إيجابي لصالح الأمويين في أثناء صراعهم مع الفاطميين فيما بعد، ومما جاء في هذا المعنى : " فكشف وجهه في الدعاء إليه (أي الناصر) والمحادة لعدوه ، وتابع كتبه، واستبصر في طاعته فلحق بصميم أهل الولاية ، وجرت له بعد في الذب عن الدولة (الأموية) أخبار طويلة" [1].

كما وصل وفد أهل بني زغنان في آخر ذي القعدة سنة 328هـ/940م، إلى البلاط الأموي بقرطبة ، قادمين من إحدى الأعمال التابعة للفاطميين يعلنون الطاعة والولاء للخليفة الناصر الأموي، وينبذون في نفس الوقت الدعوة الشيعية ، ويطلبون إنفاذ عامل أموي إلى بلدهم ، يقوم بأمرهم ولم يتوان خليفة الأندلس عن قبول طاعتهم وتلبية مطلبهم[2] .

وعلى أية حال، فرغم براعة القائم الفاطمي الحربية، الذي استطاع من خلالها تقليص نشاط قبيلة زناتة حلفاء الأمويين بالأندلس، وذلك طيلة مدة تسعة سنوات عقب تسلمه منصب الخلافة الفاطمية بالمغرب أي في الفترة الواقعة بين عامي 322 و 331هـ/933 و 943م، إلا أن ذلك لم يمنع في الجهة المقابلة ، أن يستغل أحد أفراد هذه القبيلة ، وهو أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي ،

---

[1] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 459.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، شالميتا، ص 459.

سوء سياسة الفاطميين ، المالية والمذهبية ، تجاه الرعية ، وأن يقود ثورة ضدهم بإفريقية ، كادت تقضي على دولتهم[1] .

[1] أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 193.

(ب) مساندة عبد الرحمن الناصر الأموي لثورة أبي يزيد الزناتي على الفاطميين بالمغرب (331-336هـ/943-947م).

تعود أسباب ثورة أبي يزيد الزناتي ، إلى سوء سياسة الفاطميين، المذهبية والمالية تجاه الرعية [1] ، فعلى الرغم من أن أبا عبد الله الشيعي ، الذي امتاز بالدهاء والخبرة[2] ، منع بعض المتحمسين للمذهب الإسماعيلي ، فرضه بالقوة على رعايا الدولة الفاطمية [3] ، وذلك انطلاقا من المبدأ الذي أراد تطبيقه، وهو أن الدولة الفاطمية " يجب أن تكون الحجة والبيان رائدها ، وليس القهر والاستطالة"[4] ، ولكن هذا المبدأ سرعان ما انتهى العمل به ، بمجرد وصول عبيد الله المهدي إلى رقادة سنة 297هـ/910م [5] ، والذي كانت رؤيته، وضع نظام مذهبي يقوم على التطبيق الحازم لمبادئ الإسماعيلية [6] ، فأعلن تفضيل علي بن طالب على غيره من الصحابة[7] وأحاط نفسه، بكل مظاهر التقديس ، وردد أتباعه عنه أنه المهدي ابن رسول الله (ص) ، وحجة الله في خلقه [8] ، وكلف رجلا من أتباعه يعرف " بالشريف" بالجلوس للناس بعد صلاة الجمعة ، ومعه الدعاة ، فيدعون الناس للدخول بالمذهب الإسماعيلي فمن أجاب أحسن إليه، ومن رفض عوقب إما بالحبس أو بالقتل [9] ، ثم عمل المهدي على التضييق على السنة ، خاصة المالكية ، واستخدم القوة والعنف لنشر المذهب الإسماعيلي بينهم [10] ، حتى وصل به الحد أنه " كان يرسل على الفقهاء

---

[1] أنظر، موسى بن خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 57، 61.

[2] المقريزي، اتعاظ ، ج1، ص 97.

[3] النويري، نهاية الأرب، ج26، ص 31.

[4] النويري، المصدر نفسه، ج26، ص 31.

[5] أنظر، مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 491.

[6] أنظر، عادلة، قيام الدولة الفاطمية، ص 214.

[7] أنظر، مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ص 491.

[8] أنظر، عادلة، قيام الدولة الفاطمية، ص 215؛ لقبال، الحلف بين أهل السنة والنكارية، ص 56.

[9] أنظر، عادلة ، قيام الدولة الفاطمية، ص 215.

[10] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 426.

والعلماء (السنة) فيذبحون في فرشهم" [1] ، وقد ازدادت سياسة الفاطميين المذهبية سوء في عهد القائم بأمر الله، الذي فاقهم جميعا في استبداده، وذهب إلى حد شتم المسلمين علانية ، وأضفى بعض الصفات الإلهية على نفسه [2] ، وقد عبر القاضي عبد الجبار عن ذلك بقوله: " أن القائم زاد شره فوق شر أبيه أضعافا مضاعفة، فجاهر بسب الأنبياء ، وأمر مناديه أن ينادي في أسواق القيروان بلعن عائشة وبعلها، ولعن الغار ومن حوى" [3] ، ولا شك أن رواية القاضي عبد الجبار فيها مبالغة وتجني على القائم بأمر الله ، من أنه قام بسب الأنبياء، ولعن الرسول محمد (ص) ، وزوجته عائشة وأصحابه ولكن في نفس الوقت توضح مدى سوء سياسته المذهبية، وكذلك فقد عمل القائم على إرغام الناس على اعتناق المذهب الشيعي قسرا وعذب معارضيه وقتلهم [4] .

كما كان الفاطميون قد انتهجوا منذ بداية حكمهم بالمغرب سياسة مالية متقنة ودقيقة، اختلفت عن بقية النظم المالية الأخرى ، لدول المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، ولكنها كانت أشد وطأة وأكثر تعسفا على السكان [5] ، وذلك من أجل تحقيق هدف واضح في سياسة الفاطميين ببلاد المغرب، وهو إخضاع العالم الإسلامي لراية الخلافة الفاطمية، ولذلك فقد أصبحت شتى الوسائل لتنفيذ هذه السياسة مشروعة ، وإن جاء عبؤها ثقيلا على السكان وجاءت متباينة مع النظم المالية في الإسلام[6] .

ولتحقيق هذا الهدف، فإن المهدي ما لبث أن تخلى عن سياسة داعيته أبي عبد الله الشيعي ، والتي تميزت بالاعتدال [7] ، وعمد إلى اتباع سياسة مالية أشد قسوة ، حيث أمر أول دخوله

---

[1] عبد الجبار، دلائل النبوة، ج2، ص 599.

[2] أنظر، شارل فيرو، المرجع نفسه، ص 42.

[3] دلائل النبوة ، ج2، ص 601؛ أنظر، الذهبي، تاريخ الإسلامي، ج25، ص 31.

[4] ابن عذاري، البيان، البيان، ج2، ص 307.

[5] أنظر، الجنحاني، السياسة المالية، ص 46-50.

[6] أنظر ، الجنحاني، المرجع نفسه، ص 46-50.

[7] أنظر، محمود إسماعيل، الخوارج، ص 220.

للقيروان ، باقتضاء واجب الأموال [1] ، ثم أنشأ دواوين الضياع، والكشف والهاربين مع زيادة الله واستصفى أموالهم [2] ، واستولى على أموال الأحباس والحصون واشتط في جمع الضرائب، وبالغ المهدي في زيادتها [3] ، ولما استلم القائم الحكم، تابع سياسة أبيه المالية في فرض الضرائب الجائرة، والعمل على زيادتها [4] ، ولذلك علل أبو يزيد سبب ثورته على الفاطميين ، بأنهم أثقلوا الناس بالضرائب المشطة، فوجب عليه أن يقوم محتسبا لله مدافعا عن مصالح المسلمين[5] ، فانضم إليه الناس من كل صوب وحدب [6] ؛ وبمعنى آخر فإن هذه الحركة أبلغ تعبير عن السخط الذي ملأ قلوب أهل إفريقية والمغرب الأوسط على محاولات رجال الدولة الفاطمية في فرض المذهب الإسماعيلي على الناس من ناحية، وعلى سياستهم المالية ، والعامة بكل نواحيها[7] .

ولا غرو، أن سوء سياسة الفاطميين الداخلية، قد هيأت الفرصة المناسبة، إلى أبي يزيد مخلد بن كيداد [8] بن يفرن [9] الزناتي [10] ، المعروف بصاحب الحمار [11] ، لأن يعلن ثورته على الفاطميين من جبال الأوراس [12] ، معقل الثوار [13] سنة 331هـ/943م [14] . وقد حدد ابن خلدون

---

[1] أنظر، الجنحاني، السياسة المالية، ص 53.

[2] أنظر، مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 508-509.

[3] أنظر، محمود إسماعيل، الخوارج، ص 220.

[4] عبد الجبار، دلائل النبوة، ج2، ص 602.

[5] النعمان، المجالس والمسايرات، ص 336.

[6] أنظر، مرمول، السياسة الداخلية، ص 93.

[7] أنظر، مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 495.

[8] ابن حزم ، الجمهرة ، ص 495؛ ابن الأبار ، الحلة، ج1، ص 290؛ المقريزي، اتعاظ ، ج1، ص 75.

[9] ابن حزم ، الجمهرة، ص 495؛ ابن الأبار الحلة، ج1، ص 290؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 164.

[10] ابن حزم، الجمهرة ، ص 495؛ ابن الأبار، الحلة، ج1، ص 290.

[11] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 41؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 76.

[12] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 27-28؛ " أوراس اسم يطلق على سلسلة جبلية تغطي مساحة كبيرة، حوالي 3600 م2 في جنوب إقليم قسنطينة – والاسم يطلق بصفة خاصة على جبل واقع في جوبي فنشلة" (الجوذري، سير جوذر، ص 74 هامش).

[13] الجوذري، سيرة جوذر، هامش؛ وقد اشتهر هذا الجبل بوعورته (انظر، عادلة ، قيام الدولة الفاطمية، ص 25).

[14] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 28؛ انظر، سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص 48.

اسم البطن اليفرني التي ينتمي إليها أبو يزيد، وهم بنو واركو [1] ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن أبا يزيد كان على مذهب الخوارج الأباضية [2] ، النكارية [3] ، كما أن غالبية بطون زناتة كانت على مذهبي الخوارج والمعتزلة والبقية منهم على مذهب أهل السنة، وتؤكد عداءها للخلافة الفاطمية التي اعتمدت على قبائل البرانس، وساندتهم في النيل من زناتة[4] .

وأهم ما يميز هذه الثورة ، هو انقسام المؤرخين الباحثين إلى قسمين حول طابعها [5] ، حيث يرى أصحاب الرأي الأول، الذين أخذوا بالظاهر ، بأنها ذات طابع سني، لأن أبا يزيد، أظهر الترحم على أبي بكر وعمر، وحث على قراءة مذهب مالك والالتزام به [6] ، إلا أن ذلك لا ينفي بأنها كانت ردة فعل للخارجية الإباضية في مواجهة الشيعة الإسماعيلية [7] ، وإن جموع الإباضية الوهبية والسنة الذين آزروا أبي يزيد، لم يخف عليهم حقيقة معتقداته، ولكن أيدوه لا تفاقهم معه في الرغبة في إسقاط الحكم الفاطمي، بالرغم مما كان بينهم جميعا من عداء مذهبي ، فالوهبية بايعوه شريطة " أنهم إن ظفروا بالمهدية والقيروان صار الأمر شورى" [8] ، والسنة أيدوه نكاية في الفاطميين [9] .

ولكن أصحاب الرأي الثاني والأهم ، يرون أن هذه الثورة وأن كانت في ظاهرها حربا بين الخوارج والشيعة ، فإنها في حقيقتها صراع بين أهل البداوة من البتر وعلى رأسهم زناتة ، وأهل الزراعة والاستقرار من البرانس ومنهم كتامة وصنهاجة [10] ، ولذلك ، فقد التفت قبيلة كتامة

---

[1] العبر، ج7، ص 23.

[2] ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج2، ص 234؛ النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 116.

[3] ابن الأثير ، الكامل، ج2، ص 303؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 41.

[4] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 193-194.

[5] أنظر، سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص 94؛ محمود إسماعيل، الخوارج، ص 236؛ لقبال، دور كتامة، ص 427؛ سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 200-201.

[6] أنظر، عادلة، قيام الدولة الفاطمية، ص 250؛ موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 75.

[7] أنظر، محمود إسماعيل، الخوارج، ص 437.

[8] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 28.

[9] أنظر، محمود إسماعيل، الخوارج، ص 238.

[10] أنظر، سالم ، المغرب الكبير، ج2، ص 627؛ موسى بني خالد ، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 76.

البرنسية من جديد حول الفاطميين، بسبب العداء التقليدي بين قبيلة كتامة وقبيلة زناتة [1] التي اعتمد عليها أبو يزيد في ثورته [2] ، كما انضمت قبيلة صنهاجة البرنسية إلى جانب الفاطميين، لأن أبا يزيد كان زناتيا، وأيدته قبيلة زناتة المنافسة لها [3] ، ومما يؤكد أن قيام هذه الثورة كانت على أكتاف قبيلة زناتة التي تعد عصب الثورة " أن الذين أشعلوها هم بنو واركو أحد بطون بني يفرن الزناتيين الضاربين في جبل أوراس" وإليهم ينتمي أبو يزيد، ثم انضم إليه العديد من بطون زناتة ، بالرغم من اختلاف مذاهبهم ، إذ انضم إليه بنو زنداك، أحد بطون مغراوة الزناتية ، وبنو خزر أقوى البطون المغراوية وأمراؤها ، فكان أميرهم محمد بن خزر الزناتي من أعيان أصحاب أبي يزيد [4] ، كما التحق بأبي يزيد بنو برزال الزناتيون وغيرهم من البطون الزناتية [5] .

وقد عبر ابن خلدون عن توافد القبائل الزناتية على أبي يزيد قبل إعلان ثورته بقوله : "واجتمع إليه القرابة"[6] ، ويقدم سنوسي دليلا آخر على أن قبيلة زناتة كانت عصب الثورة، فيذكر أن ابا يزيد وصف بسوء السلوك وأبشع الصفات وبالرغم من ذلك، لم يقدم أحد من أتباعه على قتله[7] ، بل وقفوا إلى جانبه ودافعوا عنه حتى نهاية ثورته، لأنهم من عصبيته، فمن كان له عصبية تسانده، فإنها تمنعه إذا أخطأ[8] .

ومما يؤكد زناتية الثورة أيضا ، أن ابا يزيد الزناتي، حينما بدأت الهزائم تلاحقه – خاصة بعد فشله في الاستيلاء على المهدية- تخلى عنه أهل السنة والقبائل البربرية التي التحقت به طمعا في الغنائم ، ثم تخلى عنه من هم على مذهبه وليسوا من عصبته، مثل بني كملان وهوارة ، وأما

---

[1] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 201.

[2] أنظر، العبادي، تاريخ المغرب والأندلس، ص 205؛ ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين، ص 99.

[3] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 135؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 307؛ أنظر، موسى بني خالد ، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 77.

[4] انظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 201-202.

[5] أنظر، سنوسي، المرجع نفسه، ص 202.

[6] ابن خلدون ، العبر، ج7، ص 28.

[7] انظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 203.

[8] الشافعي، السيرة ، ص 140؛ انظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 203.

عصبيته القريبة من زناتة الأوراس، فقد بقوا إلى جانبه، يقاتلون معه، حتى قضى عليه جريحا في نهاية ثورته، ثم انضموا إلى ابنه فضل من بعده، عندما أراد مواصلة الثورة ضد الفاطميين[1] .

وبالجملة، فإن معظم القبائل البربرية، وخاصة بطون زناتة، انضمت إلى ثورة أبي يزيد على اختلاف مذاهبها، بدافع العصبية القبلية ، وذلك لأن العصبية التي تقوم أساسا على رابطة النسب والنعرة على ذوي القربى، يكون لها الغلبة على المذهب الديني، لذلك ساند الزناتيون أبا يزيد في ثورته مساندة قوية، فبلغ خطرهم أقصاه في هذه الثورة التي اتخذت المذهب الديني ستارا لها[2] .

وخلال فترة قصيرة ، لم تتجاوز ثلاث سنوات، من إعلان أبي يزيد الزناتي لثورته حينما أعلن أنه خرج غضبا لله سنة 331هـ/943م [3] ، بعد أن أخذ البيعة من عدد كبير من البربر[4]، معظمهم زناتية [5] يفرنية [6] على قتال الفاطميين ، حتى استطاع خلال تلك المدة من احتلال أغلب المدن الإفريقية التابعة للدولة الفاطمية ، مثل تبسة [7] ومجانة [8] ومرماجنة [9] وسبيبة [10] ،

---

[1] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 33-34؛ أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 205؛ موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد، ص 78.

[2] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 202-203؛ موسى بني خالد ، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 78.

[3] الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص 45؛ النويري، نهاية الأرب، ج26، ص 36.

[4] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 267.

[5] أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 206.

[6] أنظر، مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ج1، ص 497.

[7] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 271-272؛ تبسة: وهي مدينة بإفريقية بينها وبين قفصة ست مراحل (ياقوت، معجم البلدان، ج2، ص 363).

[8] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 303؛ المقريزي، اتعاظ ، ج1، ص 75؛ مجانة: وهي بلد بإفريقية تسمى قلعة يسر بينها وبين القيروان خمس مراحل (ياقوت ، معجم البلدان، ج4، ص 417).

[9] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 303؛ مرماجنة: وهي قرية بإفريقية بينها وبين الأربس مرحلة (ياقوت، معجم البلدان، ج7 ص 386).

[10] إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 273؛ سبيبة: وهي مدينة من أعمال القيروان (ياقوت، معجم البلدان، ج5، ص 32).

والأربس [1] وباجة [2] ، ورقادة [3] ، وأخيرا تمكن أبي يزيد من الاستيلاء على القيروان في صفر سنة 333هـ/ تشرين أول 944م [4] ، وقتل على أثر ذلك ميسور الخصي قائد الفاطميين في مكان بين المهدية والقيروان [5] ، يسمى الأخوان [6] ، وذلك في شهر ربيع الأول من نفس العام [7] ، ثم أرسل أبو يزيد سرية إلى سوسة واحتلها عنوة [8] .

وبعد أن استولى أبا يزيد الزناتي في السنوات الأولى لثورته على معظم مدن إفريقية وحصونها بعد حروب حالفه النصر فيها [9] ، استكملت جيوشه حينئذ – أي سنة 333هـ/944م- انتشارها في جل أرجاء الولايات الفاطمية وأصبح في مركز يستطيع معه أن يهدد المهدية عاصمة الفاطميين نفسها [10] إذ أن الطريق المؤدية إليها، أضحت خالية من أية مقاومة فاطمية، أمام قوات أبي يزيد الزناتية [11] ، ولذلك فإن الخليفة القائم بأمر الله لما أحس بالخطر، أمر بحفر خنادق حول أرباض المهدية وزويلة [12] ، في أواخر ربيع الآخر سنة 333هـ/تشرين ثاني 944م [13] ، ثم كتب

[1] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 273؛ الأربس: هي مدينة وكورة بإفريقية (ياقوت ، معجم البلدان، ج1، ص ص 184) ؛ وهي مسورة ولها ربض كبير (السراج، الحلل السندسية، م1، ص 507).

[2] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 303؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 76.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 304؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 41؛ رقادة: كانت عاصمة الأغالبة منذ سنة 263هـ وبينها وبين القيروان أربعة أميال (ياقوت، معجم البلدان، ج4، ص 267-268).

[4] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 304؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 41؛ المقريزي، اتعاظ ، ج1، ص 77.

[5] النعمان، افتتاح، ص 332.

[6] مجهول، العيون والحدائق، ج4، ص 423.

[7] البكري، المغرب، ص 31.

[8] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 41؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 77؛ سوسة: وهي على بعد ستة وثلاثين ميلا من القيروان، ويحيط بها البحر من ثلاث نواح الشمال والجنوب والشرق وسورها صخر منيع وبها ثمانية أبواب (البكري، المغرب، ص 34).

[9] أنظر، مرمول، السياسة الداخلية، ص 95؛ محمود إسماعيل، الخوارج، ص 243.

[10] أنظر، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص 91.

[11] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 214.

[12] التجاني، رحلة التجاني، ص 325؛ السراج، الحلل السندسية، م1، ص 442.

[13] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 304.

إلى زيري بن مناد أمير صنهاجة وإلى سادات كتامة ، والقبائل الموالية له يستنصرهم ويحثهم على المسير إلى المهدية ويحضهم على قتال أبي يزيد وأتباعه[1] .

ولكن ذلك لم يمنع أبا يزيد الزناتي، من محاصرة المهدية ومحاولة احتلالها في أربع مرات متتالية ، كانت أولها، لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة 333هـ/20 شباط 945م، قدم فيها زيري بن مناد أمير صنهاجة ، مساعدات للفاطميين، استحق من خلالها أن يسمى منقذ الخلافة الفاطمية [2] ، وزحف أبو يزيد إليها للمرة الثانية في يوم الجمعة ، لسبع بقين من جمادى الآخر سنة 333هـ/ شباط 945م [3] ، ثم زحف في المرة الثالثة للاستيلاء عليها يوم الاثنين لسبع بقين من شهر رجب سنة 333هـ/11 آذار 945م [4] ، وكان الخليفة القائم قد أعد خطبة يحرض فيها أنصاره عامة ، والكتاميين منهم خاصة لقتال أبي يزيد في هذه المرة ، وأمر قاضي المهدية آنذاك أحمد بن محمد بن عمر المروزي ، بقراءتها عليهم [5] ، ومما جاء في تلك الخطبة : "وقد علمتم يا معشر كتامة ، ما مضى عليه آباؤكم وقدماء أسلافكم من لزوم الطاعة والاعتصام بحبلها ، والتفيء بظلها، والمجاهدة في الله حق الجهاد، وأنكم خبيئة الله لهذا الحق المحمدي الفاطمي المهدي ، حتى أظهره الله وأعلاه، وجعل لكم فخره وسناه... يا أبناء المهاجرين والأنصار الأولين السابقين المقربين ، أليس بكم أزال الله دول الظالمين التي مضت لها أحقاب السنين ، حتى جعلهم الله حصيدا خامدين، وأورثكم أرضهم وديارهم ، فصرتم تغزون بعد أن كنتم تغزون، نزل بإزائكم الدجال اللعين في شرذمة ضالة مضلة لم يستضيئوا بنور هداية ..." [6] ، وأما المرة الرابعة والأخيرة التي حاول فيها أبو يزيد الاستيلاء على المهدية ، فكانت يوم الجمعة لسبع بقين من شوال سنة 333هـ/حزيران 945م [1] .

---

[1] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 42؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 78.

[2] أنظر ، موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 105-106.

[3] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 310.

[4] ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 305؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 75.

[5] الجوذري، ، سيرة جوذر، ص 54؛ أنظر، موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين ، ص 108.

[6] الجوذري، سيرة جوذر، ص 54؛ أنظر، نص الخطبة في الملحق رقم (13).

[1] أدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 314-315.

ورغم المحاولات الأربع الجادة التي بذلها أبو يزيد الزناتي لاقتحام المهدية إلا أنه فشل في النهاية من السيطرة عليها، كما تخلى عنه أصحابه المحاصرين للمدينة منذ مدة ، ولم يبق معه سوى نفر قليل من عصبيته التي تحميه[2] .

ولم تقف سوء أوضاع أبي يزيد الزناتي، عند حد فشله في الاستيلاء على المهدية، بل إن الهزائم أخذت تلاحقه في كل مكان، وخسر على أثرها معظم المدن الإفريقية التي استولى عليها في بداية ثورته ، فكان لزاما عليه عندئذ ، حتى يسترد هيبته أن يحرز نصرا كبيرا يعوضه عن هزائمه السابقة، ولذلك سار في ثمانين ألف مقاتل معظمهم من الزناتيين، إلى مدينة سوسة الفاطمية ، سنة 334هـ/ 946م، وضرب عليها حصارا مشددا [3] ، ووافق في تلك الأثناء أن توفي الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي بالمهدية يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من شوال سنة 334هـ/التاسع عشر من أيار 946م[4] ، وأبو يزيد ما زال محاصرا لسوسة [5] ، وكان قد فوض أمر الخلافة بعده إلى ابنه وولي عهده أبي الطاهر إسماعيل [6] ، الذي لقب بالمنصور بالله [7] ، بعد أن بذل كل ما باستطاعته في إعداد الجيوش وإرسالها تباعا لوقف تقدم أبي يزيد وأتباعه إلا أنها منيت بالهزيمة ، وعمل على استنفار قبيلتي كتامة وصنهاجة ، وحثهم على قتال أبي يزيد ومن معه من زناتة ، فأمدته كتامة بكل فرسانها، أما زعيم صنهاجة وإن أمر القائم بأمر الله بما أعانه وأهل المهدية على الصمود للحصار فإنه لم يدخل بكل ثقله إلى جانب الخليفة[1] .

---

[2] أنظر، موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 114.

[3] أنظر، موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 123.

[4] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 317؛ الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص 96؛ ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص 32؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص 29.

[5] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 317؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج3، ص 387.

[6] الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص 16؛ ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص 32؛ فكتم المنصور وفاة أبيه خوفا من ان يعلم أبا يزيد، كما أنه لم يتسم بالخلافة ، ولم يغير السكة ولا الخطبة حتى انتهى من حرب أبي يزيد (المقريزي، الخطط، ج2 ص 33).

[7] ابن الأثير، الكامل، ج6، ص 317؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 43.

[1] أنظر ، أنظر، موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 125.

وما إن آل أمر الخلافة إلى المنصور بالله، حتى خرج بنفسه إلى محاربة أبي يزيد الزناتي، وجد في مطاردته وبذل الأموال بسخاء لاستمالة الرجال والقبائل [2] ، ولم تمض مدة طويلة، حتى استرد معظم المدن الفاطمية التي استولى عليها أبي يزيد، وقد وصف ابن خلدون ذلك بقوله " إن المنصور بالله كان يسبق أبي يزيد على كل مدينة يقصدها [3] ، ثم ازداد موقف المنصور بالله قوة، حينما وافته رسل محمد بن خزر الزناتي، بحدود سنة 335هـ/946م، تطلب منه الأمان- وكان محمد بن خزر من أعيان أصحاب أبي يزيد- فأمنه المنصور بالله، وأكرم رسله، وكتب إليه باقتفاء أثر أبي يزيد [4] ، ووعده عشرين حملا من المال إذا ما قبض عليه [5] .

إلا أن معبد بن خزر الزناتي- أخا محمد بن خزر أمير مغراوة - [6] ، رفض التخلي عن أبي يزيد، وظل على مساندته في بعض مغراوة الزناتية حتى نهاية ثورته[7] ، والشيء الملفت للنظر هنا، أن محمد بن خزر الزناتي ، حليف الأمويين بالأندلس، إذا كان قدم من المغرب الأقصى- الذي أصبح مقره الجديد بعد أن تراجع أمام ضربات الفاطميين وأنصارهم الكتاميين من المغرب الأوسط- لكي يكون نصيرا وعونا لأبي يزيد ، بحكم الرابطة الدموية أولا، فالزعيمان ينتميان إلى قبيلة زناتة ، ثم لأن أبا يزيد كان هدفه القضاء على الدولة الفاطمية العدوة التقليدية للأمويين ، وهو الهدف الذي كان أساس المصلحة المشتركة التي ربطت محمد بن خزر مع الخليفة عبدالرحمن الأموي، وعلى أمل تحقيق هذا الهدف قامت العلاقة الودية بين الطرفين.

---

[2] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 226.

[3] العبر، ج4، ص 44.

[4] الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص 45.

[5] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 33؛ وقد أورد إدريس نص وعد الخليفة المنصور بالله الفاطمي، إلى محمد بن خزر الزناتي بقوله "إنك إن فعلت ذلك وظفرت به حتى تأتينا به أسيرا، أو برأسه محمولا ، كان لك عندنا عشرون حملا دنانير تقبضها منا ساعة إيصاله إلينا. فقد جعلنا بذلك على أنفسنا يمينا مؤكدة، ولا يسعنا إلا الوفاء بها لمن أتى به أسيرا أو برأسه ، كائنا من كان من الناس. فأجهد نفسك في ذلك فاغتنم مجدا أتاحه الله لك وفخرا ساقه إليك بالبدار إليه والمسارعة نحوه، تكن الحظي السعيد والمغبوط الرشيد ، فاعلم ذلك، بحبسة إن شاء الله" (إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 390).

[6] أنظر، موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 155.

[7] أبن خلدون، العبر، ج7، ص 26.

فالسؤال الملح هنا هو: لماذا تخلى محمد بن خزر عن أبي يزيد، وطلب الأمان من الخليفة المنصور بالله الفاطمي، وقد حاول أحد الباحثين الإجابة عن ذلك السؤال بقوله: "والغالب أن محمدا بن خزر الزناتي تخلى عن أبي يزيد بعد أن أيقن هزيمته – وبخاصة أنه ليس من عصبيته القريبة وليس على مذهبه النكاري-"[1] ، أي باعتبار محمد بن خزر من مغراوة ، وسني الاعتقاد، وأما أبي يزيد، من بني يفرن، وخارجي نكاري؛ كما أن أحد المستشرقين عبر عن نفس المعنى السابق بقوله : " بأن زناته المغرب الأوسط انسحبت عن مساندة أبي يزيد في الوقت المناسب"[2].

ويبدو أن محمد بن خزر، لما شعر بضعف موقف أبي يزيد ، وباقتراب أجل ثورته، لم يبق أمامه حينئذ إلا التفكير في طريقة للانسحاب، إلى المغرب الأوسط أو المغرب الأقصى، وذلك للحفاظ على أرواح أفراد قبيلته من ردة فعل الخليفة المنصور بالله الفاطمي، وهذا لا يمنع ، أن الخليفة المنصور بالله الفاطمي، قد أدرك هدف محمد بن خزر الحقيقي ، ولكن رغب في إعطائه الأمان ليضمن حياد موقفه على الأقل، والذي من شأنه أن يفت في عضد أنصار ثورة أي يزيد، وإذا كان الأمر حسبما رأى أحد الباحثين من أن تخلى محمد بن خزر عن أبي يزيد لأنه لم يكن من عصبيته القريبة- أي يقصد من نفس مغراوة الزناتية- وليس على مذهبه النكاري [3] ، فيمكن جلي الغموض الذي اكتنف خيال الباحث ودعاه استنباط ذلك التفسير، بالقول؛ أليس انضمام محمد بن خزر منذ البداية إلى ثورة أبي يزيد التي أصبح من خلالها من أعيان أصحابه[1] ، كان ذلك لأجل تقويض أركان الدولة الفاطمية لخدمة أغراض تحالفه مع أمويي الأندلس من ناحية ، ثم لمساندة أبناء عصبيته الزناتيين من ناحية أخرى، كما أن رابطة العصبية

---

[1] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 230.

[2] هذا النص من Gautier, Le Passe de L’Afrique du Nord P.394 . وقد اقتبسته من سنوسي، زناتة والخلافة، ص 230-231.

[3] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 230.

[1] الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص 45.

القبلية تطغى على رابطة الدين، ولذا، لم يكن اعتقاد ابن خزر السني، أو اعتقاد أبي يزيد الخارجي النكاري يؤثر على ترك أبي يزيد الزناتي يواجه مصيره وحده أمام الجيوش الفاطمية.

ومما لاشك فيه أن محمداً بن خزر كان قد طلب الأمان من الخليفة المنصور حسبما أوردته الإشارات التاريخية [2] ، وبما أن الأخير أعطاه الأمان ، فكان لا بد لابن خزر أن يثبت انتهاء علاقته بالثورة ، وأن أمر زعيمها لم يعد يعنيه، ولذا أرسل إلى الخليفة المنصور بالله الفاطمي، يخبره بالمكان الذي اختبأ به أبو يزيد ، وفي نفس الوقت طلب من الخليفة الفاطمي الأمان، لبني كملان الزناتيين ، وقبولهم كأنصار جدد لمساندة الجيش الفاطمي، ولكن الخليفة المنصور اشترط لاعطاء بني كملان الأمان بأن يأتوا له بأبي يزيد مكبلا ، وذلك لأنه كان يشك في صدق نواياهم[3] .

ويبدو أن ابا يزيد ، لما علم بأن محمداً بن خزر، انحاز إلى الخليفة المنصور بالله : "ولم يجد فيه مطمعا، ولا أصاب له متعبا"، غضب لهذا الفعل، وتعبيرا عن غضبه، هاجم سوق لابن خزر يعرف " بتامرست" [4] ، فانتهبه، ولذلك بادر إليه ابن خزر، ودارت بينهما معركة ، وكان النصر فيها حليف ابن خزر بعد أن قتل من بني كملان أصحاب أبي يزيد عددا كبيرا[5] .

وتجدر الملاحظة مما تقدم، أن ميول محمد بن خزر إلى الفاطميين، لم يكن بقصد الطاعة والولاء، فإن لم يكن كيانه السياسي الذي يسعى لتحقيقه، لن يتم في ظل وجود الفاطميين، هو السبب في ذلك؛ فإن عدم ميوله وولاءه لهم سيكون نكاية بأنصارهم الكتاميين أعداء زناتة التقليديين ، ولكن طلبه الأمان من الفاطميين كان ذكاء قائد عسكري فذ، قدر مدى ردة فعل الجيش الفاطمي المؤلف أغلبه من الكتاميين ؛ وبصورة أخرى، فإن خسارته فيما إذا بقي مساندا لأبي يزيد ، ستكون أكبر

---

[2] الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص 45؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 390.

[3] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 405.

[4] إدريس، المصدر نفسه، ج5، ص 406؛ تامرست: لعلها تقع في حدود بلد صنهاجة الغربية تجاه تاهرت وتلمسان، فهناك كانت منازل مغراوة قبل أن يجلوهم عنها الفاطميين، كما يمكن أن تكون متوغلة في الصحراء تجاه الإغواط (إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 406؛ هامش 106).

[5] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 206.

بكثير، فيما إذا لم يطلب الأمان من الخليفة المنصور بالله الفاطمي، ولذلك اختار الحل الأخير، حتى يستطيع اتمام عملية انسحابه إلى مضاربه الأصلية ، وكان قد سبق لمحمد بن خزر أن طلب الأمان من داعية الفاطميين ، أبي عبد الله الشيعي حينما خرج من رقادة سنة 296هـ/ 908م [1] ، على راس قوات كتامية لإخراج عبيد الله المهدي من سجنه في سجلماسة [2] ، وذلك خوفا من أن تأخذ كتامة بثأر قتلاها [3] .

وقد كانت استمالة الخليفة المنصور بالله الفاطمي، إلى زيري بن مناد، زعيم قبيلة صنهاجة البرنسية، بمثابة الضربة القاصمة التي حلت عرى ثورة أبي يزيد الزناتي [4] ، وكان زيري بن مناد وقومه صنهاجة في ذلك الوقت قد توقفوا عن إمداد الفاطميين ولم يشاركوهم في القضاء على ثورة أبي يزيد منذ أن أمدوا القائم بأمر الله الفاطمي بالمؤن والفرسان ، أثناء حصار المهدية، وحتى خروج المنصور بالله لمطاردة أبي يزيد ، وبما أن زيري بن مناد كان على عداء مع قبيلة زناتة، وقام بالإغارة على مضاربهم بإفريقية والمغرب الأوسط [5] ، فمن الضروري أن يعرف المنطقة التي لجأ إليها أبو يزيد، فأراد المنصور بالله الاستعانة به في مطاردة أبي يزيد[6].

وإضافة إلى نجاح الخليفة المنصور بالله الفاطمي في استمالة صنهاجة ، فقد وصلت إليه وقتذاك من قبائل كتامة وعجيسة وزواوة ، وحشود بني زنداك، ومزاتة ومكناسة ومكلاتة[7] ، وخرج بهم جميعا لمطاردة أبي يزيد الزناتي في شهر شعبان سنة 335هـ/ آذار 947م [1] ، وجرت

---

[1] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 70.

[2] النعمان، افتتاح، ص 276.

[3] أنظر، لقبال، دور كتامة، ص 349.

[4] ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص 27.

[5] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 154؛ انظر، سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 232.

[6] أنظر، موسى بني خالد ، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 158.

[7] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 33.

[1] ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 310؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 84.

بينهما معركة سميت معركة الرؤوس بفحص باتنه التي تسمى قديما أذنه[2] ، وقد هزم فيها جيش أبي يزيد، بعد أن أبلت صنهاجة وزعيمها زيري بن مناد الصنهاجي ، أحسن البلاء ، وكانت غاية زيري بن مناد قتل أبي يزيد، بيد أن استماتة أصحاب أبي يزيد وقفت حائلا أمام تلك الرغبة [3] ، وقد أصيب أبو يزيد في هذه المعركة بجراح [4] ، وهرب على أثرها إلى قلعة بجبل كيانة [5] ، إلا أن المنصور بالله الفاطمي، لم يمهل أبي يزيد، فهاجمه في القلعة ، ودارت بينهما معركة فاصلة عرفت، بوقعة الحريق [6] أو الخصوص [7] ، واقتحم المنصور بالله على أثرها القلعة ، وقبض جنده على أبي يزيد وهو مثخن بالجراح، وساقوه إليه، فسجد المنصور بالله على الأرض شكرا لله[8] ، وبقي أبي يزيد في الأسر أربعة أيام [9] ، ثم توفي يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة 336هـ/22 آب 947م متأثرا بجراحه [10].

ورغم محاولة فضل بن أبي يزيد، بمساندة معبد بن خزر الزناتي، استئناف الثورة التي بدأها أبوه ، وراح ضحيتها؛ فإنه سرعان ما غدر به أحد اتباعه ويدعى باطيط بن يعلى، فقتله وبعث

---

[2] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 407-408؛ ويكتبها البكري " أدنة" (بالدال) ويقول: إنه يقع من المسيلة على بعد مرحلة ومن طبنة على بعد مرحلتين (المغرب ، ص 144).

[3] ابن حماد، أخبار بي عبيد ، ص 40-41.

[4] ابن حماد، المصدر نفسه، ص 40-41؛ وحسب ابن الأثير والمقريزي فإن زيري بن مناد هو الذي جرحه (الكامل، ج6، ص 310؛ اتعاظ، ج1، ص 85).

[5] الجوذري، سيرة جوذر، ص 48؛ التجاني رحلة التجاني، ص 327؛ اختلفت المصادر في تسميتها، فهي قلعة كتامة (ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 310؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 85) أو كيانه وأسمها تاقرديوس وهي مطلة على قلعة بني حماد (ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص 42)؛ أو قلعة كيانه وهي بناحية الزاب (افتتاح، ص 279).

[6] ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص 42.

[7] الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص 18؛ النويري، نهاية الأرب، ج28، ص 107.

[8] ابن الأثير ، الكامل، ج6، ص 310؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 85؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 438.

[9] الأزدي، أخبار الدول المنقطعة، ص 18؛ المقريزي، اتعاظ، ج1، ص 85؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 438.

[10] ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص 389؛ ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص 42؛ أدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 451.

برأسه إلى المنصور بالله الفاطمي وذلك يوم الجمعة لخمس بقين من رمضان سنة 336هـ/28 آذار 948م [1] .

كما لاقى أيوب بن أبي يزيد، بعد عودته من سفارته إلى الأندلس ، نفس مصير أخيه فضل، حيث غدر به عبد الله بن بكار اليفرني، عامل تاهرت ، وقدم رأسه إلى المنصور بالله تقربا إليه [2]، في نفس العام المذكور- أي 336هـ ، وأما بقية أبناء أبي يزيد الآخرين، فقد وجدوا مأوى لهم في بلاط الأمويين بالأندلس [3] .

وتحدد الإشارات التاريخية بداية العلاقة الودية بين أبي يزيد الزناتي وعبد الرحمن الناصر الأموي، بحلول شهر شوال عام 333هـ/كانون ثاني 944م [4] ، أي في الفترة التي كانت فيها مدينة المهدية عاصمة الفاطميين ، محاصرة من قبل جيوش أبي يزيد الزناتي [5] ، وذلك عندما أرسل أبو يزيد وفدا من علماء أهل القيروان ، مؤلف من ثلاثة أشخاص [6] ، بزعامة تميم بن أبي العرب التميمي، إلى الخليفة الناصر الأموي ، وكان أعضاء الوفد يحملون معهم رسالة إلى الخليفة الناصر، أخبروه فيها بتغلب أبي يزيد على القيروان ورقادة وما جاورهما، بعد قتل العديد من الكتاميين أنصار الفاطميين ، ويطلبون منه في نفس الوقت، العون والمساعدة ، على أن يعترف أبو يزيد بخلافته ، ويدعو له على المنابر[7] .

---

[1] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 481؛ أنظر، موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد ، ص 172.

[2] ابن حماد، أخبار بني عبيد، ص 47؛ ابن خلدون، العبر، ج7، ص 35؛ ابن عذاري ، البيان، ج2، ص 332؛ إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 373.

[3] دائرة المعارف الإسلامية، م2، ص 35.

[4] ابن خلدون، ج7، ص 29؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 212؛ أنظر،

Provincal, Historie , Vol. 2, P. 103

[5] إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 314-315.

[6] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 213؛ ويذكر ابن عذاري في موضع آخر من نفس الرواية بأنهما " رسولان" (البيان، ج2، ص 212).

[7] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 212.

وفي أوائل سنة 334هـ/945م، ودع الخليفة الناصر ، أعضاء وفد أهل القيروان ، الذين انتدبهم أبو يزيد في سفارته تلك، وكانت قد جرت بينه وبينهم محادثات حول مضمون الرسالة التي كانوا يحملونها إليه، ثم بعث معهم رسالة مماثلة، إلى أبي يزيد ، وأذن لهم بالعودة إلى إفريقية ، بعد أن أغدق عليهم الأموال والهدايا، وصور ابن عذاري عودة أعضاء الوفد بقوله : " وفي سنة 334هـ، جلس الناصر لدين الله لوداع رسل أهل القيروان الواردين عليه من قبلهم، وقبل أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الناجم بأرض إفريقية في ذلك الوقت ، محتسبا في جهاد ملوك الشيعة المنتزين على إفريقية من آل عبيد الله الداعي، وكان له في القيام عليهم وقائع شنيعة ، فوصلوا إلى الناصر في هذا اليوم ، وهم ثلاثة نفر أوجههم تميم بن أبي العرب التميمي، فكلمهم بما تقتضيه رسالتهم، ودفع إليهم أجوبة من أرسلهم ، وأذن لهم في الانصراف إلى بلدهم ، ووصلهم وكساهم، فانطلقوا لسبيلهم" [1] .

ويحتمل أن أبا يزيد الزناتي ، قد اختار أعضاء سفارته إلى الأندلس ، من علماء أهل السنة القيروانيين ، لتحقيق هدفين أساسيين ، الأول منهما، لإمكانية تحقيق نجاح أكبر في سفارتهم ، بسبب العاطفة الدينية التي تربطهم مع أمويي الأندلس الذين يدينون بالمذهب السني ، وأما الهدف الثاني، حتى يدلل أبو يزيد على مشاركة أهل السنة في ثورته، ضد الشيعة الفاطميين، بعدما اعترف بسلطة الخليفة الناصر الأموي الزمنية أو على الأقل الروحية ليضيف دليلا آخر للسنيين على تسامحه معهم [2] . وليحصل بالتالي على أقصى مساعدات يمكن أن تقدمها الدولة الأموية لمساندة الثورة.

---

[1] البيان، ج2، ص 212-213؛ ويبدو أن البعض قد اختلط عليه أمر هذه السفارة ، واعتبرها سفارتين وذلك حسب فهمهم الخاطيء لرواية ابن عذاري التي تقول أن وفد أهل القيروان، قدم إلى الأندلس في شوال سنة 333هـ/944م، ثم جلس الخليفة الناصر لوداعه في سنة 334هـ/945م (العبادي، دراسات ، ص 76-77؛ محمد بن عميرة، دور زناتة ، ص 220)؛ والرأي الأرجح أنها سفارة واحدة " فإذا أخذنا في الاعتباران ، سفارة أبي يزيد، وصلت في شوال وهو في أواخر سنة 333هـ، وابن عذاري، ذكر أن وداع الناصر لسفارة أبي يزيد في أول آحداث سنة 334هـ، يتضح لنا أنها سفارة واحدة وليس سفارتين" (أنظر ، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 212)؛ كما أن معلومات هذه الرواية تكمل بعضها بعضا ، ولا تدل على أنها سفارتين.

[2] أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 220 هامش (5).

وقد فتحت هذه السفارة الطريق أمام وفود أبي يزيد بالتوالي إلى الأندلس حتى نهاية ثورته، وأكد ابن عذاري ذلك بقوله: " واتصلت كتب أبي يزيد ورسله على قرطبة من ذلك الوقت (يقصد سنة 333هـ) إلى حين وفاته" [1] .

ولعل سنة 333هـ/ 944م ، هي السنة التي انضم فيها محمد بن خزر إلى ثورة أبي يزيد الزناتي، على الرغم من أن مصادر المغرب والأندلس، لم تشر إلى تاريخ انضمامه إلى أبي يزيد؛ وأما السبب الذي أوحى إلى ذلك الاعتقاد ، هي تلك الرواية التي وردت عند ابن خلدون، والتي تشير إلى أن أبا يزيد " دعا للناصر صاحب الأندلس من بني أمية، فاتبعه أمم من البربر" [2] ، فالمعنى الباطن من هذه الرواية ، أن الدعوة للخليفة الناصر، لا تكون إلا على منابر مساجد المدن التي أصبحت بحوزة أبي يزيد الزناتي، بعدما أحرز مجموعة من الانتصارات على الفاطميين ، وأما المعنى الظاهر منها، أن الدعوة للناصر جاءت موافقة للفترة التي توجه بها، وفد أهل القيروان إلى الأندلس، لطلب العون والمساعدة من الخليفة الناصر، وهذا يسوغ فكرة، أن محمد بن خزر حليف الأمويين ، كان من ضمن قبائل البربر التي انضمت إلى أبي يزيد في هذه الفترة ، عندما رأى أن الدعوة تحققت للأمويين على منابر المدن التي أصبحت تخضع لأبي يزيد ، ثم لوصول سفارة من قبل أبي يزيد للأندلس لإعلان الولاء والطاعة، ولطلب المساعدة ضد الفاطميين ؛ كما اهتدي جورج مارسية إلى الهدف نفسه من وراء سفارة أبي يزيد إلى الخليفة الناصر، حينما اعتبر أن غرضها الأساسي هو ضمان انضمام محمد بن خزر، حليف الأمويين القديم، بفرع مغراوة الزناتيين إلى إخوانهم زناتة إفريقية ، الذي أشعلوا نار الثورة ضد الفاطميين، إضافة إلى حصولها على التأييد المعنوي والمالي؛ وقد أشار إلى ذلك بقوله: " كذلك أراد (أبو يزيد) استمالة الأمويين بقرطبة ، للحصول على مساندة معنوية ، وربما مساندة مالية ، وبلا شك للحصول على التعاون

---

[1] البيان، ج2، ص 212.

[2] العبر، ج4، ص 44.

الفعلي لقبيلة زناتة المنحازين للخلافة الأموية" [1] . فقبيلة زناتة المنحازة لبني أمية في ذلك الوقت هي فروع مغراوة بزعامة محمد بن خزر.

ولعل وصول سفارة أبي يزيد الزناتي سنة 333هـ/944م، وغيرها من السفارات الأخرى – والتي سيأتي الحديث عنها تباعا- هو الذي دفع أحد المستشرقين إلى تصوير ثورة أبي يزيد الزناتي ، على أنها جزء من الصراع بين الفاطميين بالمغرب والأمويين بالأندلس [2] ، وذلك لأن الخليفة الناصر اعتمد على قبيلة زناتة منذ البداية لمد نفوذه في بلاد المغرب [3] ، وبمعنى آخر، فإن الصراع بين الفاطميين والأمويين في المغرب لم يكن صراعا مباشرا، إذ لم تلتق قواتهما وجها لوجه على أرض المغرب، بل استمال عبد الرحمن الناصر ، زعماء زناتة التي أصبحت راس حربة في صراعهم مع الفاطميين [4].

ولكن هذا لا يمنع أن الثورة كان لها استقلاليتها وأهدافها الخاصة في بداية انطلاقها بشأن تأسيس كيان سياسي خاص بها، وبعد أن حققت بعض النجاحات على الفاطميين ، ولتعزيز ذلك الكيان ، كان لا بد لها أن تحصل على اعتراف شرعي من قبل خلافة إسلامية، ولذلك اتجه زعيمها أبو يزيد صوب الخلافة الأموية بالأندلس، وطلب مساعدتها ، مقابل إقامة الدعوة للخليفة الناصر الأموي على المنابر، وهو الهدف الذي كان يسعى إليه الأخير في تقويض أركان الخلافة الفاطمية، العدو التقليدية للأمويين، دون أن يتم الاصطدام المباشر معهم ، وبما أن زناتة إفريقية ستقوم بهذا الدور ، فمن الطبيعي أن يبارك الناصر الأموي هذه الخطوة.

ولما كانت سفارة أبي يزيد الزناتي الأولى في شهر شوال سنة 333هـ/كانون ثاني 944م، قد أنهت المهمة التي أرسلت من أجلها، وهي مبايعة الخليفة الناصر، والدعوة له على المنابر ، وأخذت

---

[1] أنظر ، بلاد المغرب، ص 175.

[2] Brunschvig, La tunisie, Le haut moyen age, P. 17 نقلا عن سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 204.

[3] أنظر ، مرمول ، السياسة الداخلية، ص 97.

[4] أنظر ، سنوسي ، زناتة والخلافة ، ص 204.

بذلك الصبغة الشرعية من الخليفة الناصر الأموي " لأنه في ذلك الوقت لا شرعية لحكم، دون سند شرعي من خليفة" [1] ، فإن نجاحات الثورة على الساحة المغربية أضحت محط أنظار الأمويين ، وأن أي انتصار للثوار الزناتيين على الفاطميين الشيعة، وأنصارهم الكتاميين ، سيسجل بالتالي لصالح الأمويين بالأندلس ولذا، فإن أبا يزيد الزناتي ، أخذ يطلع الخليفة الناصر على أعماله العسكرية، وانتصاراته الساحقة [2] ، واصبح يرسل إليه أخباره تلك " أولا بأول" [3] ، ومن ذلك أن أبا يزيد الزناتي بعد أن هزم على يد رشيق الكاتب [4] ، قائد أسطول الخليفة المنصور بالله الفاطمي في أثناء حصاره لمدينة سوسة، أراد أن يدخل القيروان ليحتمي بها فمنعه أهلها من دخولها [5] ، فرحل إلى سبيبة التي تقع على مسافة يومين من القيروان، ولحق به من نجا من جيشه [6] ، ثم أرسل سفارة ثانية برئاسة ابنه أيوب إلى عبد الرحمن الناصر، خليفة الأندلس يطلب منه العون والمساعدة، فوصل أيوب قرطبة يوم السبت لست بقين من ربيع الأول سنة 335هـ/ تشرين الأول 946م، فأحسن الناصر استقباله وأنزله قصر الرصافة [7] .

ووصف ابن عذاري، استقبال هذه السفارة بقولــه : " وفيها (أي سنة 335هـ)، وصل إلى قرطبة أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الأباضي رسولا من والده أبي يزيد ، فقعد له الناصر قعودا ، فأوصله إلى نفسه ، وكرم لقاءه وامر بإنزاله في قصر الرصافة ، وقد أعد له فيه

---

[1] أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة ، ص 252؛ رغم أن أحد الباحثين المحدثين يذكر أن هذه السفارة لم تسفر عن نتائج أيجابية (أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة ، ص 133)؛ يقصد إرسال مساعدات عسكرية ، وفي نفس الوقت يذكر حسن إبراهيم حسن، أن الناصر الأموي أمد أبو يزيد بالجيوش (المعز لدين الله ، ص 36).

[2] أنظر، مرمول، السياسة الداخلية، ص 313.

[3] أنظر، عبد المنعم ماجد، ظهور خلافة الفاطميين ، ص 99.

[4] وكان رشيق الكاتب هذا ، كاتب لجوذر وظل في خدمته حتى سنة 350هـ (الجوذري، سيرة جوذر، ص 33).

[5] التجاني ، رحلة التجاني، ص 327.

[6] المقريزي، إتعاظ ، ج1، ص 81.

[7] ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص 390، ابن عذاري، البيان، ج2، ص 230؛ أنظر :

Provincal, Histoire , Vol. 2, P. 104

من الفرش والوطاء والغطاء والآنية والآلة ما يعد لأمثاله ، فأقام هناك تحت نزل واسع وكرامة موصلة [1] .

وبعد أن نال أيوب الحفاوة والتكريم في البلاط الأموي بالأندلس ، أمده الخليفة الناصر بمبلغ كبير من المال لتعزيز مركز والده [2] ، إلا أنه لم يمده بالمساعدة العسكرية التي طلبها منه [3] ، ولكن مؤرخ الشيعة الفاطميين ، إدريس، انفرد برواية تاريخية ، لم ترد عند غيره من مؤرخي المغرب والأندلس ، ذكر فيها أن الناصر الأموي ، أرسل مع أيوب بن أبي يزيد ، عسكرا وأموالا ، ولما وصلوا إلى ناحية تاهرت ، ظفر بهم العامل الفاطمي عليها، وهو عبد الله بن بكار، وبعث بأيوب إلى الخليفة المنصور؛ وكان ذلك بعد مقتل أبي يزيد الزناتي [4] ، أي سنة 336هـ/ 946م؛ في حين أشارت بعض الروايات التاريخية ، أن أيوبا بن أبي يزيد، لما عاد من سفارته ، غدر به عامل تاهرت عبد الله بن بكار وقدم رأسه إلى الخليفة المنصور بالله الفاطمي [5] ، ولم تشر تلك الروايات ، إلى أن أيوبا كان معه جنودا أندلسيين . ولعل رواية إدريس تلك، التي انفرد بها والمتضمنة مسير جنود أندلسيين مع أيوب إلى المغرب ، كانت مبالغة من المؤرخ ليدلل على مدى المساعدات الأموية، التي قدمت لإنجاح ثورة أبي يزيد الزناتي ، لأن سمة الصراع الفاطمي والأموي كان صراعا غير مباشر، أي بواسطة مساندة ومساعدة الخارجين على الدولتين الفاطمية والأموية ، دون أن تلتقي قواتهما وجها لوجه.

ومما يؤكد أن المساعدة العسكرية الأموية ، لم تتحقق في سفارة أيوب ابن أبي يزيد سنة 335هـ/936م، وأن الخليفة الناصر لم يبعث معه جنودا أندلسيين إلى المغرب ، كما أدعى إدريس ،

---

[1] البيان، ج2، ص 214.

[2] أنظر، العبادي، دراسات، ص 77.

[3] أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 221.

[4] عيون الأخبار، ج5، ص 373.

[5] ابن حماد، أخبار بني عبيد ، ص 47؛ ابن خلدون، العبر ، ج7، ص 35؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 332؛ في حين يرى ابن حماد أن أيوبا بن أبي يزيد كان قتل سنة 333هـ/ 944-945م، عند انصرافه من الأندلس (أخبار بني عبيد، ص 38-39).

مؤرخ الشيعة الفاطميين ، هو ما تناقله بعض الروايات التاريخية [1] ، من أن أبا يزيد الزناتي ، كان قد استبطأ رجوع ابنه أيوب من سفارته إلى الأندلس [2] فبعث إليه رسولا يخبره أنه كر على المسيلة وأنه يستعد للزحف على القيروان، ويطلب منه أن يعجل بالقدوم مع فرسان المدد، إلا أن الناصر لدين الله تعلل عن إمداده ووعده خيرا[3] .

وانفرد إدريس برواية تاريخية أخرى [4] ، مفادها أن الخليفة عبد الرحمن الناصر، قد أمر عامله على بجانة محمد بن رماحس [5] ، في نهاية سنة 335هـ/ 947م، بالتوجه في الأسطول الأندلسي إلى إفريقية ، بعد أن جهز على متنه مجموعة كبيرة من العساكر والسلاح والعدة والأموال وذلك لتدعيم مركز أبي يزيد الزناتي في ثورته ضد الشيعة الفاطميين. وكان الخليفة الناصر، قد أصدر أوامره بإصلاح المراكب الموجودة في ميناء المرية [6] ، والتي كانت آنذاك قاعدة بحرية رئيسية للأندلس، ودارا للصناعة، تنتج بها السفن والعدة والآلات " وما يقوم به الأسطول"[7].

وتضيف الرواية ، أن ابن رماحس، ماطل الخليفة الناصر في الخروج لمساندة الثورة، إلا أن الخليفة ، أجبره على الخروج ولم يغدره، ولعل تلك المماطلة تعود إلى أن ابن رماحس، كان مشغولا بأمور التجارة، وذلك كما أورده إدريس في تلك الرواية بقوله: " وقبل ذلك كانت له تجارة

---

(1) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص 391؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 230.

(2) أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 221.

(3) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص 391؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 230؛ أنظر ، موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 134.

(4) عيون الأخبار، ج5، ص 385-386.

(5) محمد بن رماحس: هو قائد الأسطول الأموي بالمرية وبجانة ، تولى هذا المنصب سنة 328هـ، ولا يذكر ابن عذاري هذا التحرك من ابن رماحس، وهو غير عبد الرحمن بن رماحس المتأخر (إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 385 هامش 66).

(6) عيون الأخبار، ج5، ص 385-386؛ المرية: هي ميناء بجانة على مصب نهر بجانة في البحر الأبيض المتوسط، وكانت في الأصل مرصدا لبحاري بجانة (إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 385 هامش 67).

(7) أنظر ، سالم ، المغرب الكبير، ج2، ص 611.

وكان يختلف في الأندلس ، فأطال محمد بن رماحس الاعتذار، فزجره الأموي ولم يعذره عن الخروج" [1] .

ولما وصل بن رماحس إلى المرية، أقام فيها إلى حين انقضاء فترة الشتاء ثم سار منها حتى وصل إلى حائط بونة[2] ، فاتصل به هناك خبر هزيمة أبي يزيد الزناتي ، على يد الخليفة المنصور بالله الفاطمي [3] ، ورأى أن تدخله أصبح عبثا [4] ، فكر راجعا إلى ناحية تنس ومنها إلى الأندلس ، بعد أن تعرض أسطوله البحري في طريق عودته، إلى غرق أكثر مراكبه بمن فيها من الرجال والعدة ونجا بنفسه [5] .

ونص رواية إدريس ، التي جاءت في هذا المعنى تقول : " وكان عبد الرحمن بن محمد الأموي صاحب الأندلس، قد جرت بينه وبين الدجال مخلد بن كيداد، لما جبل عليه وآباؤه من عداوة أهل بيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فأخرج أسطولا فيه عسكر كثيف وسلاح وعدة وأموال جمة، وولى عليهم رجلا من عماله يقال له محمد بن رماحس وكان عاملا بمدينة بجانة وقبل ذلك كانت له تجارة وكان يختلف في الأندلس ، فأطال محمد بن رماحس الاعتذار ، فزجره الأموي، ولم يعذره عن الخروج ، فركب من المرية ، وهي في عمل بني أمية، وكان كاتب عبد الرحمن [6] ، قد سبق إليها بإصلاح ما فيها من المراكب، فلما وصل إليها ابن رماحس ، ودخل عليه الشتاء، شتى بها في سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة ، ثم وصل منها ودخل إلى حائط بونة، فاتصل به هزيمة أبي

---

[1] عيون الأخبار، ج5، ص 385-386.

[2] بونة: هي عنابة الحالية، ولعله يعني بحائطها الميناء (إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 386 هامش 69)، ويذكر البكري أن " مدينة بونة برية بحرية" (المغرب، ص 55).

[3] إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 386 ؛ وهكذا فإن هزيمة أبي يزيد الزناتي جاءت في الوقت الذي كانت فيها الإعانة الأندلسية تتحقق (أنظر ، محمد بن عميرة، دور زناتة ، ص 221، هامش 4).

[4] أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 221 ، هامش 4.

[5] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 385-386.

[6] كاتب عبد الرحمن ، لعله غالب الصقلي (إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 386 ، هامش 68).

يزيد وغلبه المنصور بالله (عم) له فكر راجعا إلى ناحية تنس، ثم إلى الأندلس، وأخذته في البحر أهوال عظيمة وغرقت أكثر مراكبه ، وغرق ما بها من الرجال والعدة وخلص بنفسه" [1] .

والفكرة التي يمكن استخلاصها بعد عرض رواية إدريس تحليلا ونصا ، هي أن إرسال الخليفة الناصر للأسطول الأموي باتجاه شواطئ إفريقية، لم يكن الغرض منه سوى مناورة حربية استطلاعية ، لكي يفي بوعده الذي أعطاه لأيوب بن أبي يزيد في سفارته الأخيرة إلى الأندلس ، من ناحية ، ثم ليراقب عن كثب مجمل تطورات ثورة الزناتيين ضد أعدائه الشيعة الفواطم ، من ناحية أخرى. وأما الهدف الذي ذكره إدريس بشأن خروج الأسطول الأموي ، لمساندة ثورة أبي يزيد الزناتي فلا يوجد ما يؤيده من الوقائع التاريخية ، فمن غير المعقول أن يغير الخليفة الناصر بسهولة استراتيجيته السياسية ، القائمة على إثارة الفوضى والاضطراب بين القبائل البربرية ضد النفوذ الفاطمي [2] ، ويدخل في حرب مباشرة مع الفاطميين ، خاصة أنه لم يكن يأمن جانب البيزنطيين في تلك الفترة [3] ، كما أن الخليفة الناصر كان قد اكتفى منذ بداية مساندته للقبائل البربرية " بالتأييد المعنوي أو بالتأييد المالي" [4] ، وبمعنى آخر، فإنه لم يقم بإرسال قوات أموية أندلسية لمقاومة الفاطميين ، كما زعم إدريس، وإذا كان زعمه صحيحا ، فلماذا لم يجتز قائد الأسطول الأموي إلى العدوة المغربية، لمساعدة فضل وأيوب ابني أبي يزيد، اللذان استأنفا الثورة ، بعد مقتل أبيهما ، وكانا بأمس الحاجة لدعم الأمويين العسكري في تلك المرحلة ، بدلا من أن يعود أدراجه إلى الأندلس ، بمجرد سماعه نبا مقتل أبي يزيد ، فهذه الحملة الأموية التي جاءت في رواية إدريس – إن صحت- لا تتعدى كونها حملة استطلاعية ، لمراقبة أحداث الثورة عن كثب، ولإشعار الفاطميين بمدى قوة النفوذ الأموي ، وحتى بالتالي تعمل على رفع معنويات الزناتيين في حربهم مع

---

[1] إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 385-386.

[2] أنظر، العبادي، سياسة الفاطميين ، ص 207.

[3] أنظر، العبادي، دراسات، ص 78؛ كما أن الخليفة عبد الرحمن الناصر كان يخشى خطر النورمانديين الذين كانوا يهددون الأندلس منذ زمن (أنظر ، أحمد عودات ، تاريخ المغرب والأندلس، ص 15).

[4] أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 221؛ هامش (4).

الفاطميين، وعندما علم قائد الحملة محمد بن رماحس، بالنتيجة الأولية للثورة ، وهي مقتل أبي يزيد، عاد مسرعا إلى الأندلس ، دون أن يساند ابني أبي يزيد فضل وأيوب ، اللذان حاولا استئنافها من جديد.

وصفوة القول أن الخليفة الناصر اكتفى بالتأييد المعنوي والمالي في مساندة ثورة أبي يزيد، وترك دور المقاومة العسكرية للثوار الزناتيين ضد الفاطميين وأنصارهم الكتاميين ، وبصورة أخرى، فقد حافظ على سياسته المغربية غير المباشرة ، في ضرب أعدائه الفواطم، بواسطة القبائل البربرية بالمغرب، وخاصة عن طريق زناتة البترية ، ولذا، لم تكن الوعود العسكرية التي قطعها على نفسه أمام سفارة أيوب بن أبي يزيد الأخيرة ، سوى عذر مقبول- نوعا ما- وغير محدد بزمن معين ، حتى يرى نتيجة الثورة [1] . وقد أشار ابن الأبار إلى ذلك بقوله: " فاستبصر الناصر في التوقف عن إمداد أبي يزيد ، إلى أن يرى مآل أمره، وعلل ابنه أيوب ورسله بموعده" [2] . وإذا كان يفهم من ظاهر نص ابن الأبار السابق أن الناصر قد ربط إرسال القوات الأموية لمساندة أبي يزيد، في حالة انتصاره على الفاطميين ، فإن معنى باطن هذا النص يدل، على أن الناصر، لا ينوي إرسال تلك القوات، وإنما ينتظر من أبي يزيد وأفراد قبيلته الزناتيين، أن يحققوا انتصارهم على الفاطميين لوحدهم، إذ أنه من غير المعقول أن تأتي المساعدة العسكرية الأموية، بعد إسقاط الدولة الفاطمية، لأن وجود القوات في تلك المرحلة يصبح غير مجدي بالنسبة لأبي يزيد، فإذا كانت لم تساند أبي يزيد وهو بحاجة إلى المساعدة أثناء ثورته ، فإن هذه المساعدة إن جاءت بعد نجاح الثورة سوف تؤول إلى أغراض سياسية أخرى ، في نفس الخليفة الناصر.

ولكن بالرغم من أن مجريات الأحداث التاريخية سالفة الذكر، أعطت بوضوح الملامح العامة لسياسة الناصر الأموي المغربية غير المباشرة ، والمستندة أساسا على إثارة القبائل

---

(1) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص 391؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 230؛ أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 224.

(2) الحلة السيراء، ج2، ص 391.

البربرية، وخاصة حليفتها زناتة، ضد الفاطميين وأنصارهم الكتاميين، إلا أن أحد الباحثين، اعتقد أن سياسة الناصر المغربية كانت بصورة مباشرة ، ولذلك استنبط على حسب اعتقاده هذا، أسبابا لعدم تدخل الناصر الأموي لمساندة ثورة أبي يزيد الزناتي ، حيث رأى أن تباطؤه يعود إلى أنه كان يشك في قدرة أبي يزيد على إسقاط الدولة الفاطمية ، حتى ولو سانده، كما أنه كان يشك في وفائه له، إذا ما حقق هدفه في يوم ما، ويستدل على ذلك من احتمالية أن يكون الناصر لدين الله وجد دليل ذلك في معاملة أبي يزيد الزناتي للسنين آنذاك " تلك المعاملة التي تميزت بالعنف المتمثل في القتل والسلب والنهب، كما حدث في باجة وسوسة وضواحي خربة جميل وغيرها من ضواحي إفريقية وبالخيانة -كما يسميها المؤرخ- التي ارتكبها في حق القيروانيين الذين انضموا إلى صفوفه لحصار المهدية ، عندما أعطى تعليمات سرية لأصحابه كي ينسحبوا في أثناء إحدى المعارك ويتركهم لأصحاب القائم كي يقضوا عليهم ، ونفذت المؤامرة بإحكام [1] ، فكانت النتيجة أن فقد أبو يزيد ثقة السنيين ، الذين أصبحوا يفضلون الخليفة الفاطمي عليه، وهو ما يفسر قتلهم لأصحابه في كل مكان، بمجرد أن شاع خبر انسحابه من المهدية وثورتهم عليه في تونس وسوسة والقيروان وباغاية ، مما كان سببا رئيسيا في القضاء على حركته"[2] .

وحتى لو صح اعتبار أن سوء سياسة أبي يزيد الزناتي، تجاه أهل السنة – حسبما يرى المؤرخ- كانت من الأسباب التي عجلت بإنهاء ثورته، فإن من المؤكد أنها لم تكن سببا يجعل الناصر الأموي لا يقوم بإمداد أبي يزيد بالعساكر، لأن الأمر إذا كان حسبما ذهب إليه هذا المؤرخ، فلماذا إذن، لم يقم الناصر بإرسال المساعدة العسكرية حينما وصل إليه وفد علماء أهل القيروان

---

[1] وقد أورد ابن عذاري ، قول أبو يزيد الزناتي حينما أصدر تعليماته إلى أصحابه الزناتيين ، حتى يتخلوا عن القيروانيين السنة في إحدى المعارك ، أثناء حصارهم للمهدية ، حيث قال : " إذا التقيتم مع القوم- يقصد جيش القائم الفاطمي المؤلف من كتامة وأنصارهم الصنهاجيين – فانكشفوا عن أهل القيروان ، حتى يتمكن أعداؤكم من قتلهم ، فيكونوا هم الذين قتلوهم ، لا نحن فنستريح منهم" (البيان، ج1، ص 218)؛ وحول ملابسات هذه القضية؛ أنظر ، موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 109-110.

[2] أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 221-222.

ممثلين عن أبي يزيد في سفارته الأولى إلى الأندلس سنة 333هـ/944م [1] ، وذلك قبل حادثة مقتل القيروانيين، هذا على فرض أن رأي المؤرخ حول المؤامرة – كما يسميها- التي دبرها أبي يزيد ضد القيروانيين ، هي صحيحة ، مع العلم أن نقص الكفاءة العسكرية لدى هؤلاء العلماء القيروانيين، كانت سببا في مقتل عددا كبيرا منهم [2] ، فاستغل بعض مؤرخي المغرب والأندلس خاصة السنين منهم، هذه الحادثة ، وعزوها إلى أسباب مذهبية [3] ، ثم أن أبا يزيد لم يكن بالقائد الذي تنقصه الحنكة السياسية ، حتى ولو كان يضمر السوء في نفسه للمذهب السني، خاصة أن معه، الكثير من بطون زناتة الذين يعتنقون مذهب أهل السنة ، وغيره من المذاهب الإسلامية الأخرى، ولذا، أظهر منذ بداية ثورته الترحم على أبي بكر وعمر وحث على قراءة مذهب مالك[4]، حتى بدا طابع ثورته بأنها ذات طابع سني، ويبدو أن المؤرخ ، لم يدرك حقيقة سياسة الخليفة الناصر المغربية غير المباشرة ، فأخذ نماذج تاريخية جرت بين أهل السنة وأبي يزيد بالمغرب، ليسوغ بها فكرة عدم الإمداد المباشر من قبل الخليفة الناصر لثورة أبي يزيد.

ويظهر أن أبا يزيد الزناتي، عندما شعر بضعف موقفه أمام الفاطميين وأنصارهم الكتاميين في نهاية ثورته ، وقبل وقوعه أسيرا بين يدي الخليفة المنصور بالله الفاطمي ، كان قد سارع في إرسال مجموعة رسائل إلى الخليفة الناصر الأموي، تحمل في طياتها أنباء زائفة ، عن انتصاراته وتغلبه على المنصور الفاطمي، وذلك فيما يبدو لتشجيع الناصر الأموي ، الذي سبق أن وعده، بإنفاذ قوات أموية من الأندلس ، للوقوف إلى جانب الثوار الزناتيين فوجد أبو يزيد أن هذه الطريقة، يمكن أن تحقق له تلك المساعدة ، التي اصبح في أمس الحاجة إليها، ومما يؤيد هذا الرأي هو قيام اتباع الخليفة المنصور بالله الفاطمي، بإلقاء القبض على أحد رسل أبي يزيد الذي كان يحمل رسالة إلى الناصر الأموي، تتضمن أنباء انتصار أبو يزيد على المنصور بالله، بقتل عدد كبير من رجاله ،

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 212.

[2] أنظر ، موسى بني خالد، ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين، ص 109-110.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 218.

[4] أنظر، عادلة ، قيام الدولة الفاطمية، ص 250.

وحصاره بمدينة المسيلة ، ويتبين ذلك من خلال الحوار الذي دار بين الخليفة المنصور بالله ، وأبي يزيد الزناتي، حينما وقع الأخير بالأسر سنة 336هـ/947م، حيث وبخه الخليفة المنصور على هذا العمل ، ومما جاء في ذلك الحوار ، ما نصه: "ثم قال الإمام (المنصور بالله) : لم استعملت الكذب الذي هو عار ونار؟ قال (أبو يزيد) ومتى كذبت ؟ قال الإمام: ومتى صدقت أو ليس من كذبك وزورك كتابك بالأمس إلى الأموي الشقي تدعي فيه أنك حصرتني وقتلت رجالي وأخذت فازتي، وإني محصور بمدينة المسيلة ؟ قال (أبو يزيد) : ما كتبت بهذا ، قال الإمام: يا غلام ، أحضر كتبه التي أخذناها مع رسوله منذ أيام بطوابعها، فانقطع المارق وتلجلج لعلمه بما في كتبه ، وقال : العفو، العفو ، قال الإمام: دعها يا غلام"[1] .

ومن الواضح ، أن النص السابق، كشف عن حقيقتين مهمتين، الأولى منهما أن أبا يزيد الزناتي ، لم يدرك حقيقة سياسة الخليفة الناصر، تجاه الفاطميين بالمغرب، والتي عبر عنها أحد الباحثين المحدثين، بقوله: " كانت المواجهة غير المباشرة هي سمة الصراع الأموي الفاطمي"[2] بدليل تلك الرسائل الزائفة التي كان يرسل بها أبي يزيد للحصول على المدد المباشر من قبل الأمويين وأما الحقيقة الثانية ، أن السفارتين اللتين بعث بهما ، أبو يزيد الزناتي إلى الخليفة الناصر، عامي 333هـ و 335هـ الهجريين (944-946 الميلاديين) حسب ما أشارت إليهما الروايات التاريخية ، لم تكونا هما الوحيدتين لأن هاتين السفارتين ، إذا كانتا قد كشفت عنهما المصادر بصورة علنية ، فإنه ربما أن جزء من الاتصالات بين أبي يزيد والناصر الأموي، كان قد تم بصورة سرية وهذا يفسر بالتالي قلة ذكر الروايات التاريخية للسفارات العلنية التي تبودلت بينهما، علما أن مبادرة إرسال الوفود أو السفارات ، كانت دائما من طرف أبي يزيد، ولعل ذلك يعود لإكساب ثورته ، صفة الشرعية الدينية ، في حالة حصوله على تأييد خلافة إسلامية ، ولأن الخليفة الناصر، كان يحظى بتأييد قسما كبيرا من قبيلة زناتة بالعدوة المغربية ، يمثله فرع المغراويين

---

[1] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 449؛ أنظر، المقريزي، المقفى الكبير، ج2، ص 158.

[2] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 269.

بزعامة محمد بن خزر، الحليف القديم للأمويين ولذلك فإن زعامة أبي يزيد الجديدة في وسط بعض البطون الزناتية، لم تضف سبق سياسي هام، بالنسبة للخليفة الناصر ، ما دام أن فرع مغراوة الزناتي قد حالفه على قتال الفاطميين منذ عام 317هـ/929م، ولذا ، فإن ثورة أبي يزيد فيما يبدو لم تعني له سوى محاولة جديدة من محاولات زناتة المتكررة ، لتقويض أركان الدولة الفاطمية، وأن احتمالية نجاحها غير مضمون، ولذلك، لم يقم الناصر بإرسال أية سفارة لأبي يزيد، وهذا ما يفسر عدم ورود الإشارات التاريخية التي تحمل نبأ قدوم سفارة من الأندلس إلى أبي يزيد ، طيلة أحداث الثورة . كما أن صورة الوقائع الحقيقية لأحداث الثورة ، كانت تأتي للخليفة الناصر بواسطة عيونه وجواسيسه في المغرب، بكل دقة وتفصيل، دون أن تكون لهؤلاء الجواسيس أهداف سياسية من وراء ذلك، سوى بعض المكاسب الشخصية ، ولذلك لم يكن أبو يزيد قادرا على تضليله أو إغرائه بتلك الأنباء الزائفة التي كان يرسل بها إلى البلاط الأموي، ومما يدعم هذا الرأي أنه في سنة 334هـ/945م " قدم على الناصر محمد بن محمد بن كليب من القيروان ، فحكى أن أبا القاسم بن عبيد الله الشيعي هلك بالمهدية، وهو محصور من أبي يزيد، وأن شيعته قدمت ولده إسماعيل مكانه، وأنه فارس شجاع أبي النفس أقدم على أبي يزيد وجموعه ولاقاه بمدينة سوسة ، فانهزم أبو يزيد أمامه إلى القيروان"[1] .

ويمكن القول: إن هذه الاتصالات بين أبي يزيد الزناتي ، وعبد الرحمن الناصر الأموي، وإن لم تسفر عن نتائج إيجابية [2] ، أي بواسطة المدد المباشر بقوات من الأمويين لمساندة الثورة، فإنها أعطت دفعة معنوية لأهل السنة الذين كانوا بين صفوف جيش أبي يزيد، فضلا عن المساعدات المالية التي حصل عليها أبو يزيد من عبد الرحمن الناصر، والتي يسرت له الاستمرار فترة طويلة في ثورته[3] ، وهذه النتيجة تتنافى مع ما توصل إليه عبد العزيز الفيلالي، حينما قال: "أن الناصر

---

[1] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 213.

[2] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 212.

[3] أنظر، دياب، سياسة الدول الإسلامية، ص 214؛ وحسب عبد العزيز الفيلالي، أن الخليفة الناصر ، قد سمح لأبي يزيد بسك النقود وضربها في دار السكة بقرطبة، وكان ذلك يكلفه جزءا من ذهب الخزانة الأندلسية، وأن ابا يزيد لم يكتب ⟸

لدين الله قد تدخل في الحرب إلى جانب ابي يزيد تدخلا مباشراً وإيجابيا ، وأنه لم يقف عند حد التأييد السلبي فقط، بل قدم للثورة كل ما تتطلبه الحرب من عتاد ومال، وربما يكون قد أرسل بجيوشه وقواده لمساندة هذا الثائر الزناتي" [1] ، ولكن هذا الرأي إذا استثنيا منه الدعم المالي الذي قدم للثورة ، فإنه لا يوجد ما يؤيده من الإشارات التاريخية ، التي تشير إلى أن الخليفة الناصر، قد ساند الثورة بصورة مباشرة وإيجابية ، وكما يبدو فإنه لا يتعدى كونه رأيا أحاديا، لا يستند إلى الواقع التاريخي.

ولما كان الخليفة المنصور بالله الفاطمي، ما زال محاربا لمعبد بن خزر ويتتبع أثره ، بسبب مناصرته لأبي يزيد وأبنائه من بعده في ثورتهم ضد الفاطميين ، وكان قد انتهى المقام بالخليفة المنصور بالله وقتذاك في مدينة المسيلة فحينها وصل إليه كتاب أهل تاهرت بها، يعلمونه أن حميدا بن يصل المكناسي [2] ، الذي تمكن من الفرار من سجنه في المهدية أثناء انشغال القائم بثورة أبي يزيد الزناتي [3] ، قد ضرب حصارا مشددا حول مدينتهم [4] ، ثم دخل تاهرت وطرد واليها الفاطمي داوود بن إبراهيم العجيسي [5] ، وفصل المدينة عن السلطة الفاطمية في المهدية، وكان غرض حميد من هذه الخطوة ، أن ينسق جهوده مع بقية أبناء عصبيته بني أبي العافية المكناسيين، الذين انشقوا عن الدولة الفاطمية ، ووالوا أعداءها الأمويين منذ فترة طويلة، فيصفوا النفوذ الفاطمي من جهة المغرب الأوسط، ويستخلصونه لأنفسهم في إطار التبعية والولاء لحكومة قرطبة ، ولعل

اسمه على الدينار حتى لا يثير حفيظة أصحابه الخوارج ، ثم لكي لا يرتاب منه الناصر لدين الله، الذي كان يرغب بالقضاء على الأدارسة والفاطميين معا، ولذا فقد تحمل من أجل ذلك أعباء الحرب الإفريقية (أنظر، العلاقات السياسية، ص 171-172).

[1] أنظر، العلاقات السياسية ، ص 171.

[2] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 263.

[3] أنظر، لقبال، دور كتامة ، ص 358؛ وكان عبيد الله المهدي قد أودعه في السجن بعد ما قاد حملة إلى المغرب الأقصى، وبعد فراره من السجن انحاز إلى محمد بن خزر، ثم أجاز إلى الخليفة الناصر فولاه على المغرب الأوسط، ويشغل الشيعة بعد ذلك بثورة أبي يزيد، لكنه لم يظهر على مسرح الأحداث التاريخية إلا في آخر تلك الثورة (أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة ، ص 215).

[4] إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 463.

[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 198.

شعور الخليفة المنصور بالله الفاطمي بخطر مكناسة على وضع الدولة في تاهرت هو الذي جعله يتحرك بسرعة بالجيش الفاطمي[1] ، من المسيلة يوم الثلاثاء ، لا ثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر صفر سنة 336هـ/ أيار 947م، حتى وصل تاهرت يوم الاثنين غرة شهر ربيع الأول من نفس العام (حزيران 947م)، ونزل خارج المدينة ، ولما سمع حميد بقدومه ترك تاهرت ، وركب البحر قاصدا الخليفة الناصر بالأندلس [2] .

وهكذا ، أخفقت ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي، بعد أن حقق صاحبها عدة انتصارات على الفاطميين ، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من القضاء على خلافاتهم، حينما استولى على كل إفريقية، فيما عدا المهدية عاصمة الخلافة الفاطمية ، ولكن استبسال كتامة وصنهاجة في الدفاع عن الفاطميين ، كان في مقدمة العوامل التي حالت دون تحقيق ذلك الهدف، كما أن الخليفة الفاطمي المنصور بالله الذي قاد جيوش الخلافة بنفسه، واشترى ولاء صنهاجة وعجيسة من البرانس بما أغدق عليهم من أموال، كان سببا أيضا في القضاء على الثورة ، وقتل زعيمها الذي تجمعت حوله بطون زناتة إفريقية [3] ، ثم التفت المنصور الله على الفور إلى تحجيم قوة مكناسة البربرية التي حاولت استعادة نفوذها في منطقة المغرب الأوسط على أثر انشغال الدولة الفاطمية ، بتلك الثورة.

وعلى الرغم من أن فشل ثورة أبي يزيد الزناتي، كان سببا مباشرا في انهيار بطون زناتة بإفريقية ، فإنها في نفس الوقت أعطت الفرصة لبطون زناتة بالمغربين الأوسط والأقصى، بمساندة الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي في الأندلس ، وأقامت له الدعوة على المنابر ، ولا يعني ذلك خضوع أمراء زناتة بالمغربين الأوسط والأقصى ، للخليفة الأموي بالأندلس وإنما إقامتهم الدعوة كانت حجة أو تكأة ليكتسب حكمهم مشروعية [4] ، ويشترك في هذا الهدف مع زناتة، وقد عبر عبد الله عنان عن هذه القضية بقوله: " ودعا لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هنالك

---

(1) أنظر ، لقبال، دور كتامة ، ص 358-359.

(2) إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 463.

(3) أنظر، سنوسي ، المصدر نفسه، ص 235-236.

(4) أنظر ، سنوسي ، المرجع نفسه، ص 241؛ 252.

مدى حين، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم، وكان رهينا بقيام دولة الأمراء المحالفين له"[1] . ولذلك حق لابن خلدون القول: " أن الملك والسلطة في المغرب لم يكن للخليفة الأموي منها شيء" [2] ، وإنما كان لأمراء البطون الزناتية ، مثل مغراوة وبني يفرن [3] ولبعض أمراء القبائل البربرية الأخرى ، مثل أمراء مكناسة.

ومثلما سببت الثورة ، انهيارا لبطون زناتة بإفريقية ، فإنها أضرت بالمقابل بعصبية الدولة الفاطمية ، وأصابتها في خيرة رجالها وقادتها من كتامة وصنهاجة ، ومن طبقة الفتيان ، ومن ولاة الأقاليم والمدن الإفريقية ، وكان من ضحاياها ميسور الخصي وعلي بن حمدون وخليل بن اسحق وغيرهم كثيرون[4] .

وبصورة أخرى ، فإن ثورة أبي يزيد الزناتي ، لم تخل من طابع العنصرية البترية ضد فرع البرانس ، وضد كتامة وعجيسة وزواوة ، وصنهاجة بنوع خاص، كما لم تخل من طابع المغالاة المذهبية تجاه أهل السنة والشيعة وكانت ميدانا مفضلا، وفرصة متاحة لاتباع المذاهب الإسلامية المتصارعة ولرجال الحكم والسياسة ، ولفرعي البتر والبرانس ، ولطبقة الفتيان الصقالبة ، ولكل المغامرين الطموحين [5] .

وقد أظهر الخليفة الناصر في خضم أحداث الثورة، براعته السياسية ، حينما اكتفى بالتأييد المعنوي والمالي للثوار الزناتيين ، ولم ينجح أبو يزيد رغم المحاولات المتكررة في إقناع الخليفة الناصر، للدخول في هذه الحرب بشكل مباشر ، وأصر الأخير في الحفاظ على سياسته غير المباشرة تجاه أعدائه الفاطميين، والقائمة على إثارة القبائل البربرية عامة وزناتة خاصة ضدهم ، لعل إحدى محاولات تلك القبائل تنجح في إسقاط النظام الفاطمي.

---

[1] أنظر، دولة الإسلام، ج2، ص 426.
[2] المقدمة ، ص 374؛ أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 253.
[3] أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 253.
[4] أنظر، لقبال، دور كتامة، ص 430.
[5] أنظر، لقبال، الحلف بين أهل السنة والنكارية ، ص 56.

(ج) زناتة والفاطميون بعد ثورة أبي يزيد (336-341هـ/947-952م)

استغل بطنان من بطون زناتة البترية ، هما بطن مغراوة بزعامة الخير بن محمد بن خزر؛ وبطن بني يفرن بزعامة يعلى بن محمد بن صالح اليفرني [1] ، انشغال الفاطميين بثورة أبي يزيد ، وقاموا بالاستيلاء على تاهرت عنوة، وأجبروا عاملها الفاطمي على الخروج منها، وذلك في جمادى الآخرة سنة 333هـ/أيلول 945م ، ثم بعث الخير بن محمد بن خزر ، زعيم مغراوة بخبر الانتصار إلى خليفة الأندلس عبد الرحمن الناصر، نكاية في الفاطميين ، وأقام الخطبة على منابر تاهرت باسم الناصر الأموي، ليتخذ حكمه صفة المشروعية، فعقد الخليفة الناصر الأموي لزعيم مغراوة على تلمسان وأعمالها، ولزعيم بني يفرن على بقية ولايات المغرب الأوسط [2] ، وخرج بذلك المغربان الأوسط والأقصى كلية عن طاعة الفاطميين ، وأقيمت الخطبة للناصر الأموي على المنابر ما بين تاهرت وطنجة ، إذ كان أمراء الأدارسة بالمغرب الأقصى ، حينها قد خلعوا طاعة الفاطميين ، وأعلنوا ولاءهم لخليفة الأندلس[3] .

ولكن يتضح أن الفاطميين استعادوا فرض سيطرتهم على مدينة تاهرت سريعا، وأخرجوا منها بني يفرن الزناتيين ، وعينوا عليها واليا فاطميا جديدا ، يسمى داود بن إبراهيم العجيسي، الذي بقي واليا فيها، حتى زحف إليه حميد بن يصل بجموع مكناسة سنة 336هـ/947م، وطرده منها [4]، ولما قام الخليفة المنصور بالله الفاطمي، بحملته الأخيرة في شهر صفر من نفس العام، وخلص تاهرت من حميد بن يصل [5] ، بناء على طلب أهلها [6] ، فعندئذ ولى عليها مولاه

---

[1] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 216؛ وكان يعلى هذا قد تقلد زعامة بني يفرن عقب مقتل أبيه محمدبن صالح، على يد عبد الله بن بكار اليفرني، على أثر الفتنة التي شهدتها قبيلة بني يفرن (أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة، ص 222).

[2] أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة ، ص 241.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 88؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 196.

[4] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 198.

[5] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 48.

[6] إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 263.

ميسورا[1] الذي لم يلبث أن ثار عليه أهل تاهرت لأنه اساء السيرة فيهم، واستدعوا محمد بن خزر الزناتي وابنه الخير ومن معهما من بطون زناتة ، ليخلصوهم من سطوة الوالي الفاطمي، فاستغل زعيم مغراوة هذه الفرصة ، وزحف بجموع زناتة إلى تاهرت [2] ، والتقى الفريقان ، فدارت الدائرة في بداية المعركة على زناتة [3] ، إلا أن انضمام أهل المدينة ، أثناء القتال إلى جانب الزناتيين ، قلب موازين المعركة [4] ، فكانت الكرة لزناتة ، واستطاعت هزيمة الجيش الفاطمي المؤلف أغلبه من فرسان كتامة ، ووقع ميسور وعبد الله بن بكار اليفرني قائدا الفاطميين بالاسر ، ودخل بنو خزر وغيرهم من بطون زناتة [5] ، بقيادة أميرهم الخير بن محمد ، مدينة تاهرت في غرة ذي القعدة سنة 338هـ/شباط 950م [6] ، ولم يدم حكم بني خزر الزناتيين على تاهرت سوى مدة قصيرة ، إذ تغلب عليها يعلى بن محمد اليفرني ، وأقام الدعوة فيها إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي ، ليعطي حكمة صفة الشرعية ، وظل واليا عليها إلى أن أخرجه مع جوهر الصقلي قائد الشيعة الفاطميين، بحملة على المغرب الأقصى سنة 347هـ/958م [7] .

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 198؛ ويذكر ابن خلدون، أن الخليفة المنصور بالله الفاطمي، حينما استولى على تاهرت " عقد عليها ليعلى بن محمد اليفرني ، وعقد لزيري بن مناد على قومه وعلى سائر بلادهم" (العبر، ج4، ص 48).

[2] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 198.

[3] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 216.

[4] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 198.

[5] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 198؛ ج2، ص 217.

[6] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 216؛ ويورد ابن عذاري في موضع آخر رواية مغايرة لما ذكره، مفادها أن أهل تاهرت استدعوا ميسور الخصي، لمساعدتهم ضد الخير بن محمد بن خزر ، الذي هاجم المدينة سنة 338هـ، ولكن الخير تمكن من دخول تاهرت وأخذ ميسورا قائد الشيعة أسيرا، كما وقع في أسره عبد الله بن بكار اليفرني، الذي سبق وأن بعث برأس أيوب بن أبي يزيد إلى الخليفة المنصور بالله الفاطمي، وأرسل به إلى يعلى بن محمد بن صالح ليقتله ثأرا بوالده، إلا أن يعلى لم يرض بذلك لأنه رآه غير كفؤا لعبده ، فكيف لوالده ، ودفعه إلى رجل من البربر، كان قد قتل ابنه فقتله به (البيان، ج2، ص 216). ويلاحظ أن ابن عذاري ناقض نفسه حيث يفهم من روايته الأخيرة أن ميسورا لم يكن عامل تاهرت وإنما ساعد أهلها فقط على مقاومة الخير (أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 224 هامش 2)، وهذا عكس ما ذكر سابقا من أن ميسورا كان واليا على تاهرت ، الذين طلب أهلها المساعدة من الخير بسبب سوء سيرته بينهم (ابن عذاري، البيان، ج1، ص 198).

[7] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 198؛ انظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 253.

ونظرا ، للمستجدات الأخيرة ، فقد خضع المغرب الأوسط تحت سيادة بنو يفرن الزناتيين ، هذه المرة ، ولم يحاول الخليفة المنصور بالله استعادته للسلطة الفاطمية مرة أخرى، بل اكتفى في مناوئتهم بأن رماهم بزعيم قبيلة صنهاجة البرنسية حفاظا على قوة قبيلة كتامة ، الحليف الودود للفاطميين ، فتحول الصراع بين زناتة والفاطميين إلى صراع قبلي بين زناتة وصنهاجة [1] ، إذ كانت زناتة ، منذ البداية قد اتخذت خط المعارضة للدولة الفاطمية ونكاية فيها، فقد اتجهت صوب الأمويين بالأندلس ، أعداء الشيعة التقليديين في اغلبه يندرج تحت الصراع الفاطمي الأموي، إضافة إلى أن زناتة التي تعتبر أداة غير مباشرة للأمويين ، في ضرب أعدائهم الشيعة على الساحة المغربية ، كانت تبحث هي أيضا عن إنشاء كيان سياسي خاص بها ، من خلال تحالفها مع الدولة الأموية ، وأما صنهاجة، فإنها أصبحت تمثل الأداة الجديدة غير المباشرة ، للفاطميين، عوضا عن قبيلة كتامة التي تشكل أغلب الجيش الفاطمي، والذي ارتأى الخليفة المنصور تجنيبه الاصطدام المباشر مع الزناتيين . ولذلك فإنه أسند المهمة إلى زعيم صنهاجة زيري بن مناد، الذي بدأ يغير على مضارب زناتة ، وبالمقابل قامت زناتة بمحاصرة مدينة أشير قصبة زيري بن مناد، ودارت معارك عديدة بين الطرفين قتل فيها كثير من أفراد القبيلتين [2] ، ثم إن هذه المعارك تحولت إلى حرب قبلية ، أغار فيها جند صنهاجة على مضارب زناتة ، فرد فرسان زناتة بالمثل لتثأر لنفسها، أي أن غاية كل منهما تحددت في قتل كل قبيلة لفرسان القبيلة الأخرى، ونهب وتخريب مضاربها[3].

وبمعنى آخر ، أن حرص الخليفة المنصور بالله الفاطمي، في الحفاظ على قوة كتامة العسكرية ، كان نتيجة طبيعية للدور الهام الذي قامت به ، في الدفاع عن كيان الدولة الفاطمية، أمام ثورة زناتة البترية، بزعامة أبي يزيد اليفرني، التي كادت تعجل بإنهاء الوجود السياسي الفاطمي

[1] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 243.

[2] ابن الأثير ، الكامل، ج8، ص 224؛ أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 243.

[3] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 243.

على أرض المغرب، وخاصة أن قبيلة كتامة البرنسية ، تعد عصب الجيش الفاطمي، ولذلك فإن إجراء الخليفة المنصور بالله ، الخاص بتعزيز تحالفه من جديد مع قبيلة صنهاجة البرنسية الذي كان بدأه أبوه القائم قبله، لم يكن الهدف منه سوى البحث عن بديل عسكري فاطمي، غير مباشر ، أي دون أن تشترك قوات كتامة النظامية فيه، للوقوف أمام هجمات زناتة حليفة الأمويين، ضد الدولة الفاطمية ، وذلك لأن حروب الدولة الفاطمية مع زناتة، استنزفت مقدرات الدولة المالية والعسكرية، وبما أن هذه الحروب مع زناتة ، متجددة بصورة دائمة ، كان لا بد من اللجوء إلى هذه الطريقة، إذ إن من الصعب إيجاد نصير بربري مخلص يقترن وجوده بوجود الدولة الفاطمية ، مثل قبيلة كتامة.

ولذلك، فإن أول عمل قام به الخليفة المنصور بالله الفاطمي، بعد عودته إلى المهدية عاصمة الدولة ، حين الانتهاء من ثورة أبي يزيد الزناتي ، هو التعبير عن تقديره لقبيلة كتامة وثنائه عليها، نظرا للدور الإيجابي ، الذي لعبته في تثبيت أركان الدولة الفاطمية ، وذلك خلال الخطبة التي ألقاها في صلاة الصبح بمناسبة عيد الفطر ، يوم الخميس مستهل شهر شوال سنة 336هـ/كانون ثاني 948م، والتي حضرها ولي عهده المعز لدين الله ، أبو تميم ، وأعمامه أولاد المهدي بالله، وإخوته أولاد القائم بأمر الله ، إضافة إلى أولاده [1] ، كما أعلن المنصور بالله ، في تلك الخطبة ، نبأ وفاة أبيه القائم بأمر الله، بعد أن كتم خبره طيلة أحداث الثورة ، لكي لا يفت ذلك في عضد أنصاره الكتاميين ، ويزيد بالتالي من حماس الثوار الزناتيين ، ومما جاء فيها: " يا أهل دعوتنا، يا أنصار دولتنا ، يا كتامة احمدوا الله واشكروه على ما خصكم به من نعمته، وجسيم منته وفضلكم به على كافة الخلق في غرب وشرق ، بدأكم بالنعمة العظمى ثم شفعكم بالمنة الكبرى، ووالى بينهما من سوابغ نعمه بما لا يحصى نصركم والناس عميان ، وعلمكم والناس جهال، وهداكم والناس ضلال إلى دينه ونصرة حقه وطاعة وليه، علم الهدى وسراج الدجى ، وحبل الله المتين، فأفازكم بالسبق إلى نصرته والسعي في طاعته، والتفيء بظل دولته، ولاستنارة بضياء حكمته ، حتى إذا قضى الله

[1] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 480.

زلزال البلاد واختبار العباد ، جلل الظلام، وتزلزلت الأقدام وعظمت الخطوب واشتدت الكروب، وفسدت القلوب عصمكم الله، وهدى قلوبكم، وثبت أقدامكم إلى أن جلاها الله عنكم خاصة ، وعن العباد كافة ، بنا وعلى أيدينا ، وكانت عليكم نعمة ، وعلى العباد حجة ، فانجلت والله عنكم بيض الوجوه موفين بعهد الله معتصمين بحبله"[1] .

ثم أضاف المنصور بالله قائلا: " اللهم إني أصبحت راضيا عن كتامة لاعتصامهم بحبلك، وصبرهم على البأساء والضراء في جنبك تعبدا لنا واعترافا بفضلنا، وأداء لما افترض الله على العباد لنا، وتوسلا إليك بطاعتنا ، اللهم فارض عنهم وضاعف حسناتهم، وامح سيئاتهم ، واحشرهم في زمرة نبيك الذي دانوا به ، ودليك الذي والوه ، وابق نعمتك عندهم وأتمها عليهم، وأكمل حسناتك إليهم ، وخلد العز في أعقابهم ، وأجزل ثوابهم ، وأهدهم وطهر قلوبهم ، إنك سميع الدعاء قريب مجيب"[2] .

ويتبين أن الخليفة المنصور بالله ، كان قصده من هذه الخطبة هو إبراز الدور التاريخي لقبيلة كتامة ، المتعلق في سبقها بحمل لواء الدعوة الإسماعيلية على أكتاف رجالها في مرحلة تأسيس الدولة الفاطمية ، ثم صمودهم في وجه الأخطار التي سببتها قبائل البربر عامة، وقبيلة زناتة منهم خاصة ، وبالذات عقب ثورة أبي يزيد الزناتي ، التي كادت تقضي على الوجود الشيعي ، في ظل قيام الخلافة الشيعية بالمغرب، وذلك، لرفع معنوياتهم من ناحية ، ثم التأكيد لهم بأنهم، ما زالوا في طليعة المستفيدين بتقلد المناصب السياسية والإدارية بالدولة من ناحية أخرى، وذلك لربط مصير مصالحهم الفردية، بمصير استمرارية وجود الأسرة الفاطمية ، وحتى يبقوا بالتالي جنود الفاطميين الأوفياء، ولذا ، لم يجد الخليفة المنصور بالله وسيلة مؤثرة يمكن أن يسترد بها ثقة الكتاميين بسرعة – إضافة إلى الإغراءات السياسية والإدارية التي وعدهم بها- غير العاطفة الدينية، وبخاصة أن غالبية بطون كتامة، تدين بالمذهب الشيعي، ولذلك، دعا لهم على المنبر في خطبته تلك ، وعبر عن

---

[1] الجوذري، سيرة جوذر، ص 59-60؛ أنظر، إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 485-486.

[2] الجوذري، المصدر نفسه، ص 59-60؛ أنظر، إدريس، المصدر نفسه، ج5، ص 485-486.

رضائه عليهم ، بصفته الرمز الديني للمذهب الشيعي ، فأثرى هذا الدعاء كبرياء الكتاميين ، وأعطاهم ميزة رجال الدولة المخلصين كسالف عهدهم.

والنتيجة الآنفة تتوافق مع ما ذهب إليه أحد الباحثين حينما رأى أن الخليفة المنصور لم يكن مجاملاً ولا مبالغا بهذه الخطبة ، لأن دور قبيلة كتامة أثناء الثورة ، كان رائعا، فهي لم تستغل الظروف الصعبة التي مرت بها الدولة، لتحقيق أهداف خاصة بها، مع أن مبررات خروجها ضد القائم كانت متوفرة، باعتباره المسؤول عن كثير من النكبات التي حلت ببلادها، وبقادتها التاريخيين، كما أن قبيلة كتامة لم تؤيد بعض الانتفاضات التي حاول، افتعالها زمرة من أفرادها المنشقين ، أثناء الثورة ، بل أسرعت بالقضاء عليها، وبتسليم القائمين بها إلى الخليفة المنصور الفاطمي[1] .

لم يتخل الخليفة الناصر الأموي عن حلفائه المغاربة في وقت المحن والشدائد، ولم يقرن وقوفه إلى جانبهم بالنجاحات العسكرية التي يحققوها على الساحة المغربية فقط ، بل إنه فتح أبواب الأندلس على مصراعيها لكل اللاجئين والهاربين من قادة البربر وغيرهم من حلفائه بالعدوة المغربية ، الذين فروا خوفا من بطش الفاطميين بهم، ومما يدعم ذلك أن حميد بن يصل المكناسي ، الذي نجا بنفسه على أثر حملة الخليفة المنصور بالله الفاطمي، على تاهرت في شهر صفر سنة 336هـ/ أيار 947م[2] ، استقبل عند وصوله إلى قرطبة عاصمة الدولة الأموية بالأندلس –آخر السنة المذكورة- استقبالا رسميا بالجيش والزينة " وكرم الناصر مورده وأجمل موعده"[3] ، وليس هذا فحسب، بل إن الخليفة الناصر سمح له بالمثول أمام حضرته في منتصف شهر محرم سنة

---

[1] أنظر، لقبال، دور كتامة، ص 448.

[2] أبن خلدون ، العبر، ج4، ص 48.

[3] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 215.

337هـ/ نيسان 948م، ويصف ابن عذاري هذه المقابلة بقوله: " قعد الناصر بقصر الزهراء ، قعودا بهيا ، فدخل إليه حميد بن يصل" [1] .

كما استقبل الخليفة الناصر في نفس المجلس ، عقب مقابلته لحميد ، زعيمي قبيلة مكناسة البربرية ، وهما منصور وأبو العيش ابنا أبي العافية، ودخل معهما أيضا إلى مجلس الخليفة حمزة ابن إبراهيم، صاحب جزائر بني مزغنا فوصلهم الناصر، وكساهم وأمدهم بالأموال، ثم أذن لهم بعد ذلك في العودة إلى بلادهم [2] ، ولعل حرص ابني أبي العافية على الحضور إلى البلاط الأموي، في نفس الفترة التي وصل بها حميد بن يصل إلى هناك، كان الغرض منه، خوفا من أن ينفرد ابن عمهم حميد بن يصل بزعامة قبيلة مكناسة بالمغرب الأقصى، الحليفة القديمة للدولة الأموية ، والتي أصبحت زعامة القبيلة فيها، تستمد شرعيتها من خلال الاعتراف بها من خليفة قرطبة ، الذي يوفر لها الدعم المالي المتواصل، إضافة إلى إمداد أفراد القبيلة ، بالبنائين والمهندسين الذين يساعدونهم على بناء الحصون والقلاع التي تحميهم من خطر الفاطميين وأنصارهم الكتاميين.

وكان الخليفة المنصور بالله الفاطمي، قد شرع ببناء مدينة صبرة ، في شهر صفر سنة 335هـ/ أيار 946م [3] ، في الموضع الذي دارت فيه المعركة بينه وبين أبي يزيد الزناتي[4] ، على بعد نصف ميل من القيروان[5] ، تفاؤلا بهذا النصر [6] وذلك قبل انطلاقة لملاحقة أبي يزيد [7] ، ثم

---

[1] البيان، ج2، ص 215.

[2] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 215.

[3] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 469، هامش 221.

[4] أنظر، سرور، الدول الفاطمية في مصر، ص 21.

[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 219.

[6] أبن ابي دينار، المؤنس، ص 78.

[7] إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 469، هامش 221.

انتقل إليها سنة 337هـ/948م [1] واستوطنها وسماها المنصورية[2] ، فخلت بهذا الأجراء أكثر أرباض المهدية وتهدمت كما نقل إليها المنصور بالله، سوق القيروان [3] ، وكان للمدينة خمسة أبواب رئيسية هي الباب القبلي ، والباب الشرقي ، وباب زويلة وباب كتامة، وباب الفتوح ، وكانت الجيوش الفاطمية تخرج من هذا الباب الأخير[4] ، وظلت المنصورية عاصمة الدولة الفاطمية إلى أن رحل المعز لدين الله الفاطمي ، إلى مصر سنة 361هـ/972م [5] ، فحلت محلها مدينة القاهرة[6]. وهكذا أضاف المنصور بالله إلى قواعد الشيعة الفاطميين حاضرة جديدة، وتوسعت على حساب المهدية وأثرت على مستقبلها ، كما أثرت الأخيرة من قبل على مستقبل رقادة [7] .

وعلى الأرجح أن تغيير مقر إقامة الأسرة العبيدية ، ضمن مواقع المدن الفاطمية الثلاثة ، ابتداء من رقادة، ثم المهدية وأخيرا المنصورية ، كان القصد منه البحث عن أفضل تلك المواقع لإنشاء العاصمة التي يمكن أن توفر الحماية للأسرة العبيدية ، وأنصارهم الكتاميين ضد هجمات قبيلة زناتة البترية وفي نفس الوقت تكون مناصرة لقرطبة حاضرة بني أمية بالأندلس، أعداء الشيعة الفاطميين ، ولكن يلاحظ ، أن المعالم الحضارية بدت في المنصورية أوضح من سابقتيها ، ولعل ذلك هو الذي دعا جورج مارسية إلى القول:" وبينما كانت المهدية خندقا مجهزا لأيام الصعاب والمنصورية تدل على أيام المجد ومدينة البذخ التي تؤكد انتصار الفاطميين ، والجديرة بعالم الشهرة"[8] .

---

[1] البكري، المغرب، ص 25؛ السراج، الحلل السندسية، ج1، ص 446.

[2] البكري، المغرب، ص 25؛ القرماني، أخبار الدول، ص 232.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 219.

[4] البكري، المغرب، ص 25؛ بينما يذكر ابن عذاري أن لها أربعة أبواب (البيان، ج1، ص 219).

[5] السراج، الحلل السندسية ، ج1، ص 447.

[6] أنظر، سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص 22.

[7] أنظر، لقبال، دور كتامة، ص 434.

[8] أنظر، بلاد المغرب، ص 178.

وبحلول عام 339هـ/950م، توافدت على بلاط الناصر الأموي بقرطبة ، وفود قبيلتي مكناسة وزناتة ، حلفاء الأمويين بالعدوة المغربية ، والذين كانوا يحملون معهم أنباء انتصاراتهم على الفاطميين وأنصارهم الكتاميين، وإخضاعهم أيضا لبني محمد الأدارسة المخالفين على الناصر الأموي، فممن وصل بهذا الشأن إلى قرطبة في نفس العام المذكور، أبنا البوري بن موسى بن أبي العافية، أمير مكناسة البربرية بالمغرب الأقصى ، كما وصل رسول الخير بن محمد بن خزر، أمير زناتة – وأحد أقوى وأعظم زعماء البربر بالمغرب قاطبة- وكان يحمل الرسول معه نبأ، فتح مدينة تاهرت وأسر ميسور الخصي وعبد الله بن بكار اليفرني، قائدا الشيعة الفاطميين ، فقريء الكتاب بجامعي قرطبة والزهراء على مسامع العامة [1] . وتلا الرسولان كتاب آخر من عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي، عامل الأمويين على شذونة المتاخمة لحدود المغرب الأقصى ، يخبر الخليفة الناصر فيه أن بني محمد الأدارسة هاجموا قائده حميد بن يصل – الذي عاد من قرطبة إلى قبيلته مكناسة بالمغرب – ولما جرت المعركة كانت الدائرة على بني محمد وانهزموا مفلولين [2] .

ومقابل هذه الانتصارات الأموية التي أحرزها حلفائها المكناسيين والزناتيين بالعدوة المغربية، على الشيعة الفاطميين ، فإن زيري بن مناد، أمير صنهاجة ، والحليف الجديد للدولة الفاطمية ، حقق نصرا حاسما على معبد بن خزر الزناتي [3] ، الذي ناصر أبا يزيد الزناتي في أثناء ثورته على الفاطميين وتحالفه مع الأمويين ، ثم ناصر ابنه فضل، وبعد مقتل فضل بن أبي يزيد، لم يعد معبد إلى مضارب قومه بالمغرب الأوسط، وإنما ظل يغير على أراضي الفاطميين ويفر إلى الصحراء عند مطاردة الجيش الفاطمي له [4] ، ولكن زيري بن مناد ، تمكن عند لقائه مع معبد بن

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 217.

[2] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 217؛ وعلى الأرجح أن وصول حميد بن يصل إلى العدوة المغربية كان سنة 342هـ/952م ، حسبما يذكر ابن عذاري نفسه في موضع آخر (البيان، ج2، ص 219).

[3] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 487.

[4] أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 243.

خزر في إحدى المعارك [1] ، من أسره هو وابنه، واقتيدا إلى الخليفة المنصور بالله الفاطمي ، فطيف بهما في أسواق المنصورية ، ثم أمر المنصور بالله بقتلهما سنة 341هـ/952م [2] .

وتعد مقاومة معبد بن خزر للنفوذ الفاطمي ، في عهد الخليفة المنصور بالله، آخر ذيول ثورة أبي يزيد الزناتي ، وقد عبر أحد الباحثين عن ذلك بقوله : " كان المنصور يكافح لإطفاء الشرارات الأخيرة لثورة أبي يزيد، فمعبد بن خزر، وهو أحد أصحابه لم يلق عليه القبض إلا سنة 340هـ/951م"[3] .

وقد اعتبرت هذه المقاومة رأيا من ضمن الآراء التي طرحت لتفسير سبب عدم قيام المنصور بالله بأي عمل عسكري أو سياسي في المغربين الأوسط والأقصى ، بعد قضائه على ثورة أبي يزيد ، وحتى نهاية خلافته ، كما أضيف لهذا السبب عدة أسباب أخرى منها، أنه ربما قد خاف من التحالف الكبير الذي دبر ضده ، والمكون من قبيلتي زناتة ومكناسة ، وبعض فروع الأدارسة في المغرب الأقصى، تحت مظلة الخلافة الأموية بالأندلس، أو ربما أنه وقع أسيرا للعجز الناتج أحيانا عن اندفاعه في الورع المبالغ فيه [4] ، ولعل هذا الرأي يتناسب مع ما ذكره القاضي عبد الجبار حينما قال: " أن إسماعيل المنصور بالله الخليفة الفاطمي الثالث قد تظاهر بعد هزيمة أبي يزيد بالعودة إلى الإسلام فقتل الدعاة ، ونفى بعضهم إلى الأندلس وإلى بلاد أخرى ، وقال للعامة من سمع منكم أحد يسب النبي فليقتله ، وأنا من ورائه، وقرب المنصور بالله الفقهاء والمحدثين،

---

[1] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 487.

[2] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 49؛ ويذكر ابن خلدون ، في موضع آخر أن المنصور بالله استطاع القبض على محمد بن خزر زعيم مغراوة سنة 340هـ وقتله ونصب راسه بالقيروان (العبر، ج7، ص 26)، ولكن محمد بن خزر ظل على قيد الحياة حتى خلافه المعز الفاطمي الذي خلف المنصور بالله (أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 243 هامش 395).

[3] أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 227؛ يبدو أن محمدا بن عميرة قد أخطأ بهذا التاريخ لأن معبدا ألقى القبض عليه سنة 341هـ/ 952م (ابن خلدون، العبر، ج4، ص 49).

[4] أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة، ص 227.

واستمع إليهم كما خفض الضرائب وأظهر ولعا بالفقه" [1] ، وأما الرأي الأخير في تفسير وقف النشاط السياسي والعسكري في آخر عهد المنصور بالله فيرجع ذلك[2] ، بسبب سفر الخليفة المنصور بالله إلى المشرق سنة 339هـ/ 950م لحضور الحفل الذي أقيم بمناسبة إعادة الحجر الأسود ، الذي كان قد اقتلعه سليمان بن الحسن القرمطي سنة 317هـ/930م، أيام الخليفة المقتدر العباسي ، ثم أعيد إلى مكانه زمن الخليفة العباسي المطيع سنة 339هـ/950م، فحضره المنصور بالله آنذاك[3] .

وعلى الأرجح أن الآراء السابقة ، أغفلت حقيقة سياسة الخليفة المنصور بالله الجديدة ،التي بدأ نهجها بعد قضائه على الثورة ، والمتضمنة الحفاظ على قوة كتامة التي تشكل معظم الجيش الفاطمي، وبخاصة بعد فقدانها أكثر رموز قيادتها وفرسانها ، من جراء أحداث ثورة أبي يزيد، ولذلك أسند المنصور مهمة العمليات العسكرية في المغربين الأوسط والأقصى، لزيري بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة من أجل تجنيب فرسان كتامة خسارة تلك العمليات ، وهذا ما يفسر قول ابن أبي دينار: " وفي أيامه (المنصور بالله) أطاع زيري بن مناد، وخدم بني عبيد وبنوه من بعده"[4] .

وبمعنى آخر فإن معظم العمليات العسكرية التي جرت على أرض المغربين الأوسط والأقصى كان المحرك الأساسي لها سياسة المنصور بالله، دون أن تشترك فيها قواته المنظمة مباشرة ، وهو الأمر الذي غاب عن ذهن أغلب الباحثين، مما دعاهم إلى ذلك الاعتقاد، الذي استنبطوا إليه الآراء لتبرير ما ذهبوا إليه، وهذه السياسة ، كانت متبعة من قبل حكومة قرطبة منذ بداية صراعها مع الفاطميين عن طريق وقوفها خلف مجمل الأعمال العسكرية التي قامت بها قبائل البربر الموالية لها ضد الفاطميين، إضافة إلى غيرهم من قوى سياسية أخرى بالمغرب، ممن أقاموا تحالفا مع الأمويين، كالأدارسة مثلا، ولكن الفاطميين لم يستخدموا هذه السياسة غير المباشرة ، في صراعهم

---

[1] تثبيت دلائل النبوة ، ج2، ص 602.

[2] أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 227.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 220.

[4] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 78.

مع الأمويين إلا في أواخر عهد الخليفة القائم بأمر الله، ثم عززت بشكل واضح في أواخر عهد الخليفة المنصور بالله.

استمر الخليفة المنصور بالله، في ترسيخ سياسته الجديدة غير المباشرة ، التي ورث مبادئها عن أبيه القائم بأمر الله ، والمتمثلة بضرب أعدائهم الأمويين ، عن طريق حلفاء جدد من قبائل البربر، وخاصة قبيلة صنهاجة ، في سبيل الحفاظ على قوة كتامة، والتي أورثها بدوره إلى ابنه المعز لدين الله ، المكنى بأبي تميم ، الذي قلده ولاية العهد سنة 340هـ/951م، ولم يلبث أن توفي الخليفة المنصور بالله ، يوم الجمعة [1] آخر شوال سنة 341هـ/952م [2] ، فآلت الخلافة بعده إلى ولي عهده المعز لدين الله [3] ، وكانت فترة حكمه قمة ما وصلت إليه خلافة الفاطميين من عظمة[4] .

[1] ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 78؛ السراج ، الحلة السندسية ، ج2، ص 30.

[2] النعمان، افتتاح، ص 335؛ المقريزي، الخطط ، ج2، ص 2؛ القرماني، أخبار الدول المنقطعة، ص 232؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 78.

[3] النعمان، افتتاح، ص 334.

[4] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 247.

* دور كتامة وزناتة في خلافة المعز لدين الله (341-361هـ/952-972م).

تابع الخليفة المعز لدين الله أبو تميم، معد الفاطمي [1] ، نهج أبيه المنصور بالله، وجده القائم، في سياستهما غير المباشرة ، التي مارساها ، أواخر خلافتهما، في صراعهما مع الأمويين ، والمستندة أساسا على كسب ولاء أكبر عدد ممكن من قبائل البربر بالمغرب ، في سبيل مساعدة قبيلة كتامة النصير الأصيل للفاطميين ، وذلك لإبقاء استمرار فعالية نشاط فرسان كتامة، الذين يشكلون أغلب الجيش الفاطمي، بعد أن أنهكتهم الحروب السابقة، نتيجة دفاعهم عن كيان الدولة الفاطمية ، ويبدو أن المعز لدين الله، نجح سريعا في هذه السياسة الجديدة ، بدليل ما تناقلته عنه الروايات التاريخية بقولها: " فانقاد إليه البربر"[2] .

ولما كان المعز لدين الله الفاطمي، في بداية عهده، قد عمل على كسب ود قبائل البربر عامة، فإنه في نفس الوقت ، صرف جهده لكسب ود كتامة منهم خاصة، وذلك لما تمثله هذه القبيلة من أهمية عسكرية بالنسبة للجيش الفاطمي، الذي ثبت أركان الدولة بفضل دفاعه عنها سابقا، ومما تتطلبه بالتالي منه المرحلة القادمة من مساندة وتأييد للدولة لاحقا، ولذا، أكد المعز على عمق العلاقة التاريخية الأبدية على حد تعبيره ، التي تربط أفراد قبيلة كتامة بأسرته الفاطمية ، ومما قاله في هذا المعنى : " وهؤلاء كتامة أجدادهم مع أجدادنا وآباؤهم مع آبائنا، وهم معنا وكذلك يكون أعقابهم إلى يوم الدين"[3] . كما أكد على جهود قادة كتامة وإخلاصهم ووفاءهم ووقوفهم إلى جانب الفاطميين وذلك بقوله :" والله ما وفت أمة من الأمم لنبي من الأنبياء، ولا لإمام من الأئمة ، ولا لملك من ملوك الدنيا ولا وفي لها وفاءهم لنا ووفاءنا لهم إلا وقد تداخل أولئك الفشل واعتراهم الخلل وحال عليهم ملوك الدنيا واستأثروا غيرهم دونهم واطرحوهم وأوقعوا بهم"[4] .

---

[1] المقريزي، الخطط، ج2، ص 34.

[2] المقريزي، المصدر نفسه، ج2، ص 34؛ ابن أبي الضياف ، اتحاف، ص 125.

[3] النعمان، المجالس والمسايرات، ص 98.

[4] النعمان، المصدر نفسه، ص 29؛ انظر، لقبال، المعز لدين الله وجيل جديد من كتامة، ص 96.

ولم يتورع المعز لدين الله الفاطمي، أيضا عن إظهار محبته وتقديره للكتاميين حتى وصل به الأمر إلى درجة المبالغة ، عندما وصفهم بالأقربين وبالأبناء والأخوة ، وبحزب الله وأنصاره وجنده وأحبائه، وجاء ذلك على لسانه بقوله : " أنتم البنون والأخوة والأقربون ما بعد لكم عندي أحد ولا يبلغ مبلغكم من قلبي بشر وما ذلك إلا لما لي في قلوبكم"[1] ، ولاشك أن قصد المعز من هذه المبالغة هو ضمان بقاء كتامة على ولائها في المستقبل كعهدها السابق المؤيد للفاطميين، وبصورة أخرى، فإن ولاء كتامة في عهد المعز ، هو امتداد طبيعي لموقف الآباء والأجداد، وقد أشار إلى ذلك بقوله : " ما نصر الله وليا من أوليائه قبلنا بمثل نصركم لنا، على ذلك مضى أولكم ، وعليه أنتم"[2] .

وهكذا، استطاع المعز لدين الله في بداية عهده من حشد جبهته الداخلية ، التي ضمت قبيلة كتامة بشكل خاص، إضافة إلى قبيلة صنهاجة الحليفة الجديدة للفاطميين، ضد الأمويين وحلفائهم الزناتيين ، ولذلك سرعان ما حصد المعز نتائج حشده ، عندما وصلته الأنباء في آخر جمادى الأولى سنة 341هـ/آب 941م ، بأن زيري بن مناد الصنهاجي ، أسر سعيد بن خزر أحد كبار زعماء زناتة البترية [3] . وبالمقابل فقد وصل إلى بلاط قرطبة آخر الشهر التالي ، أي في آخر جمادى الآخرة من نفس العام، فتوح بن الخير بن محمد بن خزر الزناتي، رسولا من قبل أبيه بالعدوة المغربية إلى الخليفة الناصر، وكان برفقته عددا من وجوه أهل تاهرت ووهران، الذين يحملون معهم رؤوس قواد الشيعة المشارقة ، يتقدمها رأس ميسور الخصي ورأس محمد بن ميمون وغيرهما من رؤوس أعلام الشيعة، وعشرة من بنودهم أدخلت منكسة معها عدد من الطبول ،

---

[1] النعمان، المجالس والمسايرات، ص 112؛ أنظر، إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 606-607.

[2] النعمان، المجالس والمسايرات، ص 114؛ أنظر، إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 606.

[3] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 218.

فرفعت هذه الرؤوس والبنود والطبول على باب قصر قرطبة ، فكرم الخليفة الناصر أعضاء الوفد وأغدق عليهم الأموال [1] .

كان أهم عمل عسكري قام به المعز لدين الله ، في أوائل عهده، هو إعادة إخضاع أجزاء من المغرب الأوسط، وبالذات جبل الأوراس، الذي يعرف بمعقل الثوار تحت السيادة الفاطمية ، بعد أن كان زعماء قبيلة زناتة قد سيطروا على أراضي المغرب الأوسط، منذ عام 338هـ/950م، وأقاموا الدعوة فيه لخليفة الأندلس عبد الرحمن الناصر، ولذا، خرج المعز لدين الله بنفسه على رأس حملة كتامية سنة 342هـ/953م، تمكن خلالها من إخضاع بني كملان وهوارة " واستأمن إليه محمد بن خزر بعد مقتل أخيه معبد فأمنه" ، ثم عقد إلى مولاه قيصر الصقلي على باغاية [2] ، وأشار ابن خلدون إلى نجاح حملة المعز تلك بقوله: "فدوخ البلاد وأحسن إلى الناس، وألف من كان شارد من البربر، ورجع بهم إلى القيروان فأكرمهم المعز ووصلهم"[3] .

وما إن وصل المعز لدين الله إلى المنصورية عاصمة دولته [4] ، حتى وفد عليه بها محمد بن خزر أمير مغراوة ، فأحسن المعز لقاءه وبالغ في تكريمه، وإبقاه إلى جانبه إلى أن مات سنة 348هـ/959م [5] . ومما لا شك فيه، أن لجوء محمد بن خزر إلى الخليفة الفاطمي المعز، وعدم لجوئه إلى الخليفة الناصر، الحليف القديم والودود له ولقبيلته زناتة ، يدعو للتساؤل ، وقد حاول البعض تسويغ تصرف ابن خزر هذا، أنه حينما انتهز يعلى بن محمد اليفرني، فرصة انشغال الأميرين المغراويين محمد بن خزر وابنه الخير بحرب صنهاجة، قام بالاستيلاء على وهران أي

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج2، ص 218.

(2) ابن خلدون، العبر، ج4، ص 49.

(3) العبر، ج4، ص 49؛ وقد أورد النعمان نصا أكد فيه نجاح تلك الحملة وذلك بقوله: " ورؤساء القبائل الذين كانوا أهاجوا الحرب وأوقدوا نارها ممتنعون في معاقلهم من الجبال والأطراف، فنهض إليهم المعز لدين الله بعقب ما أفضى الله بالخلافة إليه، فأنزلهم الله من صياصيهم وقذف الرعب في قلوبهم ، وأتوه محكمين له في أنفسهم وملقين إليه فسار سيرة أبيه بالعفو عنهم وأتى بهم ، إلى قرار ملكه عن آخرهم" (افتتاح الدعوة ، ص 335).

(4) إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 550؛ بينما يذكر ابن خلدون أنه وصل إلى القيروان (العبر، ج4، ص 49).

(5) ابن خلدون، العبر، ج4، ص 49.

أنه انتزعها منهما، فعندئذ ولاه الناصر على المغرب وأعماله ، مما أثار هذا الإجراء غضب محمد ابن خزر ، وجعله يلجأ إلى الفاطميين [1] ، وتحدد الفترة التي ولى فيها الناصر الأموي يعلى بن محمد على المغرب بأنها يمكن أن تكون ما بين عامي 340 و 342 هـ/951 و954م [2] ، ويرى المستشرق Fournel. H أن سبب انحياز ابن خزر إلى المعز يرجع إلى أن يعلى بن محمد عندما انتزع تاهرت من مغراوة ، يحتمل حينئذ أن يكون ابن خزر قد حاول عبثا أن يشكو أمره إلى الناصر، ولكن لم يلبث أن وجهت له ضربة قوية حينما ولى الناصر يعلى على المغرب [3] . بينما يفسر سنوسي ، تصرف ابن خزر هذا، على أنه كان نكاية بيعلى بن محمد ، زعيم بني يفرن الزناتيين الذي استولى على مدينة تاهرت من أيدي أمراء مغراوة الزناتية ، بعد أن استخلصوها من سلطان الفاطميين سنة 338هـ/950م، ويرجح في نفس الوقت أن ذلك التصرف ربما يعود إلى خلاف حدث بين محمد بن خزر وابنه الخير ، لأن ابن عذاري – حسب رأيه- يذكر أن الخير بن محمد أصبح سنة 339هـ/951م ، أمير زناتة وكبير أمراء الغرب ، كما أن محمد بن خزر عندما وصل إلى المعز لدين الله ، طلب الأمان لنفسه وليس لقومه من مغراوة الذين لم يسبق لهم أن دخلوا في طاعة الفاطميين من قبل أو من بعد وصول محمد بن خزر على المعز لدين الله[4] .

وبالرغم من أن إدريس ، يؤكد نزوع محمد بن خزر إلى المعز الفاطمي من دون قومه مغراوة ، وذلك بقوله : " ونقل أولاده وعياله وأهل بيته إلى باب أمير المؤمنين (المعز) وحضرته، وحل عنده ومعه في قراره ودار مملكته"[5] وهو ما يدعم بالتالي وجهة نظر سنوسي السابقة، من

---

[1] أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 229.

[2] أنظر، محمد بن عميرة ، المرجع نفسه، ص 229؛ وقد تباينت الروايات التاريخية في تحديد السنة التي ولى فيها الناصر الأموي ، يعلى بن محمد على المغرب (ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 219؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 49).

[3] أنظر، Les Berbesest, 11, P. 388 ، نقلا عن محمد بن عميرة ، دور زناتة، ص 229، هامش 2 ؛ ولكن هذا لا يمنع أن يكون الناصر قد عقد على المغرب كردة فعل على أثر نجاح حملة المعز لدين الله بالمغرب الأوسط سنة 342هـ/ 953م.

[4] أنظر، زناتة والخلافة، ص 262.

[5] عيون الأخبار، ج5، ص 550.

أن وفود محمد بن خزر إلى المنصورية كان بسبب خلاف نشب بينه وبين ابنه الخير، إلا أن ذلك لا يعني أن ما ذكره بعض الباحثين غير صحيح، فمن المحتمل أن يكون كبرياء محمد بن خزر لم يقبل تفرد زعيم زناتي آخر غيره، وغير ابنه الخير لرئاسة المغرب الأوسط ، وحضوه بالمرتبة الأولى لدى عبد الرحمن الناصر بدلهما، فحينها رأى أن لجوءه إلى الفاطميين أفضل من ذلك الوضع الذي فرض عليه، وبخاصة أنه اصبح رجلا طاعنا في السن [1] ، بعد أن أنهكت قوته كثرة الحروب التي أمضاها في مقارعة الفاطميين ، ولم يعد في مقدوره مواصلتها ، ولذا فإن موادعة ومسالمة الفاطميين يمكن أن تحقق له الراحة على ما تبقى له من حياته الباقية ، ضمن مضارب قبيلته في بلاد المغرب، ومما يؤيد وجهة النظر هذه، ان أخبار ابنه الخير اختفت فجأة[2] ، في نفس الفترة التي وفد فيها على المعز لدين الله .

ولعل قرار الخليفة الناصر الذي ضمنه أمر عودة القائد حميد بن يصل المكناسي بالجيش الذي ضمه إليه إلى العدوة المغربية سنة 342هـ/952م[3] ، بعد أن غاب عنها، طيلة مدة لجوئه إلى الأندلس منذ عام 336هـ/947م[4] ، لم يكن ذلك إلا لملء الفراغ السياسي ، الذي يمكن أن يطرأ على تغير موقف فرع مغراوة الزناتيين ، حلفاء الأمويين بالمغرب ، عقب لجوء زعيمهم محمد بن خزر إلى الفاطميين ، أعداء بني أمية التقليديين ، في نفس العام المذكور. كما قدم مع حميد إلى المغرب على يد يحيى القرشي السليماني أمير مدينتي تنس وأرشقول وما بينهما من أرض إفريقية ، الذي كان قد لجأ إلى الخليفة الناصر بالأندلس، بعدما سيطر الشيعة الفاطميون على ما بحوزته من أملاك بالمغرب، وخلع الخليفة الناصر عليهما، قبل خروجهما من الأندلس هدايا اشتملت على

---

[1] ويذكر أنه قد ناف على المائة عام (أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة ، ص 262).

[2] أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 229.

[3] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 219.

[4] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 263.

دراريع الديباج والخز وعمائم الشرب المذهبة وغير ذلك ، وخص حميد بن يصل بسبعة عشر ألف درهم ، للنفقة على الجند وسبعة أحمال من الكسوة لنفس الغرض[1] .

ولم يبرح أن وصل حميد بن يصل إلى المغرب ، حتى بدأ العمل على زيادة نفوذ الخليفة الناصر على الساحة المغربية ، وذلك عن طريق الوسائل السياسية الخاصة بكسب حلفاء جدد من البربر تارة أو بواسطة استخدام القوة العسكرية ضد البربر المحالفين للفاطميين تارة أخرى، ومما يدل على نجاح هذه السياسة هو وصول وفد ازداجة البربرية إلى بلاط قرطبة بالأندلس سنة 343هـ/953م ، معلنا طاعته وولاءه تحت السيادة الأموية، فكساهم الناصر الأموي ووصلهم بالهدايا والأموال ثم ورد في نفس العام كتاب من حميد بن يصل قائد الناصر بالعدوة يحمل بشائر فتح مدينة " آسلان" وانتشار الدعوة الأموية بنواحيها[2] . وربما ذلك يفسر الإشارة التاريخية التي وردت عند ابن خلدون حينما ذكر أن المعز لدين الله، استقدم زيري بن مناد زعيم صنهاجة ، من عاصمته أشير سنة 343هـ/953م، وأجزل عليه العطاء ثم رده إلى عمله [3] ، فمن المرجح أن إجراء الناصر هذا كان لتأكيد عمق العلاقة بين الفاطميين وحلفائهم الصنهاجيين ، وذلك للمحافظة على التوازن السياسي بين القبائل البربرية الموالية للأمويين، وبين القبائل المؤيدة للفاطميين في بلاد المغرب.

تتابعت كتب ووفود حميد بن يصل قائد العدوة من قبل الناصر الأموي ، بالتوالي إلى بلاط قرطبة، في العام التالي أي سنة 344هـ/954م، والتي كانت تحمل معها أنباء انتصارات حلفاء الأمويين من قبائل البربر على الفاطميين وأنصارهم الكتاميين ، فقد ذكر حميد في الكتاب الذي أرسله إلى الناصر في نفس العام المذكور، خبر انتصاره على قائد الخليفة الشيعي المعز لدين الله وقتله عددا كبيرا من جنوده. كما وصل إلى بلاط قرطبة ابن عم حميد بن يصل، ومعه ستة وثلاثون

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 219.

[2] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 219.

[3] العبر ، ج4، ص 49.

من وجوه كتامة، وغيرهم من وجوه قبائل البربر المستأمنين إليه من سطوة الجيش الفاطمي، فأكرم الناصر إنزالهم ، وجلس لاستقبالهم بقصر الزهراء ، وعرضوا عليه مطالبهم ، فرد عليهم ردا جميلا وأحسن موعدهم ، ثم أمر لهم بالخلع والصلات ، وأمرهم بعد ذلك بالرجوع إلى القائد حميد بن يصل بالمغرب[1] .

وربما أن شعور الأمويين بقوة موقفهم السياسي، هو الذي دعا أحد مراكبهم التجارية القادمة من المشرق سنة 344هـ/955م ، بأن تقوم بقطع الطريق على أحد القوارب الفاطمية ، الذي كان يحمل على متنه رسول من عامل صقلية إلى المعز لدين الله الفاطمي، وذلك في منتصف الطريق بين صقلية وإفريقية وتمكن التجار الأندلسيين أثناء ذلك من الاستيلاء على كتاب كان بحوزة ذلك الرسول الذي أمر بتسليمه إلى الخليفة الفاطمي، إضافة إلى استيلائهم على بعض الأمتعة التي كانت على متن القارب، ثم تابعوا مسيرهم بعدها إلى الأندلس [2] ، وما أن علم المعز لدين الله بخبر الحادث حتى أمر الحسن بن علي [3] الكلبي [4] ، عامله على جزيرة صقلية ، بتجهيز أسطول بحري في نفس الوقت وملاحقة المركب الأموي المعتدي وإحراقه ، حتى لو اقتضى الحال متابعته إلى الأندلس، وبالفعل تابع الحسن بن علي المركب الأموي الذي أرسى لتوه بالمرية – قاعدة الأسطول الأموي- فأحرق المراكب الأموية الراسية هناك، كما نزل بحارة الأسطول الفاطمي إلى بر الأندلس فقتلوه ونهبوا، وأحرقوا المركب الأموي المطلوب، ثم عادوا إلى قاعدة المهدية سالمين[5] .

وإذا صحت هذه الحادثة ، فإنها تعد بحق أول مظهر للاصطدام المباشر بين قوات الأمويين والفاطميين ، لأن السمة العامة للصراع الفاطمي والأموي خلال مراحله الطويلة، الاعتماد أساسا على إثارة قبائل البربر الموالية لكلا الدولتين ، مما دعا أحد المستشرقين أن يعزو ذلك التصرف من

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 220.

[2] النعمان، المجالس والمسايرات، ص 164-165؛ إدريس ، عيون الأخبار، ج5، ص 581.

[3] النعمان، المصدر نفسه، ص 165؛ إدريس، المصدر نفسه، ج5، ص 581.

[4] أنظر، الدشراوي، الخلافة الفاطمية، ص 335.

[5] النعمان ، المجالس والمسايرات، ص 165؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 581-583.

قبل الفاطميين ، لما تمثله تلك الرسالة من أهمية بالنسبة لهم؛ ورجح إمكانية تضمنها خطة مدبرة لهجوم فاطمي على الأندلس ، مع احتمالية ، علم الخليفة الناصر المسبق ، بخطورة هذه الرسالة ولذلك لم يتردد في الاستيلاء عليها [1] . ولكن فيما يبدو غاب عن ذهن هذا المستشرق أن المركب الأموي كان قادما من جهة الإسكندرية بمصر، أي إن الخليفة الناصر حتى لو علم بخطورة الرسالة ، فإنه يتعذر عليه الإيعاز للمركب الأموي بقطع الطريق على قارب الفاطميين لبعد المسافة بينهما، ومن المرجح أن تكون هذه الحادثة محض الصدفة، ولم يكن إجراء المعز لدين الله الأخير، إلا لما مثلته تلك الحادثة من بادرة جديدة وخطيرة في الصراع الفاطمي والأموي، الذي اتخذ منذ البداية السياسة غير المباشرة منهجا وطريقا له، بواسطة قبائل البربر، فيما إذا أرادت أي من الدولتين توجيه ضربة للدولة الأخرى، وبمعنى آخر، لم يتعد تصرف المعز لدين الله، إلا ثأرا للكرامة ، وهو الأمر الذي دعاه للتوغل داخل الأراضي الأندلسية ، رغم تقديره لخطورة هذا التصرف، كما أن الناصر الأموي على ما يبدو ، لم يكن قد أخذ احتياطه عن طريق الإيعاز للسفن الأموية الراسية في ميناء المرية بالاستعداد والتأهب ، لمواجهة ما قد يحصل من ردة فعل فاطمية وإلا لما استطاع الأسطول الفاطمي الوصول إلى داخل الأراضي الأندلسية، وهذا يؤكد عدم علم الناصر المسبق بتصرف المركب الأموي ؛ ثم لماذا لم يرسل الناصر قوات بحرية أموية من الموانئ الأندلسية، إذا كان حقا يعلم بخطورة تلك الرسالة التي يحملها الرسول على متن القارب الفاطمي ، وهذا كله يرجح احتمالية أن تكون الصدفة قد لعبت دورها في لقاء المركبين الفاطمي والأموي.

ويرى ابن عذاري أن ردة فعل الخليفة الناصر الأموي كانت مباشرة، ففي نفس العام، الذي حصل فيه الاعتداء الفاطمي على ميناء المرية ، أي سنة 344هـ/955م ، أمر بلعن ملوك الشيعة الفاطميين على جميع منابر الأندلس، وأنفذ كتبه بذلك ، إلى كافة عماله بسائر الأقطار [2] ، ثم جهز أسطولا بحريا بقيادة مولاه غالب ، وأمره بالتوجه إلى إفريقية ، فلما وصل الأسطول الأموي إلى

---

[1] أنظر، Dozy, Histoire, maslumans d Espagne, T, 2, P. 165 .

[2] البيان، ج2، ص 220.

شواطئها ، خرجت إليه قوات المعز لدين الله ، وأجبرته على التراجع إلى الأندلس [(1)] ، ولم يلبث أن عاد غالب في العام التالي، أي سنة 345هـ/956م، على رأس أسطول آخر مكون من سبعين مركبا فهاجم مرسى الخزر ، وأضرم النار فيه، واتجه بعدها إلى مدينة سوسة وخربها، ثم عرج على نواحي طبرنة الواقعة غرب مدينة بنزرت التونسية ، وعاد بعد ذلك إلى الأندلس [(2)] .

عمل الخليفة الناصر بسرعة في تعزيز انتصاره الأخير على الفاطميين ، حينما أخرج قائده قاسم بن عبد الرحمن من قرطبة إلى حميد بن يصل في بلاد المغرب حاملا له أحد عشر حملا من المال، وأحمالا أخرى من العدة لتقوية الجيش في دفاعه عن نفوذ الخلافة الأموية بالمغرب، وذلك لخمس خلون من صفر سنة 345هـ/أيار 956م، فاستطاع حميد بفضل تلك المساعدات أن يستولي على مدينة تلمسان[(3)] . كما وفد إلى بلاط قرطبة من العدوة المغربية سنة 346هـ/957م ،أمراء بني رزين وبعض الملتفين حولهم ، وعلى رأسهم أميرهم مروان بن هذيل بن رزين ، معلنين ولاءهم وطاعتهم للسلطة الأموية ، فقبل الخليفة الناصر طلبهم وأحسن إليهم [(4)] .

وبعد هذه النجاحات التي حققها الأمويون على الساحة المغربية ، ضد أعدائهم الفاطميين وأنصارهم الكتاميين، ارتأى الخليفة الناصر – فيما يبدو – عقد صلح مع الفاطميين، إلا أن المعز لدين الله رفض طلبه [(5)] ، رغم أن الناصر كرر الطلب بالصلح أكثر من مرة [(6)] ، وكانت حجة المعز التي دعته إلى الرفض، حسبما أشار القاضي النعمان، سياسية ومذهبية وعسكرية ، معا، فأما السبب السياسي فيرجع ذلك لما كان بين البيتين الأموي والهاشمي من عداوة قديمة ، تجددت مع ظهور الإسلام، بسبب المنافسة على الخلافة ومما جاء على لسان المعز في هذا الشأن قوله: " وأما

[(1)] ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 49.

[(2)] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج4، ص 49.

[(3)] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 221؛ في حين يذكر ابن أبي زرع ، أن الناصر الأموي استولى على تلمسان سنة 344هـ/955م (الأنيس، ص 100).

[(4)] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 221.

[(5)] النعمان، المجالس والمسايرات، ص 167.

[(6)] النعمان، المصدر نفسه، ص 169.

ما دعا إليه (يقصد الناصر) من السلم والكف والموادعة والصلح وهو يزعم أنه أمير المؤمنين – كما يتسمى دون من سلف من آبائه – وإمام الأمة بدعواه وانتحاله، ونحن نقول إنا أهل ذلك دون ودون من سواه، ونرى أن فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه مع ما بين أسلافنا وأسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه من العداوة القديمة الأصلية والبغضة في الإسلام والجاهلية" [1] .

وأما السبب المذهبي ، الذي دعا المعز لرفض الصلح مع الأمويين، فلأن بني أمية أعداؤه بالمذهب من وجهة نظره وواجب قتالهم ، وقد أشار إلى ذلك بقوله: " ما أنا بالمداهن في دين الله ولا بالراكن بالمودة إلى أعداء الله، ولا بالمخادع في أمر من أمور الله"[2] ، كما أن الناصر أراد من هذا الصلح – حسب رأي المعز – أن يكسب الوقت لكي يعيد تنظيم جيشه الأموي " وإنما أراد هذا الفاسق (يقصد الناصر) أن يقطع الزمان بهذه المكاتبة بيننا وبينه" [3] . وأمام موقف المعز لدين الله المتشدد في عقد الصلح، اضطر الناصر ، إلى التحالف مع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع [4] من أجل أشغال صقلية بالحرب مع بيزنطة [5] .

ولا غرو، أن هدف الخليفة الناصر ، من عقد الصلح مع الفاطميين، يدعو للشك، فمن جانب، كان قد ضمن قوة نفوذه على الساحة المغربية عن طريق حلفائه البربر، في تلك الحقبة التاريخية بالذات، ومن جانب آخر فإنه لم يكن يخشى البيزنطيين ، بدليل إقامة تحالف مع الإمبراطور قسطنطين السابع ضد الفاطميين بعد فشله من عقد هدنة معهم ، وفي الحقيقة لا يوجد تفسير مقبول ، لمشروع الناصر غير أنه، ربما علم بنوايا المعز لدين الله الجدية في محاولة توجيه حملة لإعادة إخضاع المغربين الأوسط والأقصى للسيادة الفاطمية ، وأنه أمضى من أجل تحقيق هذا الهدف ،

---

[1] المجالس والمسايرات، ص 168.

[2] النعمان، المصدر نفسه، ص 168.

[3] النعمان، المصدر نفسه، ص 173.

[4] النعمان، المصدر نفسه، ص 166؛ أنظر، إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 583، هامش 91.

[5] أنظر، العمايرة ، الجيش الفاطمي، ص 49.

خمس سنوات في إعداد العدة وتجهيز الجيوش [1] ، فحينئذ خشي الناصر ، من خطر الفاطميين ، وأنصارهم الكتاميين ، على حلفائه البربر عامة، والزناتيين منهم خاصة ، وما ستسفر عنه نتائج تلك الحملة من تقليص مناطق نفوذه بالعدوة المغربية، ولذلك أراد قطع الطريق على الخليفة المعز ، من خلال عقد هدنة معه، وهو نفس الهدف الذي ذكره المعز عندما رفض عرض الناصر حينما طلب الصلح [2] .

ويمكن معرفة الخارطة السياسية في بلاد المغرب التي تبين أبرز مناطق النفوذ التابعة لسيادة الأمويين بالأندلس والفاطميين بإفريقية ، ما بين عامي 341و 347هـ/952و 958م، من خلال النص التاريخي الذي أورده ابن خلدون بقوله : " وكان على تاهرت وإيفكان [3] يعلى بن محمد اليفرني ، وعلى أشير وأعمالها زيري بن مناد الصنهاجي، وعلى المسيلة وأعمالها جعفر بن علي الأندلسي، وعلى باغاية وأعمالها قيصر الصقلي، وكان على فاس أحمد بن بكر بن ابي سهل الجذامي ، وعلى سجلماسة محمد بن واسول المكناسي" [4] ، كما كان على تلمسان وأعمالها بنو خزر الزناتيون [5] ، وكان زيري بن مناد مواليا للفاطميين، أما جعفر بن علي وقيصر الصقلي فكانا عمالاً من قبل المعز لدين الله الفاطمي [6] ، وأما ما تبقى من مناطق نفوذ فإنها كانت تدين بالولاء لصالح الأمويين بالمغربين الأوسط والأقصى ، تعادل أضعاف مساحة الأراضي التي تتبع لسلطة الفاطميين ، وما يؤيد ذلك ما ذكره بعض مؤرخي المغرب والأندلس ، من أن سبب تجهيز المعز لدين الله للجيش الفاطمي وإرساله للمغربين الأوسط والأقصى ، كان الغرض منه تقليص نفوذ

---

[1] أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 263.

[2] النعمان، المجالس والمسايرات، ص 173.

[3] إيفكان: وهي المدينة التي أسسها يعلى بن محمد اليفرني سنة 338هـ/949م، في وسط مضارب زناتة ، على بعد ثلاث مراحل شرق تاهرت ، واتخذها مقرا له بدلا من تاهرت (البكري، المغرب، ص 79؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 88).

[4] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 50.

[5] ابن خلدون، المصدر نفسه، ج7، ص 26.

[6] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 251، هامش 1.

الناصر الأموي المتزايد على أراضيها، بمساندة حلفائه الزناتيين ، فقد قال ابن الفرضي: "اتصل الخبر بالشيعي (المعز) بغلبة الناصر على بلاد العدوة، وأن من بها من جميع زناتة والبربر رفضوا دعوته" [1] ، كما أكد ابن الخطيب قوة نفوذ الناصر المغرب بقوله : " اتصل بصاحب الشيعة (المعز) ، تغلب الناصر لدين الله على أقطار المغرب وأنكاث دعوته به"[2] .

وأمام تداعيات موقف الفاطميين في المغربين الأوسط والأقصى ، أصبح الخليفة المعز لدين الله ، ينتظر الفرصة المناسبة لتوجيه ضربة قوية إلى حلفاء بني أمية على أراضيهما ، بعد أن جهز جيش كتامة وحشد حلفائه الصنهاجين للقيام بتلك المهمة . وحسب ابن خلدون ان المعز ، وجد الفرصة حينما بلغه " أن يعلى بن محمد اليفرني داخل الأموية من وراء البحر وأن أهل المغرب الأقصى نقضوا طاعة الشيعة" [3] ، فحينها أوعز إلى قائده جوهر الصقلي [4] أو الرومي [5] الكاتب[6] بالتوجه إلى المغربين الأوسط والأقصى في السابع من صفر سنة 347هـ/ايار 958م [7]، على راس حملة عسكرية ضمت عشرين ألف مقاتل من قبائل كتامة وصنهاجة [8]

---

(1) جذوة الاقتباس، ج1، ص 176.

(2) أعمال الاعلام ، القسم الثالث، ص 220.

(3) العبر ج4، ص 50.

(4) ابن خلدون، المصدر نفسه، ج4، ص 50.

(5) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 220؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس ، ج1، ص 176؛ وجوهر الصقلي رومي الأصل، جلبه أحد الموالي الذي يدعى صابر، ثم انتقل إلى حوزة خفيف الخادم الذي وهبه إلى الخليفة المنصور بالله، فظهر جوهر عنده (ابن حماد، أخبار بني عبيد ، ص 40؛ ابن عذاري، البيان، ج1، ص 221) ثم عظم أمر جوهر عند الخليفة المعز لدين الله وعلت مكانته حتى صار في رتبة الوزارة (المقريزي، الخطط، ج2، ص 34) ، وقد نال هذه الدرجة الرفيعة والرتبة العالية سنة 345هـ/956م (ابن دينار، المؤنس، ص 80).

(6) ابن خلدون ، العبر ، ج4، ص 50؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 80.

(7) ابن أبي دينار، المؤنس، ص 80.

(8) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 220؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس ، ج1، ص 176.

وتلكاتة [1] ، وخرج معه في حملته تلك زيري بن مناد صاحب أشير، وجعفر بن علي صاحب المسيلة [2] ، وقد أشاد المعز لدين الله بموقف كتامة الإيجابي ، ومسارعتهم للخروج مع جوهر بقوله: " بارك الله فيكم واحسن صحابتكم والخلافة عليكم فقد صدقتم ظني فيكم وأملي عندكم وأنتم من معدن البركة وعنصر الخير ، بكم بدأ الله إظهار أمرنا وبكم يتمه ويصله بحوله وقوته، وقد علمت مسارعتكم إلى ما ندبتم إليه وإجابتكم لما اردتم له وأرجو أن تبلغوا من ذلك بحسب الأمل فيكم ويرفع الله (عج) بذلك درجاتكم ويعلى ذكركم" [3] .

وما إن اتصل خبر قدوم الحملة الفاطمية إلى يعلى بن محمد اليفرني، أمير بني يفرن، وخليفة الناصر على بلاد العدوة ، حتى حشد جموع بني يفرن وفروع زناتة الآخرين ، والتقى مع جوهر وجيوش كتامة ، بالقرب من مدينة تاهرت ، وبعد معركة ضارية ، بذل جهور خلالها الأموال إلى قادة كتامة ، فضمنوا له بها قتل أمير بني يفرن، يعلى بن محمد ، غدرا ، واحتزوا رأسه، وقدموه إلى جوهر، فقام الأخير بإرسال رأسه إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، حيث طيف به في القيروان [4] ، ودخل جوهر مدينة إيفكان، فنهبها ، ثم أمر بهدمها، وأضرم النار فيها[5] ، وأسر يدو بن يعلى، وأرسله إلى المعز لدين [6] ، وجد جوهر الصقلي وزيري بن ناد الصنهاجي في

---

[1] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 20.

[2] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 50.

[3] إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 606.

[4] ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 89-90؛ ويورد ابن خلدون أن يعلى بن محمد كان قد أذعن لطاعة جوهر الصقلي حين قدومه إلى إيفكان، وأن جوهرا قد قبل الطاعة منه، إلا أن جماعة من بني يفرن أحدثوا ضجة بعد رحيل جوهر عن مدينتهم ، فعاد عندئذ إليها وقبض على يعلى ودخل المدينة (العبر، ج4، ص 50)، ويذكر الناصري، بأنه في سنة 347هـ/958م، ولى الخليفة الناصر الأموي على مدينة طنجة وأحوازها يعلى بن محمد اليفرني ، فنزلها في قبائل بني يفرن، وأمضى أمره ونهيه فيها (الاستقصا، ج1، ص 179)، كما يضيف ابن الخطيب بأن تاهرت والمسيلة وتلمسان والبصرة، كلها مناطق كانت بحوزة يعلى بن محمد اليفرني، وكان يقيم الدعوة فيها إلى بني أمية بالأندلس (أعمال الاعلام ، القسم الثالث، ص 164).

[5] ابن الأثير ، الكامل، ج7، ص 261؛ ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 80.

[6] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 50؛ وكان يدو آنذاك صبيا (أبن الأثير، الكامل، ج7، ص 261).

مطاردة بني يفرن بالمغرب الأوسط فهربت أغلب بطونهم إلى المغرب الأقصى وجاز كثير منهم إلى الأندلس [1] .

ولما كان الخليفة الناصر ، يدرك خطورة حملة جوهر، المؤلفة من قبائل كتامة وصنهاجة ، على المغرب الأوسط ، حيث حلفاؤه الزناتيون، فإنه بادر بإرسال قائد أسطوله أحمد بن يعلى في مهمة خاصة ، لمساندة أمير بني يفرن بمدينة أيفكان ، إلا أن أحمد بن يعلى الذي وصل في جمادى الآخرة سنة 347هـ/958م، إلى مدينة آسلان – من عمل تلمسان- لم يتمكن من إتمام مهمته، عندما علم أن جوهرا قائد الشيعة قتل يعلى بن محمد اليفرني ، صاحب مدينة إيفكان بتلك النواحي ، غدرا ، فعاد إلى قرطبة ومعه ولد ابن قرة، ابن عم يعلى المقتول ، الذي قدمه بني يفرن عليهم فبالغ الناصر في إكرامه [2] .

وبعد أن خلص جوهرا الصقلي ، المغرب الأوسط من أيدي بني يفرن الزناتيين تابع مسيره إلى المغرب الأقصى ، وحاول دخول مدينة فاس ، إلا أن أميرها أحمد بن أبي بكر، أغلق أبوابها، فحاصرها جوهر مدة ، فلم يستطع فتحها، وأشاروا أصحابه عليه بالرحيل إلى سجلماسة التي قطع صاحبها محمد بن وسول بن الفتح ، دعوة الفاطميين بها، ودعى إلى نفسه، وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله، وضرب السكة باسمه، وعرفت عملته بالشاكرية فسار جوهر إلى سجلماسة [3] ، ولما سمع الشاكر بالله به، هرب من المدينة [4] ، فدخلها جوهر، وأمن أهلها، وولى مكان أميرها الهارب أحد أبناء عمومته ، يدعى ابن المعتز [5] ، ولم يلبث أن غدر جماعة من فرع مطغرة

---

(1) مجهول، مفاخر البربر، ص 183؛ انظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 265.

(2) ابن عذاري، البيان، ج2، ص 222.

(3) ابن الأثير ، الكامل، ج7، ص 222؛ ابن أبى زرع، الأنيس، ص 90.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 261.

(5) ابن خلدون، العبر، ج4، ص 50.

بالشاكر لله الذي تحصن في قلعة على بعد اثنتي عشر ميلا من سجلماسة ، فقبضوا عليه وأتوا به إلى جوهر [1] ، أسيرا [2] .

تابع جوهر مسيره ، بعد أن أخضع مدينة سجلماسة إلى طاعة الفاطميين، حتى وصل إلى ساحل البحر المحيط (الأطلسي) ، وأصطاد من سمكه ، ووضعه في قوارير مملوءة بالماء ، وأرسله إلى المعز لدين الله [3] ، وهي " إشارة إلى أنه ملك حتى سكان البحر المحيط (الأطلسي) الذي لاعماره بعده" [4] . ثم عاد مرة أخرى إلى فاس ، فحاصرها، ودار القتال حول أسوارها مدة ثلاثة عشر يوما[5] ، دون أن يستطيع فتحها، وربما أثار جوهر المنافسة والعداء في نفس زيري بن مناد، زعيم صنهاجة على أمير فاس الزناتي [6] ، فقام زيري حينئذ باختيار أشجع رجال صنهاجة، وأمرهم ، بتسلق أسوار المدينة ليلا، وأهلها غافلون ، ليفتحوا أبواب المدينة للجيش الفاطمي، ونجح رجال صنهاجة بالمهمة التي أوكلت إليهم، وأشعلوا النار وضربوا الطبول ، وهي الإشارة التي اتفقوا مع جوهر عليها، فلما سمعها ، دخل بجيوشه إلى فاس [7] لعشر بقين من رمضان سنة 348هـ/كانون أول 959م، وقبض على أميرها أحمد بن أبي بكر الزناتي الذي كان واليا عليها من قبل الناصر الأموي [8] ، بعد يومين من دخوله إليها[9] .

وفي ظل تدهور أوضاع حلفاء الناصر الأموي الزناتيين، أمام هجمات كتامة بقيادة جوهر الصقلي ، أوصل الناصر إلى نفسه حريز بن منذر في جماعة من وجوه الموالي والعرفاء، ورجال الجند، وعلى رأسهم مولاه بدر الخصي ، صاحب السيف، وأمرهم جميعا بالخروج في أول ذي

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 222.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 261؛ ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 50.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 261؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 80.

[4] المقريزي، الخطط، ج2، ص 34.

[5] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 90؛ مجهول، مفاخر البربر، ص 130.

[6] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 267.

[7] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 261-262.

[8] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 220؛ ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 90.

[9] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 262.

القعدة سنة 348هـ/ شباط 959م، إلى مدينة سبتة ، للدفاع عنها فيما إذا هاجمها قائد الشيعة الفاطميين، ومكثوا فيها إلى أن انصرف جوهر إلى إفريقية ، فعادت عندئذ القوات الأموية مع القائد بدر إلى قرطبة في آخر ذي الحجة من نفس السنة [1] .

وتجول جوهر في المغربين الأوسط والأقصى ، مدة تربو على الثلاثين شهرا [2] ، استطاع خلالها إخضاع حلفاء بني أمية الزناتيين ، وفتح المدن والمعاقل التي كانت بأيديهم، وفرت أمامه قبائل زناتة ، وغيرها من قبائل البربر المعادية للشيعة الفاطميين [3] ، وطرد عمال بني أمية من سائر بلاد المغرب [4] بعد أن هزم قبائل البربر فيها، وقتل حماتها، وقطع الدعوة بها للمراوانيين وأعادها للعبيديين ، فخطب لهم على جميع منابر المغرب[5] ، ما عدا سبتة [6] وطنجة [7] ، ثم قفل جوهر عائدا إلى إفريقية " يجر الدنيا وراءه" [8] ، فوصل المهدية سنة 349هـ/960م [9] ، وحمل معه أحمد بن أبي بكر الزناتي، أمير فاس، ومحمد بن الفتح أمير سجلماسة ، وخمسة عشر رجلا من أشياخ فاس، كلهم في أقفاص من خشب ، فطيف بهم في أسواق القيروان[10] ، ثم حملهم إلى المعز لدين الله بالمهدية [11] ، فحبسهم المعز لدين الله جميعا حتى ماتوا في سجنها [12] ، وكافأ الخليفة المعز لدين الله ، زيري بن مناد على حسن بلائه في حرب قبيلة زناتة بأن ضم إلى عهدته

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 222-223؛ ويذكر ابن عذاري، أن صاحب سبتة أرسل كتابا سنة 348هـ/959م، يخبره بما فتح الله عليه في عسكر جوهر قائد الشيعة الفاطميين (البيان، ج1، ص 322)؛ وهي ربما إشارة إلى عودة جوهر إلى إفريقية دون مهاجمة مدينة سبتة التي ترابض فيها القوات الأموية .

[2] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 220؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 90.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 90.

[4] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 50.

[5] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 90.

[6] ابن ابي دينار، المؤنس، ص 80.

[7] أنظر، سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص 22.

[8] مجهول، مفاخر البربر، ص 130.

[9] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 220.

[10] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 91.

[11] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 262.

[12] ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 11.

مدينة تاهرت بالمغرب الأوسط، واصبح واليا عليها من قبل الفاطميين [1] ، ومن ذلك الحين تحمل بنو زيري مسؤولية كبرى في مراقبة تحركات قبيلتي زناتة ومكناسة المواليتين للأمويين في الأندلس[2] .

ومما تجدر ملاحظته في حملة جوهر الصقلي على المغربين الأوسط والأقصى ، بأنه رغم تمكنه من إعادتهما لطاعة الفاطميين ، وتأديب فروع زناتة المتمردة بهما، إلا أنه لم يحاول غزو مدينتي سبتة وتلمسان في حملته تلك، وذلك لوجود قوات أموية في كلتا المدينتين ، ومن المؤكد أن ذلك يعطي مؤشرا في عدم رغبة قائد الفاطميين بالدخول في مواجهة مباشرة مع الدولة الأموية بالأندلس لأن المواجهة غير المباشرة هي سمة الصراع الفاطمي والأموي [3] .

وعاودت بطون زناتة بالمغرب الأوسط، لم شملها وترتيب صفوفها عقب رحيل جوهر الصقلي عنها إلى إفريقية ، فقد اجتمعت تحت رئاسة محمد بن الخير بن محمد بن خزر الزناتي [4] الذي أخذ على عاتقه السير في مناوئة الفاطميين ومحاربتهم ، وفي نفس الوقت حافظ على استئناف سياسة أجداده في السير على تمتين العلاقة الودية مع بني أمية المروانيين ، وقد أشار صاحب كتاب مفاخر البربر إلى ذلك بقوله: " وكان من أكبر ملوكهم (يقصد محمد بن الخير) جمعا، وأبسطهم يدا، وأشدهم للمروانية إعظاما وبرا، فعاد محمد بن الخير لمغاورة أولياء الشيعة، وأثر في ذلك أثر حسنا" [5] . كما أكد الناصري قوة نفوذ محمد بن الخير التي ظهرت على الساحة المغربية ، ومدى علاقته الودية مع بني أمية بقوله : " وكان من أبسط ملوك زناتة يدا وأعظمهم شأناً وأحسنهم إلى ملوك بني أمية انحياشاً وأخلصهم طوية" [6] .

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج7،ص 262؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص 50.

[2] أنظر، لقبال ، دور كتامة ، ص 360.

[3] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 269.

[4] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 31.

[5] مجهول، ص 131.

[6] الاستقصا، ج1، ص 196.

وبدأت قبيلة زناتة بزعامة محمد بن الخير، محاولة استعادة نفوذها على المغربين الأوسط والأقصى ، بعد أن انتشرت دعوة الشيعة الفاطميين في الأراضي التي كانت تتبع لسيادتها، وتقييم عليها الدعوة للأمويين في الأندلس، وذلك على اثر حملة جوهر الصقلي سنة 347هـ/958م، حيث تقلص نفوذ بني أمية في العدوة المغربية إلى أعمال سبتة وطنجة [1] . ولم يلبث أن ازداد الوضع سوءً ، بالنسبة لخلفاء بني أمية الزناتيين، حينما توفي الخليفة الناصر لدين الله، في رمضان سنة 350هـ/961م[2] ، إذ كانت وفاته سببا في وقف الإمدادات والعون من الأندلس إلى أمير زناتة بالمغرب الأوسط ، وربما ذلك ما قصده بعض المؤرخين بقولهم: "أن سياسة بني أمية هدأت في شمالي إفريقيا بعد موت الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر"[3] .

واعتلى الحكم المستنصر دست الخلافة بقرطبة بعد وفاة أبيه الناصر وذلك يوم الخميس لثلاث خلون من رمضان ، سنة 350هـ/961م [4] ، فاستأنف على الفور مخاطبة أمراء البربر الموالين لبني أمية بالعدوة المغربية ، وعلى رأسهم أمير زناتة محمد بن الخير، وقد عبر صاحب كتاب مفاخر البربر، عن سرعة استجابة أمير زناتة للدعوة الأموية بقوله: " فثاب نشاطه وشمر عن ساقه وقصد أصحاب معد ، وعاث في أعماله"[5] . ولا شك أن غرض الحكم المستنصر من هذا الإجراء هو إعادة فرض سلطان حلفائه البربر، على ما كان بأيديهم من مناطق نفوذ في العدوة المغربية ، قبل حملة جوهر الصقلي سنة 347هـ/ 958م، ومما يدل على اهتمامات الحكم المستنصر المبكرة، بإعادة سلطة الدولة الأموية على مناطق نفوذها السابقة بالعدوة المغربية هو استكماله بناء سور مدينة سبتة عام 351هـ/963م [6] ، ليعينها على الصمود أمام هجمات جيوش

---

[1] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 30-31.

[2] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 232.

[3] أنظر، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص 87؛ سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 270.

[4] ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص 31؛ ويكنى الحكم المستنصر أبا المطرف (ابن عذاري، البيان، ج2، ص 233) أو أبا العاص (الحميدي، جذوة المقتبس، ص 13).

[5] مجهول، ص 132.

[6] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 227.

كتامة ، فيما إذا حاولت اقتحام المدينة ، ثم محاولة تحسين سياسته تجاه حلفائه المغاربة ، حيث اسقط عن أهل سبتة ، جميع الوظائف المخزنية والمغارم السلطانية سنة 353هـ/ 964م [1] ، وتجاوز اهتمام الحكم المستنصر هذا الحد، عندما تحرك بنفسه في شهر رجب سنة 353هـ/تشرين أول 964م من قرطبة إلى المرية، لتأمين الحدود الجنوبية تحسبا منه، لما يمكن أن يتهدد بلاده من خطر الفاطميين بإفريقية ، على جبهة الأندلس الشرقية ، ولكي يشرف بنفسه على صناعة السفن التي تعد بميناء المرية ، ثم لمعاينة ما يجري فيها من أعمال تحصين كان قد أمر ببنائها في تلك النواحي[2] .

وبينما كان الحكم المستنصر يبذل جهوده لإعادة سلطة الأمويين بواسطة حلفائهم الزناتيين، على مناطق نفوذهم السابقة بالعدوة المغربية كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، وقتذاك يعد العدة ابتداء من سنة 354هـ/965م ، لتجهيز جيش كبير يقوم بغزو مصر[3] ، وقد أخذ الاحتياطات اللازمة لإنجاح هذه المهمة ، إذ أمر سنة 355هـ/966م ، بحفر الآبار في طريق مصر، وأن يبنى له في كل موضع قصر[4] ، وبعد وفاة كافور الإخشيدي صاحب مصر في أخر جمادى الثانية سنة 355هـ/ أيلول 966م [5] ، أمر المعز قائده جوهر الصقلي بالخروج إلى المغرب الأوسط، بحملة استطلاعية ، حشد خلالها الجنود وقبائل كتامة، وجبى الأموال من البربر، وعاد بعدها إلى المنصورية [6] ، واستغل المعز سوء الأوضاع الداخلية بمصر عقب وفاة كافور الإخشيدي[7] ، فأوعز إلى الجيوش الفاطمية بالخروج إلى مصر بقيادة جوهر الصقلي ، يوم السبت لأربع عشرة

---

[1] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 227.

[2] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 336؛ ويذكر أن السفن الأموية الراسية في ميناء المرية يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة (أنظر ، عنان ، دولة الإسلام، ج2، ص 488).

[3] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 270 .

[4] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 81.

[5] ابن أبي دينار، المصدر نفسه، ص 81

[6] ابن أبي دينار، المصدر نفسه، ص 81.

[7] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 309؛ السراج، الحلل السندسية ، ج2، ص 41؛ ويذكر ابن الأثير أن كل رطل من الخبز يباع بدرهمين ، والحنطة كل ويبة بدينار (الكامل، ج7، ص 309).

خلت من ربيع الأول سنة 358هـ/حزيران 968م، ودخلت تلك الجيوش المؤلفة أغلبها من قبيلة كتامة مدينة الفسطاط يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقين من شعبان من نفس العام (تشرين الثاني 968م) [1] .

وما إن شعرت بعض البطون الزناتية ، بفراغ الساحة المغربية من بطون كتامة التي خرجت مع جوهر الصقلي إلى مصر ، حتى أعلنت تمردها وعصيانها من جديد على الدولة الفاطمية [2] . ففي آخر سنة 358هـ/ 969م ثارت هذه البطون الزناتية بزعامة أبو خزر الزناتي ، بعد أن انضمت له أعداد كبيرة من البربر والنكار [3] ، وكتب إلى الخليفة الأموي الحكم المستنصر ليقف إلى جانبه في ثورته على الفاطميين، إلا أن رسالته وقعت في أيدي جند المعز لدين الله الفاطمي، ولم تصل إلى الخليفة الأموي[4] ، فخرج المعز لدين الله عندئذ بنفسه على رأس جيش للقضاء على هذا التمرد ، ولم يلبث أن وصل إلى باغاية ، حتى ولى أبو خزر هاربا إلى الأوعار فعاد حينها المعز الفاطمي إلى المنصورية، بعد ما كلف أبي الفتوح يوسف بلكين بن زيري الصنهاجي، بملاحقة أبو خزر أينما اتجه [5] ، إذ كان المعز لدين الله يعتمد كلية على قبيلة صنهاجة ، بعد خروج الجيش الفاطمي إلى مصر [6] ، وبذل بلكين بن زيري ، غاية جهده في البحث عن أبي خزر الزناتي، ولكنه لم يستطع الاهتداء إلى مكانه أو معرفة أخباره، وظل مختبئا إلى أن قدم بنفسه في ربيع الآخرة سنة

---

[1] ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 81؛ وأقيمت الدعوة للمعز بمصر في الجامع العتيق يوم الجمعة عشرين شعبان سنة 358هـ/968م (ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 221)؛ وكان الخطيب آنذاك أبا محمد عبد الله بن الحسين الشمشاطي (ابن الأثير ، الكامل ، ج7، ص 309).

[2] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 271.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 314-315.

[4] أبي زكريا، السيرة، ص 49؛ أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 274.

[5] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 315.

[6] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 275.

359هـ/ 970م، إلى المعز لدين الله بالمنصورية ، طالبا منه الأمان فقبل المعز طاعته ، وأبقاه إلى جانبه[1] .

كما استغل محمد بن الخير، أمير زناتة بالمغرب الأوسط ، فرصة خروج كتامة بقيادة جوهر إلى مصر وأغار على الأراضي التابعة للفاطميين ، فأثخن في الشيعة ودوخ بلادهم ؛ وسيطر على كافة بوادي زناتة التي كانت قد وقعت تحت سلطة الفاطميين [2] ، وخطب في كل المناطق التي احتلها إلى الحكم المستنصر خليفة الأندلس [3] ، وكان المعز لدين الله آنذاك ، يعد العدة للرحيل إلى مصر، ولم يجد أمامه منفذ إلا أن عقد لزيري بن مناد أمير صنهاجة على حرب صنهاجة مقابل أن يكون لزيري ما يستولي عليه من أراضي زناتة بقوة السيف [4] ، فجمع زيري بن مناد قبائل صنهاجة ، وجد في محاربة زناتة بالمغرب الأوسط، ثم كلف ابنه بلكين بالخروج على رأس جيش كبير لمواصلة حرب زناتة ، والتقى مع أميرها محمد بن الخير ، فكانت الدائرة على زناتة وانهزمت بطونها ، ولكن بلكين لم يمهلها في أن تعيد تنظيم نفسها، إذ أحاط بها بقواته من كل جهة ، ولما أيقن محمد بن الخير، أن الأسر مصيره، مال إلى ناحية من العسكر وذبح نفسه بسيفه وذلك في منتصف ربيع الآخرة سنة 360هـ/تموز 971م [5] ، وقتل في هذه المعركة أيضا سبعة عشر أميرا، من زناتة [6] ، فسيء الخليفة الحكم المستنصر بهذا الخبر [7] , وبعث زيري بن مناد الصنهاجي ، برؤوس القتلى من أمراء زناتة إلى المعز لدين الله، فعظم سروره بهزيمة زناتة وتقبل التهاني في

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 315؛ وحسب سنوسي، أن المعز لدين الله، أبقى أبو خزر عنده حتى خرج إلى مصر في ربيع الأول سنة 362هـ/ 972م ، فأخذه معه خوفا من أن يثور ثانية بالمغرب بعد خروجه عنه (زناتة والخلافة، ص 276-277).

[2] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 31؛ وحسب ابن الخطيب أنه سيطر على تاهرت وتلمسان والمسيلة (أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 155).

[3] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 154.

[4] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 31.

[5] ابن خلدون، المصدر نفسه، ج7، ص 31؛ مجهول، مفاخر البربر، ص 132؛ ويشير بن عذاري إلى مقتل محمد بن الخير بقوله: " فلما أيقن محمد بن الخير أن عدوه قد أنفه من أن يملكه بلقين" (البيان، ج2، ص 243)..

[6] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 31.

[7] مجهول، مفاخر البربر، ص 133.

ذلك مدة ثلاثة أيام ، وأرسل بالبشرى إلى مصر ، فقرأت على المنابر هناك، مما يبين أهمية هذا النصر بالنسبة للفاطميين ومدى العداء بينهم وبين زناتة [1] .

والمؤكد أن هذه الهزيمة القاسية التي نالتها زناتة على أيدي صنهاجة كانت من أكبر الخدمات التي أسداها زيري بن مناد زعيم صنهاجة إلى الخلافة الفاطمية بالمغرب ولولاها ما استخلف المعز لدين الله زعيم صنهاجة في حكم بلاد شمالي إفريقيا [2] ، ويشير صاحب كتاب مفاخر البربر إلى ذلك بقوله: " ونصرت صنهاجة نصرا ثبتت لها السلطان بأرض المغرب إلى هذا الوقت" [3] .

تولى الخير بن محمد الزناتي، رئاسة قبيلة زناتة ، عقب مقتل أبيه [4] ، في ظل ظروف استطالت فيها صنهاجة على بوادي زناتة ، واصبح زيري بن مناد سيد الموقف بالمغرب الأوسط، وبالذات بعد الهزيمة الأخيرة التي لحقت ببطون زناتة ، وظن زيري أن لا غالب له، إذ بسط نفوذه على البطون الزناتية الضاربة حول مدينة المسيلة ، وعلى أولياء جعفر بن حمدون الأندلسي، فاعتبر جعفر هذا التصرف من قبل زيري إهانة ومذلة له بين رجاله [5] ، ويعزى سبب اعتداء زعيم صنهاجة على سيادة جعفر بن علي والي الفاطميين على المسيلة ، لما كان بينهما من منافسة لكسب ود الخليفة الفاطمي، لأن كليهما طمع في أن يخلف المعز لدين الله على ولاية المغرب، ولذا فكلما زادت مكانة زيري بن مناد عند المعز لدين الله، كلما ساء ذلك جعفر بن علي، وكان انتصار زيري بن مناد على زناتة ، سببا في أن سما على جعفر بن علي في الرتب عند المعز

---

[1] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 279.

[2] أنظر، سنوسي، المرجع نفسه، ص 279.

[3] مجهول، ص 133.

[4] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 31.

[5] مجهول، مفاخر البربر، ص 133.

الفاطمي[1] ، فما كان من جعفر إلا أن تغير في ولائه السابق، وزاد حقده على زيري بن مناد، وخلع طاعة الفاطميين [2] ، والتحق بزعيم زناتة الخير بن محمد المعارض لهم[3] .

والواقع أن المنافسة بين جعفر بن علي وزيري بن مناد الصنهاجي لم تكن هي السبب الوحيد لخروج جعفر على طاعة الفاطميين، والانضمام إلى زناتة، فهي ربما تكون الذريعة التي انتظرها، لتنفيذ ما قد أضمره في نفسه من سوء نية، ضد الشيعة الفاطميين، فقد كان هناك جفاء وخلاف بين المعز الفاطمي وجعفر بن علي بسبب ما ترتب عليه من مبالغ مالية باهظة ، كان قد فرضها المعز لدين الله على ولاية المسيلة ، إذ فرض على أهل المسيلة من بني برزال وبني زنداج الزناتيين ، ضرائب وخراج لم يكن بوسعهم دفعها، وكان هؤلاء أولياء جعفر بن علي ، ويبدو أن هذا الجفاء زاد، حينما شاع في المغرب آنذاك من أن المعز سوف يعطي جعفر بن علي ولاية إفريقية والمغرب كله لزيري بن مناد الصنهاجي ، مما غص في نفس جعفر الذي أراد أن لا يكون له شريك في حكم المغرب[4] .

والظاهر أن زيري بن مناد قد قدم ، دليلا ماديا إلى المعز لدين الله الفاطمي على سوء نية جعفر بن علي، ضد الفاطميين، فبعد غزوته الناجحة على مضارب زناتة ، وقتله لزعيمها محمد بن الخير، استولى زيري بن مناد على هدايا كان يبعث بها جعفر إلى زعيم زناتة ، إذ وجد فرسا من عتاق الخيل تعود في الأصل إلى خيول المعز لدين الله ، كما عثر على رسائل بخط جعفر بن علي، يحذر زعيم زناتة فيها، إذا ما علم بعزم الفاطميين في الهجوم على مضارب زناتة ، ومما يدعم ذلك النص الذي أورده ابن حيان بقولة: " ... إلى أن قتل زيري بن مناد المذكور، عامل معد بن إسماعيل صاحب إفريقية على عمل المغرب محمد بن الخير بن خزر، أمير زناتة القائم بدعوة بني أمية ملوك الأندلس عدوة وأخذ له فرسا من عتاق الخيل كان إمامه معد بن إسماعيل صاحب إفريقية

---

(1) أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 279.

(2) مجهول، مفاخر البربر، ص 133.

(3) ابن خلدون، العبر، ج7، ص 31.

(4) أنظر، سنوسي، المرجع نفسه، ص 281-282.

قد حمل عليه جعفر بن علي، فأهداه جعفر إلى محمد بن الخير فأرسل به زيري إلى معد وبعث إليه بكتب أصابها في بيت ابن خزر بخط جعفر بن علي يكاتب بها زناتة ويطلعهم على عورات زيري ويحذرهم منه متى اطلع أنه يريدهم"[1] .

غضب الخليفة المعز لدين الله، من موقف جعفر بن علي المعارض للفاطميين وبالأخص عندما اكتشف تواطئه مع زعيم زناتة ، المؤيد لأعدائه الأمويين بالأندلس، ولذلك توعده بالقتل ، وأرسل إليه كتابا يعزله فيه عن ولاية المسيلة ، ويأمره في نفس الوقت بالعودة مع أهله وماله وولده على جناح السرعة إلى المنصورية عاصمة الدولة الفاطمية، وكان المعز قد ضمن رسالته إلى جعفر ، فصلا يتهكم فيه على موقفه مع بطون زناتة ، إذ يعزيه على مقتل خليله محمد بن الخير الزناتي ، ويخبره عن الفرس التي آثرها له على نفسه ومما جاء بهذا الصدد قوله : " أعظم الله أجرك في خليلك فقد أجاد قتالنا على الفرس الذي كنا حملناك عليه وآثرناك به على أنفسنا" [2] ، ولما أيقن جعفر بن علي، بالموت الذي ينتظره بادر بالخروج من المسيلة مع أخيه يحيى وجميع أهله وماله وولده وعبيده في جمادى الآخرة سنة 360هـ/أيلول 971م [3] ، واتجه صوب مضارب بني خزر أمراء زناتة بالمغرب الأوسط، القائمين على دعوة الخليفة الحكم المستنصر بالعدوة المغربية فانضم إليهم، وخلع طاعة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي[4] .

حاول زيري بن مناد الصنهاجي، أخذ زمام المبادرة ، لتشتيت شمل أمراء زناتة ، قبل أن تجتمع إليهم بقية البطون الزناتية ، والقبض على حليفهم الجديد جعفر بن علي، وتقديمه هدية إلى المعز لدين الله الفاطمي، ولذلك خرج إليهم في شهر رمضان سنة 360هـ/كانون الأول 971م، والتقى الجمعان بالقرب من ملوية، ودارت رحى معركة حامية الوطيس، فكبا في أثناء القتال فرس زيري بن مناد، وألقاه على الأرض ، ورغم محاولة رجال صنهاجة في تخليصه، إلا أن سيوف

---

[1] المقتبس، تحقيق عبد الرحمن الحجي، ص 35.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 36.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 36.

[4] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 242؛ مجهول، مفاخر البربر، ص 133.

الزنـاتيين كانـت أسـرع إليـه، فقتلـوه واحتـزوا رأسـه [1] ، وأنفذوه مـع يحيـى بـن علـي أخـي جعفـر، وطائفـة مـن وجـوه زناتـة إلـى خليفـة الأنـدلس، الحكـم المستنصـر، الـذي فـرح بهـذا النصـر وأرسـل الأموال والخلع إلى أمراء زناتة بالعدوة المغربية [2] . وهكذا فقد قتل زيري بن مناد زعيم صنهاجة علـى أيدي رجال زناتة ثأرا لمقتل زعيمها محمد بـن الخير، الـذي مضـى علـى قتلـه أقل مـن خمسـة أشهر [3] .

وصل يحيى بن علي برفقة ، وفد بني خزر، أمثال عبدون بن محمد بن خـزر، ومسعود بـن عطية بن عبد الله بـن خـزر، ومقاتـل بـن أبـي خـزرون بـن أبـي عبد العزيـز بـن خـزر، إلـى مرسـى "محملة" بالقرب من بجانة في طريقهم إلـى قرطبـة ، وكـانوا يحملـون معهم راس زيـري بـن منـاد، ورؤوس بعض رجالات صنهاجة ، لتقديمها إلى الخليفة الحكم المستنصـر، وقدم علـيهم هنـاك علـي البغدادي كاتب جعفر بن علـي ، يعلمهم بقبول خليفـة الأنـدلس ، ولاء آل حمدون وطـاعتهم ، الـذي كان جعفر بن علي قد أرسله من أجل الحصول علـى هذا المطلب، ومـا ان وصـل يحيـى بـن علـي وجماعة بني خزر إلى ميناء المرية في شوال سنة 360هـ/ كـانون ثـاني 971م ، حتـى أمـر الخليفـة الحكم المستنصر بتشكيل وفد كبير مـن رجـال دولتـه لاستقبالهم والترحيب بهم ، حيث خـرج إلـيهم ناجيت بن محمد وأحمد بن عبد الملك صـاحب المخذول ومعهما هدية تتألف من ثمانية وستين فرسـا لركوبهم ، ونحـو مائـة وخمسين مـن البغـال لحمـل أثقـالهم وضـروب مـن الوطـاء والغطـاء والقبـاب والخيم [4] .

---

[1] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 36-37؛ وحسب ابن حيان أن بلكين بن زيري كان غائبا في أقاصي عمله، أثناء مبادرة أبيه زيري لحرب زناتة وجعفر بن علي، ولذلك، لم يتمكن من حضور المعركة التي قتل فيها أبيه زيري (المقتبس ، عبد الرحمن الحجي، ص 37).

[2] مجهول ، مفاخر البربر، ص 134.

[3] مجهول، المصدر نفسه، ص 333.

[4] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 39-40.

ومـا أن علـم جعفـر بـن علـي الـذي مـا زال بالعـدوة المغربيـة ، قبـول طاعتـه لـدى الحكـم المستنصر، حتـى بـادر العبـور بنفسـه إلـى الأنـدلس بعد شـهر واحد فقط مـن وصـول أخيـه والوفـد المرافق إلى بلاط قرطبة لاحقا بهم [1] ، فنزل بمرسى " بزليانة" [2] بكورة رية، ومعه أهله وولده وعبيده وخواص رجاله، فأمر الخليفة الحكم المستنصر، في ذي القعدة سنة 360هـ/شباط 971م، صاحب السكة والمواريث قاضي إشبيلية محمد بن أبـي عـامر [3] ، بـالخروج لاستقباله ومعه هدية ثمينة من الخليفة إلى جعفر عبارة عن أربعة من عتاق الخير وبغل أشهب للركوب مسروج بسروج الخلافة ، وخمسين فرسا من جياد الخيل لحمل فرسانه، ومائتي زاملة لحمل أثقاله ، ومجموعة من الأخبية والوطاء والغطاء النفيسين ، وأنواع أخرى من الأبنية والأمتعة وما شاكل ذلك ، مبالغة من الخليفة الحكم في تكريم جعفر بن علي ورجاله [4] .

هذا، وقد أسهبت الروايات التاريخية في وصف مراسيم استقبال جعفر بن علي، وما ناله من حفاوة بالغة عند وصوله إلـى الأنـدلس[5] إذ أمر الخليفة الحكم المستنصر، بأن يقام لـه استقبال رسمي، فجلس على السرير بقصر الزهراء جلوسا بهيا [6] ، ومن حوله رجالات دولته من حجاب ووزراء وقواد وأهل العلم والفقه ، والعدول وغيرهم ، من أهل الخدمة ، إضافة إلى عمال الأقاليم

---

[1] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 41؛ ويرد ابن خلدون قرار جعفر بن حمدون في العبور إلى الأندلس بهذه السرعة ، بسبب تغير نفوس زناتة عليه (العبر، ج7، ص 31)؛ ويؤكد ابن حيان ذلك بقوله: " مملصا عن برابرة زناتة " (المقتبس، عبد الرحمن ، ص 41).

[2] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 41؛ بزليانة Ventas de Bezmiliana قرية على ساحل البحر الأبيض المتوسط أي على الساحل الأندلسي الشرقي، وهي تبعد عن مالقة (Malage) ثمانية أميال (ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 41 هامش 1).

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 41؛ وهو محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري، الملقب بالمنصور ، كان جده عبد الملك قد دخل إلى الأندلس في أوائل الفتح الإسلامي ، وسكن بنو عامر الجزيرة الخضراء (Algeiras) قرب جبل طارق، وولد بها ثم قدم إلى قرطبة وهو حدثا فتعلم فيها، وتقرب من الحكم المستنصر حتى ولاه عدة مناصب ، وأصبح من رجالات الدولة الأموية الكبار، وبعد وفاة الخليفة الحكم سنة 366هـ/976م ، استطاع الاستيلاء على السلطة وبقي هشام المؤيد، ابن الحكم إلى فترة صاحب السلطة الشكلية بالاندلس (ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 41-42، هامش 3).

[4] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 42.

[5] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 37-61؛ ابن عذاري، البيان، ج2، ص 243-244.

[6] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 244.

وقادة الثغور الذين جاءوا لمشاهدة هذا الحفل الكبير ، فقد رتبت الجيوش بمختلف فرقها وصنوف أسلحتها وملابسها المتباينة من رجالة وخيالة وفتيان وفرسان، إلى كتائب مصففة ومنظمة تنظيما عسكرياً جميلاً ، فدخل أولا جند دمشق وهم أهل كورة البيرة، تلاهم جند حمص وهم أهل كورة اشبيلية ، وبعدهم جند قنسرين وهم أهل كورة جيان، ثم جند فلسطين وهم هل كورة شذونة، وأخيرا جند الأردن وهم أهل كورة رية، وقد شدت هذه المناظر البديعة بعض الشعراء ، فنظموا قصائد كثيرة بهذه المناسبة [1] .

ولما استقر جعفر ويحيى ابنا علي ، بمنزليهما اللذين أعدا لهما بقرطبة ، أمر الحكم المستنصر بأن يجري لكل واحد منهما ، ألف دينار من الدراهم في الشهر ، فضلا عن نفقات القمح وغيره[2] ، كما أجرى على جماعة بني خزر كثيرا من الأموال والأرزاق " ما يفيض ولا يغيض" [3] ، وأرسل إلى زناتة بالعدوة المغربية – وخاصة فرع بني خزر- أموالا جزيلة وخلعا كثيرة، مكافأة لهم على هذا الانتصار[4] .

وصلت الأخبار إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، بحدوث هاتين النكبتين معا وهما، خلع جعفر بن علي الأندلسي، طاعة الفاطميين، وانضمامه إلى الزناتيين أنصار بني أمية بالعدوة المغربية ، ومقتل حليفه زيري بن مناد زعيم صنهاجة البرنسية ، بعد هزيمة أفراد قبيلته

---

[1] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 45-57؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 195-196، وقد مدح الشاعر يوسف بن هارون الخليفة الحكم بهذه المناسبة بقوله (البحر الكامل):

ولقد عجبت لغفلة المستنصر   إذ أكثف الجيش اللهام لجعفر

ولو أن من أهواه ابرز وجهه   قامت لواحظه مقام العسكر

(ابن عذاري، البيان، ج2، ص 244).

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 53؛ وقد اشاد الشاعر محمد بن شخيص ، بحسن كرم الخليفة الحكم مع جعفر وأخيه يحيى بقوله (الطويل):

تلقاهما من بره واصطناعه   عوائد جم الصنع جزلة الصنائع

(ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 53).

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 53.

[4] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 53.

الصنهاجيين ، مما أثر ذلك في نفس المعز وأزعجه [1] ، فما كان منه إلا أن عجل بتقليد بلكين بن زيري أعمال أبيه في منطقة " أشير" ، وأضاف له مدينة تاهرت ، وأمده بالأموال ، وبعض جنود كتامة ، وأمره بحرب زناتة في المغرب الأوسط ، وأعطاه كل المناطق التي يستولي عليها من ايدي الزناتيين [2] ، فخرج بلكين بن زيري من إفريقية إلى المغرب الأوسط في أوائل سنة 361هـ/ 972م، وأخضع قبائل البربر في طريقه " وتعدى أعمال طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة ، وأجفلت زناتة أمامه، وتقدم إلى تاهرت فمحا من المغرب الأوسط، آثار زناتة ولحق بالمغرب الأقصى"[3].

ويبدو أن سوء أوضاع الفاطميين السياسية في بلاد المغرب ، وما أصابها على أيدي الزناتيين حلفاء بني أمية بالأندلس، وبخاصة بعد خروج أنصارهم الكتاميين إلى مصر ، هي التي دعت الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، بأن يسارع للاستجابة إلى طلب قائده جوهر الصقلي ، الذي أرسل إليه يخبره بإقامة الدعوة الفاطمية على منابر مصر والشام، ويدعوه للقدوم إلى مصر[4] ، ولذلك قام المعز لدين الله الفاطمي بدوره ، باستدعاء بلكين بن زيري الذي كان ما يزال يتتبع بطون قبائل زناتة بالمغرب الأقصى، واستخلفه على إفريقية والمغرب وترك بعدها عاصمته المنصورية، راحلا إلى مصر يوم الاثنين لثمان بقين من شهر شوال سنة 361هـ/ كانون ثاني 972م [5] .

وهكذا، انتهت المرحلة الأولى من تاريخ الدولة الفاطمية التي قضتها ببلاد المغرب، بمساندة قبيلة كتامة البرنسية لها، في صراع دائم مع القبائل المغربية خاصة منها زناتة البترية ، التي كان أمويو الأندلس يقفون وراءها في غالب الأحيان [6] ، وكان للتحالف الذي نشأ بين زعماء زناتة وخلفاء قرطبة الأمويين، أثره على قبيلة زناتة نفسها، فمن جهة فقد ازداد حقد الفاطميين على زناتة

---

[1] مجهول، مفاخر البربر، ص 135.

[2] ابن خلدون، العبر، ج7، ص 31.

[3] ابن خلدون ، المصدر نفسه، ج7، ص 31.

[4] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 315.

[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 228؛ إدريس، عيون الأخبار، ج5، ص 717.

[6] أنظر، محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 240.

بسبب وقوفها أمام رغبة الفاطميين لمد نفوذهم على المغربين الأوسط والأقصى، وقد استخدمت زناتة رأس حربة للأمويين في صراعهم مع الفاطميين ، وأقامتها الدعوة لخلفاء بني أمية على أراضي المغربين الأوسط والأقصى ، ومن جهة أخرى ، فقد كان هذا التحالف وبالا على زناتة ، لأن حلفاء قرطبة لم يمدوا قبيلة زناتة بالمساعدات العسكرية المباشرة، للوقوف أمام هجمات الفاطميين وأنصارهم الكتاميين، ولذا ، انهزمت زناتة في الكثير من معاركها، وكلما هزمت زناتة على أيدي الفاطميين عبرت بعض بطونها إلى الأندلس، وشجع خلفاء قرطبة فرسان زناتة على العبور اليهم ، واعتمدوا عليهم في كثير من حروبهم مع النصارى، مما أدى إلى تناقص أعداد زناتة بالمغرب ، وبالتالي ضعف قوتها ، وهو الأمر الذي أعطى الفرصة لقبيلة صنهاجة التي أصبحت صاحبة السلطة ببلاد المغرب، كنائبة فعلية للدولة الفاطمية ، بعد رحيل الخليفة المعز لدين الله إلى مصر ، في أن تلحق الهزائم ببطون زناتة وتشردها في الصحاري[1] .

وعلى الرغم من مساعدات صنهاجة التي قدمتها للفاطميين وأنصارهم الكتاميين في صراعهم مع أمويي الأندلس، وحلفائهم الزناتيين طيلة وجود الدولة الفاطمية في إفريقية ، إلا أن الدور البارز لقبيلة صنهاجة ، برز بشكل فعلي عقب رحيل المعز لدين الله إلى مصر ، وتقلدها نيابة إفريقية والمغرب من قبل الشيعة الفاطميين.

---

[1] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 305.

الفصل الرابع

دور صنهاجة وزناتة في العلاقات الفاطمية والأموية بعد انتقال الخلافة الفاطمية لمصر، ونيابة بني زيري لإفريقية

(361- 422هـ/972-1031م)

- صنهاجة منذ قيام الخلافة الفاطمية وحتى تولية بلكين بن زيري على بلاد المغرب (297-361هـ/910-972م)
- موقف بلكين بن زيري الصنهاجي من زناتة وأثره في العلاقات الفاطمية والأموية (361-372هـ/972-984م)
- زيري بن عطية المغراوي ودوره في العلاقات في عهد المنصور وابنه باديس ابني زيري (373-406هـ/984-1015م)
- نزاع صنهاجة وزناتة وأثره في العلاقات في عهد المعز بن باديس إلى نهاية الخلافة الأموية بالأندلس (406-422هـ/1016-1031م)

حلت قبيلة صنهاجة البرنسية ، محل نظيرتها قبيلة كتامة على سيادة أرض المغرب [1] ، عقب رحيل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر سنة 361هـ/ 972م ، وقد استأنفت هي الأخرى دورها الإيجابي في الدفاع عن مصالح الفاطميين بالعدوة المغربية ، تحت مظلة الشرعية الدينية والسياسية ، بصفتها نائبة فعلية للفاطميين على أرض إفريقية والمغرب ، بعدما اعتنقت المذهب الشيعي الإسماعيلي، وانضوت تحت راية الخلفاء الفاطميين ، وكانت قبيلة كتامة قد أكملت مهمتها في الدور الأول من تاريخ الخلافة الفاطمية بالمغرب، عندما دافعت عنها ضد قبائل البربر عامة وضد زناتة منهم خاصة ، فهي التي احتضنت الدعوة الإسماعيلية الشيعية ، منذ قدوم أبو عبد الله الشيعي مع وفد حجاجها من الحجاز ، ولم يلبث أن اصبح الكتاميون يشكلون نواة الجيش الفاطمي، الذي خاض غمرة الحروب الداخلية والخارجية من أجل الحفاظ على كيان الخلافة الفاطمية ، ولم يتوقف دور كتامة عند هذا الحد، بل انتقلت مع الفاطميين إلى مصر للعمل في مجال الخدمة العسكرية ، إضافة إلى بعض الأعمال الإدارية.

وكان الفاطميون قد كسبوا ولاء صنهاجة منذ عصر القائم بأمر الله الفاطمي، ورسخت العلاقة بينهما، على أثر المساعدة العسكرية التي قدمها زيري بن مناد، زعيم قبيلة صنهاجة للفاطميين أثناء ثورة أبي يزيد الزناتي [2] ، والتي سنحت للبعض تسميته بمنقذ الخلافة الفاطمية، واستمرت المساعدات العسكرية من قبل زيري بن مناد في عهدي المنصور بالله الفاطمي، وابنه المعز لدين الله، إلا أنها كانت بصورة متقطعة، تفرضها طبيعة المصلحة المشتركة لكلا الطرفين وأما الدور البارز الذي قامت به قبيلة صنهاجة لمصلحة الفاطميين ، كان في المرحلة الثانية من خلافة المعز لدين الله الفاطمي، الذي ولى زعيمها بلكين بن زيري نائبا على بلاد المغرب قبل انتقاله إلى مصر سنة 361هـ/972م، وظلت صنهاجة تدافع عن مناطق نفوذ الفاطميين بالمغرب ضد الزناتيين حلفاء بني أمية بالأندلس، إلى نهاية حكم الخلافة الأموية بالأندلس سنة 422هـ/1031م.

---

[1] أنظر ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج3، ص 506.

[2] أنظر، لقبال، دور كتامة، ص 432.

* صنهاجة منذ قيام الخلافة الفاطمية وحتى تولية بلكين بن زيري على بلاد المغرب (297-361هـ/910-972م)

تعود أول إشارة تاريخية ، حول مشاركة صنهاجة في العمل السياسي إلى جانب الدويلات الإسلامية التي قامت بالمغرب ، قبل ظهور الخلافة الفاطمية، إلى عهد دولة الأغالبة ، حينما انضم إليها زعيم صنهاجة آنذاك ، وهو مناد بن منقوش بن صنهاج الأصغر، حيث " ذكر بعض مؤرخي المغرب – كما يشير ابن خلدون- أن مناد بن منقوش ملك جانبا من إفريقية والمغرب الأوسط مقيما لدعوة بني العباس، وراجعا إلى أمر الأغالبة". [1]

ويتضح من هذه الرواية، أن صنهاجة كانت تدين بالمذهب السني قبل ظهور الشيعة الفاطميين في إفريقية، كما أن هذه الرواية تدعونا إلى التساؤل عن حقيقة موقف صنهاجة من الدعوة الشيعية الإسماعيلية، التي تبنتها قبيلة كتامة ، والتي قامت بدورها بالقضاء على دولة الأغالبة بإفريقية ، ولم تكشف لنا مصادر المغرب والأندلس عن أي دور يذكر لصنهاجة في محاولة الدفاع عن دولة الأغالبة ، ضد أبي عبد الله الشيعي، وحليفته قبيلة كتامة، ويمكن تسويغ حقيقة موقف صنهاجة في إطارين أساسيين ، الأول منهما، المصلحة السياسية لقبيلة صنهاجة التي تطلبت منها الدخول بالمذهب السني، وإعلان ولائها لدولة الأغالبة التي تقيم الدعوة السنية بالمغرب ، لصالح الخلافة العباسية ببغداد، وبمعنى آخر، أن علاقة صنهاجة بالأغالبة لم تتعد كونها أرادت الحصول على اعتراف سياسي بخصوص المناطق التي تحتلها بالمغرب ويؤكد ذلك سرعة انضمام صنهاجة للفاطميين بعد سقوط دولة الأغالبة .

وأما الإطار الثاني، فإن صنهاجة أدركت أن أبا عبد الله الشيعي لا يمثل سوى فرد يدعو لمذهب الشيعة الإسماعيلية ، وأن قبيلة كتامة هي الأداة الفعلية لإنجاح ذلك المذهب، لذلك فضلت

---

[1] ابن خلدون، العبر ، ج6، ص 154.

عدم التدخل ، ولزوم جانب الحياد عند مهاجمة كتامة للأراضي التابعة لبني الأغلب ، وذلك خوفا من الوقوع في صراع قبلي شاق ومضني ، وبخاصة أن صنهاجة تقدر مدى قوة كتامة.

ونستشف من حديث ابن خلدون عن قبيلة صنهاجة في أوائل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، أن وفاة مناد بن منقوش الصنهاجي كانت مع بداية قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب سنة 297هـ/910م، وخلفه عندئذ على زعامة قبيلة صنهاجة ابنه زيري بن مناد [1] ، الذي يرجع إلى عهده أول اتصال حصل بين الفاطميين والصنهاجيين ، ويظهر أن زيري بن مناد كان طموحا لتوسيع منطقة نفوذه، فبعد أن اجتمعت صنهاجة ومن والاها بالمغرب على طاعته، قاد تلك الجموع وأغار على المناطق المجاورة له، وتمكن من الاستيلاء على بعضها. ويبدو أن هذا العمل لم يعجب قبيلة زناتة البترية فأخذت تعد العدة لمحاربته [2] ، ولا بد قبل الدخول في حلقة الصراع بين الزناتيين والصنهاجيين ودورهما في العلاقات السياسية بين الفاطميين والأمويين، التعرف أولا على مجمل الآراء التي تفسر العداء بين القبيلتين ، ومن ثم أسباب التقارب الذي نشأ بين صنهاجة والدولة الفاطمية.

وأول تلك الآراء يرجع إلى الصراع التقليدي بين البتر والبرانس ، أي بين مفاهيم متناقضة لأسلوب ونمط الحياة، اللتين حددتهما طبيعة الأرض والمناخ [3] ، فالبتر الزناتيون ، يمثلون البدو؛ والصنهاجيون البرانس يمثلون الحضر.

وأما الرأي الآخر، فإنه يفسر ذلك بسبب مجاورة قبيلتي صنهاجة وزناتة لبعضهما ، إذ إن حدود مغراوة الزناتية ، تلتقي مع حدود صنهاجة من جهة المغرب الأوسط [4] ، مما كان عاملا قويا لنشوب الحروب والفتن بين القبيلتين قبل قيام الخلافة

---

[1] العبر ، ج6، ص 154.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 333.

[3] أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 301.

[4] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 154.

الفاطمية [1] . ويدل هذا العامل على محاولة توسع كل من القبيلتين على حساب أراضي القبيلة الأخرى، وهو الأمر الذي تعتبره كل منهما انتهاك لسيادتها، ولذا، فإن هذا السبب يعد من أهم الأسباب التي أدت إلى قيام النزاعات والحروب بين قبائل البربر بصورة عامة على أرض المغرب.

وبالنظر إلى الاعتبارين معا، يتضح أن الاختلاف في نمط الحياة، أو ما قد تحدثه مجاورة كلتا القبيلتين ، يعدان محركا رئيسيا لأسباب أخرى يمكن أن تؤدي إلى زيادة العداء والفرقة بين هاتين القبيلتين ، فالاعتبار الأول، يدخل في أساس التقسيم الاجتماعي ، وبمعنى أدق نظرة تفوق كل قسم على الآخر، بما لديه من المبررات الاجتماعية بأن وضعه الاجتماعي أفضل من الآخر، سواء كان من البتر البدو أو من البرانس الحضر، فهو يفتخر بأنه لا ينتمي إلى القسم الآخر الأقل مكانة اجتماعية منه حسب رأيه، وأما الاعتبار الثاني، فإنه يمثل صراع البقاء بالنسبة لأفراد القبيلة، والذي يبدأ حسب اعتقاد أي من الطرفين ، بانتهاك سيادة الأرض ، فأي انتصار تحرزه قبيلة على الأخرى ، بالاستيلاء على أجزاء من أراضيها، مهما كان حجمه ، يعد بداية تهديد لبقاء القبيلة المنافسة الأخرى ، إضافة إلى النزعات الإنسانية بصورة عامة، التي تتولد في النفس والتي تدعوه لعدم القبول بمثل هذا التصرف ، مثل الأنفة، وعدم الخضوع وما شابه ذلك.

ويرجع ابن خلدون سبب التقارب السريع الذي حصل بين قبيلة صنهاجة والفاطميين ، إلى ولائها المزعوم لعلي بن أبي طالب، ويسوق تلك الرواية عند مفرد حديثه عن زيري بن مناد زعيم صنهاجة بقوله: " ولما استوقف الملك للشيعة بإفريقية تحيز إليهم، للولاية التي لعلي رضي الله عنه فيهم" [2] .

وعلى الرغم من أن هذا الولاء، يمكن أن يكون قد ابتدعه الفاطميون لإيجاد رابطة دينية تعزز العلاقة بينهم وبين الصنهاجيين ، إلا أن ذلك لا يمنع من أن زيري بن مناد كان لديه مصالحه الخاصة من الموالاة والتقرب إلى الفاطميين ، فإذا لم تكن المكاسب المادية التي سيحصل عليها من

---

[1] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 154.

[2] العبر ، ج6، ص 154؛ سبق وأن ناقشت هذه القضية في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

جراء هذا التقارب سببا في ذلك، فإن توحيد الجبهة ضد زناتة العدو التقليدي لصنهاجة سيكون حتما مطلبا وهدفا أكيدا، لزيري بن مناد زعيم صنهاجة، وقد كشف ابن خلدون عن الهدف الأخير بقوله: " واستطال (زيري) بهم (يقصد الفاطميين) على عدوه من مغراوة فكانوا ظهرا له عليهم" [1] ، فقول ابن خلدون هذا يؤكد أن زناتة تعتبر عدوا مشتركا بالنسبة للفاطميين والصنهاجيين، يجب توحيد الصفوف من أجل مواجهته ، وبخاصة أن خطر زناتة في العدوة المغربية ، يحظى بتأييد ودعم الدولة الأموية السنية بالأندلس ، فولاء صنهاجة بالنسبة للفاطميين في هذه المرحلة ، يعني حدوث توازن سياسي بين الدولتين الأموية والفاطمية، وأما بالنسبة للصنهاجيين فإنه سوف تضفي على مناطق نفوذها نوعا من الاعتراف السياسي الرسمي من دولة لها كيانها الخاص بالمغرب، إضافة إلى حصولها على الشرعية الدينية من قبل خلافة إسلامية شيعية ، توازي بها نظيرتها زناتة.

وكان زيري بن مناد قد استولى على معظم المناطق التي تجاوره، فأثار هذا العمل غضب زناتة وحسدها ، وأصبحت تعد له العدة لمحاربته، ولما علم زيري بنوايا زناتة ، بادر بالمسير إليهم ليلا وهم في غفلة من أمرهم ، وهاجمهم بأرض مغيلة فقتل الكثير منهم، وغنم ما بحوزتهم [2] ، ويبدو أن هذه الحادثة كانت بداية النزاع بين صنهاجة وزناتة بعد قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب ، وبالتالي رفعت من مكانة زيري بن مناد، والتحق به العديد من بطون قبائل البربر الأخرى على أثرها، حتى ضاقت بهم بلاده، فأخذ يبحث عن مكان آخر يتسع لهذه الجموع التي انضمت إليه، فاستقر رأيه على موضع مدينة أشير ، لوفرة المياه فيه إذ يتصف بكثرة العيون واتساع رقعته، فبنى حيئذ مدينة أشير مقرا دائما له، ولأفراد قبيلته صنهاجة

---

[1] العبر، ج6، ص 154.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 333.

سنة 324هـ/936م [1] ، وأمده القائم بأمر الله الفاطمي بمواد البناء والحديد والبنائيين والصناع [2] ، ويعلل ابن الأثير سبب تلك لمساعدة من قبل القائم الفاطمي بقوله: " وكانت زناتة تفسد في البلاد فإذا طلبوا احتموا بالجبال والبراري ، فلما بنيت أشير صارت صنهاجة بين البلاد وبين زناتة والبربر، فسر بذلك القائم"[3] .

وعلى هذا الأساس، فإن صنهاجة شكلت حاجزا بشريا وجغرافيا بين زناتة بالمغرب الأوسط وبين المناطق الخاضعة للفاطميين بإفريقية ، كما أن الإشارات التاريخية لم تتحدث عن اتصال جرى بين صنهاجة والفاطميين قبل بناء مدينة أشير سنة 324هـ/936م، ولذلك يمكن اعتبار نفس العام الذي بنيت فيه المدينة ، بداية العلاقة بين زيري بن مناد زعيم صنهاجة ، وبين الفاطميين زمن خلافة القائم بأمر الله، ثم توقفت الروايات عن ذكر وجود أي دور إيجابي وفعال لصنهاجة قامت به لصالح الفاطميين ، حتى سنة 333هـ/945م، عندما قدم زيري بن مناد أعظم مساعدة للدولة الفاطمية ، أثناء محاصرة أبي يزيد للمهدية عاصمة الدولة، والذي استحق على أثرها بأن يسمى منقذ الخلافة الفاطمية [4] . وقد أشار ابن خلدون إلى تلك المساعدة بقولـه : " ولما كانت فتنة أبي يزيد، والتاث أمر العبيديين بالقيروان والمهدية كان لزيري بن مناد منافرة إلى الخوارج أصحاب أبي يزيد وأعقابهم وتسريب الحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان [5] . وقد عبر أحد الباحثين عن مساعدة صنهاجة الفاطميين أثناء ثورة أبي يزيد بأنها كانت " مدد على غير انتظار" [6] ، وتقف الإشارات التاريخية مرة أخرى ، عن ذكر دور صنهاجة إلى جانب الفاطميين حتى بداية خلافة المنصور بالله الفاطمي، إذ تشير إلى أن أول اتصال بين زيري بن مناد والمنصور بالله

---

[1] ابن الأثير ، الكامل، ج7، ص 333؛ وحسب صاحب كتاب الاستبصار فإنها تعرف بأشير زيري (كاتب مراكشي، ص 170).

[2] ابن الأثير ، الكامل ، ج8، ص 224.

[3] الكامل، ج7، ص 333.

[4] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 217.

[5] العبر ، ج6، ص 155.

[6] أنظر ، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 260.

الفاطمي ، في أثناء مطاردة الأخير لأبي يزيد الزناتي في بلاد المغرب ، فلما وصل المنصور بالله إلى بلاد صنهاجة سنة 335هـ/ 946م [1] ، وبالتحديد إلى موضع يسمى قرية دمرة [2] ، اتصل به هناك زيري بن مناد بعساكر صنهاجة [3] ، وظل معه إلى أن عاد المنصور بالله من المغرب، بعد قضائه على ثورة أبي يزيد ، فكافأه حينئذ ببعض الهدايا الثمينة ، وبتعيينه قائدا على قومه، وعقد له أيضا على تاهرت وأعمالها[4] .

وعندما قدم المعز لدين الله الفاطمي إلى المغرب الأوسط، في بداية خلافته سنة 342هـ/ 953م ، لإخضاع بطون زناتة المتمردة هناك، سارع زيري بن مناد إلى الانضمام إليه وتقديم المساعدة له ضد زناتة ، فكافأه المعز لدين الله بأن ولاه على اشير وأعمالها، وعاد بعد ذلك إلى إفريقية [5] ، ويبدو أن زيري ارتأى عقب هذه الحملة ، أن يحكم مضارب زناتة بالمغرب الأوسط ، ومن أجل ذلك، أمر ابنه بلكين بإعادة تجديد بناء مدينة الجزائر الساحلية المنسوبة لبني مزغنة ، ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من نهر شلف ومدينة لمدية، التي أخذت اسمها من أحد بطون صنهاجة ، وأقيمت الدعوة للفاطميين على منابر هذه المدن [6] ، كما سار زيري مع جوهر الصقلي إلى المغرب الأقصى سنة 346هـ/ 958م، فكان سببا في فتح مدينة فاس التي استعصت على جوهر قائد الفاطميين ، فارتفع بعدها شأنه في الدولة الفاطمية، وأضاف إليه جوهر ولاية تاهرت إلى اشير وأعمالها ، فاتسعت بذلك مناطق نفوذه بالمغرب[7] .

وكانت زيادة المكانة السياسية التي حظي بها زيري بن مناد لدى الفاطميين، نتيجة للخدمات التي قدمها في تثبيت دعائم خلافتهم على أرض المغرب عبر فترات تاريخية متقطعة من قيام

---

[1] ابن ابي دينار، المؤنس، ص 94.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 199؛ وأورد السراج هذه القرية باسم " عمرة " (الحلل السندسية، ج2، ص 28).

[3] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 199.

[4] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص155.

[5] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 94.

[6] ابن خلدون، العبر، ج6، ص155.

[7] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 94.

الخلافة الفاطمية ، سببا رئيسيا في المنافسة بينه وبين جعفر بن علي الأندلسي ، والي الفاطميين على المسيلة ، وأدت تلك المنافسة السياسية بينهما إلى ضغائن في النفوس وإلى الحسد، وحاول كل منهما التفرد بنصيب أكبر في الولاية ، وكان جعفر يتولى إضافة إلى المسيلة عمل بلاد الزاب ويخطب في بلاده للدولة الشيعية الفاطمية[1] .

ولما عزم المعز لدين الله على الرحيل إلى مصر، شاع بين أوساط العامة أن المعز يريد أن يولي بلكين بن زيري على جميع بلاد إفريقية ، فأثر ذلك في نفس جعفر بن علي الأندلسي، ووافق أن المعز أرسل إلى جعفر يأمره بالقدوم إلى المنصورية عاصمة الدولة الفاطمية ، وحاول جعفر مماطلة تنفيذ الأمر ، ولكن المعز كرر إرسال الرسل في طلبه، ولم يبق أمام جعفر إلا أن يخرج من المسيلة متظاهرا بالتوجه إلى إفريقية، وعندما وصل بالقرب من مضارب زناتة لجأ إليهم ، وخلع طاعة الفاطميين ، فلما بلغ الخبر إلى زيري بن مناد بادر بالخروج إليه بجموع صنهاجة ، في محاولة للقبض عليه، وتشتيت بطون زناتة الموالين لبني أمية بالأندلس [2] ، فالتقى الطرفان في معركة ضارية ، كبا خلالها فرس زيري به أثناء القتال [3] ، فقتل على أثرها وانهزمت صنهاجة أمام بطون زناتة وأمام حليفها الجديد وذلك سنة 360هـ/971م ، وبعث جعفر بن علي أخاه يحيى برأس زيري ، إلى الخليفة الحكم المستنصر ، طالبا به وده، ومعلنا له طاعته [4] .

ولم يلبث أن عبر جعفر بن علي إلى الأندلس، عندما شعر أن زناتة أضمرت الغدر به ، وعزمت على القبض عليه، لتقديمه الى بلكين بن زيري الذي أخذ يستعد لطلب دم أبيه منهم [5] ، فيذكر ابن الأثير أن جعفراً استطاع أن يفلت من زناتة بواسطة حيلة دبرها، فبعدما كان قد أقنعهم بأن يلجأوا إلى الجبال خوفا من مهاجمة بلكين بن زيري لهم بأية لحظة، كان في نفس الوقت قد

---

[1] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 94.

[2] ابن أبي دينار، المصدر نفسه، ص 94.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 334.

[4] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 94.

[5] ابن أبي دينار، المصدر نفسه، ص 95.

جهز مراكبه في البحر استعدادا للهرب، وجعل بها ماله وأهله وبقي هو مع الزناتيين مختبئا في الجبال، ولما أحدث عبيده فوضى في المركب، تنفيذا لأوامره السابقة لهم، وهو يشاهدهم من الجبال، قال لزنانة " أريد أنظر ما سبب هذا الشر، فصعد المركب ونجا معهم ، وسار إلى الأندلس" [1] ، وما كان من الخليفة الحكم المستنصر، إلا أن استقبله وخلع عليه الهدايا، وبقي جعفر بالأندلس إلى أيام الوزير المنصور بن أبي عامر، الذي قتله سنة 367هـ/ 978م، بعث رأسه إلى بلكين بعد أن اصبح نائبا للفاطميين على إفريقية والمغرب [2] .

كان بلكين بن زيري غائبا بأشير، حين قتل أبوه على أيدي الزناتيين وحليفهم جعفر بن علي، وما أن علم بالخبر، حتى خرج بجموع صنهاجة للأخذ بثأر أبيه [3] ، ووضع السيف بين رجال زناتة، فقتل أعدادا كبيرة منهم وسبى نساءهم وأطفالهم ، وأجلاهم [4] ، وأخضع مدينة تلمسان الواقعة في قلب مضارب زناتة لطاعتهم [5] ، ولما وصلت الأخبار بذلك إلى الخليفة المعز لدين الله، فرح بالانتصارات التي أحرزها بلكين على زناتة ، وأمره برد السبي والعودة إلى المنصورية، فاستجاب بلكين على الفور إلى طلب المعز لدين الله بعدما " لم يترك في المغرب عند أحد من البرابرة (الزناتيين) فرسا ولا جملا، ولم يترك إلا من يحرث ويحصد " [6] ، ووصل إلى المنصورية في وسط إشاعات كانت تتناقل على ألسنة العامة بالمغرب، بأن سبب استدعاء الخليفة المعز لدين الله له، حتى يوليه على إفريقية والمغرب، ولذلك فقد قدم له رؤساء قبائل البربر الهدايا في طريق عودته، فازدادت مكانته السياسية عما كانت عليه سابقا[7] .

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 334.

[2] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 95.

[3] ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 156.

[4] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 95 ؛ انظر، الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص 151 .

[5] أنظر، سنوسي ، زناتة والخلافة، ص 284-285.

[6] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 95.

[7] ابن أبي دينار، المصدر نفسه، ص 95.

وقد أحسن الخليفة المعز لدين الله استقبال بلكين بن زيري بالمنصورية سنة 361هـ/972م[1] وكافأه على انتصاراته ضد زناتة ، بأن قلده سيفه الخاص، وخلع عليه خلعة من لباسه، وأعطاه أربعين فرسا مسرجة بسروج من الذهب ، إضافة إلى أربعين قطعة من الثياب الفاخرة ، كما بالغ في إكرام جميع أصحابه الذين قدموا معه وخلع عليهم[2] .

كان جوهر الصقلي قائد الفاطميين ، قد نجح بفتح مصر سنة 358هـ/968م [3] ، وأسس بها عاصمة جديدة أطلق عليها اسم " القاهرة المعزية" [4] ، ورتبها إلى حارات لطوائف العسكر الذين قدموا معه من إفريقية ، كحارة زويلة ، وحارة المصامدة [5] ، وحارة كتامة [6] ، وأقام فيها أيضا الجامع الأزهر [7] ، وقد وصف أحد الباحثين هذا الحدث بأنه فريد من نوعه إذ لم يسبق لمصر أن فتحت من حدودها الغربية ، إلا في أيام الفراعنة ، حينما غزاها اللوبيون في عهد الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين [8] ، وبعد أن استقرت الأوضاع بجوهر بمصر، أرسل إلى الخليفة المعز لدين الله سنة 361هـ/972م، يدعوه للقدوم إليها[9]، مما جعل الخليفة المعز يسارع باستدعاء

---

[1] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 156.

[2] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 95.

[3] ابن أبي دينار، المصدر نفسه، ص 81.

[4] ابن أبي دينار، المصدر نفسه، ص 83؛ ومما أوردته الروايات التاريخية في سبب تسمية القاهرة " أن لما حفر الأساس حمل أحجار الأساس لجماعة وجعل لهم حبالا ، مد الأساس وجعل في الجبال أجراسا، وأمر حملة الأحجار برميها في الأساس، إذ سمعوا صوت الأجراس وقعد يرصد استحقاق الرمي ليحرك لهم الجرس ليرموا الحجارة فحط غراب على تلك الحبال، فتحركت الحبال بالأجراس فصوتت فسمع حملة الأحجار فظنوا أن المعز أشار إليهم، فرموا في ذلك الطالع، فرأى المعز أن الطالع نجم يسمى " القاهرة" يقال أنه المريخ ، فشق عليه وقال: إن الطالع القاهرة ، فسميت بالقاهرة لأنه لا يملكها إلا قاهر" (القرماني، أخبار الدول، ص 334-335).

[5] القرماني، أخبار الدول، ص 334.

[6] المقريزي، الخطط، ج2، ص 102؛ ج3، ص 29.

[7] القرماني، أخبار الدول، ص 334.

[8] أنظر، العبادي، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، ص 17.

[9] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 228.

بلكين بن زيري الذي كان قائما على حرب زناتة بالمغربين الأوسط والأقصى، ليستخلفه على إفريقية والمغرب، ويرحل بعدها إلى مصر في نفس العام الذي وصل فيه كتاب جوهر الصقلي[1] .

والرأي الراجح، أنه إضافة إلى ما ذهب إليه بعضهم من تحقيق آمال وطموحات الفاطميين في امتلاك الشرق، وإسقاط الخلافة السنية ببغداد، الذي يعتبر هدف الشيعة الأكبر [2] ، فإن موقف زناتة المعارض للوجود الفاطمي، والتي غبّرت عنه بالثورات ومن خلال الاستيلاء على الأراضي التابعة للفاطميين، وضرب مصالحهم على أرض إفريقية والمغرب ، بمساندة ودعم الأمويين غير المباشر لهم ، كان ذلك من أهم الأسباب التي دعت الخليفة المعز لدين الله إلى ترك المغرب والتوجه صوب مصر، وقد أدرك الفاطميون خطر زناتة ، وما ينجم من معارضتها لهم في صعوبة استمرار الدولة الفاطمية على أرض المغرب ، منذ بداية عهد المهدي مؤسس الدولة الفاطمية ، ولذلك أرسل حملات عسكرية في محاولة لفتح مصر ، ولكن تلك المحاولات لم تفلح في عهده ولا في عهد أبيه القائم ، ولا حتى في عهد حفيده المنصور، وظل الخلفاء الفاطميون يقاومون الزناتيين حلفاء الأمويين بالأندلس على أرض إفريقية والمغرب ، حتى نجح الخليفة المعز لدين الله في احتلال مصر، فبادر أخيرا للخروج إلى القاهرة عاصمته الجديدة ، بعد ترك ما بحوزته من بلاد المغرب تحت سيطرة صنهاجة البرنسية ، كنائبة فعلية عن الفاطميين.

ويمكن الاستدلال على صحة الرأي السابق، من خلال الرواية التي أوردها ابن الخطيب في هذا الصدد بقوله: " وكان ابتداء أمرهم (الصنهاجيين) أن معدا الملقب بالمعز لدين الله أبا تميم جبار بيت الشيعة وفحل من دون أوليهم ، لما أزمع الرحيل إلى المشرق ، وحرص على استبقاء ما حازه من ملك المغرب بإفريقية وما إليها إلى أحواز تلمسان إلى صقلية ، ليكون رداء ، ولملكه بالمشرق

---

[1] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 95.

[2] أنظر، حسن محمود، تاريخ المغرب، ص 136.

عدلا، أعمل نظره فيمن يستكفيه به، فيأمن معه بأس من بالمغرب الأقصى من ملوك زناتة ، المعقودة أيديهم بملوك بني أمية بالأندلس، أعداء الشيعة ، وأولى منافستهم" [1] .

لم يكن قرار استخلاف بلاد المغرب لإحدى القوى المحلية الموالية للفاطميين بالنسبة للخليفة المعز لدين الله، وليد ساعته ، بل أنه أجال فكره فيمن يخلفه منذ فترة سابقة [2] ، وكان أمامه ثلاثة قوى موالية له، عليه اختيار الأنسب من بينها، لتقوم من يقع عليها الاختيار في الدفاع عن مصالح الفاطميين بالمغرب ، بعد انتقالهم إلى مصر ، وكانت هذه القوى التي تنافست على نيابة بلاد المغرب هي قبيلة كتامة ؛ ووالي المسيلة الأمير جعفر بن علي؛ وقبيلة صنهاجة بزعامة بلكين بن زيري.

أما كتامة ، فرغم أنها كانت من أكثر قبائل البربر تشيعا وموالاة للفاطميين، ورغم دورها التاريخي عندما أسهمت في تأسيس الدولة الفاطمية على أرض المغرب إلا أنها لم تكن مناسبة من وجهة نظر المعز لدين الله لنيابة إفريقية والمغرب ، فمن ناحية لم تكن مضاربها مجاورة لزناتة [3]، الموالية للدولة الأموية بالأندلس؛ ومن ناحية أخرى، فإن قوة كتامة بالمغرب، لم تعد كسابق عهدها، بسبب فقدانها لرموز قادتها الذين قتلوا في حروبهم مع زناتة من أجل الذود عن كيان الخلافة الفاطمية ، ثم انتقال القسم الأكبر من فرسانها مع جوهر إلى مصر في حملته سنة 358هـ/ 968م، فكان ذلك سببا في تناقص أعداد كتامة في إفريقية ، ومما يؤكد ذلك أن ابن خلدون أشار إلى تناقص أعداد كتامة في معرض حديثه عن الحملة التي قام بها بلكين بن زيري إلى المغرب الأوسط بعد ولايته على بلاد المغرب بقوله: " واضطلع بالولاية ، وأجمع غزو المغرب فغزاه في جموع

---

[1] أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 61-62.

[2] ابن ابي الضياف ، اتحاف، ص 128.

[3] أنظر، التواتي، المرحلة الإفريقية، ص 83.

صنهاجة ومخلف كتامة" [1] فقول ابن خلدون هنا، مؤشر ملحوظ للإعداد القليلة المتبقية من قبيلة كتامة.

كما أن المعز أدرك قبل رحيله عن المغرب ، ما أضحت عليه كتامة من قلة أعدادها، وتراجع قوتها، بدليل أنه أراد أن يفرض على أفرادها بعض الضرائب ليعطي بها كمية النفقات التي يمكن أن تنجم عن تجهيز حملة جوهر إلى مصر ، وأرسل لهذه الغاية موالاة خفيفا الصقلي إلى شيوخ كتامة يعرض عليهم مطلب المعز لدين الله، ولكنهم رفضوا ذلك بقولهم : " قل لمولانا والله لا فعلنا هذا أبدا كيف تؤدي كتامة الجزية ، ويصير عليها في الديوان ضريبة وقد أعزها الله قديما بالإسلام ، وحديثا معكم بالإيمان وسيوفنا بطاعتكم في المشرق والمغرب"[2] .

ولما طلب المعز لدين الله شيوخ كتامة ليستفسر عن حقيقة جوابهم لمولاه خفيف قالوا له: "هذا جواب جماعتنا ما كنا يا مولانا بالذي يؤدي جزية تبقى علينا"[3] ، فكان رد المعز على شيوخ كتامة دليلا أكيدا على عدم نيته في استخلافهم ، حينما قال: " بارك الله فيكم فهكذا أريد أن تكونوا ، وإنما أردت أن اختبركم فانظر كيف انتم بعدي" [4] . ويمكن الاستنباط من جواب المعز الأخير لشيوخ كتامة، نتيجتين ، أولهما، أنه لم يكن ينوي تولية كتامة ، بدليل أنه جعل هذا المطلب من كتامة بمثابة اختبار على مستقبلها في ظل السلطة السياسية الجديدة التي ستنوب عن الفاطميين ، وأما النتيجة الثانية، أنه لم يكن راضيا عن جواب كتامة ، ولكنه فضل عدم اتخاذ إجراء عسكري، بحقها خوفا من ردة فعل فرسانها المشاركين بالجيش الفاطمي المتوجه إلى مصر ، ولذلك جاء جوابه هذا، عقابا غير مباشر ومبكر في نفس الوقت لكتامة على رفضها ، لمطلبه ، إذ توقع المعز

---

[1] العبر ، ج6، ص 156.

[2] المقريزي، الخطط، ج2، ص 35.

[3] المقريزي ، المصدر نفسه، ج2، ص 36.

[4] المقريزي، المصدر نفسه، ج2، ص 36؛ أنظر، ابن أبي الضياف، إتحاف، ص 128؛ في حين يرى البعض أن جواب كتامة للمعز كان بسبب تغير ولاءها تجاه الفاطميين (أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 191)؛ والتي اصيبت بالفتور منذ فترة سابقة ولذلك لم يستخلفها المعز (أنظر، التواتي، المرحلة الإفريقية، ص 83).

فيما يبدو سرعة استجابتها لهذا المطلب ، نظرا لقلة عددها وضعف سطوتها بعد طول المدة التي أمضتها تقاتل زناتة إلى جانب الفاطميين.

ومختصر القول، أن المعز لدين الله الفاطمي، قد أدرك أن كتامة لن تفي بالغرض المنشود للفاطميين، فيما إذا استخلفها على بلاد المغرب ، فالجيل الأول المحارب والذي كان عليه الاعتماد ، أصبح القسم الأكبر منه غير موجود بعد أن فني من جراء حروبه مع زناتة، وأما القسم القليل المتبقي فإنه شكل أساس جيش جوهر الصقلي الذي يريد فتح مصر، فأثر هذا الوضع المتردي للجيل الأول من كتامة ، على نشأة جيلها الثاني، إذ أضحى بعيدا عن الدولة [1] ، ولذلك لم يعد يجد المعز لدين الله دورا لكتامة بالمغرب يمكن الاستفادة منه، غير المساعدة المالية لخزينة الدولة الفاطمية ، عن طريق دفعها الضرائب ، وقد رفضت كتامة من جانبها المشاركة في هذا الدور لأنها اعتبرته امتهان لكرامتها.

وأما والي المسيلة الأمير جعفر بن علي، فإنه كان من المرشحين الأقوياء لنيابة بلاد المغرب، وذلك لما يتمتع به من ولاء قديم للفاطميين يرجع إلى عهد أبيه علي بن حمدون ، ثم للمكانة السياسية التي كان يتمتع بها جعفر بن علي بالمغرب الأوسط، إضافة إلى وقوفه أمام هجمات زناتة ضد الدولة الفاطمية ، فكما تورد الروايات التاريخية [2] ، أن الخليفة المعز لدين الله استدعاه ليجس نبضه [3] ، إلا أن الأمير جعفر وضع شروطا حينما عرض عليه الأمر لم تعجب المعز لدين الله ، وهي في أساسها ، ربما تكون نابعة من الخبرة الإدارية التي اكتسبها من خلال ولايته للمسيلة وإقليم الزاب، إذ قال للمعز : " تترك معي أحد أولادك أو إخوتك يجلس في القصر وأنا أدبر، ولا تسألني عن شيء من الأموال لأن ما أجبته يكون بإزاء ما أنفقه من الأموال ، وإذا

---

[1] أنظر، لقبال، المرجع نفسه، ص 451.

[2] المقريزي، الخطط، ج2، ص 36؛ ابن أبي الضياف، اتحاف، ص 128.

[3] المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج1، ص 99؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 189.

أردت أمر فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلي"[1] .

فغضب المعز لدين الله، للشروط التي طلبها منه جعفر، وشعر أنه يريد من البداية استقلال ذاتيا لبلاد المغرب، فعبر عن غضبه بقوله: " يا جعفر عزلتني عن ملكي وأردت أن تجعل لي فيه شريكا في أمري، واستبددت بالأعمال والأموال دوني، قم فقد أخطأت حظك ما أصبت رشدك"[2]، وخرج من مجلسه غاضبا [3] ، وهذه الحادثة هي ربما كانت بداية فتور العلاقة بين جعفر بن علي وبين الفاطميين، والتي نجم عنها فيما بعد، انحياز جعفر إلى زناتة حليفة بني أمية، ثم هروبه إلى الأندلس.

ولم يبق إذن أمام المعز لدين الله ، سوى قبيلة صنهاجة إذ لم يجد بداً من تولية زعيمها بلكين ابن زيري، وذلك نظرا للاعتبارات التالية، فمن جهة صنهاجة تعتبر من أقوى قبائل البربر آنذاك بالمغرب ، وتمتاز بوفرة عددها [4] ، وعداوتها القديمة لزناتة ، والتي تجددت عندما اعتنق الصنهاجيون المذهب الشيعي بعد قيام الخلافة الفاطمية، ومن جهة أخرى، فصنهاجة تجاور زناتة ما بين الحدود المسيلية ، والحدود التاهرتية [5] ، إضافة إلى الخدمات التي قدمتها إلى الخلافة الفاطمية في احلك الظروف التي مر بها الفاطميون وخاصة أثناء ثورة أبي يزيد الزناتي، وزيادة على الاعتبارات المتقدمة يبدو أن المعز لدين الله كان يعلم مسبقا ، بأن بلكين بن زيري كان رجل حرب وليس رجل إدارة ، وقد تأكد ذلك عند ما طلب بلكين من المعز في أثناء الحوار الذي دار بينهما، بأن يقوم المعز بتعيين رجال الإدارة من جانبه ، وبالمقابل يعمل بلكين على تنفيذ ما يطلبونه

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص 36.

(2) المقريزي، المصدر نفسه، ج2، ص 36؛ أنظر، ابن أبي الضياف، اتحاف، ص 128.

(3) المقريزي، الخطط، ج2، ص 36.

(4) ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 334.

(5) ابن الخطيب، المصدر نفسه، القسم الثالث، ص 62.

منه [1] ، وهذه القضية كانت نقطة الخلاف بين المعز لدين الله وجعفر بن علي الذي كان له خبرة ودراية بأمور الإدارة ، والتي أهلته بأن يطلب الاستقلال ببلاد المغرب حينما عرض المعز عليه الأمر.

تردد بلكين بن زيري في قبول طلب المعز لدين الله في ولاية إفريقية والمغرب، وذلك على أساس أنه ليس صاحب شرعية بالحكم، فهو ليس من بيت رسول الله (ص)، فإذا كانت الأمور السياسية لم تستقر للخليفة المعز لدين الله وهو صاحب شرعية بسبب معارضة زناتة والتي تقف وراءها الدولة الأموية بالأندلس، فكيف إذن سوف تستقر لبلكين وهو صنهاجي بربري، ويتبين ذلك من خلال الحوار الذي دار بينهما حيث قال المعز له: " تأهب بخلافة المغرب" ولكن بلكين تعلل وعظم عليه ذلك " وقال يا مولانا أنت وآباؤك الأئمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صفا لكم المغرب ، فكيف يصفو لي وأنا صنهاجي بربري قتلتني يا مولانا بغير سيف ولا رمح"[2] .

فلم يزل يحاول المعز معه حتى أقنعه " بشريطة أن المعز يولي القضاء والخراج لمن يراه ويختاره ويجعل الحيز لمن يثق به ويجعله قائما بين أيدي هؤلاء فمن استعصى عليهم يأمر هؤلاء به، حتى يعمل به ما يجب ويكون الأمر لهم، ويصير كالخادم بين أولئك ، فأحب المعز ما قال وشكره" [3] .

---

[1] المقريزي، الخطط، ج2، ص 36-37.

[2] المقريزي، المصدر نفسه، ج2، ص 36-37.

[3] المقريزي، المصدر نفسه، ج2، ص 36-37؛ ويورد ابن عذاري، حكاية تاريخية اسطورية تدل على نيابة بلكين بن زيري لإفريقية والمغرب من أيام أبيه زيري بن مناد، إذ يذكر أن الفاطميين لما استولوا على مصر، وعزم المعز لدين الله ترك إفريقية ، دعا حينها زيري بن منادن وكان له عشرة أولاد آنذاك ، فقال: " أدع لي بنيك فقد علمت رأيي فيهم وفيك" ، وكان بلكين أصغرهم سنا، فدعا زيري أولاده ما عداه " والقدر لا يريد سواه ، وكانت عند معد بن إسماعيل إشارة من علم الحدثان قد عرف بها بصائر أحواله وأهل الغناء، من أعيان رجاله، وكانت عنده لخليفته على إفريقية والمغرب ، إذ صار إليه ملك مصر علامة فنظر في وجوه بني زيري ، فلم يرها، فقال لزيري : هل غادرت من بنيك أحدا" فقال له: غلاما صغير فقال المعز، لا اراك حتى أراه، فلست أريد سواه ، فلما رآه عرفة وفوض إليه من حينه واستخلفه من وقته على الأمور" (البيان، ج1، ص 296).

ولم يكن حسن الولاء والطاعة ، اللذان أظهرهما بلكين بن زيري تجاه الفاطميين ، عند قبوله نيابة إفريقية والمغرب ، يعنيان أن الخليفة المعز لدين الله كان يثق بصدق ولائه، فبعد أن انصرف بلكين أجاب المعز على سؤال أحد أعمامه وهو ابو طالب بن القائم، عن مدى ثقته بما جاء على لسان بلكين وذلك عندما قال للمعز : " يا مولانا وتثق بهذا القول من يوسف (بلكين) ، وأنه يقوم بوفاء ما ذكر فقال المعز يا عمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر فاعلم يا عم أن الأمر الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير إليه أمر يوسف وإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوي العقل ، وهو نهاية ما يفعله" [1] . وتدل إجابة المعز لعمه بحكم خبرته السياسية أنه يعرف بما سيؤول إليه أمر المغرب بعد رحيله إلى مصر ، وهذا اعترافا ضمنيا منه مع مرور الوقت بسيادة بلكين على بلاد المغرب[2] ، ولكن الولاء والطاعة اللتين أظهرهما له بلكين هما ما أرادهما منه في الوقت الحاضر ولعل ذلك يفسر إبقاء المعز لبعض المناصب الإدارية تحت إشرافه المباشر ، مثل تعيين أصحاب القضاء والخراج والحيز ، وحرصه أيضا على إبقاء بعض الولايات الفاطمية بالمغرب مستقلة لا تخضع لسلطة بلكين بن زيري، إذ جعل ولاية جزرة صقلية إلى حسن بن علي بن أبي الحسين، وولاية طرابلس إلى عبد الله بن يخلف الكتامي، وعين واليان آخران على أجدابية وسرت [3] ، فهذه الخطوات التي قام بها المعز لدين الله، هي عبارة عن جملة إجراءات وقائية من شأنها تأجيل فكرة الاستقلال المبكر ببلاد المغرب ، فيما إذا رغبت فيه قبيلة صنهاجة وزعيمها بلكين بن زيري.

وبعد أن فوض المعز لدين الله، نيابة إفريقية والمغرب إلى بلكين بن زيري وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة 361هـ/ آذار 972م [4] ، قام حينئذ بتغيير اسمه البربري، واتخذ له اسما عربيا وهو يوسف ، وكناه أبا الفتوح ، ولقبه سيف العزيز بالله - يعني به نزار بن

---

[1] المقريزي، الخطط، ج2، ص 37؛ انظر، ابن أبي الضياف، اتحاف، ص 128.

[2] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 92.

[3] ابن الأثير ، الكامل، ج7، ص 330-331.

[4] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 96.

معد- [1] ، ثم خرج المعز من المنصورية قاصدا مصر، يوم الاثنين لثمان بقين من شهر شوال سنة 361هـ/ كانون ثاني 972م، وحمل معه الأموال التي كان قد جمعهما بخزائن دولته، وعبر إدريس عن كثرة تلك الأموال بقولـه : " لم يسمع بملك جمع مثله" [2] ، وكان برفقته أثناء مسيره بلكين بن زيري ، فلما وصل إلى قابس يوم الاثنين لثمان خلون من ربيع الأول سنة 362هـ/ حزيران 973م وبالتحديد إلى موضع يسمى " آبار الخشب" أمر حينها بلكين بالرجوع إلى إفريقية ، بعد أن أوصاه عند وداعه بقولـه : " إن نسيت شيئا مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء إلا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحدا من أخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوص بالحضر خيرا" [3] ، وتابع بعدها المعز لدين الله مسيره إلى مصر، حتى دخل القاهرة عاصمته الجديدة في شهر ذي القعدة سنة 362هـ/ شباط 973م [4] ، حيث بدأت بذلك مرحلة جديدة من حياة الخلافة الفاطمية.

وهكذا، قضى الفاطميون زهاء الستين عاما من حياة خلافتهم بإفريقية في صراع دائم ومستمر مع الدولة الأموية بالأندلس، استعملت خلالها قبائل البربر كأداة فعلية لضرب مصالح الدولتين ، بعدما عززت كل دولة روح الفرقة والنزاع التقليدي الذي كان سائدا بين البتر والبرانس، ووقفت كل منهما وراء ستار تحرك العمليات العسكرية بشكل منظم بين جذمي البربر حتى أنه بات واضحا كل الوضوح أن البرانس فاطميون والبتر أمويون [5] . وبينما ظلت زناتة البترية هي حليفة

---

[1] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث ، ص 65؛ ويذكر ابن خلدون أنه لقبه سيف الدولة (العبر، ج6، ص 156).

[2] عيون الأخبار، ج5، ص 717.

[3] ابن الخطيب ، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 65؛ انظر، الكعاك، موجز التاريخ العام للجزائر، ص 254؛ وحسب ابن الأثير أن المعز لدين الله عندما وصل إلى برقة ، ومعه الشاعر الأندلسي محمد بن هانيء ، قتل الأخير غيلة في شهر رجب سنة 362هـ/ تشرين أول 973م، وكان محمد بن هانيء قد بالغ في مدح المعز حتى كفره العلماء ، فمن ذلك قوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

(الكامل، ج7، ص 331).

[4] القرماني، أخبار الدول، ص 334؛ في حين يذكر السراج أن دخول المعز للقاهرة كان في الخامس من شهر رمضان من نفس السنة (الحلل السندسية ، ج2، ص 42).

[5] أنظر ، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 187.

الأمـويين بالأنـدلس، والقائمـة علـى تنفيـذ سياسـتهم المغربيـة ، عـن طريـق مهاجمـة منـاطق نفـوذ الفاطميين ، فإن قبيلة صنهاجة بالمقابل حلت مكان قبيلة كتامة ، في المرحلة الثانية من حياة الخلافة الفاطمية بمصر، لتنوب عنها في تنفيذ مصالحها بالمغرب ، وتدافع عن مناطق نفوذها ضد الزناتيين وحلفائهم الأمويين .

موقف بلكين بن زيري الصنهاجي من زناتة وأثره في العلاقات الفاطمية والأموية (361-372هـ/972-984م).

كانت ردة فعل بلكين بن زيري قوية على أثر مقتل أبيه على أيدي رجال زناتة سنة 361هـ/ 972م ، فما إن قلده المعز لدين الله الفاطمي عمل أبيه السابق ، وأمده بالمال والرجال ، حتى خرج في نفس العام، وتوغل في ديار زناتة وقتل منهم في مواضع متفرقة، أعدادا يصعب حصرها، واستولى على تاهرت والمسيلة وطبنة وباغاية وبجاية وبسكرة وكلها مدن بالمغرب الأوسط كانت تخضع لسيادة زناتة [1] ، واستطاع بلكين بذلك أن يفرغ المغرب الأوسط من بطون زناتة ويجبرهم على الهرب إلى المغرب الأقصى ، ووصف ابن خلدون ذلك بقوله : " فأقفر المغرب الأوسط من زناتة ، وساروا إلى ما وراء ملوية من بلاد المغرب الأقصى" [2] ، كما تمكن بلكين خلال حملته تلك من قتل الخير بن محمد، أمير زناتة أخذاً بثأر أبيه [3] ، ثم عرج على البوادي والصحاري ، وهاجم قبائل البربر التي تقطن هناك، فقتل من زناتة وهوارة ونفزة وبعض " أصناف البربر الخصاصين " ، أعدادا لا تحصى ، ولم يقتصر انتقام بلكين على بطون زناتة ، بل أنه حمل عامة البربر مسؤولية قتل أبيه، وقد عبر عن ذلك بقوله: " لا أمان عندي لبربري ركب فرسا أو نتج خيلا أبدا حيثما سلك من البلاد" [4] ، مما دب الذعر في نفوس قبائل البربر، فانهزموا أمامه، وأحجموا عن لقائه [5] .

ولما استدعى المعز لدين الله الفاطمي بلكين بن زيري من حملته تلك واستخلفه على إفريقية والمغرب، نظم المعز حينئذ بعض الأعمال الأدارية ، بخصوص نيابة المغرب، إذ جعل خاتمه في

---

[1] مجهول ، مفاخر البربر، ص 135.
[2] العبر ، ج7، ص 31.
[3] ابن خلدون ، العبر، ج7، ص 31.
[4] مجهول ، مفاخر البربر، ص 135.
[5] مجهول ، المصدر نفسه، ص 135.

يد بلكين، وانفذ كتبه إلى كافة أقطار المغرب بالسمع والطاعة له [1] ، وبعده سار المعز وبرفقته بلكين حتى وصل إلى قابس وهنالك ودعه [2] ، بعد أن " عهد إليه أن يفتح أمره بغزو المغرب لحسم دائه، وقطع علائق الأموية منه" [3] ، وعاد بعد ذلك بلكين إلى المنصورية ، فدخلها يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة 362هـ/ حزيران 973م، ونزل بقصر الخليفة الفاطمي بصبرة، وخرج إليه أهل القيروان فهنأوه وأظهروا السرور بقدومه، وبعد أن مكث مدة شهرين بالمنصورية [4] ، قام بعدها بدوره بإرسال عمال من قبله إلى الولايات والكور المغربية ، وكانت الكتب التي يحملونها مصدّره " من عبد الله ، أبي الفتوح يوسف بن زيري ، خليفة أمير المؤمنين" [5] ، ثم تجول بلكين في بلاد المغرب وباشر الأعمال بنفسه، فكسب بذلك قلوب الناس[6].

أصبح الصراع بين صنهاجة وزناتة بالمغرب، بعد رحيل المعز لدين الله لمصر صراعا قبليا في الظاهر، تحركه فعليا مصالح الدولتين الفاطمية بمصر والأموية بالأندلس بعد أن اتخذت كل من الدولتين الولاء السياسي والمذهبي ستاراً لها لتكسب كل منهما تأييد إحدى القبيلتين، فلم يلبث أن عاد بلكين بن زيري إلى المنصورية ، حتى بدأ تنفيذ أمر المعز لدين الله ، الخاص بالقضاء على نفوذ زناتة حليفة الأمويين بالمغربين الأوسط والأقصى ، لذلك رحل من إفريقية في شعبان سنة 362هـ/ تشرين ثاني 973م[7] إلى باغاية للقضاء على تمرد أهلها على عامله هناك، وبعد أن انجز مهمته[8] واصل مسيره نحو تاهرت حينما بلغه أن أهلها أعلنوا التمرد على عامله، ومن المعروف أن تاهرت تعد قاعدة زناتة بالمغرب الأوسط فتمكن بلكين من دخول تاهرت عنوة، وقتل الرجال وسبى النساء،

---

[1] مجهول ، المصدر نفسه، ص 142.

[2] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 96؛ في حين يذكر ابن خلدون إلى صفاقس (العبر، ج6، ص 157).

[3] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157.

[4] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 96؛ ويذكر ابن خلدون أن بلكين نزل في قصر المعز بالقيروان (العبر، ج6، ص 157).

[5] مجهول، مفاخر البربر، ص 142.

[6] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 332.

[7] مجهول ، مفاخر البربر، ص 142؛ في حين يذكر ابن أبي دينار أن خروجه كان في شعبان من سنة 363هـ/ 973م (المؤنس، ص 96).

[8] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 332.

وأضرم المدينة نارا بعد أن خربها [1] ، ثم بلغه الخبر وهو ما يزال بتاهرت ، بأن قبائل زناتة بدأت تتجمع في تلمسان ليقوموا بهجوم مفاجئ عليه ، فبادر بلكين بالخروج إليهم، ففرق جمعهم، وضرب حصارا مشددا لمدة على تلمسان ، حتى خرج إليه أهلها طائعين ، فدخل المدينة على أثر طاعتهم، وعفا عنهم ، إلا أنه نقلهم معه إلى مدينة أشير ، ليكونوا تحت مراقبة قبيلة صنهاجة وفي متناول يدها فيما إذا حاولوا التمرد من جديد ، فبنى أهل تلمسان مدينة لهم بالقرب من أشير ، وأسموها تلمسان [2] ، وربما كان ذلك تعبيرا عن رفض زناتة بالخضوع لقبيلة صنهاجة، حتى في حالة انتصار الأخيرة عليها، ويبين هذا العمل أيضا مدى تمسك أفراد زناتة باسم مدينتهم التي أبعدوا عنها قسرا [3] .

وبينما كان بلكين بن زيري الصنهاجي يستعد لمطاردة بطون زناتة بالمغرب الأقصى بعد قضائه على جيوب مقاومتها في المغرب الأوسط [4] ، جاءه وقتذاك كتاب المعز لدين الله الفاطمي، ينهاه فيه عن التوغل في المغرب الأقصى والعودة إلى إفريقية [5] ، ولعل غرض المعز من عودة بلكين كان بسبب الخلاف الذي نشب في إفريقية بين نائبه عبد الله بن محمد ، المعروف بالمختال، وبين كاتب الخليفة المعز زيادة الله بن القديم، المكنى بأبي مضر [6] ، فانقسم الناس بإفريقية نتيجة ذلك إلى فريقين مع كل منهما فريق [7] . ويذكر ابن الأثير أن بلكين وقف بجانب عبد الله بن محمد،

---

[1] ابن الأثير ، الكامل، ج7، ص 332؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157.

[2] ابن الأثير ، الكامل، ج7، ص 332؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157.

[3] أنظر ، سنوسي ، زناتة والخلافة ، ص 289.

[4] أنظر، سنوسي، المرجع نفسه، ص 96.

[5] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 96.

[6] مجهول، مفاخر البربر، ص 142؛ في حين يذكر ابن حيان أن سبب عودة بلكين إلى إفريقية ، لأن الخليفة الحكم المستنصر أنفذ قائده غالب بن عبد الرحمن ، عندما سمع بتلك الحملة ، مما اضطر بلكين بن زيري إلى التراجع (المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 177-178).

[7] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 332.

نظرا للعلاقة القديمة بينهما، وتمكن بذلك عبد الله من التغلب على ابن القديم، والقبض عليه ووضعه بالسجن ، وظل مسجونا حتى توفي المعز لدين الله ، وقوي أمر بلكين بن زيري [8] .

ولم يلبث أن أعلن خلف بن حسين عصيانه على بلكين ، سنة 364هـ/975م، بعد أن اجتمع إليه العديد من البربر، وصعد بهم إلى قلعة قريبة من إفريقية وكان خلف من أصحاب ابن القديم وأحد مساعديه ، ولما سمع بلكين بن زيري بذلك سار إليه وحاصر القلعة ثم دخلها عنوة ، وقتل من بها، وبعث برؤوس سبعة آلاف من القتلى إلى إفريقية ، ثم قبض على خلف، وأمر بقتله بعدما طيف به على جمل، وتم صلبه في إفريقية ، وأرسل بعد ذلك رأسه إلى الخليفة المعز لدين الله بالقاهرة ، وعندما سمع أهل باغاية بتلك الأنباء، خافوا لأنهم كانوا يجهزون للثورة آنذاك ، وبادروا بإعلان طاعتهم لبلكين ، فأمر بإخراجهم من باغاية ، وأضرم فيها النار بعد أن خربها [2] . وتوقف بلكين نتيجة الأحداث التي جرت في إفريقية عن محاربة زناتة بالمغربين الأوسط والأقصى حتى نهاية سنة 364هـ/ 975م[3] .

وكان انشغال بلكين بن زيري في أحداث إفريقية الداخلية، فرصة مناسبة لخليفة الأندلس الحكم المستنصر لأن يعيد نفوذه وسيطرته بواسطة حليفته زناتة على المغربين الأوسط والأقصى، فعندما عبرت الجيوش الأموية من الأندلس، بأمر من الخليفة الحكم المستنصر سنة 363هـ/ 974م، لمحاربة الأدارسة ، بادرت زناتة للانضمام إلى تلك الجيوش ، ونجحوا بإعادة مدينتي فاس والبصرة في شهر رمضان من تلك السنة، ولما احتاج الأمويون إلى جيوشهم بالمغرب الأقصى لسد ثغور الأندلس، تضافرت جهود أمراء زناتة على انتزاع المغرب الأقصى من طاعة الفاطميين، والوقوف في وجه بلكين بن زيري وصده عن المغرب الأقصى[4] .

---

[8] الكامل ، ج7، ص 332- 333.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 333.

[3] مجهول، مفاخر البربر، ص 142.

[4] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 290.

كما عمل الخليفة الحكم المستنصر على استغلال اضطراب الأوضاع بإفريقية ، وجعل مناطق نفوذه بالمغرب الأقصى تخضع إداريا لإشراف دولته المباشر ، ففي منتصف شعبان سنة 362هـ/ تشرين ثاني 973م، أرسل الحكم المستنصر ، وفداً إدارياً إلى مدينة أصيلا بالعدوة المغربية للتحقيق حول سرقة بعض الأموال الأموية التي كانت تصل إلى المغرب ، والذين اتهموا فيها بعض قادة الجيش الأندلسي، الموجودين بالمغرب الأقصى ، وقد تألف الوفد من صاحب الشرطة الصغرى قاضي الثغر الأعلى محمد بن علي بن أبي الحسين ، والخازن أحمد بن محمد الكلبي، وبعد التحقيق بأمور السرقة ، قام أعضاء الوفد بترتيب بعض الأمور الإدارية هناك [1] ، ثم عادوا إلى الأندلس في آخر شهر رمضان من نفس العام " فتوصلوا إلى الخليفة الحكم عشي يوم مقدمهم وسألهم عن ما أرسلهم من أخبار العدوة واستقصاهم عن جميع ما هنالك فأوسعوه علما وشفوه خبرا، فأحمد سعيهم وسكن إلى صحة أخبارهم وأثنى عليهم" [2] .

ولم يبرح محمد بن أبي عامر، أن عاد إلى العدوة المغربية بأمر من الخليفة الحكم المستنصر ، في صدر شوال سنة 362هـ/ كانون ثاني 973م، حاملا معه الأموال والحلي والخلع لتوزيعها على حلفاء الدولة المغاربة الذين استمالت نفوسهم إلى بني أمية بالأندلس، وبخاصة رؤساء قبائل زناتة ، وفي نفس الوقت كان يحمل محمد بن عامر، قرار تعيينه بمنصب جديد وهو قضاء القضاة بالعدوة المغربية ، إضافة إلى المناصب التي كان يتقلدها مثل خطتين الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء كورة اشبيلية [3] ، واستطاع ابن أبي عامر أن يثبت حسن سيرته ، ويكسب رضا العسكر الذي كان بمثابة عين عليهم من قبل خليفة الأندلس ، وحظي أيضا بتأييد أشياخ القبائل

---

[1] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 106.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 118.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 123.

وزعمائها، فكانت تلك الأعمال أول ظهوره[1] ، وارتفعت بذلك مكانته السياسية في الدولة الأموية بالأندلس[2] .

وزيادة في كسب ود وولاء المغاربة، عزز الخليفة الحكم المستنصر، القاضي ابن أبي عامر، بأموال كثيرة من خزينة الدولة بالأندلس، ليقوم بإنفاقها على أهل طنجة وأصيلا، وذلك في يوم الأربعاء لأربع بقين من شوال سنة 362هـ/ كانون ثاني 973م، وأكد الخليفة الحكم المستنصر لابن أبي عامر في الرسالة التي حملها إليه الرسول مع الوفد الذي أوكل إليه مهمة إيصال الأموال للمغرب، ثقته فيه، وإعجابه باجتهاده في الأمور الإدارية بالمغرب، ومما جاء في هذا الصدد قوله: "وما يشك أمير المؤمنين في مناصحتك واجتهادك وشكرك للنعمة بك والمشتملة عليك والله المستعان"[3] .

وكان الخليفة الحكم المستنصر قد جلس في قصر الزهراء يوم السبت منتصف شهر شوال سنة 362هـ/ كانون ثاني 973م، واستقبل رجال بنو خزر الزناتيين الذين حلوا بضيافته منذ قدومهم مع جعفر بن علي الأندلسي، وبعد أن أثنى عليهم، وذكرهم بقدم ولائهم لبني أمية ، حثهم بعدها على العبور إلى المغرب للالتحاق بالجيش الأموي الذي يرابض هناك، تحت قيادة غالب بن عبد الرحمن وذلك ليساعدوه في حربه مع الحسن بن قنون الإدريسي " وذكر لهم أن بني عمهم (الزناتيين) ومن لف لفهم بالعدوة استجابوا لدعوته ونفروا في سبيله ... فاعترفوا بذلك وهشوا للنفوذ فيما أهيب بهم إليه" [4] ، وكان ممن حظي بمقابلة الخليفة من أفراد زناتة وزعمائها هم : عبدوس بن الخير ومقاتل ابن عطية ومسعود بن أبي الغمر وعبد الله بن أبي دواس وسرغين وحمليل ونظراؤهم ، فدفعت

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 253.

[2] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 123.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 123-124.

[4] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 123-124.

إليهم الصلات ، والتحقوا بالجيش الأموي بالعدوة المغربية يوم السبت لثمان بقين من شهر شوال من نفس العام، أي سنة 362هـ/ 973م[1] .

وعمد الخليفة الحكم المستنصر إلى اصطناع البربر وفرسانهم ، وتشجيع هجرتهم إلى بلاد الأندلس ابتداءً سنة 363هـ/ 974م، وذلك لما عرف عنهم من البأس والشجاعة ، فتكونت لديه في آخر خلافته ثلاث فرق بربرية : الفرقة الأولى قدمت مع بني حسن الأدارسة العلويين المستأمنين بالأندلس، والثانية جاءت مع جعفر ويحيى أبناء حمدون الأندلسي ؛ وأما الفرقة الأخيرة فهم بنو برزال الزناتيون، وقد ألفت هذه جميعها قوة عسكرية تقدر بسبعمائة فارس ولم يفرض الحكم المستنصر أنظمة وتعليمات الجندية بالأندلس عليهم، إذ ترك لهم حرية ارتداء زيهم المغربي الخاص بهم، وممارسة مهاراتهم العسكرية التي تعودوا عليها في وطنهم الأصلي [2] .

وكان بنو برزال من أهم تلك الفرق المغربية التي استقرت في الأندلس، وذلك لما امتازوا به عن بقية البربر من البأس والنجدة ، إضافة إلى ما سجل لهم من حسن بلاء في مقاومة زيري بن مناد الصنهاجي حليف الفاطميين بالمغرب، أثناء لقائه مع جعفر بن علي الأندلسي سنة 360هـ/ 970م، وأتيح لهم بالتالي قتل زيري فطار صيتهم في جميع أنحاء بلاد المغرب والأندلس [3] . وعندما بدأ بلكين بن زيري بطلب ثأر أبيه من الزناتيين عامة ، ومن حاشية جعفر بن علي الأندلسي خاصة ، ولما كان بنو برزال لم تكن لديهم طاقة وحدهم في الوقوف أمام قوة صنهاجة، فقد كتبوا إلى جعفر بن علي بما نالهم من صنهاجة، فاستأذن جعفر لهم من الخليفة الحكم، ووصفهم له بالشجاعة والانقياد إلى الطاعة ، فأذن لهم بالعبور إلى الأندلس [4] ، ولا شك أن الحكم المستنصر أولى عناية خاصة لبني برزال الزناتيين ، حيث نظمهم في طبقات جنده، وأغدق الأموال عليهم،

---

[1] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 124.

[2] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 192-193.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 192.

[4] ابن عذاري، البيان ج3، ص 268.

وتغاضى عن اختلافهم المذهبي، إذ كان البرازلة يدينون بالمذهب الخارجي الأباضي النكاري، رغم تعصبه لأهل السنة ومذهب مالك [1] .

أصبحت هذه الفئة العسكرية المغربية التي استقرت بالأندلس، تحتل مكانة مرموقة لدى الخليفة الحكم المستنصر، لما اتصفت به من صفات الشجاعة والإقدام ، حتى أنه كان يشرف على هؤلاء الفرسان أيام مرضه من قصبة دار الرخام، ليتسلى بمنظرهم الجميل، ويستمتع بمشاهدة استعراضهم وكان يعبر عن شدة إعجابه فيهم لمن حضر معه بقوله: " انظروا إلى انطباع هؤلاء القوم على خيولهم ... ما أعجب انقيادها لهم، كأنها تفهم كلامهم" [2] ، ويردد في نفس الوقت قول الشاعر:

فكأنما ولدت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها[3]

تراجعت قوة ونفوذ الدولة الأموية بالعدوة المغربية ، خلال فترة مرض الخليفة الحكم المستنصر الذي أصيب بمرض الفالج وأقعده بالفراش ، مما تطلب من وزيره جعفر بن عثمان المصحفي ، بأن يقوم في استدعاء القائد يحيى بن محمد بن هاشم التيجيبي من المغرب ، ليسد به ثغور الأندلس التي بدأ يهددها خطر الأسبان في الشمال، وعين مكانه باسم الخليفة أميرين من أصل أندلسي هما: جعفر بن علي وأخوه يحيى [4] ، لخبرتهما بشؤون المغرب من جهة ، ولشدة عداوتهما لبني زيري الصنهاجيين من جهة أخرى [5] ، واعترف لهما على المناطق الجديدة التي يفتحاها، وخلع عليهما خلعا فاخرة ، ودفع لهما أموالا ، وكسى كثيرة لإنفاقها على رؤساء قبائل البربر بالعدوة، وضم إليهما بعض رجالهما وأتباعهما، ثم أمرهما بالتوجه إلى المغرب ، فوصلا إلى قلعة حجر النسر سنة 365هـ/ 975م، وهناك سلم لهما القائد يحيى بن محمد التجيبي مقاليد الأمور، وقفل

---

[1] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 192؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 211.

[2] ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 193.

[3] ابن حيان، المصدر نفسه، عبد الرحمن الحجي، ص 193.

[4] مجهول، مفاخر البربر، ص 143.

[5] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 212.

عائدا إلى قرطبة ، ولم يلبث أن وجهه الخليفة الحكم المستنصر إلى مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى في نفس السنة ، أي سنة 365هـ/ 975م.

واستطاع جعفر بن علي، أن يضبط أمر المغرب على أحسن وجه في مدة قصيرة بعد أن نجح في اكتساب ولاء زعماء زناتة وفرسانها، بواسطة الأموال التي أنفقها عليهم، حيث قدر عدد الزناتيين الذين انضموا إليه بنحو ستة آلاف فارس، ومن اشهر زعماء زناتة الذين دخلوا في طاعته، يدو بن يعلى بن محمد ، زعيم بني يفرن ، وزيري وأخوه مقاتل ابنا عطية بن عبد الله ، المغراويين زعيمي زناتة، وغيرهم من زعماء البربر ، مثل : بني البوري رؤساء مكناسة، وبني مرين وبني مروة [1] .

وتضافرت جهود هؤلاء مع جعفر بن علي في التصدي إلى هجمات بلكين ، زعيم صنهاجة المتكررة على أراضيهم ، وتمكنوا من تثبيت أقدام الأمويين في المغرب بقية أيام الخليفة الحكم المستنصر [2] ، إلا أن إعادة سيطرة نفوذ الأمويين إلى سابق عهده في المغرب، كلف الخليفة الحكم المستنصر أموالا طائلة، أنفقها من خزينة الدولة فكانت سببا في إنزعاجه الشديد ، وقد أشار ابن عذاري إلى ذلك ، بقوله: " واشتغل قلب الحكم آخر أيامه بأمر العدوة ، من جرده إليها من عساكره لحرب الأدارسة وغيرهم، واغتمّ لما خرج من يده في ذلك الوجه من الأموال" [3] .

وكان بلكين بن زيري والي الفاطميين على إفريقية والمغرب ، يحرص كل الحرص على إثبات حسن نواياه تجاه الخليفة المعز لدين الله في مصر، وتعزيزا لصدق نواياه فقد بعث سنة 365هـ/ 975م، هدية ثمينة إليه، ولم يكد يصل أعضاء الوفد الذين يحملون الهدية إلى طرابلس ، حتى وافاهم نبأ وفاة المعز لدين الله [4] ، يوم الجمعة الحادي عشر لربيع الآخر سنة 365هـ/ تموز

---

[1] مجهول، المصدر نفسه، ص 143-144.

[2] مجهول، المصدر نفسه، ص 144.

[3] البيان، ج2، ص 252.

[4] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 97.

975م [1] ، وتولى ابنه نزار الملقب بالعزيز بالله [2] ، مما اضطر بلكين إلى رد الهدية، وتجهيز هدية أخرى أرسلها باسم العزيز بالله، فقام الخليفة العزيز بالله الفاطمي بدوره بتجديد ولاية بلكين على إفريقية والمغرب، بواسطة السجل الذي أرسله إليه من مصر بهذا الخصوص ، وبعث معه أيضا دراهم من السكة التي ضربت باسمه، أي باسم العزيز بالله صاحب مصر [3] .

ومن الواضح، أن بلكين بن زيري استغل ظروف تسلم الخليفة الجديد ، لكي يوسع دائرة نفوذه بالمغرب ، وذلك تلبية لبعض مطامعه الشخصية التي لم يعلن عنها بعد فيما يبدو، بشأن استقلاله ببلاد المغرب وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، ارتأى ضم، المناطق التي كانت تتبع إدارتها لبعض الولاة الفاطميين المعينين من قبل الخليفة الفاطمي بمصر إلى أعماله ، ولذا ، بادر في الطلب من العزيز بالله الفاطمي، في بداية خلافته ، بأن يضم إليه أعمال سرت وأجدابيه وطرابلس ، فوافق الخليفة العزيز بالله على مطلبه هذا، وسمح له بأن تكون تلك العمالات تحت إشرافه المباشر [4] .

ولم يكن الخليفة العزيز بالله الفاطمي، أقل عداء من أبيه وأسلافه الفاطميين ضد الأمويين بالأندلس، إذ تشير الروايات التاريخية أنه بادر في السنة الأولى من خلافته ، أي سنة 365هـ/ 975م ، بإرسال رسالة إلى الخليفة الحكم المستنصر ، يسبه فيها ويهجوه ، فرد عليه الحكم المستنصر بكتاب مماثل بقوله : " أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك والسلام"، فاشتد ذلك على العزيز بالله، ولم يرد على جواب الحكم، وقيل أنه كتب إليه في نفس الكتاب بيتين من الشعر يفتخر فيها بنسب بني مروان بقوله:

ألسنا بني مروان كيف تبدلت ... بنا الحال أو دارت علينا الدوائر

---

[1] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 229؛ في حين يذكر ابن أبي دينار أن وفاة المعز ، كانت في السابع عشر من شهر ربيع الأول، سنة 365هـ/ حزيران 975م (المؤنس، ص 83).

[2] ابن خلدون، العبر، ص 152؛ ويكنى بأبي المنصور (ابن عذاري، البيان، ج1، ص 229).

[3] ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 97.

[4] ابن أبي دينار، المصدر نفسه، ص 97.

إذا ولد المولود منا تهللت   له الأرض واهتزت إليه المنابر [1]

وعلى الرغم من احتدام حدة المنافسة بين الأمويين والفاطميين مع بداية خلافة العزيز بالله الفاطمي، سنة 365هـ/ 975م ، إلا أن الظروف التي حدثت بالأندلس بعيد خلافته بقليل ، لم تسمح بديمومة المنافسة على نفس النهج الذي ظهرت فيه، إذ توفي الخليفة الحكم المستنصر ليلة الأحد لثلاث خلون من صفر سنة 366هـ/أيار 976م [2] ، تاركا أمر الدولة لابنه الصغير هشام الذي لم يتجاوز عشر سنوات من عمره [3] ، حيث بويع له بالخلافة صبيحة يوم الاثنين لخمس خلون من صفر من نفس السنة أي سنة 366هـ/ 976م [4] ، ولقب بالمؤيد [5] بالله [6] ، وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر، ومحمد بن أبي عامر، ولم يعترض أحد على توليته [7] ، وبادر الخليفة الجديد بتعيين وزير أبيه جعفر بن عثمان المصحفي حاجبا له، وترفيع محمد بن أبي عامر في نفس الوقت إلى مرتبة الوزارة [8] .

---

[1] المقريزي، نفح الطيب، ج3، ص 588؛ انظر، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج2، ص 110؛ في حين يذكر العيني الرواية عكس ذلك، إذ يورد أن الحكم كتب " إلى العزيز صاحب مصر كتابا هجاه فيه وطعن في أهله، وأنه دعي في نسبه وأن جده القداح باطني وكتب في أول كتابه:

ألسنا بني مروان كيف تقلبت   بنا الحال أو دارت علينا الدوائر

فلما وقف العزيز عليه كتب في أوله:

إذا ولد المولود منا تهللت   له الأرض واهتزت إليه المنابر

عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لهجوناك والسلام " (عقد الجمان، ج8، ص 110؛ أنظر، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، ص 249)؛ وأما ابن أبي دينار ، فبعدما يذكر أن العزيز بالله أرسل إلى الحكم كتابا يسبه فيه ويهجوه، وأن الحكم أجابه بقوله " عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لهجوناك" يرجع ويقول : " وقيل أن الحكاية بالعكس" (المؤنس، ص 85).

[2] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 233.

[3] ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 101؛ المراكشي، المعجب، ص 21؛ الحميدي ، جذوة الاقتباس، ص 17.

[4] ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ج1، ص 32.

[5] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 396.

[6] القرماني، أخبار الدول، ص 65.

[7] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 519.

[8] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 254.

استغل بن أبي عامر ، صغر سنة الخليفة هشام المؤيد الجديد، وضعف مقدرته السياسية، ورغب في الاستبداد بشؤون الدولة الأموية [1] ، مستفيدا بذلك من مكانته الخاصة التي يحتلها في نفس السيدة صبح والدة الخليفة هشام المؤيد [2] إضافة إلى أن الخليفة هشام كان ميالا بطبعه إلى اللهو والدعة، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضي كل أوقاته في اللهو واللعب بين الخصيان وآلات الطرب ، فعزز ابن أبي عامر وصبح تلك الميول السيئة في نفس الخليفة الصغير منذ كان أميرا قبل توليته الخلافة ، وذلك لكي تخلو لهما الساحة السياسية بالأندلس [3] .

استهل ابن أبي عامر سياسته بنكبة الصقالبة الخصيان، حيث حرض جعفر المصحفي عليهم، منتهزا العداوة القديمة التي كانت بينه وبينهم ، فقام المصحفي بإخراجهم من القصر، وكان عددهم نحو ثمانمائة صقلبي ، أو يزيدون بقليل، فتخلص ابن أبي عامر بذلك من أول مشكلة يمكن أن تواجهه للوصول إلى غايته في الاستبداد بالسلطة[4] . ثم بدأ ابن أبي عامر يفكر بالتخلص من أخطر منافسيه على السلطة وهو الحاجب جعفر المصحفي ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف عمل لى كسب ود القائد غالب بن عبد الرحمن حيث أقام معه رابطة المصاهرة عن طريق الزواج من ابنته، وبالغ في التقرب إليه وملازمته، واستعان به بعد ذلك في خلافه مع جعفر المصحفي [5] ، واستطاع أن يستصدر أمرا من الخليفة هشام المؤيد في الثالث عشر من شعبان سنة 367هـ/ تشرين ثاني 977م، بعزله من منصبه وإلقاء القبض عليه وإيداعه في السجن عدة سنوات، وظل جعفر يرقد في مطبق سجن الزهراء ، حتى توفي وقيل قتل خنقا سنة 372هـ/ 982م[6] .

---

[1] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 396.

[2] ابن عذاري ، البيان ، ج2، ص 258.

[3] انظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 225.

[4] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 152.

[5] ابن خلدون، المصدر نفسه، ج4، ص 152؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 397.

[6] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 530؛ الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 222-223؛ وجعفر هذا، هو أبو الحسن بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيلة القيسي الملقب بالمصحفي ، من الشعراء الأندلسيين المجيدين في فنون الشعر، ولي جزيرة ميورقة ايام الناصر، ثم استوزره الحكم المستنصر، ولما استولى ابن أبي عامر على السلطة اعتقله ⟸

ولم يبق أمام ابن أبي عامر من ينافسه على السلطة سوى القائد غالب بن عبد الرحمن[1] ، فرأى حينئذ أن يستعين عليه بقائد عسكري آخر يضاهيه من حيث الشجاعة والفروسية، ولذلك قام باستدعاء جعفر بن علي الأندلسي من المغرب، فرغم أن جعفرا كره العودة إلى الأندلس، لما لقيه من سوء معاملة أثناء إقامته فيها أيام الخليفة الحكم المستنصر، إلا أن الظروف في المغرب لم تساعده ، إذ أن أخيه يحيى انفصل عنه، واقتطع منه مدينة البصرة وما وراءها ، وانضم إليه أكثر الفرسان، إضافة إلى أن جعفرا كان قد انهزم أمام برغواطة في إحدى حملاته ضدها، مما أضطر أن يرضخ لمطلب ابن أبي عامر ، وأن يجتاز إلى الأندلس مع بعض رجال زناتة سنة 267هـ/ 977م [2] ، فتمكن ابن أبي عامر بمساعدة جعفر من التغلب على غالب بن عبد الرحمن [3] في إحدى المعارك التي وقعت بينهما ، حيث سقط غالب من فوق فرسه فخر ميتا، فتفرق جيشه ونزلت به الهزيمة [4] .

ولم يتورع ابن أبي عامر في قتل جعفر بن علي الذي كان بممالأة بعض رجال الدولة من العرب وغيرهم، أمثال ابن عبد الودود ، وابن جهور وابن ذي النون [5] ، حيث كان جعفر بن علي يشغل خطة الوزارة آنذاك [6] ، فخشي ابن أبي عامر من طموحه السياسي، لذلك دعاه إلى وليمة قدم إليه الشراب ، فأفرط جعفر فيه، حتى فقد وعيه، ثم دس عليه من قتله وهو في طريقه إلى منزله

ورغم أن جعفرا استعطف المنصور بمنظومة شعرية ، لكن ذلك دون جدوى، إذ أن المنصور صادر كافة أملاكه وأمواله ولم يبق له ولا لأولاده ما يسد رمقهم حتى قتله أخيرا سنة 372هـ/ 982م (ابن حيان، المقتبس، عبد الرحمن الحجي، ص 30 هامش 1).

[1] المقري ، نفح الطيب، ج1، ص 397.

[2] مجهول،مفاخر البربر، ص 144-145.

[3] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 397.

[4] انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 224.

[5] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 397.

[6] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 542.

وذلك سنة 372هـ/ 982م [1] ، وتظاهر محمد بن أبي عامر بالحزن عليه، ثم قتل بعد ذلك أبا الأحوص معن بن عبد العزيز بن محمد التجيبي، وانفرد وحده بالحكم [2] .

ولما خلا الجو لابن أبي عامر من ولاة الخلافة ، والمرشحين للرئاسة، عمد إلى استدعاء رجال البربر من العدوة المغربية ، وبخاصة فرسان زناتة ، فشكل منهم جنودا يعملون لصالحه الخاص، وقسمهم إلى مجموعات يشرف عليها عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم [3] ، ويبدوا أن إجراء ابن أبي عامر هذا، كان القصد منه إحداث نوع من التوازن السياسي والعسكري مع بعض القوى العربية الطامعة في السلطة ويؤكد ابن خلدون ذلك بقوله: " قدم رجال البرابرة زناتة ، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم" [4] .

وبعد أن مكن ابن أبي عامر نفوذه السياسي داخل الدولة ، أقدم على خطوة جريئة وهي التغلب على الخليفة هشام المؤيد وحجره داخل قصره [5] ، وشدد الحراسة على بابه بترتيب الحراس والبوابين، وأمرهم بحراسته ليلا ونهارا ، وأن يقوموا بمراقبة تحركات من بداخل القصر سرا وجهارا، حتى أصبح الخليفة " محجورا مهجورا لا تراه الخواص ولا العوام" [6] ، فتم له بذلك الاستقلال بالملك والاستبداد بشؤون الدولة الأموية، وتأكيدا لاستقلاله السياسي، قام ببناء مدينة جديدة أطلق عليها اسم " الزاهرة" ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة [7] ، وانتقل إليها سنة 370هـ/ 980م ، واتخذ فيها أيضا الدواوين والأعمال بدلا من مدينة الزهراء[8] .

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 280-281؛ أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 542؛ الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 224.

[2] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 281؛ انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 224.

[3] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 152؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 397.

[4] العبر، ج4، ص 152.

[5] ابن خلدون، المصدر نفسه، ج4، ص 152؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 397.

[6] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 225.

[7] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 152؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 397.

[8] أنظر الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 225.

ويصف ابن الأبار الحالة التي أضحى فيها الخليفة هشام المؤيد بالله بقوله : " ليس له من الأمر غير الاسم خاصة فما ظنك برجاله ومواليه الذين كان يرهب منهم وبهم يحترس" [1] .

وتابع ابن أبي عامر استحواذه على المناصب السياسية في الدولة الأموية ، حتى أنه لم يبق للخليفة هشام المؤيد غير الاسم الخلافي [2] ، حيث أمر بأن يحيا بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور [3] ، وذلك سنة 371هـ/981م [4] ، وكانت الكتب والمخاطبات والأوامر [5] ، المتعلقة بشؤون الدولة تنفذ عنه: " من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر إلى فلان" [6] ، كما " أمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ومحا رسم الخلافة بالجملة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر وكتب اسمه في السكة والطرز"[7] .

وهكذا، فقد استبد ابن أبي عامر بالسلطة الأموية بالأندلس، واستقرت له أوضاع الدولة الداخلية ، بعد أن تخلص من رؤساء المعارضة، ومع ذلك حافظ على السلطة الاسمية للخليفة هشام المؤيد في الظاهر رغم أنه اصبح هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة ، وقد اجمل ابن عذاري الأحوال السياسية في الأندلس بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر ، وظروف تغلب ابن أبي عامر على مقاليد الحكم في النص التاريخي التالي: " قاد (ابن أبي عامر) حتى استبد وانفرد، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد، وانتظمت له الأندلس بالعدوة ، واجتمعت له اجتماع قريش في دار الندوة ومع هذا، فلم يخلع اسم الحجابة ، ولم يدع السمع لخليفته والإجابة ظاهرا يخالفه الباطن، واسم تنافره مواقع الحكم والمواطن"[8] .

---

[1] الحلة السراء، ج1، ص 269.

[2] ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 276.

[3] ابن خلدون، العبر، ج4، ص 152؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 397.

[4] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 279.

[5] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 397.

[6] ابن عذاري، البيان، ج2، ص 279.

[7] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 397-398.

[8] البيان، ج2، ص 274.

وما أن سيطر ابن أبي عامر على مقاليد الحكم بالدولة الأموية ، حتى باشر اهتمامه بمناطق نفوذ الأمويين بالمغرب، ولكن مما يلاحظ على سياسته المغربية أنها اختلفت عمن سبقه من خلفاء بني أمية بالأندلس، فرغم أن أنه خص مدينة سبتة عناية خاصة ، إذ عمل على ضبطها بمجموعة من الجنود الأمويين ، وقلدها كبار قادته العسكريين إلا أنه في نفس الوقت، اكتفى بإسناد مهمة ضبط المناطق التي تلي سبتة، إلى بعض زعماء زناتة الموالين للدولة الأموية، بعد أن أغراهم بالأموال والخلع والجوائز ، وتثبيت أسمائهم في الديوان ، لكي تجري عليهم الأموال بشكل منتظم ، فأحب رؤساء زناتة سياسة ابن أبي عامر هذه ، وجدوا في الدفاع عن مناطق نفوذ الامويين ضد صنهاجة والأدارسة[1] .

ويفسر " Dozy" سبب اتباع ابن أبي عامر تلك السياسة أنه اقتنع عندما أقام بالمغرب بصفته قاضي قضاة بأن الاحتفاظ بهذه المناطق البعيدة والفقيرة نوعا ما ، يكلف الأندلس نفقات أكثر مما يفيدها، وهذا ما جعله ، يقتصر على تعزيز سبتة بحامية أندلسية ، ويترك باقي المناطق للأمراء الزناتيين ، وفي المقابل تعهد أن يغدق عليهم كل أنواع السخاء، ثم يعقب dozy على ذلك بقوله: "وهذه السياسة كانت رشيدة بالنسبة للأندلس ولكنها خطيرة بالنسبة للمغرب الذي ترك لإمكانياته الخاصة"[2] .

ويبدو أن سياسة ابن أبي عامر الجديدة بالمغرب ، وبالذات المتعلقة بإعطاء امتيازات خاصة لحلفاء الدولة الأموية هناك، قد شجعت خزرون بن فلفول أمير بني خزر – وأحد أشهر زعماء زناتة- على الزحف صوب مدينة سجلماسة في شهر شعبان سنة 367هـ/ تشرين ثاني 977م ، وذلك لإحراز نصر جديد على الخوارج الصفرية ينفرد به عن بقية أمراء زناتة [3] ، إذ إنه لم يسبق

---

[1] مجهول، مفاخر البربر، ص 145.

[2] أنظر، Histoire des Muslmans Espaghe, t. 2, P. 229 نقلا عن ، محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 251 هامش 2.

[3] مجهول ، مفاخر البربر، ص 146.

لمدينة سجلماسة أن خضعت لطاعة زناتة وحلفائهم الأمويين بالأندلس من قبل [1] ، وما أن وصل خزرون بن فلفول بالقرب من مشارف المدينة على رأس جيش كبير من فرسان زناتة حتى خرج إليه أميرها المعتز بالله، فالتقى معه، ودارت بينهما رحى معركة فاصلة، تمكن خلالها خزرون من قتل المعتز وذلك لخمس بقين من رمضان سنة 367هـ/ كانون أول 977م، ودخل المدينة ، واستولى على أموال المعتز بالله [2] ، وأقام الدعوة للخليفة هشام المؤيد، وكتب له بخبر الفتح ، ثم بعث برأس المعتز بالله إلى الأندلس ، ونصب بباب السدة في قرطبة ، وعقد محمد بن أبي عامر، إلى خزرون بن فلفول على سجلماسة [3] ، فاستحكم بذلك نفوذ الأمويين بالمغرب، وقويت شوكة زناتة [4] .

كما أن سياسة ابن أبي عامر تجاه حلفاء الدولة الأموية بالمغرب ، سمحت بظهور شخصية أخرى من أمراء زناتة في تلك الفترة ، امتازت بالشجاعة والطموح ، وهو زيري بن عطية الزناتي، الذي عمل على جمع شمل قبائل زناتة بالمغرب الأقصى ، في محاولة منه لاستخلاص منطقة نفوذ خاصة به، تتبع بولائها إلى أمويي الأندلس، وبالفعل نجح في مهمته ، وانضوت الكثير من البطون الزناتية بالمغرب الأقصى تحت قيادته، وكثر جمعه سنة 368هـ/ 978م، فقام بإخضاع مدن المغرب الأقصى وحصونه لطاعته، فعظم شأن زناتة بالمغرب الأقصى واتسع ملكهم به [5] .

كان بلكين بن زيري ، نائب الفاطميين على إفريقية والمغرب، يرقب تطور الأحداث التي قام بها زعماء زناتة حلفاء الأمويين بالأندلس، على أراضي المغربين الأوسط والأقصى ، ولذلك لم يكن بلكين الصنهاجي ليترك قبيلة زناتة تثبت سلطانها على المغرب الأقصى وتزداد قوتها وتعمل

---

(1) أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 291.

(2) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 230-231.

(3) مجهول، مفاخر البربر، ص 146-147.

(4) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 231.

(5) ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 292؛ انظر، سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 292.

على استعادة المغرب الأوسط الذي أخرجت منه أنفاً عنها، فأعد جيشا ضخما [1] ، يقدر بستة آلاف فارس [2] ، وخرج بحملته المشهورة سنة 369هـ/ 979م [3] ، فاتجه أولا نحو مدينة البصرة فاستولى عليها [4] من يد يحيى بن علي الأندلسي والي المدينة من قبل الأمويين وحليفتهم زناتة [5] ، ثم اتجه إلى فاس التي كان والياها يدينان بالطاعة لأمراء زناتة ، ويدعوان للخليفة الأموي بقرطبة على منابرها ، وهم محمد بن أبي علي بن قشوش صاحب عدوة القرويين ، وعبد الكريم بن ثعلبة صاحب عدوة الأندلس، فقتلهما ، ودخل المدينة [6] ، وانطلق بعدها نحو مدينة سجلماسة أحد معاقل زناتة القوية بالمغرب الأقصى، فقاتل الزناتيين بها حتى هزمهم ، وقبض على أميرهم المغراوي ابن خزرون وقتله [7] ، واستولى أيضا على أرض الهبط[8] ، وطرد منها عمال بني أمية [9] .

هرع أمراء زناتة بالمغرب الأقصى إلى مدينة سبتة، أمام بلكين بن زيري بعد أن تمكن من هزيمة أقوى بطونهم ، واستولى على معظم المدن التي كانت تخضع لسيادتهم مثل البصرة وفاس وسجلماسة ، وقتل أمير مغراوة الزناتية وذلك طلبا للمساعدة من الحامية الأموية التي ترابض بمدينة سبتة ، وعلى أمل أن يصل اليهم المدد المباشر من الأندلس، فقد عبر صاحب كتاب مفاخر البربر بقوله : " فأجفل قدامه ملوك زناتة وأرزوا بقياطينهم إلى حائط بسبتة وفيهم يدو بن يعلى ،

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 231؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 96.

[2] مجهول، مفاخر البربر، ص 147.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 101؛ مجهول، مفاخر البربر، ص 147؛ يحدد ابن عذاري تاريخ هذه الحملة مرة بسنة 367هـ/ 977م، ومرة أخرى بسنة 378هـ/ 978م (البيان، ج1، ص 231)، ويتفق معه صاحب كتاب مفاخر البربر في التحديد الأخير لكنه يحدده مرة أخرى سنة 369هـ/ 979م (مفاخر البربر ، ص 47) ، أما ابن الأثير فيحدده بسنة 365هـ/ 975م (الكامل ، ج9، ص 20).

[4] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 231

[5] انظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 292-293.

[6] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 101.

[7] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157.

[8] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 231؛ ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 157؛ والهبط: هي نفس منطقة الغرب بالمغرب الأقصى (أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة ، ص 252 هامش 2).

[9] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 231؛ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157.

وأبناء عطية وغيرهم من ملوك بني خزر، ويحيى بن علي صاحب البصرة ، وكل مذكور من زناتة"[1] .

وما أن وصل زعماء زناتة إلى سبتة ، حتى بعثوا بالصريخ إلى الحاجب المنصور بن أبي عامر، ويستغيثون به ويطلبون نجدته، ولما كان ابن أبي عامر يقدر مدى الخطر الحقيقي الذي بدأ يهدد مدينة سبتة ، التي تنفرد بأهمية خاصة عن بقية مدن المغرب بالنسبة للأندلس ، فهي تعتبر مفتاح الأندلس من الجهة الجنوبية ، وعلى هذا الأساس، فإن وصول بلكين بن زيري الصنهاجي نائب الفاطميين بالمغرب إليها، يعني أن الأندلس أصبحت مهددة من قبل الخطر الشيعي الفاطمي، ولذلك خرج ابن أبي عامر بنفسه إلى الجزيرة الخضراء على رأس جيش كبير، ضم إليه معظم رؤساء زناتة وفرسانها الموجودين بالأندلس بعد أن دخلوا في طاعة الأمويين والتحقوا بهم، وذلك إما للعمل في صفوف الجيوش الأموية ، لغرض الجهاد في ثغور الأندلس ، بكنف خلفاء بني أمية ضد أعداء الإسلام من مسيحيين وغيرهم ، وإما أولئك الذين استعان بهم ابن أبي عامر في القضاء على العصبية العربية بالأندلس واستقروا هناك [2] .

وحالما اجتمع بالجزيرة الخضراء، عدد من القوات الأموية، التي تضم في صفوفها بعض زعماء وفرسان زناتة الذين كانوا بالأندلس، أجازهم المنصور ابن أبي عامر إلى سبتة بقيادة جعفر بن علي الأندلسي ، وعقد له على حرب بلكين بن زيري وقبيلة صنهاجة ،وأمده بمائة حمل من المال، فتعاقد زعماء زناتة بالعدوة المغربية ، وانضموا إليه، ورتبوا صفوفهم ، للقتال بساحة سبتة [3] ، ورغم ذلك استمرت القوات الأموية بالتوافد من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، حتى

---

[1] مجهول، ص 147.

[2] ابن خلدون، المصدر نفسه، ج6، ص 157.

[3] ابن خلدون، المصدر نفسه، ج6، ص 157؛ مجهول، مفاخر البربر، ص 147.

تجمعت أعدادا يصعب حصرها ووصفها ابن خلدون بقوله: " وكادوا يخوضون البحر من فراض الزقاق إلى مظاهرة أوليائهم من زناتة" [1] .

وفي ظل أوج المظاهرة العسكرية الأموية الزناتية التي أضحت بسبتة كان بكلين بن زيري قد وصل إلى منطقة قريبة منها تدعى تيطاوين (تطوان) ، وتجول في هضابها وشعابها بحثا عن مكان مناسب لمعسكره [2] ، واستقر رايه أخيرا على مكان جبل النور الذي يشرف على سبتة [3] ، ليفكر في خطة يمكن من خلالها أن يدخل المدينة ، فلما رأى بلكين من جموع زناتة وجند الأندلس المستعدة للقتال ما هاله [4] ،إضافة إلى حصانة المدينة الطبيعية ومنعتها [5] ، أيقن حينئذ استحالة الاستيلاء على مدينة سبتة بدون مساندة الأسطول البحري [6] وبخاصة أن المساعدات العسكرية من الأندلس ما زالت تصل إلى سبتة بواسطة المراكب البحرية الأموية ، وقد أشار صاحب كتاب مفاخر البربر إلى ذلك بقوله : " واتصال مدد الأندلس، وابيضاض بحرهم بانتظام الشرع من تلقائهم ما هاله" [7] .

وبينما كان بلكين بن زيري ما يزال محاصرا لمدينة سبتة [8] ، قام وقتذاك باستطلاع رأي أصحابه وخاصته حول إمكانية مهاجمة المدينة ، رغم أنه كان قد عبر عن رأيه لهم بقوله: " إنما سبتة حية دلت ذنبها حذاءها وفغرت فاها نحوها" [9] ، فترك أغلب أصحابه الأمر إليه، ولكن يبدو

[1] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157؛ مجهول، مفاخر البربر، ص 147.
[2] ابن خلدون، المصدر نفسه، ج6، ص 157.
[3] مجهول، مفاخر البربر، ص 147-148.
[4] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157.
[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 231.
[6] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 231.
[7] مجهول، ص 147.
[8] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 96.
[9] مجهول، مفاخر البربر، ص 148.

أن أحد رجاله [1] ، صرح عن حقيقة موقفه المعارض لمهاجمة سبتة وذلك بقوله : " أرى أن تنصرف عن القوم (يعني زناتة) ، فقد أقمتم بين البحر والسيف ولا مهرب منها، فسيقاتل كل منهم قتالا مستميتا ، وخلفك من قبائلهم وعشائرهم من قد طويت الديار دونه، فإن انكسرت أطبقوا عليك فعسر تخلصك ، وإن ظهرت فبعد صبر يذهب فيه من يعز فقده من رجالك ، ولا يسد موضعه"[2] ، ففكر بلكين قليلا ، ثم أمر بالسيف وضرب عنقه وقال: " خشيت أن يشيع رأيه في زناتة فتأخذ به وكرهت مع ذلك حياة مثله"[3] .

اضطر بلكين بن زيري ، أمام قوة موقف الزناتيين بمساندة القوات الأموية لهم، إلى فك الحصار عن مدينة سبتة [4] ، والعودة إلى إفريقية ، بعد أن استولى على كل بلاد المغرب الأقصى، فيما عدا سبتة، وعرج في طريق عودته على مدينة البصرة " وكان فيها عمارة عظيمة بالأندلس والبربر" [5] (أي البربر الزناتيين) كما كانت " دار ملك ابن الأندلسي" [6] ، يحيى منذ أن انفصل عن أخيه، فدخلها ونهبها ، ثم أمر بهدمها وانتقل منها إلى أصيلا [7] ، واتجه بعد ذلك إلى برغواطة حيث دخل معها في حرب وقتل ملكهم عيسى بن أبي

---

[1] وهو عبد الكريم بن ثعلبة صاحب عدوة الأندلس، الذي انضم إلى بلكين على أثر دخوله مدينة فاس، وذلك حسب ما يذكره صاحب كتاب مفاخر البربر (مجهول، ص 148)، رغم أن ابن أبي زرع يذكر أن بلقين قتله حينما دخل فاس قبل توجهه إلى سبتة (الأنيس، ص 101).

[2] مجهول ، مفاخر البربر، ص 148.

[3] مجهول ، المصدر نفسه، ص 148؛ تذكر بعض المصادر التاريخية أنه أثناء حصار بلكين بن زيري إلى سبتة قتل ابن أبي عامر، جعفر بن علي وبعث له برأسه ليسترضيه (ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 231؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 76)؛ ولكن هذا الكلام يخالف واقع الحدث التاريخي لمقتل جعفر بن علي ، لان قتل جعفر كان سنة 372هـ/ 982م (ابن عذاري، البيان ، ج2، ص 280-281)؛ بينما كان حصار بلكين لسبتة سنة 369هـ/ 979م .

[4] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 96؛ ويعبر جوليان عن ضعف موقف بلكين بقوله : " غير أنه لم يقو على الصمود أمام هجوم انطلق من سبتة حيث تحصن الوزير الأموي (يقصد ابن أبي عامر)" (أنظر، تاريخ إفريقيا الشمالية ، ص 89؛ يرى حسن إبراهيم حسن، أن المنصور بن أبي عامر اضطر للاتفاق مع بلكين بن زيري عندما حاصر بلكين هذا مدينة سبتة ، وذلك ليتفرغ لحروبه ضد المسيحيين في شمال الأندلس (أنظر، تاريخ الدولة الفاطمية، ص 110).

[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 331.

[6] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157.

[7] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 331-332.

الأنصار[1] ، وانشغل بذلك عن زناتة " فاستراحت زناتة منه" وعاد الزناتيون إلى مواطنهم ، ورجع جعفر بن علي من حيث أتى، وولى ابن أبي عامر على سبتة بدلا منه، مخلد بن زكرياء التميمي المعروف بابن برطال [2] .

وهكذا، نجح بلكين بن زيري في حملته على المغربين الأوسط والأقصى من تقليص نفوذ بني امية فيهما ، وتشريد قبائل زناتة في الرمال والصحاري[3] وقد صور ابن عذاري مدى نجاح هذه الحملة التي قادها بلكين بن زيري في المغربين الأوسط والأقصى، قائلا: " وأقام أبو الفتوح بلكين في بلاد المغرب، وهو قد ملكها ، وأهل سبتة منه خائفون ، وزناتة مشردون، وذلك من سنة 368هـ/ 979م" [4] .

ويشكك أحد الباحثين في صحة رواية ابن خلدون حول حجم المدد العسكري الأموي الذي وصل إلى سبتة ، للوقوف في وجه بلكين بن زيري ، بأنه لم يكن بالعدد والقوة اللذين صورهما ابن خلدون فيهما، وأنه المنصور بن أبي عامر لم يكن جادا في مساندة زناتة وإمدادها وإنما كان قصده من قدومه للجزيرة الخضراء هو القيام بمظاهرة عسكرية لإرهاب بلكين بن زيري ، وإلا فلماذا – حسبما يرى الباحث- لم تخرج هذه الجموع من الجيش الأموي ومن معها من زناتة لمطاردة بلكين وحربه بعد أن عاد عن سبتة إلى مدن المغرب الأقصى يهدمها وينهبها، ولماذا كان فرار زناتة إلى الصحاري بعد ابتعاد بلكين عن سبتة [5] ، ولعل الباحث عندما أقدم على الشك برواية ابن خلدون لم

---

[1] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157.

[2] مجهول، مفاخر البربر، ص 148-149؛ حسب المؤرخ المستشرق Dozy فإن البربر الذين تجمعوا بسبتة وجدوا أنفسهم في ضيق شديد، وبما أن بلكين أخذ منهم كل ما كانوا يملكونه تقريبا، لم يعرفوا ماذا يفعلون في المستقبل ، مما أتاح فرصة هائلة للوزير الأندلسي كي يحصل ، مرة واحدة على عدد كبير من الفرسان المهرة ، لم يضيعها وكتب إلى البربر ليقول لهم بأنهم إذا رغبوا في خدمة الأندلس عليهم أن يتأكدوا أنه لن ينقصهم أي شيء وأنهم سيتقاضون مرتبات كبيرة فاستجابوا له جماعيا ، ورضي أمير الزاب جعفر بن علي بوعود الوزير البراقة فالتحق بالأندلس (Histoire, de Musliman, P. 230) نقلا عن محمد بن عميرة ، دور زناتة ، ص 253 هامش 10).

[3] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 157.

[4] البيان، ج1، ص 332.

[5] أنظر، سنوسي، زناتة والخلافة، ص 293.

يأخذ بالاعتبار أن الملامح العامة لسياسة الدولة الأموية تجاه الدولة الفاطمية بالمغرب، لم تكن من خلال الاصطدام المباشر، أي التقاء القوات الأموية مع القوات الفاطمية وجها لوجه، وإنما كانت تعتمد على إثارة القبائل البربرية المناوئة للفاطميين وقد أكد ابن أبي عامر هذا الأمر في بداية تسلمه السلطة ، حيث ترك المناطق الواقعة وراء سبتة لزعماء زناتة كمناطق نفوذ تخضع لهم وتتبع اسميا للخليفة الأموي بالأندلس ، وذلك نظرا لكثرة المصاريف التي أرهقت خزينة الدولة الأموية من خلال وضع نوابا عنهم في تلك المناطق ، وهذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى، أن الوضع السياسي الداخلي والخارجي ، لا يسمح لابن أبي عامر بأن يغامر بقواته في ملاحقة بلكين بن زيري وقبيلته صنهاجة ببلاد المغرب، فابن أبي عامر كان حديث العهد بالسلطة في ظل وجود الخليفة الأموي الشرعي، هشام المؤيد والأوضاع الداخلية لم تستقر له بعد، كما أن الخطر المسيحي الخارجي بدأ يهدد الدولة الأموية بالأندلس في ذلك الوقت.

وبمعنى آخر، لم يكن ابن خلدون مبالغا بحجم المدد العسكري الذي وصل إلى مدينة سبتة، لأن ابن أبي عامر كان يريد أن يحقق هدف محدد وهو إبعاد الخطر الشيعي الفاطمي بواسطة نوابهم الصنهاجيين الذي هددوا سبتة وذلك بحكم أن سبتة مفتاح الأندلس ، ونقطة ضعفه من الجهة الجنوبية ، وعندما ضمن زوال الخطر الصنهاجي عنها، أعطى أوامره لقواته الأموية بالانسحاب والعودة إلى الأندلس.

ولكن ذلك لا يعني أن ابن أبي عامر اكتفى بزوال الخطر الصنهاجي المؤقت عن سبتة ، إذ إن " الانقلاب الزيري" [1] ، الذي أعاد السيادة الفاطمية إلى المغرب الأقصى ، جعله يعطي جانبا من اهتمامه العسكري لحدوده الجنوبية ، وأقام لهذه الغاية مركزا للعمليات الحربية في الجزيرة الخضراء ، أوكل إليه مهمة استعادة المغرب الأقصى ، ومراقبة الحركات المناوئة للدولة الأموية[2] وقد أكد صاحب كتاب مفاخر البربر هذا الاهتمام من قبل المنصور بن أبي عامر ، على اثر حملة

---

[1] انظر، إبراهيم بيضون، الدولة العربية، ص 359.

[2] أنظر، إبراهيم بيضون، المرجع نفسه، ص 359.

بليكن الأخيرة على المغرب الأقصى بقوله: " وضبط (أي ابن أبي عامر) مجاز الأندلس على من عبر نحوها من أعداء الدولة ومقارعة من نجم بأرض المغرب من ملوك بني عبيد الله الشيعي والتمييز بين تمسك بإحدى الدعوتين من البربر البادية والحاضرة"[1] .

ولعل حرص ابن أبي عامر على إعادة نفوذ بني أمية إلى المغرب الأقصى ، ومحاولة بلكين بن زيري منعه من تحقيق هدفه ، يفسر حقيقة رفض الأخير لطلب الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، حينما أرسل إليه أخيه باديس بن زيري من مصر سنة 371هـ/ 981م ، يأمره فيها بتخير ألف فارس من الصناهجة "منهم حبوس وماكسن، وزاوي، وحمامة بنو زيري، وبنو حمامة بن مناد، وزاوي بن مناد" [2] ، فكتب إليه بلكين حينها يعرفه بغلبة بني أمية على المغرب الأقصى ، وأن الدعاء اصبح لهم فيه على المنابر ، وأنه قد خرج لمحاربتهم بهؤلاء الرجال الذي سماهم الخليفة الفاطمي العزيز بالله " فإن عزم على بعثهم إليه، ترك الغرب وسار بنفسه في جملتهم" [3] ، فصرف الخليفة الفاطمي النظر في طلبه ولم يرد على بلكين بن زيري [4] ، ولا غرو أن رفض بلكين بن زيري لطلب الخليفة العزيز بالله ، وقبول الأخير لمثل هذا التصرف من بلكين ، يعطي فكرة أكيدة عن خطورة الوضع المتردي في المغرب الأقصى.

وبينما كان بلكين بن زيري قد خرج في إحدى حملاته على المغرب الأقصى لإعادة إخضاع زعماء زناتة هناك، حيث تمكن واندين بن خزرون الزناتي من دخول مدينة سجلماسة واستولى على ما كان فيها من الأموال، كما استطاع زيري بن عطية الزناتي من التغلب على فاس، وما كاد يصل بلكين إلى منتصف الطريق، حتى أصيب بمرض القولنج [5] ، وقيل خرج في يده "بثرة"

---

[1] مجهول، ص 127.

[2] ابن عذاري ، البيان ، ج1، ص 238.

[3] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 238.

[4] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 238.

[5] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 239؛ ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 414.

فمات [1] ، في مكان يقال له واركلان [2] ، أو وارقلين [3] ، ذلك لسبع بقين من ذي الحجة سنة 373هـ/ آذار 984م [4] ، بعدما أسند وصيته إلى ولده المنصور في رئاسة قبيلة صنهاجة وولاية إفريقية والمغرب [5] .

كان المنصور بن بلكين الصنهاجي لحظة وفاة أبيه في مدينة أشير [6] ، أرسل إليه أبي زعبل ابن هشام ، أحد أصحاب أبيه ، يخبره بذلك [7] ، فجلس المنصور لاستقبال العزاء بأبيه ، وأتاه أهل القيروان وسائر رجال صنهاجة من مختلف المناطق، يعزونه ويهنئونه في نفس الوقت بالولاية ، فأحسن استقبالهم وقال لهم : "لقد شق علي تعبكم في حركتكم ، غير أن سروري في رؤيتكم " ، ثم أمر عبد الله الكاتب بأن يدفع للوافدين عليه عشرة آلاف دينار ضيافة ، وأن يصرفهم ، ولم يلبث أن استدعاهم المنصور مرة أخرى وقال لهم : " إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهرا، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أن أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب لأني ورثته عن آبائي وأجدادي وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير" [8] ، وهذا مؤشر قوي من طرف المنصور بن بلكين، استهل به عهده بمحاولة الاستقلال الذاتي المبكر عن الدولة الفاطمية بمصر، إذ كان قصد المنصور أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله ، لا يستطيع عزله بكتاب [9] ، كما أن حديث المنصور للناس يدل

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 414.

[2] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 97.

[3] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 414؛ في حين يورد ابن عذاري في الموضع باسم واركنفو (البيان، ج1، ص 239)؛ بينما يرد عند ابن خلدون باسم بوراكسن ما بين سجلماسة وتلمسان (العبر، ج6، ص 157).

[4] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 414؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 97؛ وحسب ابن الخطيب، أن بلكين توفي سنة 372هـ/ 983م (أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 67).

[5] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 414؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 97.

[6] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 415.

[7] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 239.

[8] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 239؛ أورد ذلك ابن الأثير بقوله: " إن أبي يوسف وجدي زيري كانا يأخذان الناس بالسيف وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان ولست ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب (الكامل، ج7، ص 415) ؛ انظر، الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، ص 161.

[9] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 415.

على أنه سوف يتبع سياسة تختلف عن سياسة أبيه وجده التي امتازت بالعنف ، فهو يريد أن يكسب ود الناس وذلك عن طريق الإحسان إليهم.

وبعد أن انتهى المنصور بن بلكين من استقبال العزاء والتهاني ، سار إلى القيروان ، واتخذ من رقادة مقرا مؤقتا له، وباشر تولية عماله على المناطق ثم جهز هدية قيمة تقدر بـ " ألف ألف" دينار ، وأرسلها إلى الخليفة الفاطمي العزيز بالله بمصر، ثم عاد إلى أشير ، بعدما أوكل مهمة جباية الأموال بالقيروان والمهدية وغيرهما من مناطق إفريقية إلى أحد أصحاب أبيه الأوفياء، وهو عبد الله بن الكاتب [1] .

وعلى أية حال ، فقد استمرت السيادة الفاطمية والأموية المشتركة سائدة في بلاد المغرب، تغذيها روح المنافسة والعداء التقليدي بين بني هاشم ، وبني أمية من جهة ، وبين قبيلتي صنهاجة البرنسية ، وزناتة البترية من جهة أخرى، فالصنهاجيون حلفاء الفواطم ، بينما الزناتيون مؤيدون للنفوذ الأموي في المغرب، وأصبح الصراع في بلاد المغرب عبارة عن صراع بين صنهاجة وزناتة ، ومن خلال ضرب بعضهما ببعض، وبات واضحا كل الوضوح أن البرانس فاطميون والبتر أمويون[2] .

أما دور الفاطميين والأمويين ، فاقتصر على إثارة الفتن والدسائس من وراء الستار ، حتى أصبح المغرب منقسما على نفسه يعيش في فوضى مزعجة تحت ظل الدسائس العديدة ، والحروب المتكررة إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ، حيث تمكنت صنهاجة أو بني زيري من فرض سيطرتها باسم الدولة الفاطمية على القسم الشرقي للمغرب حتى نهر ملوية[3].

---

(1) أبن الأثير، الكامل، ج7، ص 415.

(2) أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 187.

(3) أنظر، الفيلالي، المرجع نفسه، ص 187.

وأما القسم الغربي من نهر ملوية حتى مدينة طنجة ، فقد ظل يخضع لسيطرة زناتة ، وحلفائها الأمويون في الأندلس وعلى هذا الأساس ، حدث نوع من توازن القوى في المنطقة ، بين الخلافتين الفاطمية ، المتمثلة في الزيريين ، والأموية المتمثلة في الزناتيين [1] .

ونظرا للشجاعة والإقدام اللذين اتسمت بهما قبائل البربر بالمغرب فقد استجلب المنصور بن أبي عامر من رؤسائها وحماتها وأنجادها عددا كبيرا، وذلك إما لمساعدته في حروبه الخارجية ضد المسيحيين [2] ، وإما لمساعدته في حروبه الداخلية ضد قبائل الأندلس الخارجين على السلطة ، وقد أكد ابن عذاري الهدف الأخير بقوله: " وأذل (ابن أبي عامر) قبائل الأندلس بإجازة البربر ، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضادهم ، واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور وسلبوا منهم الظهور ووثبوا عليهم الوثوب المشهور، الذي أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا ، وملأها وحشا وذئابا ، وأعراها من الأمان برهة من الزمان" [3] . ولا شك ، أن فرسان زناتة كان لهم الحظوة والقبول لدى المنصور بن أبي عامر عن غيرهم من قبائل البربر، وذلك بسبب ما أبدوه من حسن طاعة وولاء للدولة الأموية بالأندلس ، كما نصح بعض الخاصة والأعيان المنصور بن أبي عامر بأن يكثر من فرسان زناتة في الأندلس ، وأن يتخذ منهم حرساً خاصاً له، ومما جاء على لسان أصحاب ابن أبي عامر في هذا المعنى قولهم : " قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة ، واعتقاد المنة عليهم، فأرسل إليهم ، يأتوك سراعا ، فيجد إحسانك إليهم مكانا" [4] . وبالفعل أنفذ ابن أبي عامر كتبه إلى العدوة المغربية باستدعاء رجال زناتة للعمل في خدمته ، فقدم إليه منهم أعدادا كثيرة " وما زالوا خاصته وبطانته، إلى أن هلك وانقرضت الدولة العامرية"[5] .

---

[1] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 187.

[2] ابن بلكين ، مذكرات الأمير عبد الله المسماة التبيين ، ص 16.

[3] البيان ، ج2، ص 274.

[4] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 293-294.

[5] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج2، ص 294.

*** زيري بن عطية المغراوي ودوره في العلاقات في عهد المنصور وابنه باديس ابني زيري الصنهاجي (373-406هـ/984-1015م)**

كان زيري بن عطية الزناتي المعروف بالقرطاس [1] ، قد نجح منذ سنة 368هـ/978م، في جمع شمل قبائل زناتة بالمغرب الأقصى ، في محاولة منه لاستخلاص منطقة نفوذ خاصة به، تتبع بولائها إلى الخليفة الأموي هشام المؤيد ، وحاجبه المنصور بن أبي عامر، وفي سبيل تحقيق هذا المشروع قام بإخضاع بعض المدن بالمغرب الأقصى ، التابعة لسيادة بني زيري نواب الفاطميين بإفريقية والمغرب ، فارتفعت مكانة زناتة السياسية بذلك وعظم شأنها [2] ، وعلى الرغم من أن بلكين بن زيري استطاع استرجاع تلك المدن في حملته على المغرب الأقصى سنة 369هـ/ 979م [3] ، إلا أن زيري بن عطية سرعان ما عاود السيطرة على أهم مدن المغرب الأقصى وهي مدينة فاس سنة 373هـ/ 984م [4] ، كما تمكن واندين بن خزرون الزناتي من الاستيلاء على مدينة سجلماسة في نفس السنة [5] ، ولم يسمح بلكين بن زيري للزعيمين الزناتيين من الاستيلاء على المدن التابعة لسيادة صنهاجة ، إذ بادر بالخروج بنفسه في نفس السنة أي سنة 373هـ/ 984م ، ولكن المنية وافته في منتصف الطريق وهو متوجه لاستعادتهما [6] .

ولما استقرت أوضاع إفريقية والمغرب إلى المنصور بن بلكين بعد وفاة أبيه [7] ، بادر بإرسال جيش مع أخيه يطوفت لاسترجاع فاس وسجلماسة سنة 374هـ/ 985م [8] ، ولكن صاحب فاس زيري بن عطية اعترض طريقه فالتقى الطرفان ، ودارت بينهما معركة قوية ، انهزم فيها

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 425.

(2) ابن أبي زرع، الأنيس، ص 102؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 198؛ ابن أبي دينار ، المؤنس، ص 292.

(3) ابن أبي زرع ، الانيس، ص 101؛ مجهول، مفاخر البربر، ص 147.

(4) ابن عذاري، البيان، ج2، ص 239؛ ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 414.

(5) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 239.

(6) ابن الأثير ، الكامل، ج7، ص 414؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 97.

(7) ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 424؛ ويذكر ابن عذاري أن المنصور كان لقبه " عدة العزيز بالله" (البيان، ج1، ص 239).

(8) ابن أبي دينار، المؤنس، ص 99.

عسكر المنصور وقتل منهم عددا كبيرا، وأسر جماعة كثيرة [1] ، وكان ممن قتل في هذه المعركة قائدا للمنصور هما ابن شعبان وابن عامل، حيث صلب الأول على باب فاس، وأما الآخر فقد مثل في جثته ، ولما بلغ المنصور هزيمة أخيه جهز جيشا آخر، وأرسله من المنصورية يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة 374هـ/ آذار 985م ، فاجتمع مع يطوفت بمدينة تاهرت [2] ، ولكن يطوفت فضل العودة إلى أشير قاعدة صنهاجة [3] ، ولم يعد المنصور بعد ذلك إلى غزو بلاد زناتة [4] .

ويبدو أن أحوال العدوة المغربية لم تعد تعجب الحاجب المنصور بن أبي عامر وخاصة بعد محاولة صنهاجة استعادة فاس، وسجلماسة إلى سلطان الفاطميين ، ولذلك فكر في شخصية قوية تستطيع ضبط الأمور فيها، ومن هذا المنطلق ندب الحاجب المنصور لحكم المغرب الوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي، وأعطاه السلطة المطلقة ، وأمده بالأموال والعساكر [5] ، وأمره أن يعمل على استمالة القبائل المغربية ، والإحسان إليها، ولا سيما منها قبيلة مغراوة وزعيميها مقاتل وزيري ابني عطية ، لانحيازهما لبني أمية وصدق طاعتهما [6] ، وسار الوزير حسن بن أحمد إلى المغرب سنة 376هـ/ 987م، ونزل في مدينة فاس، وضبط شؤون البلاد ، واجتمعت إليه أمراء زناتة ومغراوة ، ونجح بمهمته نجاحا لم يسبق لأحد قبله، حتى أن ابن أبي عامر كاد أن يصدق بعض الإشاعات التي ترددت حول رغبة الوزير حسن بخلع طاعة بني أمية ، فأرسل إليه سرا يستدعيه للحضور إلى الأندلس، فازدادت حينها ثقة ابن أبي عامر فيه، وصرفه مرة أخرى إلى عمله بالمغرب ، بعد أن ضاعف تكريمه[7] .

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 225.

[2] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 241.

[3] ابن أبي دينار، المؤنس، ص 99.

[4] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 241؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 99.

[5] مجهول، مفاخر البربر، ص 153.

[6] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 232.

[7] مجهول، مفاخر البربر، ص 153.

ولم يلبث أن طرأ تطور مهم على رئاسة قبيلة مغراوة الزناتيية، حيث انفرد زيري بن عطية برئاستها وذلك على أثر وفاة أخيه مقاتل سنة 378هـ/ 988م ، فوجدها ابن أبي عامر فرصة لضرب حليفه الزناتي الآخر وهو يدو بن يعلى اليفرني الذي كره غدره وكثرة خروجه على الدولة الأموية ، فكانت من آثاره السيئة على الأمويين ، تمكنه من قتل الوزير حسن صاحب فاس في إحدى المعارك العنيفة ، ولذلك عمل ابن أبي عامر على تقريب زيري بن عطية منه، وخصه بمكانة مميزة ، إذ عهد إليه بولاية المغرب خلفا للوزير [1] ، كما أوكل إليه أيضا ، مهمة محاربة بني زيري الصنهاجيين نواب إفريقية ، ومن تبعهم من أولياء الشيعة الفواطم ، بالديار المغربية [2].

ومما زاد في تدعيم النفوذ الأموي بالعدوة المغربية في هذه الفترة ، الانشقاق الذي حصل في البيت الصنهاجي ، حينما خالف أبو البهار بن زيري على ابن أخيه المنصور بن بلكين نائب الفاطميين بالمغرب ، وبينما لم تفصح الروايات التاريخية عن حقيقة النزاع بين الطرفين[3] ، إلا أن ابن الأثير ينفرد من جانبه إلى إشارة عامة عن ذلك بقوله: " لشيء جرى عليه من المنصور لم يحمله له لعزة نفسه (يقصد أبو البهار)" [4] ، فقد خلع أبو البهار سنة 379هـ/ 989م [5] ، طاعة الفاطميين ودعوتهم ، وانضم إلى دعوة المروانيين بالأندلس [6] ، وساعده على ذلك صهره خلوف بن أبي بكر، وكان من أكبر قادة المنصور بن بلكين [7] ، وتمكنا من الاستيلاء على بعض أعمال المغرب الأوسط ، التابعة للمنصور بن أبي عامر على تلك المناطق[8] .

---

[1] مجهول، مفاخر البربر، ص 153، 155؛ انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 233.

[2] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 233.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 244؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 102.

[4] الكامل، ج7، ص 441.

[5] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 244؛ ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 441؛ في حين يحدد ابن أبي زرع خروج أبو البهار، على المنصور سنة 377هـ/987م (الأنيس، ص 102).

[6] ابن ابي زرع، الانيس، ص 102.

[7] مجهول ، مفاخر، البربر، ص 156.

[8] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 102.

ولذلك ، خرج المنصور بن بلكين بنفسه لإخضاع عمه أبو البهار الذي انتهى به المقام بمدينة تاهرت، وما أن اقترب منه ، حتى بادر الأخير بالهرب باتجاه المغرب الأقصى، فدخل المنصور بن بلكين تاهرت وأمن أهلها [1] ، وسار بعد ذلك في أثر عمه أبي البهار حتى جاوز تاهرت بسبع عشرة مرحلة ، فلما شق الأمر على عسكره [2] ، رجع المنصور عن تتبع عمه، وولى على تاهرت أخوه يطوفت ، ثم عاد بعدها إلى مدينة أشير قاعدة صنهاجة.

وأما أبو البهار فقد كتب إلى ابن أبي عامر بالأندلس، يسأله الدخول في طاعته ، وطلب منه أن يكتب له إلى زيري بن عطية صاحب فاس بأن يسمح له بدخول المدينة ، وينضم إليه، ولكن ابن أبي عامر فيما يبدو كان يشك في ولاء أبي البهار، ولذلك رد عليه بكتاب ب قوله: " إن كنت على نية فيما وصفته عن نفسك ، فأرسل إلي ابنك يكون رهينة عندي وأفعل معك ما أحببته" [3] .

فأرسل إليه أبو البهار ابنه في مراكب مع كاتبه ميمون المعروف بابن الدابة ولكن هذا المركب عطب في وسط البحر ، وغرق ومات جميع من كان على متنه، مما اضطر ذلك أبو البهار من إرسال ابنه الآخر إلى الأندلس ، ولما تأكد لابن أبي عامر صدق ولائه [4] ، أرسل إليه هدايا وخلعا كثيرة ، ومبلغا من المال قدر بأربعين ألف دينار ، وأقره على ما كان بيده من البلاد [5] ، وكتب إلى زيري بن عطية الزناتي، بأن يسمح له بدخول فاس، وأن يقبل طاعته، فلما بلغ ذلك آبا البهار، دخل فاس [6] ، فأكرمه زيري وأعلى محله، وأخذ يغير معه على المناطق التابعة لنفوذ

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 244؛ ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 241.

[2] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 441.

[3] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 244.

[4] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 244.

[5] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 103.

[6] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 245.

المنصور بن بلكين ، واستطاعا معا من السيطرة على كل النواحي المجاورة لفاس سنة 381هـ/ 991م [1] .

تكررت المراسلات بين ابن أبي عامر، وأبي البهار الصنهاجي، وبخاصة بعد أن استقر الأخير بفاس، وكان السفير بينهما التاجر هدوس القروي ، وأرسل ابن أبي عامر خلال ذلك الى أبي البهار وصهره خلوف الهدايا والأمتعة والأموال الكثيرة، والظاهر أن أبا البهار أراد أن يدعم صلته بالمنصور بن أبي عامر، ويؤكد له حسن طاعته فأنفذ إليه وفدا برئاسة ابن أخيه أبو بكر بن حبوس ابن زيري بن مناد، الذي كان فارس صنهاجة في ذلك الوقت ، وسار معه طائفة من أهل بيته ووجوه قومه ، فوافوا قرطبة سنة 381هـ/ 991م ، فاستقبل الحاجب المنصور أعضاء الوفد استقبالا رسميا ، وأوصل إليه رئيسهم أبا بكر وأكرم مثواه، وخلع عليه وعلى جميع أصحابه، وأعادهم إلى بلادهم مكرمين وارسل معهم إلى أبي البهار مبلغا من المال يقدر بخمسة وعشرين ألف دينار دراهم ، وهدايا عبارة عن خمسمائة قطعة من صنوف ثياب الخز وغيره ، وحلية وآنية وألطاف تقدر قيمتها بنحو عشرة آلاف دينار [2] .

وبالتأكيد أن العلاقة الودية التي نشأت بين ابن أبي عامر وأبي البهار الصنهاجي قد أفادت زيري بن عطية المغراوي في حربه مع يد بن يعلى اليفرني أثناء نزاعهما على مدينة فاس في تلك الفترة ، إذ كانت الحرب بينهما سجالا، فمرة يخرجه عنها يدو ومرة يخرجه هو عنها، ولذلك أمر ابن أبي عامر حينها أبي البهار بمساعدة زيري في حربه تلك، وبفضل مساعدته، توقف نشاط يدو ابن يعلى الحربي عن فاس، ورجحت كفة زيري عليه، ويظهر أن هذا الأمر دفع زيري إلى اقتسام مدينة فاس مع أبي البهار، وذلك لتحفيزه على الوقوف معه ضد يدو فيما إذا عاود الهجوم على

---

[1] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 446.

[2] مجهول، مفاخر البربر، ص 156-157.

المدينة مرة أخرى وقد أشار صاحب كتاب مفاخر البربر إلى ذلك بقوله : " فاقتسما مدينة فاس وأعمالها شق الأنملة ، فكان لأحدهما عدوة وللآخر عدوة وأخذا في مغاورة يدو"[1] .

إلا أن مدة التفاهم والوئام التي سادت بين زيري بن عطية ، وأبي البهار لم تدم طويلا، إذ سرعان ما نشب الخلاف بينهما، وذلك على أثر انتقاض خلوف بن أبي بكر، لطاعة الأمويين ، وعودته إلى الدعوة الفاطمية ، فلما أراد زيري بن عطية بأن يقوم بحرب خلوف ، طلب من أبي البهار مساعدته عليه، ولكن أبو البهار لم يرض، لصلة القرابة التي تربط بينهما ، مما اضطر زيري لأن يلقى خلوف لوحده، في شهر رمضان سنة 381هـ/ كانون أول 991م، ودارت بينهما معركة قوية ، قتل فيها خلوف بن أبي بكر مع جملة من أصحابه ، واستولى زيري على عسكره ومتاعه، وطلب أغلب الصنهاجيين الأمان ، وعادوا إلى طاعة بني أمية، ولم ينج من تلك المعركة، سوى عطية أخو خلوف في شرذمة من أصحابه، حيث عبروا إلى الصحراء ، فأرسل زيري بخبر النصر إلى ابن أبي عامر، فسر بذلك، وأمر بقراءة الخبر على المنابر [2] .

ولم يمض شهران على مقتل خلوف [3] ، حتى تفاقم الخلاف بين القائدين بالمغرب، زيري ابن عطية المغراوي ، وأبو البهار الصنهاجي، وذلك في شهر شوال سنة 382هـ/ كانون الثاني 992م[4] ، ودارت بين الطرفين معركة ، انهزم فيها أبو البهار، واتجه هاربا صوب سبتة مظهرا ، العبور إلى الأندلس، ولما علم ابن أبي عامر بذلك، أنفذ كاتبه عيسى بن سعيد على راس مجموعة من العسكر، لاستطلاع حال أبي البهار، وإحكام أمره، ولكن أبو البهار أحجم عن العبور إلى الأندلس، وصعد إلى قلعة جراوة ، ومن هناك أرسل إلى ابن أخيه المنصور بن بلكين يطلب منه الصلح والعودة إلى بلاده، فما كان من الأخير إلا أن قبل طلب عمه، فخلع أبو البهار عندئذ طاعة

---

[1] مجهول، ص 157.

[2] مجهول، مفاخر البربر، ص 157-158.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 103.

[4] مجهول، مفاخر البربر، ص 159.

الأمويين ، وعاد إلى الدعوة الفاطمية [1] ، فغضب ابن أبي عامر لذلك، وكتب إلى زيري بن عطية بعهدة على جميع البلاد التي بحوزة أبي البهار وأمره بقتاله عليها، فسار زيري بن عطية من فاس على راس جيش كبير من قبائل زناتة ، ففر أبو البهار أمامه ولحق بابن أخيه المنصور بن بلكين ، تاركا وراءه جميع المناطق التي كان يسيطر عليها، فدخل زيري مدينة تلمسان وسائر اعمال أبي البهار، وأصبح بذلك يمتد نفوذه من السوس الأقصى ، إلى الزاب، وكتب بالفتح إلى ابن أبي عامر [2] .

وأرفق زيري بن عطية مع كتاب الفتح إلى ابن أبي عامر بالأندلس، هدية قيمة اشتملت على مئتي فرس من عتاق الخيل ، وخمسون جملا مهرية سوابق، وألف درقة لمطية ، إضافة إلى أحمال كثيرة من القسي ، وقطوط الزبد والزرافة والوحوش الصحراوية كاللمط وغيره وألف حمل من التمر الجيد، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة ، فسر بها ابن أبي عامر وكافأه عليها، وكتب له بتجديد عهده على المغرب [3] .

ولم يكتف ابن أبي عامر، بمكافأة زيري بن عطية ، بل طلب منه القدوم إلى الأندلس [4] ، وذلك لتحقيق هدفين أساسيين الأول منهما ، زيادة في تكريمه والثاني، لتمتين العلاقة معه عن طريق لقائه بشكل مباشر في أثناء حلوله ضيفا في مقر الخلافة الأموية، وهذا بالتالي يساعد على تطبيق سياسة ابن أبي عامر بالعدوة المغربية ، الرامية لكسب مناطق نفوذ جديدة على حساب الأراضي التابعة لقبيلة صنهاجة حليفة الدولة الفاطمية، ثم دفع زيري بن عطية على محاربة فرع بني يفرن الزناتي المنشق على الطاعة الأموية.

---

[1] مجهول، مفاخر البربر، ص 159.

[2] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 103.

[3] ابن أبي زرع، المصدر نفسه، ص 103؛ وقد اشار ابن الخطيب إلى تلك الهدية دون أن يذكر محتوياتها (أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 157).

[4] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 157؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 211.

وتنفيذا لرغبة ابن أبي عامر ترك زيري بن عطية المغرب، متوجها إلى الأندلس ، بعد أن استخلف على أعماله ابنه المعز، وأمره بالمقام بتلمسان [1] ، فوصل إلى حضرة قرطبة في شهر رجب [2] سنة 382هـ/ تشرين أول 992م [3] ، وكان يحمل معه هدية قيمة اشتملت على طيور نادرة من " جملتها طير فصيح يتكلم بالعربية والبربرية" [4] ، وأسدان من الأسود الكاسرة محمولان في قفصين من الحديد، إضافة إلى أصناف من التمور المغربية المشهورة بجودتها[5] ، ونمر قوي كبير الحجم وزرافة عجيبة[6]، وعبر معه أيضا نحو ستمئة من قومه بين فارس وراجل [7] .

واستقبل زيري بن عطية استقبالا رسميا في الأندلس، وذلك نظرا للمكانة السياسية التي يحظى بها عند ابن أبي عامر، وقد أكد ابن الخطيب تلك المكانة بقوله: " واستدعاه المنصور ابن أبي عامر مفخما بزيارته ومفتخرا بقدوم مثله"[8] ، حيث برز للقائه الخاصة والعامة ، وأنزله بقصر جعفر بن عثمان المصحفي، وبالغ ابن أبي عامر في إكرامه حيث أفاض عليه الأموال والخلع والجرايات ومنحه لقب الوزارة، وجدد له عهده على المغرب، وعلى كل البلاد التي تغلب عليها[9]، وحمّله

---

[1] ابن أبي زرع، الأنيس ، ص 103؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 211.

[2] ابن الخطيب، اعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 157.

[3] ابن الخطيب، المصدر نفسه ، القسم الثالث، ص 157؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 103؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 221؛ اختلفت المصادر التاريخية في تحديد تاريخ هذا السفر، فتجعله سنة 379هـ/ 989م (ابن خلدون، العبر، ج4 ص60؛ ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 246)؛ أن قبل سنة 380هـ/ 990م (مجهول، مفاخر البربر، ص 153)؛ أو سنة 381هـ/991م (ابن خلدون العبر ، ج2، ص 41)؛ أو سنة 382هـ/992م (ابن الخطيب، اعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 157؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 211) أو 383هـ/ 993م (ابن خلدون ، العبر، ج2، ص 43).

[4] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 104؛ ويذكر ابن الخطيب، ذلك بقوله أن الطيور " مفصحة بالألسن البشرية" (أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 157)، ويمكن أن تكون طيور البغبغاء التي تردد كلام الإنسان سواء كان بالعربية أو بالبربرية.

[5] ابن الخطيب، أعمال الاعلام ، القسم الثالث، ص 104؛ ابن أبي زرع، الأنيس، ص 104.

[6] مجهول، مفاخر البربر، ص 160.

[7] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 157؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 211.

[8] أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 157.

[9] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 104؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 211.

هدية قيمة عبارة عن خيول وسلاح وكسي فخمة ، وألطاف فاخرة ، وألحق أسماء الرجال الذين قدموا معه بالديوان ، ثم أمره بالعودة إلى أعماله [1] .

وتؤكد الروايات التاريخية ، أن نتائج زيارة زيري بن عطية للأندلس، جاءت عكس الأهداف التي رسمها ابن ابي عامر لها، إذ أن زيري بن عطية بمجرد وصوله إلى مدينة طنجة المغربية " وضع يده على رأسه وقال: "الآن علمت أنك لي" [2] ، ورفض لقب الوزارة الذي منحه إياه ابن أبي عامر، لأنه رأى ذلك دون مرتبة الإمارة وجاء ذلك على لسانه بقوله: " إلا أن يحتسب بثمن الوزارة التي حطني بها عن رتبتي" [3] ، بل وصل به الأمر إلى اعتبار لقب الوزارة إهانة له، فعندما ناداه أحد أصحابه باسم الوزير نهاه عن ذلك وقال: " وزير من يا لكع، لا والله إلا أمير بن أمير واعجبا من ابن أبي عامر ومخرقته لأن تسمع بالمعيذي خير من أن تراه، ولو كان بالأندلس رجل ما تركه على حاله وإن له منا ليوما" [4] ، ووصلت أخبار زيري بن عطية إلى ابن أبي عامر، فصر عليها أذنيه ، وزاد في اصطناعه [5] ، وأقره لوقته [6] ، إذ لم يرد أن يخسره في ظل الظروف السياسية الحرجة للدولة الأموية على الساحة المغربية.

وعلى الرغم من أن أحد الباحثين، حاول تسويغ تصرفات زيري بن عطية ، على أنها تعبيرا عن رغبته في الاستقلال الذاتي، أو أنها تنفيذا للمؤامرة التي اتفق عليها مع السيدة صبح أم الخليفة هشام، وذلك بسبب استئثار ابن أبي عامر بالحكم وحجره على الخليفة الأموي، لذلك رأت السيدة صبح بأنه لا يمكن القضاء عليه إلا عن طريق قوة خارجية ، ومن هذا المنطلق اتصلت بزيري في أثناء زيارته للأندلس، وأخذت تبعث له برسلها لإتمام مخططها [7] ، فإن الروايات التاريخية

---

[1] مجهول، مفاخر البربر، ص 154.

[2] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 104؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 211.

[3] مجهول، مفاخر البربر، ص 154.

[4] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 211.

[5] مجهول، مفاخر البربر، ص 154؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 211.

[6] مجهول، مفاخر البربر، ص 154.

[7] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 238-239.

التي أوردتها المصادر المغربية تركز عند حديثها عن أسباب النزاع الذي حصل سنة 386هـ/ 996م ، بين ابن أبي عامر وزيري بن عطية ، بأن ذلك كان بسبب إشفاق الأخير على حالة الخليفة الشرعي هشام المؤيد ، في ظل استبداد ابن أبي عامر بسلطة الخلافة الأموية، حتى أن ذلك السبب حدا، بصاحب كتاب مفاخر البربر إلى اعتبار أن مصالح زيري بن عطية السياسية مع ابن أبي عامر، لم تمنعه من رفض الحالة المتردية التي وصل إليها الخليفة الأموي الشرعي، ومما جاء بهذا الصدد قوله: " ولم تزل الحال بين ابن أبي عامر في القوة ، فاعلم أن لزيري في معنى الإشفاق والانكسار للاستبداد عليه أقوالا لم تر السياسة الإعراض عنها، ففتح عليه باب المحنة، وحمل عليه خطة الهضيمة"[1] .

كما أكد المؤرخ المقري السبب نفسه بقوله: " لما بلغه (زيري) ما بلغه من إعلانه بالنيل منه (ابن أبي عامر) والغضب من منصبه والتأفف لحجر الخليفة هشام" [2] . وعلى هذا يمكن تسويغ تصرفات زيري بن عطية تلك ، على أنها نتيجة طبيعية لما شاهده بأم عينه من الوضع المتدهور للخليفة هشام، أمام تسلط ابن أبي عامر وهيمنته على السلطة ، ولذلك نجد زيري يرفض لقب الوزارة ، لئلا يكون رهينة استبداد ابن أبي عامر، وفي نفس الوقت يتمسك بلقب الإمارة، باعتباره إرث آبائه وأجداده آل خزر، زعماء قبيلة مغراوة الزناتية ، إلا أن ذلك لا يعني من أن زيري لم يكن يضمر الاستقلال الذاتي بالمغرب [3] .

وعلى أية حال، لم تكن الأوضاع السياسية بالعدوة المغربية مواتية لكلا الطرفين، لأن يقوم أحدهما بحركة مضادة تجاه الآخر ، فمن ناحية ، فشل ابن أبي عامر بضرب زيري بن عطية بطريقة غير مباشرة، وذلك عن طريق اكتساب ولاء يدو بن يعلى اليفرني ودعوته إياه لزيارة الأندلس، حيث امتنع الأمير اليفرني عن ذلك وقال لرسوله: " قل لابن أبي عامر متى عهد حمر

---

[1] مجهول، ص 160.

[2] نفح الطيب، ج1، ص 398.

[3] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 157 هامش 2.

الوحوش تنقاد للبياطرة" [1] ، ومن ناحية أخرى ، استغل يدو بن يعلى فترة وجود زيري بن عطية في الأندلس ، واستعاد سيطرته على مدينة فاس [2] ، وهكذا ، أضحى أمامهما عدوا مشتركا يجب توحيد الصفوف في الجبهتين المغربية والأندلسية لمحاربته.

وأسرع زيري بن عطية نحو مدينة فاس، لتخليصها من يد يدو بن يعلى [3] ، ونزل بالقرب منها، ثم التقى الطرفان، ودارت بينهما معركة قوية قتل فيها من أفراد القبيلتين مغراوة وبني يفرن أعدادا لا تحصى، وتمكن زيري من دخول فاس عنوة ، وقتل يدو بن يعلى ومثل بجثته ، وذلك سنة 383هـ/ 993م ، وبعث برأسه إلى ابن أبي عامر بقرطبة ، فقوي أمر زيري بن عطية بذلك، وانفرد بسيادة المغرب الأقصى، ولم يبق له منازع وهابته أمراء زناتة، وأصبح الأمر مهيئاً بينه وبين ابن أبي عامر لتصفية الحسابات [4].

وحرص زيري بن عطية من جانبه على إظهار حسن الطاعة والولاء لابن أبي عامر [5] ، إلى حين إتمام استعداداته النهائية من بناء مدينته الجديدة في وسط مناطق نفوذه [6] ، فقد أرسل في صدر شوال سنة 384هـ/ كانون ثاني 994م ، رسولا إلى قرطبة يحمل معه هدية قيمة، ليؤكد من خلالها حسن نيته تجاه ابن أبي عامر، واشتملت الهدية على مائتي فرس منها عشرون فرسا من عتاق الخيل وخمسون جملا مخصصة للمواكب السلطانية وأحمال كثيرة من الدرق اللمط، والقنى الهندي، وأصناف أخرى من الألطاف والتحف والحيوانات النادرة ، والطيور الجميلة ذات الصوت

---

[1] مجهول، مفاخر البربر، ص 155.

[2] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 158؛ ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 104.

[3] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 158.

[4] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 104-105.

[5] مجهول، مفاخر البربر، ص 159.

[6] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 105.

البديع ، وزرافة حرص زيري على وصولها إلى قرطبة حية لكنها نفقت في الطريق ، فجيء بجلدها محشوا ، معظم سرور ابن أبي عامر بتلك الهدية ، وأجزل مكافأة زيري عليها[1] .

وكان زيري بن عطية قد اختط مدينة وجدة في شهر رجب سنة 384هـ/ تشرين أول 994م في وسط مضارب قبيلة مغراوة الزناتية ، وأقام فيها قصبة وقصرا له، وأحاطها بأسوار ضخمة ، وركب لها أبوابا محكمة وسكنها بأهله وحشمه ونقل إليها أمواله وذخائره واتخذها عاصمة له [2] .

ولما انتهى زيري بن عطية من بناء عاصمته الجديدة ، واطمأن على استقرار الأوضاع في المغرب بعدما تخلص من عدوه الأول، يدو بن يعلى زعيم بن يفرن، انتظر حينئذ الفرصة المناسبة لخلع طاعة ابن أبي عامر، وذلك لعدم رضائه عن سياسة الأخير تجاه الخليفة هشام المؤيد من جهة، ورغبته في الاستقلال الذاتي بالمغرب من جهة أخرى ، ولذلك ، فقد استمر زيري على إقامة علاقة حسنة مع ابن أبي عامر إلى سنة 386هـ/ 996م [3] ، منتهزا بذلك اضطراب الأوضاع السياسية في إفريقية ومصر في نفس الوقت، إذ توفي المنصور بن بلكين نائب الفاطميين على إفريقية والمغرب في يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول سنة 386هـ/ حزيران996م [4] ، وتولى بعده ابنه باديس بن المنصور بن يوسف بن زيري ، المكنى بأبي مناد [5] ، والملقب بنصير الدولة [6] ، حيث طمع فيه أمراء زناتة لصغر سنه، وخالفوا عليه وانتصبوا لحربه، فأرسل باديس عمه حمادا على رأس جيش صنهاجة، ليكفيه شر زناتة " ويصفو له جو الملك" وعقد له على المناطق التي يفتحها [7] ، إضافة إلى إقطاعه مدينة أشير [8] ، كما توفي الخليفة العزيز بالله الفاطمي

---

[1] مجهول، مفاخر البربر، ص 160.

[2] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 39؛ ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 105.

[3] ابن الخطيب، اعمال الاعلام ، القسم الثالث، ص 158؛ ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 105.

[4] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 247؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 100.

[5] ابن ابي دينار، المؤنس، ص 101؛ ابن ابي الضياف، اتحاف، ص 133.

[6] ابن ابي دينار، المؤنس، ص 101.

[7] ابن أبي الضياف، ص 133-134.

[8] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص485.

في شهر رجب من نفس السنة أي سنة 386هـ/ تشرين أول 996م [1] ، وبويع بالخلافة بعده لابنه أبي علي منصور بن العزيز بالله [2] ، الملقب بالحاكم بأمر الله[3] فبادر الحاكم بأمر الله ، بإرسال الخلع وتجديد العهد بولاية إفريقية والمغرب إلى باديس بن المنصور [4] .

وعندما شعر زيري بن عطية المغراوي بقوة موقفه على الساحة المغربية ، بدأ حينها بالتعرض لشخص ابن أبي عامر، والتكلم فيه بالقبيح في مجالسه [5] ، وينتقد حجره للخليفة هشام المؤيد [6] ، وحرص ابن أبي عامر من جانبه على استمرار العلاقة الودية مع زيري ، وذلك لإنجاح سياسته المغربية غير المباشرة ، والمتمثلة باستخدام قبيلة زناتة البترية في الاستيلاء على الأراضي بالمغرب الخاضعة لسيادة قبيلة صنهاجة البرنسية نائبة الفاطميين الفعلية، ومن هذا المنطلق أرسل كاتبه عيسى بن سعيد اليحصبي إلى العدوة المغربية على رأس قوة عسكرية وذلك للنظر في سبب تغير زيري عليه، ومحاولة الاستصلاح أمره، ولكن زيري رفض الصلح ، فأقام عيسى الكاتب بالمغرب بقية سنة 386هـ/ 996م ، واستأمن إليه خلال ذلك ، أحد قادة زيري ، وهو محمد بن حمود المعروف بابن البقال، صاحب قلعة حجر النسر، فأجازه عيسى إلى قرطبة ، حيث أحسن ابن أبي عامر لقاءه ، وأدناه منه وسماه الناصح [7] .

تفاقم الخلاف بين أبي عامر وزيري بن عطية ، على أثر فشل مسعى الصلح الذي قام به عيسى الكاتب، فأظهر زيري معصيته على ابن أبي عامر، وتمسك في نفس الوقت بالدعوة المروانية[8] ، إذ قطع ذكر اسم ابن أبي عامر من الخطبة والدعاء له، واقتصر على ذكر اسم

---

[1] المقريزي، الخطط، ج2، ص 39.
[2] ابن ابي دينار، المؤنس، ص 85.
[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 248.
[4] ابن الأثير، الكامل، ج7، ص 485.
[5] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 105.
[6] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 213.
[7] مجهول، مفاخر البربر، ص 160-161.
[8] مجهول، المصدر نفسه، ص 161.

الخليفة هشام المؤيد فقط، وطرد عماله من المغرب الأقصى ، وأجلاهم إلى مدينة سبتة [1] ، وبالمقابل قام ابن أبي عامر بإجراء مماثل حيث أظهر البراءة من زيري في شهر شوال سنة 387هـ/ كانون ثاني 997م، وعزله من خطة الوزارة ، وقطع راتبها [2] ، الذي كان يجري له كل سنة [3] ، ومحا اسمه من ديوانه [4] ، ثم استدعى ابن أبي عامر، قائده واضح الصقلبي ، المرابض بمدينة سالم الأندلسية ، لثقته به، ولخبرته العسكرية ، فعقد له على كور المغرب، وقلده حرب زيري بن عطية واشترط عليه واضح في سبيل إنجاز هذه المهمة، انتخاب الجند الذين سيشاركون معه، فأجابه ابن أبي عامر على طلبه ، فاختار واضح الفرسان الحماة من سائر الطبقات ، وبعد أن أغدق عليهم الأموال وأنواع السلاح والكسي اجتاز بهم إلى المغرب [5] .

ونزل واضح في مدينة طنجة المغربية ، ومكث فيها قليلا ، ليستكمل تجهيزاته العسكرية ، حيث أتاه بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وغيرهما، فبايعوه على قتال زيري بن عطية ، ومن كان معه من قبائل زناتة ، ولم يلبث أن بعث إليه ابن أبي عامر [6] ، في ذي الحجة سنة 387هـ/ آذار 997م [7] ، أجناد البربر الذين كانوا معه بالأندلس [8] ، وبعض أمرائهم مثل: إسماعيل بن البوري، ومحمد بن عبد الله بن مدين، ومحمد بن الخير الخزري، وبكساس بن سيد الناس، وخزرون بن محمد الأزداجي، وزيري بن خزر ، وأبو بخت بن عبد الله بن بكار، كما عززه أيضا بمجموعة مختارة من القادة الأندلسيين [9] ، ولما اكتملت جيوش واضح ، خرج بهم من

---

[1] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 105.

[2] مجهول، مفاخر البربر، ص 161.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص105.

[4] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 213.

[5] مجهول، مفاخر البربر، ص 161.

[6] ابن أبي زرع ، الأنيس، ص 105.

[7] مجهول، مفاخر البربر، ص 161-162؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 214.

[8] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 105.

[9] مجهول، مفاخر البربر، ص 161-162.

طنجة نحو مدينة فاس، فاتصل خبر قدومه بزيري بن عطية ، فبادر الأخير بدوره بالخروج إليه [1] فالتقى الجمعان بوادي ردات [2] ، أو زادات [3] ، واستمرت الحرب بينهما ثلاثة أشهر متتالية، وكان شعار أصحاب زيري فيها: " هشام يا منصور وشعار أصحاب محمد بن أبي عامر : يا منصور" [4] ، وكانت النتيجة أن انهزم واضح وجنوده الأندلسيين ، وفر واضح إلى مدينة طنجة فدخلها، وكتب من هناك إلى ابن أبي عامر يطلب منه المدد السريع[5] .

وأعاد واضح ترتيب صفوف قواته مرة أخرى، بعد تراجعه إلى طنجة، وكشف عن خيانة كانت بين فئات جيشه، حيث اتهم وجوه بني برزال الزناتيين بتواطئهم في القتال إلى جانب زيري بن عطية المغراوي، ولذلك أرسلهم إلى حضرة قرطبة ، فوبخهم ابن أبي عامر على فعلهم ، فانكروا ما نسب إليهم من الخيانة، وأقسموا على عدم صحتها، فعفا عنهم، وألحقهم بالقوات الأندلسية المرابطة على الثغور بقيادة ابنيه عبد الملك وعبد الرحمن . كما قام واضح بهجوم معاكس من طنجة ، استولى فيه على حصن أصيلا ونكور ، وفاجأ مجموعة من جيش زيري بن عطية في موضع يعرف بمضيق الحية، يقدر عددهم بثلاثة آلاف فارس، كان يقودهم خليفة زيري، وذلك في رجب سنة 388هـ/ تشرين أول 998م، فقتل الكثير منهم، وأسر حوالي ألفين ، ثم أطلق سراحهم فانضموا إليه، ولما علم ابن أبي عامر بما حصل ، خرج برفقة ابنه عبد الرحمن من مسجد الزاهرة إلى الجزيرة الخضراء ، لتسع خلون من شعبان سنة 388هـ/ تشرين ثاني 998م، فيمن بقي معه من الجند لإمداد قائده بالمغرب ، واستخلف ابنه عبد الملك على الزاهرة، وأمر أن تبنى له القصور في طريقه من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء [6] .

---

[1] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 105؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 214.

[2] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 158؛ ابن ابي زرع، الأنيس، ص 105.

[3] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 214؛ وادي ردات: نهر في شمال المغرب بالقرب من مدينة البصرة (ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 158 هامش 1).

[4] مجهول، مفاخر البربر، ص 162.

[5] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 105؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 214.

[6] مجهول ، مفاخر البربر، ص 162-163.

وعندما وصل ابن أبي عامر إلى الجزيرة الخضراء، وشارف من موضعه صعوبة الموقف على الساحة المغربية ، رأى أنه من الأنسب أن يغير في خطته الحربية، حيث استدعى ابنه عبد الملك من الزهراء، وأوكل إليه مهمة العبور إلى المغرب، لما عرف عنه من البأس والشجاعة ، بدلا من إنفاذ ابنه الآخر عبد الرحمن الذي تنقصه فيما يبدو الخبرة العسكرية ، وبعث به إلى الزهراء لينوب عنه مكان أخيه عبد الملك، وجاز عبد الملك إلى سبتة يوم السبت مستهل شهر رمضان سنة 388هـ/ كانون أول 998م، بعد أن ضم إليه أبيه كبار قادة الأندلس، وجيوشها "وعظماء الدولة حتى لم يخلف مع نفسه إلا نفرا يسيرا من أصحابه وطائفة من غلمانه"[1] ، وأمره بقتال زيري بن عطية [2] .

وبلغ خبر وصول عبد الملك للعدوة ، إلى زيري بن عطية، فأخذ بالاستعداد لملاقاته، وكتب إلى قبائل زناتة كافة يدعوهم للالتحاق به، فأتته جموعها "من بلاد الزاب وبلاد تلمسان وملوية وسجلماسة وسائر بوادي زناتة" [3] ، ولما علم عبد الملك باستعداد زيري لقتاله، سار بجيشه نحو مدينة طنجة ، حيث اجتمع هناك مع قائده واضح، وعندما اطمأن ابن أبي عامر المرابط بالجزيرة الخضراء على قوة موقف ابنه عبد الملك عاد إلى قرطبة[4] .

ولما أكمل الطرفان استعداداتهما التقيا بوادي منى من أحواز طنجة [5] ، يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت من شوال سنة 388هـ/ كانون ثاني 998م [6] ، واندلع بينهما قتال دام نهارا كاملا [7] " من طلوع الشمس إلى

---

[1] مجهول، مفاخر البربر، ص 162-163.

[2] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 106؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 214.

[3] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 106.

[4] مجهول، مفاخر البربر، ص 163-164.

[5] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 106؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 198؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 214؛ ويحدد صاحب كتاب مفاخر البربر الموضع بأنه " جبل حبيب" (مجهول، ص 164).

[6] مجهول، مفاخر البربر، ص 164.

[7] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 158؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 214.

غروبها" [1] ، وصور صاحب كتاب مفاخر البربر أحداث المعركة بقوله: " فدارت رحى الحرب ساعة أنكر الأنيس فيها نفسه، وخفت الجرس، فلا تسمع إلا غمغمة بطل أو صليل صفحة" [2] ، وانتهز الفرصة أثناء القتال غلام أسود اسمه كافور بن سلام [3] كان زيري قد قتل أخاه، فضربه بسكين في رقبته ثلاث ضربات، فلم يتمكن من قتله، وفر بعدها كافور الأسود إلى معسكر عبد الملك، فأخبره بضربه لزيري ، وعندما تأكد عبد الملك من صحة الخبر، شد بجيشه على زناتة ، الذين أدهشتهم إصابة أميرهم زيري ، فهزمهم ، وقتل أعدادا كثيرة منهم، واستولى على محلة زيري بما فيها من المال والسلاح والخيل والإبل وغيرها[4] .

ولم يكد زيري يستدرك أمره ويعيد ترتيب صفوف قواته [5] ، في الموضع المعروف "بمضيق الحية" بالقرب من مكناسة ، لمحاولة الكرة مرة أخرى على عبد الملك، حتى فاجئه الأخير بإصدار أوامره إلى قائده واضح بأن يختار خمسمائة فارس ويقوم بهجوم على معسكر زيري بمضيق الحية ليلاً ، فتمكن واضح من الإيقاع بزناتة ، وأسر نحو ألفي فارس منهم فعفا عبد الملك عنهم، وألحقهم بصفوف قواته، وفر زيري إلى مدينة فاس بمن بقي معه، فأغلق أهلها الأبواب في وجهه، ولم يسمحوا له بالدخول ، فطلب منهم أن يخرجوا إليه أهله وأولاده وبعض المؤن، فأجابوه على مطلبه ، فانصرف بعد ذلك إلى الصحراء ونزل ببلاد صنهاجة [6] .

---

[1] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 106.

[2] مجهول، ص 164.

[3] مجهول، مفاخر البربر، ص 106؛ وحسب ابن عذاري، أن ابن عمه الخير بن مقاتل، طعنه برمح في قفاه، ومات بعد ذلك زيري من الجرح (البيان، ج2، ص 282).

[4] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 106؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 215.

[5] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 159.

[6] ابن ابي زرع، الأنيس، ص 106-107؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ج1، ص 198؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 251.

دخل عبد الملك بن أبي عامر ، مدينة فاس يوم السبت مسلخ شوال سنة 388هـ/ كانون ثاني 998م [1] ، وسيطر على أقاليم المغرب الأقصى ، وما والاه إلى سجلماسة وتلمسان وتاهرت بالمغرب الأوسط [2] ، وكتب إلى أبيه بالفتح ، فعظم سرور ابن أبي عامر ، وتضرع شكرا لله [3]، وأمر بقراءة الكتاب على منبر جامع الزهراء بقرطبة ، وعلى منابر قواعد الأندلس كلها شرقا وغربا، وأعتق ابن أبي عامر بهذه المناسبة ألفاً وخمسمائة مملوك وثلاثمائة مملوكة [4] ، وأشاد الشعراء بهذا اليوم، ونوهوا بأشعارهم بانتصار ابن أبي عامر على زيري بن عطية [5] .

ثم كتب ابن أبي عامر بعهده لابنه عبد الملك بولاية المغرب ، وأوصاه بحسن السيرة والعدل، فقرأ كتابه على منبر جامع القرويين بفاس يوم الجمعة آخر ذي القعدة سنة 388هـ/ شباط 998م، وقام عبد الملك ببعض الإجراءات الإدارية بالمغرب، حيث ولى محمد بن حسن بن عبد الودود السلمي على تادلا ونواحيها، وولى حميد بن يصل الكتامي على مدينة سجلماسة [6] ، ثم قفل عائدا إلى الأندلس بعد أن استخلف مكانه مملوك أبيه واضح [7] ، سنة 389هـ/ 999م [8] .

---

[1] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 159.

[2] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 253.

[3] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 159.

[4] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 107.

[5] مجهول، مفاخر البربر، ص 166؛ وكان من هؤلاء الشعراء شاعر العصر ابن دراج القسطلي، ومما قاله من قصيدة طويلة (أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 558):

فإن صدئت الباب قوم ببغيهم ... فسيف الهدى في راحتك صليل

وإن يحيى منهم بغي صالوت جدهم ... فأحجار داوود لديك مثول

هدى وتقى يودي الظلام لديهما ... وحق بدفع المبطلين كفيل

(مجهول، مفاخر البربر، ص 166-167).

[6] مجهول، مفاخر البربر، ص 168.

[7] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 253؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 398.

[8] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 253.

ولم يلبث زيري بن عطية أن تعافى من جراحه التي أصيب بها، بعدما كان قد استقر بالصحراء في أحواز طنجة ، فعمل حينئذ على جمع قبائل زناتة [1] ، واغتنم فرصة مخالفة أعمام أبي مناد باديس عليه بعد وفاة أبيه [2] ، وسار إلى مدينة تاهرت ، وضرب حصارا عليها، فأرسل عاملها يطوفت بن يوسف بن زيري إلى ابن أخيه أبي مناد باديس بإفريقية يطلب منه النجدة والمساندة ، فأمده بجيش كبير جعل على قيادته عامل إفريقية محمد بن أبي العرب الكاتب ، الذي مر على أشير حيث انضم إليه عاملها حماد بن بلكين ، وسارا معا، حتى وصلا إلى يطوفت غرة جمادى الأولى سنة 389هـ/ آب 999م، فالتقى الطرفان على بعد مرحلتين من تاهرت في موضع يسمى " آمسار" ، فدارت الدائرة على الصنهاجيين ، بعد ما لعبت الخيانة دورها ، حيث انسحب عسكر حماد من المعركة ، بسبب سوء معاملته لهم، فأتبعهم في ذلك كل عسكر إفريقية ، فانهزم أبي العرب وحماد ويطوفت يوم السبت لأربع خلون من جمادى الأولى سنة 389هـ/ آب 999م، وارتدوا إلى أشير، ودخل زيري بن عطية تاهرت ، بعد أن استولى على ذخائرهم من أموال وسلاح وغير ذلك[3] .

كما استولى زيري بن عطية إضافة إلى تاهرت على تنس وتلمسان وشلف [4] ، والمسيلة وبلاد الزاب [5] ، وأقام في تلك المناطق الدعوة للخليفة هشام المؤيد [6] ، وضرب حصارا على مدينة أشير ، قاعدة بلاد صنهاجة ، وأرسل إلى المنصور بن أبي عامر[7] كتابا مع رجلين من ثقاته هما " الحاج دقاق" وقاضيه " فتوح بن الأزرق" ، يسترضيه فيه و " يستقيله الزلة، ويسأله العودة إلى الولاية ، ويبذل إنفاذ ابنه وابن أخيه رهينة ، ويذكر أنه أقام الخطبة لابن أبي عامر وابنه

---

[1] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 160.

[2] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 107؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 216.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 249-250.

[4] ابن الخطيب، اعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 160.

[5] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 107؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 217.

[6] ابن الخطيب، أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 160؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 218.

[7] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 217.

فيما صار إليه من بلاد صنهاجة ، بعد دعائه للخليفة، فقبل ابن أبي عامر ورضي ، وذلك في جمادى الأخيرة ، من هذه السنة (389هـ/ ايلول 999م)" [1] . واستأمن لزيري بن عطية في ذلك الوقت زاوي بن زيري ومن معه من أهل بيته، بسبب مخالفتهم لأبي مناد باديس أمير صنهاجة في إفريقية والمغرب ، وكان أبو مناد آنذاك مشغولا بحرب فلفول بن سعيد الزناتي، المخالف عليه، وخرج بنفسه لحربه، ثم أن أبا البهار أرسل إلى ابن أبي عامر يطلب منه قبول طاعته مرة أخرى، في منسلخ شوال سنة 398هـ/ كانون ثاني 999م، إلا أن ابن أبي عامر لم يجبه على طلبه ، لما علم من غدره ، وأخذ يسوف به، مما اضطر أبو البهار لأن يعود إلى طاعة ابن أخيه أبي مناد باديس، ومع كل الأحداث السابقة فإن زيري بن عطية ، كان ما يزال محاصرا لأشير [2] .

لم يجد أبو مناد باديس بداً من لقاء زيري بن عطية بنفسه، ولذلك خرج من المنصورية يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة 389هـ/ آب 999م، وما أن وصل إلى المسيلة ، في طريقه إلى تاهرت ، حتى ترك زيري المدينة واتجه نحو المغرب الأقصى ، وصمم أبو مناد باديس على ملاحقته ، وظل يطارده حتى دخل زيري إلى فاس ، فعاد عند ذلك إلى تاهرت ، واتجه بعدها إلى باغاية ، فوجه إليه جيشا من أشير، ثم تحرك هو وعمه أبو البهار إلى المسيلة بعد أن ترك على أشير عمه يطوفت، ولما وصل إلى المسيلة جاءته أخبار تشير إلى أن أعمامه وهم : ماكسن وزاوي ومغنين ، خالفوا عليه وأنهم قد ألقوا القبض على يطوفت أخيهم، ولما سمع عمه أبو البهار بذلك التحق بهم بأهله وعياله، مما اضطر أبي مناد باديس ، لأن يبعث عمه حماد في أثرهم ، ورحل هو إلى فلفول بن سعيد، فالتقى معه لعشر خلون من ذي القعدة سنة 389هـ/ شباط 999م، وبعد معركة

---

[1] مجهول، مفاخر البربر، ص 169-174.

[2] مجهول، المصدر نفسه، ص 170-171.

قويـة انـهـزم فيهـا فلفـول إلـى جبـل الحنـاش، وبعـث بـاديس بخبـر الانتصـار إلـى القيـروان ليطمـئن أهلها [1] .

وعاد أبو مناد باديس إلى إفريقية سنة 390هـ/ 1000م ، بعد انتصـاره علـى فلفول بـن سـعيد الزناتي ، ومعه عمه أبو البهار ، الذي رجع إلى طاعته واعتذر له على فعلته ، فقبل باديس عذره ، وجاءه كتاب عمه حماد وهو فـي الطريق يبلغـه أن أعمامـه أولاد زيـري قد انضموا إلـى فلفول بـن سعيد ونزل الجميع حصن تبسه، فتوجه لحربهم، ولكنهم لم ينتظروه ، حيث تفرقوا والتحق أعمامـه بزيري بن عطية ، ولم يبق منهم مع فلفول سوى ماكسن وابنـه محسن فطـاردهم لكنـه عـاد دون أن يتمكن منهم [2] .

وتكرر خروج أبـي منـاد بـاديس مـا بين عـامي 390 و 391هـ/ 1000 و 1001م ، لحرب أميري زناتة في ذلك الوقت، وهما زيري بن عطية وفلفول بن سعيد وكلما قرب منهمـا، توغلا فـي الصحراء ، ولم يلبث إلا أن ورد عليه كتاب عمه حماد، يخبره فيه أنه زحف إلى ماكسن بن زيري، فقتله هو وولداه محسن وباديس بعد معركة ضارية، لثلاث خلون من رمضان سنـة 391هـ/ كـانون أول 1001م [3] .

وبينمـا كـان زيـري بـن عطيـة مـا يـزال محاصـرا لأشير منـذ شـهر [4] "يباكرهـا ويراوحهـا بالقتال" [5] ، انتقض عليه حينئذ جرحه القديم ، الذي جرحه إياه كافور الأسود [6] ، فتـوفي منـه فـي الثاني عشر من رمضان سنة 391هـ/ كانون أول 1001م [7] ، فولي بعده ابنه المعز، وبايعته قبيلة

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 250-251؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 101؛ أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 270-273.

[2] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 251؛ انظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 273.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 251-252.

[4] مجهول، مفاخر، البربر، ص 174.

[5] الناصري، الاستقصا، ج1، ص 217.

[6] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 107؛ الناصري، الاستقصا، ج1، ص 217.

[7] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 252.

مغراوة الزناتية خلفا لأبيه [1] ، ويبدو أن المعز بن زيري، لم يكن راضيا عن سياسة أبيه السابقة ، بدليل أنه بمجرد أن تولى رئاسة مغراوة ، أمر قومه بالكف عن منازعة صنهاجة [2] ، وصالح ابن أبي عامر وأقام دعوته [3] ، ولما توفي المنصور بن أبي عامر وتولى أمر الحجابة بعده ابنه عبد الملك المظفر، يوم الاثنين لثلاث بقين من رمضان سنة 392هـ/ كانون أول 1002م [4] ، استمر المعز بن زيري في ولائه للدولة الأموية بالأندلس، وعندما تأكد عبد الملك من إخلاص المعز بن زيري عقد له ولاية المغرب كله ما عدا سجلماسة ، التي كان القائد واضح قد أعادها إلى أيدي وانودين بن خزرون وابن عمه فلفول بن سعيد مقابل مال يؤديانه كل سنة إلى حكومة قرطبة [5] ، وأن يترك كل منهما ابنه رهينة عنده[6] .

وكذلك اشترط على المعز بن زيري رهينة ، فأرسل إليه ولديه حمامة ومعنصر، مع تقديم أتاوة سنوية من المال والخيل والسلاح والدرق وغير ذلك ما تدعو الضرورة وتتطلبه الحاجة[7] .

ولما تم الاتفاق بينهما، كتب عبد الملك بن أبي عامر بعهده إلى المعز بن زيري وبعث به مع وزيره عبد الله بن محمد بن علي بن حدلم ، في ذي القعدة سنة 397هـ/ شباط 1007م [8] ، ومما جاء في سجل العهد ما يلي: " بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه ، من

---

[1] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 160 ، مجهول، مفاخر البربر، ص 172؛ ابن أبي دينار، الأنيس، ص 108.

[2] مجهول، مفاخر البربر، ص 172.

[3] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 107.

[4] ابن عذاري، البيان، ج3، ص 3.

[5] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 254؛ مجهول، مفاخر البربر، ص 178-179.

[6] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 254.

[7] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 253؛ مجهول ، مفاخر البربر، ص 175؛ انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 245.

[8] مجهول ، مفاخر البربر، ص 176-178؛ حسب ابن أبي زرع، أن الاتفاق تم سنة 393هـ/ 1003م (الأنيس ، ص 108).

الحاجب المظفر ، سيف الدولة ، دولة الإمام الخليفة هشام المؤيد بالله، أمير المؤمنين أطال الله بقاءه عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر إلى كافة مدينتي فاس، وكافة أهل المغرب سلمهم الله".

" أما بعد... إن المعز بن زيري بن عطية أكرمه الله تابع لدينا رسله وكتبه متنصلا من هنات رفعته إليها ضرورات... وقد وعد من نفسه، استشعار الطاعة ولزوم الجادة واعتقاد الاستقامة... وقد وجهنا أبا محمد بن علي بن حدلم وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا، ليأخذ ميثاقه ويؤكد العهد فيه عليه بذلك، واسكنوا إليه وليقضي القاضي، أبو عبد الله أكرمه الله أحكامه مشدودا ظهره بنا معقودا سلطانه بسلطاننا ولا تأخذه في الله لومة لائم، فذلك ظننا به، وأملنا فيه إذ قلدناه والله المستعين وعليه التكلان لا إله إلا هو وتبلغوا منا سلاما طيبا جزيلا، ورحمة الله وبركاته والسلام عليكم" [1] ، وبقي هذا الاتفاق ساري المفعول حتى قيام الفتنة بالأندلس [2] .

إلا أن عهد عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، لم يدم أكثر من سبع سنوات حيث توفي سنة 399هـ/ 1009م ، فتولى أمر الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن [3] الناصر، [4] المعروف بشجنول ، نسبة إلى جده لأمه شانجة ، لأنه كان أشبه الناس به [5] .

ولما بلغ المعز بن زيري بذلك، أرسل إليه وفدا مؤلف من فتيان بني عمه وشيوخ القبائل، وبعض وجوه فاس، لتهنئته وتجديد الولاء والطاعة له، وبعث له معهم هدية قيمة ، اشتملت على أحمال كثيرة من المال والسلاح والدرق ، وعدد من الخيول " وسائر ما بالمغرب من الطرف" الجميلة، فسر بها عبد الرحمن ، وشكر المعز عليها، وسرح إليه ولديه حمامة ومعنصرا بعد أن خلع عليهما ، وكساهما وأرضاهما [6] وخلع أيضا على الرسل الذين قدموا عليه

---

[1] مجهول ، مفاخر البربر، ص 176-178؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 245.

[2] ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 160؛ ابن ابي زرع، الأنيس، ص 108.

[3] مجهول، مفاخر البربر، ص 179.

[4] الحميدي، جذورة المقتبس، ص 17.

[5] ابن عذاري، البيان، ج3، ص 38؛ انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 246.

[6] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 253-254؛ انظر، الفيلالي، العلاقات السياسية، ص 246-247.

بالهدية [1] ، وجدد للمعز عهده على ولاية المغرب [2] ، وعندما وصلا حمامة ومعنصر المرتهنين إلى أبيهما بفاس، ، قام المعز بن زيري بجمع نحو تسعمائة فرس وبعث بها إلى قرطبة ، فكانت أعظم هدية ، تصل من المغرب إلى الأندلس حسب تعبير ابن ابي زرع [3] .

ولم يلبث عبد الرحمن شنجول بالحكم قليلا حتى أساء السيرة والسلوك ، حيث تلقب بالناصر، ثم بالمأمون ، وأمر بأن يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصرا لدولة ، وازداد الأمر سوءً حينما طلب من الخليفة هشام المؤيد بأن يوليه العهد من بعده، وأن يتسمى بولي عهد المسلمين ، فانصاع الخليفة هشام المؤيد الرغبة ، نتيجة لضعفه، فولاه عهده، وأمره أن يكتب بذلك إلى كافة أقطار الأندلس والعدوة المغربية ، ولاشك أن هذه الإجراءات أثارت غضب أهل الأندلس، وبخاصة بني أمية [4] ، فلم يمض على توليته العهد أربعة أشهر حتى ثار عليه بقرطبة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وذلك يوم الثلاثاء لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة 399هـ/ أيلول 1009م [5] ، مستغلا خروجه إلى ثغور الأندلس، ولما حاول عبد الرحمن شنجول العودة إلى قرطبة وإخراج محمد بن هشام بن عبد الجبار منها، انفض من حوله جماعته الصقالبة بسبب سوء معاملته لهم ، فأرسل إليه محمد بن هشام نحو ألف فارس تمكنوا من قتله واحتزوا رأسه وحملوه إليه ، وانتهت بذلك الدولة العامرية سنة 399هـ/ 1009م [6] .

ولكن محمد بن هشام الذي تلقب بالمهدي، لم يحسن معاملة البربر ، كما أنه قام بالقبض على الخليفة هشام المؤيد وأخفاه ، وأشاع بين الناس أنه قد مات [7] ، ولذلك ثار عليه هشام بن سليمان بن الناصر مع البربر ، يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة 399هـ/ كانون ثاني 1009م، إلا أن

---

(1) ابن ابي زرع، الأنيس، ص 117.

(2) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 254.

(3) الأنيس، ص 117.

(4) ابن عذاري، البيان، ج3، ص 38-42.

(5) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 17.

(6) ابن عذاري، البيان، ج3، ص 49-50.

(7) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج3، ص 50-51.

ثورته لم يكتب لها النجاح إذ تمكن رجال المهدي من إلقاء القبض عليه، فجيء به إلى المهدي حيث أمر بضرب عنقه [1] ، فاجتمع البربر حينئذ وقدموا على أنفسهم [2] ، سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلون من شوال سنة 399هـ/ كانون ثاني 1009م [3] ، ولقبوه بالمستعين بالله، وطلب البربر المساعدة له من الملك القشتالي شانجة بن غرسية بن فردلند ، ولم يتأخر شانجة عن ذلك ، حيث انضم إلى قوات المستعين بالله، وتقدموا جميعا صوب قرطبة [4] ، والتقوا مع المهدي بموضع يعرف بجبل قنطيش ، ودارت بينهما معركة انهزم فيها المهدي، وفر هو وقائده واضح إلى طليطلة، إلا أن المستعين بالله لم يتمتع بكرسي الخلافة في قرطبة طويلا، لأن المهدي طلب المساعدة من الإفرنج ، وعاد إلى قرطبة حيث التقى مع المستعين وأنصاره البربر بموضع يبعد عن قرطبة بنحو بضعة عشر ميلا يعرف " بعقبة البقر" ، فكانت الدائرة على المستعين والبربر [5] ، وذلك في منتصف شوال سنة 400هـ/كانون ثاني 1010م ، وفر سليمان بعدها إلى شاطبة [6] ، بينما اتجه البربر نحو الجزيرة الخضراء ، فعزم المهدي القضاء عليهم نهائيا، ولذلك سار إليهم والتقى معهم في "وادي آره" [7] ، ولكنه مني بهزيمة قاسية عاد على أثرها إلى قرطبة ، فوثب عليه العبيد بمساندة واضح الصقلبي فقتلوه ، وأعادوا الخليفة هشام المؤيد لعرش الخلافة [8] ، ولم يلبث واضح حتى قتل من قبل أصحابه واحتزوا رأسه وطيف به في الشوارع [9] ، وبعد محاولات عديدة استطاع المستعين بالله، وأنصاره البربر من دخول قرطبة في صدر شوال سنة 403هـ/ كانون

---

[1] الحميدي، جذوة المقتبس، ص 17-18.

[2] الحميدي، المصدر نفسه، ص 18.

[3] المراكشي، المعجب، ص 32.

[4] ابن عذاري، البيان، ج3، ص 51.

[5] الحميدي ، جذوة المقتبس، ص 18-19.

[6] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 648.

[7] الحميدي ، جذوة المقتبس، ص 18؛ وادي آره، يتفرع من وادي اللبن في البحر الأبيض المتوسط شمالي جبل طارق (أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 259 هامش 2)، ويسميه ابن الخطيب وادي يارو ووادي السقائين بأحواز مدبلة (أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 134).

[8] الحميدي، جذوة المقتبس، ص 19.

[9] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 651.

الثاني 1013م [1] ، وعلى الفور استدعى المستعين بالله الخليفة هشام المؤيد وعنفه على موقفه ، وهنا تختلف الروايات حول مصيره ، فبعضهم يقول: إن سليمان أخفاه حينا ثم قتله ولده محمد بن سليمان ؛ والبعض الآخر يقول بأنه فر من محبسه إلى المرية حيث عاش حينا في خمول وبؤس حتى توفي [2] .

وكان من جملة جنود المستعين بالله ، رجلان من أبناء الحسن بن علي بن أبي طالب، وهما: القاسم وعلي ابنا حمود بن ميمون بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس ، فجعلهما قائدين على المغاربة ، ونتيجة لجهودهما الحربية معه أثناء حربه مع المهدي، كافأهما على ذلك، إذ ولى أحدهما وهو علي على سبتة وطنجة، وولى القاسم على الجزيرة الخضراء، ولم يلبث علي بن حمود – الذي كان يطمح للوصول إلى ولاية الأندلس- أن انتهز فرصة الخلاف الذي نشب بين العبيد والبربر الذين دخلوا مع سليمان إلى قرطبة ، فكتب إليهم يذكر لهم أن الخليفة هشام بن الحكم [3] ، حينما كان محاصرا بقرطبة ، كتب إليه بولاية عهده، فاستجاب له العبيد وبايعوه ، فزحف علي من سبتة إلى مالقة ، واستولى عليها، ثم اتجه بمن انضم إليه من البربر والعبيد إلى قرطبة ، فخرج للقائه محمد بن سليمان على رأس قوات من البربر فتمكن علي بن حمود من هزيمته ، وزحف بعدها إلى قرطبة حيث دخلها، وقبض على سليمان بن الحكم فقتله ، وذلك يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة 407هـ/ نيسان 1017م [4] ، وسقطت بذلك الخلافة الأموية بالأندلس ، وانتقلت من البيت الأموي إلى البيت الحمودي العلوي الهاشمي [5] .

---

[1] الحميدي ، جذوة المقتبس، ص 19.

[2] أنظر، عنان، دولة الإسلام، ج2، ص 653.

[3] المراكشي، المعجب، ص 32؛ الحميدي ، جذوة المقتبس، ص 17؛ ويؤكد ابن عذاري ذلك بقوله: " وكان هشام بن الحكم عندما رآه من اضطراب أمره وتبقيه من انصراف دولته، صير إلى علي بن حمود ولاية عهده وأوصى إليه بالخلافة من بعده، وراسله إلى سبتة بذلك سرا وولاه طلب دمه واستكتمه السرفيه إلى أوانه وبلوغ زمانه" (البيان، ج3، ص 114).

[4] المراكشي، المعجب، ص 32-33؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص 17-20.

[5] ابن أبي زرع، الأنيس، ص 118.

والواضح أن صراع زناتة وصنهاجة بالمغرب، قد توقف بعض الشيء بسبب نشوب الفتنة البربرية بالأندلس ، فلم تعد هناك سياسة واضحة للدولة الأموية بالأندلس ، نظرا لتعاقب الخلفاء الأمويين السريع على تولي السلطة الأموية إذ أن مدة حكم أيا منهما لم تتجاوز بضعة أشهر في غالب الأحيان، وخير وصف لسياسة الدولة الأموية تجاه المغرب في أثناء قيام الفتنة البربرية ذلك النص الذي أورده صاحب كتاب مفاخر البربر والذي جاء فيه: " وانخرمت الإمامة ، وتفرقت الجماعة، وتهدمت الدولة المروانية ، وصار أمر الناس بالأندلس شيعا، ولما كانت الطاعة بالأندلس والمغرب واحدة وإمامهم واحد، تشتت الناس بالمغرب كفعلهم بالأندلس ، وانتزى بعضهم على بعض ، وخالفت القبائل ، وأقام المعز بن زيري ، على اضطراب من أمره، إلى أن وافته منيته في سنة سبع عشر وأربعمئة (1027م) [1] .

ورغم ذلك، فإن ابن خلدون يذكر أن فلفول بن سعيد الزناتي ، الذي استولى على مدينة طرابلس سنة 391هـ/ 1001م ، بادر بمراسلة محمد بن هشام المهدي صاحب قرطبة ، وبعث إليه وفدا في شوال سنة 400 هـ/ 1010 م راغبا في طاعته، وإقامة الدعوة له على منابر أعماله، وضرب السكة باسمه ، وطلب منه أبو مناد باديس الصنهاجي ، صاحب إفريقية ، بعد أن يئس فلفول من استغاثة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بمصر [2] .

وكان محمد بن هشام المهدي قد تلقى أعضاء الوفد وخلع عليهم خلعا كثيرة وأرسل لفلفول بهدية قيمة مع بعض رجاله، غير أنهم لما وصلوا إلى مدينة طرابلس ، وجدا فلفولا قد مات، وولي مكانه أخوه ورو بن سعيد ، فاستغل أبو مناد باديس الظروف واقتحم أسوار المدينة يوم الاثنين لسبع خلون من شعبان سنة 400هـ/ تشرين ثاني 1010م [3] ، وأمر بالقبض على أعضاء وفد الأندلس

---

[1] مجهول، ص 179.

[2] العبر، ج4، ص 35؛ أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 261؛ محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 283-284.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 258.

من رجال المهدي وضرب أعناقهم جميعا [1] .

ولم يتوان ورو بن سعيد الزناتي في طلب الأمان والعفو لقومه من أبي مناد باديس الصنهاجي، على أثر دخول الأخير لمدينة طرابلس ، فأمنهم أبو مناد وعفا عنهم وعاد بعدها إلى المنصورية[2] . وعلى الرغم من أن العلاقات الودية بين ورو بن سعيد وأبي مناد لم تدم طويلا، حيث تجدد النزاع بينهما، ولكن ذلك لم يكن له أثر في العلاقات بين الأمويين والفاطميين من ناحية ، كما أن الزعيمين لم تستمر مدة حكمهما طويلا من ناحية أخرى، حيث توفي ورو بن سعيد سنة 406هـ/ 1016م، وتوفي أبو مناد باديس أيضا، في ذي القعدة من نفس العام (406هـ/ شباط 1016م) [3] .

وهكذا، فقد أدى زيري بن عطية وابنه المعز المغراويان دورا مهما وبالغ الأثر في العلاقات السياسية بين الفاطميين والأمويين في عهد المنصور بن بلكين وابنه باديس الصنهاجيين ، نائبا الفاطميين على إفريقية والمغرب ، بل يمكن القول أن قبيلة مغراوة الزناتية كانت سيدة الموقف على المغرب الأقصى ، في هذه الحقبة التاريخية بالذات، ولذلك حرص كل من الفاطميين والأمويين على كسب ولائها، وفي نفس الوقت كان زعيماها خلال فترة رئاستهما لقبيلة مغراوة أحرص من الطرفين على مصالحهما السياسية ، ولذلك نجد تذبذب ولائهما بين الفاطميين تارة ، والأمويين تارة أخرى، حسب ما تتطلبه تلك المصالح.

---

[1] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 261.

[2] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 258.

[3] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 266.

نزاع صنهاجة وزناتة وأثره في العلاقات في عهد المعز بن باديس إلى نهاية الخلافة الأموية بالأندلس (406-422هـ/ 1016-1031م).

توفي أبو مناد باديس فجأة بمدينة المحمدية (المسيلة) في ذي القعدة سنة 406هـ/ شباط 1016م[1] ، حيث كان خارجا وقتذاك لقتال زناتة بالمغرب الأوسط [2] ، وتأديب عمه حماد الذي خلع الطاعة الفاطمية، فبايعت صنهاجة حينها ابنه المعز بن باديس بالإمارة لتسع بقين من ذي الحجة من نفس العام، أي سنة 406هـ/ آذار 1016م ، وكان عمره إذ ذاك ثمان سنوات وأربعة أشهر [3] ، وكانت جدته هي التي " تباشر الأمور وتصرف الأحوال من رأيها" [4] ، ويساعدها في ذلك ابن عمه كرامة بن المنصور [5] ، حتى رجع الأمير الجديد مع الجيوش إلى المنصورية " دار الملك" [6] ، ولم يلبث المعز بن باديس، إلا أن وصله سجل التقليد بالإمارة من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بمصر، في ذي الحجة سنة 407هـ/ آذار 1017م [7] ، ولقبه فيه بشرف الدولة ، وأرسل مع السجل هدية ثمينة وسيف مرصع بالجواهر [8] ، ذو قيمة عالية [9] .

ويذكر ابن الخطيب، أن حماداً بن بلكين الذي خلع الطاعة الفاطمية منذ أيام أبو مناد باديس ، واتخذ من قلعة بني حماد مقرا له [10] ، لما رأى اجتماع رجال صنهاجة على بيعة المعز بن باديس، قال لمن حضر معه من رجال: " مثل هؤلاء ينبغي أن تتخذ الملوك، وتبذل فيهم النعم وصلت إلى

---

(1) ابن عذاري، البيان، ج1، ص 266.

(2) السراج ، الحلل السندسية، ج2، ص 63.

(3) ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 267؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 73.

(4) ابن أبي دينار، المؤنس، ص 103.

(5) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 73؛ ابن أبي الضياف ، اتحاف، ص 137.

(6) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ، القسم الثالث، ص 72.

(7) السراج ، الحلل السندسية، ج2، ص 63.

(8) السراج المصدر نفسه، ج2، ص 63؛ ابن أبي الضياف ، اتحاف، ص 137.

(9) السراج ، الحلل السندسية، ج2، ص 63.

(10) ويذكر صاحب الاستبصار بأن حماداً بن حبوس قام على ابن عمه باديس بهذه المدينة (يعني المهدية) فسميت قلعة حماد (كاتب مراكشي، ص 168) ؛ بينما يحدد جوليان قلعة بني حماد على منحدر جبل كتامة بالقرب من المكان الذي دهمت فيه جيوش صنهاجة أبا يزيز (أنظر، تاريخ إفريقيا الشمالية، ص 83).

إفريقية في ثلاثين ألف فارس ، ليس منهم إلا من بالغت لهم في الإحسان والإنعام، وعدت إلى القلعة وليس معي منهم إلا أقل من ستمائة ، وأنا بينهم حي أرجى وأخشى وهؤلاء قد أطاعوا باديس ميتا كطاعتهم له حيا" [1] ، وعاد حماد بعدها إلى أشير ، بينما التحق بقية جيش باديس بالقيروان للمشاركة في جنازته[2] .

وبعد أن استقرت أوضاع الإمارة للمعز بن باديس، بادر بالخروج لحرب عمه حماد الذي زحف من أشير، وراح يحاصر باغاية سنة 408هـ/ 1018م [3] ، فالتقى الطرفان " بموضع يقال له تتي" [4] ، ودارت بينها معركة ضارية ، انتهت بانتصار المعز على عمه وأجبره على العودة إلى طاعته ، إذ أرسل حماد ابنه "القائد" إلى المعز يطلب منه العفو عما سبق من مخالفته عليه، فعفا عنه المعز، وأحسن استقبال القائد، وأمر أن يجرى عليه طيلة مدة إقامته كل يوم ثلاثة آلاف درهم، وخمسة وعشرين قفيزاً من الشعير لدوابه ودواب أصحابه، كما خلع على أصحابه مائة خلعة وأعطاه ثلاثين فرسا بسروج من الذهب، وكمية كبيرة من الثياب الفاخرة ثم سمح للقائد بالعودة إلى أبيه [5] ، كما أن المعز اعترف لحماد في هذه الوفادة باستقلاله الذاتي على المناطق التي كان يحتلها[6] .

وهكذا، قسمت إمارة بني زيري الصنهاجية ، إلى إمارة آل المنصور بين بلكين أصحاب القيروان وإمارة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة ، ولم يعد هناك ما يقلق المعز من الجهة الغربية لإمارته ، لأن حمادا وابنه القائد من بعده أصبحا ملزمين بقتال زناتة [7] .

---

[1] أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص 73.

[2] ابن الخطيب، المصدر نفسه، القسم الثالث، ص 73.

[3] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 269؛ ابن أبي دينار، المؤنس، ص 104.

[4] انظر، محمد بن عميرة، دور زناتة ، ص 289.

[5] ابن ابي دينار، المؤنس، ص 104.

[6] ابن خلدون ، العبر، ج4، ص 35.

[7] أنظر، محمد بن عميرة، دور زناتة، ص 290.

وأما الوضع السياسي على الساحة الأندلسية ، فسرعان ما عاد إلى الاضطراب من جديد، حيث تمكن الصقالبة والعبيد بقرطبة من قتل الخليفة العلوي علي بن حمود الملقب بالناصر سنة 408هـ/ 1018م [1] ، وولي بعده أخوه القاسم بن حمود ، وتلقب بالمأمون [2] ، ولم يلبث أن ظهر في عهده أحد أفراد البيت الأموي ، الذي يطالب باستعادة الخلافة من البيت الهاشمي العلوي، وذلك عندما قام شخص يدعى عبد الرحمن بن محمد، ويلقب بالمرتضى [3] ، على رأس مجموعة من الموالي العامريين وأصحاب الثغور سنة 409هـ/ 1019م ، وزحف بهم جميعا صوب قرطبة، فاستولى في طريقه على غرناطة ، إلا أن أميرها آنذاك زاوي بن بلكين الصنهاجي، خرج إليه بجموع صنهاجة، والتقى معه، وتمكن من هزيمته وقتله بالتالي ، وأرسل زاوي إلى الخليفة القاسم يخبره بالنصر [4] .

ومن اللافت للنظر أن زاوي بن بلكين بعد هذا النصر فكر في العودة إلى العدوة المغربية ، وذلك لأن الأندلس أصبحت محفوفة بالمخاطر، ولا سيما بعد قيام دولة الحموديين واعتمادهم على رجال زناتة، وتغير نفوس رجال الأندلس على الصنهاجيين ، وقد أفصح زاوي عن ذلك بقوله:" قد علمت وأيقنت أن هذا يكون دأبهم ابدا، وإن كنا قد منحنا الظفر في أول صفقة ، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا كل حين وهم إن قتل منهم واحد خلفه الف، مع ميل جنسيتهم من الدعايا إليهم، فتكون الزيادة فيهم والنقصان منا، ولا يموت لنا نحن أحد ونخلفه أبدا"[5] ، ولذلك شاور زاوي قومه بالأمر واقترح عليهم العودة إلى المغرب بقوله : " فالرأي الخروج عن أرضهم (يعني الأندلس) واغتنام السلامة مع إحراز الغنيمة والرجوع إلى الجملة التي انفصلنا عنها (يعني صنهاجة بالمغرب) كانفين للعيال والذرية مباعدين لما وراءنا من زناتة أعداءنا الذين لا يغفلون عنا لا سيما ، وقد عرفنا

---

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص 57.

(2) ابن عذاري، البيان، ج3، ص 122؛ المراكشي، المعجب، ص 37؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص 22.

(3) ابن العربي ، شواهد الجلة، ص 368.

(4) ابن عذاري، البيان، ج3، ص 125-127.

(5) ابن بلكين ، مذكرات الامير عبد الله ، ص 24.

قومهم، ونبشنا أحقادهم المدفونة بيننا، فإن فرغوا لنا على قلة عددنا أو ظاهروا علينا الأندلس، وقعنا منهم بين لحيي أسد، فاصطلمونا، وها أنا قد أديت لكم النصيحة وأنا راحل عن الأندلس فمن أطاعني فليرحل معي.

ويبدو أن زاوياً قد وجد معارضة من أهل بيته [1] ، وبخاصة من أبنائه حيث أعاب ابنه بلكين بن زاوي هذا القرار على أبيه، وقال له: " بنيت لغيرك، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير لا تترك حاضرا لغائب ، واثبت بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقة وإشراف من نفسك على الهلاك"، فأجاب زاوي ابنه قائلا: " نستخلف على المدينة (غرناطة) من شيوخ تلكاتة (الصنهاجيين) الموثوق بهم في المهمات من يثقفها، وينوب منا بي فيها، حتى أباشر بنفسي حال القيروان وكيفية دولتها، فإما أن يتهيأ غرضنا وإلا انصرفنا إلى مركزنا"[2] .

والمرجح أن إصرار زاوي الصنهاجي على العبور إلى المغرب ، كان وراءه الطمع في استخلاص ولاية إفريقية من ابن أخيه الصغير المعز بن باديس، ويؤكد ذلك، النص التاريخي الذي ورد في مذكرات الأمير عبد الله الصنهاجي المسماة " التبيين" حيث قال: " فنظر (زاوي) من المكان بعين الحقيقة وزهد فيه ، مع ما علمه من وفاة باديس بن المنصور والد المعز ، ملك القيروان ، وأن ابنه ولي طفلا صغيرا، فشرهت نفسه إلى تلك الولاية، وعزم على النهوض إليها، للقدر الذي قدره الله من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه" [3] .

وبعد أن استأذن زاوي ابن عمه صاحب إفريقية المعز بن باديس بالعبور إلى المغرب ، غادر الأندلس مستقلا سفنه بمن تبعه من أهله وأمواله من مرسى المنكب سنة 410هـ/ 1020م ، ولحق بأرض إفريقية، بعد غيبة دامت اثنتين وعشرين سنة ، فاستقبله المعز بن باديس أحسن

---

[1] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج3، ص 129.

[2] ابن بلكين، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 24.

[3] ابن بلكين، ص 24.

استقبال، وأنزله معه في المنصورية [1] ، ولما استقر زاوي بإفريقية خشي منه بعض وزراء المعز بأن يكدر ما صفا لهم، فدسوا إليه من سقاه السم، فمات مسموما بتلك البلاد [2] سنة 429هـ/ 1039 م [3] .

وحرص الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي، من جانبه ، على تقوية الرابطة الودية مع المعز بن باديس نائبه على بلاد المغرب، وذلك خوفا من استقلاله بولاية إفريقية والمغرب، عن الدولة الفاطمية بمصر، فقد وصل إلى المنصورية سنة 411هـ/1021م ، رسولان من طرف الخليفة الفاطمي، حيث حمل الأول منهما وهو أبو القاسم بن اليزيد هدية قيمة عبارة عن سيف مكلل بالجواهر النفيسية، وخلع فاخرة ، إضافة إلى سجل جديد للمعز تضمن تشريفا له " لم يصل لأحد قبله" [4] ، ثم تبعه الرسول الثاني وهو محمد بن عبد العزيز بن أبي كدية وكان يحمل معه سجلا آخر فيه جواب شكر للمعز على كتابه الذي أرسله إلى الخليفة الحاكم بأمر الله، حيث أطلعه فيه على آخر التطورات السياسية على الساحة الأندلسية، والمتضمنة سقوط الدولة الأموية فيها، ووصول القاسم بن حمود إلى السلطة ، كما حمل الرسول معه هدية رمزية ، عبارة عن خمسة عشر علما منسوجة بالذهب ، فاحتفل المعز بن باديس بالهدية ، وطيف بها في مدينة القيروان في يوم الأحد لليلتين بقيتا من ربيع الآخر سنة 411هـ/ تموز 1021م[5] .

---

[1] ابن عذاري، البيان، ج1، ص 269؛ ج3، ص 128؛ وعندما غادر زاوي من الأندلس، تمكن ابن أخيه حبوس بن ماكسن بن الاستيلاء على غرناطة (ابن بلكين، مذكرات الأمير عبدالله ، ص 25) ، في حين ذكر ابن الخطيب أن زاويا هو الذي التسخلف ابن أخيه حبوس بن ماكسن (الإحاطة ، ج1، ص 140).

[2] ابن بلكين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص 25

[3] ابن الخطيب، الإحاطة ، ج1، ص 140.

[4] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 269.

[5] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 269-270.

ولم يلبث أن وصل الخبر إلى إفريقية بوفاة الخليفة الحاكم بأمر الله في شهر شوال سنة 411هـ/ كانون ثاني 1021م [1] ، وبويع بالخلافة بعده لابن الظاهر لإعزاز دين الله، أبو الحسن علي، يوم عيد الأضحى من نفس العام[2] .

ظل القاسم بن حمود العلوي على خلافة قرطبة إلى شهر ربيع الأول سنة 412هـ/ حزيران 1022م ، حيث استطاع ابن أخيه يحيى بن علي حينئذ من خلعه، وإجباره على الهرب عن قرطبة ، وتسمى يحيى بالخلافة وتلقب بالمعتكي ، وبقي على سدة الحكم إلى أن تمكن القاسم من استمالة البربر، حيث زحف بهم إلى قرطبة ، فدخلها سنة 413هـ/ 1023م ، وأجبر يحيى على الهرب إلى مالقة [3] ، ويبدو أن سوء سياسة القاسم لم تسعفه لأن يستمر طويلا في خلافته، إذ أنه أطلق يد البربر في أسواق قرطبة مما أثار مثل هذه التصرفات غضب أهالي المدينة ، فثاروا على البربر وهزموهم ، وخلعوا القاسم عن الخلافة في شعبان سنة 414هـ/ تشرين ثاني 1024م [4] ، واتفق أهل قرطبة حينها على رد الخلافة إلى الأسرة الأموية [5] ، فبايعوا عبد الرحمن بن هشام، ولقبوه بالمستظهر بالله [6] ، يوم الثلاثاء السادس عشر من رمضان سنة 414هـ/ كانون الأول 1024م [7] إلا أنه لم يمكث سوى بضعة أشهر حتى ثار عليه ابن عمه محمد بن عبد الرحمن ، فقتله ، وتقلد الخلافة مكانه وتلقب بالمستكفي بالله، وذلك لثلاث خلون من ذي القعدة من نفس العام، أي سنة 414هـ/ شباط 1024م [8] .

---

[1] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 270.

[2] المقريزي، الخطط، ج2، ص 39.

[3] الحميدي، جذوة المقتبس، ص 23؛ المراكشي، المعجب، ص 38.

[4] الحميدي، المصدر نفسه، ص 23-24؛ المراكشي، المصدر نفسه، ص 38.

[5] المراكشي، المعجب، ص 40.

[6] القرماني، أخبار الدول، ص 66؛ المقري ، نفح الطيب، ج1، ص 236.

[7] ابن عذاري، البيان، ج3، ص 134.

[8] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج3، ص 140-143؛ المراكشي، المعجب، ص 40.

ومن المؤكد أن تدهور أوضاع الخلافة الأموية بالأندلس، انعكست نتائجها على حلفائها الزناتيين بالعدوة المغربية ، إذ أن الزناتيين حينما شعروا بضعف الخلفاء الأمويين بقرطبة ، وانقطاع المؤن والمساعدات التي كانوا يتلقونها منهم، بادر أميرهم آنذاك، وهو خليفة بن ورو بالانحياش والدخول في طاعة المعز بن باديس سنة 414هـ/ 1024م ، فأعطاه المعز مقابل ذلك مدينة نفطة من عمل قسطيلية ، ولما خرج المعز بن باديس في العام المذكور، لمحاربة ابن عمه الفتوح بن القائد في طرابلس ، سارع خليفة بن ورو في تقديم المساعدة له، حيث جهز عددا من المراكب البحرية وجعلها تحت تصرفه ، كما أن المعز بن باديس كان قد حشد مجموعة أخرى من المراكب " وكتب أن يلحق به كل من يتخلف من عساكره ليكون رحيله من المهدية إلى سفاقس ثم إلى قابس ، قاصدا إلى طرابلس"[1] ، وبعد أن أخضع المعز ابن عمه الفتوح عاد إلى المنصورية يوم الاثنين لست بقين من المحرم سنة 414هـ/ نيسان 1024م[2] .

ولم يكن الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله أقل حرصا من أبيه الحاكم بأمر الله، على كسب ود أمير صنهاجة ، إذ يبدو أنه انتهز فرصة انتصار المعز في حملته الأخيرة على طرابلس، وأرسل إليه سفيره محمد بن عبد العزيز سنة 414هـ/ 1024م ، وكان يحمل معه " سجلات ما وصل قبلها مثلها أجل حالا، ولا أعلى مقالا" ، حيث تضمنت إضافة لقب جديد للمعز بن باديس، هو عضد الدولة ، وأخبارا عن ميلاد ابنيه : أبى الطاهر، وعبد الله أبي محمد، وبعث إليه مع كل ذلك هدية عبارة عن " ثلاثة أفراس من خيل ركوبه بسروج جليلة ، وخلعة نفيسة من نفيس ثيابه، ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة ، ما دخل إفريقية مثلها قط، وعشرين بندا مذهبة" ، وجرى استقبال الرسول ، والهدايا بمظاهر العناية والإكرام ، وقرئت سجلات الخليفة الفاطمي، على شرف الدولة وعضها " ثم قرئت بجامع القيروان ، وأمر بنسخها ، وأنفذت إلى الآفاق" ، ولقد عظم سرور المعز بن باديس بالسجل الأخير الذي ورد من مصر، وتضمن إنعاما جديدا عليه بلقب

---

[1] ابن عذاري، البيان ، ج1، ص 270.

[2] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 270.

" الأمير " وأصبح الرسم بالنسبة إليه أن يخاطب في المكاتبات بلقب " الأمير شرف الدولة وعضدها" [1] .

ولعل ما يفسر كل هذا الاهتمام ، بالمعز بن باديس من قبل الخليفتين الفاطميين الحاكم وابنه الظاهر، هو أن المعز بن باديس كانت لديه ميول سنية ، بسبب تعلمه مذهب الإمام مالك ، منذ طفولته، ويؤكد ذلك النص الذي أورده ابن عذاري بقوله : " فحرض ابن أبي الرجال المعز بن باديس وأدبه، ودله على مذهب الإمام مالك وعلى السنة والجماعة والشيعة" [2] ، ويسوق ابن عذاري حادثة تاريخية تشير إلى وجود ذلك الميول، مفادها، أن المعز ، عندما كان غلام خرج يوم العيد إلى المسجد مع جنوده وعبيده، فكبا به فرسه وهو في الطريق فقال عند ذلك " أبو بكر وعمر" فلما سمعه رجال الشيعة الذين كانوا في عسكره، بادروا لقتله ، إلا أن عبيده وخاصته " ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان " ، دافعوا عنه، وقتلوا من الشيعة ما يزيد على ثلاثة آلاف شخص، فسمي ذلك الموضع " بركة الدم" [3] .

ويتضح من رواية ابن عذاري هذه، أن الخليفتين الفاطميين ، حرصا على إرسال الهدايا القيمة للمعز ، والإنعام عليه بالألقاب السلطانية ، وذلك لكي لا يفكر بخلع طاعتهم ، والاستقلال بإمارته، وقد صدق ظن الخليفتين فيما بعد، عندما قام المعز بن باديس بقطع الدعوة الشيعية سنة 440هـ/ 1045م ، وأقامها للخلافة العباسية ببغداد [4] .

ولم يمض ستة عشر شهرا على بيعة الخليفة الأموي المستكفي بالله بقرطبة ، حتى قام أهل قرطبة بخلعه [5] ، وأعادوا الخلافة إلى الأسرة العلوية ، حيث بايعوا يحيى بن علي المعتلي مرة

---

[1] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص 271-272.

[2] البيان ، ج1، ص 273.

[3] البيان ، ج1، ص 273-274؛ ويذكر صاحب الاستبصار، أن الذين قتلوا كانوا ما يزيد على عشرين ألفا (كاتب مراكشي، ص 168).

[4] ابن عذاري ، البيان ، ج1، ص 274.

[5] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 438.

ثانية سنة 416هـ/ 1026م ، إلا أن الأخير لم يفتأ أن خلع من الحكم سنة 417هـ/ 1027م ، وأعيدت الخلافة للمرة الأخيرة إلى الأسرة الأموية سنة 418هـ/ 1028م ، وذلك حينما اجتمع رأي أهل القيروان على مبايعة هشام بن محمد أخو المرتضى في نفس العام، أي سنة 418هـم 1028م، وتلقب بالمعتمد بالله [1] ، وكان هشام بن محمد مقيما آنذاك بثغر لاردة ، ولم يدخل قرطبة إلا سنة 420هـ/ 1029م [2] ، فبايعه حينها أهل قرطبة بيعة تامة [3] ، فلم يقم بها إلا يسيرا حتى قامت عليه فرقة من الجند، وخلعته عن عرشه [4] ، سنة 422هـ/ 1031م ، وفر بعدها إلى لاردة ، حيث بقي بها إلى أن توفي هناك سنة 427هـ/ 1037م [5] .

وبذلك يكون هشام بن محمد هو آخر خلفاء بني أمية الأندلس [6] ، وقد بلغ من حرص بني أمية على الخلافة أن شخصا يدعى أمية بن عبد الرحمن حينما خلع هشام بن محمد، طالب أهل قرطبة بمبايعته بالخلافة ، فقالوا له: " إنا نخاف عليك في هذا اليوم القتل، لما نرى من انقلاب الناس عليكم، فقال لهم أمية : بايعوني أنتم اليوم واقتلوني غدا" [7] ، ونودي على أثر ذلك في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى من بني أمية بقرطبة ولا يكنفهم أحد[8] .

وعلى هذا الأساس، فإن الدعوة الأموية انقطع ذكرها على منابر الأندلس والعدوة المغربية [9] ، وبدأ بعدها عصر دول الطوائف ، ويصور المقري ذلك بقوله : " وانقطعت الدولة

---

[1] الحميدي، جذوة المقتبس، ص 24-25؛ ابن عذاري، البيان ج3، ص 143- 146؛ المراكشي، المعجب، ص 42-43؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص 438.

[2] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 438.

[3] ابن عذاري، البيان، ج3، ص 146.

[4] المراكشي، المعجب، ص 43.

[5] المقري، نفح الطيب، ج1، ص 438.

[6] المراكشي، المعجب، ص 44.

[7] ابن عذاري، البيان، ج3، ص 151.

[8] ابن عذاري، المصدر نفسه، ج3، ص 152.

[9] المراكشي، المعجب، ص 44.

الأموية من الأرض، وانتشر سلك الخلافة بالمغرب، وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف، وانتزى الرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات واقتسموا خطتها، وتغلب بعض على بعض" [1] .

والخلاصة أن دور زناتة وصنهاجة في العلاقات السياسية بين الأمويين والفاطميين ، اعتمد بشكل مباشر على قوة كل من الدولتين ، واستقرار أوضاعهما الداخلية ، إذ إن نفوذ زناتة على أراضي المغربين الأوسط والأقصى، ظل قائما بصورة فعلية حتى سقوط الدولة العامرية سنة 399هـ/ 1009م ، وبعد هذا التاريخ بدأ نفوذهم يتقلص تدريجيا بسبب اضطراب أوضاع الخلافة الأموية بالأندلس ، وما رافقها من قيام الدولة الحمودية فيها، وبالتالي أثر ذلك على عدم وصول الإمدادات والمساعدات لأمراء زناتة بالمغرب ، في سبيل الحفاظ على مناطق النفوذ ، التي كانت تتبع لسيادة أمويي الأندلس، وتقام على منابرها دعوة الخلفاء الأمويين ، وبالمقابل فإن خطر زناتة الذي بدأ ينحصر تدريجيا في المغربين الأوسط والأقصى بسبب انشغال الخلفاء الأمويين بالفتن الداخلية، فإن ذلك جعل عبء مقاومتها يخف على أمراء صنهاجة نواب الفاطميين على إفريقية والمغرب ، ولذلك ، اصبح الصنهاجيون يفكرون في الاستقلال الذاتي وبخاصة بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس سنة 422هـ/ 1031م ، وقد تحقق لهم ذلك الاستقلال سنة 440هـ/ 1045م، على يد الأمير المعز بن باديس.

---

[1] نفح الطيب، ج1، ص 438.

الخاتمة :

كان لسياسة الدولتين الخارجية الأموية بالأندلس والفاطمية بالمغرب ، دور كبير في تشجيع روح الفرقة والتنافس بين قبائل المغرب الثلاث كتامة وزناتة وصنهاجة ، لخدمة مصالحها السياسية والاقتصادية والمذهبية دون أن تتدخل قواتهما النظامية بشكل مباشر وتلتقي وجها لوجه.

ولا شك أن تلك السياسة غير المباشرة نجحت نجاحا كبيرا وخاصة في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر، إذ انحاش إلى الدعوة الأموية وتشبث بحبالها معظم القبائل المغربية الكبيرة ، مثل مكناسة النازلة بالمغرب الأقصى ، وزناتة الضاربة في المغرب الأوسط، والمتاخمة للحدود الفاطمية وغيرهما من القبائل البربرية الأخرى التي تفانت من أجل بسط النفوذ الأموي وحمايته. وبالمقابل فإن قبيلتي كتامة وصنهاجة ، كانتا الدعامة الحقيقية في قيام الخلافة الفاطمية على أرض المغرب ، واستمرارية وجودها السياسي على أرض إفريقية والمغرب حتى بعد انتقال مركز الخلافة الفاطمية إلى مصر سنة 362هـ/ 973م .

وقد تجسد نجاح السياسة الأموية في كثرة الوفود التي كانت ترد إلى قرطبة في كل حين، وهي مزودة بالهدايا المغربية رمزا للطاعة والولاء وتحمل معها الرسائل والتقارير المفصلة عن أحوال المغرب يشرحون فيها سياستهم وأعمالهم أول بأول، إزاء جيرانهم الفواطم وتطلب الإمدادات والمساعدات الاقتصادية والعسكرية لمجابهة الفاطميين، ولا سيما في أوقات الأزمات والانقسامات التي كانت تحل بدولتهم ، وكان الناصر لا يرفض لهم طلبا ويرسل لهم المعونات والإمدادات العسكرية والاقتصادية ، على شكل أساطيل تحمل الجند والرماة وترسو في الموانئ المغربية ، أو على هيئة أطباء ومهندسين وبنائين ، لبناء القلاع والحصون، وترميم ما أفسدته الحروب أو في صورة أموال ومواد غذائية[1] ، وقد تابع خلفاء بني أمية سياسة الناصر تجاه حلفائهم البربر من زناتيين ومكناسيين ، إلى نهاية الخلافة الأموية بالأندلس سنة 422هـ/1031،

---

[1] أنظر، الفيلالي، العلاقات السياسية ، ص 274-275.

وبهذه المعونات والمجهودات المكثفة استطاعت خلافة قرطبة أن تضع حدا لنشاط الفواطم في المغرب، وحصرت نفوذهم في إفريقية.

كما أن الخلفاء الفاطميين عملوا جاهدين على اصطناع رؤساء كتامة وصنهاجة ، وخصوهم بالمناصب الإدارية في ظل دولتهم ، لبث روح الولاء في نفوسهم تجاه دولتهم ، وحتى يستميتوا في الدفاع عن كيان الفاطميين بالمغرب ، وقد نجحت هذه السياسة التي رسمها خلفاء الدولتين الفاطمية والأموية، وأصبحت ساحة أرض المغرب ميدانا لصراع قبائل البربر فيما بينهما ، تنفيذا لسياسة الدولتين غير المباشرة.

وعلى الرغم من أن سياسة الدولتين الخارجية ، نجحت في الحد من توسع إحدى الدولتين على حساب أراضي الدولة الأخرى، وتفكير أي منهما في غزو الدولة الأخرى بشكل مباشر، فإن النتائج السلبية للصراع الفاطمي والأموي بواسطة قبائل البربر ، كانت أكثر من النتائج الإيجابية ، ففضلا عما لحق المتصارعين من خسائر مادية وأدبية، أثر الصراع في تماسك قبائل كتامة وزناتة وصنهاجة ، وبالأخص أسرة الزيريين ، إذ فتح باب الشقاق بينهم ، كما اضعف البحرية الإسلامية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، في وقت " نشطت فيه قوى بحرية أخرى للتوسع الإقليمي ولتمثيل دور الوسيط في التجارة بين حوضي البحر المتوسط"[1] .

وبالجملة ، فإن قبائل البربر الثلاث : كتامة وزناتة وصنهاجة كانت هي الأداة الفعلية التي استعملت في الصراع بين الدولتين الفاطمية بالمغرب والأموية بالأندلس طيلة فترة القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ولم تأت نهاية الدولة الأموية سنة 422هـ/ 1031م، حتى أنهكت قوى هذه القبائل وفقدت رموز قادتها ، ومن أجل ذلك لم تصمد طويلا أمام هجمات العرب الهلاليين حينما اجتاحوا بلاد المغرب سنة 441هـ/1049م.

---

[1] أنظر، لقبال، دور كتامة، ص 387.

قائمة المصادر والمراجع

(أ) قائمة المصادر:

- **ابن الأبار** ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت 658هـ/1260م) الحلة السيراء ، ج1، و2، ط1، تحقيق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1963م.

- **ابن الأثير** ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت 630هـ/1233م) ، الكامل في التاريخ ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ج6، و 7، و 8، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1986م.

- **إدريس** ، عماد الدين (ت872هـ/1488). تاريخ الخلفاء الفاطمين بالمغرب ، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، ج5، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

- **الإدريسي**، أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسني (ت 558هـ/1163م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، م1، ط1، عالم الكتب ، بيروت، 1989م.

- **الأزدي**، جمال الدين أبو الحسن بن ظافر (ت 623هـ/1226م)، أخبار الدول المنقطعة ، تقديم أندريه فريّة.

- **الإصطخري** ، إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي حتى (ت النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، المسالك والممالك ، تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة : محمد شفيق غربال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة ، 1961م.

- **ابن بطوطة** ، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي (ت 779هـ/1377م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، م1، و 4، تحقيق: عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، الرباط، 1997م.

- **البكري**، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 487هـ/1103م) ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، مكتبة المثنى، بغداد 1901م.

- **ابن بلكين** ، الأمير عبد الله بن زيري الصنهاجي ملك غرناطة (ت 483هـ/ 1090م). مذكرات الأمير عبد الله الزيري المسماة التبيين ، نشره وحققه : ليفي بروفنسال ، دار المعارف بمصر ، القاهرة، 1955م.

- **التجاني**، أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (ت أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)، رحلة التجاني ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب، المطبعة الرسمية ، تونس، 1958م.

- **ابن تغري بردي**، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/1469م). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج3، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، 1963م.

- **الجزنائي**، أبو الحسن علي (ت أواخر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) ، زهرة الآس في بناء فاس، الجزائر، 1922م.

- **الجوذري**، أبو علي منصور العزيزي (ت النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي). سيرة الأستاذ جوذر، تحقيق: محمد عبد الهادي شعيرة ومحمد كامل حسين، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954م.

- **ابن حزم** ، أبو محمد علي بن أحمد سعيد بن حزم الأندلسي (ت 456هـ/1231م). جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1962م.

- **ابن حماد،** أبو عبد الله محمد الصنهاجي (ت 628هـ/ 1231م). أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق : جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1984م.

- **الحميدي،** أبو عبد الله محمد بن أبي نصر (ت 488هـ/1095م). جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.

- **الحميري،** أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت727هـ/1327م). الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط1، بيروت، 1975م.

- **ابن حوقل،** أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي). صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، ب.ت.

- **ابن حيان،** أبو مروان حيان بن خلف القرطبي (ت 469هـ/ 1076م). المقتبس في أخبار رجال الأندلس، القطعة الأولى ، تحقيق الأب ملشورم ، باريس 1937م؛ والقطعة الثانية ، تحقيق : عبد الرحمن حجي، بيروت، 1965م؛ والقطعة الثالثة، تحقيق: محمود علي مكي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1971م؛ و طبعة بيروت، 1973م؛ والقطعة الرابعة ، تحقيق: شالميتا، بالتعاون مع ف. كورينطي ، المعهد الإسباني العربي للثقافة ، الرباط ، 1979م.

- **الخشني،** أبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد (ت 361هـ/ 972م). قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ، القاهرة، 1372م.

- **ابن الخطيب،** لسان الدين بن محمد الخطيب السليماني (ت 776هـ/1374م).

1. الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبد الله عنان، ج1، و ج2، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة ، 1973م.

2. الجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق : أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، نشر تحت عنوان : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1964م.

3. كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، تحقيق : محمد كمال شبانة ، مراجعة : حسن محمود ، دار الكتاب العربي ، ......

- **ابن خلدون** ، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/ 1406م). العبر وديوان المبتدأ والخبر من أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج1، و 3، و4، و 6، و7، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان (ب.ت).

- **ابن خلكان** ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابي بكر (681هـ/ 1682م). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج1، و 2، دار صادر، بيروت، 1970م.

- **دائرة المعارف الإسلامية،** م2، و3، إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتاوي، دار الشعب ، القاهرة .

- **الدباغ،** عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري (ت 696هـ/1279م). معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ج1، ط2، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة الخانجي، القاهرة ، 1968م.

- **الدرجيني،** أبو العباس أحمد بن سعيد (ت حوالي 670هـ/ 1279م). طبقات المشائخ بالمغرب، ج1، تحقيق: إبراهيم طلاي، 1974م.

- **الدواداري**، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك (ت بعد سنة 736هـ/ 1376م). كنز الدرر وجامع الغرر، ج6، نشر تحت عنوان : الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق: صلاح الدين المنجد، القاهرة ، 1961م.

- **ابن أبي دينار**، أبو عبد الله محمد بن القاسم الرعيني (ت أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي). المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط3، دار المسيرة، بيروت، 1993م.

- **الذهبي**، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748هـ). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ج25، ط1، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992م.

- **الرقيق القيرواني** ، أبو اسحق إبراهيم بن القاسم (ت النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي). تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق: عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

- **ابن أبي زرع**، أبو الحسن بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي (ت النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي). الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة ، الرباط، 1972م.

- **أبو زكريا** ، يحيى بن أبي بكر (ت النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي). كتاب السيرة وأخبار الأئمة ، الدار التونسية للنشر، تونس ، 1985م.

- **السراج** ، محمد بن محمد الوزير (ت 1149هـ/ 1736م). الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، ج1، 2، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984م.

- **السلاوي**، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (   ). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج1، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب ، الدار البيضاء، 1954م.

- **ابن سعيد المغربي**، أبو الحسن علي بن موسى (685هـ/1286م). المغرب في حلى المغرب، ج1، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة، 1964م.

- **السيوطي**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911هـ/1505م). تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1964م.

- **الشماخي**، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928هـ/ 1522م). السير، ب.ت.

- **الضبي**، أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبي (ت 599هـ/ 1203م). بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي ، 1967م.

- **ابن أبي الضياف**، أحمد (1291هـ/ 1874م). إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، تونس، 1963م.

- **ابن عبد الحكم**، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت257هـ/ 871م). فتوح إفريقية والاندلس ، تحقيق وتعليق: عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964م.

- **ابن العربي**، أبي بكر (ت 543هـ/ 1149م). كتاب شواهد الجلة والأعيان في مشاهير الإسلام والبلدان ، تحقيق: محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد، 1996م.

- **العبدري**، أبو عبد الله محمد بن محمد الحيحي، (   ). رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية ، تحقيق: محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس (ب.ت).

- **ابن عبد الحليم،** (ت في القرن 8هـ/ 14م). كتاب الأنساب ، تحقيق: محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد، 1996م.

- **ابن عذاري،** محمد بن عذاري المراكشي (ت القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي). البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج1، و2، و3، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة ، بيروت، 1983م.

- **أبو العرب،** محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (ت 333هـ/ 944م). طبقات علماء إفريقية وتونس، تحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس ، 1968م.

- **العيني،** أبو محمد بن أحمد بن موسى بن بدر الدين (ت 885هـ/ 1451م). عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، ج8، بيروت، (ب. ت).

- **ابن غلبون،** أبو عبد الله محمد بن خليل الطرابلسي (ت 1150هـ). تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تحقيق: أيمن البحيري، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية ، القاهرة ، 1998م.

- **ابن الفرضي،** أبو اليد عبد الله محمد بن يوسف (ت 403هـ/ 1012م). تاريخ علماء الأندلس، ج1، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري، القاهرة ، 1966م.

- **ابن القاضي،** أحمد المكناسي (960هـ/ 1025م). جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ج1، و 2، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م.

- **ابن القوطية** ، أبو بكر محمد بن عبد العزيز الأندلسي القرطبي (367هـ/977م). تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1989م.

- **القاضي عبد الجبار** أحمد الهمذاني (ت 415هـ). تثبيت دلائل النبوة، ج2، تحقيق: عبد الكريم عثمان ، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، (ب.ت).

- **القاضي عياض،** أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (ت544هـ/ 1149 م). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج3، تحقيق: أحمد بكر محمود ، دار مكتبة الحياة، بيروت (ب.ت).

- **القرماني،** أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت 1019هـ/1610م). أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، م2، تحقيق: أحمد حطيط، وفهمي سعيد، ط1، عالم الكتب ، بيروت، 1992م.

- **القزويني،** زكريا بن محمد بن محمد (ت 682هـ/ 1323م). آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1969م.

- **المالكي،** أبو بكر بن عبد الله بن أبي عبد الله (ت نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، ج2، تحقيق: البكوش، راجعه: محمد العروس، دار الغرب الإسلامي، القاهرة، 1951م.

- **مجهول** . كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق: إبراهيم الإبياري، ط2، دار الكتاب المصري، القاهرة ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1989م.

- **مجهول** (لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي). الاستبصار في عجائب الأمصار , نشر وتعليق : سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (ب.ت).

- **مجهول** (ت 350هـ/961م). كتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ج4، تحقيق: عمر السعيدي ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ، دمشق، 1973م.

- **مجهول**. كتاب مفاخر البربر، تحقيق: محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، 1996م.

- **المراكشي**، عبد الواحد بن علي التميمي (ت 647هـ). المعجب في تلخيص أخبار المغرب، من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين مع ما يتصل بتاريخ هذه الفترة من أخبار الشعراء واعيان الكتاب، ط1، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، نشره: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.

- **المقدسي**، شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت 388هـ/997م). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991م.

- **المقري**، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت 1041هـ/ 1632م). نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، ج1، و3، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، (ب.ت).

- **المقريزي**، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1441م).

1. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ج1، تحقيق: جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1967م، و ج2، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1971م.

2. كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ج2، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي ، مكتبة مدبولي ، 1998م، و ج3، تعليق: زهير حميدان، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق، 1987م.

3. المقفى الكبير، ج2، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، 1988م.

- **ابن منظور** ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، م4، دار صادر، بيروت، 1955م.

- **ابن النديم** ، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب بن اسحق (ت385هـ/ 995م). كتاب الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، القاهرة، 1348هـ.

- **النعمان**، القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن حيون (ت 363هـ/974م).

1. افتتاح الدعوة، تحقيق: فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1975م.

2. المجالس والمسايرات، ج1، و ج 2، تحقيق: الحبيب الفقي ، وإبراهيم شبوح، و محمد اليعلاوي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، تونس، 1978م.

- **النويري**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ). نهاية الأرب في فنون الأدب ، الأجزاء 8، 24، 26، 28، تحقيق: حسين نصار وعبد العزيز الأهواني، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، 1983م.

- **ياقوت**، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (ت 626هـ/1229م). معجم البلدان، م1، و5، تصحيح: أمين الخانجي، القاهرة ، 1906م.

- **اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت 284هـ/897م). كتاب البلدان، 1891م.

(ب) قائمة المراجع العربية والمعربة:

- **أرشيبالد، لويس**. القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط (500-1100م). ترجمة : أحمد محمد عيسى ، مراجعة وتقديم: محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960م.

- **أحمد بدر**. تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري (عصر الخلافة)، دمشق، 1974م.

- **إسماعيل العربي**.

1. دولة الأدارسة ، ملوك تلمسان وفاس وقرطبة ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

2. دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.

- بروفنسال، ليفي. الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط1، ص دار المعارف ، مصر ، 1979م.

- **بروكلمان**، كارل. تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج2، ط1، ترجمة : نبيه أمين فارس، منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1949م.

- **بنعبد الله** ، عبد العزيز، الموسوعة المغربية للإعلام البشرية والحضارية، معلمة المدن والقبائل ، مطبوعات الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط، 1977م.

- **بونار** ، رابح بن أحمد. المغرب العربي، الجزائر، 1968م.

- **بيضون** ، إبراهيم. الدولة العربية في إسبانيا، بيروت، 1980م.

- **جورج مارسيه**. بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة عن الفرنسية : محمود عبد الصمد هيكل، راجعه واستخرج نصوصه : مصطفى أبو ضيف أحمد، منشأة المعارف بالإسكندرية.

- **جوليان،** شارل أندري. تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م، ج2، ص تعريب محمد مزالي والبشير سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983م.

- **الجيلالي،** عبد الرحمن محمد. تاريخ الجزائر العام، ج1، ط2، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م.

- **الحاجري**، محمد طه. مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، ط1، دار النهضة العربية ، 1983م.

- **الحبيب الجنحاني**.

1. دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
2. أعمال الملتقى الثالث التونسي الإسباني، عنوان المقال: " الصراع الفاطمي الأموي في المغرب خلال القرن الرابع الهجري" ، قرطاج، 1977م.

- **حسن إبراهيم حسن**.

1. المعز لدين الله ، ط2، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1963م.
2. الفاطميون في مصر، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1932م.
3. تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، ط4، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، 1981م.

- **حسن أحمد محمود**. قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، 1957م.

- **حسن أحمد محمود ومنى حسن محمود**. تاريخ المغرب والأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة ، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999م.

- **حسن حسني عبد الوهاب**.

1. خلاصة تاريخ تونس، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، 1983م.
2. ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، ج1، و 2، ط1، مكتبة المنار ، تونس.

- **حمدي عبد المنعم**. ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية (138-316هـ/756-928م)، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية، 1995م.

- **دبوز، محمد علي**. تاريخ المغرب الكبير، ج1، 2، ط1، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1963م.

- **الزاوي**، الطاهر أحمد الطرابلسي. تاريخ الفتح العربي في لبيبا، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1963م.

- **السامرائي**، خليل إبراهيم وآخرون. تاريخ المغرب العربي، بغداد، 1988م.

- **سرهنك**، إسماعيل ناظر. حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج1، ط1، المطبعة الأميرية، بولاق، 1312هـ.

- **سرور** ، محمد جمال الدين. مصر في عصر الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1968م.

- **سعد زغلول عبد الحميد**. تاريخ الفتح العربي (من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال) ، ج1، منشأة المعارف بالاسكندرية، القاهرة ، 1979م.

- **سنوسي**، يوسف إبراهيم. زناتة والخلافة الفاطمية ، ط1، مكتبة سعيد رافت ، القاهرة، 1986م.

- **سوادي عبد محمد** . دراسات في تاريخ المغرب العربي من القرن الثالث الهجري حتى القرن العاشر الميلادي، جامعة البصرة، 1989م.

- **السيد عبد العزيز سالم**. تاريخ المغرب الكبير، ج2، دار النهضة العربية ، بيروت، 1981م.

- **صابر محمد دياب**. سياسة الدولة الإسلامية في حوض البحر المتوسط، من أوائل القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر الفاطمي، ط1، عالم الكتب ، القاهرة، 1973م.

- **عادلة علي الحمد**. قيام الدولة الفاطمية ببلاد المغرب ، دار المستقبل، القاهرة، 1980م.

- **العبادي**، أحمد مختار.

  1. دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية، 1997م.
  2. في التاريخ العباسي والفاطمي، بيروت، 1972م.
  3. في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية.

- عبد الله **العروي**. مجمل تاريخ المغرب، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994م.

- **عبد العزيز المجدوب**. الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، تقديم علي الشابي، الدار التونسية ، 1975م.

- **عبد المجيد نعني**. تاريخ الدولة الأموية في الأندلس (التاريخ السياسي)، دار النهضة العربية.

- **علي أدهم** . عبد الرحمن الناصر.

- **عنان** ، محمد عبد الله. دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول- القسم الأول، والعصر الأول- القسم الثاني، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1988م.

- **غوتييه.** ماضي شمال إفريقيا ، ترجمة : هاشم الحسيني، ط1، الناشر الفرجاني، طرابلس، 1970م.

- **فرحات الدشراوي**. الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ/909-975م)، ترجمة : حماد الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1994م.

- **فيرو**، شارل. الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ، ترجمه وحققه: محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامة ، 1973م.

- **الفيلالي**، عبد العزيز. العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

- **الكعاك**، عثمان. موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، منشورات مكتبة العرب بتونس، 1344هـ.

- **ماجد**، عبدالمنعم. ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر، دار المعارف، الإسكندرية، 1968م.

- **محمد بن عبد الجليل**. أعمال الملتقى الثالث التونسي الإسباني، عنوان المقال: " كيف قاومت المالكية التشيع من اول عهد الدولة الزيرية إلى عهد المعز بن باديس الصنهاجي" ، قرطاج، 1977م.

- **محمد بن عميرة**. دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

- **محمود إسماعيل عبد الرزاق.**

1. الأدارسة (172-375هـ) ، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991م.

2. الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، ط1، بيروت، 1976م.

- **المدني،** أحمد توفيق. المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ب.ت.

- **مرمول،** محمد صالح. السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، الجزائر، 1983م.

- **مريم** ، قاسم طويل. مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (403-483هـ/ 1012-1090م) ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م.

- **موسى لقبال**. دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري(11م) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

- **مؤنس** ، حسين. تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، ج1، العصر الحديث، بيروت، 1992م.

- **ابن منصور،** عبد الوهاب. قبائل المغرب ، المطبعة الملكية، الرباط، 1968م.

- **الميلي،** مبارك بن محمد ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ج1، 2، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ب.ت.

- **نجيب زبيب**. الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ، ج2، تقديم: أحمد بن سودة، دار الأمير.

- **الهادي روجي إدريس**. الدولة الصنهاجية ، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م ، ج1 ، ط1، ترجمة: حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، 1992م.

(ج) الدوريات:

- **التقي العلوي**. أصول المغاربة ، القسم البربري، البحث العلمي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، المملكة المغربية ، جامعة محمد الخامس، عدد 32-33 ، سنة 1981-1982م.
- **الحبيب الجنحاني**. السياسة المالية للدولة الفاطمية في المغرب ، مجلة الأصالة ، ج5، عدد 46-50، السنة 1977م، تونس 1977م.
- **العبادي**، أحمد مختار. سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، م5، عدد 1-2 ، السنة 1957م، مدريد 1957م.

- **عبد الجليل عبد الرضا الراشد**. دور البربر في سقوط الدولة الأموية في الأندلس، مجلة المؤرخ العربي، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، عدد 3، السنة 1975م، بغداد 1975م.
- **عبد الواحد ذنون طه**.

1. استقرار القبائل البربرية في الأندلس، مجلة أوراق، المعهد الإسباني العربي للثقافة ، عدد 4، السنة 1981م.
2. استيطان القبائل البربرية في شمال إفريقيا قبل الإسلام، حوليات الجامعة التونسية، عدد 18، السنة 1980م، تونس 1980م.

- **لويس برنارد**. أصول الإسماعيلية الفاطمية والقرامطة، عالم الكتب ، ترجمة : حكمت تلحوق، م5، العدد الأول، السنة 1984م، الرياض 1984م.
- **محمد بن شريفة**. من منافرات العدوتين (نص جديد)، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد 1-2، ع 5، السنة 1977م.

- **محمد علي مكي**. الرحلات بين المشرق والأندلس، مجلة البينة ، عدد 1-4، ع5، السنة 1962م.

- **محمود علي مكي**. التشيع في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، وزارة المعارف العمومية، م3، عدد 1-2، السنة 1954م، مدريد 1954م.

- **موسى لقبال**.

1. حركة الصراع بين الأمويين والفاطميين في القرن 4هـ/ 10م ، من خلال مجالس النعمان، ومقتبس ابن حيان، المؤرخ العربي ، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، عدد 21، السنة 1982م، بغداد 1982م.
2. الحلف بين أهل السنة والنكارية في القرن 4هـ/10م، وأثره في تطور أوضاع مدن إفريقية والزاب والحضنة والأوراس، مجلة الأصالة ، عدد 57-61، الجزائر، 1978م.
3. دور قبيلة كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ، مجلة الأصالة ، ج2، عدد 9-11، الجزائر، 1972م.
4. زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان والمغرب الأوسط، مجلة الأصالة ، ج4، عدد 25-26، الجزائر، 1975م.
5. المعز لدين الله وجيل جديد من كتامة ، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، عدد 3، السنة 1975م، بغداد 1975م.

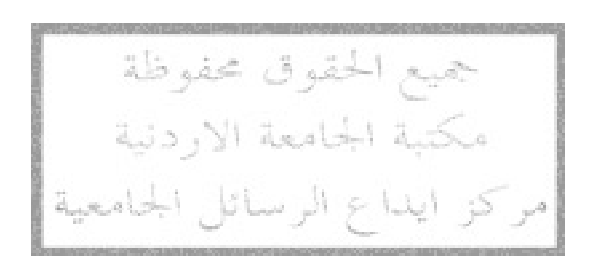
- **مؤنس**، حسين. ثورات البربر في إفريقية والأندلس بين سنتي 102-136هـ/721-753م)، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، م 10، ج1، السنة 1948، القاهرة 1948م.

(د) الرسائل الجامعية:

- **التواتي بن بو بكر**. المرحلة الإفريقية من خلافة المعز لدين الله الفاطمي (341-361هـ/952-971م) ، رسالة ماجستير ، دمشق.
- **سعد سالم مرشد الرويضان**. ثورة عمر بن حفصون وأولاده في جنوب الدولة الأموية في الأندلس (267-315هـ/ 880-927م)، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية، عمان ، 1998م.
- **عبد الله جاسم محمد جابر**. النظم الإدارية والمالية والقضائية والعسكرية وتطورها في عهد المعز لدين الله الفاطمي (341-365هـ/952-975م)، رسالة ماجستير ، معهد الآداب الشرقية، جامعة القديس يوسف، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بيروت، 1997م.
- **محمد عبد الله سالم العمايرة**. الجيش الفاطمي (297-567هـ/909-1170م)، رسالة دكتوراه، عمان ، 1999م.
- **موسى أحمد مخاط بني خالد**. ثورة أبي يزيد الخارجي ضد الفاطميين (322-336هـ/934-948م)، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية، عمان 1995م.

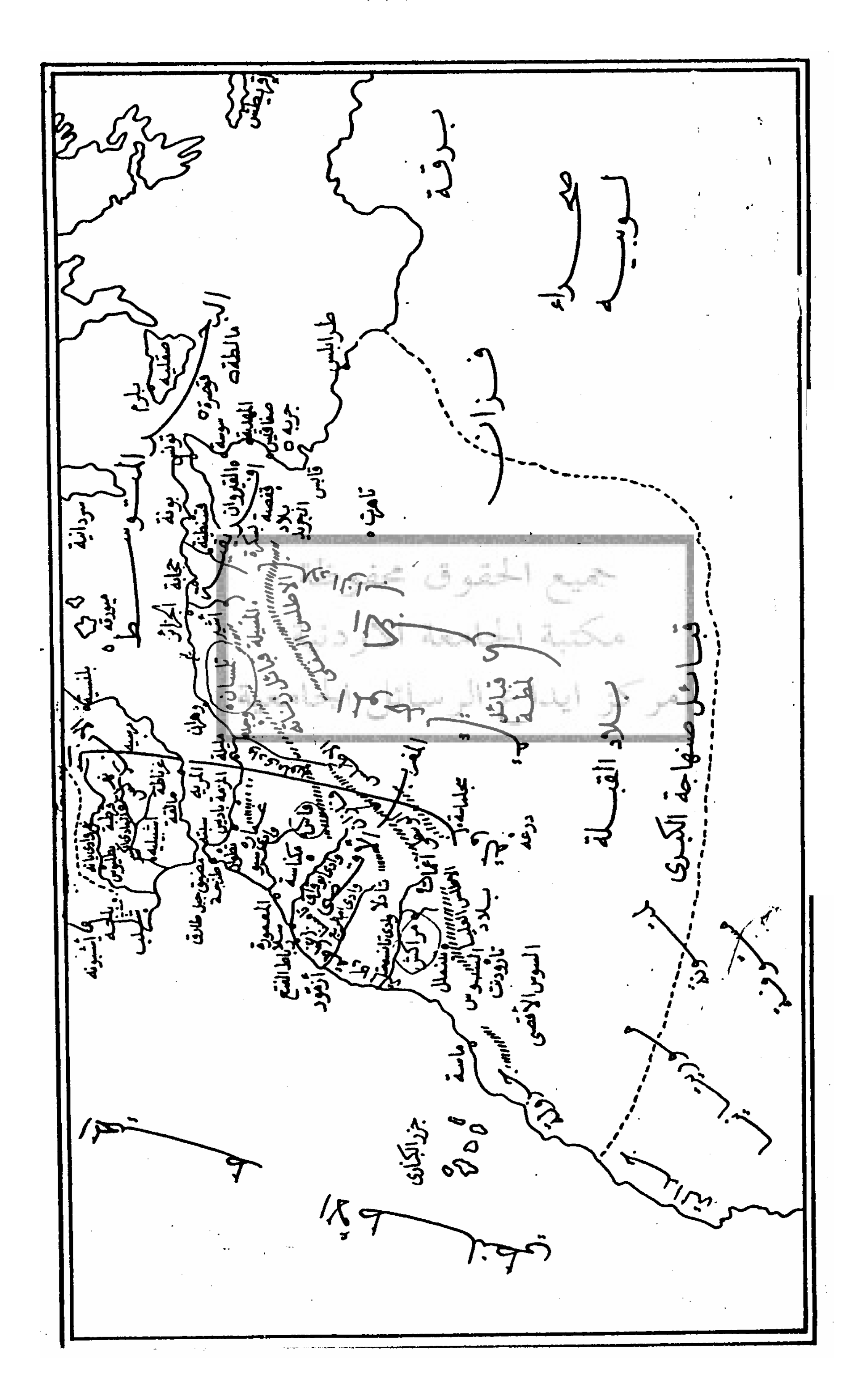
(هـ) المراجع الأجنبية:

- **Provincal,** L. Histoire de 1'espagne Musulman, vol. 2 Paris , 1905l.
- **Dozy** (R) . Histoire des Musulmans d' espagne, vol. 2, Leyle 1932.
- **Gautier**, E.F. Le passé de L'pfrique du nord, Les siecles obscures du Maghred , Paris, 1952.



الخرائط والجداول والملاحق

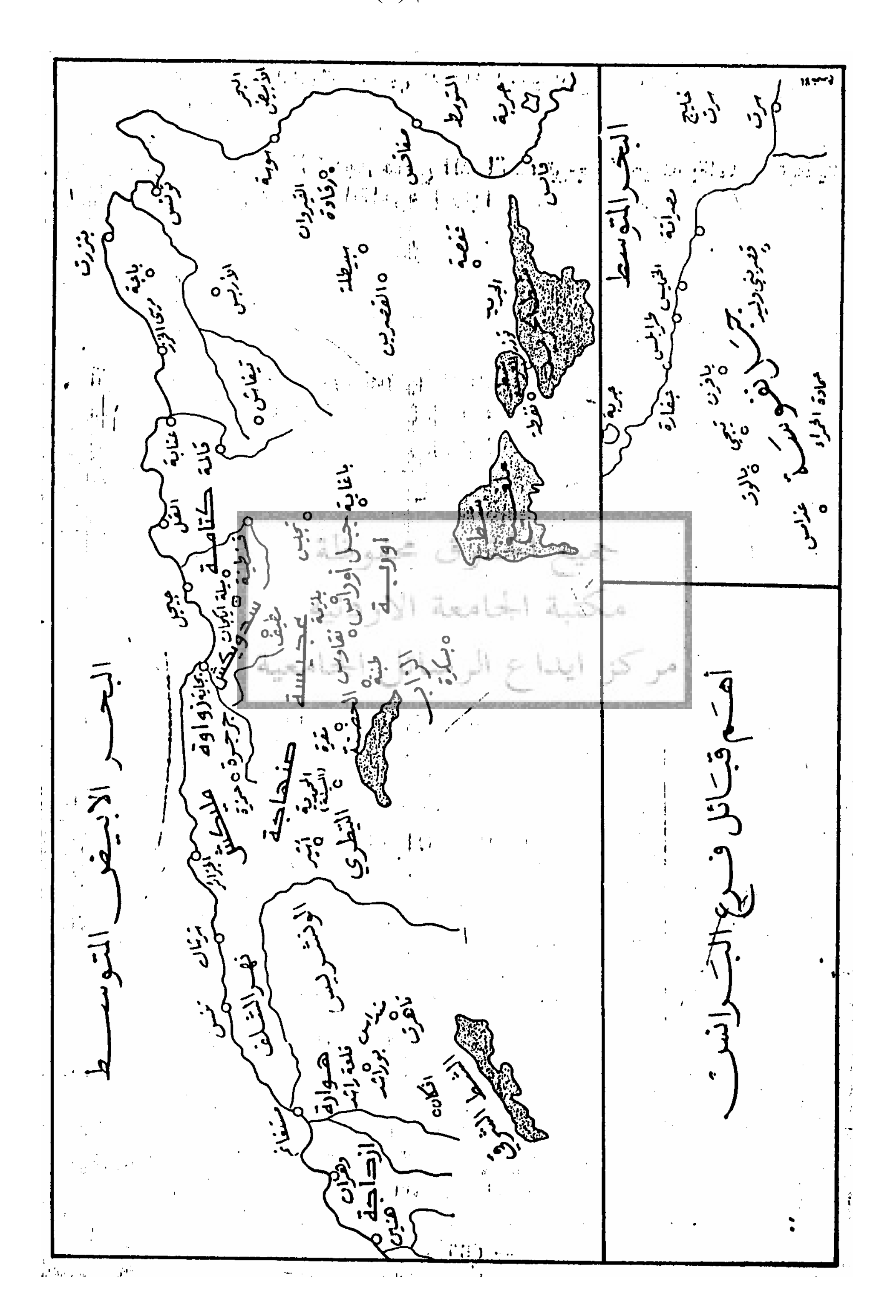
خارطة رقم (1)



مواطن انتشار زناتة وصنهاجة

(نقلا عن إحسان عباس، محقق كتاب نفح الطيب ، الجزء الثامن، ص 15)

خارطة رقم (2)



أهم قبائل فرع البرانس

(نقلا عن موسى لقبال، دور كتامة ، 896)

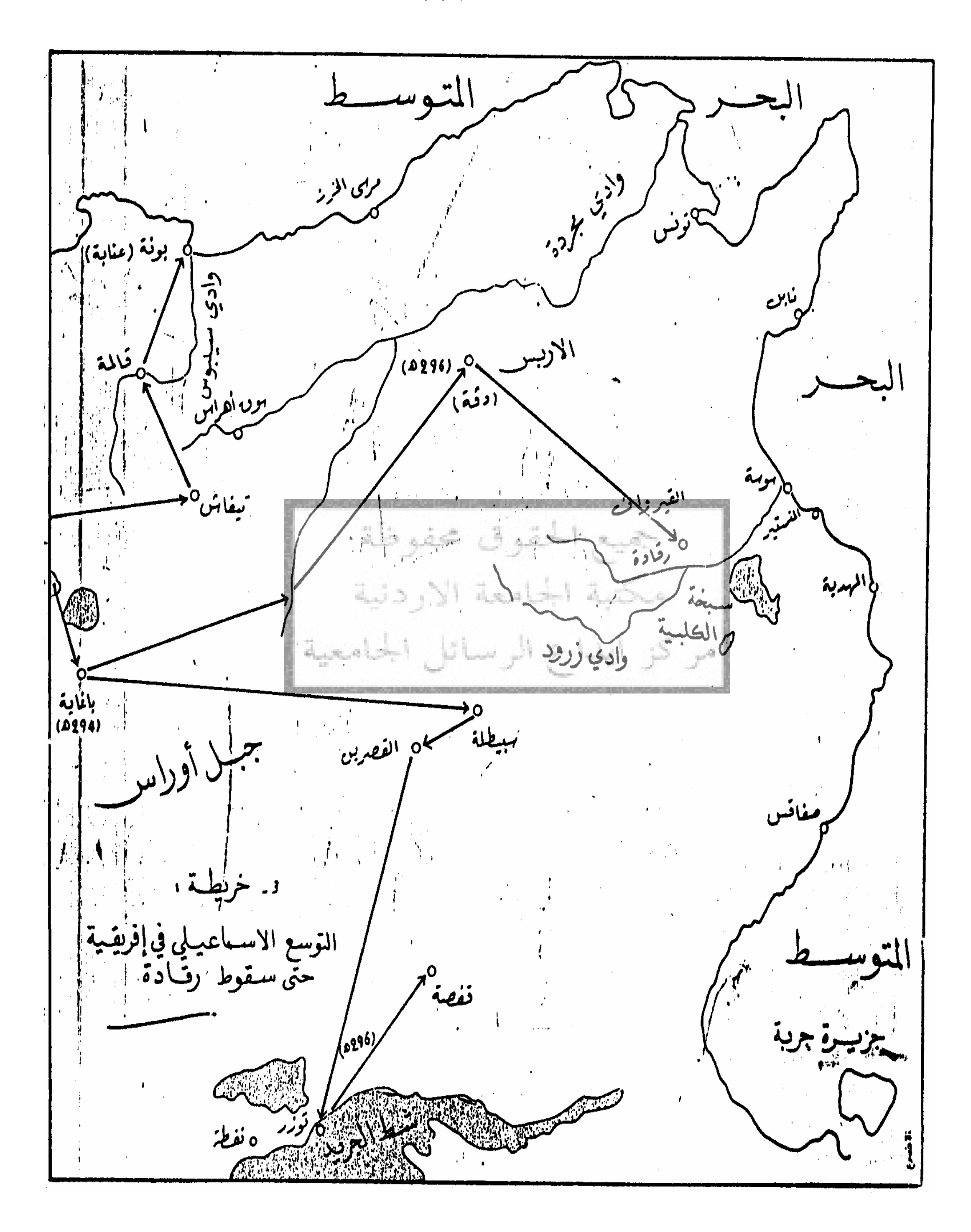
خارطة رقم (3)



مناطق انتشار زناتة في عهد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

(نقلا عن محمد بن عميرة، دور زناتة)

خارطة رقم (4)



التوسع الإسماعيلي في إفريقيا حتى سقوط رقادة

(نقلا عن موسى لقبال، دور كتامة، ص 688)

جدول (1)

أهم فروع زواوة الكتامية

المصدر	الفروع	البطون	القبيلة
ابن خلدون، المقدمة ، ج7، ص 153، انظر: لقبال، دور كتامة ، ص115	بنو كوفي بنو مليكش بنو رزيق خوجة بنو مزاتة بنو غرين مشزالة	زواوة	كتامة

جدول (3)

أهم البطون والفروع الزناتية

القبيلة	البطون	الفروع	المصدر أو المرجع
زناتة	1- مغراوة	بنو زنداك بنو وراق بنو يلنت بنو أبي سعيد بنو ورسفات ورتزميز لغواط بنو ريغة	ابن خلدون، المقدمة ، ج7، ص 8
	2- وجديجن: وهم من ولد ورتنيص		ابن خلدون ، المقدمة، ج7، ص 153.
	3- واغمرت أو غمرت: وهم اخوة وجديجن من ولد ورتنيص بن جانا		ابن خلدون، المقدمة، ج7، ص 54.
	3- بنو دمر	بنو ورغمة بنو ورنيد بنو يطوفت بنو برزال	ابن خلدون ، المقدمة ، ج7، ص 55.
	4- بنو واسين	بنو عبد الواد بنو توجين بنو مرين	ابن خلدون، المقدمة، ج7، ص 8
	5- مسرة الزناتية		
	6- بنو يرغش أو يزغت (يزغن)		
	7- بنو يالدس		
	8- أركنة أو أبكتة		
	9- غفجوم		ابن خلدون، المقدمة، ج7، ص 8؛ انظر: سنوسي، زناتة والخلافة ، ص 86.

جدول (4)

أهم البطون والفروع الصنهاجية

القبيلة	البطون	الفروع	المصدر أو المرجع
صنهاجة	1- أنجفة	بنو مزاورات قشتالة بنو ملوانة بنو كفوا	ابن خلدون، المقدمة ، ج7، ص 153، ابن حوقل، صورة الأرض، ص 101
	2- لمطة	مسوفة ووشان وتمالتة	الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص 225.
	3- بنو ماركسن 4- بن كاردميت 5- بنو سيغين 6- بنو صالح 7- بنو توتك 8- وسططة 9- مداسة 10- وترجة 11- مومنة 12- مغرسة 13- ملوتة 14- فرية 15- وانيكارت 16- مندلة 17- بنو يتسين 18- بنو منصور 19- بنو ابراهيم 20- بنو محمد 21- تيمة 22- جزولة 23- متنة 24- بنو خليل 25- بجاية 26- بنو عمران 27- بطيوة 28- ترغة 29- وانوغة 30- مزغنة 31- بنو حميد 32- بنو الغلط	ينحدر من هذه البطون فروع عدة	الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج1، ص 225؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص 101؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ج1، ص 153، ابن العربي، شواهد الجلة، ص 367، انظر، لقبال، دور كتامة ، ص 87-89.

ملحق (1)

كتاب الخليفة عبد الرحمن الأموي إلى قبائل البربر في العدوة المغربية سنة 321هـ/933م، يستنهض فيه هممهم ، لنصرة موسى بن أبي العافية، ضد حميد بن يصل قائد الخليفة عبيد الله المهدي، ومما جاء فيها:

"ولكم في الديانة بصائر قوية، ومذاهب علية، لا يبلغكم فيها، بالغ وإن اجتهد ، ولا يلحقكم فيها لاحق، وإن أعدّ وأكدّ ، ولم تكونوا إلى أهل البدع سراعا، ولا لأهل البخل اتباعا، إلا أن تغيّر قبيلة منكم بغرور، فإذا تبينت العوج فيه، وتبرأت منه، وتابت إلى الله تعالى عنه، وأخذت بما لم يزل يعرف ، وتركت ما ينكر هذه صفاتكم، معشر البرابر الخالصة ، طاعتكم ، المحمودة بصائركم، المشكورة في الإسلام أيامكم المشهورة في الحرب، ملاحمكم ، لم تزالوا مجاهدين في سبيل الله حق جهاده مؤثرين لرضاه ساعين لما يقرب منه، ونحن وأسلافنا الخلفاء ، رضي الله عنهم، الذين قدموكم آخراً، وأنعموا عليكم أولاً، والانضواء إلى ولائنا على طريق من الحق مهيع، لا يرجع عنه إلا من غرة شيطانه، وزلق إيمانه، وارتكس سعيه ، وأراد الله غيه، ولا يتمسك به إلا من أتاه الله رشده، وقوى إيمانه وأراد إسعاده، وأحب إرشاده.

وقائدكم وأمير جماعتكم ، موسى بن أبى العافية ، ولي أمير المؤمنين ومولاه ، الناصر لدولته، القائم بدعوته ، الذاب عن حوزته، وإن أحق ما أخذتم به أنفسكم ، وأصلحتم به نياتكم، وانعقدت عليه بصائركم ، واتفقت به مذاهبكم بالصبر معه، والحياة بحياته ، وحب الوفاة بوفاته، أن تكون أيديكم مع يده، وكلمتكم مع كلمته، وجميع أموركم منقادة لأمره، تسرون في ذلك كالذي تظهرون، وتبدون مثل ما تخفون ، وأن تجعلوا جدكم وبأسكم في جهاد عدوكم هذا، الذي قد قاتلكم وناصبكم ، والضلالات على هداكم ، فهو أولى عدو جاهدتموه ، وأحرى غوي نابذتموه، وإنه للذي علمتم آثاره وأخباره، وآثار شيعته الغوية وأهل دعوته الضالة ، ومن يدعو إلى طاعته ويحض على الرجوع إليه أجمعين ، لا يرجع عن سوء ما يأمر به، ولا يعتقد دينا يكون عليه، فمرة يتأله عند

الجماعة ممن ركن إليه، وتارة يتنبأ ، وتارة يتسمى بما لم يره الله له أهلا، ولا جعله في نصابه، ولا أعفاه ما ينتمي إليه، لو كان صح له انتماؤه، وثبت له فيه ادعاؤه، كيف وهو الساقط الدعي، والخسيس العتي، والزنيم اليهودي، فاعرفوا، وفقكم الله، غنم ما أنتم مستمسكون به، وخير ما صرتم مدعوين إليه، واعلموا أنه، لو لم يقض الله بنصركم حتما، وينزله وحيا، لكنتم جدراء، لتقحم غمرته الجماعة وعروة السنة، إلا أن ترتدوا على أعقابكم ، وترجعوا عن دينكم ، على أن تنالوا فوز الحياة الدنيا، القليل دوامه، السريع انصرامه، المصرد شربه، المنقشع ظله، ثم من بعد ذلك العذاب الأليم، والنكال الشديد الدائم، الذي لا فترة فيه، الموصول الذي لا انصرام له، وانتم على الحق، وإليه معه، وغير خاتل أهله، والحق متبوع، والباطل ، مقطوع، والله تعالى سيقضي بنصركم ويهيئ لكم افضل مرفقكم، ويأذن بفلحكم، ويجعل العاقبة لكم، ويريكم في أعدائكم أفضل الذي تؤملونه، فطامنوا أنفسكم على لقائه، ووطنوا على صدقه واصبروا {**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**} {**واصبروا إن الله مع الصابرين**} ، وإياكم أن تتفرق كلمتكم ، وأن تستحيل بصائركم ، أو يرعبكم ما أطللتم من زهاء عدوكم ، ولا تهابوا أمره، وتعظموا في أنفسكم شأنه، فإنه حقير صغير قليل يسير، وأنتم الملأ الأعظم والحزب الأكرم، والفريق الأصبر.

وقد رأى أمير المؤمنين مكاتبتكم بما خاطبكم به، حاضا لعامتكم على ما فيه هداكم ورشدكم، معرفا بما لا يجهله ذو العلم، واللب منكم، ومقويا بصائركم ، ومجددا لإيمانكم، ومثبتا لأقدامكم ، ومؤلفا لجماعتكم وجامعا لكم على طاعتكم، ومتقدما إليكم بالجد في محاربة عدو الله وعدوكم.

وأمر أمير المؤمنين بإمدادكم بحماة الرجال والأبطال وحذاق الرماة المجودين ، بعد دهم من القسي والنبال ، وأغزى في البحر إلى تلقاء أعداء الله أسطولا ، تأنق في مراكبه، وركابه،وأكمل عدد من به وعدته على عجلة من النظر ووشكان من الأمر، لم يكن لأمير المؤمنين فيه مهلة ولا فسحة ، إذ لم يظن لما صرتم إليه، ولا أتت الأخبار مقيدة به، وكان قد جرد أسطوله الأكبر، مجاهدا على بلد الفرنجة، أهلكهم الله، وأخرج قواده وصنوف أجناده إلى أعداء الله المشركين شرقا

وغربا، وإنما أمركم وقت هذا بما كان بحضرته، وبمن أمكن إزعاجه وإخراجه لحينه ، فاتقوا الله في أنفسكم ولا تحولنّ عن الطاعة بصائركم ، ولا عن دين الإسلام عقائدكم ، ولا يعبدوا الله على حرف ، فتكونوا كمن قال فيه تعالى جده { **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به**} [1] .

والله يعيذكم من ذلك، ويمنعكم منه، ويوفق لكم ما يرضيه، عنكم ، ويوجب به، نصركم وتأييدكم إن شاء الله " .

ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 327-330.

[1] آية (11) ، السورة (22).

ملحق (2)

رسالة موسى بن أبي العافية إلى الخليفة الناصر لدين الله، يخبره بانتصاره على ميسور الخصي قائد الفاطميين ، في حملته إلى المغرب الأقصى، وموقف الأدارسة المساند لميسور سنة 322هـ/ 934م، وهذا نصها:

" وأما ما أراد سيدي، أمير المؤمنين ، ابقاه الله، إنهاءه إليه مما نحن فيه مع المشارقة، أهلكهم الله، فإن اللعين أبا القاسم طاغوتهم بعث إلينا غلامه ميسورا الخصي، وعفريته ابن أبي شحمة الكتامي، وغيرهما من قواده، في كثف من شياطينه، داعيا لمن حولنا من القبائل إلى الدخول في طاعته ، فحلوا في البلاد وثبوا دعاتهم، فتوقف الناس عنهم، ولاذ البرابرة منهم بأوعارهم ومعاقلهم.

فلما يئسوا منهم كاتبوا أهل مدينة فاس ، ولطفوا بهم، ودعوهم إلى الدخول في طاعتهم ، وأعطوهم العهود المغلظة والأيمان المؤكدة على تأمينهم وتقديمهم ، فاغتر بهم أميراهم ، محمد بن ثعلبة ، صاحب مدينة الأندلسيين ، وأحمد بن بكر صاحب مدينة القرويين ، وقدما عليهم مع وجوه من رجالهما ، فلما صاروا بين يدي الخصي، غدر بهم فأخذهم ، وأخذ جميع ما كان معهم من دواب وأسلحة ، فلما رأى أهل فاس ما فعله من ذلك ، توقفوا عنه، وامتنعوا من إدخاله، فنكب عنهم، وصار إلينا صامدا ، حتى نزل منا على مسافة ستة أميال، فأقام في محلته أربعة أيام يكاتبنا فلا نصغي إليه، ولا نجيبه، فمشى نحونا، هو وأولئك القواد، في عدد عديد وقوة قوية، وآلة تامة ضاق بهم الفضاء ، وقسموا عسكرهم فأتونا من ثلاثة طرق من جهة القبلة ، والغرب والشرق، فوقعت الحرب بيننا من ضحوة النهار ، فاتصلت إلى بعد العصر، وضمونا إلى الأوعار ، وكنا قد كمنا لهم كمينين ، فلما لصقوا بنا وقد طمعوا فينا، خرج الكمين الواحد ، فأثر فيهم وصبروا له ثم ردفه الكمين الثاني، فغلب صبرهم ، وولوا مدبرين ، ومنحنا الله أكتافهم، فعمل السلاح عمله فيهم ، وأخذ مأخذه منهم ، فقتلنا منهم في تلك الردة اثنين وعشرين ومائة قتيل، واخذنا عامة دوابهم ، إلا ما

أدركه العقر منها ورجعوا إلى مناخهم بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكان ذلك يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة مضت من شوال منها.

ثم عاودنا يوم الجمعة بعده صباحا، بجميع عدتهم، ومن كان تخلف في الأخبية منهم، فرأينا عساكر عظيمة لا تسقيها المياه فثارونا بالحرب من غدوة إلى وقت العصر، فاستظهرنا عليهم وردعناهم ردعتين عظيمتين ، وقتلنا خلقا منهم، وانصرفوا عشاء إلى محلتهم خاسرين مغيظين، فانصرفوا بعد ذلك عنا، ولم يحاربونا إلى أن انقلبوا على أدبارهم ، والحمد لله.

ونحن ، أبقى الله أمير المؤمنين سيدنا ، في قوة شديدة وعدة كاملة وجمع جامع، ما تخلف عنا أحد من رجال المغرب وأشرافه، تمسكا بولايته واستبصارا في طاعته.

وكان الأدعياء في قريش الأدارسة من أولاد محمد وبني عمهم من أولاد عمر، المعروفين ببني ميالة ، قد مشوا إلى مدينة أصيلا فلم يعنهم الله تعالى ، على ذلك، ولا قواهم ، فرجعوا بعسكرهم إلى ميسور الخصي، فإنهم لمعه إلى هذه الغاية.

وقد كنا كتبنا إلى ابن حزب الله صاحب سبتة ، ليخرج القواد في المراكب ليخالفوا هؤلاء الأدارسة إلى تيجساس ، وما حولها من ديارهم، ويغنموها، فرد إلينا الجواب يذكر أن الأدارسة بعد موادون للسلطان ، مظهرون اعتقاد الطاعة ، وأنه لا ينابذهم إلا بعد مؤامرة ، فغدرناه ، وعلمنا أين ذهب هؤلاء الأدعياء بالمماكرة ، وهذا كله، أعز الله أمير المؤمنين منهم دوافع ومكر ، وبالله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، أن إبراهيم بن إدريس كبيرهم وشريفهم بعسكرهم لعند الخصي ميسور ، ما زال ولا برح إلى هذه الغاية ، وأن ابن حزب الله لمخدوع كثير الطمأنينة ، ولم يحكم معاملة البرابرة ، فليكن من أمير المؤمنين إليه تبصرة ، والله يكشف له عن الضمائر ويقيه المكاره بمنه" .

ابن حيان المقتبس، شالميتا، ص 347-350.

ملحق (3)

هدية الناصر لدين الله، التي بعث بها إلى موسى بن أبي العافية ، تقديرا منه لشجاعته ، عقب انتصاره على ميسور الخصي ، سنة 322هـ/ 934م، والتي احتوت على :

" خمس وعشرون قطعة من البز الطرازي الخاصي، المرتفع العجيب الصنعة ، العراقي، العبيدي من ذلك خمس، والطرازي عشر وصوف البحر ثلاث، والسرقسطي ثنتان، والعمائم خمس.

درج فضة خلافي كبير، منقش الصفائح، مذهب التنقيش أبيض الأرض، ملبس الداخل بالأرجوان داخله.

تسع بين حقاق ومخازن ، كلها مملوءة بأنواع الطيب ، منها حق فضة مدور الشكل، مملوء من ند معقود بالعنبر، وحق عاج أبيض، فيه عود بخور مطري بعنبر، وحق عاج آخر بأوصال فضة أيضا، داخله قدح عراقي مملوء غالية مرتفعة، وحق عاج ثالث بأوصال فضة، وسلسلة فضة، فيه مسك أذفر سحيق، وحق عاج رابع أوصاله فضة أيضا، فيه ذريرة للصيف تستعملها الملوك عند العرق، وزجاجة عراقية مذهبة ، فيها ماء ورد عراقي خلافي ، وغشاء ديباج ، فيه مشط عاج كبير سلطاني لتستريح اللحية ، ومكحل ذهب، قد أدرج ذلك في سبنية شطرية وجوفة ديباج، مغشاة بجلد فاسي، غريبة الصنعة ، لها أربعة بيوت ، في كل بيت منها مخزن فضة على صنعة الإفرنجي ، أحدهما مشمع عنقه شطرنجي ، بغطاء فضة وسلسلة فضة، ومخزن ثان بدارات مشجرة، بينها تشجير مشجر سوى العنق ، مصفر الأسفل، بغطاء فضة ، وسلسلة فضة ومخزن ثالث مثله وعلى حكايته، ومخزن رابع على صفة الأول وصنعته ، فيها النقاوات الأربع، الخلافية المرتفعة الحرشاء، والصفراء ، والبيضاء ، والنضوح، وفي هذه جونة مع هذه المخازن ، زجاجة عراقية بمسوح خلافي، ودرج فضة صغير بعود الخلال، والعدة التي تستعملها الملوك بعد الطعام.

وكان في هذه الهدية من غرائب السلاح أربعة بنود، بند أول فيه صورة عقاب مختلف الألوان، رأسه فضة ، مذهب النقش له عينان حمراوان ، في وسط جبهته فص أخضر وبند ثان فيه صورة أسد مزوق أيضا، رأسه فضة، له عينان سمائيتان، وبند ثالث مطلق كبير أبيض مكتب بتذهيب، في جوانبه الثلاثة كتاب عريض، وبند رابع أحمر مكتوب بالفضة في جوانبه الثلاثة كتاب عريض ، وفيها سيفان، وهلالان مذهبان مزوقان، وأربعة قرون للضرب ، جاموسية مجزعة الأطراف الضيقة بأجمعها غلائفها ديباج وعلقها أديم أحمر، ولكل واحد منهما أربعة حلق فضة للعلائق حلية، أحدهما فضة مذهبة ملوزة بلوز أبيض بضيفتين مذهبتين ، مشمع الطرف الأضيق ، فيه أربع حلق فضة، وحلية الثاني فضة يصور، وحلية الثالث فضة منقشة مشمعة، وحلية الرابع فضة مذهبة منقشة مشجرة وستة من الطبول المذهبة الكاملة الآلة، بزوافرها في غلف أدم أحمر، مبطنة بصوف وعشرون ألف نبلة أعجمية".

ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 351-353.

ملحق (4)

كتاب من موسى بن أبي العافية إلى الناصر لدين الله ، يعلمه بأخبار المشارقة الفاطمية ، الذين يعانون من أزمة سياسية حادة وهروب الكثير من قوادهم وفتيانهم إلى المغرب الأقصى والانضمام إلى حلفاء الناصر لدين الله، وكذلك يلتمس منه تحصين مدينة طنجة وشكها بالرجال والعتاد، وذلك سنة 323هـ/935م، وهذا نصه:

" ومما أحب أمير المؤمنين سيدنا ، معرفته من أخبار المشارقة قصمهم الله، فإن جيشهم الملتف بالخصي ميسور ، يسر الله حتفه عاود حربنا في هذه الصائفة بجد وعزم، كذب الله فيهم ظنهم، وأضعف جندهم، وصرفهم على أعقابهم ، وبلغهم ما فعله أهل تاهرت بأبي مالك بن أبي شحمة ، عاملهم ، وما أظهروه من الخلاف عن طاغيتهم ، أبي القاسم، قصمه الله، ومن حولهم من قبائل البربر ، فحاروا وسقط في أيديهم، وزاد في خوفهم ما فيه طاغيتهم أبو القاسم مع اخوته بالمهدية من الخلاف ، فأفلس الاخابث وتساقط كثير منهم ومن شيعهم علينا، متبرئين منهم ، وهرب طوائف من عسكرهم ، مستأمنين إلينا ، حتى صارت الطريق سالكة إلينا من عندهم بالهاربين ، من فتيانهم وأولي البأس منهم، كمكاسة بن ناصر المكناسي ، أمير العرب ، ومن قدم بعده من بني داود بن مصالة، وزواغة ، أهل شلف إلى من يعرق منهم في الأسواق بديار المغرب، بفاس ، والبصرة، والمسيلة ، وبأسواق البربر، والطائفة التي جازت إلى الأندلس.

وبقي المقطوع ميسور المخذول، قطع الله أوصاله ، مع قرينه يغملاسن بن أبي شحمة ، وآلى الله عليه الغملات ، في جزيرة منقطعة مع شرذمتها من الطوائف ، التي وردت معهما من المهدية لا ظهير لهم ولا معين ، بحمد الله ، يؤيدهم ، ما بقي عندهم إلا اراهط نشبوا عندهم من أوربة وقوم يقال لهم الفاسة وبجاية وبنوحرير بيت من غمارة لا غير، وصارت إلينا قبائل أهل المغرب بأجمعهم من كل مكان حول فاس، من زواغة ، ولماية ، ومن درعة ومكناسة ، أهل الجبل، وجيرانهم نفزة ، أهل الظواعن من بني مرزحون ، وبني مدرساع، وبني حماية ، وبني يرناين، وبرنازة ، وبني محمد ، ومديونة، أهل مدهن، وجراوة أهل أغريس، وزناتة، ومن بني سنان ، وحيمال ، وبني مراين وبني دهنة، ومحاصة وبني مصلان، ومن كان على ملوية وصاع من قبائل بني راسين، وبني يفرن، وبني يزناسن، وبني وريمش، مطماطة ، أهل ملوية إلى حوز جراوة بن أبي العيش، إلى ما أحاط بنا نحن من قبائل البربر ، من مكناسة ، وأوربة ، وهوارة ، وصدينة، ونفزة، ولماية، وكرناطة، وصاروية ، وقاصونة، ولواتة، وسوماتة، وبني مسرة، أهل فندلاوة ، وقبائل غيرها ، لا يسعها كتابنا كلهم داعين بطاعة الله وطاعة أمير المؤمنين مولانا فنحن في عدد عديد ، وجمع عتيد ، وقوة قوية ، والحمد لله.

وقد ذكرت لأمير المؤمنين أمر مدينة طنجة ، والفائدة في ضبطها وصرف القوة التي توالي إخراجها إلى سبتة إليها، وإلى أصيلا، أختها لأن سبتة قد كفيت مؤنة من يقصدها ، فلا يصل إليها عدو لأن البحر قد أحاط بها ، والوعر حولها قد تكنفها، فالأموال تنفق عليها لغير فائدة ، ويأخذها من لا يستحقها ، وأنا عين أمير المؤمنين الكالئة في هذه العدوة ، فلا بد لي من إنهاء ماله في النصيحة إليه، ولم أخاطبه إلا بما فيه تزيد طاعته وانتشار دعوته حتى يتصل بالمشرق وميراث سلفه، إن شاء الله ويزاول أمر هؤلاء الأدعياء آل الحسن الأدارسة ، أولاد محمد وعمر ، قاتلهم الله، فإنهم عدة المشارقة في غربنا، وهم الذين يرددونهم ، إلى هذه الغاية ببلدنا ويوالون هداياهم ويصلون أيديهم بأيديهم ، فلو نزلت القوة بطنجة ، وجردت لها العزيمة لسقط ما بأيدي هؤلاء الأدارسة وغيرهم ، ولشغلوا بأنفسهم عن المشارقة .

وأمير المؤمنين أعلى عينا من أن يبصر بهذه الأمور ، ولكن النصيحة له تدعو إلى إمحاض الرأي ، وعلى الله توفيقه".

ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 369-371.

ملحق (5)

كتاب إبراهيم وأبي العيش الإدريسيان إلى الخليفة الناصر، سنة 323هـ/ 935م، يجددان فيه البيعة ، ويعتذران له عن التهمة التي رماهما بها موسى بن أبي العافية ، ومما جاء فيه:

" ... كتبناه إلى سيدنا، أمير المؤمنين ، بما نحن عليه من موالاته والإمحاض له ، وسلامة الضمائر من كل شبهة أو مزق في الإخلاص له، بحمد الله ونعمته ، معرفة بحق أمير المؤمنين ، وانقيادا لإمامته، واعتلاقا بحبله، رضى بما أظهر الله من دولته، وأثار من إمامته، على حين مدّها... مغربنا ، أطال الله بقاءه ، لهدم الشيعة الرافضة، القادحة في الشريعة ، المحرفة لسنة الرسول صلعم، افتراء منهم على الله تعالى وعلى نبيه صلعم، وعلى أهل بيته الطيبين، وابتلى الله عباده بهم ليعلم من يطيعه منهم، وأملى لهم ليزدادوا إثما، فاستفحل شرهم ، وآل إلى ما جرت مقادير الله به، من ظهورهم على موسى بن أبي العافية ، ولي أمير المؤمنين ، وقلعهم له، فزادهم الله صولا واستطالة على المسلمين بما هيأ لهم، وما كان من انكشاف عنهم، ونجاته إلى الرمال والصحاري، فرارا منهم، فعظم البلاء عنده، وجل الخطب ولله تعالى عواقب الأمور، ومنه مبدأها، ولا معقب لحكمه في شيء منها.

وبلغنا أنه نُمي إلى سيدنا أمير المؤمنين ، عنا أنا توجهنا إلى الفاسق ميسور ، لا يسر الله أمره، على أسوأ الوجوه، ولم يكن ذلك، أكرم الله سيدنا ، أمير المؤمنين ، إلا عن تقية منه ومداراة له، ولنا الأسوة الحسنة في رسول الله صلعم ، فقد دارى صفوان بن أمية ابن خلف الجمحي ، وغيره من المشركين والمنافقين حتى أظهر الله دينه وأعلى ذكر نبيه ، صلعم، فلا يرتب أمير المؤمنين بطويتنا وليجرد عزمه في معونتنا ، فإنه متى فضل رأيه ، أيده الله، بإخراج عسكر يناهض بنا هذا اللعين الذي قد عاث في أرضنا ، وأتى بالعظائم ، التي لا يحل لأمير المؤمنين، تركه لها، بدرنا إلى قائده ابن حزب الله بالرهائن التي تكون وثيقة على طاعتنا ، وأسلمنا إليه ، مع ذلك ، رهائن كل من ضوى إلينا من البربر ، حتى يقتنع بالتوثقة ويبلغ الغاية ، فإذا اجتمعنا مع الجيش المخرج إلينا، رجونا ألا يثبت لنا عدونا، إن شاء الله ، عز وجل".

ابن حيان ، المقتبس، شالميتا، ص 374-376.

الملحق (6)

رسالة الأدارسة من فرع بني محمد بن إدريس ، إلى الخليفة الناصر لدين الله ، سنة 319هـ/931م، يعتذرون له عن حصارهم للجيش الأموي في مدينة سبتة ، ويحمّلون قبائل البربر مسؤولية الغلطة التي ارتكبوها ، ومما جاء فيه:

" وقد أنعم الله بك، يا أمير المؤمنين ، في أن صرف همتك إلى ناحيتنا ، ووكل عزمك بعدوتنا، فلقد كنا نتمنى ذلك ونستبطئه منك، إلى أن تمم الله عزمك ويسرك بتوفيقه إلى ما نرجو أن نرتقي فيه على يديك إلى أفضل الخطط وأشرف المنازل، وذلك أن بلد البربر الذي نحن به، أعز الله أمير المؤمنين سيدنا، لقوم ملكوا أنفسهم من زمن عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه، وجارت عادتهم على جحد السلاطين ودفع الأئمة والغدر بالولاة والتوثب على العمال والملك لأنفسهم والاستبدال لآرائهم ، إلى أن دخل إليهم جدنا إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي ، رضي الله عنه، هاربا من عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الملقب بالمنصور بعد أن قتل أخويه محمدا وإبراهيم ، ابني عبد الله بن حسن بن حسن وشرد بأهل بيتهم، فلما صار جدنا إدريس إليهم واستجار بهم ، أجاروه وأوجبوا حقه، ووضعوا له في بلدهم فرضا، توسط به ما بينهم من الأحكام ، من غير أن يضبطهم ضبط السلطان ، ومضى لسبيله ، وقد تناسلنا منه، وقمنا مقامه، وسلكنا سبيله، فالبربر إلى اليوم على عادتهم الأولى معنا، إن هممنا بتشديد السلطان عليهم، هربوا عنا ونفروا منا واتخذوا الحصون علينا، فمرة نذهب إلى محاربتهم ، وتارة نؤول إلى مداراتهم، ولا نطمع مع الأيام في ضبطهم وكف عاديتهم إلى إن كان وقته بدنو الأمر الذي شرع فيه سيدنا أمير المؤمنين، بالرأي الذي هم به، وعزم عليه ، من ملك عدوتنا ومد ظله علينا فلا شيء أسر لأنفسنا ولا أجمع لآمالنا منه، فإلى إمامنا وسيدنا نرفع رغباتنا ونوجه طلباتنا في إتمام عزمك وتشديد فعلك وتثبيت بصيرتك فيما ألهمك إليه ووفقك له، فنحن أعز الله أمير المؤمنين سيدنا ، ممن لا نرغب بأنفسنا عنك، ولا نحيد عن سننك، فمرنا بما أحببت وناهض بنا من أردت، فنحن جند لك على أعدائك ، ومسارعون إلى ما يسرك، فلا نشك في طاعتنا ، ولا يرتب بمحبتنا وولايتنا، فبالله الرحمن الرحيم (عالم الغيب والشهادة) وكل يمين أوجبه الله في الكتاب، مما لا كفارة له إلا بالوفاء به، وكل ما نمتلك على المساكين صدقة لا نحاشي في ذلك عقارا ولا رباعا، وعلينا عهود الله المؤكدة ومواثيقه المغلظة ، وعلينا المشي كل واحد منا ثلاثين حجة، وكل مملوك نملكه حر، لوجه الله العظيم ، وجميع أيماننا هذه على الطواعية معقودة على الواحد منا والجماعة ، لا نقضنا لك بيعة، ولا سعينا معك بغش ولا كيد ولا مكر ولا خديعة ولا حيلة ، وإثلاج ومعاذ الله أن نرضى، ولكننا ذهبنا على تطبيب نفسك وتنقية قلبك وإثلاج صدرك ، والذي اعترفنا به لك غير مستنكر

علينا، لأنا لم ندخل البلد عن افتتاح افتتحناه ، ولا عن ميراث طلبناه، مع الذي تقدم من فعل جدنا الحسن بن علي، رضي الله عنه، في التسليم لسلفك ، وما مضت عليه جدودنا من البيعة لأجدادك ، رحمهم الله أجمعين.

وبعد، أعز الله أمير المؤمنين، فإنه قدم جندك علينا بسبتة بغتة ، لا نعلم معنى الأمر فيه، ولا المذهب إليه، فخف البربر الذين يلونها إليهم، واستبقوا إلى محاربتهم ، فلما تكافأت الحرب بينهم واستنصرونا عليهم، واستنهضونا للقيام معهم برجالنا وموالينا، وزعموا أنه إنما قدم إلى ما هنالك عامل الجزيرة الخضراء فيمن خف معه، متطاولا إلى ذلك من ذاته دون إذنك، ولا مذهبك ، فتوقفنا عنهم طمعا في ان يقدم إلينا من عندك كتاب أو رسول إلى أن طال الأمر علينا، فنهضنا بأنفسنا لاستبانة الخبر، فنادانا القوم من أعلى السور بأنهم جندك وأنك أنت الذي بعثتهم، وسألونا أن نكتب إليك لتعرفنا حقيقة الأمر، وحلية الخبر، فصرفنا عند ذلك عساكرنا عنهم، وأمرنا من يليهم من البربر بمسالمتهم إلى أن يرد كتابك علينا، فما تطلبه منا وترغبه عندنا، فمرنا بأمرك، يا سيدنا نطعه، فإنما نحن قوادك وعبيدك وأنصارك على من ناواك ، وأولى الناس بتأييدك وحماية سلطانك، فارم بنا حيث شئت ، وناهض بنا من أردت واندبنا لما قصدت، تنل نصحا وكفاية وتختبر تبصرة وصاغية، نرجو بها قضاء حقك ونيل الحظوة لديك وابتناء الشرف الذي يبقى لنا ولأعقابنا بعدنا، إن شاء الله تعالى".

ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 291-294.

ملحق (7)

رسالة آل عمر بن إدريس إلى الخليفة الناصر ، سنة 319هـ/931م ، يؤكدون له، مسارعتهم إلى بيعته ، ووقوفهم إلى جانب عامله المحاصر في مدينة سبتة ، من قبل بني عمومتهم ، أولاد بني محمد، وهذا نصها:

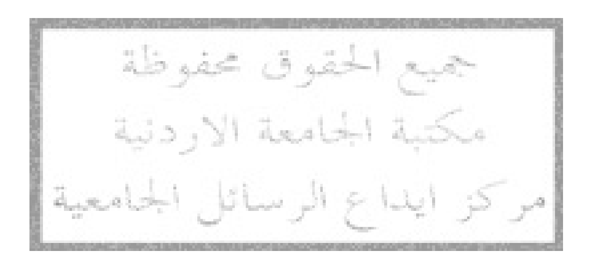
" وقد سبق كتابنا إلى سيدنا أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه، ونصف له قضيتنا مع عامل أمير المؤمنين الجائز بقوته، أعزه الله، إلى مدينة سبتة، وسرورنا بذلك وبتهاجنا له، وما كان من مسارعتنا إلى بيعتنا سيدنا أمير المؤمنين، وأخذها على ما قبلنا ، واغتباطنا بما وهبه الله تعالى لنا من ذلك، وألهمنا من السباق إليه، وأنا أجبنا داعيه وقمنا إلى نكاية أعدائه، ولا نأمن سلطان بني عمنا بني محمد المباينين لنا، إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه، الذين زحفوا إلى من بسبته من جنده المنصورة ، إذ هم أهل الإنكار لدعوته والدفع لبيعته ، والكراهة لدولته، والمناهضة بالعداوة لجنده، وكنا ، معشر ولد عمر ، على خلاف ذلك من الصغو له، أيده الله، والميل إليه والاعتراف بحقه، والشكر لله تعالى على النعمة بسلطانه.

وكان ورد كتاب أمير المؤمنين سيدنا، أيده الله، علينا يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ربيع الأول، فأسرعنا الخروج لمباطشة عدوه ومنابذة كل من نابذه يوم السبت ليومين مضيا من ربيع الآخر بعده، فنحن من يومئذ ، والله الغاية ، في مقابلة كل من اعترضنا دون عامله وصدنا عن سبيله، فمن مستجيب لبيعة أمير المؤمنين ، باخع بطاعته ، قبلنا فيئته، وأخذنا بيعته ، وبشرناه ، وأعلينا درجته، ومن مضراب كاره مدافع حطمنا بالسيوف أنفه، وشققنا بالقنا جبينه، حتى أجاب الدعوة صاغرا ولاذ بها كارها، بعد القتل المبير وخراب الديار وهتك الأستار وانتهاك الحرم. وانتساف الأموال ، ومن هارب شردناه عن وطنه، يعدمه الفقر ، ويقفوه الذل، فنحن على ذلك من شأننا ، نمضي قدما على وجوهنا، وكتبنا متواترة على العامل بما يشد أزره ، ويقوي نفسه، ويفرج روعه، ويفرح قلبه من الظهور على من جاش به، والفض لمن تألب عليه، إلى أن جاءنا كتابه بخبر مسالمته لأولاد محمد، أضدادنا ، يوم السبت لثمان خلون من جمادى الأولى، وإنما كان بيننا وبين سبتة يومئذ نحو بريد قد وطأنا الطاعة بما اخترناه وأخذنا الرهائن ممن عاقدناه فلم يمكنا التمادي على رأينا في الحرب إذ قد سالم عامله وأمينه وقمنا في وجهة من عدوه، إذ كنا أهل سمع وطاعة له، أعزه الله، نقوم بقيامه ونقعد بقعوده ونحارب من حاربه، ونسالم من سالمه، ونوالي من والاه، ونعادي من عاداه، ونقف عند أمره ونهيه، فرجعنا عند ذلك إلى مواطننا واشتغل الناس بزراعتهم، ونحن على أصح عزم، فيما قمنا به من نصر أمير المؤمنين سيدنا، أبقاه الله ، واغتباط بحظنا من دولته السعيدة، لا نحول ولا نتبدل ما جرت بنا مدة الحياة، وبالله نستعين وعليه نتوكل، ونحن ، أعز الله

أمير المؤمنين سيدنا، مستمعون لما يأتي من رأيه في أمر بني محمد، ثم يكون منا السمع والطاعة والانقياد لأمره كائنا من كان.

فليعلم أمير المؤمنين ، أيده الله، حق انقطاعنا إليه ومسارعتنا إلى إجابته داعيه قبل كل ذي روح ببلدنا، وليفعنا ذلك عنده، فلكل عمل ثواب ولا بد لكل عامل أن ينفعه عمله لدنياه وأخراه ، ثم ليخف عليه، أعزه الله، لأمر بجواب كتابنا ، لتطيب بذلك أنفسنا ، وتفرج له قلوبنا وتزداد اغتباطا بما نحن فيه، إن شاء الله، عز وجل".

ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 295-297.



ملحق (8)

رسالة بنو محمد الأدراسة إلى الخليفة الناصر لدين الله، سنة 319هـ/931م، تتضمن شكوى لهم، ضد عامل سبتة الأموي، بسبب نقضه معاهدة البيعة معهم ، التي عقدت في آخر جمادى الآخرة من نفس العام، وهذا نصها:

" وبعد، فإنه قدم إلينا ، يا أمير المؤمنين، رسولنا مع أمينك محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، مؤدي كتابك الكريم، فقرأناه وفهمنا ما ذكرت فيه ونحن ، أعز الله سيدنا أمير المؤمنين ، على محض المحبة وخالص المودة وغاية المسرة باتصالنا بك ودخولنا في كنفك، وقد سارعنا إلى كل ما رآه أمينك من عقد الأيمان المؤكدة ، وإعطاء العهود المغلظة ، التي حملناها على أن نوالي من والاك ، ونعادي من عاداك، ونكون يدا واحدة وكلمة متفقة على من حادك وناواك.

وقد أمرنا إقامة الدعوة لك على جميع منابرنا في كل عملنا، وإن صاحبك بسبتة إذ عاهدناه بأمرك، اشترطنا عليه بمحضر رجال البرابر لدينا ان لا يقبل أحدا من رعيتنا يأتيه ولا يضمه، ولا يؤويه ، ولا يخرج نظره عن باب سبتة ، ولا يعدوه، ثم لم يلبث أن داس بالعهد واستدعى قوما من رعيتنا ، يقال لهم بني وامضة أتوه فأواهم إليه بعد عهدنا، وكلمنا الأمين محمد بن عبد الله في ردهم إلينا ، وفاء بشرطنا، فتثاقل عن ذلك ودعا إلى استطلاع رأيك، يا أمير المؤمنين، فيه، فقد عرفناك، أيدك الله، بما سبق منه، ولا سبيل للتأول علينا، فليس لدينا إلا الاستقامة على الطريقة والوفاء بالعهد، وبدء صاحب سبتة بالتقصير مما يحيف على النفوس ويفسد الضمائر، ويظهر للناس الرغبة علينا في اليسير الحقير الذي في أيدينا ، ونحن جند قد اتخذه أمير المؤمنين، لنفسه من غير مرزئة تلحقه ، مع أنا أهله ولحمته، وإنما رجونا أن يوسع الله علينا به ضيقتنا بسببه، وأن يفتح له على أيدينا ، ويفتح لنا على يده ، ويربح دولته المباركة ، التي قد شمل خيرها وبركتها برأي أمير المؤمنين ، في الكتاب إلى عامله بسبتة في تغيير هذا الفعل والتوقف عنه، فإن في ذلك صلاح الخاصة والعامة، إن شاء الله".

ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 297-298.

ملحق (9)

رسالة محمد بن خزر أمير زناتة إلى الخليفة الناصر لدين الله الأموي، في آخر سنة 317هـ/ 929م، جدد له فيها البيعة ، واعترف بأحقيته بالخلافة ، ومما جاء فيها:

" ووالله، يا أمير المؤمنين ، ما أعلم على وجه الأرض أحدا أعرف بما أوجب الله لك مني لأني ما قمت بدعوتك إلا تقربا إلى الله تعالى ، وتوصلا إلى قتال كفار المشارقة بحقها وصدقها، فقد يعلم الله تعالى أني لم أتعرض للمشارقة ، أهلكهم الله على يدك، ما تعرضوني ، كما أني كففت زمانا عنهم قبل استحكام البصيرة فيك، فكفوا عني ورضوا بذلك مني، حتى رأيت أمرهم قد عم الناس شره، وقد حاولوا أن يبطلوا نور الإسلام بما كادوا به أهله، فاستخرت الله في جهادهم ، وقمت أدعو ربي في جوف الليل في التوفيق والتسديد ، وأن يخير لي وللمسلمين في مناهضتهم ، ويكشف عنا ما أغمنا من غيهم وشرهم، وفكرت في إمام أعتلق حبله، وأكون على بينة من أمري في الدعاء إليه وقد تشبثت في حبال المسودة من بني العباس، واستدعاني أخي المقيم عندهم بمصر وآتتني كتب تكين التركي، صاحبهم بمصر في أول الأمر، يروم ثنيي إليهم واستجلابي نحوهم، فعصمني الله من ذلك باتباع الحق وأخذي برأي الناصح المرشد ، وأصغائي إلى ما أوضح من الأمر حتى علمت ، يا أمير المؤمنين ، أنك أحق الناس بالخلافة ، إنها بيدك ميراث لا ينازعك فيها إلا من دفع الحق وعصى الله ورسوله، فاطرحت الهوادة وآثرت الحق وهربت بنفسي إلى أمير المؤمنين بنية صادقة وبصيرة نافذة، وبرئت من الناس إلا منه، ودفعت الإمامة إلا هو ورجوت أن ينصرني الله تعالى به وعلى يديه، وأن ينظر في أمري وأمر المسلمين من أهل إفريقية المضطهدين النظر المأمول منه، حتى يكشف الله تعالى عنهم ما هم فيه من البلاء والردة، وأن يعزنا الله، معشر زناتة ، بهذه الدعوة الحق المنصورة، حتى ترفعنا على جميع الناس بها، فنكون أولياء دعوتك وأنصار دولتك، فإنك يا أمير المؤمنين ، مولى كل بربري على الأرض، إذ ببني أمية هداهم الله للإسلام ، وعساكرهم هي التي أدخلتهم فيه وأخرجتهم من المجوسية بإذن ربهم، فمن كفر منهم هذه النعمة، فهو كافر بالله ورسوله موليها، ثم لا يقبل الله له صدقا، ولا عدلا، والله ما حابيناك، يا أمير المؤمنين ، بالإقرار لك، إذ وجدنا الحق في يدك والإجماع من الناس على أنك أولى بالخلافة من كل من ينتحل اسمها معك، كذلك يشهد لي كل من تقدم إلينا من المشرق من نواحي إفريقية فكلهم يشكر فعلي ويقر لي بأن الحق معي، وبه أحمد رأي من نصحني، وبالحق عرفني، وعليه حضني حتى تكين صاحب مصر ، فقد رضيه وسره وما ساءه ، فالحمد لله على هذه النعمة الذي جعلني من أهلها ووفقني لقبولها".

ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 265-267.

ملحق (10)

رسالة محمد بن خزر زعيم زناتة إلى الخليفة الناصر الأموي سنة 320هـ/932م، يخبره فيها بتغيير مكان إقامته إلى الساحل حتى يقترب من الشواطئ الأندلسية ، ليسهل عليه تلقي الإمدادات والمساعدات العسكرية والاقتصادية العاجلة ، وتتضمن أيضا أعماله الحربية ضد الفاطميين وأنصارهم الكتاميين، وانحياش أخيه فلفل إلى طاعة عبيد الله المهدي ومما جاء فيها:

" فإن كتابي، أبقى الله أمير المؤمنين ، من بلد الساحل من مدينة ، تسفا، المشهورة بمدينة العلويين وهي مدينة حصينة أولية متوسطة للمراسي التي تقابل مراسي الأندلس، وهي منتظمة بها وقريبة منها، وهي بغربي تاهرت ، دار الفاسقين وقريبة منها، بينها وبينها ثلاثة أيام، وإنما بيننا وبين المراسي أقل من يوم، وإنما ذلك بعد انتقالي من بلد الغوط بالأهل والولد والأصحاب والحشم والعبيد والموالي، وأهل ولايتنا وصنوف رعيتنا وضروب أهل طاعتنا ، والخاصة والعامة لدينا، انتقلنا إليها بقبيلتنا وجماعة من قبلنا ، ولم نخلف بعدنا أحدا من مذكور رجالنا ، وحماة أنصارنا ، وجماعة فرساننا ووجوه عشيرتنا، فهم معنا وبين أيدينا ، لم ينحل لنا نظام، ولا دخلتنا فرقة ، بل جميعنا مستعدون بدعوتك، ومعتصمون بطاعتك، ناصحون لك، محبون لأيامك، ودولتك المباركة ، التي من تمسك بها كان له الأمن والسلامة في دنياه وآخرته، ومن صد عنها وابتغى سبيلا غيرها، نزل الذل والصغار وقارنه الخزي والهوان.

والذي أردت علمه، أبقاك الله ، من خبر خروجنا عن البلد الذي كنا نحله، وسبب انتقالنا عنه، فإنه لم تخرجنا عنه خصاصة ، ولا أزعجتنا مذلة ولا تخوف ولا خزية، ولا تغير حال ولا شدة، وإنما أخرجنا عنه بقضاء الله حبنا الدنو منك، والتسنم لك، لما نحن عليه من حسن الطوية لك، وصدق النية فيك، ومحض المودة لك ، وبجميع من تعلق بك وانتسب إليك، وذلك أنا كنا عن أفقك قبل اليوم نازحين ، وعن مواصلتك شاحطين لابتعاد الدار بنا وانتزاح التنائف بيننا على أن شحط الدار وبعد الشقة ، مما لا يقصي بذي الهمة عن الرمي يهمته، ولا يرد ذا العزيمة عن إنفاذ عزيمته، ولابد لقدر الله تعالى من نفاذ، ولعزائم اقضيته من تمام، وذلك أنا نظرنا، أعزك الله بطاعته، في امرنا إذ لم تمكنا مواصلتك ، والتعلق بأسبابك إلا بالدنو منك، والمجاورة لك والبعاد عن بعدك، فأجمعنا الانتقال بالكلية إلى أطراف أعمالنا وحواشي كورنا من نحو المراسي المنتظمة بجزيرة الأندلس، التي وصفنا لك خبرها ، فلما وردنا البلد بالأهل والولد، أخذنا في جمع العدد لإقامة الأود بتثقيف العوج من أهل المعصية ، الذين كانوا لليهودي مشايعين ، وفي أمره مداهنين ، فحشدنا جميع القبائل التي بإزائنا وكل من اعتصم بطاعتنا وتمسك بأسبابنا، فأخذنا رهائنهم بالمبايعة لك والافتتاح باسمك والخطبة في جميع أهل الساحل إليك وأقبل الناس إلينا من كل جهة فزعين

مرعوبين ، خائفين على أنفسهم ، طالبين تسكين دهمائهم وحقن دمائهم، مستجيبين لدعوتك، والجين على طاعتك معترفين بتقديمنا قديما عليهم وإمرتنا فيهم وولايتنا قديما على جميع لسان البربرية ، حيث كانوا وأين كانوا من نسل زناتة خاصة ، وغيرهم عامة، ولآبائنا من قديم الدهر وحديثه ولا عقابنا من بعد، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك ببركة أمير المؤمنين ودولة آبائه الأبرار والخلائف الطيبين، رضي الله عنهم متألفة والأهواء فيهم مائلة ، والجماعة بهم راضية ، فها أنا الآن يا سيدي ، جاد مجد ، مشمر مواظب في تقويم أود أهل المعصية وتثقيف العوج من جميع أهل العدوة ، وضرب المقبل منهم بالمدبر وحمل المطيع على العاصي، حتى يفتح الله لأمير المؤمنين مشارق الأرض ومغاربها وسهالها وأوعارها وبراريها، وبحارها، بناء على أيدينا وتتصل طاعته، إن شاء الله إلى أقصى العراق ويرد تراث خلافة آبائه الطيبين الأبرار الأكرمين ، إن شاء الله وبه نستعين على ما يتولى وإياه نستحفظ ونستكفي " الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم".

وها نحن، يا سيدنا أعزك الله، عازمون، والعزيمة لله، على الفاسقين بها، والتغيير عليهم ، وقطع المرافق عنهم، وحل عرى اليهودي منها وإبعاد رجسه عنها، وهي كما بلغك من وعورتها وصعوبتها وشموخ أجبلها وأشب شعاريها ، والبربر من قلة البصر ومحاصرة المدائن ومساورة المعاقل ومكابدة الحصون والحيل عليها بحيث تعلمه من العجز عن ذلك، والقصور عن رومه، ولا يقوم بهذا الشأن إلا العرب وذوو الحنكة المحتضرون أصحاب الأسلحة الشاكة والنشاب والعدة ، وأهل الاقتدار على تشييد البناء، وما يصلح النكاية الأعداء ، فإن رأى سيدي أمير المؤمنين ، أن يقوي عبده، الساعي في دولته بأسه ، من ذلك كله، بالذي يرى لنا فيه صلاحا، ولسعينا نجاحا، مما يكون له أوفق، وبنا أرفق من القوة والعدة وأصناف الأسلحة والنشاب والآلة والرماة، وبعض من يحكم سياسية محاصرة الحصون وتكمل حال العساكر الكبار الثقال ، فإن عندنا ما شئت من خيل ورجال ومساعير الأبطال الكماة، ذوي عدة وعدد وباس وجلد، من صنوف العشائر وضروب العساكر والحماة الكفاة والأبطال الكماة، قد نهرناهم لتقليص أطراف اليهودي من تاهرت ، وقصم من مدائن اليهودي ومنابره وأمصاره ومعاقله وصياصيه وقصوره وقراه وكوره وقصي بلاده، حتى يقطع الله اثره ويصرم مدته، بحوله وقوته.

والذي أردت علمه، أعزك الله ، من خبر أخي فلفل هداه الله، في حسده لنا وبغيه علينا وسوء سيرته ونقل ضميره وسريرته، الذي ألبسه الله، رداءها بما اكتسب من معصيتة، وذلك أنه رحل عنا من غير إذن منا ولا مطالعة ولا مشاورة لنا، عند عزمه على الرحيل، أنه يلتمس خصب المرعى لمنافع الماشية، فأبعد النجعة ولم يزل يطوي السباسب والقفار والأودية والمهامة ، متنكبا للحواضر والسبل المسلوكة، حتى ورد أطراف أعمال اليهودي المبدل للدين، الخارج عن ملة المسلمين ،

فنزع إليه، هو وولده وشرذمة معه ممن تبعه وشايعه في أمره وصحبه في غوايته ، فلما وردوا على اليهودي، تلقاهم بالسرور والحبور، ومناهم بالكثير ، وزخرف لهم قوله بالغرور ، فصار منهم كالسرور، يخلف من رجاه ويغر من رآه { **يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه**}.

فارتهنوا عنده أهاليهم وأولادهم، بعد أن أخلف الله ظنهم فيه وخيب رجاءهم ، وصدروا عنه سروجهم إلى نحو الزاب، إلى القبائل بتلك الأطراف من بني مغراوة خاصة ، ليسعوا لهم ويطيعوا أمرهم، فمنهم من رحل الينا هاربين بأنفسهم وأموالهم ومنهم من لم يشتغل بهم، ولم يحفل بأمرهم، وذلك لإدبار ولد اليهودي عنا، ونزول نقم الله به على أيدينا ، ولم ينشب أن ورد كتاب اليهودي إلينا، يذكر فيه نزوع الغاوي فلفل أخي إليه، ورغبته فيما لديه واعترافه بالحق ورجوعه عن الباطل، وحسن قبوله إياه، وكرم منزلته عنده وإعطاءه إياه كل ما سأله منه، وأمله لديه، ويحضني على امتثال فعله، ويندبني إلى الرجوع إليه، ويرغبني في الولوج في طاعته والتمسك بسنته، ويمنيني على ذلك الكثير ، ويعدني بالجزيل ويقول لأنه لا يحاول مني ذهبا ولا فضة، ولا يكلفني نائبة ، غير الافتتاح باسمه، والخطبة في المنابر عليه ، وصرف السكة بذكره، وإرسال أحد ولدي إليه أو بعض أخوتي، ليشيع في الناس أني قد رجعت إليه وصرت في طاعته ، وكل ذلك لم أحفل بكتابه ، وأمرت بجوابه بما نحن عليه من البينة من امرنا والاستئثار ببيعنا، لما قد بلوناه من إفكه وبغيه، وعلمناه من كفره وكيده وقلة وفائه ونقضه لعهده ، فنحن أيدك الله ، لا نقصر في نكايته ، ولأنني في قطيعته وحربه وإدخال الضرر عليه وانتقاض أطرافه واقتناص أهل طاعته ، حتى يمكن الله منه ويقطع دابره، بحوله وقوته، إن شاء الله تعالى".

ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 300-305.

ملحق (11)

رسالة الناصر الأموي، إلى محمد بن خزر ، عميد زعماء البربر الموالين لبني أمية بالأندلس، سنة 320هـ/932م، يعلمه فيها بتجهيزه جيوش الأندلس، لإرسالها إلى المشرق لاستعادة ملك أجداده، وحماية البيت الحرام، ويطلب منه، الاستعداد هو الآخر، ليكون أحد القادة الذين سيتولون قيادة تلك الجيوش ، ومما جاء فيها:

"وإن أمير المؤمنين ، لما تفرغ باله ، ونقضت بالأندلس أشغاله، واكتملت له في أعدائه آماله، ولم يبق عليه فيها بقية يعانيها ولا حال يستعمل رجاله فيها، صرف عزيمته ، وآمال همته إلى ما بين يديه من أسباب المشرق، وطلب ما لم يزل لأوله حقا وله ميراثا، مع ما ينويه ويرجو أن يجري الله أكرومته على يديه، من إحياء الدين بنظره وإماتة البدع بقويم منهاجه، وحماية بيت الله الحرام، المنتكثة حرمته المعظمة، المسلوب ركنه، المغلوب أهله، المعطلة مناسكه ومشاعره وأن يجعل الله أمر المؤمنين حاصراً له، بطلب الجاني عليه بجنايته فيه، ويجدد من مخلق السنن ما درس، ويظهر منها ما انطمس ، على الله يتوكل أمير المؤمنين في جميع ما نواه، وبه يرجو إدراك ما رجاه، إن شاء الله.

وقد أمر المؤمنين بالتأهب والاستعداد بالرجال والأجناد وتخير الكماة وانتقاء الرماة، وتضعيف العدد وتكثير العدد، وتجريد الآلات وتكميل الأدوات ، والنظر في الحاق الحشود بالجنود لميقات معلوم ووقت محدود، وأن يستكثر من جميع المراكب، إلى ما قد قام منها، ويتوسع في عددها لتجهيز الأساطيل المؤيدة في وقت إجازتها ، وعند إمكان البحر لها السير، طائفة منها إلى نحو سبتة ، وأخرى إلى جهة وهران ، فيمن تخيره من وجوه قواده وأعلام رجاله وصميم حشمه وأبطاله، أهل البأس والصبر وحسن البلاء وقوة الخلد، الشارين أنفسهم في مرضاة أمير المؤمنين، والطالبين بحقه، والمستنصرين في نكاية عدوه، ذوي النيات الخالصة ، والبصائر الصادقة والبسالة القائمة، لا يهول أحدهم قرن يناوله، ولا يثني مقنبهم جيش يقابله، كالليوث في إقبالها، والتنانين في التهامها قد مارستهم الحروب ومارسوها ، وساستهم الخطوب وساسوها فهي أمهم بنوها، فاستعد أسعدك الله، وتأهب وشمر وتلبب وكن على انتظار ما يوافيك من أمير المؤمنين وولاته، لتكون صدر القواد كما أنت صدر أولي الوداد، ومتقدما للرجال ، كما أنت صدر الصيال فإن أمير المؤمنين يرجو بالله عونه وعليه توكله ، أن يكون قد قرب الوقت الذي قد رجوت الفوز به والإدراك له وبلوغ الأمل منه، إن شاء الله، عز وجل".

ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 305-307.

ملحق (12)

رسالة محمد بن عون، أحد أمراء المغرب الأقصى ، إلى الخليفة الناصر ، سنة 324هـ/ 936م، يسوغ له حقيقة موقفه من حملة ميسور الفتي سنة 323هـ/935م، ويذكر أن لجوئه إلى ميسور لم يكن سوى ضرورة اقتضتها الحنكة السياسية ، للخلاص من شدة سطوته وسوء عاقبته، لما تقدم من ولاءه السابق للأمويين بالأندلس، ومما جاء فيها:

" اعلم ، يا أمير المؤمنين ، سيدي، أن ميسورا ، عبد اليهودي أبي القاسم، لا يسر الله أمره، قفل عن المغرب لمستهل جمادى الأولى من هذه السنة (324هـ)، منصرفا إلى موضعه، وقد كان أقام على أهل فاس نحو الثلاثة الأشهر ، محاصرا لهم، فلم يعنه الله عنه على ما أمله فيهم، وخيب رجاءه، ورده على عقبه، فلما اجتاز بموضع إبراهيم بن إدريس الحسني، صاحب ارشقول ، خرج إليه ، مداريا له ملاطفا بما عنده، فقبض عليه، وأمر بسجنه ، وصفده في الحديد، واصطلم جميع نعمه، وأغرمه مع ذلك كله ما احتواه ملكه ، وحمله مع نفسه، فمقت العبد الغادر بذلك نفسه إلى كل من سمع به.

وجاءني، أبقى الله سيدي، أمير المؤمنين ، رجاله من عسكره، وغيرهم من أهل المغرب، يخوفونني سطوته ، ويعرفونني سوء مذهبه في وفي بلدي ، وحقق ذلك عندي ما ركبه من إدريس ، وعلمت أننا في الذنب الذي منه سيان ، من ولاية سيدنا أمير المؤمنين فضقت ذرعا بمخالفته ، وهممت ومن معي بالخروج عن بلدنا، وإسلامه إليه، فعدمنا السفن بساحلنا ، وغشينا الفاسق ، فاضطررنا إلى الثبات بمكاننا ، ودنا اللعين منا بعسكره على مقدار بريد منا فلم أر بد من ركوب الغرر في مغالطته والخروج بنفسي إليه ، ورأيت أن احتسابها في خلاص قومي يسير، فخرجت نحوه، بعد أن استظهرت على أمري بمراكب أعددتها لأهلي، وأمرتهم بالدخول فيها والانحياز إلى كنف أمير المؤمنين ، إن سبق العبد اللعين بي إلى حال مكروه.

وصرت إليه متوكلا على الله، مستعيذا به من شره، بعد أن لم أترك عند نفسي لطفا، إلا قدمته بين يدي لقائه، استبلاغا في مداراته ، فتفضل الله علي بالخلاص من يده، وألقى لي الإجلال في نفسه ، مع ما عرفه مما كان مني أولا في النفار عنه، والاستظهار في خروجي إليه مما ادعاه على وجهه ، فغفل الله يده عني، وأقرني على حالي وصرفني إلى موضعي، وحرصني على اشتمالي إلى حزبه ، بعد أن عدد علي ما كان مني في جانب سيدي أمير المؤمنين ، وأعلمني أن خبري قد رفع إلى مولاه من جهات، وحذرني سوء العاقبة ، وذكر لي أمورا يطول بها الكتاب، أجبته عنها بما تقتضيه المداهنة ، فتخلصت منه، ووهب الله العاقبة والحمد لله، رب العالمين".

ابن حيان، المقتبس، شالميتا، ص 385-386.

ملحق (13)

خطبة أعدها الخليفة القائم بأمر الله، وأمر قاضي المهدية أحمد بن عمر بن محمد المروزي، بقراءتها على أنصاره عامة ، والكتاميين منهم خاصة، وذلك أثناء حصار أبي يزيد للمهدية، ومهاجمته إليها للمرة الثالثة في شهر رجب سنة 333هـ/آذار 944م ، ومما جاء فيها:

بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وعلى آله الطيبين (قال):

" أيها الناس، إن هذا اللعين النكاري قد استشرى أشره، واستوبأ مرتعه، وحملته الأماني الغرارة ، والنفس التي هي بالسوء أمارة على أن غمط نعمة الله عليه، وسول له الشيطان الذي هو قرينه إلا غالب له، وإنما أرخى له أمير المؤمنين في زمامه، ليعثر في فضل خطامه ، فلعنه الله لعنا وبيلا، وأخزاه خزيا طويلا ، وصيره إلى نار تلظى {**لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى**} ، وقد علمتم ، يا معشر كتامة ، ما مضى عليه آباؤكم وقدماء أسلافكم من لزوم الطاعة والاعتصام بحبلها، والتفيء بظلها، والمجاهدة في الله حق الجهاد ، وأنكم خبيئة الله لهذا الحق المحمدي الفاطمي المهدي حتى أظهره الله وأعلاه، وجعل لكم فخره وسناه، فأنتم كحواري عيسى وأنصار محمد صلى الله عليه. يا أبناء المهاجرين والأنصار الأولين السابقين المقربين ، أليس بكم أزال الله دول الظالمين التي مضت لها أحقاب السنين ، حتى جعلكم الله تغزون بعد أن كنتم تغزون ، نزل بإزائكم الدجال اللعين في شرذمة ضالة مضلة، لم يستضيئوا بنور هداية ، فهم كالأنعام المهملة والصور الممثلة والخشب المسندة والحمر المستنفرة ، إن أقاموا هلكوا وإن طولبوا أدركوا ، فلا تنكصوا بعد الإقدام، وأنتم حزب الله ، وهم حزب الشيطان، وقتيلكم في الجنة وقتيلهم في النار ، فأي حق بعد هذا الحق تطلبون ومع أي إمام بعد إمامكم تقاتلون ، قاتلوا رحمكم الله أحزاب الضلال، وذئاب الطمع ، وفراش النار، واطلبوهم في نواحي الأرض وأقاصي البلدان وجميع الآفاق حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون".

الجوذري، سيرة جوذر، ص 54-55.

Abstract

"The Role of the Barbaric Tribes in the Political Relationships Between The Fatimites and Omaween in Andalus (297-422 H-910-1031 A.C)"

By

Musa Ahmed Bani Khalid

Supervisor

Dr. Mohammad Abdulqader Khreesat

This study focused on the important stages of political history of both Maghrib and Andalus in the 10th A.C. and 4th Hijri centuries.

The Importance of this study is that it talked about the stand of the tribes of Kutama, Zanata and Sanhaja and their stand towards the establishment of Fatimite Khaliphate in Al-Maghrib.

The study consists of an introduction, analysis of the important sources and references, four chapters and a conclusion.

The introduction dealt with three Barbaric Tribes Kutama, Zanata and Sinhaja and their relationships with each other before Islam. It also focused on the old enmity among these tribes which is reflected on their stands toward Fatimites in Maghrib and Omawites in Andalus.

The first chapter dealt with the stand of Barbaric Tribes toward the establishment of Omawite stage in Andalus 755-910 A.C. 138-297 H. It also focused on the political, ideological, economic causes of struggle between Fatimites and Omawites as well as Shijsm , espionage and defamation.

The second chapter talked about the political relationship between the Fatimites and Omawites between the years 880-986 A.C. 267-357 H. It also focused on the revolution of Omar Hafsoun and his sons in Andalus, who was loyal to Fatimites and the revolution of Musa bin Affiya and his sons in far Maghrib who was loyal to Omawites in Maghrib, the fluctuated relationship of Adarisa with both Fatimites and Omaween.

The third chapter dealt with the enmity between Kutama and Zinata after the establishment of Fatimite Khaliphate 297-361 H/910-972 A.C. and the influence of this relationship on the political situation between Omaween and Fatimites during the reign of both Al-mahdi Billah and Al-qaim Billah and their relationships with both Omaween and Fatimites.

The fourth chapter concluded with the influences of the roles of both Sanhaja and Zinata tribes on the political relationship between Fatimites and Omaween in the years 261-422H. / 972-1031 A.C.